



کتابخانه ملی
مجموعه عربیتا ۱۰۰٪

الطريق إلى السويس

The road to **SUEZ**

تأليف أرسكين تشيلدرز
تعريب خيرى صراد



كتب سياسية

الطريق إلى السوء

بقلم: أرسكين تشايلدرز
تغريب: خيرى حماد

تقدمة العرب

قليلون هم الكتاب الغربيون ، الذين يحاولون في كتاباتهم ، قضايانا العربية ، معالجة موضوعية ، تخلص من الغرض ، وتسمو على الهوى ، اذ أن معظم من يحاولون الكتابة في هذه القضايا من الغربيين ، يكونون في الغالب متأثرين أشد التأثر ، بما لبلادهم من سياسات خاصة تجاه هذه القضايا ، ومالها من مصالح ضخمة في بلادنا ، ولهذا تجيء كتاباتهم دائما ، مفتقرة الى الصدق والى الموضوعية ، ومتحيزة تكاد تنطق بالهوى والغرض والبعد عن الحقيقة .

وارسكين تشايلدرز ، الذي نعرب اليوم كتابه هذا .. « الطريق الى السويس » ، ليس بالغريب على القراء العرب ، فقد سبق لي ان عربت له كتابا آخر ، قبل زهاء عامين ، اسميته « الحقيقة عن العالم العربي » تمشيا مع مضمون الكتاب في أصله الانكليزي ، لا مع مفاهيمي عن هذا « العالم » الذي أومن به وطنا واحدا ، ليعيش فيه شعب عربي واحد ، وقد قدمت لذلك الكتاب قائلا : « عندما قرأت هذا الكتاب في أصله الانكليزي ، خيل الى اننى أقرأ شيئا جديدا ، على الرغم من ان ما فيه من مادة لا تخرج عما أعرفه ، سواء من ناحية السياق التاريخي ، أو تسلسل الحوادث وتطور الافكار والآراء والمعتقدات ، لكن الجديد في هذا الكتاب انه يصدر عن كاتب غربي ، لعل انتماءه الى الأصل الايرلندي الذي جاهد طويلا في سبيل الحرية والاستقلال قد لعب دورا كبيرا في هذه الروح المتجردة التي تظهر في الاجزاء الغالبة من هذا الكتاب . واعتقدت ان من الواجب اطلاع القارئ العربي على هذا الكتاب ، الذي جاء جديدا في طريقة تجرده ، وعدم انحيازه ، ومنصفا في نقله للحوادث والاتجاهات والتيارات ، وصريحا في الحكم على الامور والوقائع » .

ولم تفارق تلك الصراحة وهذه الموضوعية التي لازمت تشايلدرز في كتابه الاول ، ماسرده في كتابه الثاني هذا ، الذي نتولى اليوم تعريبه ، والذي يتناول في صلبه قضية العنوان الثلاثي الآثم على مصر في عام ١٩٥٦ ، مع بحوث تمهيدية شاملة للمقدمات التي أدت الى تلك السياسة العدوانية واستقراء كامل لنتائجها وآثارها ، ولكنه رغم هذه الصراحة ، ورغم تلك الموضوعية ورغم السعى الواقعي وراء الحقيقة المنزهة عن الهوى والغرض ، وقع في أخطاء وهنات رأيت ايضا حها والتعليق عليها في الهوامش ، نازعا الى الاعتقاد ، بأن أخطاءه هذه لم تكن نتيجة تحيز مقصود ، أو غرض خفي ، وانما نتيجة افتقاره أحيانا الى بعض التفهم الكامل لحقائق الاسلام ، وروح القومية العربية الحققة .

ونحن قد لا نوافق المؤلف على بعض الاتجاهات في تفكيره ، بل قد نخالفه فيها مخالفة واضحة وصريحة ، ولكن هذا لا يمنعنا من الحرص على نقلها الى القارئ العربي بأمانة وتجرد واخلاص ، ايمانا منا ، بأن

تشايلدرز وهو الانسان الغربى فى ثقافته وتفكيره ، واتجاهه ، يحمل طابع التحرر كل التحرر فى كتاباته من الآراء الاستعمارية العتيقة ، ومن المصالح الاستغلالية الهسادة الى ابتزاز الثروات والسيطرة على الاسواق ، ومن نظريات التسلط وقواعد السيادة الامبراطورية ، ونحن ندرك أيضا بأن ما يسعى اليه تشايلدرز هو عرض الحقائق على طريقته وطبقا لمفاهيمه مع دعوة صريحة ، يوجهها الى الغرب الذى ينتمى اليه ، لقيام عهد جديد من التفهم لمشاكل العرب ، وأهدافهم وعقائدهم ، والتقدير الكامل القائم على حسن الادراك لنوازعهم وعواطفهم واتجاهاتهم

وقد يحقق تشايلدرز بعض النجاح فيما يهدف اليه ، لكن مثل هذا النجاح ، لا يمكن أن يكون على نطاق واسع ، الا اذا كان هناك أكثر من كاتب كتشايلدرز ، والا اذا تخلى الغرب عن أحلامه فى السيطرة على وطننا ، وفى استغلال مواردها وثرواتها لحساب رأسماليته الجشعة ، وتوقف عن دعم العمالة من ممثلى الرجعية فى البلاد العربية الذين يستخلصهم ستارا يختفى وراءه ، وينفذ مصالحه وأهدافه الاستعمارية ومثل هذا التطور بعيد الاحتمال كل البعد فى الوقت الحاضر على الأقل طالما ان للاستعمار مصلحة كبرى فى دعم اسرائيل وحمايتها ، بعد ان تولى خلقها فى الوطن العربى ليدق أسفينا فيه ، ويعمل عن طريقها على متابعة خطته فى تجزئة هذا الوطن لضمان مصالحه .

والمؤلف كاتب ايرلندى متحرر ، كتب فى عدة صحف بريطانية ، ويعالج مختلف القضايا والمشاكل الافريقية والآسيوية ، ويعمل فى التعليق ، فى الاذاعات البريطانية الداخلية والموجهة ، على الاحداث الدولية وهو فى كل ما يكتب ويذيع ، يجتهد ان يكون موضوعيا بعيدا عن التحيز والهوى والغرض .

وهو ايرلندى ، درس فى مدارس دبلن وكلياتها ، ثم واصل دراساته الجامعية فى الولايات المتحدة الامريكية وقد طاف بمختلف أرجاء الشرق الأوسط وافريقية وآسيا والامريكيتين الشمالية والجنوبية ، ومازال والده على قيد الحياة ، ويشغل منصبا وزاريا فى حكومة ايرلندا .

أما الكتاب الذى نتولى تعريبه الآن ، فيتناول مشاكل الوطن العربى ، مع التركيز على العدوان الثلاثى وأزمة السويس . وهو يستهله واضعا أمامه سؤاله .. « ما الذى وقع ابان أزمة السويس فعلا ؟ » ثم يمضى محاولا الرد على هذا السؤال ، ومقدما الى قرائه القصة الكاملة ، وهى فى محتواها ومدلولاتها أكثر تشابكا وايضا مما عرفه العالم عن هذه القصة حتى الآن ، ولا سيما بالنسبة الى ما يكشفه من أسرار وخفايا عن الادعاءات التى أوردها ايدن فى مذكراته :

ولعل أبرز ما فى هذا الكتاب من محاولة ، انه يحاول الربط بين أزمة السويس وبين واقع السياسة الاستعمارية فى الوطن العربى فيصور العدوان الثلاثى على أنه جزء من الخطة الشاملة التى اصطبغت بها علاقات الغرب بالوطن العربى ، منذ نشأت هذه العلاقات حتى تمثلت فى محاولة السيطرة الغربية على العرب . ولا ريب فى ان هذا الربط ، يعتبر تفهما من جانب المؤلف لحقيقة مشاكلنا المعاصرة .

ولعل خير ما ختم به تقدمتى هذه ، التأكيد بأن هذا الكتاب جدير
بالقراءة لما فيه من وضوح وصراحة أمل أن أكون قد وفقت في عرضهما
على القارئ العربى . والله ولى التوفيق .

القاهرة ٢٦ أكتوبر (تشرين الاول) ١٩٦٢

خيرى حماد

الإهداء

الى زوجتى سونيا :

التي شاركتنى كل شيء ، وفطعت معى فى غضون خمس سنوات
أكثر من ثلاثين ألف ميل ...

والتي عاشت معى أيام الخير .. وأيام الشقاء ...

فتأملت معى فى المجاهل والصحارى ...

ودفنت نفسها معى فى أكوام الكتب ...

وسارت معى كل شبر من الطريق ...

لأنها آمنت بما أؤديه من رسالة .

هى . بى . سى

مقدمة المؤلف

انقضت خمس سنوات قصار ، مذ عاش العالم ، أزمة تعتبر من أخطر الأزمات التي مر بها بعد انتهاء الحرب العالمية الأخيرة ، وقد اهتزت بريطانيا من هذه الأزمة التي أصابتها بالتشنج ، والتي أنهت بصورة مباغتة وفجائية ، الحياة السياسية الطويلة البارزة لرئيس وزرائها ، وعرضت حكومته لقرار الأداة الذي أصدرته غالبية العالم . وكان ثمن هذه الهزة ، على صعيد المال وحده ، خسارة نفق لمانتير والخمسين مليوناً من الجنيهات ، ولم تعوضها ، وتنقذ البلاد من كارثة تدهور جنيهاً ، إلا القروض الأمريكية العاجلة . وانطوت الأزمة كذلك على بعض الاتهامات الخطيرة للغاية ، والتي لا يمكن للإنسان أن يتصور نوجيها إلى حكومة ديموقراطية ألزمت نفسها بالحفاظ على السلام ، والولاء لميثاق الأمم المتحدة .

ومع ذلك تظل أزمة « السويس » ، أخطر ما شهدته أواسط القرن العشرين من أزمات ، وأسوأها تفسيراً ، وأصعبها على التبرير . حقا هناك أزمات أخرى ، لم يعرف تاريخها الكامل بعد ، ولكن هذه الأزمات ، وبينها بالطبع حصار برلين وحرب كوريا ، تنطوي على أسرار حافظت طبيعة الحرب الباردة على خفاياها ، وتحتم على العالم أن ينتظر التوصل في المستقبل إلى دقائقها بعد الكشف عما في موسكو وبكين من وثائق . لكن أزمة « السويس » متفردة في طبيعتها ، إذ أنها لا تنطوي على أية أسرار حقة ، ومع ذلك لم يشعر المسئولون عنها ، بأن الواجب يحتم عليهم إجراء تحقيق رسمي فيها ، وتمكنوا بالفعل ، بعد انقضاء أقل من ثلاث سنوات عليها ، من الفوز في انتخابات ، استبعد موضوع السويس عن منابرها الخطابية . وعلى الرغم من الحقيقة الواقعة ، وهي أن ثمة دلائل قوية ، كافية تشير إلى سلوك ينجل منه الكثيرون من البريطان ، إذا ما ووجهوا به مواجهة جلية واضحة ، فإن ثمة حقيقة أخرى لا يمكن نكرانها وهي أن بريطانيا في مجموعها ، قررت عزوفها عن معرفة ما ارتكب باسمها في أواخر عام ١٩٥٦ .

ولقد جهدت في هذا الكتاب أن أعرض القصة الكاملة لهذه القضية الغربية الشاذة ، ليطلع عليها ، على الأقل ، أولئك الذين يمقتون مجرد الفكرة ، في أنهم عاشوا جزءاً من عام من أعوام حياتهم ، في بلد ديموقراطي وكأنهم على مسرح لم ترتفع ستارته بصورة كاملة ، وإنما ظلت نصف مرفوعة . وحاولت أن أمضي إلى أكثر من مجرد محاولة البحث والتنقيب عن الحقائق المتعلقة بأحداث الفترة الواقعة بين يوليو (تموز) ونوفمبر (تشرين الثاني) من عام ١٩٥٦ ، في كل من لندن وباريس وواشنطن والقاهرة وتل أبيب . فأزمة السويس في منتهى الأهمية ، ولا يمكن

فهمها والحكم عليها حكما صحيحا ، ألا على اعتبار أنها التعبير العسكري النهائي ، عن الصراع في العلاقات المصرية - الغربية ، بعد أن ظلت سحب هذا الصراع تتجمع سنوات طويلة قبل عام ١٩٥٦ . لكنها لم تضع نهاية لهذا الصراع وقد انقضى عاوان آخراا عليها ، قبل الوصول الى النقطة التي لاردة فيها ، والتي تمثلت في ثورة بغداد في الرابع عشر من تموز (يوليو) عام ١٩٥٨ . ومع ذلك وحتى بعد هذا التاريخ ظلت علاقات الغرب بهذه المنطقة التي تضم خمسة وثمانين مليونا من الناس ، مختفية وراء سحب من الصراع الذي لم تقرر نتيجته بعد ، ومن الشكوك المتباطئة المتأنية ، والافكار المسيطرة المتسلطة .

وهكذا حاولت أن أعرض في هذا الكتاب ، أسرار السويس التي لا أستطيع أن أسميها إلا نصف أسرار ، ضمن هذا الاطار الاكبر اتساعا والاكثر أهمية ، والاقدم عهدا ، وعلى هذا الاساس وحده ، أجرؤ على الاعراب عن أملى في الا يدرج كتابي هذا ضمن « قائمة الكتب » التي وضعت عن السويس مجرد ادراج سطحي ، وكللى أمل في أن يعرض ردودا اكمل لأسئلة مختلفة عن حقيقة ما وقع في غضون تلك الأشهر العجيبة من عام ١٩٥٦ كما آمل أيضا في أن يساعد على ايضاح ما وقع من « أخطاء » في السياسات الغربية في الشرق الأوسط بمجموعه ، واوصل تلك السياسات الى حالة التحطم الكامل ، التي شهدتها بغداد في عام ١٩٥٨ ، وكذلك على تصوير المشاكل المستمرة التي يواجهها العرب أنفسهم ومع الغرب أيضا .

وقد كتب القسم الاكبر من هذه القصصة على النحو الذي يفكر فيه العرب ، ومتأثرا بالمحيط الذي يعيشون فيه . ولكن في الوقت الذي كنت أحاول أن أبسط وجهة النظر المصرية ، توخيت أيضا أن اجمع الآراء والصور التي كونها نحن في الغرب طيلة قرون طويلة عن العرب وان ابرز تأثيرها على السياسات التي اتبعناها معهم .

وأرى من الخير أن أوضح للخبراء في هذه القضايا ، أنني لم أحاول في هذه الصفحات أن أعالج جميع قضايا الشرق الأوسط على نحو تفصيلي متشابه ، أو أن أسجل الأحداث طبقا لتسلسلها التاريخي . فهناك كتب عدة مشهورة ، تعرض السجل الكامل للأحداث في كل بلد من البلاد . وكان هدفي على النقيض من ذلك ، متابعة التيارات الواسعة للتاريخ المعاصر ، مركزا بالتفصيل على الأحداث البارزة ، وعلى مشاكل هذه البلاد ، التي كانت مسرحا للآزمات الأخيرة .

وتعنى كلمة « الشرق الأوسط » في هذا الكتاب ، الاجزاء الوسطى والشرقية من الوطن العربي ليس الا ، مستثنيا منه البلدان غير العربية التي يشملها الاصطلاح من الناحية الاكاديمية ، كتركيا مثلا . وأرى لزاما على من الناحية الاخرى ان أحدد ما أعنيه بكلمة « الغرب » في هذا الكتاب ، أنها تشمل مجموعة من الشعوب والحكومات . بل تشمل حكومات أكثر ذات سياسات أكثر تقاوتا مما يعنيه المعنى العادى العام لهذه الكلمة . وقد حاولت أن أستخدم هذا التعبير كمجرد تعميم ليس الا ، بالنسبة الى العرب ، في حدود ما يمكن تسميته بالمجموعة الثقافية

أو المنطقة الجغرافية ، اللتين تتأثر أوضاعهما تجاه الحرب تأثرا
كاملا بما تقوم به الدول الغربية من أعمال • أما الدول الغربية التي أعنيها
بهذه التسمية ، فهي في جميع الحالات : الولايات المتحدة وبريطانيا
وفرنسا ، كما أن ما أعنيه بعبارة « السياسة الغربية » هم سياسة
هذه الدول الثلاث •

وانى لأتحمل أخيرا مسئولية كل عبارة وردت في هذا الكتاب ،
وكم تمنيت لو قرأته أرملة جدى الذى لم أعرفه قط •

لندن - نوفمبر ١٩٦١

لوسكين تشايلدز

ومسمع ذلك ، فلن أفرق تلك الخطيئة المؤلمة ، من ففد ايمانى
بالانسان . واني لاؤنر ان تطلع ، الى استهلال فصل جديد فى التاريخ
لشرى ، بعد أن يكون الطوفان قد انتهى ، ويكون الجو قد تطهر بروح
من العمل والتضحية .

» وقد يبرز ذلك العجر من هذا الافق ، من الشرق ، حيث تشرق
الشمس . وسيحل اليوم الذى يتابع فيه الانسان الذى لا يفهم طريق
موجاته مسخيا جميع العوائق والموانع . لسعيد نرائه الاساسى
الضائع ، .

رسالة رابندرات ناغور الأخيرة

الطريق إلى السويس

الفكرة العربية عن العرب

« على الرغم من أن الغالبية العظمى لا تمت من الناحية العنصرية الى الدم العربي ، الا أنها اندمجت في تيار النعريب ، وأضحت أخلاقها وتقاليدها تحمل الطابع العربي ، وأصبحت . ولعل هذا هو الأهم . ناطقة باللغة العربية »

جورج انطونيوس في كتابه «يقظة العرب»

« كانت القومية التي نمت نتيجة الانصال باوربا ، ناصيلا لعقيدة الشخصية القومية المستقلة . . . وهي في الوقت ذاته ايمان بطراز من الاخوة الروحية ، التي تربط الشعب بوشائجها لتتألف منه الامة »

مادهو بانيكار في كتابه «آسيا والسيطرة الغربية»

نشأت في القرن التاسع عشر ، ومستهل القرن العشرين ، مع توسع الامبراطوريات الأوروبية ، ونوطيد أقدامها في العالم العربي - الآسيوي ، فكرة معارضة ، لدى الشعوب التابعة ، تنطوي على الرعم من كتمانها على الخطورة المتناهية . وقد فات حتى الآن الوقت الكافي لتمكيننا من تعريف هذه الفكرة وتحديدتها تحديدا ايجابيا لا تردد فيه فهي منبئة عن التلاحم بين أربع قوى ، أولاها الوعي الجديد ، عند الشعوب الآسيوية والعربية بتراثها التاريخي الذي تستطيع أن تهاجر به وتزهو ، وثانيتهما المقاومة الجوهرية للمحكم الاوربي الاحسى ، وثالثهما الاعجاب العظيم والرغبة في التعرف الى أكثر ظاهرتين في الحضارة الاوربية الحديثة استهواء للنفس ، وهما التفوق في حرية السياسة والتفوق في التقنية (التكنولوجيا) ورابعتهما وآخرها المفاهيم الجديدة في هذه الحضارة عن القومية . وقد أوجز البانديت نهرو هذا المنظور بالنسبة الى الهند في العبارات التالية :

« كانت يقظة الهند مزدوجة الاتجاه ، فهي تتطلع الى الغرب ، ولكنها تتطلع في الوقت ذاته الى نفسها والى تاريخها ، (١)

ويصح هذا القول أيضا ، على المنطقة التي نلقبها الآن « بالعالم

(١) اكتشاف الهند لجون داي - نيويورك ١٩٤٦

العربي ، ، والتي خبرت عدوان الغرب الضخم في النواحي العسكرية والدبلوماسية والسياسية والتجارية ، وهو عدوان يحق لنا ان نعود بتاريخه الى نزول نابليون في مصر عام ١٧٩٨ . وقد انقضت قرون عدة على انتهاء عصر العرب الذهبي ، عندما كانت فرطية « جوهرة العالم » ، وكانت مكاتب بغداد ومراكزها التعليمية ، ودراساتها العلمية تثير اهتمام أوروبا وتفيد منها كما أثارت ثورتنا الصناعية فيما بعد العرب وافادتهم . وقد اختفت الامبراطورية العظيمة التي أقامها الزحف العربي الرائع ، منطلقا من شبه جزيرتهم النائية بين عامي ٦٣٤ و ٧٣٢ ميلادية والتي امتدت من حوض اللوار في فرنسا حتى حوض السند في الهند . وأدى الانحلال الداخلي وحملات الصليبيين وهجمات السلاجقة الاثراك ومنغول جنكيز خان الى اضعاف الوطن العربي ، الى الحد الذي دفعه الى الازعان لتوسع الاثراك العثمانيين بين عامي ١٥١٧ و ١٥٦٦ .

لكن العرب استطاعوا الحفاظ طيلة هذه القرون من التدهور والحروب والغزو ومن ثم طيلة قرون السيطرة الاستعمارية العثمانية ، على تراث بارز كل البروز . فلقد حملوا معهم من الجزيرة العربية لغة غنية كل الغنى بالخيال الواسع . ولما كانت هذه اللغة ، هي لغة امبراطوريتهم واسلامهم ، فلقد غدت والحالة هذه ، المستودع الحقيقي لكل ما في العصر الذهبي من تقاليد . وباتت اللغة العربية بصورة لا تضارعها لغة أية امبراطورية أخرى طيلة الالفى سنة السابقة ، متأصلة تأسلا عميقا عند جميع شعوب الامبراطورية العربية من سواحل افريقية الشمالية الغربية على المحيط الأطلسي حتى الخليج العربي . وغدت كذلك لغة التخاطب المشتركة حتى عند الشعوب التي لا تدين بالاسلام ، من مسيحيين ويهود . ولم تكن قوة هذا التراث الهائل واضحة في بداية القرن التاسع عشر حتى عند وارثيه ، بل ظلت هاجعة ، وكأنها بذرة تنتظر الانبات والبروز . ولم يكن الناطقون بالعربية يعتبرون أنفسهم « عربا » من الناحية القومية ، وانما كانوا يميزونها بالمقاطعات التي ينتمون اليها ، أو بالمدن التي يعيشون فيها ، أو بالقبائل أو الطوائف الدينية المستقلة التي يؤلفون جزءا منها ، وركدت الدراسات في اللغة العربية كما تحول علماء الفقه الى شيء من التزمت الذي حملهم على التمسك بالتقاليد تمسكا صارما . ولكن « اللغة » ظلت على حالها ، بكل ما لها من طاقات قوية ، قوة من قوى التوحيد بين فئات الشعب المتباعدة ومصدرا من مصادر بعث اهتمام هذه الفئات بتراثها المشترك .

ولم يكن من قبيل الصدفة العارضة مطلقا أن السائحين الاوربيين الذين وفدوا الى هذه المنطقة التي سيطر عليها الجمود في مطلع القرن التاسع عشر قد تمكنوا من رؤية ما عجز أهلها عن رؤيته حتى ذلك التاريخ وفي وسعنا أن نضرب مثلا كاستهلال لليقظة العربية الحديثة، بالتقرير الذي قدمه القس وليام جراهام ، عضو البعثة التبشيرية الانكليزية البروتستانتية الذي زار الشرق الأدنى عندما شرع هذا الشرق في يقظته، ولم يكن في وسع هذا القس نفسه أن يعرف مدى مافي أقواله من صدق « التكهّن والتنبؤ بالغيب اذ قال :

« يحتاج الشرق أكثر ما يحتاج الى صحيفة جيدة تصدر باللغة

العربية .. والعرب شعب فطن مضياف تواق الى المعرفة ، اما الحكومة القائمة في دمشق ، فليست الا حكومة غريبة يعتبرها الشعب اجنبية ، شاذة ، مكروهة ، تماما كما ينظر شعب لندن الى اية حكومة فرنسية تقوم في ربوع بلاده . ولو تمكن هذا الشعب من تحطيم الاغلال الفكرية والبدنية التي تكبله ، فستنطلق بين شعوب الشرق المتبلدة ، قوة دافعة هائلة من سباتها ، تستطيع عن طريق العلم والادب والثقافة العامة ، ان تمهد الطريق الى مستقبل مجيد مشرق .

ولكن هذه المياه اراكدة ، ما زالت حتى الآن مفتقرة الى الحافز الذي يحركها ، (١)

ولكن هذا الحافز ما لبث أن تولد في نفس الوقت الذي طبع فيه كتاب القس جراهام هذا . ولا يثير صدور هذا الحافز عن الغرب دهشة تزيد عن الدهشة التي أثارها حديث الرجل عن العرب كأمة واحدة (٢) ، فلقد نشأت مع التنافس بين الدول الكبرى على السيطرة الاستراتيجية ، والتوسع الاقليمي ، والاسواق التجارية ، رغبة عارمة لدى عدد صغير ولكنه متزايد باستمرار ، من المفكرين العرب ، للتأثر بالافكار الغربية السياسية ، وراحوا يفكرون فيما يعنيه حب الوطن الظاهر في فرنسا ، وما تحمله عبارة « الأمة » التي « استصرخها » نابليون في المشغولات التي وضعها باللغة العربية ووزعها عند وصوله الى أرض مصر ، من معان عميقة . وسار هذا التطوع الى المعرفة ، جنباً الى جنب ، مع الوعي الجديد بالتراث العربي ، نتيجة المدارس الجديدة التي فتحتها الحكام المحليون التواقون الى مجازاة عصرية الغرب ، أو البعثات التبشيرية الغربية في هذه البلاد . واستخرجت المخطوطات العربية القديمة بعد نفض الغبار عنها من المحفوظات المنسية ، وانهمال على المنطقة فيض متدفق من الافكار العنيفة التي حملتها كتب الغرب ، والتي خلقتها الثورة الفرنسية وثورة امريكا ، ووتبة ايطاليا في سبيل تحررها من الاستعمار النمساوي ووحدها ، وكتابات ادموند بيرك Burke (٣) وثورة بريطانيا الصناعية ، وشرع الباحثون المسيحيون من العرب في البحث عن شخصية سياسية عربية ، تتفوق على الاعتبارات الدينية ، بينما حاول اخوانهم من الباحثين المسلمين ، ايجاد أوجه الشبه بين عبارة « القومية » الفرنسية وبين لفظ « الأمة » الذي وعوا معانيه في ثقافتهم القديمة .

-
- (١) كتاب « الاردن والراين » للقس وليام جراهام . لندن ١٨٥٤
(٢) اعتقد ان المؤلف قد أخطأ هنا في تعليل أسباب الوتبة العربية فقد أرجع حافزها الى التأثير الغربي ، بينما لا يعدو هذا التأثير ان يكون عاملاً مساعداً ليس الا ، اذ أن وثبات الشعوب تعود في حقيقتها الى الحتمية التاريخية والواقع المادي والتمسك بالتراث التاريخي - المعرب (٣) بيرك ادموند (١٧٢٩ - ١٧٧٩) سياسي بريطاني مشهور ولد في دبلن عاصمة ايرلندا الحالية حيث كان والده يعمل محامياً ، ودرس هو أيضاً الحقوق ومارس المحاماة . وغداً نائباً في مجلس العموم البريطاني . من أول المفكرين الانكليز الذين انتقلوا في بحثهم عن حل =

ولكن الغموض والابهام ظلا يلفان هذا البحث المفرط عن طراز الشخصية الجماعية التي رأى فيها هؤلاء المفكرون العرب ضرورة حيوية لهم لمجاراة الدينامية الغربية الجديدة . ولم تخرج النتائج التي توصلوا اليها في البداية عن حدود الاحكام الاختبارية الماتعة . واختلطت عليهم التعبيرات السياسية الاوربية عند ترجمتها الى العربية ، لعدم وجود مرادفات دقيقة لها في العربية . فهناك كلمة « وطن » ، ولكنها لا تعنى الا المكان الذي يعيش فيه الانسان . وهناك كلمة « قوم » وهي كلمة عربية قديمة تعود الى أيام البداوة في الصحراء ، ولا تعنى الا « الجماعة القبلية » التي كان ابن البادية يعتبر نفسه جزءا منها ، حينما عاش هو أو عاشت جماعته . وكانت ثمة كلمة « أمة » ، ولكنها كانت تعنى آنذاك « جماعة المؤمنين » ، وتمتد الى اصقاع نائية لنشملهم خارج حدود البلاد العربية ، أى في البلاد التي امتدت اليها رسالة العروبة الاخرى ، وهي الاسلام ، ونشرت جذورها الفوية فيها (١) .

واذا كانت التعابير قد خلقت متاعب للمفكرين القوميين العرب ، فان أوضاعهم السياسية والجغرافية لم تكن أضعف أترا من خلق هذه المتاعب لهم ، وذلك عند البحث عن تعريب القومية في المفاهيم الغربية فأين هي الحقائق الجغرافية لمنطقتهم التي يستلزمها تعبير الدولة القومية ؟ لم تكن هناك بالفعل الا بعض الحدود الطبيعية المائلة للحدود التي لا غنى عنها في تعيين الدول القومية الأوروبية . ففي كل ناحية من النواحي تنساب المدن والارض المزروعة لتذوب وتختفى أخيرا في الصحاري المتمردة التي لم تذلل بعد ، ولم تكن الحدود الصورية الارادية القائمة الا أداة لتحقيق أغراض الجزية والضريبة ، ولا تحمل أى معنى من معاني القداسة أو الكرامة التي تحملها حدود الدول القومية . فكيف يمكن والحالة هذه الربط بين السلطة السياسية الفعلية في الشرق الاوسط وبين الكيان القومى ؟ كانت مصر شبه مستقلة تحكمها أسرة محمد علي ، ولكنها ظلت اسميا على الاقل اية من ايلات الامبراطورية العثمانية التي لا تحمل الطابع العربى وانما تمتد أيضا الى القارة الأوروبية نفسها . وازداد مع مرور حقب القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين مافى مشكلة السلطة السياسية من تعقيد بدلا من

= المشاكل السياسية والاقتصادية من الخيال الى الواقع المادى . من أشهر مؤلفاته « تاريخ انكلترا » و « ملاحظات على الوضع الراهن للأمة » و « افكار حول النعمة الراهنة » و « رسائل الى جونيوس » - (المغرب) . (١) اذا كان العرب قد تأخروا في تحديد التعابير « للمفاهيم القومية » ، فان السبب في ذلك لا يرجع الى عدم وجودها في لغتهم ، بل الى تأخر لغتهم القسومية حتى القرن الأخير ، ويبدو أن المؤلف قد نسي ان هذه التعابير نفسها لم تكن موجودة في الغرب قبل عصر الثورة الفرنسية أو عصر النهضة على أكثر تقدير ، وان الامبراطورية الرومانية المقدسة التي عاشت قرونا طويلة في أوروبا في القرون الوسطى ومستهل العصر الحديث ، كانت تشمل عددا من الوحدات القومية الحالية كالألمانيا وأسبانيا وهولندا وبلجيكا وإيطاليا والمجر وغيرها . المغرب

أن ينقص أو يضعف . فلقد اغتصبت أيدي الفرنسيين الجزائر منذ عام ١٨٣٠ ، ولحقت بها تونس في عام ١٨٨١ ، واحتلت بريطانيا مصر في عام ١٨٨٢ ، ثم ما عتمت ان الحقت بها السودان في عام ١٨٩٨ ، وغزت إيطاليا الأراضي الليبية في عام ١٩١١ ، وتحول المغرب (مراكش) الى محمية فرنسية في عام ١٩١٢ ولكن مع توالي ظهور هذه الأدلة على السيطرة الغربية ، تضخم البحث عن مفهوم سياسي يحمل طابع التوحيد والثورية . وقد تزايد عدد المنهجين من جراء تدفق طلائع الصحف العربية والمجلات والكتب الحديثة من مطابع مصر وسورية . واسأثرت هذه المناقشات العقلية بأفكارهم .

ولقد رأينا هذا التلاحم بين اعتزاز المرء الجديد بـماضيـه ، وبين سعيه الحديث للوصول الى الشخصية القومية . يبرز أيضا كل البروز في الهند ، وأراد ماكولي (١) أن يجعل قوة السيد البريطاني (المهرجا) مستمدة كما استمد «أخيل» قوته من كعب قدمه (٢) من طريق ادخال نظام جديد من التعليم الغربي يهدف الى خلق طبقة من « الهنود البريطانيين » الموثوق بهم . لكن هذا النظام أدى في الحقيقة الى تغذية الشعور القومي عند الهنود (٣) ولكن يجب علينا على الفور . وكأمر في منتهى الأهمية اذا اردنا اعداد المسرح الصحيح لدراستنا هذه . ان نوضح ان نمة فرقا عظيما يبرز بين التجربة في الهند . والتجربة العربية . فهناك أي في الهند سلطة استعمارية شاملة وواحدة وواضحة تسيطر على شبه قاره محدوده المعالم اما هنا في الوطن العربي . فعدة دول غربية تجزىء هذا الوطن وتقسمه الى مناطق مختلفة السيطرة . وبينما ركز الهنود ، حتى دون وجود رابطة لغوية مشتركة تربطهم . نزوعهم القومي ضد « عدو » واحد واضح . في أرض ذات حدود طبيعية بيئة ، نرى الشعوب العربية مرغمة على تركيز نزوع قومي أقل نلاحما ضد « أعداء » متعددين وضمن حدود لا معنى لها في العرف الطبيعي .

(١) البارون توماس ماكولي (١٨٠٠ - ١٨٥٩) مؤرخ وسياسي بريطاني مشهور درس في جامعة كامبردج ، وعمل في الصحافة حقبة من الزمن اشتهر أمره فيها ككاتب معروف انتخب عضوا في مجلس العموم عام ١٨٣٠ ، تولى الوزارة أكثر من مرة ، وأصبح عضوا في مجلس الهند الاعلى ومن أشهر كتبه تاريخ انكلترا الذي يعتبر في طبيعة الكتب الادبية والتاريخية .

(٢) أخيل بطل الألياذة الاسطوري في أدب الاغريق . وصف بأنه الانسان الذي لا يفهر وقيل انه كان يستمد قوته من قدمه التي أمسكت بها أمه ثيتيس عندما غطسها في نهر ستيكس لمنحه القوة .

(٣) سعى الاستعمار البريطاني طيلة حكمه للهند . جاهدا لاضفاء الطابع البريطاني على الهنود ، ولكن الشخصية القومية الهندية ، قاومت جميع هذه المحاولات وتغلّبت عليها ، لتحقيق ارادة التاريخ وحتميته .
(العرب)

وفى وسعنا أن نرى الفرق واضحا حتى قبيل الحرب العالمية الاولى. فمنذ احتلال البريطانيين أرض مصر عام ١٨٨٢ ، تركز الفكر القومي والطاقة الثورية في مصر على الوجود البريطاني في أرضها . أما في المشرق العربي فقد تركزت الطاقة القومية من ناحية أخرى ضد السيطرة التركية العثمانية ولا سيما بعد أن عطل السلطان فجأة الدستور الذي وضعه مدحت باشا في عام ١٨٧٦ ، ويمكن رؤية ما في هذا البون الالزامي. المفروض من مغاز كاملة ، بإبراز نقطتين أخريين . فلقد علق المصريون في مرحلة من المراحل آمالهم في مناهضة بريطانيا على عون القسطنطينية العثمانية ، التي كان القوميون في الشرق الأدنى يحاولون مناهضتها ومقاومتها (١). ومع ذلك كانت اللغة التي يتكلم بها الشعب في هذين الجزئين من الوطن العربي طيلة هذه المدة ، هي العربية ، كما كانت المقالات التي تنشر والتي تعبر عن طرائق التفكير فيهما ، عربية أيضا . وعلى الرغم من أن قومية محدودة المقومات وذاتية المحتوى ، كانت آخذة في النمو في مصر ذلك الحين ، إلا أن مصر نفسها كانت تخطو خطوات واسعة في تطوير الصحافة والطباعة العربية وصناعة النشر والاعلام.

وقدر لهذه النزعة القومية المجزأة الهدف (٢) ، والتي كانت لا تزال تبحث عن أسسها العقائدية الدائمة والنهائية ، ان تظل قائمة ، عدة. حقب أخرى ، وان كان « المقام » المشترك المتمثل في اللغة والتقاليد العربية ، ظل يفرض نفسه في كل ميدان من ميادين النشاط الانساني باستثناء العمل السياسي . وهنا تبدو المفارقة الساخرة ، بين ما قاله الزعيم الوطني المصري ، سعد زغلول ، لندوبى المشرق العربى فى مؤتمر فرساي فى عام ١٩١٩ من أن « مشكلتنا مصرية وليست عربية » (٣) ، وبين ما كتبه فى نفس العام فى مصر نفسها الدكتور عبد الوهاب عزام اذ قال :

« ان هذا الأدب الذى نقرأه وندرسه ونحفظه ، ونستمع اليه ، ونستمتع به ونفخر — هذا الادب الذى نربى أبناءنا عليه ، والذى نأخذ من فضائله مثلنا ، ومن رذائله عبارات قذفنا ... هذا الأدب الذى

(١) اعتقد ان المؤلف قد غالى فى تصوير هذا كل القلو ، واذا كان قد وقع شيء من التقارب ابان الحرب العالمية الاولى بين المصريين والعثمانيين ، فمردها التقارب الى سبب واحد ليس الا ، وهو أن كليهما كان يناهض عدوا « مشتركا » وهو انكلترا التي كانت قد سلبت مصر حريتها .

(٢) لم تكن هناك تجزئة فى الهدف مطلقا . فالهدف واحد ، وهو مكافحة الاستعمار سواء أكان هذا الاستعمار بريطانيا أم تركيا .

(٣) لا يمكن أن يفهم من قول سعد زغلول . ان مصر كانت تعتبر نفسها فى عزله عن العرب ، وما أفهمه منه ، لا يعدو أن يكون تركيزا آنيا على مشكلة التحرر من الاستعمار . واذا كان قد وجد فى وقت ما بعض التجزىء فى الحركات النضالية ، فان الجريرة فيه تقع على الاستعمار الذى عمل جاهدا على عزل هذه الحركات عن بعضها . - (العرب)

نرجس اليه كمرشد في السراء والضراء . . . هو حقا الأدب العربي -
أدبنا - دون سواه » (١)

وقد انقضى نحو من ثلاثين عاما ، قبل أن تتفجر هذه الأهمية
الكاملة للقاعدة الثقافية العربية في مصر المعاصرة ، لتفجر المسرح السياسي
في الشرق الأوسط . وعندما تفجرت ، لم تتمكن الدول الغربية التي
عادت نفسها على أن ترى مصر « مصرية » ليس الا ، من تفهم حقيقة
ما حدث تفهما كاملا .

وعندما اندلعت نيران الحرب العالمية الأولى ، كان الهدف الأساسي
في التحرر من كل حكم أجنبي ، قويا في جميع أرجاء الشرق الأوسط
حتى ولو لم يكن المذهب العقائدي الذي تستند إليه هذه الحرية قد
اتضح بعد . ولكن هذا الهدف كان قويا الى درجة كافية لحمل الوطنيين
في كل من مصر والشرق الأدنى على أن يجدوا التشجيع لهم . من وعود
الحلفاء بتقرير المصير ، فلقد أبلغت بريطانيا المصريين في البيان الذي
أصدره جرانفيل (٢) في عام ١٨٨٣ ، أن احتلالها لمصر ليس الا مؤقتا
وبات من حقهم والحالة هذه أن يتوقعوا على ضوء هذا العهد البريطاني
القديم ، وعلى ضوء وعود الحلفاء الجديدة بتقرير المصير ، أن يتحرروا
في نهاية هذه الحرب التي أجبروا على الاشتراك فيها دون أن يؤخذ رأيهم
فيها . أما في المشرق العربي ، فإن الوطنيين الذين كانوا قد ركزوا
آمالهم على ثورة جماعة « تركيا الفتاة » ضد السلطان ، فقدوا هذه
الآمال الآن ، بعد أن تبين لهم ، ان هذه الجماعة قد شرعت الآن
أيضا في مكافحة مطالبهم في الحكم الذاتي ، بالعنف والقوة . وأحس
هؤلاء العرب باهتمام بريطانيا الزائد بالحصول على عون ضد الاتراك ،
ولكنهم ظلوا في الوقت نفسه مشبعين بالشكوك في نيات البريطانيين
بعد الحرب ، مما دفعهم الى الحصول على وعود مكتوبة باستقلال « دولة
عربية متحدة » مقابل اشتراكهم فيما يطلق عليه الآن الثورة العربية
ولقد كانت هذه الثورة باهظة الثمن فظيعة التكاليف ، لا بالنسبة الى
الارواح التي خسرها العرب في الاعمال العسكرية المجردة فحسب ، بل
بالنسبة الى مقام به الاتراك من شق وتغيب وتجويح لاوازع له ولا
ضمير في كل من لبنان وسورية .

ولكن النتيجة الفعلية للحرب العالمية الأولى في الشرق الأوسط على
الرغم من جميع العهود المكتوبة الخاصة والعامة ، وعلى الرغم من الشمن
الذي قدمه العرب للاشتراك في الحرب ، انها ولدت في عقل انسان
الشرق الأوسط مرارة لا يمكن المبالغة في التأكيد عليها ، اذ انها أكبر

(١) فقرة مقتبسة من كتاب « مصر في منتصف القرن العشرين »
لشارل عيسوى أوكسفورد ١٩٥٤

(٢) اللورد جورج جرانفيل (١٨١٥ - ١٨٩١) درس في ايتون
واكسفورد . تولى وزارة المستعمرات في بريطانيا بين عامي ١٨٧٠ و
١٨٧٤ وعامي ١٨٨٠ و ١٨٨٥ . - المغرب

من كل مبالغة ، عند ما يمس الموضوع الرئيسي لقصتنا • فمصر لم تعط استقلالها الا بعد ثورة مريرة استطلت أربع سنوات ، كما رافقت التصريح الرسمي باستقلالها ، شروط احتفظت لبريطانيا بسلطات تجعل من ذلك الاستقلال مهزلة مضحكة • أما الشرق العربي فكان جزاؤه على نورته العربية ضد الاتراك ، ومساعدته للحلفاء ، تقطيع أوصاله القائمة خارج الجزيرة العربية بين الانتدابين الفرنسي والبريطاني ، مع اضافة جرح ، لا مثيل له في القارة الآسيوية كلها ، انبثق عن وعد بلفور الذي تعهد بـ فلسطين للصهيونية •

ولقد دأب بعض المعلقين ، اتباعا « لموضة » سرت بينهم ، على اظهار شيء من الضيق بهذا الرصيد من السخط على بريطانيا وفرنسا الذي خلقته خيانات الحلفاء للعرب بعد عام ١٩١٨ • وتبدو سياسات القوة التي عرفت في الحرب العالمية الاولى ، للكثيرين منا الآن وفي عام ١٩٦٠ شيئا عتيقا باليا للغاية • ولكن ما لم نتفهم تمام التفهم ، كل مالق بالعرب في تلك السنوات من نتائج تلك السياسة فلن يكون في وسعنا أن نتفهم ما تبع ذلك من أحداث • فلم تكن القضية مجرد استمرار للحكم الاستعماري متحديا عهد الحرب بتقرير المصير ، كما كان الوضع بالنسبة للمستعمرات الآسيوية ، وانما كانت فرض حكم اجنبي جديد يستعاض به عن الحكم التركي الذي دعى العرب واقتنعوا بوعود التحرر لمحاربته ، رغم ما سيدفعونه لهذه الحرب من ثمن باهظ (١)

ولم يقف الامر عند هذا الحد • فقد اقتطع في اللحظة التي ظهر فيها أول تعبير عن فكرة الوحدة العربية ، نتيجة التلاحم الذي تحدثنا عنه قبل قليل بين افكار العربية والغربية ، شطر كبير من العالم المستعرب ، عن سابق عمد واصرار ، وباستخدام القوة والعنف • وجاء فرض نظام الانتداب الذي شمل فلسطين وشرق الاردن ولبنان وسورية والعراق ، والذي صور للعالم بأسره على أنه « وصاية مقدسة في عنق الحضارة » ذريعة قيل ان القصد منها تهيئة هذه الشعوب للوصول الى حق تقرير المصير في النهاية • وليس من العجيب حقا ، ان تكون الدولتان المنسدتان ، نفسيهما ، قد اعتبرنا هذا الانتداب مظهرا من مظاهر النفاق ، قصد به ان يوارى السياسة الاستعمارية القديمة ، في ثوب قشيب لا يستحقه من القداسة والطهارة • • وهكذا ولد نظام الانتداب ، كغيره من افكار الرئيس الامريكي ولسون ، متسر بلا بلباس الجود ليخفي ما رافق ولادته من فقدان الشرعية • • (٢)

(١) قد يكون ادعاء المؤلف بأن العرب لم يحاربوا الاتراك في الحرب العالمية الأولى الا بتحريض من الحلفاء • تشويها للحقيقة • واذا صح هذا القول بالنسبة الى القيادة الهاشمية للثورة العربية ، والى بعض عملاء الحلفاء الآخرين ، فانه لا يصح مطلقا على جميع الثائرين العرب الذين لم يحاربوا الا من اجل التحرر والاستقلال • - العرب -

(٢) تعريف الكونت كارلوسفورزا مقتبس من مجلة « الشرق الادنى ،

شيكاغو ١٩٤٣ •

ولم ترسم فى أى جزء آخر من الدنيا الافريقية - الاسيوية حدود جديدة على الخرائط فى مثل هذا العهد المتأخر من عهود الاستعمار ، كتلك التى رسمت فى الشرق الأوسط . ولم يعلن فى أى جزء آخر من أجزاء العالم فى عام ١٩١٧ ، عن وجود بلاد يسكنها أهلها ، قد أضحت مفتحة الابواب لاستقبال هجرة جماعية من غرباء دخلاء ، عرف عنهم أنهم يسعون لاقامة دولة لهم بينما يحرم على أهلها الاصليين حقهم فى تقرير مصيرهم فى بلادهم فلسطين . ولم تتطلب السياسة الاستعمارية فى أى جزء من الدنيا الافريقية - العربية - الاسيوية ، فى الفترة التى تلب عام ١٩١٨ فرض مثل هذه السيطرة العسكرية الكاملة بل الوحشية . كالتى فرضت على المغرب (مراكش) وليبيا والعراق وسورية بين عامى ١٩٢٠ و ١٩٣٠ وعلينا أن نؤكد ، اذ أن تأكيدنا هذا جوهرى لفهم ما يتدور من فصول هذا الكتاب ، ان النزعة القومية فى الشرق الأوسط . قد تأثرت بعد عام ١٩١٨ ، بظاهرة فريدة فى بابها . فهذه البلاد ليست من المستعمرات ، ولم يكن أهلها اتباعا ، خاضعين كل الخضوع ، حتى يتجهوا بنضالهم ، بشكل واضح ومباشر ضد الدولة المستعمرة . فالسيادة البريطانية والفرنسية فيها مفنعة ، منسرة وراء الاندابات أولا ، ومن ثم وراء المعاهدات المعهودة بين أعداد مساوين فى السيادة ظاهرا وكان هذا التفنن والتسر يستهدف عيون الغربيين أيضا . وهكذا بينما كان الغربيون يرون فى حقبتى الثلاثين والاربعين من القرن الحالى أن الهنود أو البورمين أو الاندونيسيين لم يكونوا « أحرارا » ، كانوا يرون أن عرب الشرق الأوسط ، « أحرار » تماما . فهم يرون أن لهم ملوكا ورؤساء ، وان لديهم سفارات ، اذن نرى ما الذى يدعوهم ، أى العرب الى الشكوى ؟ .

ولهذه الاسباب كلها ، ولاسباب أخرى ستبرز أمامنا فى الصفحات والفصول التالية نستطيع أن نقول ، اننا نحن هنا فى الغرب كنا نضابق هذه الشعوب ونطاردها ، بشكل لم يسبق له مثيل فى أى مكان فى الميدان الاستعماري القديم . ولقد ولدت اتفاقات الصلح ، التى خلفت الحرب العالمية الاولى ، عند الجيل العربى الذى ولد بين عامى ١٩١٠ و ١٩٢٠ . طرازا من التفرز القوى ، وخيبة الأمل المرة ، يوضح الى حد كبير مانعنيه بصورة خاصة بكلمة « النفور » عند العرب . وعندما شب هذا الجيل ، وانتقل الى مرحلة النضوج ، ولم يقع ما يحدو هذا الجيل الى التخفيف من غلواء ما فى حكمه على الغرب من مرارة ، لولاها ، لكان يعجب به كل الاعجاب ، ولقد ظل سبغ اتفاقات الصلح يخيم ككابوس نجم على السياسة العربية منذ ذلك الحين (١) .

(١) كتاب سورية ولبنان لالبرت حوراني - أوكتافورد
لندن ١٩٤٦ .

وقبل أن نتولى شرح هذه الفكرة شرحاً تفصيلياً ، أرى أن ثمة فكرة أخرى لا تقل عن هذه أهمية ، وإن كانت تقل عنها مركزاً وتقديراً . وإذا كان العرب قد حملوا إلى الشرق الأوسط التي خلقتة اتفاقات الصلح وجهة نظر خاصة تجاه الدول الغربية ، فإن الغرب قد حمل إلى الشرق الأوسط نفسه ، وجهة نظر معينة عن الغرب . وقد قدر لهذين الرأيين أن يؤثرتا على السياسة الرسمية وعلى أحكامها ، وأن يكيفا الرأي العام الغربي ، طيلة سنوات السخط والازمات التي استمرت حتى يومنا هذا .

الصورة العربية عند الغرب

« ترى ما هي الافكار والآراء والصور التي نحملها في عقولنا عن هذه البلاد وتلك الشعوب التي كنا نعتبرها بعيدة عنا حتى الآن ؟ ولما كنا مجبرين على أن نقوم تجاهها بعمل مضاد ، ترى ما الذي نعيش عليه في ماضيها لنستخدمه في هذا العمل المضاد ؟ » .

هارولد ايزاكس وجون دي في « دراسات عن الصور الآسيوية » .

« تؤلف جميع المخاوف والعداوات والشكوك ... التي نجمت عن المعركة الكبرى بين أوربة المسيحية وبين عالم الاسلام ... جزءا من التراث الادبي عند كل أوربي مثقف ، وهي كامنة في المادة التي جعلها موضوعا لقراءاته العامة ... تاركة في عقله الباطن عددا يتفاوت في الوفرة والقنة من الاهواء والضغائن » .
مقالة « العرب والغرب » للدكتور وليد الخالدي في مجلة الجامعة الامريكية في بيروت .

أدت اتفاقات الصلح التي عقدت بعد عام ١٩١٨ الى قيام علاقات ونيعة منصلة بين بريطانيا وفرنسا أو الغرب عامة من ناحية ، وبين العرب من الناحية الأخرى . وليس ثمة من ريب في أن كل تفهم أو عدم تفهم متبادل بين مجموعتي هذه الشعوب سينترك أثره ، في هذا الموضوع من نواحيه الثقافية والسياسية والتجارية وقد باتت الدولتان الآن في بعد عام ١٩١٨ ، متورطتين في ميزانيتين ضخمتين للاتفاق في الشرق الاوسط ، وأضحت حكومتاهما تبعا لذلك متأثرين بقرارات برلمانيهما وتعليقات صحافتهما ، طبقا لما يحمله هذان البرلمانان أو تلك الصحافة من أفكار عن العرب تعكسها عن الرأي العام في البلدين ، أو تبثها فيه . وقد تحتم على الحكومتين ، نظرا لوجود الانتداب أن تواجهها تتبع عصبة الامم لسياستهما (١) وكان لا بد من أن يتأثر هذا التتبع بما يحمله الغرب عن العرب من أفكار .

ترى ما هي الافكار والآراء والصور التي يحملها الغرب عن العرب والتي كانت تؤثر على السياسة الرسمية تجاههم ؟ وما الصور التي يحملها

(١) كتاب « العربي المستقل » تأليف السير هيوبرت يونج .

«المثقفون الغربيون والدوائر المتعلمة والثقافة ؟ وما المفهوم العام الواسع عن «الارجل العربى» . . ؟ وكيف يمكن لهذا المفهوم ان يؤثر على التقبل الشعبى للسياسة الرسمية ؟ »

لنعد الى سؤالنا الاول ، ترى ما الذى نعثر عليه فى ماضينا حتى نستخدمه فى عملنا المضاد ؟ تعود علاقتنا بالعرب الى نحو من الف ومائتى عام ، وظلت الثقافة الغربية ، تجمع الفكر عن العرب طيلة هذه القرون . وقد نقش أول ظهور بارز للعرب فى المسرح العالمى ، فى التراث الغربى . وقد اعتبر الزحف التوسعى العربى الاسلامى على الابواب الشرقية للعالم المسيحى فى القسطنطينية فى عام ٧١٧ ميلادية ، وعلى قلب فرنسا فى عام ٧٣٢ ، ظاهرة طبيعية مرغبة ومخيفة ، تركت جذورها فى ثقافتنا . وقد امتزجت هذه الظاهرة ، مع المولد الحقيقى للعصر المسيحى المتوسط ومطلع النظام الاوروبى . ولم يخلف أى تغلغل أجنبى مثل هذا الاثر الذى خلفه التغلغل العربى فى تراثنا السياسى والثقافى والأدبى . ولو تفحص أى غربى زوايا عقله الباطن بحثا عن اية فكرة تتصل بالعرب ، تعلق به فى غضون الألف عام الماضية ، لاستمع الى الاصدااء الخافتة التى خلفتها معركة تور « ١ » . وقد لا يكون فى حاجة الى قراءة تاريخ جيبون ، ليستوعب هذا الصدى ، وان كان هذا المؤرخ قد أوضحه ايضا تاما قبل نحو من مائتى عام اذ قال :

« لقد امتد خط الزحف الظافر أكثر من ألف ميل من صخرة جبل طارق حتى شواطئ اللوار . ولو تكرر هذا الزحف مسافة أخرى مماثلة ، لحمل العرب الى حدود بولندة ، وجبال اسكونلندة . . . ولأوصل الاسطول العربى الى مصب التيمز بحرا كما يشاء دون أن يشتبك فى اية معركة حربية . . . ولربما كان من المحتمل أيضا ، ان يدرس القرآن الآن فى مدارس اكسفورد . » (٢)

وقد ظلت هذه «اللو» منذ أيام تور عن العرب المسلمين متأصلة فى عقول الاوربيين يعززها الصراع المستمر مع العرب عند المداخل الجنوبية للقارة . وكان أول رد فعل دينى من جانب المسيحية ضد الاسلام ، ما ذكره جون داماسين (٣) فى عظاته فى القرن الثامن من أن الاسلام هرطقة

(١) اشارة الى معركة تور او مايسمىها العرب ببلاط الشهداء . وقد وقعت عام ٧٣٢ ميلادية على نهر اللوار بين القائد العربى عبد الرحمن الغافقى وقائد الفرنجة شارل مارتل . وقد استشهد فيها كثير من أبطال العرب . وكانت نقطة التحول فى تاريخ الفتوحات العربية فى الغرب .
العرب .

(٢) كتاب « انحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية » للمؤرخ البريطانى جيبون :

(٣) داماسين يوحنا - (٦٧٦ - ٧٤٩) . من علماء اللاهوت المسيحيين وقد ولد فى دمشق ، وعاش فى دير على مقربة من مدينة القدس واشتهر أمره بالاناشيد الدينية والعظات التى وضعها .

انشقاقه (١) ولكن ما لبثت الكنيسة أن اتخذت لنفسها خصائص ادولة المنظمة ، وباتت تعتبر نفسها « جيشا مرابطا على تربة المسيحية » (٢) وتزاوجت هذه النظرة العسكرية ، مع موجة من الحماسة ومن القومية الوليدة المتمثلة في ظهور شارلمان وهكذا سربت الى أولى قصص الفروسية في أوروبا فكرة دينية مرعبة وعصبية عن العرب والاسلام تختلط دائما بالخرافات الشعبية .

ويرجع تاريخ أول مثل بارز من هذه الامثلة ، الى حادث وقع في عام ٧٧٨ ميلاديه ، وبات خالدا في تراثنا الادبي حتى يومنا هذا . فلقد وقعت معركة رونسيفال ، وكانت في الواقع مجرد اشتباك مؤخرة . بين وحدات من قوات شارل العائده تحت قيادة رولان من أسبانيا وبين عصابة من الباسك المسيحيين . ولم يمض نلأثمائة عام ، حتى غدت هذه القصة احدى أساطير الفروسية في أوروبا ، وحتى تحول الباسكيون الى مسلمين ، وانقلب اسلامهم الى وثنية شيطانية تعبد آلهة كثيرة

« كان الوثنيون يهتمون أنجدنا يا محمد »

وانتموا لنا يا آلهتنا من شارل (٣)

وعلى الرغم من أن هذه الاسطورة الكيرة المزويق ظلت تنشد في فرنسا بصورة رئيسية ، الا أنها سرعان ما استأثرت بخيال المسيحية كلها خارج فرنسا في وقت مبكر أيضا . وظلت أعنية رولان النص الموحّد الذي يدرس في المدارس قرونا عدة ، والمصدر الأساسي منذ الطفولة ، لوجهة النظر التي يكونها الغربي عن العرب والاسلام .

وليس ثمة الكثير مما يشابه مثل هذا الانطباع العميق المختزن منذ الطفولة ، على ثقافتنا ازاء عفيده قديمة ، وسُعب تمكن من البقاء حتى يواجهنا اليوم . لكن هذه « الصورة » ما لبثت أن أحيطت بالكثير من التفصيل . فهي لا تنشأ عن مجرد الاحساس باخطر العسكري على أوروبا والاستهانة بالاسلام ، وانما تنشأ كذلك عن الفكرة القائلة بأن العرب المسلمين قد أعملوا سيوفهم في المسيحيين كافة . اذا امتنع هؤلاء عن التحول الى الاسلام . وليس ثمة من شك في أن المحاربين العرب عرفوا بسنة البأس ، وخفة الحركة ، كما ان انتقامهم من الجيوش التي تحاربهم . كانت معروفة ومشهورة ، ولا ريب في أن الفكرة القائلة بأن الجيوش العربية الفاتحة ، كانت تقطع رؤوس جميع المدنيين المسيحيين بسيوفها المعوجة ، خاطئة كل الخطأ . فلم تكتف الامبراطورية العربية بالتسامح مع غير المسلمين ، بل كانت لها فائدة محققة في مثل هذا التسامح وذلك

(١) كتاب تاريخ الامبراطورية البيزنطية لثاسيليف .

(٢) كتاب تاريخ محاسن التفنيس في العصور الوسطى
لا . ش . ش . لي .

(٣) انشودة رولان .

عن طريق الجزية التي تفرضها عليهم . (١) ولكن مع مضي القرون شرع العرب في الاعتقاد بأن الاحتلال العربى الاسلامى للقدس ، ليس الا ذروه هذا التفطيع المزعوم لرءوس المسيحيين ، وكان هذا هو الذى دفع الصليبيين الى المبادرة لاتخاذها من ايدى من كانوا يسمونهم بالكفرة ، عن طريق رموز البطولة الايجابية للسيف والطبق المسيحيين .

ولكن الصورة الصحيحة لتاريخ القدس المبكر ما لبثت ان تسلت الى تعليمنا . وحسر الباحثون النقاب ، عن أنه فى الوقت الذى توفف فيه الخليفة العربى عمر بن الخطاب أمام القدس ، ليعقد معاهدة مع ذوى الشأن فيها تضمن لاهلها من مسيحيين ويهود حرية العبادة شريطه دفعهم للجزية ، راح صليبيونا فيما بعد يدخلون مدينة القدس عن طريق الخديعة ويفرقونها فى حمام حقيقى من الدم (٢) وقد توافرت لنا الآن صورة أكثر دقة عن الحوافز الحقيقية التى دفعت الى الحروب الصليبية ، وهى حوافز تشبه الى حد كبير تلك التى دفعت العرب فى طريق توسعهم الحيالى (٣) وتكون مزيجاً من الايمان الحربى والضغط الاقتصادى من الداخل ، واغراء الثروات الخرافية الموعودة (٤) .

ويمكننا رؤية الجدة فى هذه التصحيحات الاكاديمية لتاريخنا عن العرب والاسلام ، من الرأى الذى نادى به أستاذ من اكسفورد فى عام ١٨٩٤ عندما تحدث عن ظهور النبى محمد اذ قال :

« وحلت أخيراً اللحظة الحاسمة التى تحولت فيها تعليماته من مباركة البلاد العربية الى « لعنة العالم » . وعندما شعر بأن قونه باتت كافية ، أمر المتشيعين له ، بحمل السلاح ، وفرض الاسلام على جيرانهم

(١) لا أدري كيف توصل المؤلف الى هذه الفكرة الخاطئة . اذ أن كل من يعرف أقل شىء عن الاسلام يدرك أن الدين الحنيف أوصى بالتسامح مع أهل الكتاب على أسس روحية لا شأن للعامل المادى فيها - العرب -

(٢) كتاب «الحروب الصليبية» لستيفان رانسيومان الذى قال ... ودخل الصليبيون شوارع القدس يقتلون كل من يلقونه من رجال ونساء واطفال دون تمييز ، كما احرقوا يهود المدينة وهم احياء داخل كنيسهم . (٣) يبدو أن المؤلف كان متأثراً هنا كل التأثير بما كتبه بعض المؤرخين الغربيين المتحيزين عن العوامل المادية فى الفتح الاسلامى ، متناسين أن الفاتحين العرب ، كانوا حملة رسالة روحية هى الاسلام ، الذى بشر به محمد (صلعم) وقد يكون المستر تشايلدرز ، وهذا هو الغالب ، قد فانت عليه هذه الحقيقة عن حسن نية ، لانه من احرار الفكر ومن الذين يتوخون الانصاف فيما يكتبونه .

- العرب -

(٤) كتاب ... مرجع عن تاريخ القرون الوسطى ... لناشر وماكينل

بالقوة (١) وظهر تيار من الخديعة والثأر والانغماس الانانى (٢) .
وقد عززت أساطير عدة هذه الفكرة من «لعنة العالم» ومن الاساطير
التقليدية التى يحاول علماءنا المعاصرون جاهدين محوها من مجالات
معرفتنا وبينها الادعاء بأن العرب الأول الذين غزوا مصر عام ٦٤٠ ميلادية
هم الذين تولوا احراق مكتبة الاسكندرية وتخريبها (٣) وتعكس هذه
الاسطورة الاعتقاد الغربى الشائع بأن الحضارة العربية الاولى . لم تكن الا
مركبا من العنف ومن الديانة الجماهيرية ، والانغماس الانانى الخالص فى
المطامع ، وانها حضارة لا تحترم العلم ولا تقيم له وزنا . ومن الحق أن
يقال ان تسعين فى المائة من الغربيين يربطون كلمة « بغداد بقصص
ألف ليلة وليلة » دون أن يأبه واحد منهم بالتفكير فى أنها كانت فى يوم
ما أعظم مراكز العالم فى الدراسة والعلم ، وأنها كانت حافلة بالمعاهد
والمكتبات والمراصد وشارحي التراث الحضارى الاغريقى .

وليس من العسير علينا أن نتبع هذه الصورة المركبة عبر الدرون
ابتداء بالهزة المرعبة الاولى التى وقعت فى عهد معركة نور . واستمر عداء
اللاهوت والدراسات الدينية للاسلام مع تقدم هذه الدراسات على حسانه
اذا لم نعل انه استمر فى النمو المضطرد . وتنكر العلماء والادباء الغربيون
للاسلام فرفض مارتن لوتر مثلا ان يقرأ القرآن ووصمه بمختلف التعوت
وواصل أدباء الغرب الحملة على الاسلام ومبادرته بالعداء ، مما يظهر
بوضوح فى الكثير من كتب الادب والتاريخ . وقد استمرت هذه الفكرة
على قوتها حتى القرن التاسع عشر وما زالت تعيش فى عقلنا الباطن حتى
اليوم .

وجاءت موجة جديدة كل الجدة من التجارب الخارجية الواقعية.
لتسير بصورة موازية مع النظرة الباطنية المسيحية تجاه الاسلام ولتستفزها
دافعة بذكريات أوروبا عن المسلمين خطوة أخرى . فلقد بات « الأتراك
المسلمون » منذ سقوط القسطنطينية فى عام ١٤٥٣ يهددون أوروبا تهديدا
خطيرا أكثر من مائتى عام وباتت ديانة الأتراك وعاداتهم وحتى ملابسهم
تثير مخاوف الاوربيين وتستفز فضولهم الكاره لها . وضاع أجدادنا من
جراة اعتناق الأتراك للاسلام فلم يتبينوا حقيقة العروق الضخمة التى تقوم
بين العثمانيين والعرب . وراح الادب الغربى بصور التركي على انه رمز
الحداغ والمكر والنزوع الى الشهوات ، كما ظهر فى الصورة التى رسمها

(١) لا أدري كيف يسمح من يدعى العلم ويعمل فى الحقل الجامعى
كأستاذ اكسفورد هذا لنفسه بمثل هذا التشويه للحقائق التاريخية اذ
ان وصايا النبى (صلعم) لقادة الغزوات التى كان يوفدها ، والتى أوردتها
جميع كتب التاريخ العربى تناقض هذه المزاعم تماما — العرب —

(٢) كتاب المصور المظلمة لشارلز أومان .

(٣) تؤيد كتب التاريخ الصحيحة ان نصف المكتبة قد أحرق فى
عهد قيصر وان الصليبيين هم الذين تولوا احراق ما بقى منها فى
عام ١٢٦٥ .

شكسبير في مسرحيته « العاصفة » للرجل اتركى على لسان عطيل بطل هذه المسرحية .

وشرعت جامعتا أوكسفورد وكمبردج في مسنهل القرن السابع عشر في انشاء معاهد جديدة للدراسات العربية ، هادفتين من ورائها الى استكشاف الكتب العظيمة التى نقلها العرب الى أوربا ، ومتأثرتين الى حد كبير بالنفوذ الكنسى . لكن هذا الوميض المبكر فى الدراسات العربية لم يبدل شيئاً من موقف العداء الذى يفقه الغرب عامة من العرب والمسلمين ولم تخلف المجموعة القليلة من الكتاب « الكلبين » (اشارة الى الفلسفة الكلية الشكية . .) من أمثال بير بايل وروجر ويليام ، والتى دعت الى التسامح وأبدت رغبتها فى أن تكون المسيحية ظاهرة كل الطهر فى حماسها التبشيرية الا أثرا ضئيلا لا يكاد يذكر .

وتوقف التهديد العثمانى للقارة الاوربية على اسوار فيينا فى عام ١٦٨٣ م ، وبدأ الاتراك السير فى طريق تدهورهم الطويل . وشرع سلاطينهم يتدرجون نحو الاتجار مع أوربا ، حتى انهم سمحوا للمبعوثين الاوربيين بالاشتراك فى دسائسهم . وأخذ تجار أوربا ودبلوماسيوها ومبشروها ومكتشفوها ، يعودون الى بلادهم حاملين صورة تركية عنماية الى حد كبير عن عرب الشرق الاوسط . وقد عززت هذه الاتصالات الجديدة فى حد ذاتها الاسطورة الشاملة التى حملها المسيحيون فى الغرب ، عن ترف المسلمين وقسوتهم ، وحياة اللهو والبذخ التى يحيونها . وأسهمت كذلك فى ظهور تأثيرات أوربية داخلية جديدة ، على المواقف العامة تجاه العرب تمثلت فى أسلوب القرن الثامن عشر الذى حاول محاكاة ماتميز به الادب الشرقى أو المنتحل صفة الشرقية من رومانتيكية ابداعية . وظهرت ترجمة جالاند الفرنسية لألف ليلة ولييلة فى عام ١٧٠٨ لتعقبها «قصص فارسية» و «قصص من تركيا» .

وأثر هذا الأسلوب الادبى على نفر من كبار الشخصيات الادبية فى العصر المذكور ، كرد فعل على ماأسماء الكاتب الانكليزى « بورزويل » بنظام التفاؤل . وشرع الاديب البريطانى المشهور ، الدكتور صمويل جونسون ، فى وضع كتابه «راسيلاس» الذى ضمنه التواصى الى ترمز الى استخدام الرومانتكية الشرقية فى اسنبعاد التفاؤل اذ قال :

«وأنت يامن تتابع بلهفة أطياف الأمل ، وتعلق بأهدابه النى نوحى اليك بأن الشيخوخة ستحقق أحلام الشباب ، وأن الغد سيعرض على ما فى الحاضر من نقائص وعيوب عليك ان تصفى الى قصة راسيلاس أمير الحبشة » (١) .

وترجمت راسيلاس التى صدرت فى عام ١٧٦٠ الى الايطالية والفرنسية والألمانية والهولندية . وقد جاءت اثر صدور « رؤيا ميرزا » للكاتب أديسون ، واتفقت مع رسائل فارسية « التى وضعها الفيلسوف

(١) كتاب «راسيلاس» لصمويل جونسون - الفصل الاول .

الفرنسي الشهير مونتسكيو ، مستخدما من الشرق ذريعة لتوجيه ما يشاء من نقد اجتماعي . وكان هناك أيضا كتاب «فاتيك» لمؤلفه بيكفورد الذي يجمع بين الأسلوب القوطي والشرقي وكتاب «زاديچ» لفولتير، وكلها كتابات تضيف إلى الانطباعات الغربية «عن الشرق» صورا عن طرائف ألف ليلة وليلة . وكان تعبير «الشرق» في تلك الأيام يعني «الأتراك» و «المسلمين» كما يعني الهنود أيضا ، ومن هنا نشأ الافتراض بأن «تعبير» العرب ليس إلا تسمية ثانية للأتراك . ولم يكن في الإمكان في مثل هذا المسرح السياسي والأدبي فهم الإسلام على حقيقته فهما صحيحا . ولعل هذا هو السبب الذي حدا باستاذ العربية في جامعة أوكسفورد إلى الحملة في عام ١٧٨٤ على الإسلام مشوها حقيقته وناعثا إياه بالنضال .

ونصل الآن إلى القرن التاسع عشر ، أي إلى الوقت الذي عاد فيه الغرب عودة حاسمة إلى الاتصالات بالشرق الأوسط . وقد اتسعت الآن آفاق الاتصالات بين العرب والغرب . وبات الترحال إلى ما وراء الحدود الأوروبية الآمنة هواية عظمى عند الأثرياء وذوى النفوس العظيمة . والإدراك اليقظ المتنبه . وكان بين هؤلاء الرحالة ، فولني الفرنسي ، وبيركهاردت السويسري ، وريشسارد برتون ودوتي وبيري وبلانت البريطانيون . واجتذب الشرق الأوسط في القرن التاسع عشر مجموعة ضخمة من المفكرين الأوروبيين واستهوت مصر في عهد محمد علي ريتشارد كودن . كما ارتحل السياسي الداهية دزرائيلي عبر أراضى مصر والسوق الأدبي في شبابه . ودون ملاحظات هامة نفتط منها ما يلي :

« .. هناك شيء من السحر في الحياة السرفية . وهو الراحة والاسترخاء . »

«وقد تركت على هذه الطبيعة . أنا الذي نشأت في الأوساط الرائقة للحضارة الفاسدة ، والذي انغمست انغماسا طفيفا في طريق الشهوات والنزوات ، أنرا عميقا ... وفي وسعي أن أفول صادف أنني نفعت عني ربوع سوربة وسهولها . كل طموح شخصي» (١)

ولكنه لم ينقض عنه طموحه كما فنحن نرى في قول دزرائيلي هذا بعض الاستهواء الذي خلفته الصحراء العربية في نفوس الكثيرين والذي سنعود إليه بعد قليل . ولكن أفوال دزرائيلي تمثل حابيا واحدا من الصورة . بينما كان تمة جانب آخر تتمثل في كتاب « جورج ووكر » لمؤلفه أنطوني ترولوب الذي صور الناحية السلبية والمحفورة والخردزية التي الفت جزءا ضخما من تراننا الأدبي عن الترف . والذي جاء فيه ما يلي :

« وسواء أكانوا عربا أم أتراكا أم أقباطا . فهم طرار واحد لا مان فيه . أنهم جميعا ينتمون إلى عنصر محادع وضع جبار . وهم يتحلفون عنا كثيرا نحن الدين انبعنا تعاليم المسيحية . ولكنهم يتعوقون علينا في

(١) منعول عن كتاب « ديزي » لميسكمب برسبون .

شيء واحد ، وهو أنهم يحسنون الحفاظ على كرامتهم (١) .

ولعل هذه « الكرامة الشخصية » بعينها هي التي استهوت بعض الناس من الغربيين وأثارت حنق بعضهم الآخر وسخطه . ولا ريب في أن الصورة التي رسمها ترولوب كانت بين الصور الشائعة المقروءة عن الشرق الأوسط والتي أثرت على العالم الناطق بالانجليزية في أواسط القرن التاسع عشر ، وكانت نموذجا من الازدراء الكامن عند الغربيين للشرق ، وهو الازدراء الذي ما لبث أن أصبح عاما شاملا في السنوات اللاحقة .

وشرع الرحالة الحدينون يفدون من أمريكا أيضا ، ولعل مذكرات الكاتب الأمريكي مارك توين التي نشرها في عام ١٨٦٧ عن « نزهاته في أوربا وابلاد المقدسة » تعطي لمحات رائعة عن الصور التي كان يحملها الغرب عن العرب حتى قبل مائة عام (٢) ولقد رأينا في انطباعاته عن رحلاته مزيجا من الروح الامريكية المناهضة للاستعمار ، والتراث العام للحروب الصليبية ، والمواقف المسيحية في الاسلام وكذلك من الصور التي قدر لها أن تغدو طاغية في أهميتها عن المفهوم البدوي الصحراوي للعرب .

وقد كتب مارك توين عن سورية يقول :

« لو كان ثمة من شعب مضطهد قائم ، فانه هذا الشعب الذي براه مكبلا بالاغلال في ظل طغيان الامبراطورية العثمانية المنافي للانسانية . والسوريون جد فقراء ، ومع ذلك فقد فرض عليهم نظام مرهق للضرائب يكاد يطحنهم طحنا ، ولو فرض هذا النظام على أي شعب آخر ، لطوح به الى الجنون ولو أعطى السوريون قسما من الحرية والتعليم لباتوا شعبا راضيا قانعا وكثيرا ما نراهم يوسلون الى الاجانب ، ليدفعوا العالم الكبير الواسع الى المبادرة في يوم ما الى مساعدتهم وانقاذهم (٣) .

ولاحظ السير ريتشارد بيرتون بعد نحو من ثلاثين عاما ، انه على الرغم من ظهور روح جديدة للتفصي والبحث في الغرب عن الاسلام ، فإن الحزازات القديمة التي خلفتها الحروب الصليبية ، والاضاليل الشائعة عن

(١) انطوني ترولوب في كتابه « قصص من جميع البلاد » لندن عام ١٨٦٣ .

(٢) مارك توين في كتابه « أبرياء في الخارج » - أمريكا ١٨٦٩ .

(٣) أعتقد أن مارك توين كان مغاليا في دعواه هذه ، اذ أن عرب سورية لم يكونوا قط راغبين في تبديل الاستعمار التركي باستعمار غربي مهما كان شأنه ، وقد ثبت صحة ذلك في الثورة التي ما لبثوا أن أعلنوها على الفرنسيين في عام ١٩٢٥ وفي حريهم لهم في ميسلون عام ١٩٢٠ عندما رأوا ان الفرنسيين يريدون استعمارهم ، واذا صح ادعائهم بأن بعض السوريين قد اتصلوا به ، فهم من أولئك الذين يربطون مصيرهم دائما بمصير المستعمر وهم أقلية لا يعتد بها .

المغرب

«العرب ، كانت لاتزال مهيمنة وغالبة (١) . ولا ريب في أن وصف مارك
توين للرحلة التي قام بها الى القدس رائعة للغاية على هذا الصعيد ،
وأرى أنها جديرة بالاعتباس هنا ...»

« وكان الأثر الرائع الذي استهوأتا جميعا ، السيف القديم البسيط
الذي كان يستعمله ذلك الصليبي الكبير جودفري بولوان الذي بات يدعى
بجودفري ملك القدس . وليس ثمة من فصل في دنيا المسيحية يستهوي
الناس كهذا السيف . فهو يستثير في عمل كل انسان جميع الذكريات
التي ظلت هاجعة فيه عن الحروب المقدسة ، ويعمر أفكاره بصور الصليبيين
لابسي الدروع ، والجيش الزاحفة ، والمعارك والحصارات المفروضة .

« وليس في وسعي أن أنسى سيف جودفري القديم هذا بعد اليوم .
وقد جربته في شخص مسلم ، فمر فيه كما يمر في العجين . وتسلمت على
روح الصليبيين ، ولو كانت لدى مقبرة قريبة ، لوددت أن أقضى بهذا
السيف على كل من في القدس ... من الكفرة » (٢)

وراح مارك توين يدون بعد ذلك أفكاره التي انسابه إبان حادث
يتناول الجياد التي استخدمها في رحلته . ولا ريب في أن الصورة التي
يرسمها هذا الأمريكي العادي المنبت ، تكشف النقاب ، عن أن فكرة العرب
الرحل في الصحراء . كانت لاتزال في مطلع القرن التاسع عشر . مهيمنة
على أفكارنا هنا في الغرب فهو يقول ...»

« كنت أتوق في صبي لو كنت عربيا من أبناء الصحراء ، وكانت
لي مهرة جميلة أدعوها « سليما » أو « بنيامين » أو « محمدا » (يا لها من
روح معصبة خبيثة) ، وأتولى إطعامها بيدي ، وأدعها تلج الخيمة ، وأعلمها
طريقة ملاطفتي لتنظر الى نظرة عطوفا بعينيها الجميلتين ... : وكنت أتوق
لو جاءني بعد ذلك غريب ، فعرض علي مائة ألف دولار ثمنها لها ، فيجعل
بي ما يحل بالعرب الآخرين من تردد ولهفة الى المال . لا يلبث أن يعلبه
حبي لفرسي . لاقول أخيرا « هل أفارقك يا فرسي العزيزة الجميلة » لا .
لن أفارقك ما حييت ! امض عني أيها الرجل الذي تحاول اعراثي ، فأنا
أحتقر ذهبك . ثم أمتطي صهوةها لأذهب بها طرادا كالريح في
الصحراء » (٣)

(١) كتاب بيرتون « اليهود والفجر والمسلمون » - لندن
١٨٩٨ .
العرب

(٢) أثرت أن أنقل هذه الفقرة كاملة الى العربية لاطهر حقيقة النظرة
الشريرة التي كان ينظر بها الغربيون ، ومازال ينظر بها بعضهم الى العرب
دون أي زخرف أو تزويق .
المعرب

(٣) يتضح من هذا الخيال الغريب السقيم ، وما سبقه أن الغربيين
كانوا يخلطون دائما بين العرب والأتراك ، وأن الروح الصليبية كانت
لا تزال مهيمنة على الكثيرين منهم ، وجلهم من الأدباء والمفكرين .

واستمر هذا المزيج الغريب في طريقة معاملة الغرب للعالم العربي، والذي يجمع بين الاستهواء والتقزز، في النمو مع كل مرحلة جديدة من مراحل التغلغل العربي. وظل التركي الذي لا يمكن وصفه يستثير طيلة القرن التاسع عشر التقزز والغضب الجامح. وظلت الكراهية لعقيدته تسيطر على جميع مواقفنا من الغرب. وأدت مذابح عام ١٨٦٠ في الشرق الأدنى والتي لا سابقة لها في التاريخ العربي إلى الإبقاء على الروح الصليبية على الرغم من الحقيقة الواقعة وهي أن الدافع إليها يعود إلى السياسات الدولية لبريطانيا وفرنسا. وسرعان ما لحقت بها فظائع الأتراك في البلقان، ثم أدت الاحقاد الدفينة إلى افتعال اضطرابات الاسكندرية التي أسفرت عن ضرب مدافع البحرية البريطانية لمينائها في عام ١٨٨١ (١).

وبدأت بعد ذلك مرحلة جديدة، وهي مرحلة الاتصال الفعلي المباشر بين مئات الألوف من الجنود البريطانيين وبين جزء من العالم العربي - الاسلامي مما أنبت ثمارا جديدة من الكراهية. وأدى مقتل جوردون ورجاله في الخرطوم على أيدي دراويش المهدي، إلى خلق انطباعات جديدة في العقل العام البريطاني قدر له أن يعيش حقبا عدة. وظلت قوات بريطانية قوامها أحد عشر ألف جندي ترابط باستمرار بين عامي ١٨٨٢ و ١٩١٤ في أراضي مصر التي لم يكن احتلالها مريحا بأي حال لهذه القوات. وحملت في نهاية القرن قوة أخرى أضخم عددا، قصصا جديدة عن الحملة التأديبية التي قام بها كتشنر في السودان. وخبر تسعمائة ألف جندي بريطاني أبان الحرب العالمية الأولى، مصر المشاكسة الحرون، الناقمة، الشاعرة بامتهان كرامتها؛ بينما مضى آخرون من الهند إلى العراق، وتلت ذلك سنوات رابطة فيها الألوف والألوف المتعاقبة في مصر وفي بلاد الانتداب إلى الشرق منها.

وكانت الصور والآراء التي حملها هؤلاء الرجال، عن الوطن العربي إلى شطر ضخم من الرأي العام البريطاني، سلبية حتما ومنطوية على الزراعية ولم يكن الجندي العامل في قوات الحماية في أي بلد افريقي أسوي يزرع تحت كابوس الاحتلال أو الوصاية، يعيش عيشة مريحة طيبة، فكيف يعيش براحة في بلدان الشرق الأوسط، التي لم تقم قط بينها وبين الدول المحتلة أو المستعمرة، العلاقات المنظمة التي تقوم عادة.

(١) استغلت صحف لندن هذه الاضطرابات إلى أقصى حدود الاستغلال لتخلق الجو الصالح لتبرير غزوها الأراضي المصرية واحتلالها في عام ١٨٨٢، ويروي ويلتون وين في كتابه «ناصر مصر» أن صحف لندن حاولت قبيل العدوان الثلاثي على السويس في عام ١٩٥٦، اتباع نفس الأسلوب، إذ أوبرق رؤساء تحرير بعض الصحف اللندنية إلى مراسليهم في القاهرة قبيل العدوان يطلبون منهم تزويدهم بقصص عما يلقاه البريطانيون في مصر من أذى. ولكن هؤلاء المراسلين لم يستطيعوا إرضاء رؤساء تحريرهم. إذ لم يكن ثمة من أنسب أن يلحق الأذى بالمدينين البريطانيين. ومع ذلك فقد تمكنت الصحافة البريطانية من خلق الجوز المناسبي بأساليب أخرى.

المؤلف

بين البلدين المستعمر والمستعمر ٠٤ وكان الجندي البريطاني يعيش في هذا الجزء من العالم في حالة مستمرة من التوتر ، ولا يكاد ينقضى عام بدون وقوع اضطرابات من نوع ما يتحتم على هؤلاء الجنود اخمادها بوسحقها . يضئاف الى هذا ان المحيط الذي يراه جندي الاحتلال كان ضيقا كل الضيق وسلبيا كل السلبيه . ولا تحمل رسائله التي يبعث بها الى ذويه في بريطانيا ، او قصصه التي يرويها في ثكنته بعد عودته من رحلة في الخارج ، الا طابع الحديث عن الاوكار الليلية العابثة التي أمها . والاسواق القديمة المعتمة ، القدرة ، والذباب والحرارة والمرض والموت ، وبائعي الصور الجنسية القدرة ، او بائعات الهوى ، وتجار التحف والهدايا المخادعين ، وقطاع الطرق في الليل ، والجماهير الغاضبة في النهار . وتلتف أسوأ العناصر من الاهلين حول جنود الاحتلال . ولم تكن هذه الانطباعات المثيرة في اى وقت اكثر قوة منها في الفترة التي شملتها الحربان العالميتان عند ما اعتبر أهل البلاد ، أناسا « لا مبالين » بل متفرجين خائفين في صراع عالمي مميت . ولما كان الالوف من الجنود البريطانيين العاديين الذين أدوا الخدمة العسكرية في الخارج . قد أقاموا في مصر مدة أطول من اقامتهم في أى بلد عربي آخر ، فإن الحزازات المتجمعة ضد المصريين كانت طاغية في عام ١٩٥٦ .

وهكذا باتت الصورة الغربية الشاملة عن العرب أكثر تعقيدا واضطرابا ، وتناقضا مع مرور الزمن . ولم يحل مطلع القرن الحالى حتى كانت كتب لا تعد ولا تحصى قد صدرت عن الصحراء العربية ، ورسخت صورها في عقول الغربيين من ذوى المكانة الاجتماعية والتعليمية البارزة . فلقد عثر دزرائيلي على الراحة والبساطة في سهول سورية الصحراوية ولكن كان هناك بين الرمال ما هو أكثر من البساطة والراحة . فهناك المفارقة الواضحة بين هذه البيد الواسعة ، الصامتة ، النظيفة التي تقطنها قلة من السيوخ القبليين الانوفيين ، اوانقين بأنفسهم ومن يتبعهم من رجال ، وبني ما يراه جميع الغربيين تقريبا في مدن الشرق الاوسط من فدارة ومكر « تركى » وفساد وعنف . وأصبح الغربى يرى بعين الواقع في الصحراء العربية دحضا لكل ما وارته من صفائن موروثة عن العرب والمسلمين بينما يرى في المدينة العربية ما يؤكد هذه الصفائن . وكان الكثيرون من البريطانيين الذين يعمرون في أحياء القاهرة القديمة . يرون في الرجل المهلهل الثياب الذي يتجه الى مكة بصلاته التي يؤديها على حصيرة فقط ، تحيط بها النفايات ، شيئا منفرا . بينما يرون في صلاة ابدوى وتقواه في الصحراء ، شيئا نظيفا يستهوى النفس . ويجتذبها .

وقد قدر لهذا الاستهواء الزائد أن يقدو كبير الاهمية ، ولا سيما في تاريخ الشرق الاوسط في عصرنا الراهن ، مما يتطلب منا أن نوجه اليه شيئا من الدرس والاستقصاء . وليس ثمة من شك في أن كل من وجد نفسه يوما ما في الصحراء العربية ، يعرف تماما سحرها ، وان كان القليلون منهم فقط هم الذين يستطيعون أن يوضحوا هذا التأثير بها . والصحراء شديدة النقاء ، كثيرة العزلة ورائعة الجمال . وهى تحيى كل

رجل غربى التحية التى تتفق مع فلسفته فى الحياة • فهى توقفه رجلا وحيدا أمام خالقه ، أو تجعله رجلا على اتصال بالطبيعة ، أو انسانا تجرد من كل استهواء للحياة الآلية فى المدن ، أو مخلوقا تكشف له نفسه وبات عاجزا عن تجنب شكوكه وخوافه ومظاهر الضعف الطبيعية فيه • ولكن مهما كانت التحية التى تواجه الصحراء بها زائرها الغربى ، فإن فيها شيئا من الانقسام الذاتى ، أو من مواجهة المطلق • ولا ريب فى أن هذه المواجهة للمطلق عند انسان القرن العشرين فى الغرب ، الشاثر رغم أنفه على المذاهب المادية العقلية وعلى محاولة التلاقى فى المفاهيم التى أقام عليها مجتمعه ، تعتبر تجربة مخيفة رغم ما فيها من استهواء وجاذبية •

والافق مستعص بما فيه من خواء على الارادة الانسانية ، أما الاطلاقية فى الصحراء فطاغية كل الطرفين • ويتساءل الغربى عما اذا كان ثمة من رجل يستطيع أن يتفاهم فى يوم ما مع هذا المحيط المرعب الذى يستثير فى نفس رائيه انحرافات جنسية « ماسوشية » جذابة • وتبدو هناك فى الافق البعيد ، مجموعة من البقع السود منتشرة فوق الرمال ، انها خيام البدو السوداء • وقد يكون اللقاء غريبا ولكن مع كل لقاء جديد يبرز هناك سحر أعظم • فهناك أناس يتقبلون الصحراء كما هى وينسجمون معها • ويبدو أنهم على الرغم من خشونتهم وعلى الرغم من افتقارهم الى الثقافة فى معناها الغربى ، فانهم سواء الأغنياء منهم وهم القلة ، أو الفقراء وهم الكثرة ، قد وصلوا الى نوع من التفاهم المنسجم مع المطلق ، وتبدو آراؤهم فى الحياة صلبة لا تعرف اللين أو الهوادة ، كما تبدو طريقتهم فى العيش فى منتهى البساطة والبعد عن التهذيب والتشذيب • وهم لا يحملون أى ظلال عن الحقيقة ، أو تدريجا فى المعتقدات ، أو خطوطا فاصلة بين الخير والشر ، أو بين الهدف والا هدف • فهناك اله يؤمن به البدوى ، وهو اله متنهـا فى القوة وليس ثمة فى الصحراء الا أمثلة قليلة على ثورة الانسان الفانى على هذا الاله وتكوينه • ويبدو أن ليس ثمة من صراع فى نفس هذا البدوى بين الله والمحيط والارادة اللا ذاتية • واذا كانت غريزة الغربى تدفعه الى الثورة والحنق على ما يبديه البدوى من « قدرية » كادعائه بأن وفلة ولده انذى كان فى الامكان شفاؤه من مرضه • ناجمة عن ارادة الله فان واقع الصحراء يدعو الى الصمت ؛ اذ أن مثل هذا الايمان بها لا يعتبر « قدرية » مطلقا ، بينما يعتبر كذلك اذا صدر عن أبناء الاحياء الفقيرة القدرة فى المدن •

هذه هى الصورة التى حملتها فئة خاصة من الغربيين ولاسيما من البريطانيين الذين ادوا خدمتهم العسكرية فى الوطن العربى فى النصف الاول من القرن الحالى • وقد تداخلت عوامل كثيرة لا عد لها ولا حصر فى هذه العلاقة الوثيقة والقوية ، التى قامت بين هذه الفئة من ناحية وبين الصحراء وبدوها من الناحية الأخرى ، ولكنها تفاوتت فى قوة ما فيها من تأكيد بتفاوت الافراد واختلافهم • وعادت المسيحية الى الحياة عند عدد من البريطانيين الوريثين بشكل لم يالفوه فى أى جو غربى • وانهارت أمامهم جميع المكائد والمناقشات العقائدية ، وتأثير الايقونات

والوسطاء من البشر وتهاوت صفوف المعابد والكنائس أمام هذا السقف السماوي الواسع الذي يمتد فوق الصحراء . وعندما عاد هؤلاء الناس الى وطنهم في الغرب ، بدا لهم المحتوى الغربي بما فيه من زخرف للنصرانية ، أشبه مايكون بالمركز المهجور النائي ، أو بمحاولة التفاهم الشامل مع الحقيقة المركزة ، الصارخة في البلاد التي نشأت فيها النصرانية . وبات من الأسهل على الجندي المسيحي أو الحاكم الغربي في الصحراء ، أن يتفهم الاسلام وأن ينحى جانبا جميع الحزازات الموروثة البالية التي توارثتها دنيا النصرانية تجاه أضدادها .

وساد الاعتقاد بالاضافة الى كل ذلك بأن أهل الصحراء يتصنعون بقوة ومزايا خاصة يحتاجون اليها ويمكن تطبيقها في كل مكان ، فهم نبلاء أصليون ينحدرون من القبائل العربية العريقة ، ويتفاخر شيوخهم القبليون بأنسابهم . وبدا نبلاء البدو للكثيرين من الغربيين الذين تولوا دراستهم في سنوات التدهور النهائي للامبراطورية العثمانية بمظهر « العرب الاقحاح الوحيديين في الشرق الأوسط » ، وأنهم هم الذين يعتزون بالحفاظ على تقاليدهم خلافا لابناء المدن الذين اختلطت دماؤهم وأنسابهم مع الاتراك وغيرهم من الاقوام الاخرى .

وعندما تطلبت دواعي السوفية (الاستراتيجية) ودوافع السياسة في خضم الحرب العالمية الاولى وما بعدها ، واقتضت مطالب السيادة والسلطان ، أن يقوم الاتصال مع أبناء الصحراء ، وأن تضمن مساعدتهم ، اتفق بحث البريطانيين عن « الارستقراطية الفعالة العاملة » مع انجذابهم نحو هذا المحيط البدوي . ووجدت أفكار هذه المجموعة العقلية من ذوي النفوذ . من عسكريين وجوابين للصحراء في الشرق الأوسط . تأثيرا لها لدى أنصارهم في الغرب ، وأثرت تأبرا حاسما في تقرير السياسات العامة (١) .

وقد بدأت فكرة بدو الصحراء نسبت في أفكار الغربيين وتنمو منذ أمد ما . ولكنها ما لبثت أن تفوت الى حد طاغ نتيجة الاسطورة التي حيكت حول رجل قدر له أن يبرز في الحرب العالمية الاولى وهو تي . اي . لورنس . ولا ريب في أن الأثر الضخم الذي تركه كتابات هذا الرجل عند المثقفين الغربيين ، والشعبية المتيرة التي رافقت نشر مغامراته

(١) لو عاد المرء الى التاريخ العربي الحديث ابان الحرب العالمية الاولى وبعدها ، لوجد ان الاستعمار أراد أن يخلق من بعض الشخصيات البدوية في كل مكان وضع اقدامه فيه طبقة ارستقراطية جديدة يربط مصالحها الى مصالحه ويستخدمها أداة لتحقيق أغراضه في المنطقة . وقد عمل أعمدة الاستعمار البريطاني في المنطقة من أمثال فيليبى ولورنس وبرسى كوكس وجرتروود بل وبيك باشا وجلوب وغيرهم كثر على خلق هذه الطبقة واضفاء العروش والتيجان ومظاهر الزعامة القبلية عليها . لاستخدامهم كما أثبتت أحداث التاريخ العربي الحديث في ضمان مصالحه ورعايتها .
المعرب

عند الزاى العام الغربى ، قد تركا تأثيرات ثقافية متناهية الاهمية فى السياسة الغربية فى الوطن العربى فى غضون الاربعين سنة الماضية .

ولم تقتصر الشعبية الجماهيرية التى كسبها لورنس وبدو الصحراء الذى اشتهر هو بأنه « ملكهم غير المتوج » على القارة الاوربية بل تعدتها الى أمريكا ، حيث باتت شخصية الشيخ العربى صـورة ذائعة الانتشار وقد رأينا الحكومة الامريكية توفد رسميا لويل توماس (الكبير) المحاضر فى جامعة برنستون ، فى عام ١٩١٧ الى أوربا ليكتب تاريخا عن الحرب العالمية بطريقة تفرى الشعب الامريكى بدخولها وألقى توماس نظرة على خنادق الجبهة الغربية التى تنتشر فوقها الجثث وتملأها الوحول ، فقرر ان ليس فى هذه الجبهة من الرومانطيقية والسحر ما يدعو الى بعث الحماسة فى نفوس الامريكيين لدخول الحرب وانتقل من أوربا بمساعدة جون بوخان من رجال مصلحة الاستعلامات اتى اشنت حديثا فى لندن ، الى جبهة الفريق (الجنرال) اللبى ، فى الشرق ، عله يعثر فيها على مادة أفضل . وتعرف فى شهر فبراير (شباط) من عام ١٩١٨ ، فى مدينة القدس التى كان جيش اللبى قد احتلها قبل برهة وجيزة ، الى ضابط بريطانى شاب يرتدى ملابس البدو الزاهية ، ويدعى لورانس « البلاد العربية » . وأدرك لويل توماس فورا ، انه قد التقى باحدى الشخصيات النادرة فى التاريخ ومضى لتوه يعمل فى جمع المعلومات والتقاط الصور عن الثورة العربية التى كان لورنس على اتصال وتيق بها .

ولكن الهدنة ما لبثت أن عفدت قبل أن يحقق لويل توماس ما يتوخاه من نتائج من رحلته . وما كاد يعود الى نيويورك ، حتى شرع فى التاسع من مارس (آذار) عام ١٩١٩ يفتتح موسم المحاضرات التصويرية بسلسلة اطلق عليها اسم « مع لورنس فى بلاد العرب » ولم تكن هذه المحاضرات الا مجموعة من الصور التى تمثل انطلاق الجياد والابل فى طرادها والمحجبات من النساء ، والاماكن المقدسة ، والشيوخ الذين لا يحصر عددهم من زعماء البادية . وما لبثت هذه المحاضرات ان انتقلت الى حدائق ميدان ماديسون لتكون أوسع انتشارا . وأجرى الرجل عقودا تمتد مدة عام كامل ، يطوف فيه بصوره ومحاضراته ربوع أمريكا كلها ، ولكن الشريط ما لبث أن نقل برجاا خاص الى لندن ، ليعرض فى شهر أغسطس (آب) من عام ١٩١٩ فى حدائق كوفنت أمام حشد ضخم من النظارة فى ليلة الافتتاح . وقد أضفى على الافتتاح جو آخر من التزييق بعرض أوبرا عن النيل ورقصة الاقنعة السبعة ، وظهور مغن ايرلندى يحاول محاكاة الاذان الاسلامى داعيا الى الصلاة . وعمت الحماسة العاصمة البريطانية ، وانتقلت المحاضرة المصسورة من جديد الى البرت هول . وحث لويد جورج - رئيس وزراء بريطانيا آنذاك - لويل توماس على الانتقال بمحاضراته فى جولة يطوف بها العالم الناطق بالانكليزية وقد لبى الكاتب الامريكى رغبة لويد جورج بعد فحو من ستة شهور . وكان أكثر من مليون انسان قد شاهدوا فى

غضون ذلك هذا الشريط التصويرى فى لندن . وقد عرض نحواً من ألفى مرة فى أمريكا وبريطانيا وأستراليا وغيرها من الأماكن ، ورافقت هذه العروض حملات صحفية واسعة النطاق فى الصحف اليومية والمجلات . وبيع من كتاب توماس الذى حمل نفس الاسم أكثر من مائتى ألف نسخة من طبعته الانكليزية وحدها ، وهو رقم خيالى بالنسبة الى حقبة العشرين .

ولم يحظ العرب قطعا قبل هذا التاريخ أو بعده . تمثل هذه الدعاية الخيالية الكبيرة فى العالم الغربى . وأدى تمثيل رواية « الشيخ » لروودولف فالنتينو والصور التى جمعها توماس عن لورنس وعن الغرب ، الى ظهور البلاد العربية على الخريطة : واثار فيلم « الشيخ » استجابة ضخمة فى العصر الذى تلا الحرب والذى تميز بالميل الى المغامرات المتهورة ، والتعطش الى الأجواء الرومانطيقية وحياة المجازفة ، والقلق الحطير الناجم عن ازدهام العصر الآلى . ولم يكن هناك من يرغب فى أن يذكر بطراز الفروسية الذى عرفته الجبهة الغربية . ولا ريب فى أن الدس فى بريطانيا كانوا أكثر تأثراً برواية الشيخ القبلى الجرى يندفع من الصحراء ليخطف فتاة أوربية جميلة ، ثم يقوم بعد ذلك ضابط أوربى أكثر شجاعة بانقاذها منه . وقد تم اخضاع الغرب الكبير فى أمريكا ، ليألف الناس فيه المساحات الشاسعة والمغامرات ، وساعد الشيخ العربى فى ملء فراغ معين . واجتازت الصورة المحيط الاطلسى ، مزودة الجماعات المثقفة على جانبي المحيط ، بالأمور التى كان يفتردها .

ولكن هل كانت الصورة التى انطبعت فى العقل الغربى الحديث هى بالفعل صورة الوطن العربى ؟ أرى لزماً أن نبقى على هذا السؤال بلا رد مدة أطول مع الاكتفاء بأن نلاحظ أن الصورة التى انطبعت فى عقول حماير الشعب ، كانت تمثل بصورة طاغية الانسان العربى على أنه رجل الصحراء ، الذى لا يملك مسكناً ثابتاً مستقراً ، والذى يصنع لنفسه الشريعة التى يريدونها ؛ والتى تكون فى جوهرها ، كراهية المجتمعات المدنية المنظمة والحكومة حكماً جماعياً ، والمسترخية العيش . يضاف الى هذا ، ولعل هذا هو الأهم أنه كان هناك نوع من الروتق الايجابى لهذه الصورة وهو عنصر الإعجاب الرومانطيقى بصعاليك الصحراء .

ونمت الى جانب هذه الصورة الشائعة ، صورة أخرى أكثر تعقيداً عند أولئك الذين يتمتعون بمزيد من الثقافة والميل الى المعرفة . وأضحت كتابات لورنس نفسها بكل ما فيها من عذوبة الاسلوب والوصف الرائع للصحراء حافزاً حقيقياً للآخرين . وشرع الكثيرون فى اخراج الكتب عن الصحراء العربية وعن عرب الصحراء أيضاً ، متناولة الكشف عن مجاهلها ، وعن طبيعتها ونباتاتها وحيواناتها وآثارها ، وذكرياتها الحربية ، على أن لورنس ظل المرجع الذى لا يبارى أو يجارى فى الحديث عن العرب ، أو لم يطلق عليه كتاب « من هو ؟ » لقب « أمير الجزيرة العربية » ؟

وهكذا لعبت آراؤه عن الشخصية العربية وعن نوازعها السياسية

دورا كبيرا في تشكيل عقل الغربي المثقف تشكيلا سرعان ما برز في السياسة الغربية الرسمية . فلقد ذكر لنا لورنس أن في الامكان أن يقف العرب من أية فكرة موقفا متأرجحا كالخيط المتذبذب، الى أن تكون الفكرة قد اختفت ويكون العمل قد انتهى الى حطام . . وهكذا يشبه العرب الماء في عدم استقراره ورجرجته (١) و خلقت كتب لورنس وغيره من البريطانيين الذين عادوا لتوهم من الصحراء . صورة مبهمة عن العقلية العربية تقوم على أساس الشكل الذي رسموه لشخصية القبيلة العربية . ولعل من النتائج الحيوية الأخرى ، التي انبثقت عن هذه الكتب ، الاعتقاد الشامل الذي ساد الغرب « بأن العرب قد يتحدثون كثيرا عن الوحدة ولكنهم لن يتولوا تحقيقها أبدا » . أو لم يقل لورنس نفسه أن « الوحدة العربية هي فكرة انسان مجنون .. وان ما أراه من سبيل ، هو قيام مجموعة من الدول الصغيرة (٢) وهكذا كانت الطبيعة الكاملة للمجتمع البدوي القبلي ، متناقضة مع الفكرة الغربية عن الوحدة السياسية .

وهكذا كان من الطبيعي بالنسبة الى الجمهور البريطاني والى المنقذين وساسة الفترة التي تلت نهاية الحرب العالمية الاولى ، أن السياسة البريطانية في الوطن العربي يجب أن تركز على نبلاء الصحراء وعلى الشخصيات النرية والمحافظة والنبيلة في المدن ، طالما أن هؤلاء على استعداد للتعاون مع بريطانيا ومع ساستها . وقد صبح هذا القول بالنسبة الى السياسة البريطانية في الجنوب والخليج العربيين ، وبات الآن صحيحا بالنسبة الى امارة عبد الله في شرق الاردن والى مملكة العراق الجديدة . وعلى القارئ أن لا يظن أن نبلاء الصحراء هؤلاء كانوا خائعين مستكينين دائما ، فعلى النقيض من ذلك كان اعرابهم الانوف عن شكل من اشكال الوطنية العربية الذي تحترمه السلطات البريطانية بسبب ما فيه من جذور ارسقراطية وتاريخية ، جزءا من العلاقة القائمة بينهم وبين هذه السلطات (٣) .

(١) كتاب لورنس « الثورة في الصحراء » نيويورك .

(٢) رسالة لورنس الى مؤرخ حياته ليدل هارت - فابر - لندن ١٩٣٨ . لا يقصد مؤلف هذا الكتاب أن يقول ان لورنس لم يكن يعرف شيئا أبدا عن العرب ولكن مايود قوله هو أن هذه المعسرفة قد بولغ في تقديرها تمام المبالغة . فلقد ثبت خطل الكثير من أحكامه وتوصياته . ولكن الحالة التي أحاطت به، جعلت آراءه في كثير من المشاكل الحاسمة وفي لحطات حرجة في المفاوضات التي تلت عام ١٩١٨ تتخذ شكلا باتا قاطعا . وقد سيطر على رجال من أمثال ونستون تشرشل الذي أشركه في رسم خريطة الشرق الاوسط على الورق .

(٣) لم تكن مواقف المعارضة التي كان يقفها هؤلاء العملاء ، متظاهرين بالوطنية الا تصنعنا وزيفا لخداع الجماهير العربية ، باتفاق مع السلطات البريطانية الحاكمة .

ويبدو من قول المؤلف انه اراد الاشارة الى هذه الحقيقة دون ايضاحها ايضا كافي . - المغرب

وكان فيلق الموظفين البريطانيين من عسكريين ودبلوماسيين ومستشارين مدنيين ، الذين يمثلون بريطانيا في الشرق الأوسط ، يعربون دائما عن مدى استهواء الصحراء البدوية لهم . وكانت الكتب التي يرجعون اليها هي من طراز ما ألفه دوتي وهوجارت ولورنس وجروتروودبل . وعززت التجارب الشخصية التي مروا بها سواء أكانوا في الوظيفة ، أم خارجها في أجازاتهم المحلية القصيرة ، هذا الاستهواء الذي تبعته الصحراء في نفوسهم ، فلقد بان من شروط البروز في المجتمع ، أن يكون المرء قد قضى وقتا في الصحراء ، وأن يكون قد تعرف الى البدو . وهل يمكن للمدينة العربية التي توفر لهم بما فيها من قذارات ودسائس وأمراض ومشيرات وضيفة يومية ، تعرض لهم ، شيئا يعرضهم عن اغراءات البادية ؟ لقد كان ما يتميز به عمال المدن العربية من جهل وفقر ، وما تسعى اليه طبقتها التجارية الوسطى الحديثة النعمة من اقتباس للحياة الغربية ، ومظاهر السخط التي تصدر عن الموظفين من ذوى الياقات « المنشاة » والميول التي يبديها الاساتذة والمعلمون لتذكير البريطانيين بالمبادئ التي يبشرون بها في بلادهم ويتناسونها في الشرق الأوسط ، والحركات القلقة التي تقوم بها الأجيال الجديدة من الطلاب ، كلها عوامل تؤلف الجانب السلبي من صورة الشرق الأوسط وحياته التي تدفع هؤلاء البريطانيين الى التقرب من الصحراء

وهكذا بات في وسعنا الآن أن نرسم خطوط الصورة التي كانت ماثلة في أذهان الغربيين عن العرب ، وأن نشير فورا الى وجود « ازدواجية في الافكار التي تجمع بين روعة الصحراء وروعة شيوخها في عبااءاتهم الفصفاضة وعقولهم الذهبية المقصبة وكوفياتهم الحريرية البيضاء ، وبين صورة العرب في المدن التي تتمثل في القذارة والحطة والخديعة (١) وكتب بريطاني بارز آخر شهد هذه العملية كلها على النحو التالي :

« كان هناك ميل واضح الى اظهار المزيد من الحب والعطف لشيوخ القبليين الرائعي الصورة ، الساحري الهيئات ، والى ممثلي الارياك وكبرائها ، دون العرب المثقفين ثقافة غريبة ، المتميزين بالقلق والسخط من أبناء المدن ، واذا كان ثمة من اضطرابات فان مصدرها هؤلاء النخب المثقفون ثقافة غريبة » (٢) .

ونصل الآن الى سؤال واضح . ترى ما هي الحقيقة ؟ التقى في عام ١٩٥٥ ضابط بحري أمريكي مقف ، بضابط مصري في مكان ما في إيطاليا . وعندما علم الضابط الأمريكي أن صديقه يعيش في القاهرة ، راح يوجه اليه السؤال التالي بصورة في منتهى الجذ قائلًا : « آه فل لي ، هل أفمت حيمك على مقربة من النيل ؟ وهل يبعد هذا السؤال كثيرا عن الصورة التي حملها الغرب عن عالم الصحراء العربية ؟ أننا في حاجة الى الرد على هذا

(١) كراكتاكوس - كتاب « ثورة العراق » لندن ١٩٥٩ . وقد نقله معرب هذا الكتاب الى العربية .

(٢) ميشيل ايونيدس في حديثه الاذاعي « التفاهم مع العرب » ٧ أغسطس ١٩٥٨ - لندن .

«السؤال في شكلين اثنين ، أولهما معرفة نسبة البدويين العرب ،
وثانيهما درجة التحول الى حياة المدن ونسبته في غضون الثلاثين عاما
انتى تلت عام ١٩١٨ والتي كانت صورة بدوى الصحراء ، سيطرة
سيطرة كلية على الغرب . وهذه بعض المعلومات الاساسية

» لم يكن في مصر في عام ١٩٢٧ أكثر من خمسمائة ألف من البدو
من انصاف المتحضرين يعيشون وسط شعب يتجاوز عدده أربعة
عشر مليوناً . وكان عدد سكان المدن يربو على نصف الرقم الكلى
للسكان . وعندما حل عام ١٩٤٧ كان نحو من ثلاثة وعشرين فى المائة
من مجموع السكان يعيشون فى عشرين مدينة ليس الا ، وكان عدد
البدو قد هبط الى الخمسة والخمسين ألفاً من مجموع انتسعة عشر
مليوناً . وكان عدد سكان القاهرة فى عام ١٩٢٢ نحو من ثمانمائة ألف
ثم ارتفع هذا الرقم فى عام ١٩٥٢ حتى بلغ ميلونين ولم تكن هناك
» خيام تقوم الى جانب النيل .

» وكان عدد أبناء القبائل الرحل فى سورية ولبنان فى عام ١٩٢٢
نحو من ثلثمائة وخمسين ألفاً من مجموع سكان يربو على المليون . وكان
ما يربو على الخمسة والعشرين فى المائة من الرقم الكلى ، يعيشون فى
مدن دمشق وبيروت وحلب وطرابلس وحمص . ويبلغ عدد سكان سورية
اليوم أربعة ملايين ونصف المليون وعدد سكان لبنان مليوناً ونصف
المليون . ويعيش نحو من مليونين من مجموع السكان فى البلدين فى عشر
مدن رئيسية . ولا يعدو عدد البدو الآن أكثر من مائة وسبعين ألفاً
وارتفع عدد سكان دمشق من (١٨٨) ألفاً الى (٣٠٣) آلاف وعدد سكان
بيروت من (٩٥) ألفاً الى (٢٤٧) ألفاً .

» وكان عدد البدو فى فلسطين فى عام ١٩٣١ لا يربو على الواحد
والستين ألفاً من مجموع السكان العرب البالغ عددهم تسعمائة ألف .
وكان نحو من خمسة وعشرين فى المائة من مجموع السكان العرب من أهل
المدن . أما البقية فتعيش اذا استثنينا البدو على العمل المستقر فى الحقول
ومع ذلك فلقد كانت هناك فكرة مستقرة طيلة أيام الانتداب ، وتعمل
الصهيونية على ترويجها ، بأن فلسطين ، أرض خالية تقريباً من السكان .

»وعندما اقتطع تشرشل ولورنس فى خريطة رسماها الى غطاءمائدة
فى أحد مطاعم لندن ، شرق الاردن من الصحراء السورية ، كان عدد البدو
فيها يبلغ نصف عدد السكان تقريباً . فلقد كان العدد الاجمالى للسكان
لايتجاوز الثلثمائة ألف منهم (٥٤) ألفاً يعيشون فى المدن الصغيرة .
ولكن عندما ضمت مملكة الاردن الجديدة الى أرضها فى عام ١٩٤٩
ما تبقى فى فلسطين العربية ، تبدلت الصورة الفعلية لترتيب السكان
فى البلاد على الرغم من عدم وقوع أى تبدل فى نسبة البدو فى الضفة
الغربية . وبات التكوين الاجتماعى للبلاد على النحو التالى (٤٥٠)
ألفاً يسكنون المدن و (٣٨٥) ألفاً من أهل القرى المتحضرين
و (٤٧٠) ألفاً من اللاجئين ومعظمهم من أهل المدن السابقين أو من
الفلاحين المستقرين و (٦٥) ألفاً من البدو وأشباه الرحل . وارتفع
عدد سكان عمان من عشرين ألفاً فى عام ١٩٢٢ الى مائتى ألف ، .

« وكان عدد سكان العراق عند بدء هذه الفترة يشتمل على نسبة كبيرة من أبناء القبائل يعيشون بصورة جماعية على أراضي القسبيلة المشاع . وكان عدد سكان بغداد (١٤٥) ألفا من مجموع ميلسوني نسمة يعيشون في العراق كله . وبلغ عدد سكان بغداد في عام ١٩٥٢ ، نحو (٤٧٠) ألفا بينما ارتفع عدد سكان العراق كله الى خمسة ملايين منهم ثمانية في المائة فقط من البدو الرحل واثنان وعشرون في المائة من أهل المدن ، واثنان وعشرون في المائة من الفلاحين وثمانية وأربعون من البدو المستقرين الذين يعملون في الزراعة » .

هذه هي البلاد والكيانات السياسية الجديدة الخلق ، التي تركزت عليها السياسة الغربية ، والصورة الغربية العامة عن العرب طيلة السنوات الثلاثين التي انقضت بين تسويات الصلح بين عامي ١٩١٩ و ١٩٢٢ ، وبين ثورة الجيل العربي الجديد بين عامي ١٩٤٩ و ١٩٥٢ . ولا ريب في أن الأرقام التي سردناها تتحدث عن نفسها (١) وهكذا كانت صورة بدوي الصحراء خيالا خطرا خادعا حتى في عام ١٩٢٢ . ولكنها ما لبثت أن انقلبت في عام ١٩٥٢ الى مراب كامل قوامه سوء الفهم الى درجة استثنائية . ويعيش اليوم في الشرق الأوسط العربي أي بين مصر والعراق وبين شمال سورية وعدن ، نحو من أربعين مليونا . ويعيش نحو من ثمانية ملايين من هذا العدد الإجمالي في المدن والبلدان الكبيرة وحدها . وليس في المنطقة كلها على الرغم من شمولها الجزيرة العربية أيضا ، أكثر من ثلاثة ملايين ونصف المليون من البدو الرحل . أو انصاف الرحل . ولكن على الرغم من هذه الحقيقة التي تعززها الأرقام ، مازالت الصور الغربية التي تمثل السياسات الغربية ، تعرض الصحراء ، والبدو العرب ، وأشجار النخيل الغربية التي تمثل الواحات ، وقد ظهر فيهما شيخ عربي في سيارته الكاديلاك ليمثل على سبيل الافتراض صورة « ألف ليلة وبيلة » في الوطن العربي . وكثيرا ما تظهر هذه الصورة الساخرة أيضا وجه خروشوف وهو يطل من وراء شجرة نخيل منعزلة .

وليس تمة الا القليل من الامثلة المشابهة لهذه من مفاهيم الغرب عن اقوام وجماعات ثقافية أخرى ، حيث تتعرض هذه المفاهيم لاعادة النظر جذريا وبصورة مستمرة في الصحافة والمدارس والحلقات السياسية . وقد قمت ذات مرة في أحد أعياد الميلاد الأخيرة بجولة دراسية طقت فيها بمكتبات لندن ، للبحث عن الكتب الجديدة للأطفال في مختلف الاعمار . ورأيت في طوافي هذا ، الصورة العربية التي تلقن حتى الآن لجيل عربي جديد ، والتي اكتفى هنا بسرد مثلين معبرين كل التعبير عنها ، أما المثل الاول ففي صورة كتاب قصصي .

« واندفع العرب يصرخون صراخا حادا ، ثم كبحوا جماح جيادهم فأوقفوها بصورة مفاجئة . وترجل رجل طويل معقوف الأنف عن جواده ،

(١) استندت في هذه الأرقام الى الاحصاءات الرسمية : والى تقارير اللجان الملكية لفلسطين وكتاب الدكتور محمد عوض عن « الجماعات القبلية في الشرق الأوسط » .
المؤلف

وقال بعد أن حيا تحية هازئة بانكليزية سيئة .. ان الشيخ الرازي
تحت تصرفك .. عليك أن تأتي معنا .. (١)

أما المثل الثاني فيعكس بصورة لاشك فيها مشكلة خطيرة تواجه
المشرف على تأليف الكتب المدرسية أو الموجزات الاعلامية . فهو يود أن
يرسم نماذج مميزة من الشخصيات البشرية وطرز السلوك وأشكال
الحيطات في كل منطقة من مناطق العالم . أنه لا يريد أن يضلل القارئ
الطفل ، ولكن على الرغم من ذلك ومن هذه الرغبة التي يدعيها ، فإن
اطفال الغرب من صبيان وفتيات مازالوا يلقنون عن الوطن العربي على
النحو التالي :

يعيش عبد الناصر في البلاد العربية وهي بلاد حارة جافة لا ينزل
المطر فيها الا لاما . ومعظم البلاد العربية أرض صحراوية .. والقبيلة
التي ينتمي اليها عبد الناصر ، من البدو الرحل الذين لا يستقرون في
مكان واحد . وانما يتنقلون في الصحراء بحثا عن المرعى والماء لقطعان
أغنامهم وماعزهم وابلهم .. ويستقل عبد الناصر نفسه الجمل في
تنفلاته ، (٢) .

وأخيرا هناك عنصر مهم آخر يتمثل في الصورة الثقافية المركبة
التي نحملها للعرب ، والتي أرى أنها جذيرة بالملاحظة، وأعني بها مواقفنا
من مصر . لقد بدأت صلات العرب الحديثة مع الشرق الاوسط من
رسمية ومالية وأثرية وتربوية وسياحية ، بمصر قبل غيرها من أجزاء
هذا الشرق ، وكانت أكثرها شمولا واتساعا . ولقد تقرب الغرب من
مصر ، وهو يحمل في عقله الجماعي ، عدة مفاهيم ثابتة الرسوخ . فلقد
كان من الراسخ في الثقافة الغربية أن المصريين يؤلفون عنصرا من اقدم
الاجناس البشرية المنظمة في العالم ، وظل مفهوم «الجنس» هذا ، الذي
يقرر الطبيعة الثقافية والسياسية لاي بلد من البلاد أو شعب من
الشعوب ، قويا بالنسبة الى فكرة الغرب عن مصر ، حتى انقضاء أمد
طويل من القرن العشرين . وليس ثمرة شك في أن رفض العلم
الحديث ، ومفاهيم علم الاجناس البشرية، بالاضافة الى المفاهيم
العنصرية ، مازال يتسلط على الكثير من وجهات نظرنا عن العالم .

وكنتيجة لهذه المفاهيم ، كانت مصر تعنى للغرب حضارة أقدم
عهدا بكثير من حضارة العرب ، وبات من المتعذر والحالة هذه على الغربي
أن يفهم « تعريب » مصر الذي وقع قبل أكثر من ألف عام أي منذ أيام
الفتح العربي لها في عام ٦٤٠ ميلادية، والذي استمر حتى اليوم . ولقد
كان معظم أبناء الطبقة المختارة التي ظلت أوروبا والغرب على اتصال بها
حتى عام ١٨٨٢ ، من الاتراك ، الذين تأثروا بطرق الحضارة الاوربية

(١) قصة «واحة الزيت» في كتاب الديلي ميل السنوي للأطفال-لندن

١٩٥٨

(٢) كتاب «نظرة الى الاطفال الآخرين» لغادسبي - لندن ١٩٥٨.

الجديدة • وكانت الحركة الوطنية التي واجهتها بريطانيا في مصر بين عامي ١٨٨٢ و ١٩٥٢ ، مصرية الطابع الى حد كبير كما سبق لنا وأسلفنا في هذا الحديث • ونمت أعراف سياسية وإدارية كاملة ، حول النظرية القائلة بأن « المصريين » يؤلفون عنصرا بشريا قائما بذاته • يختلف كل الاختلاف عن شعب الوطن العربي • وعلى هذا الاسساس كانت دوائر السياسة البريطانية وأجهزتها التي تعنى بمصر غير الدوائر والأجهزة التي تعنى بالأجزاء الأخرى من الشرق العربي، وكانت طبائع الرجال الذين يتولون الاشراف على هذه الدوائر والأجهزة وشخصياتهم مختلفة كل الاختلاف بالنسبة الى هذين الجزئين من الشرق الأوسط • وبالاختصار كان من المستحيل تصور وجود رجل كلورنس ينظم قوة ثورية من الفلاحين المصريين كما كان من المؤكد • أن شخصا مثل « جلوب » • لا يمكن أن يوجد ليحب المصريين •

ولم يكن هذا الانقسام المتزمت مجرد نمرة من نمار العصر • فهناك في أعماق العقل الباطن للثقافة الغربية تحيز خاص ضد « المصريين » • ونحن نستمد هذا التحيز من تلاواتنا الكتاب المقدس في مدارس الإحد • ولا ريب في أن دوره في مواقف الدول الغربية من نزاع مصر الحديثة وإسرائيل الجديدة ، يؤلف موضوعا جديرا بالدرس • وعندما عادت أوروبا الى اكتشاف مصر من جديد اكتسب هذا الغرض الجوهرى مزيدا من القوة والتعزيز ووجد أسلافنا من رجال القرن التاسع عشر - وقد تشبعوا بروح طيبة من الكبرياء والاعتزاز بمنجزات حضارتنا الغربية - في مصر بلدا غارقا في التدهور والتأخر ، ولا تضم الا فئة قليلة مختارة ، تنير نصرفاتها ونقاقتها المختلطة ، أعصاب هؤلاء الأسلاف ، وتضللمهم • وظل منذ ذلك الحين سؤال حائر فيه معنى الزرابة ، يسيطر على عقولنا ، وهو كيف يمكن لهذا الشعب الذي كان موهوبا في يوم مالى درجة عظيمة أن يهبط الى هذا الدرك ؟ أولا يمكن أن يعزى ذلك الى عيب متوارث في أصول هذا العنصر ؟

وظلت العلاقات المصرية - الأوروبية منذ ذلك الحين ، تمثل أكثر العلاقات التي ظهرت مع نشوء الاسنعمار والسياسات المايله توترا ، وأثارة وإزعاجا • وظلت مصر منذ هبوط نابليون أرضها ، وطيلة عهد محمد على الحديث النعمة بالملك ، وأيام عرابى الرجل العصامى ، وطيلة أيام الاحتلال المزعجة ، مصدر إثارة لبريطانيا وفرنسا والغرب عامة • وكان من العسير بصورة خاصة ، بل من المستحيل على معظم البريطانيين الذين يعملون في مصر أن يقنعوا انفسهم بأنهم يؤدون عملا يقوم على الحب أو على نظرية الايثار الاستعمارية الليبرالية • واقامت تجارب السياسة البريطانية في مصر القائمة على أساس فرض القوة بصورة رئيسية ، شيئا من الاجتهاد النفسى أما في الشرق والمغرب العربيين فان الاحلام الخاصة باعادة بعث التاريخ العربى والمبادئ الظاهرة لانظمة الانتداب ، تمكنت من أن تشجع وجود نظرية العمل الانسانى القائم على الحب • • ولقد شهدت شوارع لندن وأدنبره في عام ١٩٥٥ ، جوقة موسيقية من البدو الاردنيين تعزف أنغامها

وهي تمر فيها ، فتستثير في نفوس السامعين كل الذكريات المتعلقة بلورنس ، ولم يكن هناك من يتصور ، أن مثل هذه الحفاوة ، قد تقابل بها فرقة مصرية ممثلة في بريطانيا في الفترة الواقعة بين عامي ١٨٨٢ و ١٩٣٦ ، وهي الفترة التي كانت بريطانيا تفرض فيها على مصر حكما شبيه استعماري . وكان صورة أمير شاب من أمراء « الاسرة المالكة العربية » وهو يدخل كلية هارو أو كلية ساند هرسنت لأول مرة ، تستهوى قراء مجلة « لندن ايلستريتد نيوز » ، بينما كانت ثمار التربية المصرية تستفزههم ، وكان فاروق نفسه يورى بتصرفاته هذا الاستفزاز ، اذ أن القليلين في الغرب هم الذين كانوا يعرفون أن فاروق بعيد عن مصر بعد الارض عن السماء .

وعندما نعرض الازمات وألوان الصراع التي وقعت في السنوات الاخيرة ، لا نرى دغيا مطلقا للمبالغة في أثر هذا الكره العميق عند الغرب للمصريين أو أثر هذا الفصل من الغرب بين مصر والعرب ، اذ أن الكره والفصل قائمان ولا يحتاجان الى مبالغة . ولم تتج لهذا البلد الذي يعتبر أكبر البلاد العربية وأكثرها تقدما ، ومحور اندفاعها وانطلاقها ، والذي كان أول ما ناز منها وجنح الى الاصلاح ، وانطلق صوته عاليا يعرض ميول العرب الى الحياد في الحرب الباردة - الفرصة ليتفهمه العقل الغربي تفهما واقعيا صحيحا . ولقد رأينا كاتبيا بريطانيا لامعا يصف الثقافة المصرية بأنها « وليد هجين قد أجهض » كما رأينا صحيفة « لايف » انواسعة الانتشار على صعيد عالمي تصف « عبر القاهرة » في عام ١٩٥٨ بأنه عطر مزيج من الياسمين والعرق وقاتل الذباب » ، يختلط مع الغبار الذي عاش أكثر من خمسة آلاف عام (١) . وأستند « جلوب باشما » حرفيا الى أقوال التواراة لكي يقيم الدليل على انه « لا يمكن الركون الى المصريين » (٢) ، كما أدلت المنظمات الصهيونية العالمية بدلوها بين الدلاء في هذه الحملة على مصر ، متباكية على ما ارتكبه الفراعنة القدماء من مظالم مع العبرانيين . وقد وجدت كل هذه الحملات أرضا خصبة في هذه البلاد .

اذن فكيف يمكن لنا تلخيص جميع هذه « الافكار والآراء والصور » التي تجمعت وتراكمت ، وتشبع بها عقل الغربي وأثرت على ردود فعله تجاه الوطن العربي الحديث ؟ ان هذه الصورة كغيرها من الصورة المماثلة

(١) عدد ٢٧ أكتوبر ١٩٥٨ في مجلة لايف - مقال لجى . بيرك .

(٢) من كتاب جلوب « جندي مع العرب » وهناك فقرات مماثلة في غرايتها وخيالها عن الطبيعة المصرية في كتاب « بريطانيا والعرب » ولا ريب في أن العدد الكبير من القراء الذين قرأوا رواية نيفل شوت عن المعركة الذرية الهائلة في المستقبل والتي نشرها بعنوان « على الشاطئ » في عام ١٩٥٧ ، قد هزوا وعوسهم موافقين عندما وجدوا أن الكاتب قد صور المصريين لا الروس على أنهم الذين سيلقون القنابل الذرية على واشنطن ولندن .

المؤلف .

• كثيرة التعقيد ، وتنطوي على العديد من المتناقضات • فقد يسمى أحد الأحداث عصباً ثقافياً معيناً ، بينما قد يدفع حدث آخر ، عصباً يائساً ثانياً الى القفز والوثوب • ولكن في وسعنا أن نشد العناصر الأساسية بعضها الى بعض ، فنتمكن بذلك من فهم الادوار التي لعبتها في تاريخ الشرق الاوسط الحديث ••• وهذه هي ••

١ - الخوف من المسلمين :

ظهر هذا الخوف أول ما ظهر ، مع بدء الزحف العربي باتجاه أوروبا في عهد الفتوحات العربية ، ثم ما لبث ان تعزز باجنياح الاتراك لقسم من أوروبا ، اذ ان الاتراك والعرب يجتمعون في اسلاميتهم ، وتواصل في عقول الغربيين منذ ذلك التاريخ خوف عميق الجذور في أن يقوم تحد جديد لأوروبا ينطلق من الشرق الاوسط • وعلى ضوء هذه الحقيقة رأينا مجلة « التايم » الامريكية ، تكتب الى قرائها ابان أزمة السويس في عام ١٩٥٦ ما يلي :

« انطلق جيش مدهش ، تحفره قوى الاسلام المدافعة ، هادراً من الجزيرة العربية ••• فلم يتوقف الا على مفربة من نهر اللوار في فرنسا على أيدي شارل مارتل • وتراجع المسلمون لينغمسوا في حياة اللهو بين المسك والاماء ، ولتدب المنازعات بينهم ، ولكنهم ما لبثوا أن وحدوا صفوفهم وقد اثار جنونهم الصليبان الحمراء تفرو بلادهم •• ليحطموا ثلاث موجات من الصليبيين •

« واحتل المسلمون القسطنطينية في عام ١٤٥٣ • وهم يصرخون هيا لاستباحة المدينة ، ثم اندفعوا يكتسحون كل ما أمامهم حتى وصلوا الى فيينا • وتمكن الغرب أخيراً من رد المسلمين ، ولكنه لم يسمطع طرد ذكريات ألف عام من الخوف والفرع » (١) •

٢ - مفاهيم ألف ليلة وليلة :

وهناك عنصر ثان في صورتنا المركبة عن العرب ، وهو الاعتقاد بأن المجتمع العربي أصيل في استرخائه وكسله وفساده ، وانه ؛ أي المجتمع مزيج من الترف البالغ والمكر والخداع والتصوف الممزوج بالقسوة والفتيات الراقصات والتراجمة • وتعكس صورنا الساخرة (الكاريكاتورية) وكتابات صحافتنا ، صورة من عقلنا الباطن عن الأمير العربي الحبيث ، الجالس متربعا فوق الارائك الحريرية ، وقد اتقنت أصابعه بالحواتم الثمينة التي تحليها ، ووقف الى جانبه وزيره الأكبر يهمس في أذنه نبأ مؤامرة جديدة يحيكها ، بينما تتضاحك نساء حريمه لابسات الحرير الشفاف ، من حوله ، وقد احطن بنافورة داخل القاعة

(١) عدد مجلة تايم في ٢٠ آب عام ١٩٥٦ • ويبدو ان كاتب المقال نسي أن العرب عندما تراجعوا بعد معركة تور ؛ قد أقاموا مراكز حيوية جداً للدراسات والعلم ، لم يعرف العالم مثيلاً لها من قبل ، - العرب

ولكن هذه الصورة تؤلف مفارقة عجيبة ، مع صورة الزعيم العربى الحديث ، الذى يعيش حياة متزنة فى طهرها وخلوها من الفساد،والذى يحيا فى بيت عادى للغاية فى ضواحي عاصمته ، والتي رسمتها مجلة « لايف » اذ قالت ...

« وفى كل ليلة يجلس عبد الناصر فى غرفته معتزا بما حققه من انتصار ، ليحدد ما كان فى يوم ما مجرد حلم ، فى تعابير واضحة محدودة » .

٣ - شعب الصحراء :

من المعتقدات الشائعة فى الغرب ، ان العرب ، فى طراز معيشتهم شعب من شعوب الصحراء التى تتعهد الجمال وتعيش فى الخيام السوداء . وتتسلط عليها المنازعات القبلية الدامية . ولا ريب فى ان الاستنتاج العام المرتجل ، الذى يستخلص هذه الصورة الزائفة ، هو ان العرب أكثر من أى شعب افريقى - آسيوى آخر ، عاجزون عن طراز التنظيم الاجتماعى فى الحياة المدنية المستقرة وعن طراز السلوك الذى نعرفه عند الشعوب الحديثة و « الاليفه » وقد لا أبالغ ان قلت ، انه لو اشترك مائة شخص من الغربيين العاديين فى مسابقة للكلمات المترابطة ، وطلب اليهم أن يذكروا الكلمة المترابطة مع كلمة « رحل » ، لاجاب تسعون منهم على الأقل وفورا بكلمة « عرب » ، ولاستخدم الباقون منهم كلمة « لا يركن اليهم » . ويعتبر الغرب ان الخلافات بين العرب شئ غريزى أصيل .

٤ - العرب الطيبون :

وانبثقت على أى حال ، عن هذه الصورة القاتمة ، صورة فرعية أخرى ايجابية ولكنها مضللة ، وهى أن « العربى حقا » هو الذى ينتمى الى أهل الصحراء . وأدى البحث الآتى من المحافظين البريطانيين ومن الموظفين الذين قدر لهم أن يوجهوا السياسة البريطانية أو يمثلوها عن « الارستقراطية المحلية » الى استثثار الصحراء بميولهم ، وذلك لانها تمثل لهم هنا ، ماتمثلة الجبال السامقة والمحيطات فى بلادهم ، مما أدى الى تعلقهم بالشيوخ والامراء . وبهذا لهم هؤلاء فى صورة « العرب الطيبين » ، الذين يمكن الركون اليهم ، والذين يعتبرون أقرب الناس شبيها بارستقراطية البلاد المأهولة .

٥ - العرب الاشرار :

يرى الغربيون - نتيجة ماذكرناه فى الفقرتين الثالثة والرابعة . وعلى ضوء الحقيقة الواقعة وهى ان معظم المتاعب التى واجهها الغرب انما نشأت بصورة طاغية عن المدن والبلدان الصغيرة ، فى العرب من سكان المدن - أناسا خطيرين ومتضعين ، متأثرين بتلك « الدهماتية » وذلك « الحداع » اللذين ربطتهما قرون من الحزازات والضغائن بأهل الشرق

وفى مثل هذا المنظر ، يكثر الغربيون من الحديث عن « البقشيش » ، وعن « الدماء » وعن « القنارات » وعن « سياسات الشارع » وهى أقوال ناشئة من ناحية عن أسوأ التجارب مع موانئ الشرق الاوسط ومدنه . ومن ناحية أخرى عن المفارقة بين هذه المدن وبين ما يبدو فى الصحراء من نقاء سحرى .

وهكذا لم يكن الغرب ولا سيما البريطانيون منه أهلا لمعالجة نشوء بالوطنية العربية الجمهورية فى المدن ، التى لم يكن لبدو الصحراء أى شأن يذكر فيها ، والتى كانت متعارضة مع الارستقراطية القديمة حتما .

« وهكذا ظهرت أمام العقل البريطانى ولاسيما أمام الجانب المحافظ منه ، نفس الفجوة من سوء التفهم للجيل الجديد من العرب ، وهى التى كانت قد ظهرت فيما مضى بين الجيل العربى القديم وبين جماهير شعبه » (١) .

٦ - مصر ليست عربية :

وهناك عامل أخير ولكنه ليس بأقل شأنًا من العوامل الأخرى ، فى تأثيره على الطريقة التى عاملنا فيها الشرق الاوسط مؤخرًا ، وهذا العامل هو ما يحس به الغرب من كراهية عميقة للمصريين والتشكيك بهم ، بالإضافة الى الاعتقاد السائد بأن مصر « ليست عربية » وأنها ليست جزءًا من العالم المستعرب ، وأنها والحالة هذه ليست مؤهلة لان تتزعم الحركات السياسية فى الوطن العربى أو تفرض نفوذًا فيه . وليست هناك عند جماهير البريطانيين من كلمة أكثر تعبيرا عن الكراهية والتشكيك اللذين يقابل بهما البريطانيون أى شعب غريب آخر من كلمة « مصرى » ، ولكن شريان البغضاء هذا ينساب عبر الثقافات الغربية عضورا طويلة ، وقد تعزز أخيرا ، ويا للسخرية . بما يوحى به النزاع بين مصر واسرائيل من ذكريات وارتباطات قديمة تعود الى أيام التوراة (٢) .

وانى لارى أن جميع هذه التأثيرات على الفكر الغربى قد ألفت أثرا فى منتهى التخريب والتدمير . ويشعر الساسة والمحورون وكتاب المقالات الصحفية ورسامو « الكاريكاتور » بالاغراء ليجعلوا من « العرب »

(١) مقالة ايونيدس ايفا « التفاهم مع العرب » .

(٢) يرجع حقد الاستعمار على مصر الى أسباب منها القديم ومنها الحديث ، فعلى صخرة مصر واتحادها مع الشام فى أيام صلاح الدين تحطمت أحلام الصليبيين المستعمرين فى احتلال الوطن العربى . وكان شعب مصر هو الذى ناهض الاستعمار الفرنسى فى عهد نابليون والاستعمار البريطانى فى عهد عرابى ، وما تبع ذلك من ثورات وبلغت أوجها فى ثورة مصر الكبرى عام ١٩٥٢ ، التى حطمت آخر ما تبقى للاستعمار من نفوذ فى أرضها ، والتى ألفت قلعة النضال العربى لتحرير الوطن العربى كله من ربة الاستعمار وأعوانه من ممثلى الرجعية الخائنة . العرب .

أو « المصريين » هدف سخطهم ووسائل سخرياتهم « المشوقة » ، وهو ما يظهر بوضوح في معظم المقالات والصور الساخرة والكتب التي وضعت عن المنطقة في السنوات الأخيرة . وبينما كانت صورنا عن العرب تؤلف سرا با خادعا يقوم بيننا وبين المنطقة التي تضم في أطرافها الكثير من مصالحنا الحيوية ، فإن هذه الصور نفسها هي التي جعلت من المنطقة المكان الحديث الذي ينظر اليه الغربيون من اتباع الفلسفة الشكية ، وهو التعبير الأدبي عن عالم غربي يحس بالخطر من خسارة صداقة العرب في عاصفة من السخرية الحمقاء ، المتكيفة . وعلينا الآن أن نتجه بأبصارنا الى هذه القصة الطويلة الملتوية .

- ٣ -

النظام القديم

١٩٢٢ - ١٩٥٢

«لقد استهل فصل جديد ، وافتتح طراز جديد للنضال لا ضد الاستعمار فحسب بل ضد أتباعه وأعوانه» .
من مقال «خواطر عراقية» - ١٩٥٨

« رأى الشبان بوضوح ، وأحسوا احساسا قويا بمدى ما تعيش فيه . جماهير الشعب الوضيعة من تخلف ... وأدى تطلعهم الى الاصلاح الاجتماعى ، الى نشوب صراع داخلى بينهم وبين أبناء الجيل الذى سبقهم من المحافظين » .

ميشيل ايونيدس ١٩٥٨

تطور فى الفترة الواقعة بين عامى ١٩٢٢ و ١٩٥٢ . نظام جديد شمل النواحي السياسية والدبلوماسية والاجتماعية - الاقتصادية ، فى كل من مصر ولبنان وسورية وشرق الاردن والعراق . ولكن هذا النظام ما لبث أن شرع فى الانهيار بعد عام ١٩٤٨ ، وأتت عليه نورة مصر فى عام ١٩٥٢ . ولما كانت سياسات الدول الغربية قد بنيت على أسس هذا النظام ، فقد شرعت هى أيضا فى الانهيار من جراء تهاوى الأسس التى قامت عليها . ويمكن تلخيص السبب باختصار ، فى أن جيلا فتيا جديدا كان قد بدأ ينضج تحت سطح الشرق الاوسط بين عامى ١٩٢٢ و ١٩٥٢ . وان هذا الجيل بدأ يحاول تحطيم القمم الذى يجد نفسه حبيسا فيه . باصرار غاضب ، نافذ الصبر ، للخلاص من كل ما انطوى عليه « النظام القديم » من مضامين .

ولكن ما هى المضامين التى انطوى عليها ذلك النظام ؟ لقد ظهرت عدة كتب ومراجع قيمة . أرخت بتفصيل واسهاب الفترة الواقعة بين عامى ١٩٢٢ و ١٩٥٢ . وليس من هدف هذا الكتاب أن يتناول تاريخ هذه الفترة . فلقد بات أكثر أهمية لنا أن نرى فى ذلك النظام القديم القاعدة العقلية والعاطفية التى بنيت عليها الحركة الوطنية التى تحتم على الغرب أن يواجهها فى حقبة الخمسين . ولم يقم أحد بتميز هذه الحقيقة فى ذلك الوقت . فلقد انقضى القسم الاكبر من الحقبة المذكورة ، دون أن يتمكن سياسة الغرب ومعظم المختصين بشئون الشرق الاوسط ، والشرط

الأكبر من الصحافة الغربية ، من ادراك حقيقة ما كان واقعا ، وما هي العوامل التي أدت الى وقوعه وثاذا . لكن هناك حقيقتين أود أن أؤكدكما وأولاهما أن الجيل الذي ولد بين عامي ١٩١٠ و ١٩٢٠ كان لا يزال مجهولا منا كل الجهل وبعيدا عن أنظارنا وثانيتها أن السبب الحقيقي فيما حدث يقوم الى حد كبير على طبيعة الاوضاع الدبلوماسية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية للنظام القديم الذي اعتمدت الدول الغربية عليه .

ويتمثل جوهر العلاقة التي قامت بين بريطانيا وفرنسا من ناحية وبين الشرق الاوسط العربي من الناحية الاخرى ، وبين عامي ١٩٢٢ و ١٩٥٢ ، في أن هاتين الدولتين عملتا على دعم مصالحهما السوقية (الاستراتيجية) والاقتصادية والثقافية بوسائل لا تصل الى حدود الوسائل الاستعمارية المطلقة ، وان كانت تبعد عن أساليب التعاون التي تقوم مع حكومات حرة ، محترمة وذاتية الارادة وممثلة لشعوبها . ولقد أعلنت مصر في عام ١٩٢٢ دولة مستقلة ، لا لأن السلطة البريطانية قد آمنت بحق مصر في هذا الاستقلال أو بصواب منحها استقلالها ، بل لأن هذه السلطات وجدت أن الضرورة الواضحة تحتم عليها اتخاذ هذه الخطوة لمواجهة الثورة الحتمية . لكن هذا الاستقلال ظل مشروطا على أي حال ، ومقيدا بصلاحيات احتفظت بها بريطانيا لنفسها ومنها الاشراف على سياسة مصر الخارجية (حتى عام ١٩٣٦) ، واستمرار الاحتلال العسكري البريطاني في جميع أنحاء مصر حتى عام ١٩٣٦ أيضا ، وبقاء هذا الاحتلال في منطقة القناة بعد هذا التاريخ في حكم المظهر وفي مصر كلها في حكم الواقع ، طيلة أيام الحرب العالمية الثانية وحتى عام ١٩٤٧ ، والعودة الى منطقة القناة وحدها منذ هذا التاريخ حتى عام ١٩٥٦ . وهكذا ظلت قضية هذا الاحتلال تتحكم في العلاقات المصرية - البريطانية منذ البداية حتى النهاية ، مضافا اليها معضلة المطالب القومية لوحدة وادي النيل ، وهي المطالب التي لم تكن الحكومات البريطانية المتعاقبة على استعداد للتسليم بها .

وكانت العلاقة مختلفة الى حد ما في الشرق العربي . فلقد تبين من الناحية السياسية استحالة تنفيذ المعاهدات السرية التي عقدت بين بريطانيا وفرنسا في عام ١٩١٦ لتجزئة الولايات العربية السابقة في الامبراطورية العثمانية والواقعة خارج شبه الجزيرة العربية . وقد عولجت المشكلة باقامة انتدابات بريطانية وفرنسية على مشرق عربي تم تقطيع أوصاله أيضا . فلقد أعطيت بريطانيا الانتداب على فلسطين وشرق الاردن والعراق ، كما أعطيت فرنسا الانتداب على سورية ولبنان . وكانت هذه الانتدابات « على الورق » مجرد وصاية أقرت من الناحية الدولية نيابة عن عصبة الأمم ، للوصول بالشعوب المعنية الى مرحلة تقرير مصيرها بحرية كاملة ، وبأسرع ما يمكن دون أي تدخل . ولقد رأى الكثيرون من الاحرار البريطانيين والفرنسيين الانتداب بهذا المنظار ، وكرس الكثيرون ممن عملوا في البلاد المنتدب عليها حياتهم لتحقيق هذا المفهوم . لكن الواقع كان يناقض هذا المفهوم كل المناقضة ، فلقد ثبت أن الانتداب كان من الناحية العملية وسيلة لجأت اليها الدولتان للحصول على

التسهيلات الاستراتيجية الدائمة ، مقابل انتهاء الوصاية على هذه البلاد والاعتراف بسيادتها .

واعتقد الكثيرون من السياسة البريطانيين والفرنسيين أيضا أن هذه « المساومة » معقولة كل العقل ، ومتفقة كل الاتفاق مع أهداف نظام الانتداب ، طالما أن معاهدات التحالف ستؤدي إلى تدعيم العلاقات بين العرب وبين هذه الدول التي يعتقد بأنها تجسد كل ما هو سام وجميل في طراز النظام العالمي الذي يفترض أن عصبة الأمم كانت تسعى لإقامته .

وتم في مصر والبلاد الواقعة تحت الانتداب تنفيذ الكثير من المشروعات القيمة ، المفيدة . في مجموعة واسعة من الحقول والميادين في مشورة كل من الدولتين المحتلتين ومساعدتها (١) . ولقد بالغ أنصار هذه الفترة في تقويم هذه المشروعات وتقديرها بينما قلل الوطنيون من شأنها وقيمتها ولا يثير أي من الموقفين دهشة الإنسان المنصف . فهناك حقيقة مفرجة وهي أن كلا من الفريقين كان باستمرار ، في موقف الحلاف العنيد المتزمت مع الفريق الآخر في مختلف القضايا الجوهرية . وكان من المحتوم بالنسبة لهذه العلاقات الغربية - العربية التي استمرت طيلة ثلاثين عاما أن تنفجر كما لو كانت تمثل احتلالا استعماريًا كاملا . ومن المحتمل أن تكون في بعض النواحي أكثر قابلية للانفجار من العلاقات الاستعمارية . ولم تشرع الدول الاستعمارية في التسليم باستقلال الشعوب الآسيوية إلا بعد انتهاء الحرب الثانية ، وعندما فعلت ذلك ، لم يكن هناك أمل في تمكثها من الحفاظ على قواعدها السوقية . وتحتم عليها أن تنسحب انسحابا كاملا شاملا . أما في الشرق الأوسط ، فقد سلمت الدولتان الاستعماريتان للعراق في عام ١٩٣٢ وللمصر وسورية ولبنان في عام ١٩٣٦ ، بشكليات السيادة بينما ظلتا تحتفظان بواقع استمرار الوجود السوقى (الاستراتيجية) المقنع الوجه .

ولم تلق هذه الصفقات أي قبول شعبي ، ولم يرض بها رضاء كاملا حتى أفراد ذلك الجيل المحافظ القديم من السياسة الوطنيين . أما بالنسبة إلى الجيل الفتى فقد رأى في هذه العملية إذلالا يفوق حدود الوصف . وكان البريطانيون والفرنسيون يتحدثون عن هذه « المنح » في حدود « الاحترام المتبادل بين دول متكافئة السيادة » ولم تكن هذه الكلمات بالنسبة إلى الجيل الجديد من الشبان والفتيان الذي كان يرقب هذه الايماءات، الامجرد تعابير جوفاء لا تعنى شيئا أبدا . وقد يكون من الصعب على الغربي أن يفهم هذه الحقائق ، ولكن الفكر الوطنى يرى أن المعاهدات التي تسمح ببقاء

(١) كان من الطبيعى أن تسير هذه البلاد سواء أكان الانتداب قائما عليها أم لم يكن في طريق التقدم مجارة للعصر ، وإن كان من المحتوم أن يكون هذا التقدم أسرع خطأ بكثير مما إذا كانت هذه البلاد متحررة من الانتداب الذي ان صبح أنه قام ببعض المشروعات في البلاد التي كان يتولى السيطرة عليها ، فأنما كانت هذه المشروعات هادفة إلى خدمة مصالحه هو قبل مصالح الدين تولى الانتداب عليهم « العرب »

القوات الاجنبية والقواعد الجوية ، لا تكون قائمة بين أندية الا اذا عفت في منتهى الطواعية والحرية ، ولم تكن هي في واقعها ثمنا لتلك الحرية المكتسبة . ولم يكن في مكنة أي شاب عراقي ، يعرف أن « السيادة » لم تمنح لبلاده الا ثمنا لمنحها القواعد الجوية للسلاح الجوي البريطاني ، أن ينسى بسهولة أن هذا السلاح قد استخدم في مطلع حقبة العشرين لاختضاع العراق بعد ثورته الدموية التي استهدفت مقاومة فرض الحكم الانتدابي نفسه . ولقد استعاد السوريون عندما سمعوا بمعاهدتهم الجديدة مع فرنسا ، التي لم تبرمها هذه أبدا ، ذكريات قصف الفرنسيين لدمشق ، وقذفها بالقنابل ، في نفس الوقت الذي كانت فرنسا تحاول فيه أن تفرض نظام الانتداب الذي طبقت له العصبية وزمرت ، على سورية نفسها . ولم يكن في امكان أية معاهدة مصرية - انكليزية تضمن مجرد جلاء القوات البريطانية الى منطقة قناة السويس ، أن تقدم أية ضمانات صحيحة على أن بريطانيا ستحترم استقلال مصر احتراماً كاملاً . ولقد احتلت مصر فعلاً في عام ١٨٨٢ وكان احتلالها صادراً عن منطقة القناة نفسها .

وفي خضم هذه الموجة العارمة من مرارة الوطنية العربية وصخبها، كان ثمة عامل آخر ، دفع بالشرق الاوسط في فترة ١٩٢٢ - ١٩٥٢ ، الى حالة من الغضب والخسوف والازدراء ، لم تواجهه أية دولة عربية في آسيا . ولم تكن هناك أية مستعمرة في آسيا ، مهما كانت نائية بعيدة تشبه في أوضاعها ، مشكلة فلسطين . فلقد ظل جيل كامل من العسكريين البريطانيين وموظفي الادارة بين عامي ١٩١٨ ، و ١٩٤٨ ، يحاولون وقد حطم بعضهم قواده أو فقد حياته ابان العملية ، تنفيذ سياستين متناقضتين كل التناقض الذي يحمل طابع التفجر واليأس . وقد أدت هذه السياسات المتناقضة الى تفجير المواقف العربية خارج فلسطين أيضا . فلقد كان من المفروض أن الانتداب قد أعطى الى بريطانيا ، لاعداد عرب فلسطين ، وهم أهل البلاد الاصليون وذوو الجذور التاريخية فيها ، لمرحلة تقرير المصير ، وهو ما وعد به العرب على أي حال ابان الحرب العالمية الاولى ، ثم حرّمهم منه الانتداب نفسه . ولكن الأوامر صدرت الى الموظفين البريطانيين في الوقت نفسه بأن يفتحوا أبواب فلسطين للاستعمار الجماعي لليهود الذين لاصلة لهم بها طبقا لبرنامج صهيوني يهدف بصراحة الى اقامة دولة يهودية بطريق التدرج .

ولم يشهد القرن العشرون مايمثل العمل الذي ارتكبه البريطانيون في فلسطين ، أو ما يمكن اعتباره سابقة له ، من الفصل عن طريق العنف بين شعب والاسرة التي ينتمي اليها - لا سيما وأن فلسطين كانت تعتبر جزءاً من سورية العربية - ، ومن الاعلان بجحد وحزم ، بأن الغرض من هذا الفصل ، رفع مستوى هذا الشعب الى مرتبة الحق في تقرير المصير ، بينما تكون الغاية الحقيقية ، فرض جماعة دخيلة عليه ، غايتها أن تجعل من أرضه « يهودية كما أن انكلترا انكليزية » (١) ولم تحاول أية دولة استعمارية

(١) كتاب وايزمن «التجربة والخطأ» .

القيام بمثل هذا العمل الاستفزازي في أى مكان من آسيا • وهكذا قدر
لفلسطين ان تغدو السرطان الفريد في نوعه، الذى يسمم العلاقات القومية
العربية بالغرب ، ويورى صراعها معه •

كانت هذه هى الخصائص الحرجية الشاملة لهذه الفترة التى امتدت
ثلاثين عاما • ولكن كان ثمة عامل جوهرى اخر على أى حال ميز طبيعة
السياسات فى الشرق الاوسط العربى عن تلك التى ابيعت فى المستعمرات
الآسيوية • وهكذا ظهر فى حقبة الاربعين بين السلطة الحاكمة ، وبين
الجماهير العربية التى خرجت الى الميدان قيادة وطنية فتية لتوجيهها ،
نظام سياسى واجتماعى - اقتصادى قوى ، يشمل الوطن العربى كله •
وكان هذا النظام يمثل بوجه عام ، تلك القوى المحلية الراغبة فى التعاون
مع السلطات الحاكمة (الدولتان الغربيتان) أو العاجزة عن معارضتها •
وهكذا تحول الصراع الأساسى الى تصادم بين ثلاث قوى أو أربع بتعبير
أصح • ولما لم يكن هناك أى جزء من الشرق الاوسط العربى متحررا من
القوات والنفوذ الاجنبيين فان النضال الأساسى الذى يقوم به الشعبان
العرب تدرج بصورة ظاهرة نحو من كان هؤلاء الشبان يدعونهم بأعوان
الاستعمار • ولم يكن هناك من سيد مستعمر يتجه انضاله ضده مباشرة
وبصورة صريحة • وبينما كان فى وسع نهرو ورفاقه فى الهند أن يتحدوا
جماعة « العهد القديم » المحافظة ويتغلبوا عليها داخل الحركة الوطنية
نفسها ، واجه أقرانهم فى الشرق الاوسط العربى « عهدا قديما » يقبض
على زمام السلطان الفعلى والقانونى والبوليسى فى الميادين الاقتصادية
والسياسية والعسكرية • وأرى لزاما علينا أن نتولى الآن وبايجاز استقصاء
ما كان يدور فى الاطار الداخلى فى مختلف البلاد •

مصر :

أعلنت انجلترا من جانبها فحسب فى عام ١٩٢٢ استقلال مصر
تحت النظام الملكى ، ونصبت السلطان فؤاد ملكا عليها ، فى الوقت الذى
كان الزعماء الوطنيون وبينهم سعد زغلول يقضون أيامهم فى المنفى
وبدا فى مصر على الفور صراع مستمر مثلث الزوايا • وراح القصر الملكى
يتعاون فى بعض الاوقات مع السلطات البريطانية ، ويعارضها فى أوقات
أخرى طبقا لاتجاه الرياح السياسية •

وكانت دار المعتمد البريطانى تؤيد الملك ضد البرلمان أحيانا وتعارضه
أحيانا أخرى • وراحت الاحزاب السياسية ، وقد صرفها تدخل القصر
عن حقيقة أهدافها ، تقضى جل أوقاتها فى معارضة هذا التدخل • ومالبت
الوفد ، وهو الحزب الوطنى المسيطر ، أن تفتت وتمزق ، من جراء الخلافات
الداخلية بين أعضائه فى موضوع الدور الحقيقى للملك فى نظام الحكم ،
لا سيما وأن جذور التحول الى الجمهورية كانت قائمة فى هذا الحزب وأن
ظلت ضعيفة لا يكاد يحس بها أحد • وكان فى وسع الوفد أن يعتمد دائما
على قوته فى كسب الانتخابات ، ولكنه ما ان يكسبها فى أية مرة من
المرات ، حتى تتفرق وحدة الهدف التى سادت أعضائه ابانها ، وحتى يركن
الى الاسترخاء ، ويفقد التوجيه الصحيح • وكثيرا ما لجأ القصر الى افالة

وزارة جديدة تم انتخابها أو الى تأجيل البرلمان وحله وتعطيل الدستور ، عملا بنصيحة بريطانيا أو بدونها اذا رأى أن النذر السياسية غير مواتية له . وهكذا كانت تنطلق الانتهازية والمصالح الخاصة حرقاً طليقة في ظل مثل هذه الاوضاع .

وكان الاقطاعيون ، هم الذين يسيطرون على الجهاز السياسى فى مصر كلها . وجلهم من الاقطاعيين الاصليين الغائبين عن ارضهم الذين يصرفون ايامهم كلها موزعيها بين القاهرة وأوربا والاسكندرية . وكان الواحد منهم يدير اقطاعياته ، وكأنها عالم خاص به ، ولا شأن لأحد به . وكان فى امكانهم أو امكان وكلائهم أن يضمّنوا الفوز فى الانتخابات البرلمانية ، باستخدام وسائل تشمل دفع ناخبهم ومعظمهم من الفلاحين الذين يعملون فى اقطاعياتهم الى صناديق الاقتراع تحت وطأة العصي . واذا ما رأوا فى مكانة الملك عاملاً مساعداً لهم على النجاح ، لجأوا الى استغلال هذه المكانة بعلم الملك أو دون علمه . وقيل ان أحد الباشوات أعد فى احدى المعارك الانتخابية التى جرت قبيل الثورة (١٩٥٢) ، جهاز هاتف على المنبر الذى يستخدمه فى القاء خطبه الانتخابية . وقرع جرس الهاتف وهو يلقي خطابه فرد عليه موحياً الى الجماهير بأن فاروق هو الذى يحدثه طالبا مشورته . وبالطبع لم يكن الملك هو المتحدث ، بل كان أخوه هو المتحدث من مكان قريب . ولكن الحدة تركت الاثر المطلوب منها . فليس فى وسع انسان أن يتحدث « رجل الملك » دون أن يتعرض للعقاب .

وفى وسع المرء أن يدرك حقيقة ما كانت تتمتع به هذه الفئة المختارة من أصحاب الارض من سلطان سياسى واقتصادى من رؤية الارقام البسيطة المجردة . ففي بلد يضم نحواً من عشرين مليوناً من السكان (احصاءات قديمة !) ، يعتمدون فى معاشهم الى حد كبير على الارض ، يملك الفدان فقط ، نحواً من خمس الاراضى الزراعية كلها . وتملك الاسرة المالكة وحدها مباشرة مائة وثمانين ألف فدان من مجموع الاراضى الزراعية التى لا تتجاوز مساحتها ستة ملايين فدان .

وقفزت الصناعة والتجارة فى مصر بعد عام ١٩٢٢ قفزات سريعة ولم يحل عام ١٩٤٧ حتى كان هناك نحو من ستة وعشرين ألف مصنع فى البلاد . ولكن هذه التطورات لم تخلق طبقة قوية من رجال الصناعة واداره الاعمال والتجار ، تستطيع أن تتحدى السلطان السياسى للفئة المختارة من كبار الملاك . فلقد كان الشطر الاكبر من الصناعة الجديدة ومن التجارة ملكاً للاجانب وتحت ادارتهم ، وكان الاجانب يملكون فى عام ١٩٤٨ نحواً من واحد وستين فى المائة من مجموع رموس الاموال فى الشركات المساهمة . يضاف الى هذا أن الفئة المختارة من كبار الملاك كانت هى التى خططت شكل المجتمع المصرى ورسمت له خطاه وحياته العامة منذ امد طويل ، بحيث أجبر المصريون الذين ارتقوا عن طريق الصناعة والتجارة ، الى الظهور بمظهر التبعية الرمزية للطبقة الارستقراطية من الملاك . وراح

ذوو المكاتب والمال من أبناء المدن يقيمون اقطاعيات جديدة ، وانضمت
الفئة المختارة من هؤلاء الى النوادي الخاصة بكبار الملاك .

وعكست البرلمانات التي سيطر عليها الوفد في هذه الفترة الزمنية
الخصائص الاساسية للاتجاه السياسي . وكان زعماء الوفد من الوطنيين ،
وان كانوا محافظين في الشئون الاجتماعية والاقتصادية . وكانت ميولهم
المحافظة قوية الى الحد الذي دفعهم في ميولهم الى التشريع التقدمي الى
عدم المساس بالضرائب الاساسية والكيان السياسي للبلاد . وقد يكون
صحيحا ان البلاد خضت خطوات كبيرة في حقل التعليم العام في المدن بين
عامي ١٩٢٢ و ١٩٥٢ ، وأن البرلمان قد أقر في عام ١٩٤٦ قانونا مهما
لتنظيم الحركة النقابية وحقق تقدما ملحوظا في حقل الصحة العامة في
المدن ، وسن في نهاية عام ١٩٥٠ تشريعا مهما للضمان الاجتماعي .
وكان كبار الملاك في داخل الوفد وخارجه يتسامحون في مثل هذه
الاجراءات ، فبعضهم يقرها عن ايمان وآخلاص ، وبعضهم الآخر يرى
فيها وسيلة أمن لتجنب الهياج والاضطراب في المدن . ولكن لم يكن في
مكثنة أى برلمان في مصر بين عامي ١٩٢٢ و ١٩٥٢ ، أن يسن قانونا
للاصلاح الزراعي ، ورفض البرلمان الاقتراحات التي قدمت اليه في عام
١٩٤٥ ، ومن ثم في عام ١٩٥٠ بتحديد الملكية الزراعية . ومع ذلك فقد
ظل عدد السكان في مصر في تزايد مضطرد وارتفع الرقم من ثلاثة عشر
مليوناً في عام ١٩٢٢ الى واحد وعشرين مليوناً في عام ١٩٥٢ . وهبط
مستوى دخل الفرد من جراء هذا الارتفاع في عدد السكان ، ولم يحل عام
١٩٥٢ حتى كان ثلث جمهور الريف انصرى غير منتج من الناحية
الاقتصادية .

وراح الكيان السياسي والاجتماعي - الاقتصادي ، ينهار في مصر
شيئا فشيئا سنة بعد أخرى، وفقد الوفد قدره على اجتذاب ولاء الالف
من العاطلين ، ومن ذوي الاجور الضئيلة من خريجي الجامعات ، ومن الجيل
الفتي الجديد من المتعلمين وأنصاف المتعلمين من أبناء المدن والريف وكذلك
ولاء الجماهير الكبيرة من الفلاحين . وكانت مبادئ القصر وتصرفاته
تستفز باستمرار مشاعر الناس بأن الاسرة المالكة ليست بالمصرية حقا
وانما هي السلالة المباشرة للاسرة التركية القديمة التي ينتمى اليها محمد
علي ، (اعتقد أنها أسرة البانية لا تركية) ، لاسيما وان الملك فؤاد نفسه
كان يتقن الايطالية أكثر من العربية ، وأدت موجات الفساد والطغيان
والجبروت عند ذوي المراكز العالية ، ومهزلة البرلمانات وتجاهلها لحالة
الفقر المتزايدة التي تعاني منها الجماهير ، الى اجتذاب مصر نحو دوامة من
الضغط الاجتماعي والقلق الوطني الذي فرغ صبره .

ولم يكن في الامكان رسم خط فاصل في الناحيتين الواقعية والمعنوية
بين هذا البنيان الدخلى المتهاوى وبين الاستعمارية البريطانية ، فلقد كان
الارتباط بينهما حتى عام ١٩٣٦ ، كاملا كل الكمال ، ولم يقع حتى بعد
معاهدة عام ١٩٣٦ ، أى تبدل في العلاقات النفسية بين البريطانيين
وغيرهم من الاوربيين في مصر من ناحية ، وبين شعب البلاد من الناحية

الآخري ، وقد يقال ان المحاكم الخاصة التي كانت تعزل الاوربيين عن القانون المصرى العام عزلا كاملا ، قد ألغيت ، ولكن ظلت ثمة النشوء الخاصة بالأوربيين التي لا يسمح للمصريين بالانضمام اليها ، وظلت أوضاع الامتيازات والحماية ، وظلت الرواتب العالية التي تبلغ ستة أضعاف الرواتب العادية للمصريين كما ظلت الاشارة المزدورية الدائمة الى المصريين بأنهم « الاهلون » .

وظل شبان مصر ، ينضجون طيله هذه السنوات ، وينضج معهم شعورهم بالكراهة للالوف من مظاهر الخبز والظعن لكرامتهم الشخصية والقومية . وكان الطالب المصرى يقرأ سير احدى المناقشات التي تتناول مصر فى مجلس العموم البريطانى ، ويجد فيما يقرؤه توازنا منصفيا الى حد ما بين استعمارية المحافظين المتزمتة وشكوك الاحرار الاصيلية . ولكنه لا يلبث بعد انقضاء خمس دقائق على ما قرأه ، أن يستمع بصورة عارضة الى نقاش بين بريطانيين يعيشان فى بلاده فى موضوع مصر ، فينتفض غضبا وخجلا مما استمع اليه . ولم يكن كثير من البريطانيين الذين يعيشون يدركون حق الادراك مدى اسهامهم فى هذه المراتب المتزايدة . وكثيرون منهم يقبعون فى أبراجهم العاجية ومجتمعاتهم الصغيرة المتسامية ، ينظرون من ورائها الى المصريين ، فيرونهم أشباحا من الفقر . ومن الافتقار الى الكفاية ، وتؤدى نظرتهم هذه الى المزيد من كراهيتهم لهم . وقد يقال ان بعض البريطانيين كانوا يعطفون على المصريين ، ولكن هؤلاء أيضا يبدون وكأن مصر ملك لهم ، أو كأنها بلد لا يستحق حتى الزايرة منهم . كما بدا فى أحاديثهم عن مصر وتقاليدها ومشاكلها وقيادتها السياسية ، وشعور التملك ، حتى ولو كان نابعا عن حسن نية ، لا يفل فى سوئه واثارته للآخرين عن شعور المهانة والازدراء .

وجاءت الحرب العالمية الثانية باحتلال بريطانيا مصر من جديد احتلالا كاملا وفعالا . كما جاءت باذلال يعتبر من أسوأ ما عرفتة مصر من اذلال . واذا كان قدامى السياسيين المحافظين قد أحسوا بهذه الاساءات ، فان هذا الشعور بالاحتلال . والارغام على دخول الحرب دون أن يكون لبلادهم حق الخيار ، قد تضخم من جراء ما أصاب الدولة التي يمثلونها بمراكزهم وكطبقة مختارة من اهانة . أما بالنسبة الى مصر الجديدة ، فقد كانت الاساءة موجهة الى شعب بكامله :

« لقد توقعوا من المصريين أن يسلكوا سلوك الحلفاء المخلصين فى الوقت الذى يعاملون فيه كشعب محتل . وكان جنودهم يسـيرون عبر شوارع القاهرة ينشدون الاغانى القذرة التي تمس كرامتنا فى الصميم . وكان مما يفوق حدود التصور أن يطلب الى المصريين فلسفة هذه المعاملة التي يلقونها ، وكل ما كانوا يعرفونه أن الجيش البريطانى يحتل مصر ، وأن جنود هذا الجيش ينظرون اليهم بعين الزايرة » (١) .

(١) حدث نفس الشيء فى الحرب العالمية الاولى وتنكرت بريطانيا لوعودها لمصر بالاستقلال الكامل . ولا ريب فى أن هذه الصورة التي رسمها أحد المصريين صادقة الى حد كبير . (المؤلف)

ولكن الكثيرين من البريطانيين مازالوا ينظرون بعين الغضب الى مصر . كلما عادوا بذكرياتهم الى الحرب العالمية الثانية والى عواطف المصريين تجاههم التى كانت موضع الشك . ونحن نرى فى أى تواطؤ مع المحور أمراً مؤذياً ، حتى ولو بات هذا التواطؤ شأننا من شئون الماضى . ولكن هذا الوضع يرسم صورة واضحة جلية لشعبين بل لعالمين يقفان عند مفترق الطرق . فلقد كان من المستحيل أن ندرج فى قائمة الخلفاء الاوفياء شعباً يزرع تحت وطأة الاحتلال والاذلال والازدراء ، وأن نطلب منه الحماسة فى خوض حرب لم يكن هو الذى بدأها ، ولم يستشر فى أمر الاشتراك فيها ، وانما وجد نفسه متورطاً فيها بكل بساطة ، وأن يقف فيها الى جانب دول « ديموقراطية » كانت احداها هى التى جعلت من بلاده مهزلة من مهازل الحرية ، ان هذا مستحيل كل الاستحالة .

وهكذا بدت فترة ١٩٢٢ - ١٩٥٢ ، فى عيون شبان مصر القليلة المثقفة وكأنها فاعة خانقة من قاعات المرايا التى يضيع الماء فيها من كثرتها . فهم نظراً لافتقارهم الى السلطان السياسى ، يرون على جانب واحد هذه الجماهير الفقيرة من الفلاحين تعيش حياة دون مستوى الكرامة الانسانية ، والى صف هذه الجماهير تقف رؤاهم عما يجب أن يكون لها من كرامة وتقدم . وكانوا يرون فى الجانب الثانى طبقة أقلية من الباشوات المحافظين والاقطاعيين ، تسيطر على برلمان زائف الديموقراطية ، وتقف وراء هذه الطبقة ، ملكية دخيلة حمقاء ذات نزعات شريرة معيبة ، وخلف الجميع يقف ذلك الطيف الذى لا يغيب أبداً من السيطرة الأجنبية البريطانية فى الخارج والنفوذ فى الداخل .

شرق الأردن :

كانت شرق الاردن على سبيل المقارنة حتى عام ١٩٥٠ ، بلداً يخلف فى أوضاعه ، عن مصر كل الاختلاف . فثلاثة أرباع أراضيها صحارى قاحلة جرداء ، ولا يقيم فيه الا نحو من أربعمئة ألف انسان يعيشون على موارد محدودة الى الدرجة التى تجعل اقامة دولة حديثة شبه منحصرة فيه أمراً غير ذى موضوع . وكان معظم السكان من أبناء القبائل الذين يدينون الى حد كبير بالولاء للامير عبد الله الذى يتولى الضباط البريطانيون قيادة جيشه ، ويشرف الموظفون البريطانيون على ادارة حكومته ، وتعتمد ميزانيته على ما يناله من عون مالى من بريطانيا . وكان فى امكان الاستهواء البدوى للخيال البريطانى ، أن يجد ضالته فى مثل هذه الامارة الصغيرة ، التى خلقت خطط تشرشل كيانها المصطنع ، وكان عبد الله يتمرد أحياناً على خالقي امارته ، ولكن كان فى وسع مزيج من النصائح الابوية والتذكير بحقيقة المصدر الذى يتناول منه موارده ، والايماءات المهدبة المنطوية على الاحترام للسلالة التى ينتمى اليها ، كافية للتغلب على هذا التمرد العارض منه . واذا حدث وظهر بعض المتطرفين فى المدن ، المتأثرين بالتيارات الوطنية والقومية المتجمعة خارج حدود هذه الدولة المحمية ، فان السبيل الاسهل لقمعهم ، ايداعهم فى السجون الصحراوية ، وهذا ما كان يحدث بالفعل .

ولربما كان من حق جلوب باشا والحالة هذه أن يذكر «أن الاردن كله كان بين عامي ١٩٣٢ و ١٩٤٨ ، من أبعد البلاد الصغيرة حالا في العالم . اذ على الرغم من الاضطرابات والثورات في البلاد المجاورة ، ومن الحرب العالمية أيضا ، بدا الاردن وكأنه يحيا حياة ملؤها السعادة » (١) .

وجاء التبديل ، عندما تورط شرق الاردن في الحرب الفلسطينية في عام ١٩٤٨ ، وضم الى مملكته الاردنية الجديدة ما تبقى من فلسطين العربية خارج نطاق الاراضي التي تحتلها اسرائيل . وارتفع عدد السكان الى ثلاثة أضعاف ، بعد أن أضيف الى المملكة مليون من الفلسطينيين الذين تعمل الممرات في نفوسهم ، والذين يتميزون بالوعي السياسي والثقافة النسبية ، حاملين معهم اسرار الجارف الرئيسى للوطنية العربية المدنية . وقتل عبد الله في القدس في منتصف عام ١٩٥١ . ولا ريب في أن تعليق جلوب على ما وقع يحسر النقاب عن أشياء كثيرة

« واثار اختفاء الملك عبد الله حالة من الفزع والاضطراب في الاردن فلقد كانت قبضته القوية هي التي تمسك بكل شيء منذ عام ١٩٢١ . ولم يكن السياسة في ظله أكثر من مجرد دمي لا تملك الا أن توافقه على كل شيء ولم يكن قد نشأ في الاردن بعد أي قادة سياسيين أو رجال دولة ، فالملك هو كل شيء في البلاد » .

وكان في وسع جلوب أن يضيف الى هذا الوجود المطلق الذي ينسبه الى الملك ، أوصياءه البريطانيين ، الذين يمثلون جهازا لم ينته أمره تماما بموت الملك . وكانت معاهدة عام ١٩٤٨ ، التي افترض فيها أن تكون خطوة تقدمية لما سبقها من معاهدات ، قد أعطت لبريطانيا الحق في أن تقوم في أيام السلم بحماية المطارات والوانىء وانطرق ، واقامة الفواعد لاسلح الجوى البريطانى في المفرق وعمان ، كما منحتها تسهيلات المرور للقوات البريطانية في الخارج في أيام السلم والحرب والحق في « المشورة » وفي المساعدة على ادارة اقتصاد الاردن في ظل الاعانة المالية البريطانية . ولم تكن كل هذه الحقوق والامتيازات استغلالا استعماريًا ، ولكنها كانت بكل تأكيد ، غير ما يفهمه شعب الاردن بعد عام ١٩٤٩ من « الاستقلال السيادى » . وقد انعكس سخط هذا الشعب المتزايد ، في لهجة جلوب الحزينة وفي حملته على ما دعاه « بالدسائس والاباطيل التي يروجها عدد من السياسة والمحامين الذين ينتمى معظمهم الى الضفة الغربية التي يعيش فيها غالب الفلسطينيين » .

وباتت العلاقة الآن شخصية بالنسبة الى أمنسال جلوب وسياسته بالنسبة الى بريطانيا ، يائسة كل اليأس ، ولا ينفع معها اللجوء بازدياد الى استخدام السجون الصحراوية النائية لسجن « المشاغبيين » ، اذ أن هذا الاجراء لا يعدو أن يكون عملا استفزازيا يقصد منه التأجيل ليس الا . ومن المحتمل أن تكون أردن جلوب وكيركبرايد وأمثالهما قد عاشت هذه

المدة التي عاشتها لعدم وجود نقمة اقتصادية فيها شسبية بالنقمة التي سيطرت على الحركة الوطنية الحديثة في كل مكان آخر . ولم تتعد النقمة حدود المخيمات التي يعيش فيها نحو من نصف مليون من اللاجئين الفلسطينيين العرب ، الذين يعيشون في وصاية الامم المتحدة ، والذين يرفضون ادماجهم في حياة البلاد التي يقيمون فيها .

سورية ولبنان :

بدأت سلطات الانتداب الفرنسي في سورية عملها بتشجيع الحركات الانفصالية ، فخلقت عدة دويلات وهمية في البلاد ، مبررة خلقها بوجود نزعات انفصالية ووجود أقليات في البلاد . وتقوم وراء هذه الاجراءات كما تقوم وراء السياسات الفرنسية الاخرى في سورية ولبنان غاية عامة وهي مقاومة القومية العربية خوفا من نتائجها لا بالنسبة الى سورية ولبنان فحسب بل بالنسبة الى ما يمكن أن توحى به من اتجاهات الى المغرب العربي الذي يضم مراكش والجزائر وتونس ، وكانت هناك من الناحية الثانية رغبة أخرى في تقوية مركزها في لبنان عن طريق المسيحيين فيه ، لتجعل منه ركيزة للنفوذ السياسي والثقافي الفرنسي في شرق البحر المتوسط . وقد سهلت طبيعة الاراضي السورية ، ووقوع الجيوب المزروعة والمدن المنعزلة في الطرف الغربي من الصحراء السورية الكبرى ، للفرنسيين تنفيذ سياستهم في اضعاف البلاد .

ولكن المقاومة للحكم الفرنسي ظلت مستمرة وشاملة طيلة الوقت منذ فرض الانتداب على البلاد بقوة السلاح . وتألفت القيادة التي انبثقت عن هذا النضال في جماعات من الافراد من ذوى النفوذ وأتباعهم ، يؤلفون على الرغم من وطنيتهم العنيفة في هذه القضية الجوهرية ، حدا وسطا بين من كان يدعوهم الفرنسيون « بالمعتدلين » وأولئك الذين يسمونهم « بالمطرفين » ، ولم يكن ثمة مناص من أن يجعل ذوو المصالح الشخصية والعائلية التي يمكن لها أن تزدهر في ظل الرعاية الفرنسية ، الى الوقوف في زمرة المعتدلين . وهكذا كانت القيادة تمثل مصالح بعيدة كل البعد عن مصالح الجماهير بوجه عام ، فهي تمثل كبار الملاك الاقطاعيين في حمص وحماة ، والفئة المختارة التقليدية من تجار حلب الذين تشابكت مصالحهم بازدياد مع مصالح الاقطاعيين المحليين عن طريق استثمار رؤوس أموالهم التجارية في الزراعة ، وجماعة « الحلقة الذهبية » من تجار دمشق وأرباب الصناعة الصغيرة فيها والزعماء القبليين في بلاد العلويين في الشمال الغربي وجبل الدروز في الجنوب .

وشكل الشباب الوطني في المدن ابتداء من عام ١٩٣٠ ، منظمات متماسكة نسبيا ، وان ظلت مفتقرة الى السلطان السياسي الفعال ، الذي يضمن لها التأثير على النظام القديم الذي تسيطر عليه بصورة أساسية اقطاعية الارض . ونشأت ببطء في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية ثم ما لبثت حركة النشوء هذه ان غدت الخطى بعد انتهاء الحرب ، طبقة تجارية ومهنية جديدة في المدن ، ولكنها أيضا لم تتمكن من الحصول

على التأثير البارز الحاسم على السياسات السورية بسبب ما لأفرادها أنفسهم من ارتباطات عائلية يطبقه ملاك الأرض . ودخلت سورية بعد حرب فلسطين التي خلقت وعيا سياسيا فعالا بين صغار ضباط الجيش ، فترة من الافتقار للاستقرار السياسى ، انصرف اباؤها التفكير المتطرف عن قضايا الاصلاح الداخلى الى قضايا فلسطين والوحدة العربية ، مما أتاح للنظام القسديم الفرصة ليووسع من نفوذه عن طريق المناورات الماكرة التى يقوم بهما بين الانقلابات المتعددة .

وهدف الانتداب الفرنسى فى لبنان كما ذكرت قبل قليل الى تعهد المسيحيين الموارنة ، ومنحهم حدا من القوة الدائمة يتفوقون به على المسلمين ، ليكون لبنان قاعدة للتنفوذ الفرنسى فى الشرق الادنى . وأشار الاحصاء الرسمى الذى أجري فى لبنان فى عام ١٩٣٢ الى وجود نسبة ٥٥ الى ٤٥ بين المسيحيين والمسلمين ، ولكن أى احصاء آخر لم يجر منذ ذلك التاريخ . وسهل على السياسات الفرنسية تنفيذ غاياتها فى لبنان ، طبيعة الفئة المختارة الحاكمة ، على النحو الذى نمت فيه حتى فى أيام العثمانيين فلقد تألفت هذه الفئة من عدد صغير جدا من الاسر المالكة للأرض من كلا المجموعتين الدينتين والمتشابهة فى علاقاتها الاجتماعية ، وأدى النشاط التجارى الذى تسيطر عليه أيضا فئة صغيرة من الاسر البارزة ، الى نمو ثروات جديدة بعد عام ١٩١٨ . وظل هذان النوعان من الثروات التى تملكها أسر معينة . يسيطران على الاوضاع السياسية فى لبنان . وبرزت اسماء كالعوينى والخورى وعريضة وكتانة وبطرس وسرسق ، تؤلف شركات وهمية تتقاسم الارباح المستثمرة فى ظل نظام محافظ يشرف عليه الفرنسيون . ولكن هذا النظام ما لبث فى النهاية أن هزم الاهداف الفرنسية ، اذ أن هذه الاسر ، على الرغم من محافظتها فى الميدان الاجتماعى . كانت تحس احساسا وطنيا . وواجهت فرنسا فى عام ١٩٤٣ شيئا لم تكن تتوقعه وهو الاتحاد الذى ضم الزعماء المسيحيين والمسلمين فى مطالبتهم بالاستقلال الكامل ، ووجدت فرنسا نفسها تطرد أخيرا فى عام ١٩٤٦ من الشرق الادنى ، ثمرة كفاح الشعب ضدها ونتيجة الضغط البريطانى الضرورى ، واللوم الذى وجهته الامم المتحدة اليها .

لكن زعماء لبنان المستقل ، ظلت على أى حال محافظة من الناحية الاجتماعية . ورفض حتى الزعماء المسلمون بسبب أوضاعهم الاجتماعية الاقتصادية ، ازعاج أنظمة الضرائب والأراضي فى الجمهورية الصغيرة وتضخمت ثروات الاسر البارزة تضخما هائلا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عن طريق التجارة المخزونة النامية وتحويل العملة ، وظهرت مع هذا الازدهار التجارى طبقة جديدة من الموظفين والعمال الصناعيين . وظلت الاراضى المزروعة فى البلاد ملكا لنحو من مائتى شخص من كبار الملاك . وظلت الحاجة ماسة الى انقاذ لبنان من الطائفية التى تقضى بتوزيع الرتب والمناصب والثروات على أسس طائفية ، ولم يتقدم انسان لحل هذه المشكلة . لكن التيارات الخفية للسخط الاجتماعى فى لبنان ، لم تتصل اتصالا مباشرا بالتيارات الرئيسية للقومية العربية ، وذلك بسبب التوقف

المنعزل الذي تقفه الجمهورية من هذه التيارات ، طبقا للميثاق الوطني الذي أقرته جميع الطوائف في البلاد في عام ١٩٤٣ . ومع ذلك فقد أسهمت هذه التيارات الحفية اسهاما قويا وان كان غير مباشر في الضجر الذي تحس به الاجيال الجديدة من الزعامات القديمة التقليدية في طول البلاد وعرضها .

العراق :

جدير بنا أن نلاحظ أنه في الوقت الذي تحولت فيه المحميات العربية الفرنسية الى جمهوريات ، نرى تلك التي كانت في ظل السيطرة البريطانية تنحول الى ملكيات كمصر وشرق الاردن والعراق . وقد استوردت السلطات البريطانية الى العراق الملك فيصل الاول ليتولى عرشه . وكان البريطانيون يرون فيه الهالة التي خلقوها للأسرة الهاشمية والثورة العربية ، وكان قد لعب أيضا دورا بارزا في الجهود التي بذلها العرب لكسب اعتراف الحلفاء بمطالبهم الاستقلالية في فرساي . ومع ذلك فهناك سؤال يبرز الى الازهان فورا ، وهو هل كان يقدر للنظام الملكي الجديد في العراق أن يبقى لو انه اتبع سياسة فيها المزيد من التحرر خلال حقبتى الثلاثين والاربعين من هذه الفترة ؟ لم يكن فيصل يذعن اذعانا كاملا للموصاية البريطانية ، ولذا فقد تمتع بشيء من الشعبيه في العراق الى أن توفي في عام ١٩٣٣، ليخلفه ولده الملك غازي الذي تميز عن والده بمزيد من الوطنية ومن الشعبيه . وظل غازي قائما على الحكم في العراق حتى عام ١٩٣٩ : عندما قتل في حادث سيارة . وسارت الملكية العراقية بعد هذا التاريخ وفي عهد وصاية ولي العهد الأمير عبد الله ، خال الملك الطفل فيصل الثاني في طريق التدهور المتزايد في السمعة والمكانة .

كان عبد الله في منتهى الطموح ، وكان يبحث على الاول ، عن الابهة والعظمة محاولا محاكاة الأسرة المالكة في بريطانيا على الاقل . والوصول الى عرش يقبمه لنفسه في دمشق على الاكبر . وقد أدرك عبد الله ، بعد انقلاب رشيد عالي الكيلاني في عام ١٩٤١ الذي استهدف الحساد ولكن سرعان ما انتهى أمره بالقضاء عليه ، انه في حاجة الى شخصية سياسية قوية في العراق يتحالف معها . وهكذا نشأ التحالف القوي والتعاون الوثيق بين الوصي وبين نوري السعيد ، الذي كان ضابطا في الثورة العربية والميل كل الميل الى بريطانيا والمؤسس للجيش العراقي والرجل القوي الذي يتطلع الى اقامة « هلال خصيب » تزرعه بغداد ويضم العراق وسورية وشرق الاردن .

ولم يكن نوري السعيد ديكتاتورا بقدر ما كان الرأس البارز لنظام حكم القلة (أوليغاركي) يضم التجار الاثرياء في المدن وكبار الشيوخ من ملاك الارض في الارياف العراقية . وقد لعبت الفئة الاخيرة أي ملاك الارض دورا في منتهى الخطورة والاهمية في النظام السياسي في العراق بين عامي ١٩٣٣ و ١٩٥٨ . ولقد بدأ العراق في عهد الانتداب كبلاد تضم مساحات شاسعة من الارض تؤجر اجارة قبئية جماعية تركز على نظام « الديرة » القديم في العهد العثماني . ولكن سلطات الانتداب ما لبنت قبل انتهاء

حكمها المباشر ان فرضت قوانين جديدة لتسوية الاراضى . وكان من المفروض أن تخلق هذه القوانين مجموعات من الاراضى تسجل على أنها الملك الشخصى للشيوخ ، ومجموعات أخرى تسجل ملكا لابناء القبيلة . وتمكن الشيوخ ، وفى ظل المحاكم البريطانية مع الاسف، من حمل الالقاب بصورة عملية ، ومن الحصول على السلطان والثروات . وباتت سيطرتهم على الريف العراقى طاغية لا تنازع . وصدر قانون فى عام ١٩٣٣ يخولهم صلاحية اقامة سجون خاصة لمستأجرى اراضيهم، وللمدنيين من المزارعين بالحصة ، . وأضحى هؤلاء الشيوخ قوة سياسية رئيسية فى العراق . ولم يعد باستطاعة أية حكومة أن تظل فى كرسى الحكم بدونهم الا اذا حاولت مصادرة أملاكهم .

ولكن عبد الاله ونورى السعيد لم يحاولا قط القيام بمثل هذه الخطوة . وبات العراق على النقيض من ذلك بلدا حبيس نظام اقطاعى قاس . تزخر فيه برلمانات نورى السعيد بالمستقلين الذين يمثلون الشيوخ الذين يركز نورى الى سلطتهم على جماهير الفلاحين العراقيين . وكانت الحكومة اذا رأت الحاجة ماسة الى تشريع قد يهدد ثروات الشيوخ تهديدا مهما كان طفيفا ، تقوم بالتعويض المناسب لهم فتمنحهم المزيد من اراضى الدولة . ولم يكن فى الامكان اقرار أى قانون قد يمس حقوق الملكية التى تخص الشيوخ . وكان النظام من الشمول الكامل بحيث تنتهى تقريبا جميع الاراضى التى استصلحت ، بقصد توزيعها فى الظاهر على المعدمين الذين لا يملكون أرضا ، الى أيادى الشيوخ . وكانت الطرق التى تعبد ، تلتوى بقدرة قادر ، لتمر بأراضى الشيوخ . وهكذا لم يحل عام ١٩٥٨ حتى كانت جميع الاراضى الصالحة للزراعة فى العراق ملكا لاربعة فى المائة فقط من مجموع السكان . وكان نحو من ٢٧٢ رجلا يملكون خمس هذه الاراضى بينما يملك ٣٣٤٧ شخصا آخرين خمسين ثائين ، وذلك فى بلاد تضم خمسة ملايين من الفلاحين .

ونشأت عن هذه الاوضاع الريفية المريعة والقاتمة حركة دائبة للتحويل الى المدن . وهكذا أضحت المدن العراقية ولاسيما بغداد تضم مع مرور السنين ، ثلاثة عناصر متفجرة ، عددها أخذ فى الازدياد بصورة مستمرة ، وهى الطبقة الوسطى الناشئة التى تضم الشبان من المتعلمين وأنصاف المتعلمين ، وطبقة من عمال المدن تعيش فى مساكن قذرة ، وطبقة من اللاجئين الهاربين من عبودية الارض عند الشيوخ ، تعيش فى أكواخ من الصفيح أو من القصب والطين . وبلغ عدد هؤلاء الآخرين نحو من مائتى ألف حول بغداد وحدها فى عام ١٩٥٨ .

وظهر طيلة هذه الفترة فئة من الوطنيين الاحرار الذين هددوا الى اصلاح هذا النظام الشرير المشين ، من امثال كامل الجادرجى الذى تلقى علومه فى مدرسة لندن للعلوم الاقتصادية . ولكن النظام كان متبعا لا تنفذ اليه أيدي المصلحين . فالبرلمان محشور بالفئات التى تعارض الاصلاح ، والوزراء يؤخذون من فئات التجار الاثرياء والشييوخ القبليين والدوائر المهنية المحافظة القديمة . وباتت المناصب الوزارية تتناقلها تسعون أسرة تقريبا أصبح أفرادها يسمون « بأفراد جوقة نورى الموسيقية » . وقد

ينسحب نوري من كرسي الحكم في الآونات التي يختارها ، ولكنه يظل حتى وهو خارج الحكم القسوة المهيمنة وراء الكواليس . وأقام نوري قوة بوليسية سرية تتقن معرفة الاخطار السياسية قبل وقوعها . وكان الاحرار الذين يتجاوزون الحدود المسموح بها ، يرسلون الى «أعلى النهر» الى أماكن تفرض عليهم فيها الإقامة الجبرية من أمثال بلدة تكريت . أما الاحرار الاقل شهرة فيمضون الى السجون التي لا يستثنى التعذيب منها، ولاسيما اذا كان هؤلاء قد أساءوا الى عبد الاله الذي عرف بالحق والتعطش الى الانتقام .

وأنشأ نوري السعيد في عام ١٩٥٠ مجلسا للاعمار يتولى انفاق سبعين في المائة من واردات زيت العراق المتزايدة في أعمال التطوير الداخلي . وكانت الحطة سليمة من ناحية الاساس ، وقد تم الاشراف على تنفيذها بطريقة معقولة فحقق المجلس تقدما ملحوظا في الاعمال الانشائية الضخمة التي تولاهما كبناء السدود للموقاية من الفيضان كسد ديكان العظيم وشق الطرق واقامة محطات توليد الكهرباء وما أشبه ذلك من مشروعات . وبدأ المشروع بالنسبة الى الغرب البعيد كعمل من أكثر الاعمال المتنورة التي قامت بها الزعامة السياسية في الشرق الاوسط ، ولكنها طبقت دون أن تمس نظاما يعتبر من أسوأ الانظمة الاقطاعية كلها في حقبة الخمسين . ولم يكن نوري السعيد أو غيره من شخصيات العهد على استعداد لمحاولة احداث أى تبدل فيه .

ولم يكن نوري السعيد مجرد « دمية » بريطانية . فلقد كان تحالفه مع بريطانيا يقوم على عقيدة أساسية ما لبثت أن لطف غلواؤها بتأثير وطنية الجيل الذي عاش فيه . ولكن العراقيين الشبان كانوا يرون في هذا النظام الحكومي كله ، شيئا مترابطا مع بريطانيا في النواحي السوقية (الاستراتيجية) والملكية والصناعية - النفطية ، والسياسية وان هذا الوضع قائم بدافع الحاجة الكلية . وكان هذا العهد ، هو الذي طالم أشار اليه الوزراء المحافظون البريطانيون في بياناتهم الرسمية العامة بأنه يمثل « أكثر أصدقائنا اخلاصا في الشرق الاوسط وأجدرهم بالركون والثقة » . وأخذت حاجة نوري السعيد وعبد الاله الى العون البريطاني ضد خصومهما تزداد شيئا فشيئا . وكانت التجربة بالنسبة الى شبان العراق ، شبيهة بقاعة المرايا ، التي خبرها شباب مصر ، فلقد كان الاقطاع فيه أسوأ حالة من الاقطاع في مصر ، قبل عام ١٩٥٢ . واستمر حكم « الاستعمار وأعوانه » في العراق مدة أطول ، عبر سنوات من أقصى ما مر به القوميون العرب في أى مكان طيلة القرن الحالى . ولم يكن ثمة ما هو أقرب الى التنبؤ ، من القوة الثورية التي انطلقت مندفة في الرماد الراكدة، ومصورة غضب العراق ، في الرابع عشر من تموز (يوليو) عام ١٩٥٨ .

الخاتمة :

راعى في هذا العرض الذى قدمته للنظام الذى كان قائما في الشرق الاوسط بين عامي ١٩٢٢ و ١٩٥٢ استخدام كل ما ساور الجيل

الجديد الذي انتقل من مرحلة الطفولة الى مرحلة البلوغ ، ومن الامل الى الخيبة المرة والاحساس بالعار مما يفعله كبارهم . من خيالات وتوكيد بالنسبة الى الاوضاع . وأنا لا أقصد من كل هذا ، أن أوحى للقارىء بأنه لو اتيح المجال للجيل الجديد من رجال وكذلك من نساء أخذ عددهن في الزيادة الضخمة ، لوضع أفكارهم العصرية المتحررة موضع التنفيذ ، لحولوا المجتمع الذي يعيشون فيه الى فردوس من الفضائل الغربية . ولم تكن كذلك الغاية في كل ما قلت عن النظام القديم ، أن أقلل من قيمة زعمائه ومنفذيه ، فلقد كان معظم (كذا) هؤلاء وطنيين مخلصين طبقاً لمفاهيمهم الخاصة ، ولم يكن منهم الا النفر القليل من النفعيين (١) .

وليس من العدل ولا من الامانة التاريخية في شيء ، أن نسمع لهذا السرد بتشجيع الفكرة التي تمثل السياسات البريطانية والفرنسية على انها لعبه « الشرطة والنصوص » أو « انقديسين والشياطين » . فلقد ضحى الكثيرون بأرواحهم ، وضحوا بصحتهم ، وهم يعملون ، لافى خدمة الامبراطورية وحدها أو في خدمة مناطق النفوذ فحسب ، بل سعياً وراء تحقيق أحلامهم في ايجاد شرق أوسط أفضل في ظل الوصاية البريطانية والفرنسية .

ولكن النظام كله كان يقوم على الخداع والوعود التي نكت بها ، وعلى تجزئة الشعوب المتطلعة الى الوحدة ، وفرض وصاية عليها البست ثوباً براقاً من التضليل ، واذا كانت قد دبرت بليل ، وتم حملها عن طريق الخنا غير المشروع الذي يحطم حياة من حملتها ، وكان هذا النظام يفتقر الى معظم حسنات الاستعمار (٢) ، وان كان يضم كل ما فيه من مساوئ ومن اضطهادات لا تسمن ولا تغنى من جوع ، مغلفة بأقنعة خادعة يشر تكشفها الكثير من الاستفزاز والغضب . ولم تعد القضية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية الا مجرد وقت ليس الا ، لينطلق الجيل الجديد من القمقم الذي حبس فيه ، ماردا جباراً مخيفاً ، وليعرض الغرب الطريقة التي يقبل بها تحديات هذا الجيل التي لم يعد في امكانه ، أى الغرب ، تجاهلها . وعلينا أن ننتقل الآن الى البحث في أمر هذا الجيل عشيّة انفجار ثورته .

(١) ان اخلاصهم يتمثل في ولائهم للدولة المستعمرة ، وطفيلان الملكية ، وتشريد الاحرار . (المغرب)

(٢) دأب الاستعمار دائماً على اصفاء ما يسميه بالرسالة الحضارية على الاعمال التي يقوم بها في مستعمراته . فهو يمتنى ببعض الاصلاحات التي يقوم بها لا سعياً وراء الاصلاح نفسه ، وانما ليجعل من المستعمرات التي يسيطر عليها البقرة الحلوب التي تحقق له مصالحه الاقتصادية ، وتؤمن له طرقه الاستراتيجية ومناطق نفوذه . فليس ثمة من طريق تعبد الا وتكون الغاية الرئيسية منها تأمين المواصلات الاستعمارية ، وليس ثمة من أرض تستصلح الا والهدف منها زيادة انتاج الوارد الزراعي اللازمة لصناعة الدولة المستعمرة وغذائها . لكنه خداع الاستعمار دائماً ؟ . - المغرب -

الجيش الجديد

« لكل شعب من شعوب الارض ثورتان
ثورة سياسية يسترد بها حقه في حكم نفسه
بنفسه من يد طاغية فرض عليه ، أو من جيش
معتد اقام في أرضه دون رضاه .. وثورة
اجتماعية تتصارع فيها طبقاته ثم يستقر الامر
فيها على ما يحقق العدالة لابناء الوطن الواحد ..
أما نحن فان التجربة الهائلة التي امتحن بها
شعبنا هي أن تعيش الثورتان معا في وقت
واحد » .

جمال عبد الناصر في « فلسفة الثورة »

عاصرت الفترة التي عاشها الشرق الاوسط من تاريخه بين عامي
١٩٢٢ و ١٩٥٢ ، الحقبة التي تحول فيها الغرب من ليبرالية القرن
التاسع عشر السياسية الى المحرر الاجتماعي ، الذي انتقل من حقل
النظرية الى ميدان التطبيق العملي الواضح للوضوح . وبرز في
الولايات المتحدة وبريطانيا وأوروبا الغربية عامة ، المفهوم القائل بأن
الدولة هي الوليه الشرعية المسئولة عن تحقيق العدالة الاجتماعية والرخاء
الاجتماعي . وغدت العقيدة الليبرالية القديمة الداعية الى تمجيد حرية
الفرد في التملك وفي الرأي ، المتركة في توقع قيام أوضاع
مثالية - لذوى في ظلها أعمال الحكومات وتتضاءل - مذهباً قاصراً بل
ينطوي على الاجحاف . ولم تكن هذه المذاهب الداعية الى التبدل في
الافكار السياسية والاجتماعية والاقتصادية الاساسية ، لمعبر في
الشرق الاوسط ، فجأة أو قادمة على أي حال من الاحوال . وصحبها
الثورة الروسية ، واضراب بريطانيا العام سنة ١٩٢٦ ، والازمة
الاقتصادية العظيمة في الولايات المتحدة وما تبعها من نظام التوزيع
الجديد (النيوديل) ، والاشتراكية الوطنية الالمانية ، والاتحادات الفاشية
الاطالية وصخب الراديكالية في فرنسا . فتحت عيون الشبان العرب
الذين كانوا يقضون في هذه الفترة بين عامي ١٩٢٢ و ١٩٥٢ سنى
دراستهم في المعاهد ، والكليات العسكرية والجامعات المختلفة .

وكانت قيادة المجتمع الذي يعيش فيه هؤلاء الشبان في أبهى
الكهول ، الذين كل ما يمكن أن يقال عنهم انهم نشأوا على غموض
مدرسة القرن التاسع عشر الليبرالية « (١) ولكن نظام فترة « ١٩٢٢ -

(١) من مقال لوليد خالدي عنوانه « التيارات السياسية في الهلال
الخصيب » في « مجلة العالم اليوم » ١٩٥٦

١٩٥٢ ، لم يحل بين هذه العقول الفنية وبين التفتح على التيارات الحديثة للفكر الغربى . واجتاحت الشرق الأوسط فى هذه الحقبة الثلاث ثورة عملية فعالة فى ميدان التعليم . وقد لا يدرك الكثيرون أن جامعات مصر ، كانت تخرج فى عام ١٩٤٦ طلابا يبلغ عددهم بالنسبة الى مجموع السكان فى البلاد أحد عشر ضعفا لما كانت تخرجه الجامعات البريطانية فى الوقت نفسه . ولا ريب فى ان المستويات كانت متفاوتة ، ولكنها لم تكن فى أى مكان فى الشرق الأوسط من الانخفاض بحيث تحول دون ظهور طوفان من المشاكل الجديدة التى تثار ، ومن المبادئ الحديثة التى تعتنق ، ودون أن تقف اجراءات الغرب التطبيقية مرآة صافية أمام الطلاب الشبان يتميزون فيها بوضوح عن طريق المقارنة ، العيوب والشروط الكثيرة فى المحيط الذى يعيشون فيه .

وظهرت فى المنطقة فى الوقت نفسه طبقة جديدة من الذين يعملون فى التجارة والادارة والمهن المختلفة ، كونت مستودعا أو بوتقة تترعرع فيها الافكار الجديدة . . . وكانت هذه الفئة تؤلف حازرا طبقيًا بين الأغنياء والفقراء ، وتضم المحامين والضباط والأطباء والمهندسين والموظفين ومديرى الاعمال المستخدمين والكتبة فى دوائر الحكومة والأعمال التجارية وصغار المزارعين والتجار والصناعيين من أرباب الحرف (١) .

ولكن هذا الحازر الطبقي ، لم يكن يملك من الثروة والوفرة العددية والتنظيم السياسى والمكانة الاجتماعية ما يمكنه من تحدى النظام القائم تحديا جديا ، بله استفزاز الجماهير لتنظيمها والتعبير عن آرائها . وهكذا ظل الحازر يؤلف طبقة تعيش فى حيوية « قلقة » بين هؤلاء الذين يمسكون بزمام السلطان وبين أولئك الذين يقعون عاجزين فى شقائهم . وأدى التحول السريع الى حياة المدن ، وهو ما عرضنا أرقامه فى فصل سابق الى ظهور طبقة عمالية جديدة فى المدن ، ولكنها ظلت تفتقر الى تنظيمات الطبقة العاملة الفعالة على غرار ما نعرفه فى الغرب .

ترى ماهى الآراء التى كانت تعتمل فى نفوس هذا الجيل الجديد الذى يحس بالكبت ، ويسيطر عليه القلق ؟ لقد أبرزت هذه الآراء فى الفصول السابقة ولكنى أرى أنها تستحق الايضاح كل الوضوح كمقدمة لثورة حقبة الخمسين .

لقد كان هذا الجيل أول رجيل عربى استخلص أفكاره المتلاحمة المتماسكة من جذور الغرب الحديث الفكرية ونباتاتها ، فقد عرف كل شئ عن الثورة الفرنسية والنورة الأمريكية وحركة الوحدة الإيطالية والثورة الأيرلندية والحركة الوطنية الهندية (٢) . وكان هذا الجيل العربى أيضا

(١) من مقال لورور برجر عنوانه « الطبقة الوسطى فى الوطن العربى » ومقال « الشرق الأوسط فى مرحلة الانتقال » .

(٢) ليس ثمة من ريب فى أن الثورات يفيد بعضها من بعض ، فاللاحق منها يتعظ بما وقع فى الثورات السابقة من دروس وعبر وتجارب . ولكن هذه العظات لا يمكن أن تعتبر احياء بالثورة نفسها ، ولا سيما =

أول من وجد من الاجيال امامه بفضل النهضة الفكرية التي ترعرعت في النصف الأخير من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، صورة واضحة عن تراثها العربي العظيم . وعلى ضوء هذه الحقائق نستطيع أن نقول ، انه في الوقت الذي رحب فيه أبناء الشرق الأوسط بهذا التداخل مع الغرب ، فان النتيجة الطبيعية لهذا التداخل ، نمو روح من السخط والمقت لما يبدو في بلادهم من انحراف من جانب الغربيين عن هذه المبادئ الغربية نفسها . وهكذا رأى هؤلاء الشبان العرب أن الحضارة التي تبدو في حوافرها الحديثة وروحها مناقضة للاستعمارية ، تمارس استعمارها في البلاد التي يعيشون فيها .

ولم تكد الحرب العالمية الثانية تضع أوزارها ، حتى كان الكيل قد طغى بالسخط والمقت ، وتحول كما تحول في الهند الى أزمة روحية أصيلة . ورأى الشبان العرب أمامهم قائمة طويلة من الوعود التي أغدقها الغرب في الحرب العالمية الثانية تقف جنباً الى جنب مع هذا الاحجام الظاهر من الدول الكبرى عن تنفيذ هذه الوعود عندما دقت أجراس السلام ، وسرعان ما اختفى ما أحس به السوريون في اعتراف بالجميل لبريطانيا على مساعدتها لهم في الخلاص من الفرنسيين ليحل محله شعور عارم بالسخط على الاحداث التي وقعت بعد الحرب في فلسطين التي تعيش في ظل انتداب البريطانيين . وانسحبت حكومة العمال البريطانية من الهند دون أن تطلب معاهدة تضمن لها القواعد أو « مجالس الدفاع المشتركة » . ولكن هذه الحكومة ذاتها أصرت على طلب هذه القواعد ومجالس الدفاع من مصر والعراق . وتورطت في اقامة دولة غريبة دخيلة في فلسطين العربية (١) . ومن العسير على أن أبالغ في شرح ما تركته

= اذا كانت الثورة أصيلة مستمدة من الواقع المادي والرسالة التاريخية كالثورة العربية . ولذا فلا يمكن القول أن الثورة العربية استمدت وحيها من الثورات التي درسها أبناء الجيل المساعد والتي وقعت في مختلف أنحاء العالم ، اذ أنها ثورة أصيلة ، منبثقة من واقع النقمة العربية على الاستعمار وما يرافقه من استغلال اقتصادي ومن تطلع العرب الى الحرية ، ومن تأثرهم بتراثهم التاريخي . - العرب -

(١) ليس من الصحيح بالنسبة الى كاتب منصف أن يقول ان بريطانيا قد « تورطت » مجرد تورط في اقامة اسرائيل الدخيلة في الوطن العربي ولكن هذه الادعاءات وما شابهها من القول باضطراب بريطانيا أو أمريكا الى تأييد الصهيونية تحت تأثير النفوذ العالمي اليهودي ، ليس الا مزاعم يقصد منها التلميح ، واخفاء حقيقة الجريمة الكبرى التي ارتكبتها الاستعمار ممثلاً في بريطانيا أولاً وفي أمريكا التي تولت قيادة الجبهة الغربية التي تضم الدول الاستعمارية ثانياً في حق شعب فلسطين . ولم يكن خلق اسرائيل مجرد « تورط » ، بل كان تنفيذاً لحطة استعمارية قديمة لفصل الوطن العربي الى جزئين عن طريق اقامة جسم غريب في وسطه هو اسرائيل وقد جاء وعد بلفور تجسيدا لهذه الحطة التي تلاقت أحلام ..

هذه المفارقات من أثر كبير للغساية . وبدأ للعرب أن ميثاق الاطلسي وميثاق الامم المتحدة ، ومارافقهما من دعايات أخلاقية صدرت عن الحلفاء أيام الحرب ، قد طبقت كلها على جميع أجزاء العالم وحتى على جنوب آسيا وجنوبها الشرقي ، ولكنها لم تطبق على العرب أو على الافريقيين . وأدت سياسة الولايات المتحدة في القضية الفلسطينية الى طيش آمال العرب في أمريكا على أنها الدولة الغربية الوحيدة التي يمكن للعرب أن يأملوا في العدالة منها ، وهي الآمال التي انبثقت عن مبادئ ولسون في عام ١٩١٨ (١) . واتضح في عام ١٩٤٧ أيضا أن روسيا السوفياتية قد تورطت كذلك في الاندفاع الصهيوني لخلق دولة لليهود في فلسطين .

ونمت في عقول أبناء هذا الجيل المنفعل ، المترقب رغبة عارمة لا تكتفى بمجرد الاصرار على تصفية كل سيطرة أجنبية فحسب بل تتطلع الى الحيلولة دون تمكن أية دولة من الدول العظمى من عقد تحالف مع أى جزء من أجزاء الوطن العربي . ومضت هذه الرغبة الى أبعد من الحيلولة وعدم الانحياز للذين تبنتهما الهند . فلقد كانت ناجمة عن الخوف من التورط في أية أحابيل تعاهدية في منطقة كانت تبدو حلبة مكشوفة لتصارع القوى العالمية المتضاربة . ولم يكن الحافز على هذه الرغبة في البداية ايجابيا كحافز نهرو ، اذ أن نظرية تخفيف حدة التوتر السياسي بين الدول عن طريق « توسيع مساحة دول عدم الانحياز » ، لم تصبح وطيدة الاركان عند القوميين العرب المعاصرين الا بعد مدة طويلة . وكان الباعث العربي في بادئ الأمر ، ذاتيا ينبع عن الرغبة الغريزية في الدفاع عن النفس ، وذلك بعد التجارب المريرة القاسية التي مر بها العرب في فترة تزيد على القرن لا مع دولة كبيرة واحدة بل مع مجموعة من الدول

= الصهيونية فيها مع خطط الاسنعمار وأطماعه في الوطن العربي . وعلى هذا تكون بريطانيا هي التي خلقت اسرائيل ومهدت السبيل وفق خطة منظمة مدروسة لخلقها عن سابق عمد واصرار لا عن مجرد تورط عرض .

- العرب -

(١) يحاول الكتاب الغربيون ، حتى ولو كانوا من المنصفين كل الانصاف أو بعضه ، ان ينزعوا عن الحركة العربية التحررية والوحدوية طابع الأصالة المنبثق عن الواقع المادي والرسالة التاريخية . فهم يتهمون كل حركة عربية أصيلة بالارتباط بشكل أو بآخر بالتيارات الأجنبية ، فتورات فلسطين المتعددة انعكاسا للتحريض النازي والفاشي ، وثورة رشيد عالي في العراق حركة نجمت عن التحريض النازي ، واندفاع سورية الثوري ضد فرنسا ، من وحي الجنرال سبيرز والسياسة البريطانية ، وثورة العرب الكبرى بقيادة الزعيم الملهم الرئيس عبد الناصر ، اندفاع متأثرة بالاتجاهات الشيوعية الى غير ذلك من الاتهامات والتخرصات التي يعرف مبتكروها أنها كاذبة وبعيدة عن الحق كل البعد . وليس ثمة من شك في ان هذا القول بالآمال العربية في أمريكا أو في غير أمريكا ليس الا من قبيل هذه التخرصات لابعاد الأصالة عن الحركات العربية .

- العرب -

التي أقحمت نفسها في شئون الوطن العربي . وكان أبناء هذا الجيل الصاعد كثيرا ما استمعوا الى الحجج التي اصطنعها المستعمرون لتدعيم « المحالفات الصديقة بين الانداد » على نحو ما ورد في المعاهدات التي قلت الانتداب في تعابير ، فمجوا هذه الاساليب الاقناعية الحلوة الطعم الشائكة الملمس . فلا بدع أن رفضوا والحالة هذه مثل هذه الاوضاع ، في أي جزء من أجزاء منطقتهم العربية التي نشدوا تأمين قواها الدفاعية عن طريق الوحدة والحصول على الأسلحة الحديثة بوسائل استقلالية . وحملت سياسات التحالف الدولية ومنح التسهيلات السوقية للأجانب اليهم طابع نسيج العناكب الجبارة التي تحاول الامتداد من الشمال الى الجنوب أو بالعكس . وكانوا يرون في أي حلف تعاهدي أو قاعدة سوقية في أي جزء من الشرق الاوسط ، مجرد زاوية لهذا النسيج يحاول الامتداد منها الى الأجزاء الأخرى في الشمال والجنوب . والقاعدة الحربية التي يسمح بها في العراق ، تؤثر على مصر وتورطها ، كما أن أية قاعدة في مصر ، تؤثر على سورية ونورطها . ولم تكن هذه الآراء مجرد خيالات وهمية ، ولكنها كانت تنعكس في كل مناقشة تجرى في مجلس العموم البريطاني وفي كل تحليل تنشره صحيفة « التايمز » عن الاوضاع السوقية في الشرق الاوسط ، وفي كل كتاب يصدر عن حجة غربي في الشئون العربية ، ومن حق شبان العرب والحالة هذه أن يروا مثل هذه الآراء ، لا سيما وأنهم يلاحظون أن خبراء الغرب وساسسهم ينقدمون دائما بنظريات عن السوقية الموحدة للمنطقة .

وتبدو هذه الوحدة التي ينشدها العرب منبقة على أي حال عس عوائد ايجابية من ناحية وعن املاءات الدفاع عن النفس من الناحية الأخرى وسأتناول الأفكار المنعقدة بالوحدة العربية في فصل مستقل هو الفصل الرابع عشر لأنها تستحق مثل هذا التفصيل . ولكني أرى لزاما على أن أدون هنا أن نمو العقيدة الوحدوية لم يكن مجرد عملية سهلة متماسكة تسير في طريق تفرشها الورود . فلقد انهمكت مصر منذ عام ١٨٨٢ في نضالها التحرري الخاص بها ، وطمت على هذا النحو من الاهتمام طيلة حقبة العشرين والملايين من القرن الحالي . وسبق الأبراك في الشرق العربي في عام ١٩١٦ عددا من دعاة القومية العربية . كما نفعوا عددا آخر منهم كما كموا أفواههم . ومع ذلك ، فقد بزعت فكرة الوحدة العربية بعد انتهائ الحرب العالمية الأولى ، على شكل مشروعات وقرارات ومذكرات ، تعيد الى أذهان الحلفاء العهود التي قطعوها على أنفسهم ابار الحرب والتي نجأهلوها في قرساي ، ولكن معاهدات الصلح بما فرضته من تجزئات ألقت ستارا من الارتباك والنشويش على هذه المطامح الوحدوية . ووجدت القيادة المحافظة الجديدة في أجزاء الوطن العربي نفسها مضطرة الى العمل ضمن هذا الاطار الجديد من الحدود المصطنعة ، وراح جميع أولئك الراغبين في التعاون مع بريطانيا وفرنسا ، والذين تركز مصالحهم الاستثمارية الضمنية على هذه التجزئة الجديدة للوطن العربي ، يعملون خفية ضد الوحدة وان تظاهروا بالعمل من أجلها . ويمكن تخصيص هذا الوضع في الفقرة التالية التي وردت في مقال متأخر استعرض الحالة التي قامت في حقبة العشرين .

« وبدأ الناس وقد فقدوا شكلهم الاصيل . فاذا نظر الواحد منهم الى نفسه ، كانت نظرتة هسذه بعينين استعارهما من الغرب واذا ما تناقشوا في أنفسهم ، انحصر نقاشهم في اختيار أى من الافكار العديدة المطلقة أو الافكار التى تخص كلا منهم يمكن تطبيقها على أوضاعهم . وكثيرا ما تساءلوا هل هم من « الغربيين » أو من « الشرقيين » ، وهل هم من « العرب » أو من « السوريين » أو من « اللبنانيين » (١) .

ولكن فكرة الأمة العربية الواحدة ، التى تتخطى الحدود المصطنعة وتسمو فوق المعتقدات الدينية ، ما لثبت أن سارت فى طريق التقوى والرسوخ وان كانت بصورة متدرجة منذ أواسط العقد الرابع من القرن الحالى . وباتت هذه الفكرة تؤلف اقنوما من الاقانيم الثلاثة للجيل الصاعد فى شعاراته وهى التحرر من كل حكم واحتلال أجنبيين ، وعدم التورط فى أحلاف الدول العظمى ، تحقيق الوحدة العربية الوثيقة . وأدت الاحداث المتلاحقة التى وقعت ابتداء من مراكش وانتهاء بفلسطين الى العثور على متنفس جديد ، حادولتهذا الشعور المتولد بالاخوة العربية . وعملت طرق المواصلات الحديثة وانتشار التعليم بين العرب على اشباع الجيل الجديد بشعور من الجماعة العربية ، جماعية التراث الماضى ، وجماعية المشاكل الحاضرة وجماعية الآمال فى المستقبل . ولكن هذا الجيل كان يرى حيثما التفت ببصره ، تفرقة تسود شيوخه القابضين على زمام الحكم والسلطان وثبط هذا المنظر من عزائمه ، فهناك منافسات سلالية بين الهاشميين والسعوديين وهناك ملكية فى مصر تحاول استغلال هذه الحزازات والصراع وهناك أطماع عبد الله أمير شرق الاردن فى مملكة أكبر ، وهناك مشاريع نورى السعيد وعبد الاله ، لتحقيق الهلال الحبيب ، وهناك الميول عند بعض القادة السوريين الى العراق ، والميول عند البعض الآخر ضده . وتحولت سياسة بريطانيا الرسمية بعد عام ١٩٤٣ الى تشجيع ايجاد وحدة عربية أوثق عرى . (٢) لكن الجيل الجديد كان يرى فى الانباء التى تحملها الايام المتعاقبة تشجيعا من بريطانيا للمنافسات والمكائد التى تعرقل سير الوحدة العربية .

ويحتاج العامل الأخير الى شىء من الشرح والتفصيل ، فالشاب العربى الذى يزداد احساسه بالوطن العربى الذى يقع وراء الحدود المصطنعة للبلاد التى يعيش فيها ، يرى الفقر والفساد والاستعمار

(١) مقالة لالبرت حورانى عنوانها . . عشرون سنة من التبدل فى مجلة «منبر الشرق الاوسط» آيار «مايو» ١٩٥٧ .

(٢) يقصد المؤلف هنا تشجيع انطونى ايدن وزير خارجية بريطانيا آنذاك لقيام الجامعة العربية . ولكن كل عربى واع يدرك أن بريطانيا قصدت من خلق الجامعة العربية أن تكون أولا أداة لتكريس التجزئة القائمة فى الوطن العربى ومنع وحدته وهو ما أثبت الايام صحته ، وأن تكون ثانيا أداة تسخرها فى تثبيت مصالحها فى الوطن العربى .
(العرب)

والصهيونية التي تضغط على جميع أجزاء وطنه - كما يراها - وتعيش على التفرقة الموجودة فيه . وبعد أن تشبع هذا الشاب بالآراء العلمانية «والعقلانية» التي تسود المجتمعات في غرب القرن العشرين ، أصبح لا يرى في عقائده الدينية حلا لمشاكله الدنيوية المعقدة أو وسيلة للامتزاج مع اتباع الديانات الأخرى في وطنه . ولما كان قد نشأ فكريا على رؤية المشاكل الاقتصادية على ضوء الافادة المادية والمنسقة من الموارد الاقليمية ، فقد رأى ان منطقته تضع هذه الموارد في منافساها الاقتصادية. ورأى وهو الذي تربى على رؤية التنافس الدولي في العالم قارئا بين مجموعات من الشعوب تتفق كل منها في تفكيرها ومصالحها ان عكس هذا يقوم في المنافسات الرسمية بين العرب أنفسهم . ومهما كان « المنشور » العدسي الذي يستخدمه في دراسة عالمه الخاص به ، فقد تبين له أن الحاجة للوحدة ، الوحدة الحقيقية ، هي النتيجة الطبيعية التي لاغنى عنها أبدا .

وكانت هناك تأثيرات عقائدية خارجية جديدة انطبعت في مخيلته ، وفي طبيعتها القوميات الآسيوية والفكرة الثابتة عن القومية المنبثقة من ألمانيا . وكانت الهند تعرض قومية مسعدة لشعب يتحدث بمائتي لغة مختلفة وبلهجات تنتشر في أكثر من خمسمائة وحدة اقليمية مختلفة . وظهرت من ألمانيا تيارات فكرية سياسية سبقت قيام النازية بأمد طويل ولكنها لم تصل الى الوطن العربي الا مع ظهور النازية ، وهي تتلخص في فكرة غامضة عن « الشعب الواحد » اعتبرت أقرب الى الاوضاع العربية من فكرة « القومية » السابقة حسب مفهومها الفرنسي .

وأدى تفاعل هذه العوامل والتأثيرات كلها الى بروز شعار واحد منذ حقبة الثلاثين وهو شعار « القومية العربية » الذي بات مهيمنًا على السيطرة ، ويرفع فوق كل هتاف . وتعني كلمة القوم في اللغة العربية الجماعة التي ينتمي اليها ابن القبيلة البدوي ، والتي يشعر نحوها بالالتزام في العون كما ينعم بما يقدمه اليه أفرادها من مساعدة ، دون تقييد بالمكان الذي يقيم فيه . وليس لكلمة القوم من مرادف دقيق في اللغاب الغربية . ولكن معنى هذه الكلمة مألوف أن تبدل في حقبة الثلاثين فأضحت تعني « الشعب الواحد » في المفهوم الألماني « للشعب » وباتت القومية تعني « شخصية الشعب الواحد » التي تسمو فوق الحدود الرسمية ولا تنقيد بقيود المنشأ أو مكان الإقامة . وباتت كما في وسعنا أن نقول ، العقيدة التي تحدد مفهوم « الشخصية القومية » التي ينهف لتحقيقها الوطن العربي كله .

وأخذ الفرق الكبير بين مفهوم « الوطنية » والقومية « في البروز بشكل ظاهر في التفكير القومي . وبدأ الناس يتحدثون عن الوطنية عندما يعنون الاخلاص الوطني لدولتهم الفاتمة كالعراق مثلا . ولكن اتجاه أفكارهم بصورة متزايدة نحو الهدف الأكبر من « الشخصية القومية العربية » ، وهو اتجاه قضت به وعززته أوضاع المنطقة كلها ، جعلهم يتخذون من « القومية » الصورة الفوية التي تجتذبهم وتستفزهم . وكان

الانقسام بين المعنيين قويا ، نشيطا طيلة السنوات التي كانت الجامعة العربية فيها بميثاقها الواهي ، وكيانها المتراخي ، المركز الوحيد المتيسر الذي تلتف حوله أهداف العرب ومطامحهم . وليس ثمة من شك في ان الفكرة القومية كانت نشطة في مصر قبل قيام الرئيس عبد الناصر ، ولكنها كانت في حاجة الى المحرك الذي يحركها والى القيادة الديناميكية التي تجعل منها الحلم الذي تتطلع اليه عيون الملايين .

وسرعان ما تمت هذه الاهداف الخارجية من استقلال ووحدة وحياد بأهداف داخلية ترمي الى اصلاح . وكان الشبان والشابات الذين يعودون من الدراسة في الغرب ، أو يتطلعون الى بلادهم في منظار كتاب مدرس غربي في كلية من كليات الشرق الاوسط ، يحسون بشعور من المهانة والحجل يغمرهم تماما ، وكانوا من الناحية التطبيقية أقرب الى جماهير الفلاحين وساكني المدن من أسلافهم ، بل أقرب الى تلك الفئات من أبناء الطبقة الوسطى وفق المفهوم الغربي لهذه الكلمة . وكان لهم جميعا أبناء عمومة من الفلاحين الاميين الذين يجهلون القراءة والكتابة ، وللكثيرين منهم جذور في قرى الريف أو في المدن التي تضم « الاسرة » الواحدة منها المثات . وكانوا يحسون بالغضب والسخط على ما يبيده كبارهم من عدم اكتراث بهذه الاوضاع من الفقر والمرض والجهل التي تسود مجتمعهم ، وعلى انغماس هؤلاء الكبار في حياة بيروقراطية بالية ، واغراقهم في المحسوبية والابتزاز والافتقار الى الكفاية ، اغراقا يسير في طريق الزيادة لا في طريق النقصان . ولا بدع والحالة هذه اذا ما تطلع الشبان بلهفة وتشوق الى ظهور - القيادة الصافية النظيفة ، السامية فوق الفساد ، البعيدة عن الاثرة ، المتصفة بالحزم والارادة .

وكان النظام الجمهوري مطلبيا ماصلا في سعيهم الى اصلاح الاجتماعي . فهم ينظرون الى مثلي أمريكا وفرنسا في الغرب ، والى مثلي الهند وأندونيسيا في الشرق ، ويقارنون بين أوضاع هذه البلاد كلها وبين السجل الطافح بالشروع للملكيات العربية . لم تكن هناك ملكيات عربية ذات جذور وتقاليد عريقة ، والعروش والامارات التي أقيمت في عام ١٩٢٠ كانت من صنع بريطانيا وخلقها . وكان في وسع هذا الجيل الجديد من أبناء المدن أن يتسامح وأن ينظر بشيء من الاحترام لهذه الملكيات ، ولكنه لا يجد مكانا في تفكيره مطلقا لذلك الاستهواء الذي تثيره ملكيات الصحراء البدوية في عقول الغربيين . فطراز القيادة الذي ينشده هو النقيض تماما لهذا الذي يبرز في المجتمع البدوي الذي يعتبره مجتمعا عتيقا باليا . وكان هذا الميل الذي يراه أبناء الجيل الجديد عند الغربيين لذلك المجتمع يستثير سخطهم لما يحسون به من اذلال ، ولأن هذا الموقف يتناقض كل التناقض مع المفاهيم التي أعجبوا بها في الغرب .

وأخذت « الاشتراكية » ، والديموقراطية الاشتراكية ، تجتذبان هذا الجيل بدرجة متزايدة . ولكن النظام الداخلي الذي يتحكم في بلادهم والذي يعارض هذه الافكار متصل اتصالا وثيقا بالدولة العظمى الخارجية التي ينف نظامهم عاجزا امام ما تفرضه على عالمهم من حصار وضيق .

ولذلك نرى هذا الجيل الجديد ، من رجال ونساء يؤمنون إيماناً متزايداً بهذين التحديين ، ولا ريب في أن هذا الالتحام بين القومية والحياد في السياسة الخارجية والميل إلى الجمهورية والإصلاح الاجتماعي في الشؤون الداخلية يعتبر من أكثر الاتجاهات جوهرية في تاريخ الشرق الأوسط في أواسط القرن العشرين . ويختلف هذا الاتجاه ، عن اتجاه الجيل المماثل من القوميين في الهند ، فلقد كان اشتراكيو حزب المؤتمر الهندي ، يتوقعون الوصول إلى السلطان السياسي في البلاد ، فور جلاء البريطانيين عنها . وكانوا يدركون كامل الإدراك وجود قوى في المجتمع الهندي مفرقة في محافظتها ، وفي عنيق تفكيرها ومناهضتها للاشتراكية . ولكن هذه القوى لم تكن تملك أي سلطان سياسي قوى في ظل السادة « الراجات » البريطانيين ، كما أن حركة المؤتمر الهندي نفسها كانت تضم عدداً من اللاشعراكيين أو مناهضي الاشتراكية ، وفي مقدمتهم رجل المال الكبير بيرلا ، الذي اجتذبه نداء غاندي إلى الحركة الوطنية . وكان من الممكن بالنسبة إلى الاشتراكيين الهنود ، أن يقودوا حركة نضال وطني صادق ضد « السيد » البريطاني . في الوقت الذي يضعون فيه الخطط ، وهم في أتم الثقة من قدرتهم على التنفيذ . لوضع برنامج متطرف للإصلاح الاجتماعي الداخلي بعد الاستقلال . أما في الشرق الأوسط العربي . فإن الجيل المماثل للجيل الهندي ، لم يكن على ثقة من قدرته على تحقيق ما يشاء من إصلاح اجتماعي ، بعد الانتهاء من مرحلة التحرر فالفئات المختارة ذات السلطان ، القائمة على الحكم في دول ذاتية الحكم وظاهرة السيادة ، ترتبطة على ما يبدو بالسيطرة الخارجية . وكان من الصعب تصور قيام هذه الفئات بحركة ثورية في الاتجاه الخارجي ضد الاستعمار ولذا كان من الصعب أيضاً تصورهما ، وقد أخذت على عاتقها مهمة ثورية اجتماعية في الاتجاه الخارجي . ولقد طال أمد انتظار هذا الجيل كما قال الرئيس جمال عبد الناصر .

« اننا لم نكن نستطيع أن نؤخر عقارب الساعة أو نقدمها وننحكم في الزمن ، وكذلك لم يكن في استنطاقنا أن نقوم على طريق التاريخ بمهمة جندی المرور ، فنوقف مرور الثورة حتى تمر ثورة أخرى ونحول بذلك دون وقوع حادث اصطدام . وانما كان الشيء الوحيد الذي نستطيعه هو أن ننصرف بقدر الامكان ، وننجوا من أن يطحننا شقاً الرحي ، وكان لابد من أن نسير في طريق الثورتين معا . »

ولكن لم نلحظ أن نشأ حركة سياسية وحدوية عظيمة عكس كل هذه الآراء الفنية ؟ ولم لم تقوم أحزاب متماسكة في أهدافها ونشطة في عملها لتعكس هذه الآراء في كل جزء من أجزاء الوطن العربي ؟ لعل خير وصف ، يصدر عنا الآن وبعد انقضاء هذا الامد الطويل ، هو أن نقول أن هذا الجيل من رجال ونساء قد ولد بين عامي ١٩٠٠ و ١٩٢٠ أو بين عامي ١٩١٠ و ١٩٢٠ بصورة خاصة ، وأنه كان يتصف بالغموض وعدم التبلور الكامل في الشكل . ولقد كان هذا الجيل على هذا النحو من الغموض وعدم التبلور عندما شرع في الوصول إلى الحكم في حقبة الخمسين ، وأسهم غموضه في توسيع هوة الخلاف وعدم التفاهم بين

العرب والغربيين في هذه الحقبة . ونحن في الغرب لا نستطيع أن نفهم وجود تيارات سياسية اجتماعية ، إلا إذا كانت صادرة عن أحزاب قائمة منظمة ومتناهية القوة وواضحة ، ولها برامجها التي نستطيع فهمها ، وقادتها الذين نتمكن من تمييزهم ودراستهم ، واحترامهم بالنسبة الى مواقفهم وأفكارهم . ولم تكن هذه الاوضاع ظاهرة لنا بالنسبة الى الجيل العربي الذي ولد بين عامي ١٩١٠ و ١٩٢٠

وفي وسعنا القول بصورة عامة ان أفكار هذا الجيل القلقة قد انعكست في ثلاث مجموعات . فالى اليمين مجموعة قوية من الاخوان المسلمين يقودها حسن البنا . وقد دأب منذ عام ١٩٣٤ على تأسيس فروع للاخوان في خارج مصر . ونادى ابان الحرب العالمية الثانية بالحياد وأنشأ جهازا ارهابيا ذا خلايا سرية مزودة بالسلاح والذخيرة ، ومدربة تدريباً عسكرياً . وحقق للحركة سمعتها في حرب فلسطين في عام ١٩٤٨ ، عندما قاتلت وحدات متطوعة من الاخوان بشيء من النعصب والبسالة ، وحاول البنا في فترة الاضطراب التي وقعت في مصر في شتاء ذلك العام ، الوصول الى الحكم ، ولكن الحكومة قاتلت الحزب بحملة من الاعتقالات والارهاب وقام أعضاءه باغتيال النقراشي باشا ، ولم يحل فبراير (شباط) عام ١٩٤٩ ، حتى أغتيل حسن البنا نفسه اما بتحريض من الحكومة القائمة أو على ايدي الفئات الارهابية الخاصة التي كان فاروق قد ألغها . وضعفت المنظمة بعد ذلك في السنوات الثلاث التالية وان ظلت تجتذب اتباعاً لها من الفلاحين وعمال المدن والموظفين والطلاب وبعض المثقفين في مصر . وجماعات أقل عدداً في سورية والاردن والسودان .

ووقفت الى الطرف البعيد الآخر في اليسار ، ظلال وجماعات مختلفة من الشيوعيين . وقد شرع في تأليف هذه الخلايا في مصر منذ عام ١٩٢٠ وفي سورية والعراق ابان حقبة الثلاثين . وعلى الرغم من أن الشيوعية قد تمكنت من تحقيق بعض التقدم عن طريق النقابات العمالية الناشئة ولا سيما في مصر ، إلا أن الاحزاب الشيوعية ، كأحزاب ، كانت محرمة طيلة الفترة الواقعة بين عامي ١٩٢٢ و ١٩٥٢ ، بقرارات الحكومات المحافظة وتحت تأثير الدول الاستعمارية ونفوذها . ولم تقم البلاد العربية أية علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفياتي الا في حقبة الأربعين ، واقتصر اهتمام السياسة السوفياتية في المنطقة نفسها طيلة هذه الفترة الاولى ، على العناية بشئون الكنائس الارثوذكسية الشرقية ، وعلى بعض النشاط في ايران . ولكن هذا النشاط الشيوعي ما لبث أن تزايد بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية . ومضت السفارات والمفوضيات السوفياتية الجديدة الى العمل ناشطة كل النشاط . واتسع الاهتمام بالحليف السوفياتي الطاف للدول الغربية وسرعان ما تألفت « اللجان الوطنية للعممال والطلاب » وكذلك « جماعات التحرر الوطني » .

ولكن النشاط الشيوعي في الوطن العربي في حقبة الأربعين لم يكن أكثر من مجرد تعبير عن القلق والسخط ، وعن البحث عن أفكار جديدة واسلحة يمكن استخدامها ضد الاستعمار وأعوانه ، وليس ثمة من

شك في أن قوى قاسية من الشيوعيين المدبرين المتفانين في عقيدتهم قد نشأت في مصر وسورية والعراق ، لكن ما وقع من اضطرابات ومظاهرات وما تألف من لجان محلية وما صدر من منشورات بين آونة وأخرى ، لم تكن الا ثمرة نشاط شبان لا يعرفون شيئا أو شيئا حقيقيا من الماركسية - اللينينية ولا يحملون لها لى ولاء ولم تكن سمعة الاتحاد السوفيتى نفسه عاملا واضحا مؤكدا ولا سيما بعد أن أيدت موسكو مشروع تقسيم فلسطين لعام ١٩٤٧ في الأمم المتحدة ، وبعد أن أسرعت روسيا على الفور للاعتراف بإسرائيل بعد خلقها في عام ١٩٤٨ . ولم يؤد استخدام المسلمين الروس في السفارات والمفوضيات السوفياتية الى أية نتيجة ، إذ أنه لم يلق هوى لدى غالبية أبناء الجيل الجديد الذين اتجهت أفكارهم اتجاهات علمانية (١)

واستقرت المثل والنظريات الرئيسية لهذا الجيل وسطا بين هذين الطرفين المتباعدين . وكانت هذه المثل والنظريات المنبثقة من الوسط تتلخص في القومية والحياد والوحدة وتبنى النظام الجمهورى والاصلاح الاجتماعى الذى ينشده الشبان والذى توصلوا اليه بعد أن خبروا كافة الآراء والنظريات للفئات التى انضموا اليها ولكنهم سرعان ما خرجوا منها بعد أن تبينوا عجزها عن أن تحقق لهم أى تقدم فى المضمار السياسى . وكثيرا ما لجأ هؤلاء الشبان الذين كانوا يعيشون وكأنهم فى دوامة بين مد وجزر ، وفى خضم التجارب والاستهواء الى البحث عن قيام حزب شجاع جديد ، لا يلبث أن يبرز ويلقى التأييد الحماسى حتى ينهار تحت وطأة الانقسامات الداخلية أو اضطهاد رجال الشرطة .

ولكن لم كان يقع هذا ؟ تنبثق أسباب عدة من العوامل التى سبق لنا أن شرحناها . فلقد كان فى امكان السلطة الفرنسية أو البريطانية ، فى القسم الاكبر من هذه المدن أن تقضى على نشاط أى حزب تعتبره خطرا اما عن طريق العمل المباشر فى ظل الانتداب ، أو عن طريق اظهار الامتناع لأنظمة الحكم القائمة التى تأتمر بأمرها . وكانت هذه الأنظمة

(١) اعتقد ان المؤلف قد غالى كثيرا فى تقدير قوة جناحى اليمين والشمال . فى تيارات الفكر العربى الحديث . وقد يقال ان جماعة الاخوان المسلمين وجدت فى يوم ما تأييدا جماهيريا واسعا . اذ انها كانت ، اذا ما استثنينا الحركة الشيوعية التى لا يمكن ان تلقى تأييدا على نطاق واسع فى الوطن العربى بسبب تصادمها من الناحية العقائدية مع الفكرة العربية العارمة المتطلعة الى الوحدة الشاملة للوطن العربى ، الحركة المنظمة الوحيدة الكبيرة التى استهوت الجماهير برفعها شعارات مكافحة الاستعمار فى لك الحقبة من التاريخ العربى الحديث . ولكن هذه الحركة ما لبثت أن فقدت انصارها بعد قيام ثورة مصر التحررية الصادقة فى صراعها مع الاستعمار . وبعد أن تكشفت الحركة للرأى العربى الواعى على حقيقتها التعصبية مما يتناقض مع مفاهيم القومية العربية الصحيحة ومع 'سس التفكير العالمى الحديث .

(العرب)

تسحق الحركات واحدة اثر أخرى وتسكتها ، فلقد أغلق نوري السعيد
حزبي الاستقلال والوطني الديموقراطي أكثر من مرة . ولم يكن في وسع
الاشتراكيين في سورية أن يشقوا طريقهم بنجاح أمام تجمع من عناصر
الاقطاعيين والتجار وشيوخ القبائل في أية انتخابات نيابية . وارا بعض
شباب حزب الوفد في مصر ، ان يصلحوا حزبهم ويطوروه ضمن الاطار
الحزبي ولكنهم كانوا يصطدمون دائما ويفشلون نتيجة معارضة
آبائهم لهم .

وكانت طاعة رب الأسرة وما زالت قوة لها خطرها الكبير في مجتمع
الشرق الاوسط . وكان تحدى السلطان المسيطر في المنطقة التي يعيش
فيها أي شاب ، يتطلب من هذا الشاب الكثير من الشجاعة ، كما قد يورطه
في خطر خسارته لما يشعر به من أمن في ماله وعمله ومكانته الاجتماعية

ويرى هذا الشاب أن كل من في مجتمعه يمت اليه بصلة القرى
أو بعلاقة ما من العلاقات . فهذا المجتمع يشكل هرما ألف احترام الشيوخ
من الاثرياء . الذين يفوزون عادة بالمقاعد البرلمانية ، واحترام الذين يحملون
مكانة اجتماعية بارزة في المدن والبلدان الصغيرة . أو الذين يؤيدون
احدى الشخصيات المحافظة الكبيرة . وقد يغدو الشاب من غلاة المنادين
بالاصلاح وهو في مدرسته الثانوية أو في الجامعة النى الحق بها سواء
أكانت جامعة هارفرد أو كمبردج أو السوربون أو القاهرة أو دمشق
أو بيروت الأمريكية . ولكنه لا يكاد يخرج من جامعته ، ويواجه الضرورة
الماسة للحصول على عمل ، حتى نراه يصبح أقل حماسة في التعبير عن
آرائه . وكان الشاب اذا خرج الى الحياة العملية في السنوات الاخيرة
من النظام القديم وجد نفسه وسط فوج ضخيم من الشبان المتعلمين الذين
لا تكاد الوظائف الحالية ، ان وجدت ، تكفى لجزء قليل منهم . ولو أوسعفه
الحظ ووصل الى وظيفة من الوظائف فانه كثيرا ما يكون في هذه الحالة
مدينا بها الى نفوذ الكبير في أسرته . الذى يود هذا الشاب لو أطاح به
وبأفكاره وبالدور الذى يلعبه في النظام القائم . أما اذا حرم الشاب
من الوظيفة فإنه يظل في هذه الحالة عالة على أسرته .

وكانت الاوضاع ابتداء بدار الاعنماد البريطانية أو الفرنسية أو
بسفارة احدى هاتين الدولتين ، ومرورا بالفصر والحكومات الرجعية ،
والبرلمانات التى يسيطر عليها الاقطاعيون والمرتشون والفاسدون ،
وانتهاء بالعلاقات العائلية الشخصية ، أشبه ما تكون بسنار كنبف ، محكم
الغطاء من القمع والكبت والمرارات يلقي بقله على هذا الجيل الجديد
وكانت مثالية الكثيرين من أبناء هذا الجيل أيضا هشة سهلة التكسر
ومفتقرة الى القوة الذاتية على الاحتمال . وكثيرا ما وجد هؤلاء ، أن من
الاسهل عايتهم لو استسلموا ، ورفعوا أيديهم علامة الازعان .

هذه هى بعض الاسباب الواقعية ، المشروعة التى تجعل من حقنا
التحدث عن وجود « جيل مختلف » تحت الفشرة الظاهرية لمجتمع الشرق
الاوسط على النحو الذى كان الغرب يراها فيه قبل حقبة الخمسين ، وهو
جيل سرعان ما تناذل وانحرف في الازمان النورية التى وقعت في هذه

الحقبة نفسها • ولكن كانت ثمة أسباب عقائدية أساسية أيضا • فلم تكن تلك الفترة من نوع الاوقات التي توصل الناس عادة الى التفكير الهادى والمناقشات الطويلة المدى • ولقد كانت جميع أوضاع المجتمع العربى مناهضة لأى تطوير منظم يقوم على أساس برامج سياسية واقتصادية متبادلة التحدى ، واضحة ، مميزة •

وكان العرب يحاولون منذ عام ١٨٥٠ تقريبا أن يدرسوا فى حقب قصيرة التجارب التى مررنا نحن بها فى الغرب عبر قرون طويلة ، وأن يفهموها ويطبقوها ، على الرغم من أنهم كانوا لا يزالون يعيشون فى دوامات من الضغط السياسى الدولى ومن التبدل المستمر فى حكاهم ، من العهد العثمانى فى مصر مثلا الى عهد الاسرة المالكة الجديدة ومنها الى الاحتلال البريطانى ومن الاتراك العثمانيين فى البلاد العربية الاخرى الى فترة قصيرة من الامل فى الاستقلال ومنها الى حكام غرباء عنهم • واذا نظرنا الى الامور على هذا الضوء ، تبين لنا أن التطورات التى وقعت بين عامى ١٨٥٠ و ١٩٢٢ كانت مهمة وبارزة كل البروز • وبات فى وسع الشبان العرب أن يدرسوا الآن وأن يهضموا تقنية الغرب الحديثة فى الطب والهندسة والزراعة وعلم الطبيعة والكيمياء والاساليب الفنية الصناعية • ولكن ترى كيف يمكن تطبيق افكار الغرب الحديثة فى الحقلين السياسى والاقتصادى فى مجتمع يختلف كل الاختلاف فى تكوينه الاجتماعى ومدى التعليم فيه ، وطرق التعبير السياسى فيه عن مجتمع الغرب؟ فلم تشهد البلاد العربية ثورة صناعية. ولم تغم فيها طبقة عمالية صناعية • وليس فيها أيضا طبقة وسطى بالمعنى الغربى من الكلمة • فكيف يمكن للشباب العربى أن يجد فى حقل التجارب الغربية نظريات وبرامج للتقدم الاجتماعى - الاقتصادى تقوم على العنصر الفرد الوحيد والعظيم فى مجتمعه وهو الطبقة العمالية الزراعية التى تميزت بالتراخى، والتى قتلها الفقر ، وتأخرت فى حقل التقنية الجديدة •

ولم تكن « الاشتراكية » لهذا الجيل الا مجموعة من المثل المعممة التى تهدف الى تصفية السلطان السياسى لطبقة ملاك الاراضى والرأسماليين التجار ، لمصلحة جماهير الفلاحين التى تؤلف ثمانين فى المائة من الشعب • وكانت اشتراكيته أيضا مزيجا من التأثيرات الخارجية المنبثقة عن الثورة الروسية والاشتراكية الفابية البريطانية وسياسة التوزيع الجديد الامريكى وميثاق الاطلسى ومشروع بيفردج • ولا ريب فى الاستنتاج بأن هذه الاشتراكية كانت تفتقر الى الوضوح فى الفكر ، صحيح وواقع الى حد كبير • وقد يكون فى امكان المسترخى فى مفعده المريح فى الغرب أو الجالس فى مكتبه الصحفى هناك ، ان يستخف بالمشاكل الموجودة فى الشرق • ولكن عندما يقف المرء فى قرية عربية ويشعر بعين عقله فى حساب الارقام والمشاكل الاجتماعية التى قد تواجه العربى الساعى وراء الاشتراكية ، ثم يأخذ فى مقارنة كل ذلك مع ما يماثله من أرقام ومشاكل فى الغرب فانه سرعان ما يخجل من استخفافه السابق ، ويختلط عطفه بالسؤال الحائر الذى يسيطر على كل لب وفؤاد ••• وهو ••• ترى من أين نبدا ؟ ولم يكن الشبان العرب بين عامى ١٩٢٢ و ١٩٤٧ قد أفادوا

حتى من النتائج التي يمكن أن تتمخض عن الاستعمار المباشر سواء أكان بريطانيا أم فرنسا ، عن طريق التجارب المستمرة في حكم القانون وحق الاجتماع ، والخدمات المدنية والتعليم الجامعي ، والصحافة والطباعة ، والنقاش في القضايا السياسية والاجتماعية على الأسلوب الغربي (١) . ولم تكن العلاقة مع الفكر الغربي في الشرق الأوسط ، وثيقة في يوم ما على النحو الذي كانت فيه في تلك الأيام ، فهي تستفز شباب الجيل الجديد فكريا وادراكيا من ناحية ، هي تدعو الى خلق المراتب وعدم الفهم من الناحية الأخرى اذ أنها متنكرة وراء شعار من النظام القديم القائم .

ولم يكن في امكان هذه الأوضاع العقائدية والتنظيمية ان تؤدي الى مشوء حركة سياسية قوية ، ثابتة ، منظمة ، جيدة الفكر ، يكون في استطاعتها ان تبدل النظام القائم . لكنها ادت من الناحية الأخرى الى شعور عميق ، منفعل ، من المرارة والتجربة وحياسة المؤامرات التافهة وتأسيس الاحزاب الجديدة الضئيلة ، والى ساعات لاعد لها ولا حصر من المناقشات السياسية العقيمة في المقاهي . وكذلك الى تفجرات عاطفية عنيفة تصل الى القمة أحيانا ، عندما يشعر أفراد الجيل بعادته فيه بعض الاذلال لكراماتهم يتعلقون به وكأنه القشة الأخيرة وحملت المراتب والاضطهادات والصراعات الداخلية بين المثل العليا والمصالح الشخصية كثيرا من الشبان على هجر السياسة كنشاط قدر ولا جدوى منه . فكل شيء انحلال وعار ، وقد ظلت النتائج حتى يومنا هذا متمثلة في القلق السياسي والافتقار الى الفكر المركز ، والى خلق جو من الانشغال بالمشاكل الآتية يوما بعد يوم ، ووجود تفاؤل يعود الى فروغ الصبر حتى في الحقبة الجديدة التي ما زال الوصول الى الاهداف فيها بعيدا كل البعد .

الضباط الشبان :

وانطوى هذا الجيل على مجموعة من الشبان الذين يمكن ان ينسبوا الى « الطبقة الوسطى » القلقة الوجود ، والذين قدر لقلقهم أن يلعب دورا حاسما كل الحسم . واذا ما استثنينا الصحراء ، حيث يسكن البدو ، أمكننا القول بأن الشرق الأوسط ، كان خاليا من التقاليد العسكرية العريقة ، اذ لم تكن هناك كتائب وأفواج يرجع تاريخها الى قرون خلت ، ينولى قياداتها التقليدية ضباط ينتمون الى الاسر الارستقراطية ، ويشبعون بمفاهيم الولاء للدولة أيا كان شأنها وشكلها ، لانهم يؤلفون جزءا منها . وعندما شرعت الجيوش الجديدة الصغيرة في النمو والتطور في مختلف أرجاء الوطن العربي كان ضباط هذه الجيوش ينتمون الى الطبقة الوسطى الجديدة الناشئة من قاعدة الطبقة الفلاحية التي كنا قد تحدثنا عنها من قبل . وكان بعض الشبان ينضمون الى سلك الضباط بعد الدراسة الثانوية أو بعد قسط أعلى من التعليم العالي

(١) هذه الفوائد التي يشير اليها المؤلف وينسبها الى الاستعمار لا تبدو أن تكون سطحية وفي القشور دون اللباب ، ولذا لا يمكن النظر الى الاستعمار على انه ذو فوائد أبدا . (المغرب)

لأن الحياة في هذا السلك ، كانت تضمن لهم الأمن والطمأنينة ولأن بعضهم كان ينظر الى العمل في الجيش على انه وسيلة لخدمة الشعب وكانت مراحل التعليم التي مروا بها قد بثت في نفوسهم نفس وجهات النظر الأساسية التي سادت الجيل الجديد كله . والتي شرحناها من قبل ، وعملت دراساتهم العسكرية اللاحقة في الكتب الغربية على تقوية هذه الآراء في نفوسهم ودعمها .

ولكن تحتم عليهم في حقبة الفترة الواقعة بين عامي ١٩٢٢ و ١٩٥٢ أن يلعبوا دورا يبعث في نفوسهم الكثير من الشعور بالمرارة والخجل . ولم يكن من الأمور السهلة على نفوسهم أن يتلقوا الأوامر بإطلاق النيران على مواطنيهم عندما يتظاهرون احتجاجا على السياسات التي تلحق المهانة بالجيش الوطني بنفس الدرجة التي تلحقها بالشعب كله . وكان الضباط الشبان في جيوش مصر وسورية والعراق والأردن يشعرون بأن لندن وباريس تنظر الى جيوشهم بعين الازدراء . وهم يرون عندما يؤدون نوباتهم في حراسة القصور الملكية ، أو ينفذون واجبا آخر من واجبات الدولة ، وفي تصرفات بعض رؤسائهم من كبار الضباط . صورة الفئة المختارة المريضة الفاسدة التي تتحكم في بلادهم . وكان من الضروري بالنسبة لهم أن يدركوا أنهم لا يزيدون في ميولهم الديمقراطية ، على أخوانهم من المدنيين من أبناء نفس الجيل ونفس الطبقة الذين ينتمون اليهما ولكن مع مرور السنوات ، لم تظهر في الأفق أية دلائل على أن الاستقلال قريب أو أن الإصلاح الداخلي ممكن عن طريق النظام القائم ، وشرع هؤلاء الضباط الشبان في التفكير بما على جيوشهم من واجب أساسي يتصل بالدولة والشعب . وكانوا يرون أن هدف العسكريين ليس الوصول الى الحكم بل الدفاع عن الذين يحكمون من أعدائهم سواء أكانوا من الخارج أم من الداخل . وعلى هذا الأساس يجب أن تكون الحكومة التي يدافعون عنها صالحة تستحق الدفاع . أما اذا كانت الحكومة غير صالحة لأن يدافع الجيش عنها ، فإن على العسكريين اختيار أحد السبيلين إما قبول الفساد الراهن المستشري وإما التدخل في الشؤون المدنية . .

ولم يكن هناك أي احساس لدى العسكريين من الشبان بالتفوق على المدنيين أو بالتميز الطبقي ، عندما يتولد لديهم الاعتقاد بأن من حق الجيش أن يتدخل . وليس ثمة من ريب في أن حملة الغربيين على تدخل الجيش في الشؤون العامة للشعب ، قد أضافت مزيدا من التوتر الى العلاقات بين العرب والغرب في حقبة الخمسين . فهؤلاء الضباط الشبان يرون أن الجيش هو العنصر الوحيد في مجتمعهم الذي يمثل جماهير الشعب الذي يستمد الجيش منه ضباطه وجنوده . ولم تكن لديهم رغبة قوية عارمة في السلطان السياسي . ولكن سير الاحداث في السياسات المدنية في بلادهم دفعتهم شيئا فشيئا الى الفكرة التي تأصلت لديهم بوجود قوة واحدة ليس الا تنبثق من صميم الشعب . وبثق أفرادها بعضهم ببعض ، قادرة على القيام بعمل حازم حاسم .

وكان تفاؤل هؤلاء الضباط الشبان قويا وهائلا ، فقد آمنوا بأن دورهم سيكون في حماية أهداف الشعب ليس الا ، واعادة الضالين الى سبيلهم السوي » ولقد قال الرئيس عبد الناصر في مستهل عهد الثورة « » وأما دورنا فيه فهو دور الحراس فقط لايزيد ولاينقص ، الحراس لمدة معينة بالذات موقوته بأجل ... وما أشبه مهمتنا في هذا الوضع بدور الذي يمضي فيجمع الشاردين والتائهين ليضعهم على الطريق الصحيح ، ثم يتركهم يواصلون السير » .

وكانت لهم ثقة عمياء بأن الفرج سيتحقق بالقضاء على العهود البائدة . وكان إيمان الضباط الشبان منصبا في البداية على انه بعد انقضاء فترة قصيرة نسبيا سيتمكن الجيش من إنهاء السيطرة الأجنبية والقضاء على الفساد الداخلي ، وأنذاك يمكن لهم ان ينسحبوا تاركين أمر الثورة الداخلية القائمة على أسس الإصلاح البعيد المدى ، والتقدم الى نظام سياسي مدني يتجسد شبابه يضم نفرا من الذين يحظون بثقة الأمة .

ولقد قال الرئيس جمال عبد الناصر في هذا المعنى ...

« لقد كنت أتصور قبل ٢٣ يوليو . أن الأمة كلها ، متحفزة متأهبة ، وانها لا تنتظر الا طليعة تفتح امامها السور ، فتندفع الأمة وراءها صفوفا متراصة منتظمة تزحف زحفا مقدسا الى الهدف الكبير ...

« ولكن ما أبعد الحقيقة عن الخيال ... كانت الجموع التي جاءت أشياء متفرقة ، وفلولا متناثرة ... وكنا في حاجة الى النظام فلم نجد وراءنا الا الفوضى ، وكنا في حاجة الى الاتحاد فلم نجد وراءنا الا الخلاف ، وكنا في حاجة الى العمل فلم نجد وراءنا الا الخنوع والتكاسل .. »

وكل من يلاحظ هذه الاقوال المنبثقة عن سلامة الطوية وخيبة الامل المرة الواضحة ، من الضباط الشبان الذي قاد أول ثورة حاسمة في تاريخ هذا الجيل ، والتي سنرجع اليها فيما بعد ، يجد ان هذه الاعترافات الصريحة التي صدرت عنه في عام ١٩٥٤ كانت تعكس ايمانا وأملا ، يستحقان حتى قبل ان تحل نهاية النظام القديم بما فيهما من مثالية ، احترام المراقبين الغربيين ودهشتهم . ففي هذه الاقوال ، وفي خضم هذا البحث عن الافضل في الشرق الاوسط العربي ، طراز من المثالية التي جرى الغرب على احترامها والتأثر بها ولكن مأساة الغرب ، تقوم في انه لم يستطع تمييز هذه المثالية الخفية قبل أن تنطلق الى السطح ، وفي انه لم يكن ميالا الى اخذ « العرب » بمحمل الجد . ولعل من السخریات المرة ان شبان هذا الجيل الجديد من العرب وشباباته ، كانوا يحاولون بطرائقهم وعلى صعيدهم أن يطبقوا كل ماحققه الغرب في الماضي من منجزات أملا منهم في أن يؤدي ذلك الى مستقبل افضل لشعبهم . ولكن اعين سياسة الغرب عميت عن رؤية الحقيقة متأثرين باستهواء الصحراء

لهم ، وبما تركته التراثات الثقافية الاخرى في نفوسهم من غضب
وفزع ، فعملوا على ابعاد ابناء هذا الجيل عنهم بمختلف السبل
والوسائل .

وبدا النظام القديم في الشرق الاوسط في التدهار اعتبارا من
عام ١٩٤٦ ، ولاسيما في مصر . وكانت فكرة اضطراب الجيش الى
القيام بالعمل نتيجة ما يبدو على المدنيين من ضعف قد شرعت في
النمو منذ عام ١٩٤٠ . وكان لابد من أن يهوى كيان هذا النظام
القديم مزقا في حقبة الخمسين اما في مصر أو في أي مكان آخر
نتيجة وطأة السخط الاجتماعي والتفمر الوطني . وسرعان ما وقع
حادث قدر له ان يمثل دور المسارع أو الحافز . الذي يضم كافة
الشكاوى والآلام ومشاعر الذلة والهوان .

فلقد حطمت كارثة العرب في فلسطين في عام ١٩٤٨ - ١٩٤٩
الشرق الاوسط من أسسه وقواعده . وعكست هذه الكارثة
الصورة التي لامكر فيها ولا استخفاء جميع الشرور ونواحي الضعف التي كان
الجيل الجديد قد شرع في مقبتها واسننكرها وكانت انقنابل اليدوية تنفجر
في أيدي الجنود العرب بسبب تسليحهم بالأسلحة الفاسدة التي استوردت
بطرق فاسدة . وأتيحت للدولة الدخيلة الجديدة التي صدر الامر للجيش
العربية بمهاجمتها ، الفرصة لإعلان وجودها عن طريق دعم الانتداب البريطاني
لها ، وتأييد أمريكا وروسيا الدبلوماسية لقيامها . والضعف المستشري في
الجامعة العربية بسبب ما تننازعها من خلافات ومناقشات بين دولها الاعضاء
وافتقرت الحملة العربية العسكرية الى التنسيق ، عاكسة للجزئية التي
فرضها الاستعمار على الأمة العربية والتي استغلها الحكام السائرون في
ركابه ، وراح الشبان العرب الذين عادوا من فلسطين . العسكريون منهم
والمدنيون ، وقد ساءت لهم الحيرة والذهول . ينطلقون حولهم الى كل اتجاه
وهم يتساءلون . . . هل وقع مثل هذه النكبة في أي مكان آخر غير فلسطين
وهل شهد القرن العشرون في أي مكان آخر ، مجموعة من الغرباء يسمح لهم
بالمجيء الى بلاد ما هولة بشعبها لاقتحامها ، وإعلان دولة لهم فيها ، يطردون
منها أهلها (١) ؟ وكيف يمكن لهذه الجماعة التي لا يربو عددها على

(١) أثبتت المقالات التي نشرها وليد الخالدي في أعداد « منبر الشرق
الاوسط » في صيف عام ١٩٥٩ ، والمقال الذي نشره المؤلف بعنوان « الخروج
الثاني » في مجلة السبكتاتور بتاريخ ١٢ ايار « مايو » عام ١٩٦١ والمقال الذي
نشره فان دير هوفن ليونارد في لاهاي بعنوان « الحقيقة عن فلسطين » في عام
١٩٦٠ ، والمدعومة كلها بالوثائق والمستندات ، كذب الادعاء الصهيوني
بأن عرب فلسطين هربوا من بلادهم تنفيذا لأوامر زعمائهم . ويبدو أن
الغرب متأثر بأباطيل الصهيونية ودعائياتها الكاذبة لم يعترف أن عرب
فلسطين قد أخرجوا من ديارهم تحت وطأة الارهاب الصهيوني . ولكن العرب
كانوا يعرفون هذه الحقيقة تمام المعرفة . وعلى ضوء ذلك يمكن فهم ما تركته
هذه الحقائق من أثر فيهم .

سبعمائة وخمسين ألفا من الافاقين أن يوقعوا الهزيمة بثلاثة وثلاثين مليوناً
من البشر) .

وفي نطاق مثل هذه الاسئلة ، حاول الشبان العرب ، أن يجرعوا
مرارة الهزة التي عانوها في فلسطين وأخذوا يحاولون الافادة من العبر
والدروس التي تلقوها في فلسطين .

ثورة جيل

هناك ثلاث مراحل في كل عمل عظيم ، مرحلة
الايمان ، عندما يعتقد الانسان بالهدف ويحلم به ،
ومرحلة التفكير عندما يتحول الاعتقاد الى فكرة
وعقيدة ومرحلة العمل ، عندما تظهر الفكرة على صعيد
العمل وقد وصلنا الآن الى عتبة المرحلة الثالثة .

موسى العلمى . . فى كتابه عبرة فلسطين

لم تبدأ الثورة فى مصر . فقد تم عقد اتفاقات الهدنة مع اسرائيل فى
يوليو (تموز) عام ١٩٤٩ ، وظل الشرق الأوسط يعيش السنوات البلات
التالية فى غليان مستمر . ولكن دون أية نتيجة حاسمة ، ويمكن القول بأن
الثورة بدأت حتى قبل شوب حرب فلسطين ، فى الاضطرابات والمظاهرات
التي وقعت فى العراق فى مستهل عام ١٩٤٨ ، احتجاجا على المعاهدة
العراقية الانكليزية المقترحة المسماة «بمعاهدة بورتسموث» والتي اضطرت
العراقيان الى ركنها على الرف ابر هذه الاضطرابات ، ووقعت فى ديسمبر
(كانون الاول) عام ١٩٤٨ اضطرابات ضد الحكومة السورية الفائمة آنذاك
واستدعى الجيش لقمع الاضطرابات ، وفى الملايين من مارس (آذار) عام
١٩٤٩ ، تدخل الجيش السوري فى السياسة ، وتولى الزعيم حسنى الزعيم
شئون الحكم ، ووقف الوطن العربى فترة قصيرة مبهور الأنفاس ، فهل
يقدر لحسنى الزعيم أن يكون أنا تورك العرب ؟ وهل يعنى هذا الانقلاب
بداية تبدل حقيقى ؟ ولكن لم تمض ستة شهور حتى كان حسنى الزعيم
فى عداد الأموات ، وانفصلت السلطة الى صابط سوري آخر ، ودخلت سورية
فترة خمس سنوات من عدم الاستقرار ، يتدخل الجيش ابانها فى كل مرة
ولكن دون أن يقوم بتبدل جذرى حاسم ، يغبر الاوضاع القديمة .

وشرع نوري السعيد فى العراق بموافقة عبد الاله الكبير الخوف .
منذ عام ١٩٤٩ ، فى تشديد قبضه على البلاد ، وأخذ فى اقامة وزارة قوية
للدخلية أصبحت شرطتها السرية مبعث الفزع فى طول البلاد وعرضها
وأثارت مشروعاته للتنمية فى عام ١٩٥٠ حماسة السفارة البريطانية فى
بغداد وبريطانيا ذاتها ، كما خففت من غلواء بعض الأحرار من العراقيين ،
وجثم على العراق عهد استتال ثمانى سنوات ، وقعت ابانها بعض الاضطرابات
ولكن تمكن النظام المثلث الزوايا والمؤلف من نوري وعبد الاله وشمس
القبائل من أخفائها ومن الحيلولة دون وقوع أية تغييرات أساسية فى
الحقلين السياسى والاجتماعى ، بفضل مالفية هذا المثلث من تأييد بريطانيا
أولا وأمريكا تاليا ، وبفضل مافرضه من تنكيل داخلى رهيب .

ووقع تبدل تاريخي في شرق الاردن نتيجة ضم ما تبقى من فلسطين العربية اليه، وبات الملك عبد الله ومعه «الوجود» البريطاني في البلاد بكامله يواجهان منذ ذلك الحين معارضة مشتدة من الفلسطينيين العرب ، وأيدت نتائج الانتخابات التي جرت في أواسط عام ١٩٥٠ هذه الحقيقة ، وهذا الاتجاه . ولم يمض عام حتى هوى الملك عبد الله في العشرين من يوليو (تموز) عام ١٩٥١ قتيلا في مدينة القدس ، وارتقى ولده طلال العرش وسط موجة من الترحيب الشعبي ، لما عرف عنه من تحرر في الفكر ومن شعور وطني أصيل ، ولكنه كان مصابا بمرض خطير في الغدد يؤثر كلما اشتد عليه في قواه العقلية ، ودخلت المملكة الاردنية الصغيرة ذات الكيان المصطنع حقبة من التوتر وعدم الاستقرار المزمين ، وتمكن الزعماء السياسيون المحافظون من أبناء المدرسة القديمة ، وجلهم من الضفة الشرقية ، من العمل حتى عام ١٩٥٦ بالتعاون مع المستشارين البريطانيين المدنيين ومع جلوب باشا على ابقاء العلاقات مع بريطانيا وعلى اخفات صوت الوطنية العربية الصاعدة والجديدة بين أبناء فلسطين الذين غدوا رعايا للاردن .

وسارت الامور في مصر باتجاه أول أزمة حاسمة في الوطن العربي بين أبناء الجيلين القديم والحديث ، وكان نشاط حركة الاخوان المسلمين في عام ١٩٤٨ ، واخلاد هذا النشاط في عام ١٩٤٩ ، أول نذير بهذه الأزمة وظهرت في الأفق نذر مختلفة أخرى ، فقد طلق فاروق زوجته فريدة في عام ١٩٤٨ ، وأضرب رجال البوليس يطالبون بأجور أعلى ، وغلت البسلاد بالغضب من جراء ارتفاع أسعار المواد الغذائية ، وانتشرت القصص عن مبادل فاروق في حياته الخاصة ، وجثم على آبلاد شعور بالعار مما وقع في فلسطين ، وأقصى الوفد عن الحكم ، ولم يكن رئيس الوزراء الجديد ابراهيم عبد الهادي الذي يمثل الأقلية من القادة الملمين ، وقرر فاروق في يوليو عام ١٩٤٩ - وأقره زعماء الوفد على رأيه - بأن الوقت قد حان ليعود الى الحكم من جديد ، الحزب الوحيد الذي ظل دائما يتمتع بشيء من التأييد الشعبي .

وعادت أغلبية الوفد الى البرلمان في يناير (كانون الثاني) عام ١٩٥٠ واكتظت مقاعد مجلس الشيوخ بأنصار هذا الحزب الذي عمل جاهدا وعن طريق التحالف مع القصر ، ودون أي نجاح على أن يسدل الستار على قصص الفساد المروع المستشري والتي تناولت قضية الأسلحة الفاسدة ابان حرب فلسطين ، وأخذت أحزاب الأقلية المغالية في ميولها المحافظة تروج هذه القصص للطعن في الوفد وتشويه سمعته ، ولم تتمكن الحملات الصحفية التي شنتها هذه الاحزاب من تقوية مركزها ولكنها عززت مشاعر المرارة التي يحس بها أبناء الجيل تجاه النظام السياسي القديم كله .

ولاح في الأفق بصيص من الأمل ، تركز في جهود رجل فرد لتحقيق ما كانت البلاد مفتقرة اليه ، فقد أدركت حكومة الوفد بعض أخطائها الماضية وسمحت لوزير الشؤون الاجتماعية فيها «احمد حسين» وهو ليبرالي الفكر الى حد ما ، بإنفاذ مشروع ناقص للضمان الاجتماعي ، يضمن الامن للأرامل والاطفال والأيتام والعجزة والشيوخ ، ومنحت الحكومات علاوات للموظفين وزيادات في أجور عمال الصناعة ، ولكن خطواتها هذه أدت الى غلاء عمودي

فى الاسعار وأدى جيشان الحرب الكورية الى ارتفاع أسعار القطن مما أكسب حكومة الوفد عطف أهل الأرياف ، ولكن سرعان ما امتدت يد الرشوة والفساد عندما أخذ الطلب على القطن يسير فى طريق الانخفاض ، ووجد الناس أن هذا الارتفاع المصطنع فى الاسعار قد أدى الى بقاء نتاج موسم ١٩٥١ - ١٩٥٢ كامدا لا يجد من يبتاعه .

واستقال احمد حسين عندما أحس بأن الأيدى الفاسدة قد امتدت الى مشروع ضمانه الاجتماعى لافساده ، واستقال عبد المتعال وزير المالية ، نتيجة فضيحة القطن ، وأحست الحكومة بموجات الاضطراب المتزايد فى حركة الاخوان المسلمين التى تجدد نشاطها ، فأطلقت سراح معظم أعضائها المعتقلين ، وبدأت تزاوّل نشاطها هذه المرة بقوة وشدة ، وظلت بريطانياهى محور كل مافى البلاد من اضطراب انصب على المطالبة بجلاء البريطانيين عن مصر كلها ، وعلى وحدة وادى النيل .

وكثر الحديث عن وجوب اتخاذ موقف الحياد فى الحرب الكورية وفى الحرب الباردة وشمل هذا الحديث جميع أوساط اليمين واليسار والوسط وهوجمت السفارتان البريطانية والأمريكية فى شهر أغسطس (آب) عام ١٩٥١ ، بمناسبة الذكرى السنوية للمعاهدة المصرية البريطانية المعقودة فى عام ١٩٣٦ ، وأعدت الحكومة فى الثامن من أكتوبر (تشرين الاول) من العام نفسه مراسيم قدمتها الى مجلس النواب تفضى بإلغاء معاهدة عام ١٩٣٦ وإلغاء الحكم الثنائى فى السودان ، وإعلان فاروق ملكا على مصر والسودان ولم تمض خمسة أيام حتى كانت بريطانيا تقدم مشروع منظمة الدفاع المشترك عن الشرق الأوسط ، بالنيابة عنها وعن فرنسا وتركيا والولايات المتحدة ، ولعل من الأدلة على وجود هوة كبيرة بين آراء الغرب وبين الواقع العربى هو أن هذا الاقتراح تضمن انذارا بأن بريطانيا لن تنظر فى موضوع الجلاء عن قناة السويس الا اذا قبلت مصر مشروع منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط .

وهكذا بدأ الشتاء القدرى ، شتاء عام ١٩٥١-١٩٥٢ الذى استندت فيه حملات الفدائيين على القوات البريطانية فى منطقة القناة ، التى وصلت الى اوجها فى اللحظة المربعة التى وقعت فى الخامس والعشرين من يناير ، عندما علمت مصر أن القوات البريطانية فى منطقة القناة قد أبادت أفراد مركز شرطة عن آخرهم ، وغدت القاهرة فى صباح السادس والعشرين من يناير المسمى «بالسبت الأسود» فريسة للاضطرابات الجماهيرية وأعمال الحرق والتخريب التى استهدفت أول ما استهدفت المؤسسات البريطانية ثم تحولت الى كل ما يمثل حكم الاجنبى وحكم الباشوات ، وكانت يد الاخوان المسلمين واضحة البروز فى حرائق ذلك اليوم ، واذا لم يكن فى الامكان اقامة الدليل على أن الاخوان كانوا المحرضين الحقيقيين على أعمال ذلك اليوم فان مما لا ريب فيه أنهم تولوا على الاقل تنفيذ بعض الهجمات ولا سيما التى استهدفت منها الحانات ودور السينما .

وقرر هذا اليوم نهاية النظام القديم ، وتعثرت خطى مصر طيلة الأشهر الستة التالية فى ظل وزارات متعاقبة ، حاول بعضها القيام فى اللحظة

الأخيرة ببعض الإصلاحات الداخلية ، ليستقط على الفور بعد أن يفقد عطف القصر الذي كان بدوره واقعا تحت ضغط عدد كبير من العناصر السياسية المنتمية للنظام القديم على اختلاف أشكالها ، والتي كان لها ما يبرر خوفها من افتضاح دساتيرها وأخاديعها ، وانتخب فى يناير عام ١٩٥٢ ضابط مصرى يدعى اللواء محمد نجيب رئيسا لنادى ضباط الجيش متغلبا فى المعركة الانتخابية على مرشح الملك فاروق ، وعاش فاروق بين يناير ويوليو من العام نفسه تحت سيطرة كابوس مرعب ، وهو وجوب الخلاص من هؤلاء الضباط الشبان الذين كانوا وراء انتخاب محمد نجيب ، وتوجهت فى الثانى والعشرين من يوليو الى القصر الملكى آخر مجموعة من الوزراء لأداء اليمين القانونية وتشكيل حكومة جديدة ، وعندما وصلت المجموعة الوزارية الى القصر، وجدت أن الملك قد اختار «رجله» وهو صهره ليتولى وزارة الحربية سعيا وراء سحق حركة الضباط الشبان .

وبينما كانت القيادة العليا للجيش تبحث فى تلك الليلة الوسائل التى يجب اتخاذها لتنفيذ إرادة الملك ، قام الضباط الأحرار بانقلابهم الأبيض الذى أوصلهم الى الحكم فى سرعة البرق الخاطف ودون أى سفك للدماء ، وتولت اعلان النبأ اذاعة القاهرة فى صباح الثالث والعشرين من يوليو (تموز) عام ١٩٥٢ .

وكانت ثورة مصر عام ١٩٥٢ ، وما تلاها من اعلان الجمهورية فى الثامن عشر من يونيو (حزيران) عام ١٩٥٣ ، أول عمل حاسم ضد النظام القديم ، وأول تعبير يصل الى السلطة الفعلية ، عن الآراء التى كانت تعتمل فى النفوس بين أبناء الأجيال الصاعدة ، وسرت أنباء الثورة سريان البرق الخاطف الى جميع أرجاء الوطن العربى ، ولما جاءت الأشهر المتعاقبة ، وكل شهر منها يحمل دليلا جديدا على أصالة الثورة وما يرافقها من تغيير جذرى مركز للأوضاع ، فإن عيون أبناء المنطقة العربية كلها ظلت متركزة على هؤلاء الضباط الشبان الذين حسروا النقاب لأول مرة عن آرائهم فى البيان الذى اذاعوه فى الساعة السابعة فى صباح الثالث والعشرين من يوليو عام ١٩٥٢ اذ قالوا :

«الى شعب مصر . . اجتازت مصر فترة عصيبة فى تاريخها الاخير من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم وقد كان لهذه العوامل تأثير كبير على الجيش وتسبب المرتشون المغرضون فى هزيمتنا فى حرب فلسطين . .

وأما فترة ما بعد الحرب فقد تضافرت فيها عوامل الفساد وتأمر الحونة على الجيش وتولى أمره اما جاهل أو خائن أو فاسد حتى تصبح مصر بلا جيش يحميها ، وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا وتولى أمرنا فى داخل الجيش رجال نشق فى قدرتهم وفى خلقهم وفى وطنيتهم » .

وتعاقبت البيانات ، ووقع حادث يكاد لا يصدق تلا الأحداث الاولى من النوع الذى كان العرب ينتظرونه بفارغ الصبر فى كل مكان فى أرجاء الوطن العربى ، وتسلم فاروق بعد أربعة أيام من قيام الثورة انذارا جاء فيه :

«نظرا لما لاقتة البلاد فى العهد الاخير من فوضى شاملة عمت جميع

المرافق نتيجة سوء تصرفكم وعبثكم بالسستور ، وامتهانكم لارادة الشعب حتى أصبح كل فرد من أفرادہ لا يطمئن على حياته أو ماله أو كرامته .

ولقد ساءت سمعة مصر بين شعوب العالم من تماديكم في هذا المسلك حتى أصبح الخونة المرتشون يجدون في ظلمكم الحماية والأمن والثراء الفاحش والاسراف الماخن على حساب الشعب الجائع الفقير ، ولقد تجلت آية ذلك في حرب فلسطين ، وما يتبعها من فضائح الأسلحة الفاسدة ، وما ترتب عليها من محاكمات تعرضت لتدخلكم السافر مما أفسد الحقائق وزعزع الثقة في العدالة ، وساعد الخونة على ترسم هذه الخطا فأثرى من أثرى ، وفجر من فجر ، وكيف لا والناس على دين ملوكهم .

لذلك قد فوضنى الجيش المنحل لقوة الشعب أن أطلب من جلالتم التنازل عن العرش .

واذيع في الثلاثين من يوليو نبأ إلغاء الألقاب في مصر كلها ، كالألقاب «الباشا» و «البك» التي كانت ترمز الى الماضي البغيض المظلم ، وسرعان ما انتشرت الانباء أيضا عن تشكيل اللجان والمحاكم للتحقيق في قضايا الابتزاز والرشوة والفساد في كل مظهر من مظاهر الادارة والحياة الاقتصادية في مصر ، وصدر في التاسع من سبتمبر عام ١٩٥٢ ، قانون بمرسوم استهل بالعبارة الغريبة التالية :

« لا يجوز لأى شخص أن يمتلك أكثر من مائتى فدان من الأراضى الزراعية وكل عقد يترتب عليه مخالفة هذا الحكم يعتبر باطلا ولا يجوز تسجيله (١) » .

وإذا قدر لهذه البيانات أن يشمل صداها جميع أرجاء مصر فابها سرعان ما سمعت ودرست في جميع أنحاء الوطن العربى حيثما يستطبع الناس القراءة أو الاستماع الى الاذاعات وليس من العسير على المرء أن يفهم الآثار التي ترتبت عليها على ضوء الحقائق التي حاولت سردها وايضاها ، وبدأت حكومة الثورة في مصر تتخذ مواقف حازمة حاسمة في كل حقل من حقول الشكوى والتذمر ، سواء منها السيطرة الاجنبية أو الملكيات المتهاوية أو الاقطاعيات الثرية أو الفساد والافتقار الى الكفاية أو فلسطين ، وتحدث رئيسها آنذاك عن « حماية الشعب العربى من الدجل السياسى » وطلب الى الجماهير الغفيرة أن تتابعه في الابتهاال الى الله ، بأن تهب بلاده العزيزة حياة مقبلة تتحرر فيها من قيود العبودية كما رفع شعار «الاتحاد والنظام والعمل» .

ووضع محام فلسطينى بارز بدأ شبابه في العهد العثمانى ولكنه جارى الاجيال العربية الصاعدة في تفكيرها متفهما لها ، كتابا ممتازا في عام ١٩٤٩ يعتبر من أوسع الكتب انتشارا في تلك الحقبة الزمانية . فلقد تحدث

(١) المادة الاولى من مرسوم القانون رقم ١٧٨ الصادر في عدد الجريدة الرسمية رقم ١٣٠ لعام ١٩٥٢

موسى العلمى فى كتابه «عبرة فلسطين» بهدوء ولكن مع عمق فى التحليل . عن جميع مظاهر الضعف فى المجتمع العربى التى أدت الى كارثة فلسطين وكان والد المؤلف نائبا فى البرلمان العثمانى ، أما هو فقد درس فى كمبودج وأصبح محاميا للتاج فى حكومة فلسطين حتى عام ١٩٣٧ عندما استقال ليكرس نفسه لخدمة القضية الفلسطينية ، وأصبح فى عام ١٩٤٤ من أكثر الشخصيات نفوذا ، اذ مثل فلسطين فى مؤتمر الاسكندرية الذى وضع بروتوكول الجامعة العربية . وعلى الرغم من انه اضحى فى عام ١٩٤٩ واحدا من اللاجئين الفلسطينيين الذين أربى عددهم على الستمئة والخمسين ألفا الا أن مرارته لم تحل بينه وبين رؤية العدو الحقيقى المختفى وراء العدو المباشر وهو الصهيونية ، ومن يساندها من الدول الكبرى فقال :

«ولقد فشلنا فى الميدان السياسى كما فشلنا فى الميدان العسكرى ولم تكن مظاهر ضعفنا هذه الا انعكاسا لحالة الامة العربية وحكوماتها الراهنة . (أى فى عام ١٩٤٩) . فنحن نعيش فى ظل نظام سياسى مفكك يقوم على التجزئة ، وقد انعكس أثره على قواتنا فى المعركة ، وعلى ما تتميز به هذه الحكومات من ضعف واسترخاء . يضاف الى هذا أن شئون هذه الامة كانت موكولة الى حكومات تفتقر الى الكفاية كما كانت الامة نفسها لاتزال ضعيفة فى وعيها ونضجها ، وكان ضياغ فلسطين كارثة عظيمة لهائتها لبعيدة الأثر بالنسبة الى وجود الامة العربية نفسها . واذا قدر للعرب أن يسارعوا الى مواجهة الخطر قبل أن يداهمهم ويبتاعهم ، فما زال أمامهم متسع من الوقت لمواجهة .

«ويتمثل العلاج الاول فى الوحدة لكى يصبح العرب من جديد كتلة سياسية قوية متماسكة ، ولقد كانت الوحدة لحسن الحظ الهدف الأساسى لحركتنا القومية منذ نشوئها .»

«ولكن الوحدة وحدها لاتكفى ، فنحن فى حاجة الى «تصير» شامل لكل أفق من آفاق الحياة والفكر العربيين .»

ولقد عكس هذا النداء الذى وجهه موسى العلمى على الرغم مما فيه من هدوء واتزان يفوقان الاجواء العقلية التى كانت تسود المشرق العربى ، حقيقة ما كان يدور فى خلد الاجيال العربية الصاعدة . واذا ما حملنا هذا النداء على أنه مرآة تقف أمام الأنباء التى انبثقت عن مصر منذ منتصف عام ١٩٥٢ ، تبينت لنا فورا حقيقة ماعنته الثورة ، فلقد كان العرب منذ أمد بعيد ينظرون الى مصر على أنها المركز الأكبر فى عالمهم ، ولم تكن مصر مجرد أكبر دولة عربية فحسب ، ولا مجرد المحور الجغرافى للوطن العربى فقط . بل كانت أيضا أكثر البلاد العربية تقدما فى ميادين التربية والصناعة والعلم وفى ضخامة صحافتها ووسائل إعلامها ونشرها ، وصناعة الشرطة السينمائية فيها ، ومهما كان المنظار الذى يستخدمه الفرد فى الحقلين السياسى والاجتماعى فان مصر تبدو فيه ذات أهمية عالمية ، فالمسلمون يتعلقون بالقاهرة لوجود الجامع الأزهر ، وهو مركز الإشعاع الإسلامى فيها ، وكبار ملاك الأرض من الاقطاعيين الأثرياء ، ينظرون بعين الخوف

والقلق الى ما حل بالباشوات الكبار السابقين في مصر الذين انتزعت منهم ممتلكاتهم ، وهكذا دواليك عبر الطبقات المختلفة للمنظار حيث يعمل الخوف والايحاء عملهما ، في اثارة دوافع الفضول الزائد والقلق الشديد ، وتعلقت عيون جميع العرب بمصر التي تجتاز مراحلها الثورية لا كبلد بعيد ، غريب بل كمفتاح لمستقبل المنطقة كلها .

وأعلنت الجمهورية في مصر في الثامن عشر من يونيو (حزيران) عام ١٩٥٣ ، وظهرت شخصية الرئيس عبد الناصر على بروزها أمام الوطن العربي كنائب لرئيس الوزراء ووزير للداخلية ، واتضح من اسناد وزارة الداخلية اليه أهمية الدور الذي يمثله في الثورة اذ أن هذه الوزارة كانت تعتبر من أخطر المناصب في جميع أرجاء الوطن العربي . . . واتضح أيضا أن النظام الجديد ليس قائما على حكم فرد هو رئيس الجمهورية بل على سيطرة جماعة ثورية تؤلف مجلس قيادة الثورة ، وهكذا بدت الجمهورية الجديدة تطورا طيبا يمضي بالبلاد بعيدا عن الماضي الكريه ، وانقضى عام ١٩٥٣ في محاكمات لمعالجة قضايا الابتزاز والرشوة والمحاولات المناهضة للثورة التي يقوم بها أعوان العهد القديم ، وتمت مصادرة جميع ممتلكات الأسرة المالكة وأذيع في الخامس عشر من سبتمبر (ايلول) نبأ المحاولة التي قام بها بعض أركان العهد البائد للاطاحة بالثورة ، وانطلقت الصحف والمنشورات والاذاعات تسرد الدليل تلو الدليل على خيانات العهد البائد وبغيه ، وتفضح قضايا الأسلحة الفاسدة في حرب فلسطين ومباذل فاروق وحقيقة حريق القاهرة، وبطانة الملك الفاسدة والمرشية ، وأعلن أن الاموال التي ستجمع من بيع الممتلكات الملكية ستستخدم في أعمال الاصلاح الاجتماعي وأعلن العهد الثوري في يناير (كانون الثاني) عام ١٩٥٣ تشكيل مجلس دائم لتنمية الانتاج القومي .

واتضح وجود اهتمام ضخم داخل مصر وخارجها ، بما ستفعله الثورة بالنسبة الى بريطانيا والسودان ، وكان ثمة كثيرون من أفراد الأجيال الصاعدة ، ينظرون الى مطالب مصر في السودان بشيء من التحفظ والشك اذ أن هذه المطالب تركزت حول رغبة الملكية التي يدعمها الباشوات في الاستيلاء على تلك البلاد ، واستقبلت الخطوة الأولى التي اتخذتها حكومة الثورة بموجب اتفاق التاسع والعشرين من اكتوبر (تشرين الاول) عام ١٩٥٢ ، الذي قضى باعلان حق السودانيين في الخيار بين الاستقلال الكامل أو الوحدة مع مصر بالترحيب الشامل ، ووقع مجلس قيادة الثورة في الثاني عشر من فبراير (شباط) عام ١٩٥٣ اتفاقا مع بريطانيا بشأن منح السودان الحكم الذاتي والحق في تقرير المصير .

وهكذا تم الفصل لأول مرة في تاريخ النزاع بين مصر وانكلترا بين القضيتين الأساسيتين وهي الجلاء والسودان ، أما وقد سويت القضية الثانية الآن ، فقد برز على الفور التساؤل عما ستفعله قيادة الثورة بالنسبة الى موضوع القناة ؟ .

وراح الناس يتساءلون أيضا عن الموقف الذي ستقفه قيادة الثورة من المساعي التي تبذلها الدول الغربية لتنظيم حلف دفاعي عن الشرق .

الأوسط ، وظهرت كل هذه القضايا بالنسبة الى أولئك الذين يرقبون ما تفعله مصر من مختلف أرجاء الوطن العربى بمثابة قضايا اختبارية ومحك تجربة .

وتحدث جمال عبد الناصر فى الثانى عشر من ابريل (نيسان) عام ١٩٥٣ الى مجلة الأوبزرفر البريطانية فقال ان حكومته على استعداد للحفاظ على قاعدة قناة السويس ، ولكنها تعلم أنها فى حاجة الى المساعدة ، وأضاف ان فى مكنة الفنين البريطانيين أن يقدموا هذه المساعدة على شريطة أن تفهم بريطانيا بوضوح وصراحة أن وجودهم لايعنى مطلقا الاحتلال المقنع للبلاد . وذكر عبد الناصر أيضا أن مصر لن تشترك فى أى حلف دفاعى مع الدول الغربية . وكان الوطن العربى كله يرقب سير المفاوضات حول هذه القضية بين انكلترا ومصر ، وانطوى موقف مجلس قيادة الثورة على شىء من الرغبة فى التفاهم ولكنه لم يكن مرضيا لبريطانيا ، ترى هل تصمد الثورة المصرية فى موقفها وسياستها ، أو أنها ستدعن ، كما ادعت . كل حكومة أخرى فى الوطن العربى لبريطانيا منذ عام ١٩٢٢ ؟ هذا هو السؤال الذى كان يمثل أمام كل فرد من أبناء الجيل الجديد .

وتلت ذلك فترة من التطورات الداخلية ضمن اطار مجلس قيادة الثورة والنظام الجمهورى الجديد ، وظل الوطن العربى كله طيلة هذه الفترة التى امتدت نحو من عام ، يرقب هذه التطورات بعين القلق والوجل ، وأوقف عبد الناصر حركات الفدائيين فى منطقة القناة حتى يتمكن من متابعة المفاوضات التى كان قد شرع فيها مع لندن فى جو أفضل ، وعنت هذه الخطوة شيئا واحدا قبل كل شىء وهو أن جماعة الاخوان المسلمين قد حلت نهائيا وتفرق أفرادها ، واعتقل قادتها الكبار . . ولكن هذه الخطوة التى قام بها عبد الناصر ، مصحوبة بما سبقها من خطوات لوقف التيار الشيوعى ، كانت ضرورية جدا لتطهير جبهة الوطن الداخلية .

وانطلقت الانباء فى السابع والعشرين من يوليو (تموز) تحمل اعلان التوقيع على اتفاق مع بريطانيا يقضى بجلاء بريطانيا الكامل عن قاعدة القناة فى غضون عشرين شهرا ، وبقيام المتعهدين المدنيين البريطانيين بأعمال الصيانة فى القاعدة البريطانية ، ونص الاتفاق أيضا على شرط ثالث وهو يسمح لبريطانيا فى حالة تعرض مصر أو تركيا أو أية دولة من الدول العربية المنضمة الى ميثاق الضمان الجماعى العربى الذى اقترته الجامعة لهجوم من دولة ثالثة ، بالرجوع الى منطقة القناة واعادة احتلالها ، واعتبر هذا النص ترضيه من جانب مصر ، لم تعجب الاجيال العربية الصاعدة على الرغم من التأكيدات الكثيرة التى سرعان ما أطلقها الرئيس عبد الناصر بأن مصر ستتبع سياسة الحياد المطلق فى الصراع بين الدول الكبرى .

وكان شهر اكتوبر عام ١٩٥٤ حرجا كل الحرج ، فقد وقع الرئيس عبد الناصر بصورة رسمية فى التاسع عشر من اكتوبر (تشرين الاول) اتفاق الجلاء بين مصر وبريطانيا ، ولم يكن هذا الاتفاق صورة كاملة لطرد البريطانيين غير المشروط والشامل من البلاد ، وهو المطلب الذى كان ينادى به الشعب منذ أمد بعيد ، وراح أبناء الجيل الصاعد فى الوطن العربى يتساءلون عما اذا كان فى امكان الثورة أن تتابع سياسة الحياد الكامل فى

ظل مثل هذا الاتفاق . فهناك نص جوهرى يشترط وجود تركيا بين البلدان التى يؤدى الهجوم عليها الى عودة البريطانيين الى منطقة القناة ، واعتبر بعضهم أن هذا النص يؤلف ارتباطا سريا مع حلف الأطلسي . ولكن كانت هناك حقيقة واقعة وهى أن الوطن العربى لا يقبل أى نوع من الاتفاق مع بريطانيا يسمح لها بإعادة قواتها لى سبب من الاسباب الى البلاد ، ولكن هذه العين الساهرة من أبناء الجيل العربى ، استطاعت التثبت من أن عبد الناصر قد ضمن لبلاده جلاء القوات البريطانية عنها فى أوقات السلم . وقام رفيقه فى السلاح (المرحوم) صلاح سالم بجولة فى ربوع الوطن العربى فى صيف عام ١٩٥٤ وكان ثمة من يعتقد بأن هذا الاتفاق كان سليما من الناحية التكتيكية ، بينما كان هناك آخرون يقولون ان من المتيسر الحكم للاتفاق أو عليه ، وهل يؤثر فى وضع مصر كدولة تبنت سياسة الحياد ؟

وحاول عامل يعمل فى صناعة الصفيح فى السادس والعشرين من اكتوبر (تشرين الاول) أن يطلق النار على الزعيم المصرى الذى كان قد بلغ السادسة والثلاثين من عمره ، بينما كان يشرح فى خطاب يلقيه على شعب الاسكندرية فى اجتماع عام ، نصوص هذا الاتفاق ، ولكن الرصاصة أخطأت الزعيم :

ومضى عبد الناصر فى خطابه مباشرة يقول :

أيها المواطنون

إذا مات جمال عبد الناصر .. فانه يموت مطمئنا لأنكم كلكم جمال عبد الناصر لا تخافوا الموت فالدنيا فانية .

أيها المصريون

لن تكون حياة مصر معلقة بحياة جمال عبد الناصر .. بل هى معلقة بكفاحكم .

أيها المواطنون

سيروا الى الامام .. فمصر اليوم قد حصلت على عزتها وكرامتها وحريتها

سيروا الى الامام على بركة الله نحو المجد والعزة والحرية .

وقوبل هذا الخطاب بكثير من التأثر . وكانت سيطرة عبد الناصر على نفسه بعد الحادث والكلمات التى استعملها فور وقوعه ، بمثابة مقياس لشخصية هذا الرجل ، كما كانت حدثا فريدا من نوعه فى السياسات العربية . ولكن لم تمض أيام حتى حمل الوضع أنباء أخرى . فقد شرع فى حملة شاملة من جديد لمطاردة فلول الاخوان المسلمين ، ومحاكمة بعض قادتهم امام محاكم ثورية خاصة ، لاشتراكهم فى المؤامرة التى استهدفت حياة القائد .

* * *

وكان المشرق العربى يتمخض عن أحداث جسام فى عام ١٩٥٤ .

فقد ظهر الى حيز الوجود ودنيا النشاط الضخم ، حزب جديد في سورية هو حزب البعث العربي الذي تولى تأسيسه اثنان من خريجي جامعة السوربون وهما ميشال عفلق وصالح البيطار . وفر الزعيم الشيشكلي من البلاد ، وأعيد دستور عام ١٩٥٠ . تمكن الحزب من الفوز بستة عشر مقعدا في الانتخابات النيابية التي جرت في سبتمبر ، ودل هذا الفوز وان لم يكن مسيطرا في مجلس يضم مائة واثنين وأربعين نائبا على اتجاه مهم في طريق التعبير عن الوحدة والحياد والاشتراكية ، وهي الشعارات الرئيسية التي رفع الحزب لواءها . وأحسن نوري السعيد في العراق بالقلق من الاوضاع السائدة ، مما دعاه الى حل جميع الاحزاب السياسية بمرسوم استصدره في شهر سبتمبر (ايلول) من العام نفسه . وأقام الملك حسين الفتى في الاردن في شهر مايو (ايار) من العام حكومة محافظة رئيسها توفيق أبو الهدي ، وأسفرت الانتخابات التي جرت في نفس العام ، والتي زيفت بصورة متناهية في المكروالذكاء عن مظاهرات ضخمة وقع معظمها في الضفة الغربية (١) وتمكن الجيش من إعادة فرض النظام ولكن اتجاه غالبية الرأي العام الاردني كان واضحا كل الوضوح . فبالإضافة الى ما خلفته ثورة مصر من آثار وانطباعات ، كانت ثمة عوامل أخرى بعثت هذه الموجة من القلق في المنطقة كلها . فهناك حوادث الحدود مع اسرائيل ، ولاسيما مذبة قبية التي قامت بها قوات اسرائيل على الحدود الاردنية في أواخر عام ١٩٥٣ ، والمحاولات التي بذلتها الدول الغربية لاشراك الحكومات العربية في منظمة للدفاع عن الشرق الأوسط ، واشتعال الحركات الوطنية في المغرب وتونس ، وطلائع الثورة في الجزائر ، والاثر القوي الذي كان نهرو يخلقه بسياسته الحيادية في أزمة الهند الصينية في عام ١٩٥٤ وفي شحن الاسلحة الامريكية الى باكستان .

وراح الفضول يدفع الكثيرين لمعرفة هذا القائد العربي الجديد الذي ظهر في مصر ، وفي عام ١٩٥٤ ، مضى محام فلسطيني شاب درس في جامعة بيروت الامريكية وغدا عضوا بارزا في حزب البعث العربي في الأردن ، الى القاهرة ليرى بنفسه حقيقة هذا القائد العربي الجديد . وكان هذا المحامي وهو عبد الله الريماوي نموذجا لأبناء الجيل الصاعد ، وسياسيا محترفا درس النظريات السياسية الغربية في جامعة بيروت وتابع نمو الحركات القومية في آسيا ودرس تاريخ أمته فأصبح في عام ١٩٥٤ من المؤمنين بالاشتراكية والحياد والنظام الجمهوري والوحدة العربية .

ولقد قال لي ذات يوم في عام ١٩٥٤ . . . « عندما رأينا ، معشر أعضاء البعث هذا القائد العربي يظهر لأول مرة ، كنا نحس تأثير بعض

(١) كانت أعنف المظاهرات التي وقعت في العاصمة عمان وهي في الضفة الشرقية احتجاجا على تزيف الانتخابات وقد أسفرت عن وقوع عشرات القتلى والجرحى .

— العرب —

الشكوك . ولكنه ذهب الى مصر ، وجرى له حديث طويل ، مع قائد الثورة المصرية ، ثم عاد الى بلده ، مقتنعا بعد هذا الحديث ، بأن عبد الناصر زعيم قومي أصيل ، ومؤمن أشد الايمان بسياسة الحياد ، وبالمثل الديموقراطية الصحيحة .

وأحس زعيم مسلم له مركزه المهم في لبنان ، وهو صائب سلام بالقلق من النشاط الذي يبديه (المرحوم) صلاح سالم ، الذي كان الرئيس عبد الناصر قد أوفده في جولة يطوف بها البلاد العربية في صيف عام ١٩٥٤ . وقال لي هذا الزعيم . . « وأحسست بالحاجة الماسة الى معرفة جمال عبد الناصر ومدى اتجاهاته القومية . ولم أستطع ذات يوم أن أكبح جماح ما أحس به من تهفة ، فاخذت أول طائرة حملتني الى القاهرة . واجتمعت هناك بعبد الناصر ، وتحدثت معه حديثا صريحا وقد خرجت من لدنه ، وانا واثق كل الثقة ، مطمئن كل الاطمئنان » ووضع صائب سلام منذ ذلك اليوم ثقته الخالصة في الزعيم العربي الجديد .

ووصف لنا ديزموند ستيوارت في كتابه « مصر الفتاة » زيارة أخرى من هذه الزيارات الكثيرة التي كانت تهدف الى اختبار الزعيم العربي الشاب الجديد . وكان الزائرون هذه المرة ، جماعة من عمداء الكليات المصرية وأساتذتها ، وروى اخصائي في مرض السرطان ، كان بين هذه الجماعة لستيوارت انطباعاته عن الزيارة فقال :

« لقد أصيبت بالدهشة في بادئ الامر . فبيت عبد الناصر أكثر بساطة من بيتي أنا . ولم يكن في البيت عدد كاف من المقاعد » واضطر القائمون على أمر البيت الى استعارة بعض المقاعد . ورفض عبد الناصر أن يجلس ، قبل أن يقتعد آخر ضيف من الضيوف مجلسه . وأخيرا ، سمح عبد الناصر ، لكل واحد من أفراد الجماعة ، وهم كثر بالكلام ، ولم يحاول قط أن يقطع على أي متكلم حديثه . وعندما انتهى جميع العمداء والاساتذة من الكلام ، رد عبد الناصر وارتاد برودوه آفاقا واسعة من المعرفة بأن فيها احساس دقيق بالحقائق المتعلقة بالقانون والتاريخ والأحداث العالمية . »

هذه نماذج من انطباعات الذين مضوا للقاء عبد الناصر في عام ١٩٥٤ والمعروف اليه . ولكنه كان لا يزال حتى ذلك التاريخ غير واضح تماما للملايين من جماهير الشعب العربي . ولكن قدر لعامي ١٩٥٥ و ١٩٥٦ ، أن يظهر هذا القائد على حقيقته الحاسمة الواضحة للملايين العرب الذين آمنوا بقيادته .

وكان قد انقضى نحو من قرن كامل على وقوف شاعر عربي شاب يدعى ابراهيم البازجي ، وسط حشد سري لأعضاء الجمعية العلمية السورية الجديدة ليلقي قصيدة له ، أراد أن يجعل منها أنشودة الأمة العربية جعل مطلعها . . .

أفيقوا وهبوا أيها العرب ...

وذكر فيها أن تيار القضية العربية قد انطلق في أقصى مسداه ،
وان أتباعها سيواصلون السير قدما الى الأمام .

وقد بات في الامكان الآن بالنسبة الى الكثيرين من البريطانيين
الذين رأوا الشرق الاوسط بأعينهم في عام ١٩٥٥ ، أن يدوروا ويلفوا
في هذا الجيشان السريع والدوامه الكبيرة ، لينأوا بانفسهم عن
هذا التيار الجديد ، بهمة خافتة منفعة .. قائلين .. « لقد شبعنا
من هذا السخف من قبل » ، ولكن ثبت أن مما يجفو الحكمة ويخالفها
بالنسبة الى مصالح بريطانيا والغرب عامة ، أن ينظر الى هذه الآلام
التي تتولد عن مخاض الشعوب الجديدة بعين الزراية أو الخوف أو
المقاومة الحرون للتطور ، ثبت أن من الحمق كل الحمق ، الاكتفاء
بترداد القول المأثور ... « ان سياستنا واضحة لا تحتاج الى شرح ،
اذ لما كانت السياسة شأنا لا يمكن تقريره من جانب واحد ، ولا يمكن
أن يكون ذاتي التولد أو ذاتي المحتوى ، فان هذه السياسة لا يمكن أن
تبدل بمحض ارادة واضعها وتقريره . انها نسيج يربط بين الشعوب
وبين أهدافها ومطامعها وأمزجتها وقادتها وقواها التعبيرية . واذا
كان من حق هذا المزيج من العوامل ، أن يولد التغير الداخلي الذاتي
الذي يريده ، فان مما لا يليق بمهندسي هذه السياسة القابعين في
مكاتبهم المعزولة النائية أو غرف خرائطهم ان يكتفوا بالتأكيد على وضوح
سياستهم . اذ سرعان ما يتضح ، سواء عن طريق الفجاءة أو التدرج ،
وعن طريق السلم أو العنف . ان هذه السياسة لم تعد قائمة ، وأن
« هدفها » الذي يؤلف جزءا لا يتجزأ منها ، قد انحرف عن طريقه .

وكان هذا التحول جاريا في الوطن العربي مدة سنوات أطول مما
يطيب لنا تعداده . ولقد سبق لباحث حكيم أن قال قبل عشر سنوات
كاملة من بدء هذا التيار الجديد في مسيره محذرا ..

« مازال العرب يقفون موقف التبعية على العموم من الغرب ..
وليس في وسعهم الا أن يستجيبوا لما يفعله الغرب معهم اما
عن طريق المحاكاة أو طريق الارتكاس . ولا ريب في أن الوضع هو الذي
يقرر الى حد كبير موقفهم منه .. فكل شيء مائع في الوطن العربي في
هذا الجيل .. وما زالت الفرصة متاحة لبريطانيا لعدة سنوات قادمة ،
لأثبت عزمها وقدرتها على مساعدة العرب في واجباتهم البنياء ، واذا
ما اضاعت بريطانيا فرصتها الآن فلن تتاح لها فرصة أخرى فيما
بعد » (١) .

وقد انقضت عشر سنوات قاسية ، وكانت سنة ١٩٥٤ هي
« المقسم المائي » ، أو « النقطة الفاصلة » ، التي لا مجال بعدها لحساب
جديده .

(١) البرت حوراني في كتابه « بريطانيا العظمى والعالم العربي »
لندن ١٩٤٥ .

- ٦ -

نِهَايَةُ أَوْبَدَايَةِ

« اننا نقف الآن على عتبة مرحلة حاسمة من
مراحل كفاح شعبنا ، لقد وضع الهدف الأكبر
من أهداف الثورة منذ هذه اللحظة موضع التنفيذ
الفعلى فقد وقعنا الآن بالأحرف الأولى انقارنا ينهى
الاحتلال ، وينظم عملية جلاء القوات البريطانية
عن أرض مصر الخالدة ، وبذلك تخلص أرض
الوطن لأبنائه شريفة عزيزة منيعه بعد أن قاست
اثنين وسبعين عاما مريرة حزينة » .

جمال عبد الناصر
فى ٢٧ يوليو ١٩٥٤
من اذاعة القاهرة

ليس من الثابت ما اذا كان هذا الاتفاق الانجليزى - المصرى قد
ينتهى الى فوضى وانهيار كاملين فى الشرق الأوسط أو انه سيكون بداية
علاقة جديدة مع مصر . وهذا لا ينوقف على مصر بل على موقف الحكومة
البريطانية .

خطاب ريشارد كروسمان فى مجلس العموم فى ٢٩ يوليو ١٩٥٤ .

لا تزدى المخلوقات البشرية ، سواء أكانت من المواطنين أم من
وزرائهم ، أعمالها طبقا لنقاط النحول فى التاريخ . وتميل هذه النقاط
الى الانسياب كما يميلون هم الى الانسياب معها ، « وما الضوء الذى تبعثه
التجربة الا كمصباح فى مؤخرة السفينة ، ينشر ضوءه على الأمواج التى
تخلفها » . (١) ولكن فى تاريخ كل دولة عظيمة وثابتة الدعائم نفاط
لقاء بين السلطان والسياسيات ، تكون ثابتة بشكل بارز بحيث لا يمكن
للتبدلات الاساسية التى تتعلق بها ، أن تمر دون أن نترك آثارا فيها
عميقة الجذور . ولقد كان اتفاق الجلاء المصرى - الانكليزى ، لعام ١٩٥٤ ،
على صعيد التاريخ وطبقا لكل ما يدرسه المرء عن هذا الاتفاق فى معاهد
بريطانيا وجامعاتها ، تبدا جوهريا وكانت السويس هى نقطة اللقاء فى
هذا التبدل . وعندما وقع هذا الاتفاق فى القاهرة فى السابع والعشرين
من يوليو (تموز) عام ١٩٥٤ ، بالأحرف الأولى ، بدا من الناحية الحسية
ان التاريخ قد « توقف » ، وان توقفه هذا استدعى أعرق قدر من التفكير
وامعان النظر ، منذ جلا البريطانيون عن الهند .

(١) صمويل كولردج فى كتابه « ذكريات » عام ١٨٣١ .

فلقد تقرر ان تجلو بريطانيا عن منطقة قناة السويس فى عام ١٩٥٦ . وكان هذا القرار من أكثر الاحداث « اثارة » فى تاريخ شعب كان قد شرع فى تحوله انبيل والمؤلم فى آن واحد ، من كيان الامبراطورية الى كيان جامعه الشعوب البريطانىة . وقد تطلب هذا الجلاء ظهور تيارات تاريخية تثير مواعيد بدايتها الكثير من الجدل الأكاديمى ، وان لم يؤد وصولها الى الأوج الى مثل هذا الجدل :

وفى وسع المرء أن يعود بذاكرته الى أيام بلاسى (١)، أو الى ما أصاب بريطانيا من هذه من جراء هبوط نابليون أرض مصر (٢) ، أو الى نحو من قرن كامل ، عندما منح حاكم مصر امتيازاً لدنيسيسيس يسمح له بموجبه بشق القناة أوالى عام ١٨٨٢ ، عندما نزلت جيوش الاحتلال التى يقودها ونزلى من القناة لتقضى على ثورة عرابى المصرية ، وهو الرجل الذى بات اسمه يثير كراهية « صالونات » لندن ونواديها ، والذى حاول أن يغلق القناة « ليضمن الدناغ عن مصر » . وقد تكسبون الصورة احدى هذه الذكريات ، ومع ذلك فان مغازى القرار كانت ثورية تماماً . ترى ماهى المواقف التفليدية والسياسات التى بات من الواجب الآن وبعد هذا التطور إعادة النظر فيها ؟ وما المشاكل الجديدة الواضحة وضوحاً مطلقاً ياترى ؟

عندما تخلت بريطانيا عن الهند وبورما فى عامى ١٩٤٧ و ١٩٤٨ بات موضوع طرق اتصالات السوقية « الاستراتيجية » الامبراطورية بما فيه من معاهيم واجراءات، أى الطريق الى الهند واستراليا، موضع نقاش مكشوف وقد اختفى الثمنير من الاهداف الاصلية لهذه الطريق ، ولم يعد فى الامكان الحفاظ من جانب واحد على المواقع البريطانىة السوقية على طول هذه الطريق الا بأعمال تعريقية تستطيل من سنة الى أخرى . وكانت الهند وبورما وسيلان قد مضت فى موجة من الثورات الوطنية التى ستتحدى كل ماتبقى من تلك الطريق . ولما كان ضياع الهند قد أضعف الخط السوقى فى الشرق الأوسط ، فان هذا الضياع قد تطلب إعادة النظر جذرياً فى موضوع القومية العربية . وقد أطلقت السنوات التى انقضت بعد الحرب العالمية الأولى نخبيراً قوياً ، فاذا كان ثمة معارضة من جانب الشرق الأوسط للقواعد البريطانىة ، فان الاحتفاظ بهذه القواعد ، يجب أن يعاد النظر فيه باستمرار على ضوء « الوجود » الذى لا يزيد من أمر الصداقات المحلية والتجارة والود السياسى ، وكلها أمور قد تضيق حتى فى حالة الانسحاب .

ويصدق هذا التحليل على كل ماوقع فى مصر منذ عام ١٩١٨ .

(١) بلاسى اسم قرية فى البنغال ، اشتهر امرها بالانتصار الذى حققه كلايف على سراج الدولة « نواب » البنغال فى الهند فى عام ١٧٥٧ . وتقع القرية على بعد ثلاثة وثمانين ميلاً من كلكوتا .
(٢) عندما سقط نابليون فى عام ١٨١٥ ، تكهن محمد على ليركها ردت قائلاً : « لا بد وان تأخذ انكلترا مصر فى يوم ما كحصتها من تراث الامبراطورية التركية » .

ولكن القرار بالجلء عن مصر ، قد ضاعف من صدق هذا التحليل بالنسبة الى موضوع من موضوعات السلطان البريطاني الذى يعرض من جانب واحد ليس الا . فهل يعتبر العراق مامونا يا ترى ؟ وهل الاردن مامون أيضا ؟ وما العلائم السياسية على هذا الأمن ؟ وهل يتمتع « اصدقاء » الاتصالات البريطانية السوفيه بيه شعبيه ؟ وهل هم من التقدمية بحيث يستطيعون أن يحتفظوا بتعه أهلهم العرب ؟ لقد جاء نوره مصر عام ١٦٥٢ ، فطاحت بجبل كمل من الحدم والحدام . فهل من الثابت أن هذه الثورة نتيجة اتجاه مصرى خالص ؟ وما الذى يبيع وراء الغطاء الرسمى الظاهرى فى العراق والاردن ؟

وكان هناك موضوع آخر اكثر شمولا واتساعا . فلقد قذفت ثورة مصر فى عام ١٦٥٢ وما عقبها من صروره الجلاء البريطانى عن مصر . بحدومه جديدة على الخريطة السياسية الدولية للعالم ، ستدفع سياستها الخارجية حتما على ضوء مصالح مصر وحدها . وقد يبدو هذا القول الآن مجرد فجاجة وسخف ولكنه لم يكن كذلك فى عام ١٩٥٢ . فلقد سار السياسة البريطانيون منذ مطلع القرن التاسع عشر على أساس سياسة ثابتة وهى عدم السماح لروسيا « بالمرور من المضائق » . وكانوا يرون دائما وجوب الحيلولة دون وصول روسيا الى الشرق الاوسط . بقواها العسكرية أو سلطانها الدبلوماسى أو سيطرتها التجارية . وقد تحققت هذه السياسة حتى عام ١٩١٨ ، عن طريق دعم الموانئ العثمانية والسيطرة عليها لتجعل منها حاجزا فى طريق روسيا ، وكذلك عن طريق السيطرة على الأجزاء العربية فى الامبراطورية العثمانية بالاشتراك مع فرنسا وايطاليا ، وباحتلال مصر عسكريا فى عام ١٨٨٢ . واحتفظت بريطانيا بهذه السياسة بعد انهيار الامبراطورية العثمانية بالاشراف المستمر على سياسة مصر الخارجية اشرافا كاملا حتى عام ١٩٣٦ وابعان الحرب العالمية الثانية واشرافا خفيا بعد هذا التاريخ ، وكذلك بالاشتراك مع فرنسا فى الوصاية المسيطرة على ما تبقى من أرجاء الشرق الأوسط . وفى وسع الاتحاد السوفياتى أن يقيم علاقات دبلوماسية له مع مصر ولكن لا يمكن لبريطانيا ان تتسامح فى قيام حكومة مصرية تسيطر على علاقاتها الأجنبية ، وتوجهها لصيانة مصالحها .

وأتمرت ثورة مصر فى عام ١٩٥٢ ، نظاما وطنيا قويا يشق بقدرته المطلقة على تبديل كل هذه الأوضاع . فأولا وقبل كل شىء يجب أن تقوم القواعد الأساسية لسياسة مصر الخارجية على الحياد مهما كانت الاتجاهات الثانوية الفرعية أحيانا . وكل عهد يحاول بعد عام ١٩٥٢ الخروج على هذه السياسة يعرض نفسه للثورة عليه . ولم يكن كل هذا مجرد احتمال ، بل كان حقيقة واقعة . وبات فى وسع المصريين بعد أن تحرروا من الاحتلال والسيطرة الاجنبيتين ، أن يشرعوا فى التعبير عن التجارب التى مروا بها طيلة مائة وخمسين عاما فى تماسهم بسياسات الدول الكبرى ، وهى تجارب لا يمكن لهم أن يصفوها الا بأنها مفاجئة . وكانت هذه العلائم السياسية المكشوفة لهذا الحياد المصرى المتأصل ، تعود فى جذورها الى ما قبل الحرب العالمية الأولى ، وهى جذور - استطالت

حتى عام ١٩٥٠ ، وتبنتها النخبة المختارة القديمة التي لم تكن تستمد روحها من مصر الوطنية الأصيلة (١) .

وكان من المتوقع أن يبدأ المصريون « وقد تحرروا » في انظرتو كيد وحزم الى جميع الدول وكنها من الدول العظمى . وإذا كان الهنود يقبلون على قراءة خطبة جورج واشنطن الوداعية بمزيد من الاهتمام ، فإن من حق المصريين ان يتقبلوه بالمزيد من الود الصادق ، اذ انهم قد خبروا خبرة عميقة تفوق خبرة الهنود ما تعنيه « الدول الكبرى » وبصورة أكثر جماعية

« فلماذا يتحتم علينا ونحن نرسم مصيرنا ونربطه بمصير أى جزء من أوروبا أن نربط أمتنا ورخاءنا بما ينتاب الأوروبيين من مطامح و تنافس وما يسيطر عليهم من مصالح » (٢) .

ولكن هناك أكثر من وجه الشبه هذا بالنسبة الى مصر الجديدة التي تم الجلاء عنها . ولا ريب فى أن رسالة واشنطن تنطبق عليها حرفيا حتى ولو أخذت ظواهر اللغة لا مضامينها الخفية اذ تقول

« وليس ثمة من شك فى أن التحيز المفرط لدول أجنبية واحدة ، والكراهية المفرطة لدولة أخرى ، تدفع أولئك الذين ينفذون العمل السياسى الى رؤية الخطر نابعا من جانب واحد ليس الا . فالوطنيون الذين يقاومون دسائس هذه الدولة المفضلة ، قد يتعرضون الى أن يصبحوا موضع الشك والمقت بينما يتمكن عملاء تلك الدولة من الاغرار من اغتصاب ثقة الشعب وتصفيقه . فى سمعهم للاذعان لمصالحهم » .

ولا تكتفى مصر برفض الانضواء فى ظل اشتعال الحرب انباردة عن طريق التحالف بل ان مصر الجديدة ، تحاول ان تساوى بين الدول الغربية وبين الاتحاد السوفياتى فى علاقاتها الخارجية ، على اعتبار انها جميعا من الدول الغربية وبين الاتحاد السوفياتى فى علاقاتها الخارجية ، على اعتبار «الدول الاجنبية» . ولم يعد للاتحاد السوفياتى منذ اليوم شأن اقل من شأن بريطانيا وفرنسا وأمريكا كقوى دبلوماسية فى الشرق الأوسط كما فى جنوب آسيا (٣) . وفى امكان الحركة القومية العربية أن تقاوم السلطان السوفياتى الفعلى . ولكن ليس فى الامكان

(١) لم تكن هناك أية حكومة قبل الثورة راغبة فى الانضمام الى منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط .

(٢) مقتطفات من الخطاب . كوما نغر « وناثق من التاريخ الأمريكى » نيويورك ١٩٤٥ .

(٣) كانت الدبلوماسية السوفياتية كحقيقة واقعة ، قد دخلت الى المنطقة فى مشكلة فلسطين عامى ١٩٤٧ و ١٩٤٨ ، وبرز هذا الدخول أيضا فى الحادث الذى ظهرت فيه الدولة الفاصبة ، عندما سارع الاتحاد السوفياتى الى احتذاء حذو أمريكا فى الاعتراف بإسرائيل فى ١٥ ايار عام ١٩٤٨ ، مكرسا دخوله الدبلوماسية الى المنطقة .

الان اغلاق المنطقة في وجه دبلوماسية الكتلة السوفياتية وتجارتها ودعايتها .

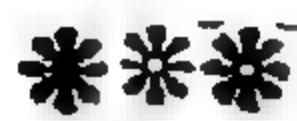
وهذا طرأ على المشكلة كلها تحول كبير . ولم تعد القضية مجرد هل يمن « الابداء » على مصر ، الى جانب الغرب وحده . بل باتت القضية الجديدة تلتخص في ليعيه رسم دل سياسه عربيه على انفراد . . حيويه دون اناحه فرص خاصه للاتحاد السوفياتي . ويتميز صراع الحسرب الباردة بوجود صعيدين ، أحدهما سوفي (استراتيجي) والآخر نوري داخلي . واصبح من الواجب اجراء حساب دقيق في موضوع بصور حصول الغرب على ايه قاعدة سوفية في اى بلد افريقي - آسيوى ينتاج بالمشاعر الوطنيه . واذا كان الحصول على مثل هذه المساعدة يعنى الاصح بحكومة اختارت سياسة الحياد ، فهل يكون في قدرة حليفتها وقد حددت الغاية من وجودها ، أن تقيم الدليل على أنها أقدر على خلق رأى عام في الداخل . وايجاد منظمات تكفل مقاومه الشيوعيه الداخليه في أرضها ؟ (١) واذا كان الحصول على مثل هذه القاعدة يعنى تاييسد اى حكم قائم وراغب في اتعاون ، فهل يستطيع ذلك الحكم الاحتفاظ ببعه شعبه ؟ وهل يمكن لسياساته الداخليه والاجتماعية - الاقتصادية أن تؤمن بديلا فويا عن الشيوعية المحلية ؟ واذا لم يكن في استطاعته تحقيق ذلك، فهل تكون افامة القاعده أو حتى مجرد محاولة اقامتها جديره بمثل هذه المغامرة ؟ وهل تعادل ما ينحقق من نصر للدعاية السوفياتية بسببها :

وأثار الجلاء المتفق عليه عن منطقة قناة السويس أخيرا قضايا آتسر اتصالا بالمنطقة . وان كان يحمل خصائص وصيغات دولية . وكانت مشكلة فلسطين احدى هذه القضايا . فقد نص البيان اسلاني لعام ١٩٥٠ تعهد بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا بالحفاظ على الاوضاع العربية - الاسرائيلية الراهنة ، سواء بالنسبة الى الخطوط التي رسمتها اتفاقات هدنة عام ١٩٤٩ . أو بالنسبة الى التوازن في التسليح بين الفريقين . وعنى انسحاب القوة البريطانية في منطقة القناة ازالة عازل قوى بئف حاجزا ضد نشوب اى حرب كبرى أو التهديد بنشوبها بين اسرائيل وبين أكبر دولة عربية . ولا ريب في أن انسحاب هذه القود من مصر التي تحكمها حكومة من الضباط الشبان المميزين بالحيوية والدينامية والذين حاربوا في فلسطين نفسها . سيثير مخاوف بالغة في اسرائيل . ترى الى أين يمكن أن تؤدي مخاوف اسرائيل هذه ؟

ويثير الجلاء مشكلة أخرى تتعلق بالقنساء نفسها أي بمسئعين الشركة التي يملكها الغرب والتي تتولى ادارة الممر المائي العظيم والافادة من مزاياه وأرباحه . وكان من المفروغ منه ان امتياز القناة سيظل ساري المفعول حتى عام ١٩٦٨ . ولكن القناة ظلت تمثل أكثر من سبعين عاما ، قضية أساسية بالنسبة الى الحركة الوطنية المصرية ، ولا ريب في أن

(١) يكاد المؤلف هنا يعترف بوضوح ، بما تبذله الدول الغربية من جهود ، وما تحركه من مؤامرات أحيانا للاطاحة بأى حكم لا ترى أنه مواليا لها في أى جزء من أجزاء الوطن العربي .
المغرب

فضايا الاستقلال غير المتكافئ للقناة ، وما يملكه الانكليز والفرنسيون في شركتها ، وارتباطهما النفسي المتأصل بذكريات الماضي الخانع المذعن كلها ستظل قائمة بعد أن يجلو آخر جندي بريطاني عن المنطقة . ولا ريب أيضا في أن كل من كان على اتصال بمصر في عام ١٩٥٤ قد توقع كل ما يعنيه هذا الجلاء . وكانت الإشارة من جانب الغرب الى « قداسة الامتياز الممنوح للشركة ، تعنى في عيون المصريين . مجرد ضغط تتعرض له بلادهم من الدول الغربية » . واذا لم تقم حقبة جديدة حقا بين الغرب ومصر ، فان الامتياز سيكون أحد مخلفات الحقبة الماضية الباقية التي لا بد لها من أن تمتفى تحت الضغط .



كانت هذه هي أوليات التبدلات الخطيرة والمشاكل التي تبرز آليا وبصورة طبيعية، نتيجة اتفاق الجلاء عن مصر . وقد لا تكون هذه الأوليات وتلك المشاكل واضحة أمام البريطاني العادي ، ولذا فان رد فعله المتوقع لن يزيد على . . . ترى ما الذي نحن مقدمون عليه ؟ هل نحن على وشك الاستسلام للمصريين؟ ولكن ألم يكن في وسع كل من يعرف التاريخ الاستعماري البريطاني ، أو على كل من يعرف أو على اتصال بمن يعرف تاريخ الشرق الأوسط ، ان يتجاهل هذه القضايا الأساسية في عام ١٩٥٤ . ومن الصعب على المرء أن يفكر بوجود أي مكان آخر في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وصلت فيه سياساتنا التقليدية بمثل هذا الوضوح، الى هذه النقطة الفاصلة في التحول بالنسبة الى أية حكومة بريطانية . وكان الشعب البريطاني في ذلك الحين ، في حاجة الى قيادة واضحة ، جريئة ، مطلعة ، قادرة على الايضاح . واذا كان لا بد من اتخاذ قرار بالجلاء ، فقد كان من اللازم اللابز ، أن يوضع ذلك القرار ويوضح في عبارات تجعل في الامكان تفهم الشعب البريطاني ما يقتضيه هذا القرار من تعديلات وتغييرات في القضايا الأخرى المتعلقة بالشرق الأوسط .

ولكن المناقشات التي دارت في مجلس العموم حول الاتفاق الموقع بالأحرف الأولى ، كانت أشبه ماتكون بالمأساة . وكان لا بد لانسان مثل ونستون تشرشل ، رجل الامبراطورية العظيم ، أن يكون قادرا ، على اخفاء تلك الصورة الجريئة من القيادة التي خبرها الشعب في الحسرب العالمية الثانية ، على الشعب البريطاني الذي كان في أمس الحاجة الى من يوضح له ذلك القرار . ولكن كل ما فعله دفاعا عن الحكومة ، هو ايضاح الجلاء بعبارات سلبية ، جوفاء ، طنانة ، اذ اكتفى بالقول بأن الجلاء عن منطقة القناة لم يعد أمرا هاما اذ أن ماتقدمه القاعدة من تسهيلات سوقية (استراتيجية) لم يعد أمرا حيويا بالنسبة الى العصر النووي الجديد . وهذا كل ما صدر عن رئيس الوزراء المحافظ . ولكن رسالة زعامة المعارضة العمالية ، لم تكن أقل افتقارا الى الالهام أيضا . ولم يكن في وسع المستر آتلي أن يقاوم ما أتاحته له هذه الفرصة من تذكير تشرشل ومحافظيه بسنوات الهجوم الطويلة التي تعرض لها العمال بسبب تقطيعهم أوصال الامبراطورية، وراح بعد ذلك يفند الاتفاق ويصفه

بأنه صيغ ، فى أسوأ عبارات رأيته فى حياتى . . وراح الجناح اليميني فى حزب المحافظين استكمالا للمأساة ، وهو الجناح الذى اشتهر أمره فيما بعد باسم « متمردى قناة السويس » ، يصف الاتفاق بأنه مجرد استسلام . وتركزت التعليقات الأخرى ولا سيما من العمال ، على ما يسببه هذا الاتفاق من خطر على إسرائيل .

ولا ريب فى أن هذا الفراغ القيادى ، وهذا الافتقار الى الايضاح الواقعى للشعب البريطانى عن حقيقة ماوقع فى عام ١٩٥٤ ، هو الذى أدى فى حكم الواقع الى وضع قواعد ذلك التخطيط المتشنج المنفعل الذى شهدناه فى عام ١٩٥٦ .

لكن المستر ايدن ، بصفة كونه وزيرا للخارجية طلب الى مجلس العموم ، أن يوضح لمصر أن بريطانيا ستدخل « العهد الجديد » ، يحدوها تصميم واقعى على محاولة انجاح الاتفاق . . وراح بعد ذلك يتحدث عن الفرصة الجديدة المتاحة « لاقامة أوضاع الصداقة مع جميع البلاد العربية وتوطيد دعائمها » . وعندما تم ابرام الاتفاق بصورة نهائية فى أكتوبر عام ١٩٥٤ ، بعث ايدن برسالة الى جمال عبد الناصر ، أشار فيها الى الاتفاق واصفا اياه بأنه « خطوة هامة الى الامام لايجاد تفاهم وصداقة على أسس جديدة بين البلدين » .

ترى ما الذى عناه ايدن بقوله هذا ؟ وماذا كان ايدن ووزارة خارجيته ، يعرفان عن العهد المصرى الجديد الذى سيعملان معه ؟ وما المعلومات الجانبية والتقديرية السياسية للأوضاع اسى بأنه فى وسع أى - سياسى - غربى أن يحصل عليها من سفارته فى القاهرة فى عام ١٩٥٤ بالنسبة الى هذا « المقدم » : الطويل القامة ، الحاد المزاج ، الذى بات واضحا كل الوضوح الآن أنه عصب السلطان فى مصر الجديدة فى عهدها الجديد ؛ أرى لزاما على قبل الغوص فى تسلسل أحداث طبقا لسياقها التاريخى ، أن أرسم مثل هذه الصورة لعبد الناصر ، وذلك لان اسم هذا القائد سيتكرر فيما تبقى من قصتنا وقد انصبت عليه اتهامات الغربيين الرسميين مصورة اياه على غير صورته الحقيقية .

ولد عبد الناصر عام ١٩١٨ من أب كان يعمل وكيلا لمكتب بريد وكان أولاد عمه من الفلاحين الأميين ، ولكن توافر للأسرة بعض المال الذى مكنها من ارسال الفتى الطويل القامة ونحيلها الى إحدى المدارس الثانوية فى القاهرة . وكانت التجربة التعليمية التى مر بها هناك نموذجا للتجارب التى مر بها كل فرد من أبناء جيله ، فقد تعلم شيئا عن تراثه العربى - المصرى من ناحية . وعما جاء به الغرب من أفكار عن الفومية والعدالة الاجتماعية والتقدم الاقتصادى من الناحية الأخرى . وأظهر الشاب منذ أيامه المبكرة ، مواهب وميولا قيادية ، اذ نولى قيادة اضرابات الطلبة ومظاهراتهم احتجاجا على الاحتلال البريطانى وعلى التغلغل الصهيونى فى فلسطين . وكانت الحياة فى نظره ونظر الشباب الذين هم فى مثل سنه ومركزه الاجتماعى ، فى طول الشرق الأوسط وعرضه ، تفاعلا دائما من الألم والواقع المر القاسى . ولقد روى فيما بعد

قائلا ٠٠٠ « وكان الواحد منا يعود من مدرسته ، وقد أحس بعالم جديد كامل يقف أمامه ، ولكنه لا يلبث أن يجد نفسه في بيت ، ليس فيه مايكفى من الطعام ٠٠٠ »

ومكنته مراحله التعليمية من الانتقال الى المجتمع المصرى في المدينة ، وهو المجتمع الذى كان يتطلع اليه بعين فلاح ينتمى الى جماهير الفلاحين الذين يمثلون مصر في جوهرها ، مع الصورة الجديدة الأخرى لبلاده ، التى طبعتها في نفسه علومه التى درسها في مدرسته . وقد أصدر فى عام ١٩٥٤ ، وقبيل توقيع اتفاق الجلاء ، كتابا ضمنه ذكرياته وأفكاره التى صور فى أسلوبها الذى يعتريه بعض الغموض الدليل على ما يحمله من أفكار سياسية (١) .

ونرى فى هذا الكتاب تحللا كاملا من مفاهيم القيادة المصرية فى الماضى وهى التى كانت تعيش فى عزلة كاملة فى ثقافتها وطبقتها وراثتها ووجهة نظرها الى الحياة عن جماهير الشعب المصرى العاشدة ، اذ يقول :

« أنا أنظر أحيانا الى أسيرة مصرية عادية من آلاف الاسر التى تعيش فى العاصمة . فالأب مثلا ، فلاح معمم من صميم الريف . والأم سيدة منحدرة من أصل تركى . وأبناء الاسرة فى مدارس على النظام الانجليزى . وفتياتها فى مدارس على النظام الفرنسى . كل هذا بين روح القرن الثالث عشر ومظاهر القرن العشرين .. »

أنظر الى هذا وأحس فى أعماقى بفهم للحيرة التى نقاسيها والتخبط الذى يفترسنا .. ثم أقول لنفسى : سوف يتبلور هذا المجتمع ، وسوف يتماسك وسوف يكون وحدة قوية متجانسة . انما ينبغى أن نسد أعصابنا ، ونتحمل فترة الانتقال . »

وكان من الواضح فى عام ١٩٥٤ ، ان جمال عبد الناصر سيعمل بالنسبة الى هذه الافكار التى دونها ، والى جذوره العائلية التى ينتمى اليها ، والى طريقة الحياة الزاهدة التى يعيشها ، طبقا لما تمليه عليه أمه التى تتألف أغلبيتها الساحقة من الفلاحين الذين يعيشون فى فقر مهن . وكان من المؤكد أيضا انه سيعمل طبقا للرغبة العارمة والعميقة الجذور والمعمرة أكثر من قرن كامل ، عند جماهير المصريين فى تبني الحياض ومعارضة الاحلاف مع أى من الدول الكبرى . واذا ما تفهمنا هذه الخصائص الجوهرية لشخصيته ، أمكننا أن نحسب بشئ من اليقين والتأكيد ، ان عبد الناصر ، ومن حوله من رجال يحملون نفس طابعه ، سيقاومون باصرار وعناد أى ضغط أجنبى . قد تحاول أية دولة كبرى فرضه عليهم سسواء أكان هذا الضغط دبلوماسيا أم ماليا أم عسكريا .

(١) أرى أن المؤلف قد أخطأ خطأ كبيرا فى وصفه أسلوب السيد الرئيس فى كتابه هذا بالغموض ؛ اذ أن كتسابات الرئيس وخطبه تتصف بالوضوح الذى يمكن كل انسان مهما كانت ثقافته من فهم ما يود الرئيس قوله . وما يعنيه . ولعل جهل المؤلف بالعربية هو الذى أوقعه فى هذا الخطأ .

المعرب

والتحق عبد الناصر بالكلية العسكرية طالبا وهو في الثامنة عشرة
ثم ما لبث أن عاد إليها مدرسا وهو في السادسة والعشرين . لينتقل منها
بعد قليل الى كلية أركان الحرب طالبا من جديد . وعندما بلغ الثلاثين من
عمره ، اشترك في حرب فلسطين في عام ١٩٤٨ - ١٩٤٩ . وعلى الرغم
من الجراح التي أصيب بها فقد قاد وحداته في المعركة التي نال جلوب
باشا يرقبها من أعالي جبال الخليل (اسمها القديم جبال اليهودية) ،
دون ان يعرف حقيقتها ، والتي وصفها « بالمقاومة المصرية العنيدة » التي
بديلها حاميه محصوره في موقع يدعى الدواوجه . وفي وسع المرء ان يتحدث
بأن تجربة فلسطين قد تركت أثرا لا يمحي في عقل ذلك الرجل الذي
بات رئيسا لوزراء مصر في عام ١٩٥٤ . ولكن أي دبلوماسي عربي . وجد
في القاهرة في ذلك التاريخ لم يكن في حاجة الى أن يكلف نفسه عناء مثل
هذا الحدس . فلقد تحدث عبد الناصر في نفس تلك المقالات التي نشرها ،
عن هذه التجربة ، وضمنها عبارة يمكن أن نعتبر نذيرا مرشدا لكل من
كان يتساءل عن السياسات الخارجية التي سيتبناها قائد النظام الجديد .
وهو في هذه العبارة أيضا يتحلل من الماضي . فلقد سبق لآخر زعيم وطني
مصري كبير أن قال للمثلي المشرق العربي في ورساي عام ١٩١٩ ، « ان
مشكلتنا مصرية وليست بالمشكلة العربية ، ولكن جمال عبد الناصر نشر
ما يلي في عام ١٩٥٤ وحتى قبيل توقيع الاتفاق الذي قرر خلاص مصر من
آخر قيد بريطاني على سياستها الخارجية بالحروف الاولى فقال :

« وكنت أخرج الى الاطلال المحطمة من حولي بفعل يران العدو ، ثم
أسبح بعيدا مع الخيال .

... وكانت الصورة تبدو في ذلك الوقت واضحة أمام بصيرتي ..

ان الظروف السياسية المحيطة بالعاصمة التي نتلقى منها الأوامر
بحيطةها بحصار ، وتتحقق بها عجزا أكثر من الذي نصمعه من نحن القابعين
في منطقة الفالوجة .

ثم هذه قوات اخواننا في السلاح وفي الوطن الكبير وهي المصلحة
المشتركة ، وفي الدافع الذي جعلنا نهروا الى أرض فلسطين .

هذه هي جيوش اخواننا .. جيشا جيشا .. كلها هي أبصار
محاصرة - بفعل الظروف التي كانت تحيط بها والتي كانت نحيط
بحكوماتها ..

وكانت شعوبنا جميعا تبدو في مؤخرة الخطوط صحفية مؤامرة
محبوكة أخفت عنها عمدا حقيقة ما يجري ، وضللته حتى عن وجودها
نفسه ..

... كنت مؤمنا بأن الذي يحدث لفلسطين كان يمكن أن يحدث ..
وما زال احتمال حدوثه قائما - لأي بلد في هذه المنطقة ما دام مستنسا
للعوامل والعناصر والقوى التي تحكمه الآن ..

... وأيدت الحوادث التي جرت بعد ذلك هذا الاعتقاد في نفسي

... كان الحادث يقع فى القاهرة فيقع مثيل له فى دمشق غدا ،
وفى بيروت ، وفى عمان ، وفى بغداد وغيرها .

وكان ذلك كله طبيعيا مع الصورة التى رسمتها التجارب فى نفسى .
منطقة واحدة ونفس الظروف ، ونفس العوامل . . بل ونفس القوى المتألبة
عليها جميعا .

وكان واضحا أن الاستعمار هو أبرز هذه القوى .

ولقد بدأت بعد أن استقرت كل هذه الحقائق فى نفسى او من بكفاح
واحد مشترك .

ومن المؤلف ، عند ما يظهر زعيم جديد فى بلد له أهميته الدولية ،
أن تقوم الدول الكبرى المعنية بهذا البلد بإجراء دراسات دقيقة عن هذا
الزعيم عن طريق مبعوثيها ومخبراتها وصحفييها الخبراء بذلك البلد ،
وموثوقيتها ، وأن تجمع عنه كل نتفة من نتف الاخبار التى تلقى ضوءا على
سياسات حكومته المقبلة . ولو لم تكن هناك أية معلومات أخرى من أى
نوع عن الرئيس عبد الناصر ، لكانت هذه الفقرة البارزة التى وردت
فى الكتاب الذى نشره وضمنه عقيدته ، كافية فى حد ذاتها لظهار ما يعزمه
من استئناف الدور القيادى الكامل الذى يجب أن تقوم به مصر على المسرح
العربى ، ولحرمت أى سياسى غربى من الادعاءات التى ينلوها لازالة
أسباب السخط والذهشة التى سادت الجميع بالنسبة الى ما حدث فى
عام ١٩٥٥ . واذا كانت هذه النذر التعبيرية لم تؤلف جزءا من الصورة
التي حملها أنطونى ايدن عن « العهد الجديد » ، فإن مسئولية الخطأ فى
ذلك تقع على ايدن وحده وعلى مبعوثيه وخبرائه .

ومع ذلك فقد كن هناك ما هو أكثر تحديدا ودقة فى سجل
الرئيس عبدالناصر قبيل منتصف عام ١٩٥٤ . فلقد قام جون فوستر دالاس
وزير خارجية أمريكا فى ربيع عام ١٩٥٣ بزيارة القاهرة لبحث مع
مسئوليها فى الخطط التى وضعها لاقامة « حزام شملى » سوقى على طول
حدود الاتحاد السوفياتى الجنوبية ، يعززه فى الشرق الاوسط حلف
دفاعى عميق ، هو عين منظمة الدفاع عن الشرق الاوسط التى قدمت الى
دول الشرق الاوسط منذ عام ١٩٥٠ وكان مصيرها الرفض . وقد قابل
دالاس الضابط المصرى الشاب البالغ الخامسة والثلاثين من عمره ،
والذى كان قد قاد فعلا الثورة المصرية منذ شرع فى اعداد خلاياها فى
عام ١٩٤٢ (١) واستمع عبد الناصر الى الوزير الأمريكى ثم رد عليه بحزم
قائلا :

« اننا نعارض الاشتراك فى أية أحلاف مع أية دولة أجنبية ، لأن
لدينا أسبابا قوية تدفعنا الى الشك فيها ، ولأن شعوبنا لن تؤيد أية
حكومة تشترك فى مثل هذه الأحلاف . وأنت تطلب منا الآن أن نحبط

(١) كتاب «لانكليزية » الثورة على النيل ، للمسيد أنور السادات
— لندن ١٩٥٧

الاهداف التي تريدها . فالدفاع عن هذه المنطقة يجب أن ينبثق من داخلها ، أي من شيء يمكن له أن يوحد شعبها . وهذه القوة ، أو الجبهة الداخلية ، هي قوميتنا واصلاحنا الاجتماعي وتقدمنا . وإذا قدر لقسوة هذه الجبهة الداخلية التي مازال لزاما علينا بذورها ان تضعف نتيجة الاشتراك في أحلاف غير مقبولة شعبيا ، فليس ثمة الا قوة سياسية واحدة تستطيع أن تكسب من هذا الضعف . ان الخطر الأكبر للشيوعية على هذه المنطقة يكمن في داخلها ولا يأتي من خارجها ، أي في هجوم يشن من الداخل ليس الا . وما قيمة الخطوط السوقية اذا كان الهجوم سيشتد من الداخل لا من الخارج .

وقد أتيج لعدد من المبعوثين الديمومسيين الغربيين الآخرين الذين قدر لهم ان يجتمعوا الى عبد الناصر في عام ١٩٥٣ ، ان يحصلوا منه على نفس هذه الوجهات النظرية المعبرة والتي تحمل نفس الطابع التنبؤي بما قد يحدث . وكانت هذه المقابلات قد وقعت قبل ان يتحمل مسئوليات الحكم الكاملة . وقبل أن يعقد اتفاق اجلاء مع بريطانيه ، وقبل أن تشرع مصر في انتهاج سياسة عامة تشمل المنطقة كلها . ولو قام المستر دالاس أو غيره من اساسة الغربيين بالرحيل ان أي مكان آخر في الشرق الاوسط العربي في عام ١٩٥٣ ، واتصلوا بالقوميين من أبناء جيل عبد الناصر ، لتدوا منهم نفس الرد الذي كانوا يتفخونه من عبد الناصر ، وفي حدود المفاهيم نفسها . ولم تكن وجهات النظر هذه مجرد كره أعمى للأجانب أو مجرد آراء فومية سلبية . انها تدرك خطر الشيوعية وتؤكد أبعادها الثورية الداخلية . ولكن عبد الناصر لا يحدد تفديراته التي يعرضها لدالاس على ضوء هذه الأبعاد المحدودة . وقد نقل الى وزير خارجية الولايات المتحدة في عام ١٩٥٣ أيضا ربه في أن تقوية « الجبهة الداخلية » يجب أن تكون مصحوبة بطايف دعمها خارجيه قوية تتشكل عن طريق ميثاق لضمان الجمعي العربي المستقل كل الاستقلال وغير المنحاز ، شريطة أن يقوى هذا الميثاق بتنسيق عسكري ، ويدعم بالأسلحة الحديثة التي يجب على الغرب ، ان كان حكيما ، أن يزوده بها دون أية اشتراطات سياسية .

وهكذا لم يكن ثمة شك في موقف العهد الجديد في عامي ١٩٥٣ و ١٩٥٤ . فلقد أعلن عبد الناصر في خطبه العامة وأحاديثه الشخصية أن مصر لن تعقد أية محادثات دفاعية أجنبية . وكانت الخطب التي يلقيها على الضباط في جماعات هيئة التحرير ومهرجاناتهم تحذر من الشيوعية على أنها عقيدة غريبة مسنودة تميل الى الولاء لراية أجنبية ، تماما كما كان يقول نهرو ، وكان في وسع أية سفارة غربية أن تفهم تحذيراته هذه وتدونها . وهكذا كان الموقف واضحا تمام الوضوح ، كأي موقف تتخذه أية حكومة ثورية . وهكذا كان العهد مع « الغرب » أي أنه لم يكن شيوعيا ، وكان قائده يحس بالخطر النابع عن تلك الجهة ولكنه لم يكن « مع الغرب » بالمعنى المقصود من أحلاف الحرب الباردة ، كما لم يكن هناك أي سبب يدعو الى الاعتقاد بأنه سيكون « مع الغرب » في حدود ذلك المعنى ، وكان ثمة ما يدعو الى الاعتقاد بأن أي ضغط

على العهد لم يكن ليؤدى الى مثل هذا الاشتراك فى الاحلاف وأنه سيؤدى على النقيض من ذلك الى استفزاز مقاومة عنيفة غاضبة .

ولكن قضية أحلاف الحرب الباردة ، كانت أوسع نطاقا وأقفا من مصر . ففي الصورة التى رسمها عبد الناصر عن الفالوجة فى المقال الذى نشره فى ابريل عام ١٩٥٤ ، أوضح الزعيم نظريته الاساسية عن موضوع «الوحدة العربية» ، وبين مفهومه فى وجود وطن واحد ، وأمه عربية واحدة « ترتبط بروابط تجعل من وطننا كلاً كاملاً لا يتجزأ » . يدافع عنه أبناءه على هذا الاساس لا على أساس وحدات متفرقة ومنعزلة . ولم يكن فى هذه النظرية شىء جديد وانما تنبع من ثقافة مشتركة عاشت حقبا بل قرونا طويلة . ولكن الشىء الجديد الآن الذى ينطوى على أهمية كبرى وكان جديرا بسياسة الغرب أن يلاحظوه ، هو أنه قام فى عام ١٩٥٤ رئيس وزراء ثورى محايد فى مصر ، يدعو الى هذه الفكرة ، بعد سنوات طويلة من انشغال مصر داخل حدودها الضيقة ، هذا اذا استثنينا اشتغالها بالمنافسات القائمة بين الحكام ضمن اطار الجامعة العربية . وهكذا كان هناك تحذير علنى واضح من النوع الذى يندر أن يحصل السياسة على ما يشبهه فى تقدير المواقف التى يريدونها . وكان حريا بهؤلاء السياسة - الغربيين طبعاً - أن يبادروا الى اعادة درس وجهات النظر العربية ، ليقرروا ما اذا كانت مبادرة مصر على هذا الاساس تلقى استجابة فى المناطق الاخرى من الشرق الاوسط . ولم يكن ثمة من شك فى يوليو عام ١٩٥٤ فى حقيقة ما هتكشف عنه هذه الدراسات ، لو أن سياسة الغرب كانوا من الذكاء بحيث يحملون أنفسهم على التعمق تحت سطحية الوثوف بالحكام « الاصدقاء »

ولقد وافق عبد الناصر وهو برم كاره فى اتفاق الجلاء الذى وقعه مع بريطانيا على التساهل فى نقطة واحدة ، وهو بند الردة الى الحرب ، الذى يربط مصر الى تركيا فى حالة تعرض هذه لهجوم ، يقصد به كما هو اوضح الهجوم من الاتحاد السوفياتى . مما يعنى نشوب الحرب العالمية الثالثة ، أو تعرض أى بلد عربى آخر لمثل هذا الهجوم . وكان من الواضح لآى شخص فى القاهرة فى ذلك الحين ، أن رئيس الوزراء المصرى ، كان يعرف تمام المعرفة ، أن تساهله فى قبول هذا الشرط ، سيلقى نفورا شعبيا طاعيا ، لا سيما وأن رأى العام المصرى والعربى فى كل مكان ، كان يقف ضد الارتباط بأية معاهدة مع بريطانيا حتى ولو كانت غير نافذة المفعول فى أوقات السلم . ولكن هذا التساهل كان أيضا بمثابة اختبار أو ورقة « عباد الشمس » تغطس فى مياه الشرق الاوسط السياسية لارشاد السياسة الغربية الى الخطة التى يجب عليها انتهاجها فى المستقبل .

وتم أخيرا ابرام الاتفاق فى التاسع عشر من أكتوبر عام ١٩٥٤ وسط موجة عارمة من التوتر فى مصر والنقد المكشوف لعبد الناصر فى

سورية مع اتهمه بأنه « أداة في يد الغرب » (١) وظهرت في السادس والعشرين من أكتوبر البراهين الجازمة والادلة القطعة على ما يجوز لسياسة الغرب أن يطالبوا به وما لايجوز طبقا لمتطلبات الحكمة السياسية اذ بينما كان عبد الناصر يقف على المنصة في الاسكندرية أمام حشد شعبي هائل ، شارحا نصوص الاتفاق الذي عقده ، انطلقت رصاصات من مسدس يحملة أحد القتلة تحاول اغتياله ، ولكنه نجا منها بأعجوبة ويبدو أن الاخوان المسلمين ، أرادوا استغلال ما يحس به العرب والمصريون من نفور لهذا الاتفاق ، فحاولوا القيام بانقلاب داخلي (٢) .

وكان هذا الشرط أول وآخر تساهل صدر عن عبد الناصر . وكانت العبرة للغرب قويه للغاية . فلم تكن هناك قوة زبنة في السياسات المصرية تستطيع أن تتسامح مع الغرب أو تفسح له المجال لعقد حلف من أحلاف الحرب الباردة لا مع مصر ولا مع أي بلد آخر في الشرق الاوسط . وكان من حق المستر دالاس ومن حق ايدن أن يدرسا كل مالديهما من ملاحظات عن عبد الناصر ، وعن سياساته وعن الأجواء العامة التي تسود الشرق الاوسط بكامله . وكان الرجل لا يزال في مستهل شبابه ، وعلى الرغم من كفاياته النورية العظيمة ، لم يكن بعد هو ورفاقه قد أتاحت لهم ، على الرغم من اتقاف ذكائهم ونشاطهم ، الخبرة الكافية في السياسات الدولية الماكرة . وكانت له ولرفاقه آراء قوية وأمزجة عنيفة ومع ذلك فقد أعرب عبد الناصر في الثامن والعشرين من سبتمبر (أيلول) عن أمله في بداية جديدة ، مع بريطانيا والغرب ، وعاد فكرر نفس هذا الامل في شهر أكتوبر عندما أصبح الاتفاق سري المفعول . وكان ايدن أيضا قد أعرب عن نفس هذه الامنيات .

وتوقفت القضية عند هذا الحد . فلقد هدفت الحكومة انبريضية من عقدها اتفاق الجلاء ، الى ضمان الحصول على قاعدة سوقية (استراتيجية) في مصر ، عند نشوب حرب عالمية ، من حكومة مصرية تقف موقفا متصليا من موضوع تأييد الحياد ، ولذا فقد وافقت وهي كارهة على هذا التساهل الذي عرضها لموجة من السخط في المنطقة

(١) ليس ثمة من ريب في أن معظم هذه الانتقادات صدرت اما عن الاخوان المسلمين الذين كان بعض قادتهم قد فروا الى سورية أو عن جماعات الشيوعيين .

(٢) يكثر المؤلف هنا من القول بأن سيادة الرئيس عبد الناصر ، قد تساهل في هذه الفقرة من الاتفاق مع بريطانيا . ولكننا لا نرى في الموضوع أي تساهل ، وانما كان مجرد ضرورة سياسية حتمتها عليه الاوضاع التي دارت ابانها المفاوضات من ناحية ووجوب الحصول على الجلاء العاجل ، ليتمكن العهد الجديد بعد أن تتحرر أرض مصر من وطأة الاحتلال من اختيار السياسة الحيادية التي يراها وتنفيذها دون خوف من وجود قوات الاحتلال الاجنبي على أرض مصر نفسها وقد كدت الاحداث فيما بعد بعد نظره . - المغرب -

العربية كلها • وكان من الواضح أن قادة العهد الجديد يميلون الى الغرب في الميول السياسية العامة وفي معارضتهم الداخلية والعقائدية للشيوعية (١) • وقد وقع عبد الناصر اتفاقا مع الولايات المتحدة الامريكية في نوفمبر (تشرين الثاني) للمعونة الفنية والاقتصادية •

وأصبح الوضع متوقفا الآن على ما تريده الحكومتان البريطانية ، والامريكية من الشرق الاوسط ، وما تستطيعان الحصول عليه ضمن الشروط التي لم يعد في وسعهما املها على مصر • وأصبح من الواضح أن أية حركة جديدة قد تقوم بها في أي مكان آخر في الشرق الاوسط ستؤثر تأثيرا عميقا على العلاقات مع العهد الجديد في مصر الذي ربط نفسه علنا بفكرة « المنطقة الواحدة » وبعبيدة الوحدة العربية «لوثقى ضمن اطار من سياسة الحياد الايجابي • ولم يكن في وسع أي من سياسة الغرب أن يعتقد اذا كان يستطيع القراءة ، واذا كانت له عينان تبصران واذنان تسمعان وبعث برسله يجسون النبض في مدن الشرق الاوسط وبلداته أن يشك في مدى الاهتمام الذي يعلقه أبناء هذا الشرق على النظام الثوري في مصر • ولم يكن في وسع أي انسان مدرك من سياسة الغرب أن يعتقد ان عبد الناصر نظرا لتساهله الوحيد فيما هذى بالنسبة الى الحياد في حالة وقوع حرب عالمية ، سيتساهل من جديد ، أو سيتسامح مع أي حلف جديد يفرض فرضا على هذه « المنطقة الواحدة » التي يؤمن بها • يضاف الى هذا ، وهو أمر هام ، أن المبعوثين الغربيين في القاهرة ، كانوا في وضع أفضل من أبناء المنطقة في الفترة الواقعة بين يونيو ونوفمبر من عام ١٩٥٤ ، ليعرفوا حقيقة وجهات نظر عبد الناصر

كانت هذه هي القضايا والحقائق الجوهرية التي سادت الشرق الاوسط قبل أن يربط أيدين بلاده بريطانيا باتفاق الجلاء الذي يعتبر أعظم انحسار عن سياسات بريطانيا في الماضي منذ أعلنت انسحابها من الهند • وبات « العهد الجديد » الذي تأمل بريطانيا أن تستهله مع مصر أكثر دول الشرق الاوسط العربي تقدما ، ومحور الوجود فيه ، وأثر بلاده ثوريه ، يعتمد أول ما يعتمد ، على مدى استعداد بريطانيا الرسمي لدراسة هذه القضايا كلها ، وما ينطلق عنها من تكهنات • وهكذا بات لزاما على بريطانيا أن تقرر الطريق الذي ينحتم عليها ان تسلكها • ولعل من السخرية بالنسبة الى الغرب أن تؤكد ان

(١) يخطيء المؤلف كل الخطأ عندما يقول ان قادة العهد الثوري في مصر كانوا ميالين الى الغرب • كما يخطيء الغربيون الآخرون الذين اتهموهم ردحا طويلا من الزمن بالميل الى الشيوعية • أما الحقيقة فهي أن سياسة هذا العهد انبثقت في مطلع الحقبة عن الحياد الايجابي الذي ما فتىء أن تحول الى سياسة كاملة وشاملة من عدم الانحياز المطلق ، التي تعنى اتباع السياسات الاستقلالية الكاملة في كافة الشؤون الداخلية والخارجية • - المغرب -

موقف مصر الرسمي ، هو الذي ظل واضحاً كل الوضوح طيلة الوقت وأن عبد الناصر قد حافظ بإخلاص على هذا الموقف طيلة الازمات التي تلت والتي تعتبر « أزمات ثقة » قبل كل شيء ، نتج عنها تراشق في الاتهامات وتبادل الشكوك واثارة الاستفزاز والغضب المتبادلين ، مما أدى الى انطلاق تلك الكتلة الثلجية هادرة مزمجرة هبوطاً مع المنحدر ، متجهة الى سيناء والسويس .

مبوطاً مع المنى إلى السنين

« كان باستطاعة كل من عرف الرأي العام العراقي قبل عام ١٩٥٢ عندما كان عبد الناصر لا يزال بعيداً عن الشهرة ، أن يتكهن تكهنات دقيقة بما سيكون عليه رد فعل العراقيين تجاه حلف بغداد . ولم تجهر القاهرة فيما بعد الا بما كان يسر به العراقيون من قبل » .

كراكتاكوس - ثورة العراق

لقد كانت حادثة الثامن والعشرين من فبراير عام ١٩٥٥ نقطة تحول لقد كان هذا الاعتداء هو ناقوس الخطر ومنذ هذا اليوم بدأنا ندقق في تعرف السلام وفي معنى السلام . وبدأنا ندقق في معنى توازن القوى في هذه المنطقة .

جمال عبد الناصر - أكتوبر ١٩٥٥

« ان مبدأ الحياد مفهوم لا أخلاقي وفصير النظر . . »

جون فوستر دالاس ٩ يونية ١٩٥٦

اذا أردنا أن نفهم طراز السياسات التي شرع في تطبيقها الآن والتي قدر لها أن تقضي حتماً على كل ما للغرب من مصالح في الشرق الأوسط ، كان لا بد لها من أن تبقى قائمة وأن يحافظ عليها ، فإن من الواجب أن نعتبر التسلسل التاريخي للأحداث التي وقعت في هذه الفترة التي سادها الاضطراب ، أي بين عامي ١٩٥٤ و ١٩٥٦ ، أمراً لا أهمية له . فمن الناحية الأولى ، اعرب عبد الناصر في مايو (ايار) عام ١٩٥٣ دالاس عن الآراء التي سبق لنا أن دونناها ، والتي لم يحد عنها قط فيما بعد . وظهرت مقالاته التي تشرح فكرته عن الحياد العربي المتحد في ابريل (نيسان) عام ١٩٥٤ . وتم التوقيع بالاحرف الأولى على اتفاق الجلاء في السابع والعشرين من يوليو عام ١٩٥٤ . ثم أصبح الاتفاق ساري المفعول في التاسع عشر من أكتوبر من نفس العام وتسجيل هذه التواريخ أمر في منتهى الأهمية إذ أن حكومتى الولايات المتحدة وبريطانيا في عهد تشرشل وايدن . كانتا طبقاً للأدلة القائمة بتباحثان في هذه الفترة ذاتها نوري السعيد في العراق في موضوع حلف الحرب الباردة الذي قدر له حينما أن يحطم كل أمل في قيام عهد جديد

مع مصر والشرق الأوسط عامة . وقد بدأت هذه المباحثات قبل شهر
مايو من عام ١٩٥٤ . وعندما تكشفت لعبد الناصر هذه الازدواجية ،
عادت اليه شكوكه عن استمرار وجود مؤامرة مناهضة للقومية العربية ،
وظلت هذه الشكوك منذ ذلك التاريخ تطفئ على كل كلمة قالها ، أو
نبتها اذاعة القاهرة .

ولا أرى بى حاجة الى القول بأن هذه الشكوك لم تكن تساوره
وحده ، وانما كانت تتسلط على جميع أبناء جيله من القوميين . وقد
يكون من المشاكل المزعجة فى سرد تاريخ هذه السنوات أن يضطر الكاتب
الغربي الى الاشارة الى كل شئ ونسبته الى عبد الناصر ، اذ أن هذه
النسبة أصبحت الشكل السائد لكل اشارة فى الغرب عن هذه الفترة التى
لا يمكن فصلها عن عبد الناصر ولا فصله عنها ، لكن هذه الاسطورة
العربية مبنية على مغالطة واضحة ، اذ أنها تقوم على « فردية » عبد الناصر
وعلى « أهميته الشخصية » وحدها وكان ليس ثمة رأى عام عربى يقوم
وراء عبد الناصر الذى يعبر عنه أصدق تعبير . وقد بدأت هذه القصة
فى مستهل عام ١٩٥٥ ، بظهور حاف بغداد ، وبالهجوم الاسرائيلى الخطير
على غزة ، وبصفقه الاسلحة التشيكية .

حلف بغداد

احس دالاس بحية الامل فى القاهرة فى عام ١٩٥٢ ، فى موضوع
اقامة حلف « الحزام الشمالى » ، فتابع البحث فى تحقيق قدرته ، فى
الوقت الذى كانت فيه المفاوضات المصرية البريطانية لا تزال دائره
لتوصل الى اتفاق الجلاء . وقد أولى نورى السعيد هذه الفكرة جل اهتمامه
منذ طلوعها لأول مرة . فقام بزيارة الباكستان فى مارس (اذار) ،
وعندما وقعت الباكستان مع تركيا معاهدة دفاعية فى ابريل عام ١٩٥٤ ،
راح العراق يعلن قبوله المساعدة العسكرية من الولايات المتحدة ولم يحل
شهر مايو حتى كانت الباكستان قد وقعت معاهدة مماثلة مع أمريكا .
وسرع نوري السعيد بعد ذلك فى اعداد الاستعدادات الداخلية تأهبا لاتخاذ
خطوة أخرى أكثر خطورة . وجرت فى شهر يونيو انتخابات عامة رتبها
نورى السعيد ترتيبا محكما ، مضعفا جبهة المعارضة الداعية الى سياسة
الحباد ، ومؤمنه « لحزب » نوري فوزا كاسحا بالاغلبية . وسرعان ما قام
بحل جميع الاحزاب السياسية وأعلن عن عزمه على تعديل المعاهدة
الانكليزية - العراقية المعقودة فى عام ١٩٣٢ وأراد ضمان التأييد لخطواته
الجديدة ، فحل البرلمان وأجرى انتخابات جديدة ، حرمت فيها المعارضة
تماما هذه المرة من القيام بالحملة الانتخابية . وفاز حزب نوري ،
وما لبث بعد ثلاثة أيام أى فى منتصف سبتمبر ، أن شرع فى جولة
يزور بها عددا من البلاد فى خارج العراق .

وكانت الحكومتان الامريكية والبريطانية على علم بما يعتزم نوري
عمله . وكانت بريطانيا قد فرغت من توقيع اتفاسف الجلاء مع مصر
بالحروف الاولى ، وأوشك مجلس العموم فيها على الفراغ من مناقشة
الاتفاق . وقد شرحت فى فصل سابق بعض القضايا الاساسية التى
معرضها الاتفاق بالنسبة الى سياسة بريطانيا المقبلة فى الشرق الأوسط .

فهل يقدر لحلف جديد من أحلاف الحرب الباردة أن يلقي التأييد الشعبي في العراق ؟ ولم تكن اعدادات نوري في عام ١٩٥٤ لهذا المشروع . باخفات صوت كل معارضة سياسية هي الدلالة الاولى على مايتوقع من ر علي هذا السؤال . وقد انقضت ست سنوات طويلة ، ولم تجر فيهم أية حكومة بريطانية أو عراقية أيضا على تعديل المعاهدة الثنائية بين العراق وبريطانيا . وقد تخلى الفريقان عن المحاولة الاخيرة التي جرت في مطلع عام ١٩٤٨ ، وسط اضطرابات عنيفة لم يحل بينها وبين التحول الى ثورة عارمة شعبية الا الاجراءات العنيفة التي قامت بها الحكومة ووقعت في عام ١٩٥٢ ، اضطرابات جديدة ، هوجمت فيها كل من السفارة البريطانية ومكتب المعلومات الامريكي في بغداد . وكان نوري يفسر جميع هذه الاضطرابات للغربيين على أنها « شيوعية » يقوم بها « الرعاع » . ولكن الناس الذين اعتقلهم وأودعهم السجون وأخرس أصواتهم لم يكونوا من الشيوعيين مطلقا ، بل كانوا من القوميين المثقفين خير ثقافة من أعضاء حزبي الاستقلال والوطني الديموقراطي . وكان آخر دليل على وجود المعارضة التي يخشاها نوري ، اغلاقه الحزب الوطني الديموقراطي ومنع صحيفته عن الصدور في الثالث من سبتمبر عام ١٩٥٤ أي قبل تسعة أيام فقط من الانتخابات الزائفة الجديدة التي حصل فيها نوري السعيد على الاغلبية التي ضمنت له تحقيق حلف بغداد المقبل .

ولقد عرفنا ماكان عليه رأي عبد الناصر في أحلاف الدول الكبرى في عام ١٩٥٣ . وعندما ظهر حلف بغداد الى حيز الوجود نتيجة النشاط الذي قام به نوري السعيد في مطلع عام ١٩٥٥ ، وراحت مصر تهاجمه وتهاجم نوري السعيد معه ، أخذوا يزعمون أن عبد الناصر كان قد وافق نوري على مشروعه . وكانت الفكرة الغربية التي قامت وراء هذا الادعاء قد هاجمت عبد الناصر ، واتهمته بأنه ليس محايدا حقا ، وأن هجومه على نوري السعيد وحلف بغداد كان « يدافع الغيرة من رجل أعظم منه !! » (١) . ومالم توضح الحقائق بصدور هذه الشائعات الواسعة الانتشار فان الكوارث التي نجمت عن السياسة الغربية قد تتكرر اليوم بنفس القوة التي وقعت فيها في الماضي .

ومكنت حقيقتان دقيقتان نوري السعيد ومن يقف وراءه من سلطان الغرب ، من انترويح لهذا التفسير الذي زعموه لما أبدته مصر من رد فعل لميثاق بغداد ، وأولاهما البند المتساهل في اتفاق الجلاء عن السويس الذي سبق لنا أن شرحنا سياسة عبد الناصر الرئيسية تجاهه أما ثانيتهما فالادعاء بأن مبعوث عبد الناصر المتنقل الصاغ صلاح سالم، قد أعلن موافقته واذا صح ان (المرحوم) صلاح سالم قد وافق عليه فانه يكون بذلك قد تجاوز صلاحياته والتعليحات الصادرة اليه ، اذ عندما شرع نوري السعيد في شهر سبتمبر في جولته الهادفة الى عقد الحلف ، تولى عبد الناصر

(١) كتاب للورد بيردود عن نوري السعيد - كاسل ١٩٥٥ .
والكتاب تاريخ كله عطف وأعجاب من اللورد الانجليزي المحافظ بنوري السعيد وآرائه
- المؤلف -

شخصيا تصحيح أي انطباع خاطئ، لديه يدعيه . اذ عندما وصل الى القاهرة بعد زيارته لشمعون رئيس لبنان آنذاك ، علم نوري من عبدالناصر شخصيا أن مصر معارضة معارضة لا انحراف فيها ولا تبدل ، لأي تحالف بين أية دولة عضو في ميثاق الضمان الجماعي العربي وبين أية دولة أجنبية ، وأعرب عبد الناصر للرئيس العراقي عن تفهمه لأسباب نجمت عن إقامة دفاع قوى ضد روسيا ، ولكن هذا الدفاع كما قال عبد الناصر لا يمكن أن يتحقق الا عن طريق تقوية ميثاق الضمان الجماعي العربي لا عن طريق استمرار التحالف مع بريطانيا أو توثيق أواصره .

وإذا كان ثمة من ظل للشك في موقف مصر ، وفيما قاله عبد الناصر لنوري في القاهرة في سبتمبر آنذاك في عام ١٩٥٤ ، فإن البلاغ الرسمي الذي لا يحمل أي معنى والذي صدر بعد انتهاء المحادثات أشار الى اختلاف وجهات النظر بين الرجلين . وراح نوري نفسه يحمل في اليوم التالي في مؤتمر الصحفي الذي عقده ، على سياسة الحياد ، ويحث على توثيق أواصر العلاقات بين العرب والغرب ، ولم يرد عبد الناصر علنا على هذه البيانات الصحفية . وكان قد أنهى محادثاته مع نوري ، على أساس الفهم الواضح بأن رئيس الوزراء العراقي لن يوقع أية معاهدة غير عربية دون أن يخطر بذلك مسبقا جميع الحكومات الأعضاء في ميثاق الضمان الجماعي العربي .

وقد عرف المبعوثون الغربيون في القاهرة جميع هذه الحقائق ، وواصل نوري السعيد رحلته الى لندن . وتم في التاسع عشر من أكتوبر التوقيع على اتفاق الجلاء بين مصر وانجلترا . وجرت محاولة الاغتيال في السادس والعشرين من أكتوبر . وعاد نوري الى العراق بعد زيارته اسطنبول وراح يشدد بعد عودته الى بلاده من اجراءاته البوليسية العنيفة مستخدرا قوانين جديدة يكتم بوساطتها افواه الصحف العراقية . ويحظر عن طريقها كافة الاجتماعات التي يعدها خطيرة .

وعاد موسى الشابندر وزير خارجية العراق فأكد لعبد الناصر في ديسمبر (كانون الاول) عام ١٩٥٤ ابان اجتماع لوزراء خارجية الدول العربية عقد في القاهرة بأن العراق لن يدخل في أية ارتباطات أو موافقات عبر عربية دون الحصول على موافقة مسبقة من الدول الاعضاء في ميثاق الضمان الجماعي وعاد نوري السعيد الى تأكيد هذا الوعد في مجلس النواب العراقي . وأعلنت تركيا ان لا علاقة للزيارة القادمة لرئيس وزرائها الى بغداد مطلقا بالشئون الدفاعية . ويبدو أن نوري السعيد كان يود الإبقاء على كل شيء هادئا قدر الامكان حتى اللحظة الأخيرة .

وفجأة وبدون أي اتصال أو اخطار للدول العربية الاعضاء في ميثاق الضمان الجماعي ، أعلن نوري السعيد في الثاني عشر من يناير عام ١٩٥٥ عقد معاهدة جديدة بين تركيا والعراق ودعا الدول العربية الاخرى الى الاشتراك فيها . ورحبت وزارة الخارجية في لندن بالانباء السعيدة . وهكذا القي نوري السعيد بقفازه في الحلبة . محرقا سلفه . وبدأ عبد الناصر بعد أربعة أيام يشن أول حملة عنيفة عن طريق الصحافة

والاذاعة من طراز لم يسبق للوطن العربي أن شهده من قبل ، وضمن في حمته هذه نايب سورية والعربية السعودية واليمن والبنديت بهرو الدبلوماسي وقد صيغت حملة عبد الناصر الاعلامية في نفس العبارات التي سبق له أن أسر بها الى دالاس في عام ١٩٥٢ والتي أعلنها في العام نفسه والعام الذي تلاه ، والتي ذكرها لنوري في سبتمبر عام ١٩٥٤ . ولم يكن هناك من شيء أكثر توقعا من هذه الحملة المصرية على حلف بغداد . ولم يكن ثمة ما هو أكثر من الاستقبال الحماسي الذي تقابل به جماهير العرب والقادة الوطنيون في العراق وغيره مثل هذه الحملة . وكان العيب الوحيد هو عجز القوميين العرب في العراق عن التعبير عن حماسهم وقد أثمل هذا العجز أيضا الاردنيين وغيرهم من الكثيرين الذين كانوا لا يزالون يرزحون تحت حكم النظام القديم .

ومع ذلك كان لا يزال ثمة فرصة أمام بريطانيا للتفكير والتمعن في هذه الدلائل المتزايدة على اتجاه التيار العربي ، قبل أن تتخذ الخطوة الحاسمة التي لارده عنها . ولكن بريطانيا لم تتوقف ، ولم تعد بالطبع النظر في موقفها . وأعلنت في الخامس من ابريل عام ١٩٥٥ انضمامها رسميا الى حلف بغداد . وأعيد في الوقت نفسه النظر في المعاهدة الانكليزية - العراقية واستبدلت باتفاق خاص قضى بتغيير الاسم الذي يطلق على التسهيلات التي يمنحها العراق للسلاح الجوي البريطاني ليسر الا . ووقعت مصر والهند في اليوم التالي معاهدة صداقة . وهكذا فأن الفرصة العظيمة وأخذ أبناء الجيل العربي الصاعد ، يقذفون وراء ظهرهم بكل ما يحمل اسما بريطانيا أو صبغة بريطانية . وضاعت وسط هذه الضجة العنيفة ، التي كانت بمثابة كارثة لبريطانيا ، كل المشاعر التي كان يحس بها المحافظون العرب من العطف على بريطانيا ، والذين كانوا يشعرون بأن الواجب كان يحتم على مصر أن تعترف بجميل بريطانيا (١) لانها وافقت على الجلاء عن قاعدة السويس، التي وصفها اللورد هينسنبروك في وقت لاحق بأنها « جزء أساسي من المملكة المتحدة » . وساد بريطانيا احساس بالالام ، وبالصدمة من جراء هذه الحملة التي لم تكن نتوفاها بعد تلك الايماءة التي أظهرتها بالجلاء عن القناة . وزاحت تستغيث بصداقاتها التقليدية في الصحراء وبمشاعر « الفصل » بين « المصريين » وبين « العرب » لتواجه هذه الحملة العنيفة التي شنتها القاهرة . ولم يكن الا القليلون من البريطانيين والغربيين يدركون مدى الشعور العربي « المخزن » ضد حلف بغداد ، وقوة ما يلقاه استئناف مصر دورها في السياسة العربية من ترحاب . وكانت هذه المشاعر مختلفة عن عيور الغربيين وراء نوري السعيد وغيره من ممثلي العهود القديمة في الوطن العربي . وحتى القلة من المراسلين الصحفيين الغربيين الذين تميزوا بالدقة وبعد النظر ، والذين عرفوا حقيقة ما كان يحدث في الوطن العربي .

(١) لا أدري ما معنى الجميل في هذا الصدد ، الا اذا كان الاستقلال نعمة ينعم بها المستعمر وكان جلاء قواته فضلا يمن به ، وكان تصحيح الاوضاع الجائرة صدقة واحسانا . - العرب -

كانوا يجدون تحليلاتهم وتقديراتهم للمواقف تدفن في مكاتب صحفهم أو تحور وتبدل بشيء من المكر والدهاء ، وكثيرا ما قيل لهم ، بأن عليهم أن يبدلوا مواقفهم اذا أرادوا البقاء في مراكزهم .

وتأثر الوطن العربي في الثامن عشر من ابريل عام ١٩٥٥ تأثيرا أصيلا وعميقا بافتتاح المؤتمر الافريقي-الآسيوى التاريخى فى باندونج ومضى جمال عبد الناصر الى المؤتمر على رأس وفد مصرى كبير . وقد استقبل فى الباكستان كزعيم عظيم ، ثم ما لبث أن استقبل استقبالا أكثر حرارة فى الهند . واجتمع فى بورما وفى صحبته البانديت نهرو بكل من أونو وشواين لاي . وعند ما عاد الى القاهرة ، كان قد أضحى شخصية كبرى من شخصيات الحياض فى الدنيا الافريقيه - الآسيويه . وأخذت ثقة العرب بالزعيم عبد الناصر تزداد يوما بعد يوم ، ورآه العرب فى شهر يوليو يستقبل سوكارنو رئيس جمهورية أندونيسيا فى القاهرة . ولكن الغرب لاحظ أيضا أن ديمترى شبييلوف المراسل الخاص لصحيفة برافدا السوفييتية كان حاضرا استقبالا للزعيم لاندونيسى وهو مع كبار الضيوف على منصة الشرف .

صفة الاسلحة التشيكية :

لم تخف اسرائيل رد فعلها عندما تم التوقيع على اتفاق الجلاء بين مصر وانكلترا فى عام ١٩٥٤ . وقد رئيس وزراها ان هذا الاتفاق يعنى ، التخلي عن اسرائيل لتواجه قدرها ومصيرها ، وكان هذا الجانب من تفكير اسرائيل فى غاية الوضوح فلقد تعهدت بريطانيا ومعها فرنسا وأمريكا - بموجب البيان الثلاثى ، أن تكون ضامنة للوضع الراهن بين العرب واسرائيل ، كما أقرنه اتفاقات الهدنة . وقد تفرز الآن أن تسحب القوات العسكرية الرئيسية الوحيدة التى تملكها احدى الدول الثلاث من الشرق الاوسط فى غضون عامين . يضاف الى هذا أن سحب القوات سينم عن المنطقة التى تفصل ارض مصر ذاتها عن المشارف الغربية لاسرائيل فى صحراء سيناء . فماذا يفعل قادة اسرائيل ؟ وماذا يحسم عليهم أن يتخذوا من قرارات أو يضعوا من بيانات بالاضافة الى لغة الاحتجاج العلنى ؟

ولم يوضح ارتكاس اسرائيل الفعلى لهذا الاتفاق . لذى سيصبح سارى المفعول اعتبارا من عام ١٩٥٦ ، قبل انقضاء عدة أشهر على توقيعه فلقد وقعت عدة حوادث ، وكان بعضها ضخما كل الضخامة ، واحتل العناوين البارزة للصفحات الاولى من صحف العالم ، ولكن هذه الحوادث لم توح بالصورة الحقيقية . ولكن هناك صورة حقيقية فعلا ؟ سنحاول فى فصل لاحق الرد على هذا السؤال أما فى الوقت الحاضر فانى أرى أن أكتفى بتدوين الحقائق كما هى .

كان موسى شاريت رئيسا لوزراء اسرائيل فى عام ١٩٥٤ وهو صهيونى حتما ولكنه يتميز بالواقعية بصورة عامة . وهو يؤمن أن على اسرائيل أن تتجنب الاستفزاز ، وأن تحاول ، بقدر ما تسمح لها أهدافها

تهدئة مخاوف العرب وتلطيف نكمتهم . وكان بن غوريون ، الداعية المشائس لمدسة الصهيونية العدوانية قد انسحب من الحكم فى ديسمبر (كانون الأول) ١٩٥٣ ، ومضى الى بيته فى احدى المستعمرات الواقعة فى مثلث النقب .

وكانت الحدود المصرية - الاسرائيلية قد عاشت فترة هدوء نسبى مدة من الزمن ، باستثناء بعض المشكلات التى كانت تنجم عن عبور اللاجئين الفلسطينيين من قطاع غزة الى أراضيهم الواقعة وراء الحدود . وقد ظل التوتر السياسى سائدا الحدود مدة طويلة ، ولكن بعض المراقبين الاسرائيليين ، وهم من خارج نطاق حلقة بن غوريون ، اعتقدوا - وكان ذلك فى مطلع عام ١٩٥٤ - ان الزعيم المصرى على الرغم من مشاعره العدائية لاسرائيل ، لا يريد الحرب ، وأن فى وسعهم أن يأملوا فى أن يكون أكثر الشخصيات العربية واقعية . وسرعان ما اتضح لهم أن مصر وبريطانيا باتا على وشك التوقيع على اتفاق الجلاء عن منطقة قناة السويس ، وأن التوقيع تم بالأحرف الأولى بالفعل فى نهاية يوليو ١٩٥٤ .

ووقع الآن حادثان ، يعتبران ثمرة من ثمار النزاع العربى الاسرائيلى . فلقد أعلنت القاهرة عن اكتشاف شبكة جاسوسية صهيونية كما وضعت الحكومة المصرية يدها على الباخرة الاسرائيلية « بات جاليم » التى كانت تحاول المرور عبر قناة السويس . وجاء اعلان القاهرة عن الحادث الاول ، يقول ان الجواسيس الاسرائيليين ، حاولوا . ووضعوا الخطط لمحاولات جديدة لتخريب الابنية الامريكية والبريطانية فى مصر . (وثبتت المحاولات بعد اكتشاف فضيحة لافون المشهورة فى اسرائيل) ولكن وجهة النظر الغربية استبعدت صحة هذه المحاولات ، كما انها اعتبرت مصادرة مصر للباخرة الاسرائيلية ، مثلاً آخر من أمثلة الحصار الذى يفرضه العرب على اسرائيل ، والسذى لم يكن الغرب يستسيغه بصفة عامة .

ولكن بعد انقضاء ستة سنوات ، أى فى عام ١٩٦٠ ، اتضحت ، للصحافة الغربية بعض الحقائق المتعلقة بحوادث عام ١٩٥٤ ، وصدرت هذه الحقائق عن اسرائيل نفسها . وفى الصراع السرى الذى قام بين كبار الاسرائيليين المسئولين حول مادعى « بقضية لافون » ، وهو الذى كان يتولى وزارة الدفاع فى عام ١٩٥٤ ، سمحت الرقابة الاسرائيلية الصحفية فى عام ١٩٦٠ ، للمراسلين الاجانب بمجرد الاشارة الى « كارثة تتعلق بتدابير الامن فى عام ١٩٥٤ » ، ثم الى « كارثتين أخريين تتعلقان بالامن أيضاً » . ولكن تدابير الرقابة لم تحل دون تسرب بعض الحقائق الجوهرية . وكانت احدى هذه الحقائق القول بأن « كارثة الأمن » هذه لم تكن الافشل جماعة من الجواسيس الاسرائيليين فى اعداد المؤامرة الهادفة الى قيام عمليات تخريبية ضد المباني الامريكية والبريطانية فى مصر والقاء تبعاتها على المصريين ، وأدى الفشل الى اعتقال أفراد الجماعة .

ولست أشك فى أنه عندما تتوافر معلومات أخرى عن أحداث ذلك

العام أو تكشف بصورة رسمية ، أو قيام الدليل على صحتها ، فإن
الرأى العام الغربى سيعرف أيضا أن « قضية لافون » انطوت كذلك على
مرار بإيفاد الباخرة بات جاليم الى قناة السويس ، وهى الباخرة الاولى
التي تملكها اسرائيل والتي كانت محاولتها أول ما جرى لعبور القناة
منذ عام ١٩٤٩ . وكانت مصادرتها أمرا متوقعا كل التوقع .

وقد اكتفيت فى هذه المرحلة فى الكتاب بتدوين هذين الحادثين اللذين
وقعا فى خريف عام ١٩٥٤ . لأرفقهما بالسؤال الواضح . . ترى ما
الذى دفع بإسرائيل الى اتخاذ مثل هذه القرارات ؟ وما الذى قصده من
عده الحملة المتجددة ، المتزايدة لايذاء العلاقات بين مصر والدول الغربية
ولم يكده يحف النداد الذى استخدم فى التوقيع بالإحرف «الاولى على اتفاق
الجلاء» .

وبدأت حملة عبد الناصر على حلف بغداد فى يناير عام ١٩٥٥ .
يسرعان « الهيئت الشرق الاوسط الغربى بكامله » وفجأة ، خرج دافيد
بن غوريون من عزلته فى السابع عشر من فبراير عام ١٩٥٥ . وتسلم
رمام وزارة الدفاع الاسرائيلية خلفا للافون . ولم يمض أحد عشر يوما
على هذا التطور ، حتى كانت وحدات من الجيش النظامى الاسرائيلى
تخترق حدود الهدنة فى قطاع غزة ، طبقا لحطة عسكرية منظمة استخدمت
عنها الاسلحة الثقيلة ، وتهاجم القطاع ، فتقتل ثمانية وثلاثين من المصريين
وتصيب بجراح واحد وثلاثين آخرين . وكان هذا الهجوم أشد ما وقع
منذ عام ١٩٤٩ على الحدود المصرية - الاسرائيلية . وبررت اسرائيل
رسميا هجومها هذا بأنه عمل ثأرى لما وقع مؤخرا من غارات على اسرائيل
من قطاع غزة . لكن هذه المبررات المزعومة ظلت مفتقرة الى تأييد تقارير
الامم المتحدة ، وتقارير المخابرات الامريكية الموثوقة ، وتحليلات الصحافة
الغربية التى يمكن الركون اليها ، وكلها أكدت عدم وقوع أية زيادة مهمة
فى الغارات على اسرائيل (١) .

وتحولت بين عشية وضحاها ، خطوط الهدنة البعيدة نسبيا وسط
رمال سيناء ، فى أعين أبناء الدلتا فى مصر ، الى أماكن تقع على الابواب
الخلفية لبلادهم . وكانت غارة غزة هزة عنيفة على صعيد تاريخى ضخيم
وعكست اشارة عبد الناصر اليها التى اقتبستها فى مستهل هذا الفصل
شعورا عربيا عاما ، طاغيا . وراح هو وزملاؤه يضاعفون من شدة البحث
الذى كان قد انقضى عليه الآن عامان عن الاسلحة الحديثة . وكانوا منذ عام
١٩٥٣ . يسعون للحصول على مثل هذه الاسلحة من الدول الغربية . ولكن
الغرب كان يقابل هذه الطلبات دائما بمطالب مقابلة ، وبتسويق ،
ومساومة على أساس « هذا مقابل ذاك » للحصول على الاهداف السوقية

(١) تقارير لجنة الهدنة المشتركة التابعة للامم المتحدة ، وشهادات
السفير الامريكى هنرى بايرون أمام الكونجرس فى يناير عام ١٩٥٧ ،
وبرارات مجلس الشيوخ فى دورته الخامسة والثمانين .

— المؤلف —

كمنظمة الدفاع عن الشرق الاوسط ، والاعتذارات المبررة بأن النوازل في التسليح بين العرب واسرائيل لا يسمح بتثنية مطالب المشنريات المصرية .

وعرض شواين لاي على عبد الناصر أثناء المؤتمر الاغريقي الاسيوى فى باندونج فى عام ١٩٥٥ أسلحة من الصين . ودارت فى شهر مايو محادثات تمهيدية مع الروس ، ولكن هذه المحادثات لم تؤد الى اتخاذ أية قرارات . وراح عبد الناصر ينذر السفير الامريكى فى يونيو ، بأنه اذا لم يبع الغرب الى مصر الأسلحة التى تحتاجها ، لتعد جيشها اعدادا عسريا ، ولتضمن الطاقة الدفاعية الكافية لمجابهة اعتداءات اسرائيل ، فانها ستجد نفسها مضطرة الى اللجوء الى الكتلة اسوفياتية للحصول على هذا السلاح . . وحصلت مصر فى صيف ذلك العام على اربعين دبابة من طراز « سنتوريون » من بريطانيا ، ولكنها شحنت الى مصر دون أن تكون معها طلقة واحدة من الذخيرة . وراحت بريطانيا تشحن أثر احتجاج مصر ، عشر قذائف لكل دبابة ، وهو عدد لا يكفى حتى لمجرد التجارب الاولى لاطلاق النار وتحديد الهدف .

وبينما كان البحث عن السلاح مستمرا على قدم وساق ، تقدم عبد الناصر باقتراحات محددة الى مراقبى الأمم المتحدة ، تهدف الى تخفيف حدة التوتر على خطوط الهدنة ، وقبل بعض الاقتراحات الأخرى التى قدمها رئيس هيئة الرقابة الدولية . ولكن اسرائيل رفضت هذه الاقتراحات كلها (١) وظلت حدة التوتر على الحدود فى التزايد والارتفاع باستمرار ووصل الغليان فى مصر ولا سيما فى أوساط الجيش وبين اللاجئين فى قطاع غزة حدودا خطيرة . واتخذ عبد الناصر قرارا خطيرا فى شهر أغسطس (آب) من العام نفسه لمواجهة هذه التحديات الاسرائيلية ، وليظهر لبن غوريون أن أرواح العرب عنده أثمن من أن يعرضها لخطر العدوان الاسرائيلى ، وأمر بتشكيل وحدات شبه عسكرية من الفدائيين ينضم اليها أبناء اللاجئين من قطاع غزة ويدربون على جميع اعمال الفدائيين من تدمير وتخريب للدخول الى اسرائيل فى مجموعات صغيرة وليس ثمة شك فى أن هذا القرار كان له كل ما يبرره . ولكننى أرى فيه مفجرا سياسيا يعطى لاسرائيل ذريعة دائمة للصراخ والعيول والشكوى الى العالم (٢) وكان

(١) تقارير لجنة الهدنة المشتركة فى ١١ ابريل عام ١٩٥٥ .

(٢) لا أدري تماما ما يقصده المؤلف من هذا المناقض الغريب . فهو يحاول من ناحية ابراز صفة « الشرعية » فى تأليف فرق الفدائيين ولكنه من الناحية الأخرى يحمل ضمنا على تشكيلها واصفاها «بالمفجر السياسى» الذى يبرر لاسرائيل اعمالها الثأرية . ويبدو ان المؤلف قد نسى أن اسرائيل كانت دائما هى المعتدية ودون أى مبررات ، وأن الأمم المتحدة ، وفى طبيعتها دول الغرب كانت تفقد مكتوفة الايدي أمام عدوانها وأنه ثبت ان الوسيلة الوحيدة لمواجهة عدوانها هى اللجوء الى القوة لمقابلة القوة . - العرب -

الفدائيون بالطبع يفومون ببث الفزع والرعب داخل اسرائيل كما كانت الغزوات الاسرائيلية العسكرية والدموية تبث الرعب عند اللاجئين العرب الذين تهاجمهم وليس ثمة من شك في أن الاعمال الشاذية التي حاول الاسرائيليون تبرير عدوانهم بها ، والتي انطلقت تبريراتها على الغرب ، كانت قد بدأت قبل سنوات طويلة من تأليف وحدات الفدائيين . واختارت مدفعية اسرائيل يوم السوق الاسبوعية في غزة الذي تحشد فيه المدينة بالوافدين اليها ، لتقذف المدينة بقذائفها في الاول من سبتمبر مؤذية الى قتل أربعين من المدنيين .

وأعلن عبد الناصر في السابع من سبتمبر عام ١٩٥٥ عن وجود اتفاق سرى بين فرنسا واسرائيل ، لنزويد هذه بالاسلحة ، وأكد أن الشحنات الفرنسية الاخيرة الى اسرائيل تضمنت مائة دبابة فرنسية وعددا من مقاتلات « الميستير » الفرنسية النفاثة السريعة . وحاولت اسرائيل على الفوز أن تنفي هذه الأنباء ، كما وصفها الفرنسيون الرسميون بأنها « مجرد خيال » .

وقامت قوات اسرائيل في الواحد والعشرين من سبتمبر بغزو منطقة العوجة واحتلالها ، وهي منطقة مثله الشكل نص اتفاق هدنة عام ١٩٤٩ على بقائها مجردة من السلاح . ولهذه المنطقة أهمية خاصة إذ تمر بها جميع الطرق المفتاحية الرئيسية المؤدية الى قلب شبه جزيرة سيناء وادعت اسرائيل لنفسها الحق في السيادة على هذه المنطقة متحديه بذلك اتفاق الهدنة وقرارات مجلس الامن التي نصت على ابقاء المنطقة خارج نطاق السيطرة لاي من الفريقين ، ورفضت - أي اسرائيل - الاذعان لكافة الطلبات التي وجهتها اليها الامم المتحدة لسحب قواتها منها . ولقد أفادت اسرائيل من هذه المنطقة ذات الاهمية السوقية الكبيرة التي ظلت تحتلها تحت اسم الامم المتحدة وبصرها ، عندما شرعت بعد نحو من عام وخمسة أسابيع في هجومها على سيناء عبر الطرق الرئيسية الممتدة فيها .

وراح عبد الناصر يعلن في السابع والعشرين من سبتمبر اعلانه المؤثر بأن مصر بعد أن فشلت في الحصول على السلاح من الغرب ، ونظرا لمواجهتها خطر انسلح السرى الذي تقوم به اسرائيل ، عادت صفقة لشراء الاسلحة من تشيكوسلوفاكيا مقابل تزويدها بالقطن والارز المصريين .

وذكر عبد الناصر في النشال من أكتوبر أن المخابرات المصرية تمكنت من الوصول الى وثائق للمخابرات البريطانية والفرنسية تحسر النقاب عن كميات الاسلحة التي زودت فرنسا بهما اسرائيل ، وتعلن التقديرات البريطانية للموقف والمتلخصة في أن مصر لا تنشأ الحرب، وأن نيات اسرائيل غامضة كل الغموض . واعترف الناطق البريطاني الرسمي بهدوء بصحة هذه الوثائق (١) ولكن العالم لم يلق بالا لهذا الاعتراف .

(١) صحيفة التايمز عدد ٦ أكتوبر عام ١٩٥٥ .

وعادت قصة طائرات « الميستير » النفثة الفرنسية الى الظهور من جديد في السابع من أكتوبر ، عندما ذكر المحرر العسكري لصحيفة «التايمز» اللندنية أن اسرائيل قد تقدمت بطلبات فعلا الى فرنسا للحصول على هذه الطائرات . ونقل هانسون بلدين الى صحيفته « النيويوركر تايمز » في الجانب الآخر من الأطلسي ، نفس الانباء المتعلقة بهذه الطلبات . ولكن اسرائيل وفرنسا واصلتا النفي والانكار .

وعاد بن غوريون في الثاني من نوفمبر الى رئاسة الوزارة بعد ان ظل يشغل وزارة الدفاع طيلة تلك الاشهر الحرجة من عام ١٩٥٥ . وراح يعلن في الكنيست (البرلمان الاسرائيلي) ، في نفس ذلك اليوم أنه على استعداد للتفاوض من أجل الصلح مع أي زعيم عربي فورا . ولكنه في تلك الليلة نفسها ، أمر قواته النظامية ، بعد ان اعتقل مراقبي الهدنة الموجودين في المنطقة بمهاجمة الوحدات المصرية المرابطة وراء الحدود عند الصبح في غارة أخرى من الغارات العنيفة التي ألفها .

ونشرت مجلة « لايف » الامريكية في السابع من نوفمبر من نفس العام حديثا أجراه مراسلها مع الرئيس عبد الناصر ، في موضوع صفقة الاسلحة التشيكية . وقد ذكر الرئيس المصري في هذه المقابلة ان هناك شيئا واحدا مؤكدا وهو أنه لن يستخدم هذه الاسلحة في شن الحرب وأضاف أن مصر قد وقعت هذا الاتفاق مع تشيكوسلوفاكيا وهي لا تفكر في قوة اسرائيل كما هي الآن بل بقوتها بعد أن تصل اليها الاسلحة التي حددتها الصفقات السرية التي عقدتها مع فرنسا . وهكذا نرى عبد الناصر يعود من جديد الى تأكيد هذه الصفقة السرية ، ولكن العالم ، وقد أثارت صفقة الاسلحة التي عقدتها مصر مع تشيكوسلوفاكيا ، لم يأبه بهذا التحذير الجديد الذي وجهه الرئيس جمال عبدالناصر ، واكتفت التعليقات الغريبة التي صدرت آنذاك بوصف اقواله على أنها مجرد «اختلاق» .

ولكن الرئيس عبدالناصر لم يكن يخلق أبدا ، فقد سلم الى مراسل « لايف » ، (Life) قائمة بهذه الاسلحة الفرنسية التي ستسلم الى اسرائيل أو التي كانت في طريق التسليم . انها تضم ٧٠ طائرة نفثة من طراز ميستير ومائة دبابة ، ومائة مدفع ثقيل من عيار (١٥٥) ملمترا ، ومائة وخمسين مدفعا مضادا للدبابات من عيار (٧٥) ملمترا ومن الطراز السريع الحركة .

هل كانت كل هذه الارقام مجرد اختلاقات ؟ وهل فرض عرفان مصر بوجود صفقة سرية للأسلحة بين فرنسا واسرائيل ، عليها عقد صفقتها مع تشيكوسلوفاكيا أو أن الامر هو العكس تماما ؟ هذه أسئلة ظلت تراود مخيلة الكثيرين ، ولكن عندما أصبح أمر الاسلحة الفرنسية في حوزة سيناء في أواخر عام ١٩٥٦ معروفا ، وتولى بعض المراقبين الموثوق بهم فحص تفاصيلها تبين أن هذه التفاصيل تتفق تمام الاتفاق ، في أرقامها وفي أنواعها ، وأشكالها مع التفاصيل التي قدمها عبد الناصر الى مراسل « لايف » في عام ١٩٥٥ .

الالتزامات بين مصر والكتلة السوفياتية :

ليس ثمة من ريب في أن صفقة الأسلحة التشيكية ، كانت نصرا دعائيا ضخما للاتحاد السوفياتي . ولم تتمكن الدول الغربية من الحيلولة دون تحقيقه . وكان السؤال المباشر مثل أمام الخواطر فور عقد الصفقة هو . . . ترى ما الذي ترمز اليه هذه الصفقة بالنسبة الى ميول عبد الناصر السياسية ؟ فهل تعنى هذه الصفقة التزاما يضع مصر تحت رحمة الضغط السوفياتي عند ما يطيب لموسكو أن تبتز من مصر بعض التسهيلات والامتيازات ؟ وإذا كانت تعتبر نصرا دعائيا لدولة شيوعية كانت قد شرعت في « تشغيل » جهاز ارسال قوى للبث باللغة العربية فما الذي تستطيع الدول الغربية أن تفعله لمواجهة هذه الحملة الدعائية السوفياتية الواضحة والجديدة ؟ وما هو الخط الذي سلكه عبد الناصر في الحديث عن هذه الصفقة الى مواطنيه العرب ؟ .

وقبعت وراء هذه الاسئلة اقوية التي خلقتها صفقة الأسلحة التشيكية ، قضايا واسئلة أخرى أكثر اتساعا تتصل بالتزامات مصر الأخرى تجاه الكتلة السوفياتية وميولها نحوها في شئون التجارة والعون الاقتصادي . وكانت هذه الالتزامات والميول قد بدأت تماما على النحو الذي كان متوقعا منذ حدث التبدل التاريخي في موقف مصر كلها بعد ثورة عام ١٩٥٢ . فلقد ظل القطن أكثر من مائة عام ، عصب الاقتصاد المصري ودعامته ، يؤثر عليه بما يطرأ على أسعاره في الاسواق العالمية من تقلبات الارتفاع والهبوط . وعندما جاء العهد الجديد ، قرر أن يوسع دائرة التصدير وينوعها بحيث تعمل على ازالة هذا الخطر المصلت على اقتصاد البلاد كسيف ديموكليس ، من جراء تقلبات الأسعار ، ولكن تنفيذ هذه الخطوة يتطلب بعض الوقت ، الذي يجب أن تعنى فيه حكومة العهد الجديد ببيع انتاج القطن . وعندما حل عام ١٩٥٤ ، هبطت مشتريات بريطانيا من القطن المصري هبوطا حادا . وغمر فائض المحصول الأمريكي الاسواق الغربية كلها . ويرجع بعض السبب في المشكلة الى انعدام الثقة في الخارج في أسعار القطن المصري ، نتيجة فضيحة التلاعب بتثبيت أسعار القطن التي وقعت في عام ١٩٥١ ، أي قبل الثورة . أما السبب الأكبر والرئيسي فيها ، فهو أن الغرب بات عاجزا عن شراء ما يكفي من صادر مصر الوحيد إذ أن القطن كان يؤلف في تلك السنوات ثمانين في المائة من مجموع صادرات البلاد . وأصبح لزاما على مصر ، أن تبحث عن أسواق أخرى لتصريف قطنها . ومن هنا كانت البداية ، بداية المقايضة بالنقطن للحصول على سلع الكتلة السوفياتية وبينها الأسلحة التشيكية طبعاً .

ونجم قبول مصر للعون الاقتصادي من دول الكتلة السوفياتية عن دوافع مختلفة أخرى . وليس ثمة من ريب في أن أية حكومة أفريقية آسيوية محايدة ، تواجه أكثر الاحتمالات الاقتصادية الناشئة عن وجود شعب لديها يعاني من عض الجوع ونفاد الصبر ، شمو لا ، تنظر الى العون الاقتصادي الخارجي نظرة تختلف كل الاختلاف عن تلك التي تحفز الكونجرس الأمريكي على الاقتراع لرصد المخصصات لهذا العون . فلقد كان الحياديون . الافرو - آسيويون من طراز عبد الناصر ونهرو ، يعرفون

تتمام المعرفة أن معركة مكافحة الشيوعية - هي - في قرى بلادهم نفسها لا في قاعات الأمم المتحدة ، أو غرف التخطيط في واشنطن وموسكو التي تغمرها الحرائط أو على حدود الحرب الباردة بين السوفييات والغرب . وتتطلب المعركة في هذه القرى سرعة التنفيذ والبيت في الأمور كإقامة السدود وبناء المصانع وشق الطرق وتشبيد المستشفيات . وكان عبد الناصر يؤثر أن يحصل على العون في حملته هذه من الغرب . وقد أوضح هذا الايثار ايضاحا مطلقا المرة تلو المرة جهارا وبالسوائل الدبلوماسية . واعتقد أن نفس هذا الميل يصدق بالنسبة الى الهند أيضا .

ولكن كان هناك عامل آخر ، يزاحم باستمرار هذا الميل الغريزي الى تشديد العون من الغرب ، هو الميل الفطري عند المحايدين الآقرو - آسيويين الى عدم المغامرة بوضع كل ما للعون الخارجي الذي ينشدونه من « بيض » في سلة واحدة مخافة كسرها دفعة واحدة . فهناك قانون طبيعي في هذا الموضوع يتحكم فيه تحكما كاملا ، يقضى بأن ينمو هذا الحافز على أساس التناسب الطردى مع احساس هؤلاء المحايدين بما يتعرضون له من ضغط سياسي من هذا الجانب أو ذاك من المجموعتين الدوليتين الكبيرتين .

وقد وقع عبد الناصر في نوفمبر عام ١٩٥٤ ، اتفاقا ضخما للعون الاقتصادي مع الولايات المتحدة الأمريكية بقيمة أربعين مليونا من الدولارات ولم تكن واشنطن في ذلك الوقت ، أى قبل ظهور حلف بغداد أو وقوع غارة غزة تضغط على مصر ضغطا فعالا لحملها على الانضمام الى شبكة المستمر دالاس من أحلاف الحرب الباردة . فلقد كان دالاس يعمل على خلق « حزامه الشمالى » خارج نطاق الوطن العربى ، وكان نوري السعيد قد أكد لعبد الناصر وغيره من القادة العرب أنه لن يلزم العراق بأى شىء خارج نطاق الوطن العربى ولكن عند ما حلت نهائية عام ١٩٥٥ كان الوضع قد تبدل تبديلا جذريا من وجهة نظر القاهرة . فاقعد انهى ما دعاه عبد الناصر « بشهر العسل القصير » فى العلاقات المصرية - البريطانية بعد اتفاق الجلاء ، نهاية مفاجئة بظهور حلف بغداد . وأخذ عبد الناصر وغيره من القوميين العرب ، يرون منذ ذلك التاريخ حملة مستمرة ، متزايدة من الضغط تقوم بها الدول الغربية على الوطن العربى لالزامه بعقد معاهدات مع الغرب ، وبرز من جراء هذه الظروف وما رافقها من الناحية الأخرى من عروض سوفياتية قائمة لتقديم العون الاقتصادى غير المشروط ، حافز لتوسيع التزامات مصر فى موضوع المساعدات الاقتصادية . ووسعت حكومة البانديت نهرو فى الهند أيضا هذه الالتزامات ورحبت بما قدمته اليها الكتلة السوفياتية من عروض المساعدات غير المشروطة حال تقديمها . وكانت الهند قد أحست أيضا بشىء من الضغط الغربى فى الحرب الباردة فى عام ١٩٥٤ ، نتيجة برنامج العون العسكرى بين الباكستان والولايات المتحدة ، وما تبعه من إقامة شبكة للمعاهدات فى جنوب شرقى آسيا ، تخطت الهند كل النخطى ، لكن الاحساس بالضغط كان أقوى فى مصر والشرق الأوسط منه فى الهند ، فلم يكن ثمة هندى واحد يخشى عودة السيطرة البريطانية الى شبه القارة الهندية ومن سوء

المحظ ، أن مثل هذا الاحساس لم يكن قائما بالنسبة الى المخاوف العربية .
بالفرق في قضايا العون الاقتصادية كما في غيرها من القضايا ، بين المعاملة
التي تتبناها بريطانيا مع بلد كان مستعمرا لها ذات يوم ، ثم منحته
استقلاله وسيادته الكاملين ، المحترمين ، وبين تلك التي توجهها الى
محمياتها وانتداباتها السابقة في الشرق الاوسط العربي . كان واضحا
كل الوضوح وحاسما كل الحسم .

أما وقد ظهر هذا الاتجاه الى حيز الوجود ، فماذا كان من واجب
الغرب أن يفعل لمواجهة ؟ كان عليه أن يحافظ على ما للغرب من نصيب في
عون مصر الاقتصادي وتجارتها ، وأن يزيد من هذا النصيب أيضا .
إن لم يكن في القطن والخزف المصريين ، ففي سلع أخرى محتملة ، أما
وقد وضحت هذه الحقيقة أمام أعيننا ، فإن من الواجب علينا أن
نذكرها دائما عندما ندرس السياسة التي اتبعتها الغرب فعلا مع مصر
بعد عام ١٩٥٥ .

وكان على السلطات الغربية أيضا أن تدرس بامعان الالتزامات التي
كانت مصر تعقدها مع الكتلة السوفياتية وأن ترى دروب الضغط السياسي
التي فتحتها هذه الالتزامات أمام موسكو لتلج منها ، ولا ريب أن دراسة
صفقة الأسلحة النشيكية كانت في مقدمه هذه الدراسات التي توجب على
الغرب القيام بها ، وقد تجاهل الغرب في هذه الموجة العارمة من الغضب
والفرع التي أثارها الصفقة في نفوس رجالاته ، الاشتراطات الحفزة
والمندروسة التي ضمنها عبد الناصر صفقته هذه ، فقد اشترط أن يسلم
النشيكيون مع كل طائرة ودبابة ومدفع فورا ، ماتحتاج اليه هذه الأسلحة
من قطع غيار وذخيرة نكفيها لمدة خمس سنوات ، واشترط أيضا أن تسلم
هذه الأسلحة في شحنات ضخمة لا « مقننه في دفعات » ، على النحو الذي
سار عليه الغرب معه ، واشترط كذلك أن تباع لمصر مصانع كاملة لإنتاج
الذخائر الثقيلة ، وليس ثمة ما هو أوضح من الاهداف « المتبصرة » والحكيمة
القائمة وراء هذه الاشتراطات ، واتخذ عبد الناصر أيضا من الاجراءات
ما يضمن تدريب المصريين على هذه الأسلحة الحديثة في أوروبا الشرقية
حرصا منه على تفادي زيادة الخبراء الموجودين في مصر من أبناء الكتلة
الشرقية ، ولعل من المفارقات العجيبة أن عبد الناصر اعترف لخصائه بأن
العدوان الثلاثي على مصر ، بأن هذا الاسلوب الذي اتبعه في التدريب ،
قد أدى الى ابطائه مما أثر كثيرا على الوضع أيام حرب سيناء (١) .

ولا يمكن لمثل هذه الاشتراطات المتناهية في الحكمة والتعقل أن
تصدر عن انسان متهور لا يعرف المسؤولية أو عن « شيوعي مقنع » أو غير
ذلك من الأوصاف التي كان يلصقها المسئولون الغربيون بالرئيس عبد
الناصر ، وظل الرئيس عبد الناصر ، كما ظل رفاقه وأعوانه يعلنون للعرب

(١) لاشك في ان هذه الاشارة التي أوردها المؤلف على لسان سيادة
الرئيس عبد الناصر توضح بجلاء ما تميز به سيادته من صدق واخلاص
في سياسته الحيادية ، وما تميز به الغرب من خداع ومكر ، في علاقاته
الطويلة مع هذا القائد الصادق الصريح .

المعرب

فى كل مكان ، خطابا بعد خطاب ، واذاعة اثر اذاعة ، ان عون السكتله السوفياتية لايعنى الشيوعية مطلقا ، وان طريق القومية العربية يختلف تماما عن طريق الشيوعية ، وظل الحزب الشيوعى المصرى من الناحية الداخلية خاضعا لعين الرقابة الساهرة الشديدة ، وكثيرا ماأودعالمهيجون من قيادته السجن والمعتقلات ، ولم يكن عبد الناصر يختلف فى قوله لمبعوثى الغرب وممثلى صحافته عن حقيقة اتجاهه هذا ، فلقد أفضى لندوب الاوبزرفر فى مارس عام ١٩٥٦ وكان غليان الغرب يزداد حدة بما نصه :

«سيختلف شكل الحرب منذ اليوم كل الاختلاف ، فستدور معاركها على الجبهة انداخلية ، وسنلجأ فى هذه المنطقة الى استخدام القومية سلاحا قويا لها . وليس ثمة من خطر فى الشيوعية الا عندما تستطيع استغلال مشاعر الجماهير الوطنية . ولكننا تمكنا من انتزاع الدور القيادى منها فى هذا الميدان .

« أما اذا «نهارت الجبهة الداخلية ، فلن يكون « للحزام الشمالى » أية قيمة . . وليس ثمة من ريب فى أن هذه الجبهة الداخلية هى التى تتولى وحدها حماية المصالح الأصلية المشروعة لا للعرب وحدهم بل لبريطانيا أيضا ، وهذا هو السبب الذى يحتم أن تكون العرب،منظمتهم الاقليمية الخاصة بهم ، وأن تتركز سياستهم على تقوية ميثاق الضمان الجماعى العربى » (١) .

ووصلت الامور بعد نحو من ثمانية أشهر الى عقدة ، حاولت الحكومة البريطانية أن تحلها عن طريق اقناع برلمانها وشعبها بأن الرئيس عبد الناصر قد عقد اتفاقا سريا مع السوفيات يسمح لهم بموجبه أن يجعلوا من شبه جزيرة سيناء ترسانة ضخمة لاسلحتهم وقاعدة لعدوانهم .

ولم تكن القضية اجبار الدول الغربية على تقبل تحليل عبد الناصر لحقيقة الخطر الشيوعى ، على النحو الذى واصل عرضه باستمرار طيلة أعوام ١٩٥٣ و ١٩٥٤ و ١٩٥٥ و ١٩٥٦ ، ولكن القضية كانت فى الموقف الذى كان يتحتم على الغرب أن يتخذه وفى السياسة التى كان من الواجب عليه أن يسير فيها للحفاظ على مصالحه فى المنطقة ، اذا صح أن عبد الناصر يحمل هذه الآراء التى يدافع عنها والتى يؤيدها غيره من قادة العرب فى حالة تمكن الاتحاد السوفياتى من فتح منفذ له الى الوطن العربى عن طريق الاتجار وحملات العون الاقتصادى ، فكيف يمكن لمثل هذا الهدف الغربى أن يتحقق أو يجد عونا له ، اذا كان الغرب يصر على وصف عبد الناصر والحركة التى يمثلها ويقودها « بالتشيع للشيوعية » أو بالتبعية لها ؟

(١) مجلة الاوبزرفر عدد ٢٤ مارس ١٩٥٦ ، راجع أيضا المقابلة الصحفية للرئيس عبد الناصر مع مراسل «النيويورك تايمز» بتاريخ الثانى من ابريل عام ١٩٥٦ حيث قال : «لم يعد الشيوعيون المصريون يؤلفون خطرا علينا ، فالخطر الشيوعى الداخلى أقوى فى بعض البلاد العربية وفى طليعتها العراق التى عقدت معها ميثاقا دفاعيا ضد الشيوعية» .

وهل كان من الحكمة فى شىء أن نواجه تأييد السوفيات لسياسة الحياد العربية ، وعروض السوفيات اللامشروطة للعون الاقتصـادى ، بالتهجمات الغربية على الحياد العربى وبالمحاولات الغربية لتحطيم هذا الحياد عن طريق الموائيق الجديدة وتقديم العون الغربى المصحوب بالشروط القاسية ؟ .

وكان نمة أخيرا عامل آخر حيوى وهام للغاية ، فى حاجة الى أن نزنه على ضوء ردود العمل الخطيرة التى صدرت عن الغرب لصفقة الاسلحة التشيكية ولغيرها من الالتزامات بين مصر والكتلة السوفياتية ، ويتلخص هذا العامل فى التساؤل عما اذا كان فى مكنة حكومات كحكومة عبد الناصر ، أن تصمد لأية مطالب سوفياتية مباغتة سعيا وراء الحصول على تساهلات أو امتيازات ، اذا دعمت هذه المطالب بالنهـدبد بوقف فيض العون الاقتصـادى اليها ؟ لقد كان الهدف السوفياتى من فتح هذه الجبهة الجديدة فى الحرب الباردة كسب الاصدقاء والتأثير على الناس ، ولا سيما اذا كانوا من أهل المنطقة غير الملتزمة فى افريقية وآسيا ويجعل هذا الهدف السوفياتى من الحكومات الوطنية المحايدة ، أقل أهمية ، وبالتالي أقل تعرضا لمثل هذا الضغط ، اذ أنها كأهداف فردية أقل شأنًا من أن تعرض السياسة السوفياتية صداقتها لجمهير الشعوب والفئات المثقفة فى هذه البلاد نفسها الى الضياع من جراء هذا الضغط ، فالاحتـاد السوفياتى يعرف أن هذه المعركة تنطوى على شىء من التقليد والمحاكاة . فاذا قبلت الهند العون السوفياتى مثلاً ، فان أى نظام حاكم فى بورما ، يكون أكثر استعدادا وثقة بنفسه عندما يقبل مثل هذا العون ، واذا قبلت مصر عون السوفيات فان سيورية الشديدة الحساسية ستصبح حتما مهتمة بمثل هذا العون ، وهكذا دواليك .

وكان التسلسل المتماثل واضحا كل الوضوح ، وقد وجد مند اللحظة الاولى التى عقد فيها الاتحاد السوفياتى أول اتفاق للعون الاقتصـادى مع أول دولة افريقية - آسيوية . ولو حاولت موسكو أن تفرض ضغطا سياسيا على أية حكومة وطنية لاشيوعية ، فانها بعملها هذا تهوى بكل حملتها الى الكارثة ، ولو واجبه أى زعيم كعبد الناصر أى طلب ينطوى على الضغط ، كالاصرار على اطلاق سراح الشيوعيين المحليين أو منح القواعد للاتحاد السوفياتى مثلا فان فى وسع هذا الزعيم أن يستدير الى السفير السوفياتى الذى وجه اليه مثل هذا الطلب ، وأن ينذره بأنه سيعلم على العالم أن الاتحاد السوفياتى يفرض اشتراطات معينة لمعونته ، وأنه يريد أن يجعل من هذه المعونة حصان طروادة ، الذى يتسلل عن طريقه الى أهداف أخرى . وقد تنشـب معركة كلامية ومشادة بعد هذا الموقف ، وليس ثمة من شك فى الجانب الذى سيصدقـه العرب وبالتالي بقية الافريقيين الآسيويين فى هذه المشادة العنيفة .

وكان عبد الناصر يعرف بأن هذا السلاح المضاد ، متوافر له ، ولا ريب فى أن نهرو لم يكن يقل عنه ادراكا لهذه الحقيقة . وقد اتكل عبد الناصر على هذا السلاح فى مستهل عام ١٩٥٩ ، عندما برز الهجوم

الشيوعى من الداخل فلم يتوان عن مهاجمة الشيوعية الدولية ، ومهاجمة المستر خروشوف بالذات . وعندما اتخذ عبد الناصر هذا الموقف ، لم يكن المداد قد جف بعد على توقيع اتفاق ضخيم ، يمنح قرضا سوفياتيا كبيرا لمشروع السد العالى . وعندما كنت اضع كتابي هذا ، لم يكن المستر خروشوف قد أوقف هذا القرض أو أى اتفاق آخر يتعلق بمعونة الاتحاد السوفياتى الى الجمهورية العربية المتحدة .

ولم يكن فى الامكان ، فى خضم هذا الغليان الذى أثارته صفقة الاسلحة التشيكية فى اكتوبر ونوفمبر عام ١٩٥٥ ، أن تبرز مثل هذه الاعتبارات الحكيمة الحذرة ، فى كتابات واضعى الفتاوى الضخمة أو محررى صحف الغرب ذات الانتشار الواسع . والسؤال الذى يبرز الآن هو لم تقاعس هؤلاء عن «توعية» وجهات نظر الغرب الرسمية وما لحق بها من سياسات بهذه الحقائق ؟ . ولعل الحقيقة الواقعة وهى أن هذه الاعتبارات والحسابات التى لم تخطر فى بال ايدن ودالاس ومستشاريهما راجعة الى حد ما الى ما لحق بكرتنا الثلجية المجازية التى أطلقناها ، من تبدد وتفتت قبل وصولها الى هدفها . وقد قدر للدليل الصحيح أن يبرز فوراً فى نوفمبر وديسمبر من عام ١٩٥٥ فى صورة سلسلة من الاعمال التى لم يقدر لها أن تكون موضع الدرس والتسجيل الا لماما . ولا ريب فى أن انشاء حلف بغداد ، والفارة الاسرائيلية على غزة ، وصفقة الاسلحة التشيكية ، تؤلف أحداثا هامة فى التواريخ الصحيحة للشرق الاوسط فى عام ١٩٥٥ ، وأضواء انذارية حمراء ، لفتت أنظار الرئيس عبد الناصر ورفاقه من ناحية ، وأنظار الغرب من الناحية الاخرى . وأرى لزاما على أن انتقل الآن ، الى حادث هام آخر ، أو الى ضوء أحمر ثان ظل خفيا عن العيان مسدة طويلة ، وإن كان قد وقع فى عام ١٩٥٥ ، وقدر له أن يترك أثارا عميقة كل العمق .

جيلدهول ومهمة تمبلر :

توافرت الأدلة فى الأسابيع التى تلت الثورة التى أحدثتها صفقة الاسلحة التشيكية فى كل من واشنطن ولندن ، على أن أيا من الحكومتين لم تكن تفكر بأن عبد الناصر قد قرر محاربة اسرائيل ، وأن كلام الحكومتين ، قد انتابهما القلق فعلا من أن اسرائيل تعد عدتها سائرا نحو الحرب . (١) وفرض النصر المعنوى الجديد الذى حققته روسيا على كل من الدولتين الفسريبتين أن تقوما بمحاولة أخرى للرد عليه وتخفيف حدة اثره . وراح السير أنطونى ايدن ، نتيجة هذا الشعور يبدل محاولة ضخمة أخرى للتقرب الى الرئيس عبد الناصر .

وقد اتضح جانب من هذه المبادرة الجديدة عندما وصل وزير مالية مصر الى لندن فى شهر نوفمبر سعيا وراء الحصول على عون مالى

(١) عدد النيويورك تايمز فى الثانى من نوفمبر عام ١٩٥٥ ، الذى نقل أن السفير الأمريكى فى القاهرة أبلغ حكومته بعدم وجود أية نيات حربية عند مصر .
- المؤلف -

لتنفيذ مشروع السد العالي في أسوان . وكان من المعروف أن
سفير روسيا في القاهرة قد عرض على مصر ، تزويدها بالمعدات اللازمة
لبناء السد . وسارت محادثات الدكتور القيسوني في كل من لندن
وواشنطن سرا هينا ، مما أدى الى بدء المفاوضات الرسمية مع البنك
الدولى لتمويل المشروع ، بعد أن تلقت إدارة البنك إشارة الرضى من
والاس وايدن .

واتضح الجانب الآخر فى مطلع شهر نوفمبر من مبادرة ايدن . فقد
شرع السفير البريطانى فى القاهرة فى زيارة الرئيس عبد الناصر
زيارات طويلة ، وقد تمكن من مقابلة الرئيس المصرى فى السابع والثامن
من نوفمبر أربع مرات فى مناسبات مختلفة .

وأعلن ايدن فى التاسع من نوفمبر فى الخطاب التقليدى الذى يلقيه
رئيس الوزراء عادة فى جيلدهول ، بيانا سياسيا هاما عن الصراع
العربى - الاسرائيلى . وكانت زبدة الخطاب أن على الجانبين أن يشرعا
فى مفاوضات جدية للوصول الى تفاهم حول المطالب الإقليمية لكل
منهما ، إذ أن العرب يقيمون مطالبهم على أساس مشروع تقسيم عام
١٩٤٧ للأمم المتحدة بينما تطالب إسرائيل أن تكون خطوط الهدنة
« الواقعية » لعام ١٩٤٩ هى أساس المفاوضات . وراح ايدن يوضح
على الفور ثمار أية محادثات تمهيدية بين مصر وبريطانيا حول هذا
الموضوع .

وأعلن عبد الناصر ، أن خطاب ايدن يعرض « أساسا صالحا »
للمفاوضات واتخذت صحافة القاهرة نفس هذا الخط فى تعليقاتها .
وسارت التعليقات الرسمية فى العواصم العربية الأخرى فى نفس
الاتجاه ، فلقد تشاور معها عبد الناصر مقدما . ووجد الأمين العام
للجامعة العربية فى نفسه الجراءة ، وهو فى أمريكا لكى يقترح مبادرة
لجنة التوفيق الدولية الى العمل فورا ، بعد أن طال سباتها . وأعلن
عبد الناصر فى بيان آخر ، أن على الأمم المتحدة أن تقوم بدور الوسيط
فورا . وراح يذكر لندوب الأوبزرفر فى مقابلة صحفية ، أن للعرب
مطلبان أساسيان ، وهو استعادة الاتصال البرى بين مصر والمشرق العربى ،
أى استعادة منطقة النقب التى تستولى عليها إسرائيل .

وكانت فترة من أهم الفترات وأبرزها ، ولم يقلل من أهميتها
مبادرة إسرائيل الفورية ، والضجة العالمية التى أحدثتها ، ضد
اقتراحات ايدن . وقد نجمت الأهمية عن الحقيقة الواقعة وهى أن
نوفمبر عام ١٩٥٥ لم يكن بأى حال من الأحوال لحظة مواتية للترحيب
باقتراح يقدمه رئيس وزراء بريطانى بأن يلتقى العرب مع إسرائيل فى
نصف الطريق بصدد الأوضاع الإقليمية . . ولم يكن من المأمون منذ
عام ١٩٤٩ ، لأى زعيم عربى ، بأن يشرع فى محادثات للصلح مع إسرائيل ،
لا سيما اذا جاءت المبادرة من إحدى الدول الكبرى الموصومة أمام العرب
بأنها هى التى عملت على خلق إسرائيل . يضاف الى هذا أن التوتر بين
العرب وإسرائيل كان قد استمر فى التزايد منذ وقوع الفارة على غزة .

وكان العرب قد هللوا لصفقة الأسلحة التشيكية ، يحدوهم الأمل

انقوى بدنو يوم الحساب النهائى مع الصهيونية . وكان جل ما فى استطاعة العرب أن يقولوه فى تلك اللحظة حتى ولو كانوا فى أحسن حالاتهم وأمزجتهم ، بأنه اذا كان ولا بد من المفاوضات ، فان هذه المفاوضات يجب أن تجرى فى الوقت الذى يختارونه هم وطبقا للشروط التى يضعونها .

وقد اتخذ الرئيس عبد الناصر هذا الموقف على ضوء اعتبارين : أولهما أنه لا يريد الحرب بعد مع إسرائيل ، إذ أنه لم يكن قد استكمل استعداداته لها ، وكان يأمل فى أن يؤدى الضغط البريطانى الى وقف إسرائيل عن التفكير فى أى عدوان جديد . وثانيهما أنه تلقى تأكيدات ايجابية قاطعة من السفير البريطانى إبان محادثتهما قبيل خطاب أيدن فى جيلدهول بأن بريطانيا ستعمل على « تجميد » حلف بغداد فى المكان الذى يقف فيه ، وكان هذا أمرا هاما لمصر إذ أن سياسة بريطانيا السوقية (الاستراتيجية) كانت متصلة ، فى رأى العرب ، أوثق الاتصال بتاريخ القضية الفلسطينية

وكانت الشكوك تغمر الشرق الاوسط طيلة عام ١٩٥٥ ، بأن حلف بغداد ليس الا أداة جديدة من أدوات الضغط الغربى على العرب لارغامهم على عقد الصلح مع إسرائيل . يضاف الى هذا أن الشكوك كانت قائمة فى أن « جلوب الاردن » قد ينضم الى الحلف ، وأن الاردن نفسه كان يؤلف فى عقل العربى قبل كل شىء حلقة اتصال بين الخطط السوقية البريطانية وبين فلسطين . وكان الافتراض الاساسى أن بريطانيا ، وهى المسيطرة على شرق الاردن ، قد كبحت جماح الجيش العربى الاردنى فى حرب عام ١٩٤٨ وأنها قد رتبت الأمر ، آنذاك ، على تسليم أراضى الضفة الغربية الى إسرائيل قبيل هدنة عام ١٩٤٩ .

وكان البيان الواضح الذى تلقاه عبد الناصر بأن حلف بغداد سيجمد ؛ ولن يوسع ليشمل بلادا عربية أخرى ، هو الذى حمله على الترحيب علنا بخطاب أيدن فى جيلدهول فى أواسط نوفمبر عام ١٩٥٥ . ولكن مبادرة أيدن ما لبثت أن تهاوت ، وتداعت على الفور . فلقد تقاعست واشنطن عن تأييدها ، إذ أن صهيونىي أمريكا فى ذلك الحين قاموا بحملة ضخمة لجمع الأموال وضممان السلاح والتأييد لإسرائيل . وتعرض أيدن فى مجلس العموم البريطانى نفسه لهجمات أنصار إسرائيل من أعضاء المجلس ، الذين حملوا على اقتراحه الخاص بأن تتنازل إسرائيل عن بعض الاراضى للعرب . ولم يتوان السير انطونى فى التراجع عن موقفه . وفشل من جديد اقتراح غربى آخر عن فلسطين ، كما فشل من قبل كل اقتراح يقضى بأن تتنازل إسرائيل عن بعض ما اغتصبته .

ولكن بينما كان السفير البريطانى فى القاهرة يقابل الرئيس عبد الناصر وينقل اليه تأكيدات أيدن « بتجميد » حلف بغداد ، كانت الحكومة الاردنية فى الوقت نفسه بعلم السفارة البريطانية الكامل فى عاصمتها وبتأييدها ، تفاوض الرئيس التركى جلال بايار ، الذى يقوم بزيارتها ، فى موضوع اشتراك الاردن فى الحلف المذكور . وألقى أيدن

خطابه في جيلد هول في التاسع من نوفمبر ، وسلمت الحكومة الاردنية في السادس عشر منه الى السفير البريطاني في عمان اقتراحاتها الرسمية الخاصة باشتراكها في عضوية الحلف . وكان تأييد عبد الناصر لخطاب جيلد هول ، قد انتشر اiban ذلك ، أوسع انتشاراً ، في أرجاء الوطن العربي . وعقد مجلس الحلف اجتماعه في الواحد والعشرين من نوفمبر ولم يمض أسبوعان حتى كان الفريق السير جيرالد تمبلر رئيس هيئة أركان حرب الامبراطورية ، يصل الى الأردن ، وسرعان ما أعلن أنه جاء الى العاصمة الاردنية لبحث مع حكومتها موضوع انضمام الاردن الى حلف بغداد

وعندما وصلت هذه الأنباء الى القاهرة ، أذهلت الدهشة الرئيس عبد الناصر من هذه الخدعة البريطانية الجديدة وغضب لها غضباً شديداً . وشرعت مصر في حملة فورية وشاملة ضد مهمة تمبلر ، وتفجر الاردن نفسه في ثورة غاضبة من الاحتجاج . وليس ثمة من شك في أن مصر كانت ستعارض بعثة تمبلر سواء أكان ايدن قد قطع على نفسه عهداً في موضوع حلف بغداد أم لم يقطعها ، ولكن الوعود التي حثت بها ايدن ، حملت عبد الناصر على التوصل الى استنتاجات أساسية معينة . . وكان لا بد من أن ينفجر الاردن أيضاً في احتجاج غاضب ضد تمبلر وبعثته وضد حلف بغداد ، حتى ولو ظلت اذاعة القاهرة صامتة ، وهو أمر ما لبث أن اعترفت به الصحف المصرية المحافظة . (١) وكانت الانتخابات قد زيفت في الاردن كما زيفت في العراق في عام ١٩٥٤ ، لضمان قيام حكومة تمثل العهد القديم ، تتولى تأييد الارتباط مع بريطانيا ، وتخفت العواطف الحيادية القومية التي تسيطر على غالبية الشعب الاردني . ولكن بعثة تمبلر ومهمته كانتا أكبر من أن يسكت عليها الشعب رغم كل هذه الاحتياطات . واتضح في منتصف شهر يناير عام ١٩٥٦ ، أن ليس في وسع أية حكومة أردنية أن تشرك البلاد في حلف بغداد . وأنحى الغرب باللامه على مصر . وظهر عبد الناصر الآن أمام جميع العرب ، الزعيم الذي كانوا ينشدون ظهوره منذ أمد بعيد . وسارعت كرة الثلج (يعني علاقات الغرب بالعرب) في سيرها نحو الهاوية .

ولم يكد غضب المملكة الصغيرة ، يخبو ، قليلاً حتى أخذ الموظفون البريطانيون يعترفون في أحاديثهم الخاصة ، بأن بعثة تمبلر كانت خطأ فاحشاً ، ارتكب في الاردن . ولكن هذا الخطأ كان هائلاً أيضاً بالنسبة لمصر . ورأى فيه الرئيس عبد الناصر ، مثلاً آخر من أمثلة الخداع المتعمد المقصود ، جرياً على مألوف البريطانيين الذين اتهم سياستهم بأنهم « يخرجون من الباب الامامي ليحاولوا العودة الى المنطقة من نافذتها الخلفية » . وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي وثق فيها الرئيس المصري بايدن (٢) . كما كانت على الغالب المرة الأخيرة التي رضى فيها أن يدرس اقتراحاً يقدمه الغرب في موضوع فلسطين . وكانت تفاهة

(١) الايكونومست عدد ١٢ يناير ١٩٥٧

(٢) من حديث الى الاوبزرفر في ٢٤ مارس ١٩٥٦ .

المهمة التي قام بها تمبلر بالنسبة الى المصالح البريطانية ، ومكانة الرجل العسكرية قد دفعت عبد الناصر وغيره من القادة العرب الى الشك شكاً عميقاً بأن ايدن كان يحاول حقاً الحصول على شيء آخر في فلسطين . ومن المؤكد أن ايدن ، كان يحاول أن يخدع الرئيس عبد الناصر ، وأن يدفع به الى موقف فيه بعض الحرج والخطورة . (١)

تري ما الذي كان يريده ايدن ؟ فحتى هذه الأشهر الحرجة ، كانت بريطانيا تتجاهل الحوادث الطفيفة المعزولة ، وتنظر الى الاتهامات المصرية على أنها مجرد اختلاقات دعائية . وكان من بين هذه الادعاءات أن ايدن ونورى السعيد كانا يخططان للاستيلاء على الاردن وتقسيمه بين العراق واسرائيل . وبدأت التهمة غريبة خيالية في ذلك الحين ، ولكن ما لبث ايدن أن اعترف في مذكراته بأنه قدم طلباً الى نورى السعيد بأن يوفد بعض القوات العراقية بالطائرات الى الاردن .

ولكن هذه التهمة الغريبة ما لبثت أن عادت الى الظهور ثانية في عام ١٩٥٦ . ولم تكن القاهرة وحدها هي التي أثارتها هذه المرة ، بل باتت جزءاً من الاتهامات المحددة التي وجهها الى ايدن ، وزير خارجية الولايات المتحدة الامريكية .

مارس : جلوب ، لويد ، بينو :

وتميز شهر مارس عام ١٩٥٦ أيضاً بما وقع فيه من تدهور جديد في الموقف . واعلن المستر يوجين بلاك محافظ البنك الدولي في الحادى عشر من فبراير ، أن البنك قد توصل الى اتفاق مهم مع مصر يقضى بأن يمنح لها قرضاً بقيمة مائتى مليون دولار لتنفيذ مشروع السد العالى ، شريطة أن تشترك بريطانيا وامريكا في تقديم قرض لها بسبعين مليون دولار أخرى . وسرعان ما اخذت المفاوضات لعقد القرض تمر في مراحل من الابطاء بسبب امتعاض مصر من شروط البنك العالى التي تضمنت أن يتولى البنك التدقيق في ميزانيات الدول التي تطلب منه قروضا ، وأن تتعهد كل دولة تقترض منه بالألا تطلب أية قروض أخرى من أية جهة ثانية دون موافقة البنك . ولما كانت مصر قد مرت بمائة عام من التجارب الماضية من الضغط المالى الاجنبى الذى ادى الى احتلالها ، فقد كانت ولا شك آخر دولة في العالم ، يمكن أن تقبل مثل هذه الشروط المعقولة في ظاهرها دون أن تتحداها . وكان من المنقصر أن تجلو عما قريب تلك القوات التي كانت قد أقامت في مصر أربعة وسبعين عاماً كنتيجة مباشرة لقروض القرن التاسع عشر التي أثقلت كاهلها . يضاف الى هذا أن عرض البنك مرتبط بصورة مباشرة مع العروض التي قدمتها الدولتان الغربيتان ، اللتان تتعارض أعمالهما السياسية وأهدافهما

(١) ادعى جلوب في كتابه أن بريطانيا قد « امتنعت عن مطالبة الأردن بالاشتراك في حلف بغداد » ولكنه يمضى بعد ذلك فيقول : « ولكن عندما جاء الاقتراح من الأردن نفسها رحبت بريطانيا باقتراحها هذا » . وطبعاً وقع هذا في غضون اسبوع واحد من وعد ايدن بعدم اشراك أية دولة عربية أخرى في الحلف .

السوقية . في الشرق الاوسط تعارضا مكشوفاً وصريحاً مع القومية العربية وسياسة الحياد .

وكان المستر بلاك يعرف هذه الحقائق ويقدرها حق قدرها ولهذا فقد بذل جهوداً مضنية ، ليوافق بين أنظمة البنك وبين ما تحس به مصر من حساسية تجاه هذه الشروط . وبينما كانت المفاوضات تسير سيرها البطيء هذا على أساس من الاتفاق المبدئي ، كانت العلاقات العربية - الغربية تسير من سيئ الى أسوأ . وطرده جلوب من منصبه في الاول من مارس ، وطلب اليه ان يغادر الاردن فوراً . وحدث أن كان المستر سلوين لويد مجتمعاً بالرئيس جمال عبد الناصر ، عندما تلقى الرئيس رسالة تحمل نبأ اخراج جلوب من الاردن . وراح ينقل النبأ الى سلوين لويد . وتوصل وزير خارجية بريطانيا على الفور الى الاستنتاج القائل بأن طرد هذا الجندي البريطاني الممتاز من بلد مرتبط ببريطانيا كالاردن ، لا بد وأن يكون تنفيذا لخطة وضعها عبد الناصر ، ووقتها ، لتجئ في اللحظة التي يجتمع اليه فيها ، لكي يذله بصفة كونه وزيراً كبيراً من وزراء حكومة جلالته . (١) وأدرك عبد الناصر ، أن كبرياء الوزير البريطاني قد أصيبت في الصميم ، فحاول أن يهدئ من ثأرته ، وخيل اليه انه قد نجح في ذلك عندما غادر الوزير القاهرة في اليوم التالي . ولكن لويد ما لبث أن قابل مظاهرات غاضبة في البحرين التي كان البريطانيون يصفونها بأنها واحة من واحات الهدوء الذي يعود فيه الفضل الى بريطانيا وسط هذا الخضم الثائر من الاضطراب في الشرق الاوسط . وقد واجهته هذه المظاهرات وهو ينتقل من المطار الى المدينة ، تهتف صاخبة ضده ، مطالبة اياه بالعودة الى بلاده . وقد أبلغه الموظفون البريطانيون في البحرين أن مثل هذا الحادث ما كان ليقع مطلقاً لولا أن الاوامر قد صدرت من الرئيس عبد الناصر الى المتظاهرين بمواجهته بهذه المظاهرات . (٢)

وعاد وزير الخارجية الى لندن ، حيث كانت دوائرها الرسمية قد استمعت الى قصة طرد جلوب كما رواها هو نفسه لايدن ، وفسرتها على النحو الذي سبق لنا أن ذكرناه ، من أنها تدبير من هذا الرجل الذي يكره الانجليز أشد الكراهية ، والذي بات قادراً على اعداد الثورات من مكانه النائي البعيد في أى جزء من اجزاء الوطن العربي . وقد نصح جلوب لايدن بالا يتخذ أى اجراء سريع غاضب مع الاردن .

(١) من الحقائق التاريخية الثابتة التي باتت الآن مقبولة عند الجميع أن الرئيس عبد الناصر لم يعرف بطرد جلوب قبل وقوعه . ولعل من سخرية الاقدار أن هذه الصدفة قد وقعت بعد أن قرأ الملك الصغير حسين في إحدى مجلات لندن نعتاً لجلوب بأنه - ملك الاردن غير المتوج - المؤلف -

(٢) كان شعب البحرين ناقماً على تصرفات حكامه كما أن إيمان هذا الشعب بالقومية العربية منذ عام ١٩٥٢ هو الذي دفعه الى هذه المظاهرات التي لم تكن كما زعم الغرب بأمر من عبد الناصر . - العرب -

ولكنه في التقارير السرية التي قدمها وفي أحاديثه الى الصحافة ، قدم الى الغرب صورة عن الشرق الاوسط وعزا مافيه من متاعب الى عمل « المصريين » وعمل الشيوعيين ودهماء الشوارع . وكان طرد جلوب مأساة شخصية وتاريخية في آن واحد ، أما الناحية الشخصية فناجمة عن ان هذا الرجل كان أصيلا في مفاهيمه عن الاردن والعرب وكان مخلصا لهذه المفاهيم اخلاصا عجيبا (١) ، وأما الناحية التاريخية فلأن الاردن بكامله قد ضاع ، دون أن يفهم جلوب كيف وقع هذا التبدل . وراح يمثل في المقالات والكتب التي وضعها في منفاه بعد طرده من الاردن كل ما ادعاه لنفسه من وقوفه موقف الرحمة المسيحية والفروسية المهذبة . والادارة الرعوفة مع « أبناء الصحراء » . ولكن الغلظة لم تكن غلظته أبدا ، ولكن ما ذكره من ايضاح لأسباب طرده لصحيفة النيويورك تايمز ، والصحف البريطانية أيضا استشارت لدى الغربيين كل تلك الصور التي سبق لنا أن تحدثنا عنها في فصل سابق . أجل انها استشارت ما كان يحس به الغرب من كره عميق الجذور لمصر ، (٢) ومن خوف من الشيوعية ، واستفزاز كل تلك الآراء والصور المخيفة التي كانت تمنع الغربيين من رؤية عرب الاردن على حقيقتهم ، وتقدير ما يحسون به وما يأملون . وما كانوا سيفعلونه حتما حتى ولو لم يظهر عبد الناصر .

وأسفر شهر مارس أيضا عن فكرة شخصية أخرى تسلطت على مستوى رفيع في الغرب عن عبد الناصر . فلقد كان ذلك الشهر من الأشهر الشديدة المرارة بالنسبة الى فرنسا . إذ رأى الفرنسيون ، وكانت خسارة الهند الصينية وما فيها من مرارة علقمية لا تزال ماثلة في نفوسهم ، ان المغرب (مراکش) وتونس ، قد ضاعا على فرنسا أيضا ، نتيجة استقلالهما . وأصبحت الجزائر لهم أكثر أهمية وأعلى قيمة . ومضى بينو وزير خارجية فرنسا الى القاهرة في أواسط مارس ليعمل على اقناع عبد الناصر ، بالتوقف عن تأييد الثورة الوطنية التي اشتد أوارها في الجزائر مقابل مساعدة فرنسا للعرب في سياستهم الحيادية . ولم يفهم المسيو بينو ما عناه عبد الناصر ، عندما أبلغه ان التخلي عن الوطنيين الجزائريين يعنى بالنسبة له تخليه عن (قوميتيه العربية ، وعن كل ما نشعر به من واجبات أخوية » . وأدى فشل بينو

(١) أنا لا أود أن أنكر على جلوب رأسا ما يدعيه من حسب شخصي للاردن وأهل الصحراء . ولكن هذا الحب ، ان وجد حقا ، لم يكن شيئا يقاس بحبه لوطنه بريطانيا ولا بولائه له واخلاصه وتفانيه في خدمة مصالحه . فلقد كان جلوب منفذ السياسة البريطانية في الاردن وحاميها ولم يكن ما يدعيه من حب للاردن الا الذريعة التي يحاول بها تبرير كل تصرفاته في الاردن وفي قضية فلسطين وهي التصرفات التي يقع عليها العبء الاكبر من كارثة فلسطين والتي فرضت على الاردن حكم الطغاة الاستعماري .

(٢) أعرب جلوب في كتابه « جندي مع العرب » عن اعتقاده « بأن المصريين ليسوا من العرب مطلقا » ، وراح يعزو حملات عبد الناصر على حلف بغداد الى أسس تعود الى التوراة .

— المؤلف —

في مهمته في القاهرة ، الى المساس بسمعته في فرنسا . ولم يغفر الوزير الفرنسي قط لعبد الناصر هذه الاهانة التي أصابته كرامته . وتقوت نتيجة ذلك ميول فرنسا الرسمية الى اسرائيل ، وقد عززها ما هناك من أوجه شبه بين المستوطنين الفرنسيين في الجزائر وبين الغاصبين الصهيونيين في اسرائيل الذين يحيط بهم «المسلمون» في كلتا الحالتين . وأعلنت فرنسا في شهر ابريل أنها ستسلم طائرات « الميستير » النفثة الى اسرائيل . وصيغ الاعلان الرسمي في عبارات يشتم منها أن القرار قد اتخذ حديثا ، لا سيما وقد نسي الغرب اشارات عبد الناصر منذ سبعة أشهر الى صفقة طائرات « الميستير » . وكان هذا الاعلان الذي صدر في شهر ابريل مجرد تطور جديد في العلاقات .

أمريكا - اسرائيل - طهران - الصين :

وقعت في شهرى ابريل ومايو أيضا ورطة أخرى من ورطات العداء المتبادل الناجمة عن السياسات التي كانت تظهر معقولة في واشنطن ولندن ، ولكنها كانت تستفز مشاعر السخط في الشرق الاوسط . فلقد كانت حملة اسرائيل على الصعيد العالمى لجمع الاموال وحشد الاسلحة ، والهيب مشاعر الغرب ضد مصر ، قد قطعت شوطا بعيدا . وسيطرت حالة من الغليان والهدير الخطر على كل من حدود اسرائيل مع مصر وسورية . واثارت علاقات عبد الناصر الودية بالبانديت نهرو قلق أمريكا وسخطها . وكانت اتصالاته أيضا بالماريشال تيتو ، الذى كان لا يزال موضع الشك بالنسبة الى مائرا على أزمة العلاقات المتوترة بين يوغوسلافيا وموسكو من انفراج جديد ، باعثا آخر من بواعث الانزعاج والضيق . وكان خطر نشوب الحرب في فلسطين قد أقلق الرئيس أيزنهاور طيلة شهرى مارس وابريل ، مما حفزه في الرابع من ابريل الى السعى للحصول على قرار من مجلس الامن تلبية لاقتراح أمريكى بايفاد المستر همرشولد الامين العام للامم المتحدة الى المنطقة لضمان وقف إطلاق النار فيها ، واعادة اتفاقات الهدنة الى سابق عهدها .

وبينما كان المستر همرشولد يواصل تنفيذ المهمة التي أوكلت اليه ، أعلن الاتحاد السوفياتى في السادس عشر من ابريل أنه على استعداد لدعم أية بادرة تصدر عن الامم المتحدة لتسوية قضية فلسطين ، وأشار اشارة تنطوى على التأييد الى استعداداه أيضا لفرض حظر على شحن الاسلحة الى الشرق الاوسط بمجموعه . وهكذا قام دليل واضح جديد على أن الحكومة المصرية لم تكن غافلة عن الاهداف السوفياتية ، فى المنطقة - خلافا لما سبق للغرب أن فهمه من بعض ممثليه . وقادت صحافة القاهرة حملة عربية شاملة من رد الفعل المنطوى على الكثير من الشكوك الحادة . ولم يكن أحد قد نسي أن الاتحاد السوفياتى كان من الدول السبابة ، الى اقرار مشروع تقسيم عام ١٩٤٧ ، والى عرض العون على انفاذه ، والى الاعتراف باسرائيل بعد بضع ساعات من اعتراف الرئيس ترومان بها فى الخامس عشر من مايو عام ١٩٤٨ .

ولقد كانت الفترة التي بدأت بمنتصف شهر ابريل لحظة مواتية، طبقا لجميع التقديرات ، لتقويم الوضع تقويما ينطوى على الحرص والحذر ، بالنسبة الى كل ناحية من نواحي الموقف المعقد في الشرق الاوسط . واذا كانت شكوك العرب في الاتحاد السوفياتي قد استثرت في هذه الفترة بالخطوة التي خطاها ، فلقد كان من واجب الدول الغربية ان تدرس بامعان وسائل تجنب كل ما يؤدي الى اغراق هذه الشكوك باثارة شكوك جديدة عربية في الغرب . واذا كانت الدول الغربية تود ان ينجح المستر همرشولد حقا في مهمته في اعادة الهدوء الى الحدود العربية - الاسرائيلية ، وتود ان تخلق املا في امكان تعسس السبيل المؤدية الى تفاوض محتمل بين الفريقين ، فقد كان حريا بها ان تتجنب القيام بأي عمل جديد قد يؤدي الى استفزاز شكوك العرب . ولم يكن ثمة اهمية في مثل هذه المواقف المتحفظة . لان يستشير سياسة الغرب عواطفهم ويروا ما اذا كانوا يحبون عبد الناصر او لا يحبونه ، وما اذا كانوا يكرهون النفسية العربية او لا يكرهونها . ان المهم في مثل هذا الوضع ، هو ان يعرف هؤلاء السياسة الطريقة المثلى للتعامل مع عبد الناصر ومع النفسية العربية لما فيه مصلحة الغرب .

ولكن على الرغم من هذه الضرورة الظاهرة والصريحة . فقد سلك الغرب سلوكا مغائرا ، اذ لم تمض ايام ثلاثة على البيان الروسي الذي اثار شكوك العرب حتى كنا نرى الولايات المتحدة تعلن انضمامها الى لجننتين من لجان حلف بغداد وهما الاقتصادية ولجنة مكافحة النشاط الهدام ، كما تعلن قيام ارتباط عسكري اوثق عرى مع دول الحلف كلها . ومع ذلك اصرت وزارة الخارجية الامريكية على التاكيد بأن حكومتها لا تعنى بخطواتها هذه الانضمام الى الحلف . لكن هذا التمييز الخفى الماكر لم يكن واضحا عند القوميين العرب .

ولم يلبث مجلس حلف شمال الاطلسي ان عقد اجتماع الربيع في باريس . وكان المستر همرشولد لا يزال ينتقل جيئة وذهابا بين اسرائيل والدول العربية متفاوضا بهدوء وان كان بشيء كبير من الجهد ، لاعادة تثبيت خطوط الهدنة لعام ١٩٤٩ . ولم يتابع الاتحاد السوفياتي اقتراحه لحظر بيع السلاح للشرق الاوسط ، وعندما قام خروشوف وبولجانين بزيارة لندن في هذه الآونة لم يعودا الى الاشارة اليه . كما ان مضيفيهم من الانكليز الرسميين لم يحاولوا استغلاله . وتسربت الانباء من اجتماعات حلف الاطلسي المعقودة في باريس تقول ان المستر دالاس قد اقترح طريقة جديدة لحل الصراع العربي - الاسرائيلي وان هذه الطريقة تنطوى على قرار من الغرب بارسال اسلحة اضافية الى اسرائيل . واعلن ايضا ان المجلس قرر ان يعهد الى ثلاثة من «حكماؤه» بالقيام بدراسات مستمرة للوضع في الشرق الاوسط .

واعلن همرشولد في التاسع من مايو ان مهمته قد كللت بنجاح رائع وأن هدفه في اعلان وقف اطلاق النار قد تحقق . وراحت فرنسا تعلن الى العالم في الثاني عشر من ايار (سبتمبر) ، وكأن الشياطين هي التي توجه سياسة الغرب ، ان الولايات المتحدة قد وافقت على تحويل عدد

آخر من مقالات «الميستير» النفثة التي تنتجها فرنسا لحلف الاطلسي الى اسرائيل . واتضح في الوقت نفسه أيضا ، انه على الرغم من أن الولايات المتحدة ما زالت تمتنع عن تزويد اسرائيل بالسلاح ، الا أن المستر دالاس ضغط ضغطا شديدا على الحكومة الكندية لبيع طائرات «سابر» النفثة اليها .

وهكذا اختفت آخر لمحة من لمحات الامل ، في خضم هذه الاسابيع الستة من الشكوك المتزايدة في القاهرة . وكانت هذه الاسابيع الستة قد عرضت أمام عبد الناصر وغيره من القادة العرب ، صورة حطرة عن وجود المزيد من التآمر والدسائس . فهناك من الناحية الاولى الاشارة التي صدرت عن الاتحاد السوفياتي بفرض حظر من جميع الدول الكبرى ، تحت اشراف الأمم المتحدة على تزويد الشرق الاوسط بالسلحة ، وهي اشارة لم يرفضها الغرب حتى الآن رفضا حاسما . وهناك من الناحية الاخرى ثلاث خطوات متتالية زمنيا ، شجعتها الدول الغربية أو قامت بها ، وهي المزيد من الدعم لحلف بغداد واقحام حلف الاطلسي نفسه في مزيد من النشاط المباشر في شئون الوطن العربي ، وتبني الحكومة الامريكية السريع لخطوات سلمية تصدر عن الأمم المتحدة لفرض الصلح على العرب مع اسرائيل ، والرعاية الامريكية العاجلة لشحنات أخرى من الأسلحة لاسرائيل المرتبطة باتفاق سري مع فرنسا لتزويدها بالسلاح ، والعازمة عزمًا قاطعًا على خوض ما تسميه بالحرب المانعة مع العرب (١) .

ووقعت هنا أيضا حادثة من الحوادث الحاسمة في تاريخ الشرق الأوسط ، لم يقدر لها أن تحظى الا باهتمام ضئيل في الحسبانات الصحيحة للموقف . وبدا لعبد الناصر سواء أوافقناه أم لم نوافقه . على ضوء هذه السلسلة من الاحداث التي تعاقبت في شهرى ابريل ومايو ، وجود مؤامرة جديدة تشبه تلك التي قام بها السير أنطوني ايدن في خطاب جيلدهول وفي أحداث الاردن التي تلتها . وأدى هذا الاحساس الى قيام عبد الناصر بخطوة أخرى من خطواته المنفعلة (٢) ، في عام ١٩٥٦ ، وهي الاعتراف الدبلوماسي بالصين الشعبية في السادس عشر من مايو ، دون أى من الخطوات التمهيدية المعتادة . وكان السبب في اتخاذه هذا القرار في هذا الوقف بالذات ، واضحا من اشارته الغاضبة الى ما تحيكة الدول الغربية من مؤامرات مستمرة من ناحية ، ومن الاشارات الواردة في صحافة القاهرة الى أن روسيا ليست هي المكان الوحيد الذي تستطيع القاهرة أن تحصل منه على السلاح ، من الناحية الاخرى . وسرعان ما أعلن أن بعثة عسكرية مصرية ستسافر عما قريب الى بكين . وكان الهدف من هذه الزيارة واضحا كل الوضوح ، فأى حظر

(١) لم تنس القاهرة قط وثائق المخابرات البريطانية والفرنسية التي حصلت عليها والتي تعلم الحكومتين المذكورتين بخطر وقوع هجوم من جانب اسرائيل منذ أواسط عام ١٩٥٥ . - المؤلف

(٢) كان في امكان المؤلف أن يقول « الجريئة » بدلا من المنفعلة لانها هي التعبير الصحيح . - المغرب -

تفرضه الأمم المتحدة على شحن السلاح الى الشرق الاوسط لا يقيد الصين الشعبية لأنها ليست عضوا في الأمم المتحدة .

وكان من المحتم أن تعترف مصر بالصين الشعبية ان عاجلا وان آجلا . فالاتجار المتباعدل والمتزايد بين البلدين كان لا بد وأن يؤدي الى مثل هذا الاعتراف . ولم يكن ثمة من سبب آخر يحول بين مصر وبين هذا الاعتراف أسوة بالهند وغيرها من الدول الافريقية - الآسيوية . لكن توقيت الاعتراف كان في رأيي سيئا كل سوء ، اذ جاء في الوقت الذي كانت المفاوضات فيه لقرض السد العالي ما زالت معلقة (١) . ولكن الرئيس جمال عبد الناصر اتخذ قراره لوجود عدة دلائل من ناحية ثانية على « طبخ » مؤامرة أخرى خارج الوطن العربي ، ولوجود ضغط غربي لفرض الصلح مع اسرائيل على شروط اسرائيل نفسها ، ولقيام احتمال في لقاء بين روسيا والغرب ، كما حدث في عام ١٩٤٨ على خلق سياسة فلسطينية مشتركة وبذلك يتم اغلاق المصدر الوحيد أمام مصر لتحقيق تسليحها بينما يستمر تدفق السلاح الغربي على اسرائيل . وهكذا ! تسعت الهوة من جديد بين العرب والغرب .

(١) اعتقد أن المؤلف أخطأ في تحليله هنا . فلقد اصر سيادة الرئيس عبد الناصر ، منذ البداية ، على وجوب بقاء المساعدات الاقتصادية بعيدة عن الضغط السياسي . وظل طيلة المدة يرفض أية مساعدات اذا كانت مشروطة لان قبولها يعني خروجه على سياسة عدم الانحياز التي جعلها قاعدة أساسية من قواعد سياسته لا يجيد عنها قيد شعرة . ولهذا فلا مجال للقول هنا بان توقيت الاعتراف بالصين كان سيئا . اذ لا يرى الرئيس أي ارتباط بين هذا الاعتراف وبين المعونة القربية لمشروع السد العالي .

المعرب

قروض السيد العالي

« ليس ما ينفدقه النهر العظيم على مصر من مياه دائمة ،
مجرد قضية رخاء وازدهار لها ، بل هي قضية حياة فعلية
ووجود ... »

اللورد ملز - فى كتابه « انكلترا فى مصر »

قد تبدو مصر على الخريطة مساحة خيالية ضخمة . الا اذا كانت
هذه الخريطة معبرة عن الاسس الديموقراطية لتوزيع السكان ، وعن
توزيع النباتات أيضا . ويمكن رؤية الواقع المفرع الواضح من الطائرة أو
من النقاط المهمة فى أرض مصر المأهولة . وقد تندفع بك الطائرة من
ناحية البحر المتوسط ، هادرة مزمجرة ، وسرعان ما يتحول الماء الأزرق
أمامك الى حقول كثيفة الزراعة ريقة الخضرة . وتواصل الطائرة هديرها
محلقة فوق الدلتا جنوبا باتجاه القاهرة ، ويأخذ المدى الأخضر الفسيح
تحت ناظريك ، يضيق بصورة متدرجة لينتهى من الناحيتين الشرقية
والغربية الى حدود يتحول لونها الى مزيج من اللونين السكرى والبني ،
وتأخذ هذه الحدود فى الاقتراب بعضها من بعض بصورة سديدة متزايدة
وتقترب حدود هذا المثلث الأخضر عند القاهرة الى درجة كبيرة . اذ أن
الصحراء القاحلة تضغط بشدة عليها عند ضواحي المدينة . ونرى وأنت
فى طائرتك حقلا من حقول البرسيم ينتهى فجأة الى الرمال عند خط
يبدو مستقيما الى الحد الذى يحملك على الفول بأن خالقا جبارا قد رسمه
لينذر المصريين منذ أقدم عصور التاريخ قائلا « فى وسعكم أن تزرعوا
وتعيشوا الى هذا الحد أما وراءه ، فستموت بذورككم فى الرمال » .
ويشدد ضغط ما تحس به من تكاثف الحياة الانسانية وامتدادها
من الجذور الارضية منحشرة وسط هذين الفكين من الرمال الجرداء ،
كلما ارتحلت جنوبا من رأس دلتا النيل عند القاهرة ، صعودا مع النهر .
واذا ما كنت تستقل القطار صاعدا مع الوادى ، فانك قادر ولا شك على
أن ترى من نافذة عربتك المرتفعات الصحراوية قريبة منك ممتدة الى جانب
هذا الخط الضيق الطويل من الخضرة التى تروىها مياه النهر . ويسير
قطارك على الضفة الشرقية للنهر ، ونقرع الامثولة التى تتعلمها من هذا
الدرس الانسانى شغاف عقلك تماما وكأنها الالحان الرتيبة الصادرة من
هدير العجلات على الخط الحديدى . وسرعان ما تجد أمامك مجموعة من
الاكواخ القروية المشيدة من الطين الذى أحرقته الشمس ، تحيط بها
مساحات من الخضرة تبتعد شيئا فشيئا عن النهر ، لتقطع فجأة عند
حدود أرض رملية بيضاء تتألق على هامة المرتفعات الحادة التى تؤدى الى
الصحراء الشرقية .

وتصل الى أسوان ، ثم تمتد الطريق بعدها لتعبر تمثالا جميلا من تماثيل المعجزات الهندسية وهو خزان أسوان الذى شيد على شكل سلسلة متعاقبة من «الحزومات» منذ عام ١٩٠٤ ، ليغدو الآن أكثر أهمية بعد مولدات الطاقة الكهربائية المائية التى أقامتها حكومة الثورة وانتهت من تركيبها فى عام ١٩٦٠ لتنتج طاقة كهربائية ضخمة . وتقوم وراء السد طريق جديدة تمتد الى الصحراء الغربية ، وحيدة فى وجودها الذى يرمز الى الأمل فى مستقبل أفضل ، الى أن تنتهى بعد مسافة أبعد باتجاه الجنوب الى منعطف يعود بك الى نتوء مرتفع من صخور الجرانيت يطل على النيل .

وهنا يقوم موقع مشروع هندسى هائل ، يكاد يقطع الانفاس من ضخامته يعتبر من معجزات العقل البشرى ، وأضخم ما نفذ فى العالم الأفريقى - الآسيوى ، وهو مشروع السد العالى . ويضيق وادى النيل فى هذا المكان ضيقا شديدا ، ولكن السد العالى لن يكون مجرد جدار يغلق الوادى ، اذ سيرتفع نحو من (٣٣٠) قدما فوق مجرى النهر ، ثم تمتد قمته على جانبى النهر ، فى خط مستقيم الى أن تصل الى الصحراء الصخرية لكى يصبح عرضها نحو من ثلاثة أميال كاملة . وسيغلق هذا الجدار الهائل من نفسه عند المقاطع العريضة الطبيعية للصحراوين الشرقية والغربية ليؤلف بحيرة هائلة تتسع لمائة وثلاثين ألف مليون متر مكعب من الماء ، غامرة الوادى بكامله .

وكانت فكرة بناء سد ثان عند أسوان تجول فى مخيلة علماء الطاقة المائية منذ حقبة طويلة . وقد لخصت الفكرة فى اقتراحات محددة وضعها دانيئوس فى عام ١٩٤٧ . وعندما شرع الشبان من قادة الثورة فى عام ١٩٥٢ ، فى وضع الخطط اللازمة للتطور الاقتصادى ، عهدوا بالفكرة الى جماعة من الخبراء ليتولوا درسها على جناح السرعة . واستمرت هذه الدراسات فى طريقها الى أن أعلن الرئيس عبد الناصر فى أكتوبر عام ١٩٥٤ ، القرار بالمضى قدما فى تنفيذ هذا المشروع الذى وصفه بأنه حجر الزاوية فى تقدم مصر الاقتصادى (١) . واستقدمت مصر عددا آخر من الخبراء والمستشارين الغربيين الذين تولوا درس المشروع درساً دقيقاً مجهداً ووافقوا عليه . وارتحل الدكتور القيسونى وزير مالية مصرفى نوفمبر عام ١٩٥٥ الى الغرب ليفاوض سعيها وراء الحصول على قروض مالية . وكان قد عرف آنذاك أن روسيا عرضت عونها بتقديم ما يحتاج اليه المشروع من معدات وأدوات .

وقد نضج مشروع السد العالى فى عقول الخبراء المصريين لا كسد لحاجة واجدة معينة ، بل كمجموعة من الحلول لمجموعة من الحاجات

(١) كان الغرب قد تشبع بفكرة خاطئة ، مضللة ، يجمع نشرها بين التعمد وبين البراءة بأن حلم عبد الناصر فى انشاء السد العالى لم يقع الا فى أواخر عام ١٩٥٥ ليستهوى به عطف الجماهير . جون كونيلى - البلاد الكثيرة الأهمية . ص ٨٥ - ٨٦ - كامبل - لندن ١٩٥٧
- المؤلف =

والمشكلات . فعدد السكان يتزايد فى مصر بمعدل نصف مليون انسان فى كل عام ، وهم يعيشون - أى أهل مصر كلهم - على ستة ملايين فدان من الأراضى المزروعة تؤلف اثنين فى المائة فقط من مساحة البلاد الواسعة كما تظهر على الخريطة . وأرى لزما على لايضاح ما يعنيه هذا الواقع ، أن أقيم بعض المقارنات . ففي عام ١٩٥٦ ، كان هناك نحو من ثلاثة وعشرين مليونا من المصريين يعيشون على ستة ملايين فدان من الأرض الصالحة للزراعة . وفى هذا العام نفسه كان نحو من (٥٢) مليونا من البريطانيين يعيشون على نحو من (٤٥) مليون فدان من الاراضى الزراعية . وعلى الرغم من هذه الحقيقة ، فقد أنفقت بريطانيا فى السنة نفسها أكثر من بليون جنيه على مجموع المستورد من المواد الغذائية الرئيسية ، مع العلم أن نظامها الزراعى يعتبر من أكثر الانظمة فى العالم كفاية فنية . ولم تكن مشكلة زيادة المساحات المزروعة فى مصر ، كغيرها من المشكلات التى تواجهها البلاد ذات الطقس المعتدل ، أى مجرد تدريب الفلاحين على الزراعة وتزويدهم بالبذور والمواشى والأسمدة . انها مشكلة ماء قبل كل شيء ، فى أرض لا يكاد المطر ينزل فيها ، أو مشكلة جمع مياه هذا الشريان الحياتى الذى ظل يزود مصر بالماء ألوف السنين . ولا يمكن توسيع الأراضى المزروعة ودفع الخطوط القائمة المستقيمة التى تفصل بين الصحراء والخضرة الى الوراء الا عن طريق المزيد من التسهيلات اللازمة لتخزين مياه النهر العظيم . ويتدفق فى كل عام نحو (٢٨) مليار متر مكعب من الماء من النيل الى البحر المتوسط لتضيع فى لجهة دون أى نفع أو فائدة . وفى هذه المليارات الضائعة يقع الحل الجزئى لمشكلة نصيب الفرد فى الاراضى المزروعة ، وهو نصيب يسير فى طريق السوء عاما بعد عام فى مجتمع ريفى كان يتميز بالجهل وبالتقيد بالتقاليد ، الى الحد الذى يجعله لا يتسامح مع أية برامج مثالية لتحديد النسل ، الا اذا نجح العهد الجديد فى حمل الفلاحين على الارتفاع بهاماتهم ليفكروا بأنفسهم وطبقا لمصالحهم .

ولو كانت المشكلة مجرد ايجاد جهاز مبسط لتخزين المياه لقام حلها فى بناء سلسلة من الخزانات المتوسطة الحجم على نهر النيل . ولكن هناك عاملا اضافيا آخر وهو ما يطرأ على حجم النهر من تقلبات بين الارتفاع والهبوط سنة بعد أخرى . فهو فى احدى السنين متراخ وواهن ، وهو فى سنة أخرى ، مرتفع الى درجة الخطورة ، مما يحمل نحو من خمسة وعشرين ألفا من العمال ، على الوقوف على قدم الحذر والانتباه على ضفتى النهر لأن تخطى الماء فوقهما قد يؤدى الى فيضان يغمر نحو ربع الأراضى المأهولة بالسكان فى مصر كلها . وهكذا وجد الخبراء أن الحاجة تقضى بتخزين المياه لا على أساس سنوى بل على أساس « قرنى » ، أى باقامة سد وخزان ، يستطيع أن يضع نهاية لخطر الفيضان من ناحية وأن يجمع الماء الكافى لتأمين الحد الأعلى للرى حتى فى السنوات التى يكون فيها منسوب المياه منخفضا . وهذا يعنى اقامة سد عال وضخم حقا .

وقدر الخبراء أن فى استطاعة خزان السد العالى ان يخزن مياهها

تكفى لرى مليونى فدان آخر بصورة دائمة تضمن استصلاحها الزراعى .
وقد يكون هذا الرقم صغيرا بالنسبة الى المشكله الحقيقية الا انه يعبر
كافيا لزيادة مساحه الارض المزروعه بنسبه الثلث . وقد رأى الكثيرون
من الغربيين فى هذه الارقام أيضا أملا ضائعا ، اذ أن عدد السكان فى
مصر سيرتفع فى غضون السنوات العشر أو الخمس عشرة التى يستغرقها
بناء السد الى حد يجعل حصه الفرد من الارض المزروعه أسوأ مما كانت
عليه قبل هذه الزيادة فى المساحات الزراعيه . وبالطبع لم يكن ثمة من
الخبراء من ينفى هذا الواقع . ولكن مشروع السد اتعالى ينطوى على آمال
أخرى ، وأكثر ضخامة من مجرد تأمين المياه اللازمة للرى . ففي الامكان
استخدام انحدار الماء فى انتاج طاقة كهربيه - مائيه يبلغ مجموع قوتها
عشرة آلاف مليون كيلووات فى السنة ، وهو رقم ضخم ، اذا عرف ان مجموع
ما أنتجته بريطانيا من طاقة كهربيه فى عام ١٩٥٥ - ١٩٥٦ لا يزيد على
الخمسه والسبعين ألف مليون كيلووات . وكان من الواضح أيضا ان
السبيل الوحيد لحلاص مصر من دائرة الفقر الشريرة المخيفه التى ورثتها
الثورة عن العهد البائد هو فى التوسع الصناعى الضخم بالاضافه الى
الاستغلال الزراعى الى أقصى الحدود .

ويتبين من هذا أن السد العالى سيؤمن القسوة المحركة اللازمة
للصناعة . ولكن هذه الصناعة لا تستوعب العمل الاضافى اللازم فى أعداد
ضخمة . وليس فى وسعها أن تبدأ فى استيعاب الاعداد المتزايدة باستمرار
واصرار فى عمال مصر العاطلين أو الذين لا يجدون العمل الكافى لهم .
واذا ما تحدثت فى هذا الموضوع الى خبراء مصر الاقتصاديين المدربين على
النظريات الغربيه ، فانهم يتفقون معك فى الرأى ، وان كانوا يضيفون
قائلين ان ما يمكن للصناعة أن تفعله فى حل مشكله الفائض من العمال
والفائض من الفقر ، هو أنها تزيد فى الدخل القومى بمعدل (٣٣٥)
مليوناً من الجنيهات ثمرة الخطة الراميه الى التنمية والتطوير
الاقتصاديين . (١) وقال لى أحدهم : « ان السد العالى لن يؤمن لكل مصرى
من أبناء مصر الآن ولكل مصرى من أبنائها فى المستقبل ، دخلا فرديا أعلى
كمجرد دخل . ولكنه سيمكننا من أن نؤمن لكل مصرى شيئا من الدخل
القومى العام ، وهذه نعمة من الله » . وكل جنيه اضافى يمكن أن ندفعه
للاستثمار فى الصناعة أو التعليم أو الاسكان أو الصحة أو الغذاء ، يدفع
بالبلاد مسافة أقرب الى نقطة القفز فى الميدانين الاقتصادى والاجتماعى ،
التى يبطئ عندها الارتفاع اللولبى لعدد السكان .

كانت هذه هى الحجج والآمال التى تعلق بالجدار المارد الذى تملؤه
الصخور والاسمنت المسلح فوق مدينة أسوان . وكلما تعمق الانسان
فى البحث فى موضوعه وفى بحث مشاكل مصر ، بات من الاسهل عليه ،

(١) تتضمن قائمة الصناعات الجديدة الفولاذ الذى يصنع الآن فى
حلوان ، والاسمدة التى تبني مصانعها الآن فى أسوان على مقربة من المواد
الأولية اللازمة ، والمنسوجات والزجاج والخزف والمحركات ، والكهربيات
(الالكترونات) والاحذية وغير ذلك .
المؤلف

أن يفهم لماذا استأثر المشروع بخيال الناس من رسميين وعاديين . فلقد كان في وسع أفقر الفلاحين وأكثرهم جهلا أن يفهموا ما يمكن لهذا السد الضخم والجديد أن يعنيه . فهو يقتل أيامه . واقفا الى جانب المياه التي تصل الى حقوله من النهر الكبير . وهو يتعلم منذ اللحظة الاولى التي يشرع فيها بمرافقة الكبار من أفراد أسرته الى الحقول كيف يقيم السدود ويفتح الترع ويسيطر على مياهها ويحول اتجاه الترع النيلية الصغيرة والسواقي وكان يعرف من الغرامات التي تفرض عليه أحيانا إذا ما أغرق في استخدام المياه اللازمة لرى حقله ، قيمة هذا السخاء الذي يغدقه عليه النهر العظيم ، وهو يعرف أيضا أن ثمة سدودا قائمة على النيل اليوم ، وأنه على الرغم من هذه السدود والخزانات فإن كميات هائلة من مياه هذا النهر تتسبب دون فائدة عبر بلاده لتصب في البحر ، وبات السد العالي منذ عام ١٩٥٤ أملا شعبيا عاما .

ولكن تكاليف السد العالي تصل الى حدود أربعمئة مليون من الجنيهات وهو مبلغ أضخم بكثير من موارد مصر المالية، وسواء حصلت مصر على الاسلحة التشيكية أم لم تحصل عليها ، فإن ثمة متلا رائعا على الحاجة في الدنيا الافريقية - الآسيوية ، الى المعونة من رؤوس الاموال الاجنبية المتنورة ، فهنا يمثل مشروع يحمل طابع أوثق صلات العرفان بالجميل والصدقة التي تقوم بين الحكومات والشعوب المانحة ، وبين الفلاحين الذين يعرضهم الفقر بنابه والذين يفيدون من مثل هذا المشروع، والاعتقاد بأن هذا المشروع الذي قتل بحثا ودرسا عبر سنوات طويلة من الخبراء المصريين لم يكن أكثر من أهرام جديدة ، افتراض خطر كل الخطورة حقا . والاعتقاد أيضا بأن في وسع المرء أن يتقدم بعرض علني ثم لا يلبث أن يعود فيسحبه ويسحب معه المعونة المالية اللازمة لانجازه بشيء من الصلافة مع الاعتقاد بأن هذا لا يضر الا العهد الذي يتبنى المشروع انما هو كمن يحاول اللعب بالنار أو المتفجرات . فلم يكن هناك من مشروع آخر في كل من أفريقيا وآسيا أكثر اتصالا وثيقا بالرأي العام الجماهيري من هذا المشروع .

واستمرت المفاوضات بين مصر والبنك الدولي طيلة المدة الواقعة بين فبراير (شباط) وبين يونيو (حزيران) عام ١٩٥٦ ، بينما كانت كرة الكراهية الثلجية مستمرة في انحدارها ، وتحول الرأي العام في الكونجرس الأمريكي بصورة متزايدة وأكثر اصرارا ضد مصر وضد السد العالي . وكان دعاة الصهيونية وأنصارها هناك يضرمون هذه المشاعر من العداء لمصر ، بدعائياتهم وحملاتهم على الرئيس عبد الناصر متهمينه بالشيوعية المقنعة ، وأفهم أعضاء الكونجرس من ممثلي الولايات الجنوبية أن زيادة الاراضي الصالحة للزراعة في مصر ، يعني المزيد من انتاج القطن وهي في الحقيقة فكرة تتعارض تمام التعارض وبشكل عمودي مع التفكير الاقتصادي المصري الجديد الذي كان يخشى كل الحشية من استمرار الركود الى القطن كالمورد الاقتصادي الوحيد للبلاد ، وليس من شك في أن المساحات الاضافية الجديدة التي سيستصلحها ، انشاء السد العالي ستستخدم في زراعة أي شيء آخر غير القطن ، وراح المستر

دالاس الذى كان قد أعلن فى شهر حزيران أن الحياد مفهوم لا أخلاقى وقصير النظر يصغى باهتمام الى ما يقوله المسسيو بينو عن الرئيس عبد الناصر ، وترك اعتراف مصر بالصين الشعبية أثرا سيئا فى أمريكا أيضا .

وأحس سفير مصر فى الولايات المتحدة، بهذا الشعور العدائى المتزايد فبعث الى الرئيس عبد الناصر فى شهر حزيران يحذره ، ويطلب اليه أن يصل الى اتفاق شامل مع البنك الدولى فى أسرع وقت ممكن فى موضوع القروض الغربية ، وأحس عبد الناصر بثقله فى تأييد الرأى العام له ، بعد أن تحررت مصر من القوات الأجنبية ، فوافق على اقتراح سفيره ، وراح يعلن فى الرابع من يونيو (حزيران) ميزانية مصر الجديدة التى تضمنت زيادة ملحوظة فى نفقات الدفاع ، كما أدرجت مخصصات للمراحل التمهيدية فى مشروع السد ، وبعث محافظ البنك الدولى المستر بلاك فى التاسع من يوليو (تموز) برسالة الى وزير مالية مصر يؤكد له فيها عرض القروض السابق .

ولكن المستر دالاس ، راح يعلن فى اليوم التالى أى فى العاشر من يونيو فى مؤتمره الصحفى ، أن منح مصر القروض بات أمرا غير محتمل وأقرت لجنة الاعتمادات التابعة لمجلس الشيوخ الأمريكى فى السادس عشر منه لائحة اضافية لموازنة المساعدات الأجنبية لعام ١٩٥٦ ، حظرت فيها على الحكومة استخدام أموال المساعدات فى تمويل مشروع السد العالى دون صلاحية جديدة من الكونجرس ، وراح المستر دالاس يبعث على الفور برسالة الى رئيس اللجنة يعلن فيها رفضه ورفض الرئيس لهذه اللائحة الاضافية ويشير الى «المناورات» والى «المفاوضات الدقيقة»

ومهما عنت هذه الرسالة ، فهناك شىء ثابت ومؤكد ، وهو أن المستر دالاس لم يبعث الى سفارته فى القاهرة أو الى الحكومة المصرية ، بأى شىء يرمز الى وجود تبدل فى سياسته تجاه القروض ، ووصل السفير احمد حسين الى الارض الأمريكية بالطائرة فى السابع عشر من يوليو وصرح علنا لدى هبوطه منها ، بأن مصر قد قبلت عروض القروض الغربية وانها باتت متلهفة لعقد الاتفاقات الخاصة بها بحيث تستطيع البدء فى العمل فى مشروع السد فور الوصول الى اتفاق مع السودان على توزيع مياه النيل

وأكد ناطق بلسان وزارة الخارجية البريطانية فى لندن ظهر التاسع عشر من يوليو استعداد بريطانيا لتنفيذ عرض القرض ، ولكن لم تمض بضع ساعات على هذا التصريح حتى كان المستر دالاس يستقبل السفير احمد حسين فى مقابلة قصيرة يصدر أثر انتهائها بيانا الى الصحافة يعلن فيه سحب القرض الأمريكى ، وذكر البيان أن «التطورات لم تعد مواتية لانجاح المشروع . . وأن قدرة مصر على تخصيص مبالغ كافية من مواردها لضمان نجاح المشروع ، قد أصبحت موضع الشك أكثر مما كانت عليه عندما قدم العرض » . وانتشرت الانباء فى مثل سرعة البرق فى جميع أنحاء العالم .

وكان المستر دالاس قد قضى الشطر الأكبر من حياته فى مناصب دبلوماسية عالية ، وكان من المعروف انه كثيرا ما يفضى ببيانات شفوية مرتجلة وغير مدروسة ولكن بلاغاته الخطية تكون مدروسة أدق الدرس ،

وكان يعرف ، كما يعرف أى مبتدئ فى السلك الدبلوماسى ، أن سحب عرض بقرض لمشروع تنمية ضخمة سبق أن أعلن وقدم بصورة رسمية الى أية حكومة من الحكومات ، يعتبر قضية دبلوماسية فى منتهى الدقة ، واذا صح ماأكده فى بيانه الذى أصدره فى التاسع عشر من يوليو ، من أن حكومة الولايات المتحدة الامريكية ترغب رغبة قاطعة فى الحفاظ على العلاقات الودية الصادقة مع حكومة مصر وشعبها ، فان من المفروض فى مثل هذه الحالة أن يكون قد أجرى مع القاهرة محادثات سرية سابقة لسحب العرض واتفق معها عليه .

ولكن المستر دالاس لم يفعل هذا ، وكل ما فعله هو أنه سمح لمصر علنا أولا أن تعلن أنها قبلت عروض القرض بكل ماتنطوى عليه من شروط. وانه بعد هذا الاعلان ، من جانب مصر لاقبله راح يعلن نانيا الى العالم سحب العرض دون أن يبلغ القاهرة بعزمه هذا ، أو حتى يتيح الوقت للمبعوث المصرى لا بلاغ القاهرة بقراره هذا ، ثم صاغ هذا البيان ثالثا عن سابق عمد واصرار فى عبارات لامنيل لها فى التاريخ الدبلوماسى تنطوى على النقد والدوم لحكومة مصر وأوضاعها المالية .

ولم تكن مصر وحدها فى السخط الفورى على هذا الاجراء ، فلقند استنكر نهرو -الذى كان يحل ضيفا على عبدالناصر آنذاك فى طريق عودته الى بلاده من بريونى -هذا العمل الأمريكى استنكارا ينطوى على الغضب والسخط ، وأعلن السياسة ورجال الصحافة فى طول الدنيا الافريقية الآسيوية وعرضها ، انهم يعتبرون هذا العمل مهينا ، كما بوضح أن معونة الولايات المتحدة مشروطة بخدم السياسة الامريكية . ووصف رئيس وزراء لبنان قرار دالاس بأنه «اهانة موجهة الى العرب جميعا» كما اعتبرته صحافة الباكستان والهند وأندونيسيا «بلطجة دبلوماسية مكشوفة» ولم يمض يومان بالفعل حتى كانت التقارير الصحفية الموثوقة من واشنطن تؤكد صحة هذا النعت ، وتضيف أن هذه الغاية هى التى دفعت دالاس بالفعل الى اتخاذ خطوته ، وان لاشأن لمزاعمة عن الاقتصاد المصرى بهذا الحافز ، وراح الناطقون بلسان وزارة الخارجية الامريكية يعلنون لرجال الصحافة ، أن «بلادا أخرى» غير مصر يجب أن تعتبر من هذا الحادث وتدرك أن ليس فى وسعها «ابتزاز الامتيازات من الولايات المتحدة» وكان هناك حديث سائر عن أن دالاس أراد أن يثار من مصر للسياسة الحيادية التى تتبعها ، أما الناطقون بلسان البنك العالمى ، فقد أزعجهم هذا التطور كل الازعاج ، ولم يستطيعوا أن يخفوا وجهة نظرهم فى عدم وجود أى عامل جديد يدعو الى تغيير جدارة السد العالى بالعون أو قدرة مصر على تمويل حصتها فى تكاليفه (١) .

ولا يمكن وصف النظرية الغربية الرسمية التى استند اليها الغرب فى رفض تقديم العون الى مصر ، بحجة أنها كانت تحاول «اللعب على

(١) تقرير لصحيفة التايمز اللندنية من واشنطن عدد الواحد والعشرين من تموز (يوليو) ١٩٥٦ .

الحبلين مع الشرق والغرب « الا بأنها نظرية تنطوي على الميل الى المشاكسة فعندما قدم الغربيون عروضهم لأول مرة • كانوا يعرفون تمام المعرفة أن موسكو كانت تحاول الصيد في مياه « السد العالي » وكان الأطراف الثلاثة يعرفون أيضا أن المنافسة قائمة في هذا الموضوع بين الغرب والشرق • وكان ثمة دليل بارز ومهم تماما ، وهو أن مصر منذ البداية أظهرت ايثارا واضحا للعون الغربي ، وهو ايثار عرفته الدول الغربية وكانت سريعة في محاولة استغلاله ، ويمكن القول بأن كل طرف من الاطراف الثلاثة كان يحاول أن « يضرب » الطرفين الآخرين بعضهما ببعض ليفيد هو من ذلك ويصدق عليهم ما قيل عن مبعوثي أوستينوف من أنهم « كانوا يعرفون أن الآخرين يعرفون انهم يعرفون ماذا يفعل الآخرون » ولكن اتهام مصر وحدها من جانب الغرب ، كان تضليلا ترك أثره على أى حال فى رأى العام الغربى •

وبدت واشنطنون فى هذا القرار الغريب ، وكأنها قد اتخذت زمام المبادرة من جانبها ودون استشارة أحد ، ولا ريب فى أن البيان الذى صدر عن وزارة الخارجية البريطانية ظهر التاسع عشر من يوليو ، مؤكدا استعداد بريطانيا لتنفيذ عرض القرض ، قد أبرز الحقيقة الواقعة ، وهى أن سحب بريطانيا لعرضها فى اليوم التالى ، لم يكن الا نتيجة لا مناص منها ، وان انطوت على البرم والدهشة ، لخطوة أمريكا فى سحب عرض مشترك ، مترابط ، فليس ثمة من شك فى أن السحب لم يكن مشتركا ونتيجة قرار واحد ولا ريب أيضا فى أن كل أمر يتعلق بهذا الموضوع انما صدر عن واشنطن وحدها ، وكنتيجة لذلك ، فقد رافقت موجة الغضب العربى على أمريكا موجة من السخط عند الرأى العام البريطانى لما أثارتة الحكومة الامريكية من أزمة دولية كبيرة ، ولا شك فى أن الحقائق تتحدث عن نفسها فى هذا الموضوع •

ولكن هل كانت هذه هى الحقيقة ؟ وهل كانت خطوة دالاس مفاجأة حقا لحكومة ايدن ؟ على الرغم من أن أزمة السويس الاصلية قد طغت طغيانا كاملا على كل شئ وحتى على الجذور ، والعوامل التى أدت اليها ، الا أن ثمة اسبابا رائعة اليوم تدعونا الى الشك بكل ما قيل عن سحب العروض المتعلقة بالسد العالي ، وقد وجدت هذه الاسباب قبل عام ١٩٦٠ ، أى قبل صدور مذكرات ايدن ، ولكن ايدن جاء بعد ذلك متطوعا فى الكشف عن معلومات جديدة لاريب فى أنها غريبة كل الغرابة ، فهناك مجموعة ضخمة من الاسرار والغرائب فى موضوع السويس تحتاج الى تحليلنا و«غربلتنا» ولكن يستحيل علينا ، على أى حال أن نمر بالغرائب التى تتعلق بجذور الموضوع وأصوله من الكرام دون أن نأبه بها، فلقد اعترف ايدن فى مذكراته بأن حكومته قد تبادلت «فى أواسط شهر يوليو» أى قبل التاسع عشر منه وجهات النظر مع واشنطن فى موضوع القروض ، وقد وجدت أن وزارة الخارجية الامريكية تشترك معنا فى شكوكنا وانها قررت وجوب سحب عروض القروض ، وعلينا أن نلاحظ والحالة هذه فورا بأن البيان الصادر عن وزارة الخارجية البريطانية فى التاسع عشر من يوليو ، اما أن يكون مجرد خداع علنى متعمد للتضليل ، أو أنه صادر عن موظف كان يجهل، ماتوصلت اليه الوزارة من قرارات •

ولكن ايدن لم يكتف بهذا ، بل مضى الى أبعد من ذلك ، فهو يؤكد أنه بالرغم من اتفائه مع واشنطن قبل منتصف يوليو على أن عروض القروض يجب أن تسحب إلا أنه .. يقول :

« وكنت أفضل التريث فى هذا الموضوع الى أطول مدة ممكنة ، وألا أصل الى النتيجة بسرعة ، لا سيما ، ولم يكن هناك من داع للاسراع ؛ لكن الامور لم تجر لسوء الحظ كما شئت ، اذ أحست الحكومة المصرية بلا زيب بتردد الغرب واحجامه عن الوعد بتقديم مبالغ أكبر لتنفيذ المشروع ورأى المستر دالاس - فى التاسع عشر من تموز (يوليو) لاعتبارات تم الى موقف مجلس الشيوخ من المساعدات الخارجية - نفسه مضطرا الى ابلار السفير المصرى الغاء العرض السابق . وقد أبلغنا بالقرار دون أن نستشار فيه . وهكذا لم تتح لنا الفرصة لنقده أو التعليق عليه .

وقد أسفنا لان هذا الاجراء تم بهذه الصورة المباغتة ، ولم يعط بلدنا الفرصة للتوفيق بين أسلوب التنفيذ وتوقيته ، مع أنهما عاملان لا يقلان أهمية عن القرار نفسه (١) .

وهناك سلسلة كاملة من التناقضات والانحرافات فى هذا التأكيد . وأول هذه التناقضات «اىثار» ايدن ، التريث فى سحب العرض أطول مدة ممكنة ، وهو يورد هذا التأكيد بعد أن يشرح بأسهاب وتفصيل كيف أن «أصدقاء» بريطانيا فى الشرق الأوسط ظلوا شهورا طويلة ، وفى طبيعتهم نورى العراق ، «يشكون» الى الغرب من هذه العروض بالقروض ، وكانت شكواهم واضحة اذ أن ايدن يعرضها بجلاء ويعترف بأنه قد وافقهم عليها حتى أن قرار سحب العرض قد اتخذ تلبية لها ، وكانت هذه الشكاوى تلخص فى أن بريطانيا تحطم «أصدقاءها» المخلصين عن طريق الظهور جهارا بمظهر الاستعداد لتقديم قروض هائلة لعدوهم وعدوها الصريح ، وكانت النقطة الجوهرية فى هذه الشكاوى ، أن العروض علنية .

وليس ثمة من ريب فى أن هذه الحجج كانت متفقة مع المنطق ولكن بما ينبو عن المنطق تماما هو قول ايدن - وهو شاذ - أنه اتخذ قراره بالتسويق أطول وقت ممكن ، ويؤلف هذا الشذوذ فى القول بوجود العرض القائم علنا خطرا على نورى السعيد ، ومع ذلك فقد قرر ايدن ألا يتسحب العرض الا بعد أمد طويل .. اذ ليس ثمة من حاجة الى العجلة ، وهل كان من الممكن أن يرضى نورى السعيد وان يهدأ الا اذا قيل للعرب ، علنا وبسرعة بأن عروض القرض قد ألغيت وأبطلت ؟ وأية فائدة كان يحتمل أن يجنيها نورى اذا اكتفت بريطانيا بأن تتخذ قرارا غير مكشوف بعدم تنفيذ العرض ؟ فنورى ورفاقه فى حاجة الى قطيعة علنية بين الغرب ومصر ، ولكن ايدن يقول انه لم يكن يرى ضرورة للسرعة فى هذه القطيعة .

أنا لأرى ذرة من المنطق فى كل هذا ، وان كان هناك ما هو أسوأ منه ، فقد اتضح منذ شهر يونيو لكل من يرقب الاحداث أن قضية القرض

(١) مذكرات أنطونى ايدن الجزء الثانى ، تعريب العرب .

بلسد العالي ، كانت تسير قدما نحو الذروة وأن مصر توشك على اتخاذ قرار قاطع ، وكان من الواضح وضوح النهار من الليل ، انه اذا كان ايدن قد قرر عدم تنفيذ العرض ، فان من واجبه نظرا لهذه الذروة التي كسان يسير الموضوع نحوها والتي كان ايدن يعرفها ، أن يطلب الى مصر ، ألا تفضي بأي بيان علني عن قرارها بقبول العرض ، ولو تجاهلنا لحظه واحدة البعد الاول عن المنطق ، الذي سجلناه قبل قليل ، ولو صدقنا كلمات ايدن في ظاهرها ، يتبين لنا أن ليس في الامكان «التسويق والتريث» اذا كانت مصر بإعلان قرارها ، ستفرض على بريطانيا «تحديد موقفها» وكان على بريطانيا والولايات المتحدة ، أن تقوما هما بالخطوة الاولى ، اذ لو كانت مصر ستعلن قرارها بقبول العرض ، فان هدف ايدن من التسويق سيضمحل من نفسه وينهار ، ذلك لان مصر ستكسب عطف الكثيرين بدلا من أن تفقد هيبتها أمام العرب .

ونحن مع ذلك نعرف معرفة قاطعة أكيدة ، أن ايدن ودالاس لم يطلبيا قط من القاهرة الامتناع عن اصدار بيانات رسمية في موضوع مفاوضات القرض ، ونحن لانعرف هذا من المصادر البريطانية وحدها ، بل نعرفه أيضا من الشهادة المشفوعة باليمين التي قدمها فيما بعد السفير الامريكي في القاهرة آنذاك ، والتي ذكر فيها انه لم يسمع أبدا بقرار سحب العرض أو بأي اعلان عنه الا بعد أن قرأ القرار نفسه في صحف القاهرة في التاسع عشر من يوليو (١) .

ولقد خول عبد الناصر سفيره احمد حسين في واشنطن أن يعلن قبول مصر للعروض ، ثقة منه بأنه مهما سارت أجواء الرأي العام الغربى سيرا غير موات لمصر فان العروض ستظل قائمة .

وماذا نستنتج من كل هذا ؟ اننا نستنتج أن ايثار ايدن الذي ذكره للتريث وإطالة الأمر أمدا آخر ، لا يتفق مطلقا مع الأسباب التي ذكرها هو لسحب العرض بالإضافة الى الحقيقة الواقعة وهي أنه لم يتخذ أى اجراء احتياطي مهما كان بدائيا للتأكد من قدرته على التسويق والتريث ، وهناك ما هو أسوأ في هذه القصة الغريبة ، فهو يؤكد أنه حتى تلك اللحظة التي علم فيها في التاسع عشر من يوليو بما فعله دالاس . كان لا يرى « سببا للعجلة» في اصدار قرار عن طريقة سحب العرض وتوقيته ، وأن الفرصة لم تتح له للتشاور مع المستر دالاس قبل أن يعلن الاخير قراره ، ولا ريب في أن السير. أنطوني لم يتمكن من وضع هذا التأكيد خطيا الا بعد أن حذف

(١) شهادة المستر بايرود أمام لجنة العلاقات الخارجية لمجلس الشيوخ الامريكية في دورة الكونجرس الخامسة والثمانين ، وكان بايرود قد اختلف مع دالاس في منتصف يوليو ، لانه كان كما اتهمه الوزير «كثير التأيد لعبد الناصر» وتلقى شيئا من التعنيف في السادس عشر من يوليو ، ولكن الرجل كان موجودا في القاهرة ، وكان يعرف كل ما يعرفه الرئيس عبد الناصر، ولم يكن على علم بقرار سحب القرض قبل التاسع عشر من يوليو المؤلف

عامدا متعمدا من روايته الحقائق المتناهية فى الدقة والتي وقعت حوالى منتصف يوليو .

لقد تعمد ايدن أن يحذف من روايته أن مصر قد أعلنت قبل يومين من بيان دالاس قبولها عروض الغرب ، وانها طلبت الاسراع فى اتمام اتفاقات القرض ، كما أصرت على عقد اجتماع عاجل مع المستر دالاس . . . وقد عرفت هذه الحقائق كلها فى السابع عشر من يوليو، ونقلتها البرقيات الصحفية عبر المحيط الأطلسى ، هذا اذا افترضنا أن جميع انصالات وزارة الخارجية البريطانية قد تعطلت لسبب غريب وغير معروف ، ولا يعقل أن يكون السير أنطونى ايدن قد ظل جاهلا حتى صباح الثامن عشر من يوليو أن الحاجة قد باتت ماسة الآن الى العجلة فى اتخاذ قرار عن الطريقة التى يلغى فيها العرض الذى قبلته مصر ، وان هذه « العجة » تقضى باجراء مشاورات سريعة مع المستر دالاس قبل أن يجتمع هذا الى سفير مصر ومع ذلك نرى أن السير أنطونى يدعى بأنه لم يعرف شيئا من كل هذا .

ولكن ماكان يجهله رئيس الوزراء، كان معروفا لكل من يقرأ صفحة الانباء الخارجية فى «التايمز» اللندنية أو كل من يستمع الى نشرات أخبار الاذاعة البريطانية . وحتى لو صدقنا رواية السير أنطونى عن عدم رغبته فى اعلان الانسحاب ، فقد أتيج له يومان كاملان للتشاور مع واشنطن والوصول معها الى شكل مشترك من الرد على قبول مصر العلنى وهل من المعقول أن يصدق المرء أن بريطانيا فى مثل هذه القضية التى اعترف رئيس وزرائها ايدن فيما بعد أنها كانت تنير شكوكها وشكوك أصدقائها ظلت تقف موقف عدم الاهتمام تجاه الانباء التى صدرت فى السابع عشر من يوليو عن قبول مصر للعرض ؟ وهل من المعقول ألا تكون بريطانيا قد رأت أن الحاجة ماسة الى اتخاذ اجراء تجاه هذا التطور ؟ وهل من المعقول أن رئيس وزرائها ظل بعد هذا التطور ، يشعر بأن فى الامكان الوقوف موقف التريث من قرار سحب العرض الذى اتفق عليه وأن ليس ثمة من حاجة الى استعجال البت فى القضية ؟

حقا انها لقصة ضعيفة تلك التى أوردها السير أنطونى، ولا ريب فى أن قصته على النحو التى أوردها فيه ، قد ضاعفت مئات المرات الشكوك القائمة والتى لها مايدعمها من أسس صحيحة من أن ايدن وزملاءه من أعضاء الوزارة البريطانية لم يكونوا أولئك الشركاء الابرياء الذين عرّتهم الدهشة ولم يستشاروا فى مهزلة سحب العروض (١) ، ترى اذن ما الغاية التى توخاها ايدن فى ايراده قصته على هذا النحو ؟ وما الذى نوخى أن يخفيه من حقائق ؟ ولماذا زعم فى الواقع منذ بداية أزمة السويس حتى

(١) كتاب «أزمة الشرق الأوسط» لونييت وكالفاكوريلى . . . اذ يقول المؤلفان . . . «مازال المدى الذى استشارت فيه أمريكا حليفتها بريطانيا فى موضوع شكوكها وحقيقة الخطوات التى اتخذتها بريطانيا لتوسيع هذه المشاورات من الاسرار الغامضة التى أحاطت بالازمة !! ويؤكدروسكو دراموند وجاستون كوبلفيز فى كتابهما «نحو السفير» ان دالاس قد تلقى تأييدا كاملا من ايدن .

بلوغها الأوج من العنف ، زعما باطلا أن الفرصة لم تتح له للتشاور مع الولايات المتحدة ؟

يصعب على المرء ألا يبر هذه الأسئلة الهائلة ، التي قد تنطوي على ضرورة إعادة النظر كليا وبصورة جذرية في جميع الاصول المتعلقة بأزمة السويس ، ولكن لنكتف في هذه المرحلة من البحث بالحفاظ على هذه الشكوك قائمة بكل ما فيها من مغاز ومعان ، وأرى لزاما علينا أن نتقدم مرحلة أخرى ، قبل الرجوع الى تلك الأسئلة في الكشف عن « الأسرار الأساسية لقضية السويس » وأرى لزاما علينا أيضا أن نتوقف لنستعرض تاريخ الشرق الأوسط بكامله ، في المدة التي سبقت بكثير السادس والعشرين من يوليو .

وراح الكثيرون يتحدثون عن نتائج هذه «الضربة» التي وجهها الغرب الى الرئيس عبد الناصر ، ويتوقعون تطورات خطيرة ، فلقد كان عدد كبير من العرب ، يعتقدون على الرغم من غضبهم لهذا العمل من الغرب ، وقد تأثروا بذكريات العهد البائد ، أن ليس في وسع أي زعيم عربي ، حتى ولو كان عبد الناصر بشعبتيه الهائلة أن يصمد لمثل هذه الضربة القوية ، المتعمدة من جانب الدولتين الغربيتين الكبيرتين (١) لقد كانت ضربة من الضربات التي كثيرا ما أطاحت بالحكومات في الوطن العربي اما بالاستقالة المصحوبة بالخجل ، أو بالضغط الطاغى من الدولة الغربية المتحكمة .. وشعر العرب في العشرين من تموز (يوليو) في كل مكان ، ان كل ما حققوه منذ عام ١٩٥٢ في طريق الدفاع عن الذات ضد الدول العظمى وان كل ما مثله لهم الرئيس عبد الناصر من معاني الكرامة والتحدى للاستعمار ، قد بات معرضا للخطر ، واختلطت صيحات الغضب والنقمة في كل مكان بشيء من الاذعان والتسليم بأن هذا هو ديدن الغرب منذ القدم .

وكانت هناك مفارقة غريبة في هذا الارتكاس العربي العام للموقف الجديد وهي مفارقة التفكير تماما في حدود ما يفكر به السياسة الغربيون أي الاذعان والتسليم بالمواقف التي كيفت السياسة الغربية ولا سيما البريطانية منها في الوطن العربي وسيرتها مدهطوية ، وأرى أن هذه النقطة مهمة كل الأهمية اذا أردنا أن نفهم ما عنته الأيام التالية لا بالنسبة الى

(١) لم تكن هذه المخاوف التي أعرب عنها المؤلف ، والتي لا شك في وجودها آنذاك ، قائمة عند أبناء الجيل العربي الصاعد المؤمن بقيادة الرئيس عبد الناصر ، وانما كانت ماثلة في خواطر أبناء الجيل القديم ، الذي ألف تحكم المستعمر وسيطرته ، أو بعض أبناء الجيل المخضرم الذين لم يكونوا من صلابة الايمان «بالشخصية العربية المستقلة» في درجة تمكنهم من استبعاد هذه المخاوف والايمان بقسوة الجيل العربي الجديد الذي يمثل الرئيس عبد الناصر طبيعته القيادية على تحدى الغرب والوقوف منه الموقف الصحيح الذي تمليه الكرامة القومية .

العرب

تاريخ العلاقات العربية الغربية فحسب ، وهي أيام تؤلف نقطة حاسمة لاردة عنها ، بل بالنسبة الى ماكان يسيطر على جماهير العرب من أمزجة وآراء .

وقد غضب الرجل الذي نركز عليه الاهتمام في الأيام القليلة التي تلت التاسع عشر من يوليو (تموز) ورفاقه غضبا شديدا ولا سيما بعد أن تواترت التقارير اليه عن حقيقة ما كان يفكر به دالاس ، ولكن رد فعل عبد الناصر والانجاء الذي سارت فيه أفكاره ، كانا متوقعين كل التوقع عند كل من عرف مصر والتاريخ المصري بحيث يمكن اعتبارهما انعكاسا فهو وحكومته جادان كل الجديه في موضوع السد العالي ، وهما يريان أن من الواجب أن يبنى بأى شكل من الأشكال، هذا اذا أرادت مصر الخلاص من هذه الدائرة الشريرة من الفقر وتزايد السكان الى حد التفجر ، واتجه التفكير الى الناحية التي يمكن العثور على المال فيها ولا سيما من النقد الأجنبي اللازم لتمويل المشروع . هذا مجرد اعتبار ولكنه لم يكن الاعتبار الأوحده .

وأحس عبد الناصر . أن حكومته قد أهينت اهانة متعمدة ، مباشرة وعلى نطاق عالمي ، ولكن الاهانة لم تكن موجهة الى الحكومة فحسب بل الى مصر كلها ، والى شعبها بل الى كل شعب كشعبها يتعرض للضغط والاهانة بشكل لا يطاق ولا يحتمل ، وراح يفكر . . ترى كيف يجب أن يكون رده على هذه الاهانة ؟ وكيف يمكن له أن يبرهن على أن العصر الذي كان يتقبل مثل هذا الضغط قد ولى وانقضى الى غير رجعة ؟ وكيف يستطيع أن يبصر العرب والدول الكبرى بهذه الحقيقة ؟ سأعود في فصل لاحق الى التحدث عن تفكير الرئيس عبد الناصر ورفاقه ، وأمزجتهم العاطفية بشكل أكثر استفاضة ، ولكنني أرى أن أكتفى هنا بالقول بأن هذه الأفكار كانت تطفئ على الرئيس وهو يهبط من طائرته عائدا الى القاهرة من بريوني ليواجه بهذه الخيالات الغاضبة عن السد العالي .

كان سحب القرض بالنسبة الى مصر ، صورة تعكس أوضاع مصر في تاريخها طيلة المائة سنة الماضية ، كما كان يتعلق بنهر النيل ، مصدر الحياة لها ، ومحور قلقها واهتمامها ألوف السنين ، ولقد عاشت مصر منذ عام ١٩٥٠ ، أى منذ بدأت المفاوضات لشق قناة السويس ، تحت وطأة الضغط المالى الاجنبى ولا سيما عن طريق القروض التي تهدف الى تمويل المشاريع العامة الرئيسية ، وقد جاء احتلال مصر نفسه في عام ١٨٨٢ ثمرة هذه التورطات المالية ، وتم تنفيذ الاحتلال عن طريق قناة السويس وقد انتهى هذا الاحتلال قبل شهرين ، اذ غادر آخر جندي بريطاني منطقة القناة ، واتجه تفكير القاهرة الرسمي الى قناة السويس فورا في تلك الساعات الغاضبة التي تلت التاسع عشر من يوليو ، تماما كما يتجه تفكير البريطانيين حتما الى وستمنستر ولندن ونهر التيمز والقناة الانجليزية عندما تتراءى أمامهم صورة بريطانيا .

وقد طالب الوطنيون المصريون منذ سنوات طويلة حتى قبل أن يولد

الرئيس عبد الناصر، بعودة شركة قناة السويس الى مصر (١) وكانت القناة تمثل منذ حقبة طويلة للمصريين رمزا بارزا للضغط الخارجى والاستغلال المالى والاقتصادى ، وكانت الحقائق المتعلقة بها بمثابة « أوراد صوفية » تتكرر على ألسنة المصريين من أبناء جيل عبد الناصر ، وكانت مصر قد ساهمت بنحو من نصف رأس المال الاصلى وتكاليف شق القناة على صورة أسهم وعمل مجانى وتسهيلات ، ووقعت الخزانة المصرية نتيجة ذلك تحت أعباء ديون للمصارف الاوربية تستوفى (١٢) فى المائة كفائدة سنوية على المبالغ الاسمية التى أقرضتها لمصر والتى لم تدفع لها فى الحقيقة الا ثلاثة أرباعها أى مجرد سبعة ملايين ونصف المليون من الجنيهات من مجموع عشرة ملايين تستوفى عليها كلها فائدة سنوية قدرها (١٢) فى المائة . وكانت مسئولية حكام مصر عن هذا الابتزاز وامتنصاص الدماء ، لا تقل من ناحية استخذائهم عن مسئولية أرباب المصارف من الاوروبيين الذين كانوا يوالون الضجيج والصراخ فى لندن وباريس مطالبين بفوائد أموالهم . ولقد كان الضعف الداخلى فى مصر ، ومسئولية الحاكمين عنه ، فى رأى أبناء حقبة الخمسين ، هما السببان اللذان أديا الى ثورة عام ١٩٥٢ ولكن الذكريات الخارجية لم تنته بقيام الثورة ، بل ظلت قائمة كرمز واضح ، ولقد دون حجة بريطانى فى الموضوع ما يلى :

« لقد أرغمت مصر على الاسهام اسهاما ضخما فى منح هذا الامتياز وفى الأعمال الانشائية التى جرت لشق القناة ، دون أن يسمح لها بحصة فى المشروع ، ولا ريب فى أن ما عاناه فلاحو مصر من أعمال السخرة ابان شق القناة ، ومن ابتزاز الاموال منهم فيما بعد لدفع الفوائد على ديون القناة ، تؤلف دينا معنويا فى عنق أوربا لمصر ، لم نسمع أحدا يتحدث عنه فيما بعد » (٢) .

ويمكن تدهور مصر المالى وسيرها فى طريق الافلاس دزرائيلى فى عام ١٨٧٥ من شراء حصة مصر البالغة (٤٤) فى المائة من أسهم شركة القناة بمبلغ أربعة ملايين من الجنيهات ، مع أن قيمتها الاسمية الأصلية وحدها كانت نحو من (١٦) مليونا . ومنذ ذلك التاريخ لم يعد من حق مصر قانونا أو ماليا أن تأخذ أية حصة من أرباح الشركة التى أدى ازدهارها الى تحولها الى مصدر من أكبر مصادر جنى الأرباح فى الميدان المالى العالمى ، اذ بلغت أرباحها فى عام ١٩٥٦ نحو من عشرين مليونا من الجنيهات فى السنة ، وقد طبق مديرو الشركة وبينهم الحكومة البريطانية التى تسيطر على حصة مصر السابقة من أسهم الشركة ، نص مرسوم تسجيل الشركة تطبيقا ينطوى على أكثر عمليات الاستغلال قسوة فى القرن العشرين للصفقات المالية التى عقدت بطريق القسر فى القرن التاسع عشر وتظل هناك حقيقة ماثلة وان صعب تصديقها ، وهى أن مصر ظلت حتى

(١) كانت هذه المطالبة موجودة منذ احتل البريطانيون مصر عام ١٨٨٢ ، ولكنها بلغت ذروتها فى عامى ١٩٠٩ و ١٩١٠ عندما اقترحت الشركة اطالة أمد امتيازها الى ما بعد عام ١٩٦٨ . المؤلف

(٢) كتاب السير جورج يونج «مصر» - لندن ١٩٢٧

عام ١٩٣٧ ، لا تتلقى أى دخل مهما كان ضئيلا من عبور السفن لأراضيها . ولم يقتصر وضعها على رؤية هذا الدخل العظيم ينساب الى الخارج عاما بعد عام فحسب ، بل كانت تجد أن بواخرها التي تحمل العلم المصرى ترغم على دفع رسوم المرور فى أرض مصرية الى شركة يملكها الاجانب .

ولم تفكر الشركة باصلاح هذا الوضع الشاذ الا بعد عام ١٩٣٧ وبعد ضغط شديد تعرضت له . وسمح لمصر بموجب اتفاق عام ١٩٤٩ الذى سبق نهاية الشركة ، بأن تتقاضى سبعة فى المائة من دخل الشركة السنوى . واعتبرت الشركة هذه النسبة ضخمة للغاية . ولكن لايحتاج المرء الى أن يكون مصريا ليدرك مدى شعور المصريين تجاهه . وقد نشأ الرجال من أمثال عبد الناصر فى بلاد كان رجال المال الاجانب القابعون فى أجنحتهم الخاصة فى فندق شبرد الاسطورى فى القاهرة ، والى جانبهم أزوار ثلاثة يستدعون بواسطتها الناس لخدمتهم ، لايتورعون عن ابداء مثل هذه الاشارات من المن على مصر ، بحقوقها . ولم يكن هؤلاء الناس الذين يهرعون لخدمة هؤلاء المالىين والذين يطلق عليهم الاجانب اسم « أبناء البلد » زراية واستهانة ، الا أبناء الشعب الذى يمت اليه عبد الناصر .

وقد طافت جميع هذه الذكريات فى مخيلة الرئيس فى العشرين من تموز (يوليو) عندما أنارها هذا العمل الذى قام به الغرب والذى لا مثيل له ولا سابقة فى العلاقات الدولية . وعلى الرغم من أن هذه الذكريات مؤلمة للكثيرين من أصحاب الاحاسيس الوطنية القوية . الا أن من الضرورى أن نحاول التسلل الى عقول العرب لنفهم ردود الفعل التى استشارتها الأنباء التى أعلنها الرئيس بعد ستة أيام . وعندما تحدث الرئيس من على نفس المنبر الذى جرت محاولة اغتياله الفاشلة عليه قبل عامين ، أثار دهشة واعجاب جميع الناس حتى خصومه من الاخوان المسلمين والشيوعيين . ولم يكن فى وسع أى مصرى ، مهما كان اتجاهه فى تلك اللحظة الا أن يعجب بشجاعة هذا القائد وجراته ، وأن يرفع رأسه عاليا معتزا بكرامته . وكان قراره بتأميم شركة قناة السويس ، مصريا فى صميمه ، متأصل الجذور فى تاريخ بلاده . مثيرا لدهشة مواطنيه لا بالنسبة الى القرار نفسه بل بالنسبة الى هذه الشجاعة العظيمة التى تمثلت فى جراته .

وانصت جماهير المثقفين ، التى استفزها سحب الغرب لعروضه الى القرار والدهشة تغلبها ، وعندما تمثلت أمامهم جميع المعانى التى ينطوى عليها قرار الرئيس ، لم يستطيعوا أن يكتبوا ابتسامة لاحت على وجوههم ، وهزة تحركت بها رؤوسهم وكان لسان حالهم يقول . . . « هذا الرجل . لاندري كيف فعل ما فعل ، ولكنه فعل حقا ما لم يستطع أن يفعله أى رجل من قبل » . وعندما تبين بعد أسبوع ، مافى رد الفعل الغربى على القرار من عنف ينذر بالخطر . لم يستطع حتى أولئك الذين تحولوا الى النقد ، اخفاء مشاعرهم ، بالاعتزاز بهذه الخطوة التى اعتبرت نقطة تحول فى تاريخهم .

وتفجرت مصر كلها بحماسة منقطعة النظر تأييدا لعبد الناصر

الذى لم يكن قد سبق له أن تغفل بمثل هذه القوة من قبل الى نفوسهم وشغاف قلوبهم اذ (جلفن) galvanized أرواحهم (الجلفنة تعنى المعالجة بالكهرباء الكيماوية) واستفز مثل الكهرباء الكبرياء التى طالما حنوا الى التعبير عنها بقامات منتصبة . وقد لا يكون من الغلو فى شىء أن استخدم مثل هذه العبارات لأشرح هذه اللحظة التاريخية حقا ، فى بلاد عريقة جثم عليها الشقاء طويلا ، وألفت من الغرب تعبيرات الزراية والامتهان . ومن التضليل كل التضليل ، بما فيه من اخطار ، أن يقال ان هذه الاستجابة العامة والعارمة لخطاب التأميم ، كانت مجرد ثمول ولدته العواطف الدهمائية أو نزعات الكره للأجنبى . فلقد مست الدول الغربية ، عن جهل أو عن سابق عمد واصرار ، كل ما فى مصر من أعصاب حساسة ، كال فقر والنبل والحياد والضغط المالى . وقد حدث كثيرا من قبل ، وطيلة حقبة طويلة ، أن مصر لم تكن تتوقع أن تخرج من هذا الوضع من تحمل الاذى والاذلال .

وكشف القائد الغاضب فى الوقت نفسه عن مدى « تجاهله » لما يتركه التعبير عن احساسات بلاده ، وعن قوة الكبرياء الضخمة التى تسيطر عليها ، وذاكراتها التاريخية ، والخوف « المجلفن » من بريطانيا وفرنسا على الراى العام الغربى . ولم يكن خطاب عبد الناصر بالطبع مرضيا لمسامع الغرب ، وكانت اللحظة التى ألقى فيها هذا الخطاب من تلك اللحظات التاريخية التى يعمل فيها ويفكر ويتحدث كمصرى صميم من أبناء ريف مصر لا كرئيس لجمهورية بلاد لها مركزها السوقي « الاستراتيجى » المهم ألفت سلطاتها الماضية أن تضع بريطانيا وفرنسا نصب أعينها ، وهى تتحدث علنا الى جماهير شعبها . وبدأ الضابط المتواضع الخجول ، ذو الثمانية والثلاثين عاما يكتشف وهو فى منتصف خطابه ، الطريقة الصحيحة التى يجب أن يتحدث بها من على منبره الى شعبه هو لا الى الآخرين . وهكذا عندما وصل الى هذه المرحلة من تفكيره ، اختفى من أمامه ، كل ما يقع وراء المنطقة العربية التى يهيمه أمرها وحده . حقا لقد كانت ليلة العرب وحدهم من ميدان محمد على فى الاسكندرية الى بغداد شرقا وتطوان غربا .

ولكن العالم سيقرا خطابه ، ولن يكتفى بقراءة نبا التأميم ، بل سيطلع على اللهجة التى صيغ فيها الخطاب . وكان قد شرع قبل يومين يشن حملة يضمنها غضبه العارم ، وعندما ألقى خطابا ضمنه آية قرآنية كريمة أشار فيها الى الأمريكان قائلا : « قل موتوا بغيظكم » . واستغل رجال الصحافة الغربية هذه الإشارة ، فأبرقوا بها الى صحفهم فى الغرب لتصدر الصحف الأمريكية وقد حملت صفحاتها الاولى عناوين ضخمة تقول ان عبد الناصر يريد من الأمريكان أن يموتوا غيظا . وكان هذا هو المعنى الحرفى للآية القرآنية ، ولكن الترجمة الحرفية فى أيام الازمات كثيرا ما تكون مدعاة الى الخطر المرعب ، ولا ريب أن ما عنته الآية ، لسامعيه من الناس هو انه « لايهتم اذا كانوا يتواثبون من الغيظ فهو عازم على المضى فيما قرره » ولكن الترجمة التى تتجاهل جميع الفروق فى علم المعانى هى التى جعلت الصحف الغربية تضع هذه العناوين الضخمة التى طالعها القراء الغربيون .

ويبدو أن هذا التطور كان حتميا ، هذا اذا أخذنا بعين الاعتبار كل ما وقع بعد عام ١٩٥٤ ، وكل ما سبق ذلك التاريخ من جذور تاريخية . وكانت كرة الثلج من التوتر المتبادل التي شرحناها فيما مضى على انها رمز لسوء التفاهم بين العرب والغرب ، وما يحدثه سوء الاعلام من فروق وخلافات ، قد وصلت كلها الى درجة طاغية ولا يمكن اصلاحها . وكما اثارت اللفة التي استخدمها دالاس في بيانه بسحب العروض غضب القاهرة وسخطها مما ادى الى القيام بذلك العمل الانفعالي الخطير خلقت اللفة التي لجأ اليها عبد الناصر في خطابه تيارا عنيفا من السخط في الغرب وقد وجد هناك في جميع أرجاء الغرب ، ولاسيما في بريطانيا بصفة خاصة ، جماعة من الاحرار ، كانوا يرون الوقوف منذ البداية ، لولا اللهجة التي استخدمها عبد الناصر في خطابه الذي اعلن تأميم شركة القناة ، موقف الحذر من المحاولات الكثيرة التي جرت لاستغلال العمل الذي قام به . وكان هؤلاء الاحرار ، قد بدأوا بعد وقت قصير يفكرون تفكيرا متزنا ويحللون ماقام به الرئيس عبد الناصر ، ومدى مافي عمله من خطورة اولا خطورة . وقد يكون المستر جيتسكيل الزعيم العمالي المثل البارز لهؤلاء الاحرار ، اذ استفاق بعد الكثير من النصائح من الهزة الاولى التي جعلته يشبه التأميم بمؤتمر ميونيخ في عهد هتلر ، وعاد يتحدث بحرص عن النتائج المهمة العميقة المنتظرة .

ولكن كانت هناك جذور تاريخية نائمة ، ولم تكن في حاجة الا الى من يوقظها . لتستفيق من سباتها . وهي مجموعة من القوى التاريخية التي سيطرت على الرأي العام ، كالتشنج العنيف والمرارات الناجمة عن العهود الاستعمارية السابقة في مصر ، والشعور الغريزي بكره المصريين عند الملايين من الناس العاديين ، الذين لم تحاول السلطات الرسمية في الغرب التحدث الى طبائعهم العاقلة . واني لا أظن مطلقا ان هذه القوة السلبية في بريطانيا كانت حديثة في اصولها كما يستدل من آية قراءة سطحية للتاريخ ، فلقد كانت ترجيعا لما سبق ان اعلنه اللورد شيلبورن في عام ١٧٧٨ اذ قال :

« منذ اللحظة التي وافقت فيها حكومتنا على اعلان استقلال أمريكا بدأت شمس بريطانيا العظمى في المغيب ، ولن تظل بلادنا بعد اليوم بلادا قوية ، محترمة » (١)

ولقد كان ثمة صراع دائم ، متحرك ، عميق في بريطانيا بين الاحرار الذين ينشدون مفاهيم مختلفة عن العظمة وبين المحافظين الذين كانوا يقيسون العظمة والقوة بالمقاييس التي حددها شيلبورن في تعبيراته . ولقد ظهرت الآن تجاه عبد الناصر ومصر والحركة التي يمثلانها نفس اللهجة الغاضبة من التعليقات العامة ، التي اتخذها البريطانيون فيما مضى وقبل ظهور الامبراطورية العظمى الثانية في القرن التاسع عشر من أمريكا الفتية والمصممة على الحفاظ على استقلالها أشد التصميم ، والتي صورت على النحو التالي :

(١) تاريخ انكلترا البرلماني المجلد (١٩) لندن ١٧٧٨ .

« لقد سلكنا مع أمريكا سلوكا ينطوى على صبر لامثيل له ، ولكن هذا الصبر ، قد خلق حماقات بات لزاما علينا أن نعاقبها » (١) .

ولم يكن الشعور على طرفي القنائة الانكليزية - اى فى انكلترا وفرنسا ناجما عن مجرد الغل والحقء . فلقد كانت مفاهيم شيلبورن ومخاوفه التى ظهرت الآن فى اقوى مظاهرها ناجمة قبل كل شىء عن شعور أصيل بأن واجب مصر كان يحتم عليها أن تقف موقف « المعترف بالجميل » تجاه كل ما فعلته بريطانيا مع مصر طيلة الاحقاب العديدة التى تلت عام ١٨٨٢ ، وتجاه موافقتها اخيرا على الجلاء عن مصر فى عام ١٩٥٤ وقد أنهى الاخوان برومبيرغر اللذان يعملان كمراسلين صحفيين كتابهما عن السويس بفقرة تكشف الكثير من حقيقة الموقف الفرنسى ، وهذه هى :

« سيأتى اليوم الذى يتحتم فيه على مصر أن تجرى حسابات جديدة . وقد يبدو لها آنذاك ان استعمار فرنسا لم يكن باهظ التكاليف فلقد اقمنا فيها مدرا مائيا شق الصحراء وجعل منها دولة عظيمة . وقد حفرنا لها قنواتها ، وعلمنا طلابها ، وتولت راهباتنا رعاية مرضاها فلماذا تؤدى كل هذه الخدمات التى قدمناها الى أن ينفث المصريون حقدهم علينا فى افريقية الشمالية » (٢) .

ولقد كانت هناك فى هذا الموضوع : اى موضوع الحوار التقليدى بين الاستعمار والوطنيين ، فترات أخرى فى ردود الفعل تختلف عما حدث فى السويس . ولعل الثورة التى وقعت فى دبلن فى عام ١٩١٦ والتى غطتها أحداث الحرب العامة التى كانت دائرة آنذاك ، والاضخم صورة ووجودا تعتبر احدى هذه الامثلة ، وكانت ثورة غاندى الصريحة التى تمثلت فى قرار « اخرجوا من الهند » لعام ١٩٤٢ ، مثلا آخر . ولكن أزمة السويس تظل متفوقة عليها فى ضخامتها على اى حال ، لانها من الناحية الاولى شملت أكثر من دولة واحدة بصورة مكشوفة ، ولانها انطوت على أكثر من قوة واحدة للعواطف ووجهات النظر . فلقد شملت أزمة السويس كلا من بريطانيا وفرنسا كما شملت مجالات الحرب الباردة والالتزامات العميقة التى التزم بها عدد من الشعوب تجاه فلسطين والصهيونية فى جميع أرجاء العالم والتى كان من بينها التزام حزب العمال البريطانى . وقد انطوت أزمة السويس أيضا على اثاره المخاوف المهتاجة لكل حكومة من حكومات العالم ، تعتمد تجارتها الى حد ما على القنائة .

ولا ريب فى أن هذا الجو من المسوغات المتعددة الذى سيطر على بريطانيا وفرنسا ، والذى لم تكبح جماحه القيود العادية التى تفرض على الرأى العام الدولى ، هو الذى اتاح لهاتين الدولتين استخدام خطاب السادس والعشرين من يوليو لفائيات تتجاوز حدود كل توافق مع

(١) مجلة (كوريير) اللندنية عام ١٨١١ فى معرض الرد على بيان الرئيس الأمريكى جيفرسون بوجوب خروج السفن البريطانية من مياه أمريكا - المؤلف -

(٢) كتاب أسرار السويس لمؤلفيه الفرنسيين ا م - واس - برومبيرغر . نيويورك ١٩٥٧ .

ما أوحى به خطاب الرئيس عبد الناصر ، بل لا يرتبط به بأي حال من الأحوال . ولا ريب في أن هذا الجو نفسه هو الذي اتاح الفرصة لاختفاء كل الحقائق الواقعة المتعلقة بقصة السويس أو ما يمكن أن ندعوه بخفايا السويس وأسرارها . ولم تقف أضخم فضيحة في التاريخ البريطاني مدة طويلة على قدميها ، إذ أعيد إلى كرسى الحكم في البلاد اثر انتخابات عام ١٩٥٩ ، التي كانت بمثابة محكمة للرأي العام ، أعضاء حكومة السير انطوني ايدن . وأحسن ايدن بهذا القرار الذي أصدره الرأي العام ، فاستخدم أوراق الدولة في إصدار الصورة التي أرادها عما وقع . ولهذا من الأهمية بمكان عظيم أن نحاول درس القصة بكاملها وبجميع مافيها من تفاصيل . ولقد عثرنا حتى الآن على إحدى نقاط الضعف الضخمة في بنیان القصة التي رواها ايدن كشهادة على ما وقع ، وهو ضعف يتعلق بكل ما للآزمة من جذور وأصول . وليس تمة من شك في وجود عدد كبير آخر من أوجه الضعف في هذه القصة أيضا .

والآن كيف سنسير في تفحص هذه القصة ؟ وما الذي نريد أن نفرره أو نصل إليه ؟ لعل من خصائص أية دراسة جدية لقصة السويس أنه كلما أوغل المرء متعمقا فيها ، كلما اتضحت له دلائل جديدة ولا سيما في مذكرات ايدن نفسها . على صعوبة العثور على نقطة البداية سواء من الناحية الزمنية أو من ناحية الاتجاه . وعلينا أن ندرس موضوع التواطؤ بين انكلترا وفرنسا واسرائيل في حرب السويس . وعلينا أن نقرر أيضا ، وفي حكم الواقع ، أن هدف بريطانيا وفرنسا والعراق كان منذ بداية الآزمة ، الاطاحة بالرئيس عبد الناصر ، وعلينا أن ندرس دراسة دقيقة مدى ما في القصة الاسرائيلية المعروفة من أن قرارها بمهاجمة سيناء قد اتخذ في حالة سربة طارئة وفي أواخر شهر أكتوبر من تضليل .

بيد أنه لا يمكن تحليل هذه القضايا الثلاث الواسعة وحدها ، على ضوء ما وقع في الفترة بين السادس والعشرين من يوليو والتاسع والعشرين من أكتوبر أي عندما بدأ الهجوم الاسرائيلي . فهناك أدلة جذرية كبيرة ، تعود في زمنها إلى ما قبل السادس والعشرين من يوليو فهل كان القصد في ذلك التاريخ وقبله الاطاحة بعبد الناصر ؟ وهل كانت اسرائيل تعتزم الاستيلاء على شبه جزيرة سيناء ؟ وهل كان ايدن قد اتفق منذ مدة مع نوري السعيد على إعادة تنظيم الصورة في الشرق الأوسط كله ؟ وأين تقف قصة السد العالي من جميع هذه الخطط والقضايا ؟ .

علينا أن ندقق البحث في جميع الأدلة التي تثبت هذه القضايا أو تنفيها ، قبل أن نستطيع التعمق في درس آخر في غوامض السويس وسيناء وأكثرها خداعا وعموضا ، وهي مسألة التواطؤ بين الدول الثلاث في عدوانها وكشف الاسرار المتعلقة بالحرب الثلاثية نفسها .

وهل كانت هنالك حقا أربع طرق تؤدي إلى السويس ؟ وهل كانت تمة أربعة اتجاهات سياسية تطرد في نموها المستمر فرادى أو متحالفة أو متفقة في الهدف بين حكومات فرنسا واسرائيل وبريطانيا والعراق ؟ وكل ذلك قبل السادس والعشرين من يوليو ؟ وهل هنالك حقا حقائق تختفي وراء الأحداث التي كنا نتابعها في الصفحات السابقة ؟ .

أربع طرق إلى السويس

« كان نوري السعيد يرى الوقائع السياسية بوضوح . فلقد أكد أن أي عمل ضد الاردن لن يصل الى جذور المشكلة الاساسية التي تكمن في مصر » .

**مذكرات ايدن - بتاريخ السادس والعشرين من
يناير عام ١٩٥٦**

* : *

« لم احاول قط اخفاء الحقيقة الواقعة وهي ان موقف حكومة عبد الناصر . سيترك آثاره في شمال افريقية »

موليه في سبتمبر ١٩٥٦ . في مؤتمره الصحفي في لندن

* *

« تختار سوقية (استراتيجية) الحرب احيانا الوسائل السياسية لايجاد الظروف المواتية لاتخاذ قرار تعبوي (تكتيكي) ، لنوفر بذلك الكثير من التعب والدماء .

من حديث ليادين للمعلق العسكري ليدل هارت

* *

تري ما المواقف والاتجاهات السياسية والاهداف التي نالت لبريطانيا والعراق وفرنسا واسرائيل عندما بدأ شهر يوليو القدرى في عام ١٩٥٦ ؟ ارى لزاما علينا ان نبدأ في بحث ماتعلق بفرنسا من هذه الاسئلة ...

فرنسا :

كان شهر مارس من عام ١٩٥٦ . شهرا تاريخيا بالنسبة الى الجمهورية الرابعة . فلقد فقدت فرنسا في ذلك التاريخ كلا من تونس والمغرب اللذين حصلتا على استقلالهما . وازدادت أهمية الجزائر لها . وما يتعلق بهذه الاهمية من ضرورة تصفية الثورة الوطنية فيها ، لاسيما وقد كانت فكرة احتمال خسارة فرنسا لهذا البلد الاخير في افريقية الشمالية تثير غضب الفرنسيين وسخطهم . ولقد ظل مخططو السياسة الفرنسية طيلة السنوات الثلاثين الماضية . أو مايربو عليها ، يرون أوثق الاتصال والترابط قائما بين الشمال الافريقى والشرق الاوسط ، اذ ظل هذا الشرق دائما مصدرا خطرا من مصادر الإيحاء للحركات الوطنية العربية في الشمال الافريقى . وها قد ظهر في القاهرة الآن قائد

يتمتع بشعبية عظيمة واسعة يتولى دعم الثورة الجزائرية ومساندتها جهارا وعلانية . وتحول الغضب الذي يغلي في نفوس الدوائر السياسية الفرنسية والجيش على الاخص الى ايمان واضح بأن الاطاحة بعبد الناصر هي المفتاح الحقيقي لبقاء الجزائر فرنسية كما يريد الاستعمار الفرنسي وكانت لفرنسا حتى عام ١٩٤٦ ، مواطىء قدم سياسية - عسكرية في الشرق الاوسط - اى في سورية ولبنان - تعمل منها على محاولة الحيلولة دونه تسرب الايحاء الوطنى الخطر الى الشمال الافريقى . ولكن هذه القواعد ضاعت الآن ، وان كانت قد حلت محلها أداة جديدة محتملة وهى اسرائيل ، لا يقل قادتتها تلهفا عن تلهف فرنسا على التقليل من شأن عبد الناصر والاطاحة به وبحكمه . ولم يكن لفرنسا في الشرق الاوسط العربى من المصالح الضخمة ما يحول بينها وبين العمل على اقامة تحالف عسكرى مكشوف وصريح مع اسرائيل . فاذا أضفنا الى هذه الحقيقة الواقعة ، حقائق أخرى بينها أوجه الشبه القائمة بين المهاجرين اليهود الى فلسطين والمستوطنين الفرنسيين في الجزائر وأعجاب اليسار الفرنسى بالتطورات الاشتراكية في اسرائيل ، وأعجاب العسكريين الاسرائيليين بالعسكرية الفرنسية وخططها وأساليبها ، توافرت أمامنا الحوافز الجديدة التى أدت الى تحول الارتباطات الودية بينهما الى حلف عسكرى تمت اقامته في عام ١٩٥٦ .

وهناك في الحقيقة أدلة قوية للغاية على أن العلاقات الفرنسية - الاسرائيلية ، كانت على صعيد شحنات الاسلحة المتفق عليها سرا ، والمنكرة علنا ، قوية وحارة منذ عام ١٩٥٥ . ولقد دونا فى فصل سابق ما وجهه الرئيس عبد الناصر من اتهامات عن وجود مثل هذه الصفقات ، كما دونا محاولات فرنسا واسرائيل نفيها وانكارها ، وما تبع ذلك من تأييد غريب لها ، بسيل طائرات « الميستير » النفاثة الذى بدأ فى التدفق على اسرائيل منذ ابريل عام ١٩٥٦ . وتشير الحقائق الى أن اسرائيل بدأت بطلب شحنات (الميستير رقم ٢) منذ شهر نوفمبر عام ١٩٥٤ ، ولكن موظفى وزارة الدفاع الفرنسية ظلوا ينكرون وجود هذه الطلبات حتى بعد انقضاء عام كامل على تقديمها ، ثم واصلوا الانكار والنفى حتى ابريل من عام ١٩٥٦ . وقد دونا فى فصل سابق كيف ان الاسلحة الفرنسية التى استخدمها الاسرائيليون فى معركة سيناء فى عام ١٩٥٦ قد تطابقت من ناحية الكيفية والكمية مع اقوال الرئيس عبد الناصر فى اواخر عام ١٩٥٥ عن وجود صفقة ضخمة للتسلح بين فرنسا واسرائيل وهى اقوال واصل الفرنسيون والاسرائيليون نفيها كذبا ونفاقا حتى ابريل عام ١٩٥٦ .

وكان فى الامكان فى عهد الجمهورية الفرنسية الرابعة ، حيث كان لضباط الجيش ولساسة الجناح اليميني الواقعي تحت سيطرة الرغبة فى الحفاظ على الجزائر نفوذ أضخم بكثير مما يبدو حتى لرئيس الوزارة موليه أحيانا ، أن يعقد اتفاق سرى مع اسرائيل لتزويدها بالسلح حتى دون وجود تحالف رسمى بينهما يربطهما كدولتين . ولكن سرد الاعمال التى قامت بها فرنسا فى الشرق الاوسط بين شهرى مارس ويوليو من عام ١٩٥٦ يوضح ، حتى ولو كان مفتصبا كل الاغتصاب . وجود رباط

يشبه الحلف بين الفريقين ، أو يدل بوضوح على وجود اصرار فرنسي من جانب واحد أى منفرد عن الدول الغربية الأخرى ، على الإطاحة بعبد الناصر .

ولقد استدعى موليه فى السادس من مارس (آذار) السفير المصرى لمقابلته . وقابله مقابلة جافة تميزت بطابع الحديث عما يلقاه ثوار الجزائر من عون مصر ومساعدتها . وسرعان ما أعلن فى نفس اليوم فى باريس أن إسرائيل قد أوصت على شحنات من الأسلحة المضادة للدبابات من المصانع الفرنسية .

وأعلن المسيو جاك سوستيل فى التاسع من مارس ، وكان آنذاك حاكما عاما فى الجزائر أن السلطات الفرنسية هناك قد عثرت على وثيقة من وثائق الثورة الجزائرية ، تقيم الدليل على أن الرئيس عبد الناصر لم يكن يساند جبهة التحرير الجزائرية ويدعمها فحسب بل كان على حد زعمه يدبر من القاهرة دفة الحرب التى تخوضها الجبهة ، وقد ارتكز هذا الاتهام الزائف الكاذب ، الذى ترك أثرا بالغا على تشويهه فى ترجمة وثيقة عربية . وهو تشويه لا يمكن أن يكون عارضا وغير متعمد وقد اتضح هذا التشويه عندما ارتكب سوستيل خطأ فاحشا بنشر صورة فوتوغرافية للوثيقة فى مجلة «حب الجزائر وآلامها» التى تصدر بالفرنسية .

وأجرى أيدن فى الثانى عشر من مارس محادثات مع موليه فى تشيكرز ، وراح الأخير يعلن للصحفيين بعد انتهاء المباحثات أن بريطانيا وفرنسا ، وكذلك الولايات المتحدة على مايعتقد ، ستفاهم قبل انقضاء وقت طويل على أن من واجبها أن تتخذ موقفا موحدا من العلاقات الدبلوماسية مع مصر ، ترى ما هو هذا الموقف الموحد ؟! جدير بنا أن نذكر أن محادثات أيدن - موليه قد وقعت بعد عشرة أيام فقط من الهزة التى أصابت داوننج ستريت فى الصميم من جراء طرد جلوب من الأردن .

وقام وزير خارجية فرنسا بزيارة القاهرة حيث اجتمع الى الرئيس عبد الناصر فى الرابع عشر من مارس ، وكان بينو قد حاول أن يقنع الجمعية الوطنية الفرنسية (البرلمان) بأن مما يجفو الحكمة اتباع سياسة معادية لعبد الناصر ، وراح يقترح الآن على الرئيس المصرى ، أن تواصل فرنسا سياستها فى عدم الاكتراث بحلف بغداد ، وأن تنأى عن محاولات الضغط التى تحاول الدول الغربية الأخرى فرضها على مصر ، شريطة أن تتوقف مصر عن كل تأييد للشورة الجزائرية ، ولكن عبد الناصر رفض اقتراحات الوزير الفرنسى ، وتحول بينو منذ ذلك التاريخ الى خصم شخصى آخر من الخصوم فى الغرب للرئيس عبد الناصر ، الذين يحتلون مراكز مرموقة ، لاسيما وقد اشتد حقه عليه من جراء رفضه لاقتراحاته ، وهو رفض كلفه الكثير من مكانته الشخصية فى فرنسا (١) .

(١) كتب أيدن عن الاسبوع الاول من أزمة السويس يقول : «وكان موليه قد امتنع صادقا عن انتقاد حلف بغداد منذ زيارته لى فى تشيكرز فى وقت مبكر من ذلك العام عندما قمنا بعمل مشترك رائع فى طريق تنسيق سياساتنا» مذكرات أيدن - المؤلف -

وصدر في الخامس عشر من ابريل أول اعتراف عن بيتنح طائرات «الميستير» النفثة الفرنسية الى اسرائيل ، وأعلن في الثاني عشر من مايو عن وصول دفعة أخرى من هذه الطائرات الى اسرائيل ، واتضح في شهر مايو أيضا تمام الاتضاح ان فرنسا كانت تحاول حمل لندن وواشنطن على العدول عن تقديم القروض لمشروع السد العالي . وصرح بيتنح بعد عودته من زيارة واشنطن في شهر يونيو ، انه اغتنم فرصة وجوده في العاصمة الامريكية ليطلع المستر دالاس على حقيقة الرئيس عبد الناصر وعندما أعلن دالاس في التاسع عشر من يوليو سحب عروض القرض للسد العالي ، لوحظت على المبعوثين الفرنسيين الدبلوماسيين في عواصم الشرق الأوسط ، علائم الانسراح ، لاعلائم الدهشة أو الجزع .

يتضح من كل ما قلناه ، ومن أمور كثيرة أخرى ، أن اتجاهاين أساسيين ، نشيطين كل النشاط ، كانا يشقان طريقهما في السياسة الفرنسية ، قبل بدء أزمة السويس بصورة عنيفة في السادس والعشرين من يوليو ، وحتى قبل سحب عروض القرض للسد العالي ، وكان أول هذين الاتجاهين التصميم على الاطاحة بالرئيس عبد الناصر ، وهو تصميم اتفق عليه منذ شهر مارس كل من موليه وبونيه مع قادة الجيش الفرنسي ومع سياسة الجناح اليميني في موضوع الجزائر ، وهكذا لم يكن تأميم عبد الناصر لقناة السويس التي شقها الفرنسيون (١) والتي تتركز فيها المصالح الفرنسية الرئيسية هو السبب الذي أدى الى قرار فرنسا وجوب الاطاحة به ، إذ أن هذا القرار قد اتخذ قبل التأميم بكثير .

وكان الاتجاه الثاني في السياسة الفرنسية يتعلق باسرائيل . . . وسنرى فيما بعد أن الحلف الحقيقي العسكري بين فرنسا واسرائيل قد بدأ ابان أزمة السويس ، وان لم يكن وليد ساعته ، أو مجرد قرار فرنسي مفاجيء ، وقد عرف الآن أن فرنسا واسرائيل توصلتا في السابع من اغسطس (آب) أي بعد أقل من أسبوعين من تأميم عبد الناصر لشركة القناة الى اتفاق يقضى بالشروع في تنفيذ برنامج سريع لتسليم شحنات ضخمة من الأسلحة الى اسرائيل في منتهى السرية ، وكان بعض موظفي وزارة الدفاع الاسرائيلية هم الذين توصلوا الى هذا الاتفاق في باريس نيابة عن حكومتهم . وظلت هذه الحقيقة هي كل ما عرف عن هذا الموضوع حتى التاسع من مارس عام ١٩٦٠ ، عند ما أثر جى موليه ، أن يضيف من قريته الصغيرة التي يقيم فيها في شمال فرنسا بعض التفاصيل الى قصة سيناء والسويس اذ قال في خطاب القاه : أن بن جوريون جاء سرا الى باريس قبيل الهجوم على سيناء حيث أبلغه أن اسرائيل تتوقع هجوما من مصر ، وانه لذلك يطلب المزيد من السلاح ومضى موليه يقول : « ولا أرى بي حاجة الى القول ان الطائرات والمعدات الفرنسية هي التي وجهت الضربة في سيناء الى المصريين » .

(١) أرى من الافتئات على الحق والحقيقة أن يقال بأن الفرنسيين هم الذين شقوا القناة ، فصحیح أن ديليسيسيس الفرنسي هو صاحب المشروع ولكن القناة شقت بأموال مصرية على الغالب ، وبأيد مصرية خالصة .

المعرب

ولكن موليه رفض باصرار أن يكشف عن الموعد الذي قام فيه بن جوريون بهذه الزيارة المتناهية في سريتها ، ترى لماذا ؟ كان موليه يعرف ولا شك عن وجود تحالف فرنسي - اسرائيلي ابان العدوان على السويس وهو يعرف ولا شك أن الباحثين في قضية السويس ، قد تألدوا من أن هذا التحالف قد اتضح تماما في شهر أغسطس ، فلماذا يرفض ، وهو يعرف هذه الحقائق تماما ، أن يذكر الشهر الذي وقع فيه هذا الاجتماع مع بن جوريون في باريس ؟

لا ريب في أن هذا الاجتماع وقع قبل السابع من آب (أغسطس) وهو الموعد الذي سلمت فيه شحنات الاسلحة طبعا للتفاصيل التي تم الاتفاق عليها ، ومن المحتمل أن يكون الاجتماع قد وقع بين السادس والعشرين من يوليو ، وهو موعد بدء أزمة السويس والسابع من آب . ولكن من المحتمل أن يكون هذا الاجتماع قد وقع قبل السادس والعشرين من يوليو ، ولعل هذا الاحتمال يفسر لنا تردد موليه في ذكر موعد اجتماعه الهام للغاية ، برئيس وزراء اسرائيل ، ومن الصعب في الحقيقة أن نعثر على أى سبب آخر أو مبرر لهذا التردد من جانب موليه وان كان من السهل على كل انسان أن يفهم الاسباب التي تدعو الى عدم الاعتراف بأن مثل هذا الاجتماع بكل ما ينطوي عليه من مغاز واستنتاجات قد وقع قبل السادس والعشرين من يوليو ، اذ أن مثل هذا الاعتراف سيقلب كل ما عرف عن أصول حرب السويس حتى اليوم رأسا على عقب .

اسرائيل :

لنوجه الآن اهتمامنا الى اسرائيل ، هناك كثيرون يعتقدون في جميع أنحاء العالم ، طبقا لما أكده الناطق بلسان اسرائيل أكثر من مرة بأن قرار الهجوم على سيناء قد اتخذ في القسم الاخير من شهر اكتوبر عام ١٩٥٦ وأنه جاء على أثر استئناف غارات الفدائيين ، والاعلان الذي صدر عن عمان بعد انتهاء الانتخابات الأردنية العامة في الثاني والعشرين من اكتوبر عن تأليف قيادة مشتركة لقوات مصر وسورية والاردن ، لكن جميع الدلائل تشير عند جمع بعضها الى بعض الى حقيقة تختلف عن هذا الزعم كل الاختلاف ، وتوضح وجود تصميم طويل الأجل منذ أمد بعيد على احتلال شبه جزيرة سيناء في الوقت المناسب .

وتتألف الدوافع التي تقف وراء هذا الهدف ، كما هو الوضع دائم ، من مزيج متقلب من الاحلام الدينية - التاريخية ، والاهداف السوقية (الاستراتيجية) والضرورات السياسية ، وأغراض الدفاع عن النفس ، وليس من البعيد عن الصواب أن يقال ان شبه جزيرة سيناء كانت قد بدأت تحتل مكانها في التفكير الصهيوني الاسرائيلي منذ عام ١٩٤٨ - ١٩٤٩ .

فهناك أولا تأثير الذكريات الدينية الغامضة عن «أرض اسرائيل» في عقول زعماء اسرائيل من أمثال بن جوريون ، وتضم سيناء عددا من الرموز المهمة عند اليهود ، وبينها الجبل الذي يعتبر محور التاريخ اليهودي ومنبعه ، وليس ثمة من شك ، في وجود قوة جاذبة ضخمة تجذب

الصهيونيين الى هذا الموقع ، وتضمن الامر اليومى الذى أصدرته اسرائيل الى قواتها التى هاجمت سيناء فى التاسع والعشرين من اكتوبر « حصر جيش النيل فى بلاده » ، وأبلغ بن جوريون مجلس الكنيست ان الأوامر قد صدرت الى القوات « بعدم اجتياز قناة السويس أو مهاجمة الأراضى المصرية الأصلية » . . . وتحدث عن أهداف الحملة ، فذكر أن من بينها « تحرير هذا الجزء من الوطن من احتلال الغزاة » وراحت الاذاعة الاسرائيلية تعلق فور بدء الهجوم ان سيناء « جزء من فلسطين » ، وانها لا تختلف فى طبيعتها عن النقب ، وأعدت مصلحة الاستعلامات الاسرائيلية نشرة حربية ضمنيتها قصة تتحدث عن الطبيعة الألفية اليهودية لشبه الجزيرة .

وأشار بن جوريون الى احتلال قواته لجزيرة ثيران فى خليج العقبة فقال اننا نريد هذه الجزيرة لانها كانت « مركز دولة عبرية قديمة انتهى امرها قبل ألف وأربعمائة عام » .

ولم يصل شيء من هذه المعلومات الجوهرية فعلا الى الغرب حيث كانت الصورة التى ارتسمت فى مخيلة الكثيرين هناك ، ان غزو سيناء لم يكن الا بقصد تطهيرها من أوكر الفدائيين ، واحباط هجوم كان المصريون يعدون العدة له ، لكن غزو شبه الجزيرة كان قد وقع على الصورة التى أوردتها قبل قليل ، والتى تعتبر فى منتهى الخطورة ، وليس ثمة من سبب مهما كان نوعه يدعونا الى الاعتقاد بأن هذه الأحلام التوسعية الغامضة قد ومضت فجأة فى عقل بن جوريون فى شهر أكتوبر من عام ١٩٥٦ . فلقد كان فى مستهل عام ١٩٥١ يعلن ذلك بصورة رسمية واضحة ، ولكن الغرب . . لم ينتبه مطلقا لما قاله .

« ان اسرائيل دولة لاتحدد شخصيتها ، بأرضها ولا بشعبها . . فلقد أقيمت فقط على جزء ليس الا من أرض اسرائيل ، وحتى أولئك الذين يلتبس عليهم موضوع إعادة اسرائيل الى حدودها التاريخية كما تحدت وتبلورت وأعطيت لها منذ الأزل ، لن يستطيعوا أن ينكروا ما فى حدودها الراهنة من شذوذ » (١) .

وظهرت هناك فى عام ١٩٥٥ أيضا بعض الاشارات الرسمية الاخرى « للحدود التاريخية » لاسرائيل كما وردت فى الكتاب السنوى .

« ان خلق الدولة الجديدة ، لا ينتقص بحال من الاحوال ، من مساحة أرض اسرائيل التاريخية » .

ويتضح من هذا أنه كان ثمة تيار مستمر من هذا التفكير التوسعى المسياوى (نسبة الى تحقيق ظهور المسيح الذى يؤمن به اليهود) يسيطر على الحكومة الاسرائيلية ، وهو يجعل من سيناء هدفا من أهدافه ، وكانت هناك مع هذا التعطش الناجم عن مبررات غامضة دينية ، فائدة عملية لاسرائيل من السيطرة على سيناء واحتلالها ، فهناك أولا سوقية

(١) الكتاب السنوى لاسرائيل ، لعام ١٩٥٢ .

(استراتيجية) أساسية ، يمكن تحديدها في أبسط عبارات ممكنة . .
تتلخص في التساؤل عن خير الحدود التي يمكن أن تضمن لإسرائيل
المناعة من ناحية الغرب . لقد ترك ما تمكنت من الحصول عليه من أراض في
حرب عام ١٩٤٨ - ١٩٤٩ ، والهدنة التي تلتها ، جميع مساحات سيناء
الشاسعة الى الغرب منها في أيدي المصريين ، وليست حدودها الحالية
الا مجرد حدود هدنة على خريطة صحراوية ، ولكن الى الغرب من سيناء
تقف حدود محددة أفضل ، هي قناة السويس نفسها لا كحاجز مائي
فحسب ، بل لعل هذا هو الأهم كنقطة للدول الكبرى ولجميع دول العالم
البحرية مصلحة حيوية فيها ، وإذا تحققت لإسرائيل هذه الحدود ، فلن
يكون في وسع مصر أن تعبرها دون أن تستفز على الفور عملا ينطوي على
الفرع والازعاج من العالم بأسره .

وكانت هناك اعتبارات أخرى تدخل ضمن إطار هذه الأهداف
السوقية (الاستراتيجية) فلقد ظل واضعو الخطط الصهيونية سنوات
طويلة واقعين تحت سيطرة سلسلة من الافكار يمكن تلخيصها على النحو
التالي : يجب أن تضم إسرائيل الصغرى على الأقل ، الساحل مضافا اليه
منطقة النقب ، ومنطقة النقب هذه نجزيء الوطن العربي الى جزئين ولهذا
فان النقب سيكون دائما مهددا بالخطر ، مالم نصبح سيطرة إسرائيل
عليه ثابتة لامنازع لها فيه ، ولا يمكن أن تغدو هذه السيطرة ثابتة الا
باسكان الناس فيه ، ولكن هؤلاء الناس سيكونون في حاجة الى الحماية
يضاف الى هذا أن النقب يؤمن لإسرائيل المنفذ الى الميناء الجنوبي الذي
يواجه افريقية وآسيا وهو ميناء ايلات الذي يجب أن يحمى ، وتقتضى
هذه الحماية تأمين المداخل الغربية وكلها نمر عبر شبه جزيرة سيناء .

وهناك من جديد أدلة ثابتة على وجود هذه المعادلات في السياسة
الإسرائيلية ، فلقد أصر الصهاينة في المطالب التي قدموها الى الأمم المتحدة
في عام ١٩٤٧ ، أن يكون مثلث النقب ضمن المنطقة المخصصة للدولة
اليهودية ، في أي مشروع لتقسيم فلسطين ، وقد تحقق لهم ما أرادوه .
ولكن مشروع التقسيم قد تأجل واعتبر غير عملي بسبب معارضة العرب
وعدائهم ، وقد أعلنت إسرائيل عن قيام دولتها في ناحيتها هي ، وسرعان
ما نشبت حرب فلسطين في عام ١٩٤٨ . وتوصل الكونت برنادوت وسيط
الأمم المتحدة الى الاستنتاج القائل بأن من الآمال القليلة الضئيلة ، في
ايجاد تسوية لتلك الحرب ، اعطاء منطقة النقب الى العرب ، لتأمين الطريق
البرية لهم عبر أجزاء الوطن العربي (١) ولكن برنادوت قتل في اليوم التالي
لنشر اقتراحه هذا ، وخرقت إسرائيل بعد ذلك هدنة الأمم المتحدة فغزت
النقب واحتلته ، وظلت تسيطر عليه حتى يومنا هذا ، رافضة كل ماتبع
ذلك التاريخ من اقتراحات لاحقة لتعديل الحدود الإقليمية القائمة .

وأصبحت تسوية قضية النقب تسوية نهائية تؤلف عنصرا أساسيا
من عناصر السياسة الإسرائيلية الرسمية عن طريق اقناع العالم كله . .

(١) وثيقة الأمم المتحدة (A/618)

بأن منطقة النقب هي جزء من اسرائيل ، ولا يمكن فصلها عنها بأي حال من الأحوال (١) . ووضع الصهيونيون مشروع ألري لفتح ميهاء الاردن ونقلها الى النقب ، مع مافى هذا المشروع من تكاليف باهظة تجعل أية خطة لزراعة صحراء النقب ، مشروعا خياليا ، لا تجاريا ، اذ يقضى المشروع بنقل الماء مسافة مائة وستين ميلا الى الجنوب باتجاه المثلث الصحراوي حتى يتمكن العالم من رؤية المهاجرين اليهود يستوطنونه ، ورأى زعماء اسرائيل ، ان من الواجب تأمين الحماية لهذا الاستثمار المالى ، ولخطوط أنابيب المياه ، والمهاجرين الجدد ، وطريق المواصلات التجارية الى ميناء ايلة (ايلات) من غارات اللاجئين العرب عبر الحدود من قطاع غزة . . ومن أى عمل حربي مصرى متوقع .

وليس ثمة من شك فى أن هذه الاعتبارات كلها قد توافقت مع الاحلام الدينية الغامضة فى منطقة سيناء وكانت تتزاج كلها فى درجه واحدة من الاتساق الموسيقى طيلة الفترة الواقعة بين عامى ١٩٤٩ و ١٩٥٥ . ويقوم المفتاح السوقى لضمان هذه الحماية واحتلال شبه جزيرة سيناء كلها فى تلك الشبكة من الخطوط الصحراوية الواقعة فى منطقة العوجة المنزوعة السلاح (٢) . وكانت القوات الاسرائيلية قد توغلت لمدة وجيزة فى صحراء سيناء فى ديسمبر عام ١٩٤٨ ، عبر هذه المنطقة ورأى الاسرائيليون الآن ، انه اذا كان لا بد للاحتلال النهائى من انتظار تطورات أفضل وأكثر ملاءمة ، فان من الواجب السيطرة على هذه المنطقة فى أسرع وقت ممكن .

وراحت اسرائيل تنفيذًا لحطتها هذه تطرد من المنطقة عن طريق القوة أربعة آلاف عربى (٣) . وأعلنت فى عام ١٩٥١ بصورة رسمية سيادتها على هذه المنطقة متحدية بذلك شروط الهدنة من ناحية وقرارا لمجلس الأمن فى هذا الصدد من ناحية أخرى (٤) . وراحت فى عام ١٩٥٣ بعد أسبوع واحد من تكرار ادعائها هذا تقيم مستعمرة ومركزا للشرطة فى المنطقة متحدية بذلك اتفاق الهدنة (٥) . ورفضت الاذعان لمطالب الأمم المتحدة بسحب قوات شرطتها من المنطقة ، وظلت مواصلة رفضها طيلة عام ١٩٥٤ وعاملة على تثبيت مستعمراتها الجديدة فيها .

(١) المجلة اليهودية (كومنترى) فى عدد سبتمبر ١٩٥٨ من مفال لاليكس روبنر المستشار السابق لوزارة مالية اسرائيل ، الذى وصف كيف أن السلطات الاسرائيلية أبلغت خيرا أمريكيا فى شئون الرى بأن هذا المشروع سينفذ لاعتبارات سياسية رغم افتقاره الى المبررات الاقتصادية .

(٢) اعتراف من شبتاي روزين عن « اتفاقات الهدنة » فى تعليق استراتيجى .

(٣) وثيقة الأمم المتحدة (S/1797)

(٤) وثيقة الأمم المتحدة (S/2097) ووثيقة (S.p.v635)

(٥) وثيقة الأمم المتحدة (S/3103) ووثيقة (S/3596)

وتزايد تفكير بن جوريون في اتجاه سيناء في هذه الفترة الواقعة بين نهاية عام ١٩٥٤ ومستهل عام ١٩٥٥ ، وأمن عاملان جديداً الحافز لهذا التفكير ، وأولهما الاتفاق المصري البريطاني لجلاء القوات البريطانية عن منطقة القناة ، وثانيهما ظهور الرئيس عبد الناصر في عام ١٩٥٥ بمظهر القائد العربي القوي في ديناميته ، القوى في شعبيته ، المؤيد لسياسة الحياد ، وكان وجود قوة بريطانية عسكرية ضخمة على ضفتي القناة ، يؤمن لإسرائيل دائماً بعض الاحساس بالأمن والطمأنينة ، إذ يتحتم على أية قوة مصرية مهاجمة ، متجهة الى الشرق ضد إسرائيل (١) ، أن تعبر أولاً هذه المنطقة البريطانية العازلة ، وقد وافقت بريطانيا في عام ١٩٥٤ على جلاء قواتها ، وتبدل على ضوء ذلك وضع إسرائيل السوقي تمام التبدل وليس ثمة ما يمكن أن يفصل بين إسرائيل وبين أضخم دولة عربية يحكمها الآن نظام ثوري الا احتلال شبه جزيرة سيناء .

فهل يمكن تحويل هذا الخطر الى فائدة ايجابية بأية طريقة من الطرق ضمن تحقيق الاهداف التوسعية والوقائية معا ؟ ليس من الاجحاف والحالة هذه أن نقول بأن هذه المشكلة أنهكت تفكير بن جوريون وكافة مستشاريه السياسيين والعسكريين الموثوق بهم ، وقد شرح ايفال يادين وهو من العسكريين الاسرائيليين هذه الاهداف التي لجأت إسرائيل الى كل وسيلة دعائية وعسكرية لتحقيقها ، وحدد هذا المفهوم السوقي في تلك العبارة التي أوردتها في مستهل هذا الفصل ، وكانت القضية الآن بالنسبة الى وضع إسرائيل ، والى أهداف الصهيونية ، كما حددتها في

(١) لم يكن تفكير إسرائيل محصوراً في تقديم الجيش المصري وحده على إسرائيل في هجوم لا تستفزه هي ، بل كان يتجه أيضاً الى زحف مصري لمساعدة الأردن في حالة محاولة إسرائيل احتلال الضفة الغربية وكان احتلال هذه الضفة يستبد دائماً بتفكير إسرائيل ومخططيها السوقيين لا كهدف مسياوي يحقق وعود التوراة (كذا) فقط ، بل كهدف سوقي عسكري أيضاً وقد ورد تحديد هذا الهدف بصورة واضحة في كتاب «على جانبي التل» لمؤلفيه جون ودافيد كيمشي (ص ٢٦٧ - ٢٧٢) وجون كيمشي من الصحفيين الصهيونيين البارزين في بريطانيا ، ويصف هذا الكتاب الذي رعاه بن جوريون الخطة الكاملة للعملية العسكرية الرامية الى احتلال ما تبقى من فلسطين في عام ١٩٤٩ ، والتي اضطرت إسرائيل الى وقفها لتكون المعركة التي لم تتم ، والعنصر الذي يتطلب الحل في الجولة الثانية .

هذا ما ذكره المؤلف وهو يضع أمام العرب في كل مكان الصورة الصحيحة لمطامع إسرائيل في الوطن العربي وهي المطامع التي لن تتوقف الا اذا توحد الشعب العربي في ظل نظام عربي ثوري صحيح ، صادق ، بعد الخلاص من الاوضاع الانفصالية التي يفرضها الاستعمار ، وأعوانه على المنطقة العربية لضمان تنفيذ الاهداف الاسرائيلية في الوقت المناسب - العرب -

نهاية عام ١٩٥٤ ، هي ما اذا لم يكن في الامكان استغلال الاخطار الناجمة عن جلاء القسوات البريطانية عن منطقة القنساء كفرصة لتوسيع حدود اسرائيل الغربية الى حدودها التي تتلف للوصول اليها على القناة نفسها .
فان هذا الهدف ، اذا تحقق ، سيضمن لاسرائيل استعادة جزء من أرض الوطن القديم (كذا) ، ويؤمن لها المرور عبر القناة بعد سنوات طويلة من الحصار الذي فرضته مصر ، وسيكرس حماية النقب ، ويبعد القواعد الجوية المصرية مسافة مائة وخمسين ميلا أخرى الى الورااء بعيدا عن مناطق المدن الاسرائيلية المأهولة ، وستقيم فاصلا أرضيا مماثلا في بعده لهـنـه المسافة بين مصر وغيرها من الجيوش العربية ، وهو اتصال يتركز عليه خوف اسرائيل الدائم .

ولا أرى بى حاجة الى القول ، ان مثل هذه الاهداف الاسرائيلية لا يمكن تأييدها بالاقوال الاسرائيلية الرسمية أو بالوثائق الاسرائيلية ، اذ ان هذه الاهداف والخطط ، كانت ولا تزال أفكارا في منتهى السرية لا يتحدث فيها ويناقشها الا لفيف من الرجال الذين يحيطون ببن جوريون ولكن اذا كنا حقا في حاجة الى ما يؤيد هذه الآراء التي نورد هـا ، والتي نؤكد فيها أن مثل هذا التفكير طبعى ومنطقى بالنسبة الى الصهيونيين فان فى وسعنا أن نجد التأييد فى يوميات عسكري بريطانى مشهور .
يعتبر من أصدقاء اسرائيل المتعصبين ، وهو لايعرف مايفكر به كبار الزعماء الاسرائيليين فحسب ، بل يفكر أيضا كصهيونى اسرائيلى ، فلقد دون العقيد ريشارد مانيرز تهاجن ، الذى رافق نشوء اسرائيل وعمل على تحقيقه منذ عام ١٩١٧ ، فى يومياته التى كتبها فى عام ١٩٥٥ ، أى قبل نحو من عام واحد من تفكير العالم عامة حتى فى احتمال هجوم اسرائيل على سيناء ، يعرض النتائج المحتملة لجلاء القوات البريطانية عن منطقة القناة ، ولاستمرار مصر فى اغلاق ممرها المائى فى وجه السفن الاسرائيلية فقال :

٢ نوفمبر ١٩٥٥ - وضعت المذكرة التالية لأقدمها الى اسرائيل مصورا فيها الوضع كما أراه ، وانى لأرى النقاط الأساسية التالية :

- ١ - حمل مصر على الظهور بمظهر المعتدى .
- ٢ - الهجوم باتجاه القناة والوصول اليها .
- ٣ - اعلان القناة ممرأ مائيا دوليا ، فى ظل اشراف دولى ، مع خلق منطقة محايدة على كلا جانبي الممر ، لعزل مصر عزلا دائما عن اسرائيل .
- ٤ - اعلان سيادة اسرائيل على سيناء (١) .

ويبدو أن العقيد مانيرز تهاجن قد سلم مذكرته هذه المؤرخة فى عام ١٩٥٥ الى السفير الاسرائيلى فى لندن ايلات الذى كان دائم الاجتماع اليه وليس ثمة من سبب يدعو الى الاعتقاد ، بأن هذه الاقتراحات كانت جديدة على كبار القادة الاسرائيليين حتى فى ذلك التاريخ .

(١) يوميات الشرق الأوسط - كريسييت - لندن . ص ٢٧٧ - ٢٧٨

وكان ثمة عامل رئيسي آخر ، في جميع هذه المخططات الاسرائيلية . فلقد سيطرت على الصهيونية العسكرية فكرة واحدة منذ مدة طويلة وهي « تلقين العرب درسا لا ينسونه » . فمنذ حقبة الثلاثين وضع الجنرال البريطاني الصهيوني أورد وينجيت ، الخطط للصهيونيين للقيام بغارات فجائية على عرب فلسطين ، تبعث الرعب والفرع في نفوسهم ، وكان موشيه دايان الذي قاد حملة سيناء ، واحدا من طلبة الذين تدربوا على يديه ، وظلت هذه الفكرة حية ينفذونها على شكل الغارات الثائرة التي ظلوا يشنونها على العرب منذ عام ١٩٤٩ . وكانوا يرون أنه اذا كانت إعادة اسرائيل بحدودها القديمة أمرا لا بد منه ، واذا كانت حمايتها وسط هذه الارض العربية المعادية شيئا لازما ، فان من واجب اسرائيل أن تظهر كل قيادة عربية حسنة التنظيم ، ودينامية الحركة ، ومخلصة في نضالها ، سواء أكانت سياسية أم عسكرية ، بمظهر الضعف عن طريق هزائم عسكرية واضحة يجب أن تنزلها بها (١) .

وقد تأكدت من أوثق المصادر ، أن هذه الفكرة كانت طاغية على اسرائيل ، عندما شرعت في حملتها على سيناء . فلقد عرض بن جوريون في الثاني من ابريل عام ١٩٥٧ ، أمام البرلمان الاسرائيلي (الكنيست) الاسباب التي دفعته الى القيام بحملة سيناء ، وقال انه كان يخشى دائما ظهور شخصية بين العرب ، كشخصية أناتورك في تركيا ، الذي ظهر بعد هزيمة بلاده في الحرب العالمية الاولى ، وأن تقوم هذه الشخصية العربية ببعث الروح الدينامية عند العرب ، وتحقيق لهم وحدتهم ، وتطورهم التقدمي . ثم مضى يقول : « وكان أعظم عمل نود تحقيقه ، أن نضعف من شخصية عبد الناصر » .

ولكن رئيس وزراء اسرائيل ، لم يعين التاريخ الذي بدأ يرى فيه ، عبد الناصر ، الزعيم الذي يحمل هذه الشخصية التي يخشاها كل الحشيه ومن أمد طويل . ولكننا رأينا في الفصول السابقة ، أن عبد الناصر لم يظهر لأول مرة أمام العرب كالزعيم الدينامي الثوري الجديد ، في عام ١٩٥٦ ، بل في العام الذي سبقه . واذا أردنا تحديد تاريخ هذا الظهور بالدقة ، قلنا ان شخصية الرئيس عبد الناصر ، ظهرت في قوتها للعرب عامة في يناير عام ١٩٥٥ عندما شن حملته على حلف بغداد الجديد .

وقد سبق لنا أن رأينا ، في فصل سابق ، أن بن جوريون عاد فجأة في فبراير عام ١٩٥٥ ، من عزلته الطويلة في داره في النقب ، ليتولى وزارة الدفاع الاسرائيلية . وراح يشن فور عودته ، أكبر هجوم عدواني دموي وقع على غزة منذ عام ١٩٤٩ . وراحت اسرائيل في الشهور التي تلت

(١) لعل هذا هو الدافع الرئيسي الذي حمل اسرائيل ، على تركيز عدائها على شخص الرئيس عبد الناصر منذ البداية ، وعلى الجمهورية العربية التي يتولى قيادها . لانها تخشاه حقا ، ولا تخشى غيره من الذين ادعوا أو مازالوا يدعون الوطنية في الوطن العربي . — المغرب —

ذلك . تفاوض فرنسا في موضوع صفقات الاسلحة التي تريدها ، وهي الصفقات التي أعلن الرئيس عبد الناصر تفاصيلها في نوفمبر عام ١٩٥٥ ، والتي تم تنفيذها في الاسلحة الفرنسية التي سلمت لاسرائيل والتي استخدمتها هذه في حرب سيناء .

وأصدر بن جوريون أمره في سبتمبر عام ١٩٥٥ ، باحتلال منطقة العوجة بما تضمه من طرق صحراوية متشابكة وحيوية تؤدي الى الغرب . وانتهت بذلك سلسلة الاعمال العسكرية الاسرائيلية في هذه المنطقة التي كانت قد شرعت فيها منذ عام ١٩٥٠ .

تري ما هو الهدف من كل هذا ؟ لم يحسر النفاذ آنذاك عن أى من أهداف اسرائيل الحقيقية . ولكن كان من الواضح أن اسرائيل عازمة صادق العزم على استغلال التوتر القائم بين مصر والغرب ، اذ كانت هي أول من روج في الغرب الدعاية التي تزعم بأن عبد الناصر ليس الا هتلر ثانيا . وبينما كان بن جوريون يزيغ شعارات السلام ، ويعلن للعالم الخارجى رغبته فيه ، كان في الوقت نفسه يتبع سياسة مختلفة كل الاختلاف عن هذه الدعوى المزعومة مع العرب . وكان حريا بالعالم أن يرى هذه الحقيقة الواضحة في الثالث من نوفمبر عام ١٩٥٥ . ففي صباح الثاني من نوفمبر عاد بن جوريون الى كرسي الرئاسة ليخلف فيه موسى شاريت الأقل منه حيوية ونشاطا ، والذي أحاله الى وزارة الخارجية . وراح يعلن في صباح اليوم نفسه للكنيست ، أنه على استعداد للقاء الرئيس عبد الناصر أو أى زعيم عربى ، فى أسرع وقت ممكن ، للوصول الى تسوية مشتركة شريطة أن لا تكون مقيدة بشروط سابقة .

ونقلت أسلاك البرق هذا النبأ الى صحف العالم طولا وعرضا . ولكنه فى الليلة ذاتها راح يبعث بقوة ضخمة من الجنود الاسرائيليين يربو عددهم على الالف ، يخترقون حدود مصر ، ليقوموا بغارة تفوق فى وحشيتها الغارة التي وقعت على غزة . ولم تظهر قط فى تاريخ الدبلوماسية ، طريقة أغرب من هذه الطريقة التي اتبعها بن جوريون لنشيدان السلام ، مهما كانت الدوافع لما يزعمه من خوف وقائي . وليس ثمة من شك فى أن كل من يدرس هذا الحادث دراسة جدية ، يستطيع أن يجتنب التوصل الى الاستنتاج ، بأن السياسة الاسرائيلية وجدت شيئا جديدا تضيفه الى خداعها السابق .

ووقعت فى النصف الاول من عام ١٩٥٦ ، غرائب أخرى ، مضت فى حينها دون أن يلحظها أحد من الغربيين . فقد وصل التوتر العربى لاسرائيل الى ذروته فى ذلك الحين ، وراح المستر همرشولد يناشد اسرائيل عبثا ودون جدوى ، الانسحاب من منطقة العوجة . ولا ريب فى أن كبير مراقبى الهدنة ، كان مدركا أهمية هذه المنطقة ، ومغزى احتلال اسرائيل لها ، اذ قال فى تقريره :

« تتلخص الأهمية السوقية للطرق المتوزعة من العوجة ، فى أنه اذا فكر أحد الفريقين فى عدوان على نطاق واسع على اراضى الفريق الآخر ،

فان طرق مواصلاته الرئيسية والفرعية اللازمة للعملية العدوانية يجب أن يمر في هذه المنطقة المنزوعة السلاح ، (١)

وتمكن المستر هامرشولد أخيرا من النوصل في شهر ابريل الى «هقات جديدة لوقف اطلاق النار» . وتضمنت نصوص الاتفاق اقامه مراكز ثابتة للمراقبين الدوليين على حدود قطاع غزة . ولم يلاحظ أحد فقرة صغيرة وردت في التقرير الذي قدمه الامين العام للأمم المتحدة الى مجلس الأمن في أواسط ابريل عن جولاته في الشرق الأوسط . فلقد ذكر هذا التقرير أن مصر قد وافقت على اقامة هذه المراكز لمدة غير محددة ، بينما اشترطت اسرائيل أن تكون مدتها محددة بستة أشهر تنتهي في الواحد والثلاثين من اكتوبر عام ١٩٥٦ . (٢) ولا يعقل أن يكون هناك أى سبب دفاعي معقول ، يدعو الى هذا التحديد المتعمد لواجبات فريق المراقبين الدوليين الذين تتلخص مهمتهم في مرافقة اجتياز الحدود والحشود العسكرية عليها ومنعها .

وهناك نقطة أخرى . فلقد حاول المستر هامرشولد محاولات حينه التأكيد من أنه حتى في حالة تحدى اسرائيل لمطالبة الامم المتحدة لها باسحاب قواتها من مثلث العوجه ، فان عليها أن تقبل عبور مراقبي الهدنة بحرية الى هذه المنطقة الحيوية، وأن تسمح لهم بحرية الحركة فيها . وعاد مجلس الأمن فكرر الطلب الى اسرائيل لاعطاء حرية العبور والحركة للمراقبين الدوليين في المنطقة في الرابع من يونيو عام ١٩٥٦ . (٣) ولكن رئيس هيئة الرقابة الدولية تلقى في الخامس من يوليو عام ١٩٥٦ ، أى قبل ثلاثة أسابيع . من معرفة أى انسان بوجود أزمة تدعى « أزمة السويس » وقبل أربعة أشهر ونصف الشهر من الهجوم على سيناء ، مذكرة من اسرائيل تقول انها لن تسمح بعد اليوم للمراقبين الدوليين الا باستخدام طريق واحدة داخل منطقة العوجه ، وانهم سيمنعون من المرور في الطرق الأخرى ، كما لن يسمح لهم بارسال أية رسائل اذاعية باستثناء التقارير الادارية العادية (٤) . واحتج رئيس هيئة الرقابة الدولية على هذا الاجراء ، واكتفت اسرائيل بأن ترد عليه قائلة ، انه لما كانت اسرائيل هي التي تحتل المنطقة « فليس ثمة ما يدعو الى وجود مراقبين عسكريين للأمم المتحدة فيها » (٥) . وظلت هذه القيود مفروضة على حركات المراقبين الدوليين على الرغم من احتجاجات الامم المتحدة الى التاريخ الذي شنت فيه اسرائيل هجومها على سيناء عن طريق مثلث العوجه .

وهناك حقيقتان جوهريتان أخريان تتعلقان بموضوع ما اذا كانت

-
- (١) ملحق بوثيقة الامم المتحدة (S/3659)
 - (٢) وثيقة الامم المتحدة (S/3596) الفقرة
 - (٣) وثيقة الامم المتحدة (S/3605)
 - (٤) وثيقة الامم المتحدة (S/3659) الملحق رقم «١» الفقرة الثانية .
 - (٥) نفس الوثيقة الفقرة «٧» . رسالة من بن جوريون الى الجنرال برنز في الثالث من سبتمبر ١٩٥٦ .

اسرائيل - كما تدعى - قد قررت الهجوم على سيناء ، كاجراء طارىء وسريع فى الرابع عشر والعشرين من اكتوبر ليس الا . كلنسا يذكر أن بن جوريون قد خلف موسى شاريت الاقل ميلا للعدوان من زميله ، فى رئاسة الوزارة فى نوفمبر عام ١٩٥٥ . وظل شاريت هذا وزيرا للخارجية حتى يونيو عام ١٩٥٦ . وتم فى مطلع يونيو جلاء القوات البريطانية عن منطقة قناة السويس ، وجرت فى الثامن عشر منه احتفالات ضخمة فى مصر ، احتفاء بالجلاء .

واستقال شاريت فى ذلك اليوم نفسه من أيام حزيران «يونيو» ، بصورة مفاجئة من الوزارة الاسرائيلية . ولم يقدم الوزير المستقيل سببا لاستقالته ، واكتفى بأن يقول بأنه كان راغبا فى هذه الخطوة منذ نوفمبر الماضى . وقد وقع هذا التطور قبل خمسة أسابيع من أزمة السويس وخمسة أشهر من حرب سيناء .

وقدمت وزيرة خارجية اسرائيل الجديدة ، جولدا ماير ، فى السابع عشر من اكتوبر ، أى قبل أسبوع كامل من التاريخ الذى زعم أن اسرائيل قد اتخذت فيه قرارها الطارىء بالهجوم على سيناء ، قائمة طويلة الى محكمة العدل الدولية ، ضمنيتها التحفظات التى تراها بالنسبة لقبول اسرائيل صلاحية المحكمة فى فض المنازعات الدولية . وكان بين هذه التحفظات التى أرادت اسرائيل أن تستثنى نفسها من قيود هذه الصلاحية بند ناجم عن « احتلال اسرائيل العسكرى » (١) . فلقد كان ادعاء اسرائيل القانونى والسياسى فى السابع عشر من اكتوبر عام ١٩٦٧ ، أنها لا تحتل عسكريا أية منطقة ليست لها ، حتى منطقة العوجة نفسها التى ادعت سيادتها الرسمية عليها .

وعلى ضوء هذه الحقائق يمكننا أن نقول باختصار ، ان ثمة مجموعة ضخمة من الادلة ، تقوم وراءها مجموعة ضخمة أيضا من الاستنتاجات المعقولة كل العقل ، تؤكد أن بن جوريون وعددا من مستشاريه ، كانوا يعدون العدة لاحتلال سيناء منذ أشهر طويلة بل منذ سنوات قبل أن يشنوا هجومهم الفعلى . وقد رأينا من قبل كيف تحول الارتباط الفرنسى-الاسرائيلى الى تحالف مسلح ، ولا سيما فى الايام الاولى من أزمة السويس الصحيحة ، وحتى قبل أن تبدأ الازمة ظاهريا فى السادس والعشرين من تموز (يوليو) .

ولا يبقى أمامنا الآن الا أن نلاحظ بأن دبلوماسيى اسرائيل ومؤيديها العاملين قد شنوا حملة مستميتة لمعارضة قروض السد العالى التى عرضتها بريطانيا وأمريكا والبنك الدولى . وروت كل صحيفة موثوق بها فى أمريكا وأوربا الغربية أنباء النشاط الصهيونى وراء الكواليس فى الكونجرس الأمريكى لمعارضة القروض كما روت أن ما يبيده الكونجرس من عدااء لها إنما نجم عن النشاط الصهيونى . وقد وصلت هذه المعارضة الى أوجها فى أواخر يونيو وأوائل يوليو .

(١) الكتاب السنوى للمحكمة الدولية - الامم المتحدة ١٩٥٦-١٩٥٧

ويمكن للقارئ ان يلحظ خيطا غريبا يسير مسيرا قهريا عبر هذا التحقيق الذى قمت به . وفى وسعنا أن ندون هنا كحقيقة واقعة ان كلا من فرنسا واسرائيل كانتا تبحثان بحثا جديا نشيطا فى موضوع سحب عروض القروض الغربية ، وهو الاجراء الذى أدى الى اشتعال أزمة السويس . وفى وسع المرء أن يستنتج بوضوح أن الفرنسيين فى سعيهم الى الاطاحة بعبد الناصر ، لم يكونوا قادرين على مهاجمة مصر وحدهم أو بدون مبرر . وكان يتحتم عليهم أن يجدوا ظرفا مبررا يسمح لهم بتنفيذ غايتهم عن طريق خلق وضع من نوع ما يبدو كمبرر للعمل المباشر ، وأن تشترك فرنسا فى هذا العمل مع بريطانيا على الاقل .

وعندما نعود الى تقديرات اسرائيل وأهدافها ، فإن هذا الخيط يتخذ شكلا غريبا آخر . فما وقع فعلا فى يوليو عام ١٩٥٦ ، كان مواتيا لاسرائيل الى درجة تكاد تشبه الاعجوبة فى الطريقة العادية المألوفة فى تضارب الاحداث . وقد تركز اهتمام العالم بعد السادس والعشرين من يوليو على منطقة قناة السويس ، وهى الحد الغربى الذى تتطلع اليه اسرائيل .

وقد شرعت الدولتان الكبيرتان - أى بريطانيا وفرنسا - منذ السادس والعشرين من يوليو فى التفكير باعادة احتلال القناة ، بينما انصرف هم الدول المنتفعة بالقناة الى البحث فى القضايا المتعلقة بسلامتها وحرية المرور فيها . وارتفعت الصيحات العدائية ضد مصر فى الغرب بعد السادس والعشرين من يوليو بشكل صاخب لم يسبق له نظير . وعندما تدخلت بريطانيا وفرنسا فى نهاية شهر اكتوبر لوقف ما أسمى بالحرب المصرية - الاسرائيلية التى أوقدها الاسرائيليون بهجومهم على شبه جزيرة سيناء ، رأيناها تقدمان انذارا نهائيا يعطى لاسرائيل سيناء كلها ويطلب الاحتلال الدولى لحدودها الغربية الجديدة بقصد حماية القناة .

ولو شئنا التبسيط فى القول . والايجاز فى تحديد الصورة لقلنا ، ان الامور ما كانت لتسير على نحو أفضل لحكومة بن جوريون مما سارت عليه ، حتى لو كانت هى التى خططت أو ساعدت على تخطيط تسلسل الاحداث التى وقعت بين منتصف يوليو وأواخر اكتوبر عام ١٩٥٦ . ولم يكن هناك الا عامل جوهرى واحد فى كل ما وقع لم يتفق مع أهداف اسرائيل وميولها ، وهو أن تدخل الدولتين الفعلى فى المعركة قد حرهما من الحصول على مكاسب جديدة (١) .

أما وقد دونا جميع هذه الاحداث العرضية الغريبة أرى لزاما

(١) أرى أن المؤلف قد أخطأ خطأ كبيرا هنا ، وان كان يريد أن يقول كما يظهر انه كان فى وسع الدولتين الغربيتين أن تساعدوا اسرائيل سرا كما ساعدتاها فعلا دون أن تتدخلتا تدخلا مباشرا بالعدوان على السويس وأن تحققا لها ماتريد من مكاسب . لكن هذه المساعدات السرية ما كانت تؤدى الى نتيجة عملية حاسمة لاسرائيل ، فنحن نعرف الآن أن اسرائيل

علينا أن نقول هنا أننا حاولنا القيام بتحقيق دقيق ، وإن الاغراق في الحماسة لاستخدام الحقائق قد يؤدي دائما إلى الخطر . ولكن علينا أن نتذكر دائما هذا الخط المشترك من « العرضية » والمصادفة ، عندما تنتقل إلى البحث في موضوع الحكومتين الآخرين ذواتي العلاقة بسسينا والسويس .

بريطانيا والعراق :

في وسعنا سعيًا وراء الاختصار أن نعالج موقف حكومتى ايدن ونورى السعيد معًا بتحليل أهدافهما وسياساتهما التي أدت إلى حوادث شهر يوليو الخطيرة . وفي وسعنا أن نقيم الدليل الذى لا تتطرق إليه أية ذرة من الشك ، على أن السير انطونى ايدن وزملاءه الموثوق بهم ونورى العراق قد صمموا جميعا اعتبارا من ليلة السادس والعشرين من يوليو على الاطاحة بعبد الناصر عنوة وقسرا . ولكن علينا بعد أن قلنا هذا أن نكون جد حذرين فيما سيتبع من قول . فلقد رأينا من قبل ، كما نعرف الآن أن العمل الذى قام به عبد الناصر بتأميم شركة القناة ، والاسلوب الذى اتبعه فى التنفيذ قد بعثا الفرع عند الكثيرين من ذوى الراى المتزن فى بريطانيا . ولا تدل الحقيقة الواقعة وهى تصميم ايدن على الاطاحة بعبد الناصر بعد التأميم ، على أن ايدن كان يهدف إلى ذلك بحكم الضرورة قبل السادس والعشرين من يوليو . ولكن ألم يكن يهدف إلى ذلك فعلا قبل خطوة التأميم ؟ أرى لزاما علينا هنا أن نبدأ مناقشة الرد على هذا السؤال وأن نعرض أحداث الأشهر التى سبقت افتتاح الأزمة بشكل رسمى .

ولقد روى مؤرخ حياة نورى السعيد ، اللورد بيردود ، الذى كان ولا شك يتمتع بثقة نورى المطلقة قبل نهايته فى يوليو عام ١٩٥٨ والذى كان فى وضع يمكنه من معرفة الكثير عن التفكير البريطانى الرسمى رواية غريبة للغاية فى مستهل حديثه عن أزمة السويس اذ قال :

« كان ثمة شعور آخذ فى النمو فى دوائر وزارة الخارجية البريطانية ، بأن من الواجب ، فى وقت ما ، وبطريقة من الطرق ، وقف

= بدأت هجومها على سيناء مستخدمة الطائرات والأسلحة التى ابتاعها من فرنسا كما أن وحدات عسكرية فرنسية فعلية ، ولا سيما من النوع الجوى والبحرى ، قد اشتركت فى حملة سيناء إلى جانب اسرائيل ، كما أيدت الوثائق التى اكتشفت فيما بعد ، ومع ذلك فقد عجزت القوات الاسرائيلية عن تحقيق أى هدف حاسم قبل شروع الدولتين الغربيتين فى عدوانهما الفعلى المباشر . كما نعرف أيضا أن القوات المصرية كانت قد شرعت فى هجومها المضاد على المكاسب الاسرائيلية الدولية وانها حققت انتصارات ضخمة كان فى الامكان استغلالها لاجباط هجوم اسرائيل كلها لولا أن سيادة الرئيس عبد الناصر أصدر أمره بسحب الجيش المصرى إلى غرب القناة فى اليوم الثالث من المعركة بعد أن تبين له مؤامرة العدوان الثلاثى لانتفاذ الجيش من الوقوع فى الفخ — العرب —

عبد الناصر عند حده ، وعزله ، والاطاحة به ، على أيدي شعبه ان أمكن ، ونتيجة ما قد يقع فيه من أخطاء . وقد تحول هذا الشعور بوجه خاص بعد حملته الشخصية على حلف بغداد الى سياسة مقررة . ويبدو أن من المعقول جدا أن تكون وزارة الخارجية قد ابقت رئيس وزراء العراق على اطلاع بكل تطور في سياستها ، وبكل ما طرأ عليها من نيات جديدة .

وكان موقف عبد الناصر من حلف بغداد وحملته عليه قد تحددت بوضوح وبصورة لا تقبل الشك أو الخطأ منذ يناير عام ١٩٥٥ . ولكن هذا التاريخ يبدو مبكرا جدا بالنسبة الى خلق نية في وزارة الخارجية البريطانية للاطاحة به ، على الرغم من أن حملته على حلف بغداد كانت تعتبر بصورة جازمة عدائية للمصالح البريطانية على النحو الذي كانت تقوم فيه آنذاك . ولعل هذا هو السبب الذي دفعني الى اعتبار رواية اللورد بيردوود غريبة بعض الغرابة . ولكن لا يمكن أن يكون هذا القول مجرد زلة قلم ، وان كان من الحكمة لمصلحة الجميع الامتناع عن اصدار الاحكام الفورية . ولكن اقحام مجرد كلمتين في هذه الرواية تضفي عليها على الفور شيئا من المعاني والاهمية . اذ أنه يقول : ان هذا الشعور تحول بوجه خاص الى سياسة مقررة بعد معارضة حلف بغداد في الاردن . ونحن نعرف بالضبط تاريخ هذه المعارضة فهو مارس عام ١٩٥٦ (١) .

ونحن نعرف من اعترافات ايدن نفسه في مذكراته ، بالاضافة الى غير ذلك من المصادر ، أن وجهة نظر حكومته في عهد عبد الناصر ، قد تغيرت تغيرا جذريا بين نوفمبر ١٩٥٥ وأواسط يوليو عام ١٩٥٦ ، بحيث تقرر عدم المضي قدما في تنفيذ مشروع السد العالي . وكان هذا العرض قد قدم عن طريق خطوة مشتركة قامت بها بريطانيا وأمريكا في نوفمبر عام ١٩٥٥ . وفي وسعنا أن نتذكر الآن أيضا ان ايدن اتخذ في ذلك الشهر نفسه بادرة سلمية أساسية في موضوع فلسطين عن طريق الرئيس عبد الناصر . وكان حريا بعرض بريطانيا لتقديم قرض السد العالي أن يربطها علنا بحكومة عبد الناصر لا لمدة بضعة أشهر فحسب . ولا حتى لسنة واحدة بل لعشر سنوات . ولو نجحت مبادرة ايدن في خطابه في جيلدهول عن فلسطين . الى الحد الذي يؤدي الى مفاوضات فعالة بين العرب واسرائيل ، لأدى نجاحها الى ترابط جديد عميق وعلني بينها وبين

(١) أرى أن المؤلف قد خلط هنا بين حادثين وتاريخين . أما الحادثان فهما فشل تمبلر في مهمته الهادفة الى ادخال الأردن في حلف بغداد ، وتنحية جلوب عن منصبه كقائد للجيش الاردني وطرده من البلاد . وقد وقع الحادث الاول في شهر ديسمبر عام ١٩٥٥ ووقع الثاني في الاول من مارس عام ١٩٥٦ .

فالمعروف أن تمبلر وصل الى عمان في مهمته في السادس من ديسمبر وغادرها في الرابع عشر منه بعد استقالة وزارة سعيد المفتي وتأليف وزارة هزاع المجالي الاولى التي هدفت الى دخول الحلف ولكنها سقطت بعد أربعة أيام أمام المعارضة الشعبية الطاغية التي تمثلت في المظاهرات الصاخبة - العرب -

حكومة عبد ائناصر . ولهذا فان التبدل فى سياستها الذى نمكن رؤيته عن طريق سحب العرض الخاص بقرض السد العالى ، يعتبر مهما وجوهريا للغاية . ترى متى وقع هذا التبدل ، وما هى النتائج التى تقف وراء هذا التبدل ؟

يرجع التبدل قبل كل شىء الى طرد جلوب من الاردن فى مستهل شهر آذار « مارس » عام ١٩٥٦ ، وهو ما وقع بعد الهزيمة التى منيت بها بعثة تمبلر لادخال الاردن فى حلف بغداد ، وما تبع هذه الهزيمة من اضطرابات ومظاهرات . ولا ريب فى ان ايدن بطريقته الغربية الخاصة فى رواية مذكراته التى تكشف القليل من الحقائق ولكنها رغم قلقها كافية لتأكيد بعض المصادر الاولى ، قد رسم صورة لعملية التبدل كلها . وكان يرى أن مفتاح سياسة بريطانيا وسلطانها فى الشرق الاوسط والمحور الذى تلتف حوله المقاومة لطراز التبدل الذى بات عبد الناصر يعتبر رمزا له وحافزا عليه ، هو العهد القائم فى العراق فى ظل نوري السعيد . وكان عداء عبد الناصر المكشوف لحلف بغداد الجديد قد بدأ فى يناير عام ١٩٥٥ وهو مؤذ كل الأذى لسياسات كل من نوري وايدن . لكن القضية الاساسية لم تظهر طيلة عام ١٩٥٥ . وكانت هذه القضية تتلخص فى التساؤل عما اذا كان تركيز النفوذ البريطانى عن طريق توسيع حلف بغداد ، سيتعرض للتهديد من عبد الناصر ، وعما اذا كانت الموجة القومية الجديدة التى قادها ، ستهدد بصورة خاصة عهد نوري السعيد نفسه فى العراق . ولقد منى الحلف بصدمة عنيفة فى الاردن فى يناير عام ١٩٥٦ . وذكر ايدن فى يومياته فيما بعد انه كان يعتزم محاولة ضم الاردن الى عضوية الحلف فى وقت لاحق . ولكن طرد جلوب المثير من الاردن فى مستهل شهر مارس قضى على جميع الآمال فى قيام محاولة ثانية ، وهدد بالمزيد من الضغط المباشر . فقد ذكر قائلا . . .

« وكانت مصلحة بريطانيا القومية تقوم على الحفاظ على استقلال الاردن الذى نعتبره مركزا اماميا للعراق . . . وكان فى رأى أن الحل الامثل يقوم فى التقريب بين البلدين فى وقت لاحق . . . »

« أما اذا كانت نتيجة تطور الاحداث - كاخراج جلوب واحباط حلف بغداد فى الاردن - أن يصبح الاردن دويلة تابعة لمصر ، فإن نفوذ المملكة المتحدة سيتعرض للتخطم والانهياء » . أما اذا أسفرت النتيجة عن تحول الاردن والعراق الى شريكين بتشجيع منا ، فان سياسة التعاون مع بريطانيا ستقوم على دعائم ثابتة . . . »

وقد أكلت فى هاتين الفقرتين على بعض العبارات لأنى أعتبرها فى منتهى الأهمية والخطورة . ولقد ظلت هذه المملكة الهاشمية الصغيرة بالنسبة الى ايدن كما كانت لغيره من مهندسى السياسة البريطانية فى الشرق الاوسط منذ رسم تشرشل حدودها لأول مرة على غطاء مائدة طعام فى أحد مطاعم لندن فى عام ١٩٢١ ، محورا أساسيا من محاور هذه السياسة ، ترى فيها مركزا اماميا للدفاع عن العراق ، الذى تعتبره بريطانيا قاعدتها السياسية التقليدية فى المنطقة ، التى ان ضاعت على بريطانيا ، أدى ضياعها الى تحطم النفوذ البريطانى كله فى تلك المنطقة .

وقد بدا هذا الخطر الآن أى فى مارس عام ١٩٥٦ ، وشيك الوقوع ومائلا للعيان • ولقد رأينا من قبل ان جنوب ولويد وغيرهما من ذوى السلطان الذين يحملون نفس التفكير ، قد أفهموا ايدن أن طرد ملك الاردن غير المتوج كان نتيجة عمل المصريين وبعض المتطرفين من الواقعين تحت نفوذ مصر أو تأثير الشيوعية • وقد أعرب نوري السعيد بالطبع عن رأى مماثل لايدن • وليس ثمة من شك أيضا فى أن موليه ، رئيس وزراء فرنسا الذى وصل الى لندن فى الثامن عشر من مارس - بينما كانت صدمة طره جنوب لا تزال ماثلة فى الازدهان - قد حمل الى ايدن استنتاجا مماثلا ، وأعرب له عن شعور شبيه بتلك المشاعر التى تحدثنا عنها ، وتتلخص فى أن من الواجب الخلاص من هذا المحرض الذى يخلق لبريطانيا وفرنسا جميع هذه المتاعب •

وكنا قد ذكرنا من قبل فى فصل سابق ، أن نوري السعيد كان قد أكد لايدن أثناء المظاهرات التى وقعت ضد تمبلر وضد حلف بغداد فى الاردن بأن مصر هى المصدر الحقيقى للمتاعب ، وان من الواجب ايفاد قوة عراقية كبيرة الى الاردن « تكفى للتأكد من تحقيق النجاح » • ولقد رأينا ايدن يتحدث فى شهر مارس عن فكرة الاتحاد بين الاردن والعراق ، مؤكدا من جديد ، ما سبق لنا ان عرفناه من عدة مصادر أخرى • وقضى نوري السعيد وايدن طيلة المدة الواقعة بين مارس واكتوبر فى عام ١٩٥٦ فى محادثات مستمرة تتناول طريقة تحقيق هذا الاتحاد ، ووقف كل محاولة محتملة لابعاد الاردن عن جبهة النفوذ البريطانى وضمها الى الحركة القومية التى تتولى مصر وسورية الدور القيادى فيها • وكانت هذه الخطة جزءا أو جناحا كاملا من الخطة العامة الرامية الى الاطاحة بعبد الناصر فى مصر ، وقد تبلورت قبل منتصف سبتمبر ، لتتخذ شكل خطط محدودة ترمى الى السيطرة العسكرية العراقية على الاردن • ولقد لعبت هذه الخطة دورا جوهريا فى السعى الحثيث العام للاطاحة بعبد الناصر ، الى الحد الذى حمل دالاس وزير الخارجية الامريكية على ادراجها بين التهم المحدودة المتعلقة بالسويس والتى وجهها الى حكومة ايدن • ولا ريب فى أن المستر دالاس كان على علم دقيق بهذا البرنامج الحفى ، مما دفعه الى تضمين تهمة بعض التفاصيل التى تقول ان ايدن ونوري السعيد قد خططا لتجزئة الاردن بين اسرائيل والعراق ، فى محاولة نهائية لايجاد تسوية عربية - اسرائيلية يمكن فرضها وسسطة جو الفوضى الذى سينجم فى المنطقة اثر الاطاحة بالرئيس عبد الناصر •

ولكن متى نضجت خطة نوري وايدن لاستيلاء العراق على الاردن لأول مرة ؟ اننا نعرف على وجه التحديد ، الحادث الذى لعب دور الزناد الاخير الذى حول الهدف الذى كان ايدن فى شهر مارس لا يزال يعتقد باحتمال تأجيله ، الى ضرورة عاجلة سريعة ، ففى شهر يونيو من عام ١٩٥٦ ، أى قبل أسابيع من سحب عروض القرض للسد العالى وبالتالى لقيام أزمة السويس ، وافق الملك حسين على اجراء انتخابات عامة جديدة فى الاردن • وحل البرلمان الاردنى ، وحدد شهر اكتوبر موعدا للانتخابات

الجديدة • وكان من المتوقع طبعاً أن العناصر المؤيدة لمصر هي التي ستفوز في هذه الانتخابات • وما لبث نوري أن طار فوراً إلى لندن متطاهراً ، بدافع العلاج وسوء حالته الصحية ، حيث أقام فيها طيله شهر يوليو • وكان نوري السعيد ، في الواقع ضيف ايدن على العشاء ليلة السادس والعشرين من يوليو ، أي في نفس الليلة التي كان قد عرف من قبل بأنها ستحمل إلى لندن أنباء بيان خطير سيلقيه الرئيس عبد الناصر ، رداً على قرار سحب عروض القرض للسد العالي •

وليس ثمة من يشك في الدور الذي لعبه ايدن في حمل بريطانيا على اتخاذ قرارها بسحب عرض القرض • ولقد سجل ايدن نفسه في مذكراته ان نوري كان منذ بدء العام الجديد يعرب عن تدمره من عروض العرض • ترى ما هو الرأي الذي قدمه نوري إلى أصدقائه الانكليز عن طريقة سحب العرض وعن رد فعل مصر المحتمل على هذه الخطوة ؟ أرى أن ليس من الصعب أبداً تحديد الرد على هذا السؤال • لقد كان من رأي نوري أن السحب ان تحقق يجب أن يصدر عن الولايات المتحدة أولاً لا عن بريطانيا • وهكذا يتحول غضب الرأي العام العربي الذي توقعه نوري إلى الولايات المتحدة بدلاً من أن يتجه ضد بريطانيا التي يحس نوري بارتباطه الشخصي بمكانتها العامة في الشرق الأوسط • وكان من رأي نوري أيضاً ان طريقة سحب العرض يجب أن تكون حازمة ومهينة ، فلقد كان يعرف أن أي أسلوب آخر يجرى عن طريق التطوير والسرية في مفاوضات تسير سيرا ودياً سيؤذي إليه وإلى حكومته • ترى ماذا سيحدث فيما بعد ؟

وإذا صح ما قيل من أن ايدن ومستشاريه كانوا عاجزين عن التكهّن برد فعل القاهرة ، فمن المتعذر على المرء أن يصدق بأن نوري كان عاجزاً مثلهم عن معرفة الحقيقة • ان عقلاً مثل عقل نوري ، كان يفترض أن الرئيس عبد الناصر سيشعر بالمهانة ، مصحوبة بالعجز عن أن يفعل شيئاً ، فتتعرض في مثل هذه الحالة مكانته عند العرب في المنطقة إلى التدهور • ولكن كان من المحتمل من الناحية الأخرى ، أن يبحث عبد الناصر عن رد عنيف حاسم ، وكان نوري يرى أنه في مثل هذه الحالة ، ومهما كان رد عبد الناصر ، فانه سيؤدي حتماً إلى أزمة حاسمة في العلاقات المصرية - الغربية • وكان يرى في مثل هذه الأزمة شيئاً ضرورياً للغاية ، ولم يكن ايدن في حاجة إلى من يقنعه بضرورتها • ولكن مهما كانت الطريقة التي ستتبع في الاطاحة بعبد الناصر ، فمن الواجب ألا تصدر عن بريطانيا وحدها ، وألا تؤدي إلى عودة النظام الاستعماري القديم السابق • أن هذه الطريقة يجب أن تتركز على أساس مشكلة ذات طابع دولي (١) •

ولا ريب في أن ما حدث ، كان صورة طبق الأصل لهذا التخطيط فلقد أتاح تأمين شركة قناة السويس ، الفرصة التي كان الجميع في حاجة

(١) يروي اللورد بيردود هذه الآراء نيابة عن نوري السعيد • مع العلم بأنه يؤكد بأنها وقعت بعد التأمين • ولكن مما لا شك فيه أن نوري كان قادراً على أن يفكر هذا التفكير قبل السادس والعشرين من يوليو •
- المؤلف -

ماسة اليها ، اذ هيا الظروف والشروط المسبقة لاستخدام القوة ضد عبد الناصر ، على النحو الذى كان ايدى ونورى يؤمنان بضروره . وما كان الحادنان الخطيران المداين وعا فى يوليو عام ١٩٥٦ وهما سحب استر دالاس الاستفزازى لعروض قرض السد العالى ، وبيان الرئيس عبد الناصر الغاضب بتاميم العمارة ، بمتايه نعمة ساقطها الافدار لفرنسا واسرائيل ، فقد كانا فى الوقت نفسه هدية من السماء أيضا لدل من بريطانيا والعراق . ولا كانت الدول الاربع كدها راعبه فى الخلاص من عبد الناصر ، فان هذه الرغبة انبثقت عن أثر من سبب واحد خاص ، أو سبب مشترك بينها وعندما حل شهر يوليو عام ١٩٥٦ كانت هذه الحكومات الاربع تتحرك مدفوعة بسلسلة من الاحداث العرضية فى الطريق الى السويس .

ومع ذلك ، أرى ان الواجب يدعونا الى المزيد من الحيلة فى هذا التحليل الذى نقوم به . فالتحليل بعد ظهور الحقائق ، والتفسير الرجعى للتاريخ يعتبران خطرين كل الخطورة . وكثيرا ما تقع الاحداث العظمى . ومن المحتمل أن يكون كل ما وقع فى يوليو مجرد تفاعل ثورى متفجر بين أعمال جريئة وأعمال أخرى متهورة . وليس فى امكاننا حتى الآن أن نقيم نظرية أكثر تناسقا مما قلناه وأن ندعمها بالوثائق . وليس فى وسعنا حتى الآن أن نجد الوثائق اللازمة لتوجيه الاتهام الى حكومة أو أكثر من الحكومات الاربع ، بأنها عملت عامدة قاصدة على تشجيع عمل استفزازى أمريكى على أساس الأمل بأن يؤدى هذا العمل الى دفع الرئيس عبد الناصر الى أن يخطو الخطوة التى تمكن هذه الحكومات من استخدام القوة ضده .

ولكن ليس فى وسعنا أن نستبعد هذه المجموعة الغريبة من الاحداث العرضية على أنها أمور تافهة ، لمجرد افتقارنا الى الوثائق اللازمة لإقامة الدليل على وقوعها . ولم نستطع فى الوقت نفسه أن نجتمع الأدلة اللازمة للبرهنة على أن رد فعل بريطانيا وفرنسا الرسمى على عمل الرئيس عبد الناصر كان مصطنعا أو أنه كان فى محلة . وقد درسنا حتى الآن الأدلة التى تثبت أن جميع الحكومات الاربع كانت فى مطلع شهر يوليو مصممة على وحب الخلاص من عبد الناصر ، وكانت تتمتع سماسات تشير اشارات واضحة الى توقع أزمة بصدد قروض السد العالى .

ويمكننا أن نلخص بالتأكيد الصورة بالنسبة الى ايدى ونورى قبل السادس والعشرين من يوليو على النحو التالى :

١ - أدت أحداث الاردن الى قيام تصميم على وجوب الاطاحة بعبد الناصر ، على اعتبار أن هذا التصميم ينبعث عن عقيدة جازمة .

٢ - كان ايدى قد قرر قبل الخطوة التى خطاها دالاس ، ضرورة سحب عروض القرض للسد العالى .

٣ - يثير ما يدعيه ايدى من براءة مما فعله دالاس ، وجهل به ، الشكوك فى أن عكس هذا الادعاء بالبراءة والجهل هو الحقيقة الواقعة .

٤ - كان رد عبد الناصر ، هو ما توقعه أى انسان يلم بالتاريخ المصرى ، ولم يكن فى وسع أى خير أن يتجاهل موضوع شركة القناة ، لو طلب اليه أن يقدم تقريراً عما يتوقعه من عبد الناصر كرد فعل على ما حدث .

٥ - يشير كل ما نعرفه عن تقويم ايدن لموقف عبد الناصر الى الاعتقاد بأن آخر ما كان يتوقعه ايدن وزملاؤه ، هو أن يقف عبد الناصر ، مجرد موقف سلبي غاضب فى القاهرة

٦ - ان كل ما فعله عبد الناصر فى الواقع كرد فعل على العمل الغربى الاستفزازى الذى ظل الشك يلف دور ايدن فيه ، قد خلق وضعاً كان السير أنطونى ونورى السعيد يودان دون شك ، أن يجعل منه مبرراً وقاعدة لاستخدام العنف ضده .

أما وقد دونا كل هذا ، بات فى وسعنا أن ننتقل الآن الى موضوع السويس نفسه . ترى ما هو رد فعل ايدن على الانبياء التى وصلته فى السادس والعشرين من يوليو ؟ وهل كان هذا الرد أصيلاً ومعقولاً على ضوء ما فعله عبد الناصر ؟ وما الذى فعله عبد الناصر حقاً بتأميمه شركة قناة السويس ؟ . وهل يبرر ما فعله اللجوء الى القوة أو التهديد باستخدامها؟ وهل كانت مطالبة السير أنطونى لمصر بايجاد تسوية سلمية للوضع فى قناة السويس تتفق بصورة خاصة وبشكل بارز مع عمل عبد الناصر ومع التفاسير التى قدمها هو - أى ايدن - لشعبه وبرلمانه والعالم بأسره ؟ وهل كان السير أنطونى وزملاؤه الفرنسيون يعتزمون الاطاحة بعبد الناصر منذ البداية وبطريق القوة ، مع العلم أنهم ظلوا ينادون بالاصلاح السلمى للوضع ، واللجوء الى القوة كملجأ أخير لهذه التسوية ؟ وهل كانت الصورة التى رسمها ايدن لهتلر ومنطقة الراين وتشبيهما بالرئيس عبد الناصر وقناة السويس صحيحة وتتفق مع الواقع ؟ وهل كانت هذه الصورة هى التى دفعت رئيس الوزراء حقاً الى أن يفعل ما فعل ؟

أرى أن جميع هذه الأسئلة أساسية وجوهرية فى محاولة النفاذ الى جوهر ما وقع فى سيناء والسويس . وأرى لزماً علينا أن نقوم بدراسة هذه الأسئلة والرد عليها قبل أن ننتقل الى معالجة الخفايا الاخيرة للحرب الثلاثية نفسها .

التسوية السلمية

« تحتم علينا بوصفنا من الدول الموقعة على ميثاق الأمم المتحدة ، أن نبحث أولاً عن تسوية بالوسائل السلمية . . دون أن نتخلى على أية حال ، عن فكرة اللجوء الى القوة ، كما لاذ أخير . كان هذا دائماً هو الموقف الذي اتخذته حكومة صاحبة الجلالة ، وحكومة فرنسا في كافة مراحل النزاع . . . »

— أنطوني ايدن في مذكراته —

هل كان ايدن صادقاً في قوله هذا ؟ وهل كان متأثراً بهذا المبدأ الذي حدده في كافة مراحل النزاع ؟ أو أنه كان يعتزم منذ البداية ، هو وزملاؤه اللجوء الى القوة ، لا لاصلاح الوضع بالنسبة الى مشكلة القناة ، بل للاطاحة بحكم عبد الناصر ؟ وما الذي فعله عبد الناصر أولاً وحقق في تأميم شركة القناة ؟ وما الحقائق المتصلة بهذه القناة وشركتها ؟

القناة :

كانت شركة القناة في الخامس والعشرين من يوليو ، والى أن أوفت ساعة التأمين هي المسئولة عن عبور البواخر في الممر المائي ، واستخدام المرشدين ، وجبى العائدات وصيانة قاع القناة وجانبيها . وكانت هذه الواجبات قد حددت بموجب عقد امتياز بين الشركة وبين الحكومة المصرية التي سجلت الشركة رسمياً لديها . وقد ضمن اتفاق عام ١٨٨٨ حرية عبور القناة ، وهذا الاتفاق هو تعاهد قصد منه بوضوح أن يظل ساري المفعول ، مهما حدث لشركة القناة . ونصت المادة الرابعة عشرة من ميثاق عام ١٨٨٨ على ما يلي :

« ان مدة العمل بهذه الاتفاقية غير محدودة بفترة عقد الامتياز المنروح لشركة قناة السويس العالمية . . . »

ولم تكن الشركة هي التي تملك قناة السويس بمياهها وقاعها وشطآنها ، وانما مصر ، وحدها هي التي تملكها : وكان السير أنطوني ايدن نفسه هو الذي أقر اتفاق الجلاء لعام ١٩٥٤ ، الذي نصت المادة الثامنة منه بوضوح على أن قناة السويس البحرية . . هي جزء لا يتجزأ من مصر . والعامل الذي يجعل من القناة شيئاً دولياً هو ما ترتبط به مصر من التزامات تعاهدية للسماح بحرية العبور فيها ، بالإضافة الى الحقيقة الواقعة وهي أن تجارة أوروبا الغربية كلها ، وتجارة عدة دول أخرى ، تقوم على الانتفاع من هذه الطريق المختصرة عبر العالم .

ولم تكن الشركة تملك أى سلطان يضمن حرية العبور ، كما أن هذا الضمان لا يعتبر بحال من الاحوال جزءا من واجبها . وكان هذا السلطان فى يد بريطانيا ، عندما كانت قواتها تحتل منطقة القناة ، اذ كان فى مكنتها أن تحظر العبور ، كما حظرت ابان الحربين العالميتين . ولكن السير انطونى نفسه وافق على جلاء هذه القوات ، وقد جلت فعلا عن القناة فى مايو (ايار) عام ١٩٥٦ . ولم يطلب ايدن أو الحكومة الفرنسية ، من مصر قبل الجلاء أو بعده ، أية ضمانات اضافية خاصة ، بعد أن غدت صاحبة السلطان العسكرى الوحيد فى مصر ، لضمان حرية المرور . وكانت الضمانات الوحيدة القائمة لحرية المرور فى شهرى يونيو ويوليو من عام ١٩٥٦ ، ومنذ تم الاتفاق على الجلاء فى عام ١٩٥٤ ، متركزة فى احترام مصر لميثاق عام ١٨٨٨ ، وقدره أية دولة وحققها فى الشكوى الى المحكمة الدولية ، على مصر فى حالة خرقها لهذا الميثاق ، وما يمكن للدول ان تتخذه من اجراءات نهائية ضد مصر ، فى حالة خرقها فعلا للميثاق .

ولم تكن هناك أية سلطة مانعة تستطيع أن تؤكد حرية العبور . ولم يكن موظفو الشركة أو مرشدوها ، يحملون أية أسلحة ، كما لم تكن هناك أية قوة عسكرية غير مصرية ترابط فى منطقتها . وكان فى مكنة مصر فى أى وقت بعد جلاء آخر جندى بريطانى عن القناة ، وحتى قبل هذا الجلاء بأحد طويل بالنسبة الى الملاحة الاسرائيلية ، ان تحرم العبور فيها على أية دولة من الدول . ولم يكن فى وسع الشركة أن تحول دون هذا ، ولم تحل بالفعل دون منع سفن اسرائيل من العبور فى الماضى . ولم يكن السير انطونى ايدن قد اقترح استخدام القوة ، أو حتى خلق أزمة دولية خطيرة بسبب منع مصر لسفن اسرائيل من المرور فى القناة .

اذن ما الذى فعله عبد الناصر حقا فى السادس والعشرين من يوليو ؟ ان كل ما فعله هو انتزاع ملكية الشركة صاحبة الامتياز . وقد تعهد فى نفس البيان الذى صدر فى هذا الصدد ، بالتعويض العادل على جميع حملة الأسهم ، طبقا لأسعار الاغلاق فى بورصة باريس مساء الخامس والعشرين من يوليو . وأعلن كذلك أن سلطة مصرية رسمية ، ستولى ادارة القناة ، فتجيب مصر عائداتها . وتنتفع من هذه العائدات فى تمويل السد العالى .

وقد أعلن الرئيس هذا القرار فى خطاب غاضب ثائر . تحدث فيه عن القومية العربية التى وصفها بأنها بات شعلة ساعرة من اللهب من « الخليج الى المحيط » . ولم يكن قد أئذر الشركة بأنه سيعمل على انتزاع ملكيتها ومصادرتها ، وبينما كان يلقي خطابه ، كانت سلطة القناة المصرية الجديدة تضع يدها فجأة على موجودات الشركة وتفرض سلطانها على موظفيها . ولم يقترح التفاوض مطلقا مع الشركة على تأميمها ، وإنما جعل منه أمرا واقعا .

ولكن عبد الناصر تعهد رسميا بالتعويض . ولم تنطلق رصاصة واحدة ، ولم يرتكب أى عدوان . فالشركة مسجلة فى مصر ، والقناة أرض مصرية . ولم يحظر على أية باخرة فجأة حق المرور . ولم تصدر

عن عبد الناصر ، أية بادرة جهرية أو سرية توحى بأنه يعتزم اغلاق القناة في وجه بريطانيا أو فرنسا أو أية دولة أخرى باستثناء اسرائيل التي انقضى أمد طويل على حصارها . فعلى النقيض من ذلك ، أوحى خطاب الرئيس عبد الناصر الذى أعلن فيه ان عائدات القناة ستستخدم في تمويل السد العالى ، بوجود مصلحة مباشرة لمصر في الإبقاء على القناة مفتوحة أمام جميع البواخر ، ولا سيما تلك التي تعود الى كبار المتفعين بها وفي طبيعتهم بريطانيا التي ألفت بواخرها في مجموع حمولتها ربع الحمولة التي مرت بالقناة في عام ١٩٥٥ .

وكان من حق بريطانيا وفرنسا وغيرهما من دول العالم المنتفعة بالقناة ، أن تطلب الآن تأكيدات صريحة بأن مصر ستواصل احترام حرية المرور فيها ، وأن مصر بعد أن وضعت يدها على العائدات ، ستبقى الرسوم على مستواها الخفيض السابق ، وتحفظه مستقرا وواحدا بالنسبة الى جميع الدول ، وأنها لن ترفع هذه الرسوم الا بعد مفاوضات صحيحة مع المتفعين (١) . وكان من حق العالم أيضا الحصول على تعهدات صريحة وواضحة بأن نسبة معقولة من دخل القناة ستستخدم في صيانة قاعها ووضفتها وفي تحسينها طبقا لاحتياجات العالم اليها . ولم تكن جميع هذه المطالب ، مجرد أمور مشروعة فقط ، بل ان الطريقة التي اتبعت في هذا التأمين ، تفرض مثل هذا النوع من الالتزام (٢) .

(١) كان المؤلف منصفا كل الانصاف عند تحدثه عن حق مصر في القناة ، ولكننا نعتقد انه قد جانب هذا الانصاف عندما تحدث عن حق الدول في مطالبة مصر بكيت وكيت ، من الشروط ، لا سيما بالنسبة الى الطريقة التي صاغ فيها هذا الحق . فالقناة أرض مصرية ، وأن كانت تؤلف ممرا مائيا دوليا ، ولا يختلف وضعها من ناحية السيادة عليها عن وضع قناة بناما التي تمر في أراضي جمهورية بناما ، والتي تفرض الولايات المتحدة عليها حق السيادة بطريقة لا نود الخوض فيها الآن . ولكن ما أود قوله هنا ، هو أن قوانين الملاحة الدولية هي التي تحدد حقوق مصر والتزاماتها بصدد السويس ، وأن لا مجال هناك للتحدث عن حقوق أخرى للدول المنتفعة بالقناة . وكما أن قوانين الطيران الدولية هي التي تحدد قواعد استخدام المطارات والممرات الجوية لعالمية بموجب اتفاقات دولية منظمة لا وجود فيها لحقوق خاصة بالنسبة الى دولة أخرى غير الدولة التي توجد فيها أو تمر في أجهانها . فان القوانين الدولية البحرية هي التي تحدد الوضع بالنسبة الى ممر السويس المائى أيضا .

— العرب —

(٢) أعتقد أن الانصاف قد جاوز المؤلف ثانية هنا . فليس في الطريقة التي اتبعها سيادة الرئيس عبد الناصر في إعلان التأمين ، أى خروج على حقه المشروع في تأمين القناة أو في تأمين أية شركة أجنبية أخرى في بلاده ، يمنحه اياه القانون الدولي . ولم يكن من المنتظر أن يتنازل سيادته قرار الغرب بسحب العروض وهو القرار الذى ، كما زعم كل المؤلف دولي في اعلانه وصيغته باللين والوداعة كما لم يكن من المنتظر أن بنأى عن المفاجأة في الاعلان ، ليتيح المجال للشركة المستفلة تهريب أموالها وموجوداتها .

— العرب —

ولكن السير أنطوني ايدن وزملاءه لم يطلبوا أى شئ من هذا القبيل وانما كان ما طلبوه فورا ، وهم يعدون عدتهم عسكريا مضفين عليها كل أشكال العلنية والجهر ، ايجاد سلطة دولية « تتولى ادارة القناة » .

ولقد طلب ايدن ان تقوم هذه السلطة الدولية بتشغيل القناة عن طريق التعاقد مع المرشدين وتأمين عبور البواخر فيها وجمع العائدات واعطاء مصر حصّة معقولة (أى عقل ؟) منها ، وصيانتها وتحسين أوضاعها . وقد يكون من الواضح أن هذه المطالب ، تعتبر تدبيرا نموذجيا لادارة كافة الموارد والتسهيلات ذات الصبغة العالمية سواء أكانت قنوات وممرات مائية كالسويس أو بناما أو كييل ، أو مطارات جوية ذات صبغة عالمية . وهناك من ينادى أيضا بـ « منظمّة عالمية عادلة » ، تتولى السيطرة على جميع الموارد والمرافق العالمية الاساسية كالزيت والاورانيوم وغيرهما . ولكن مثل هذه السلطة الدولية حتى على الممرات المائية الدولية ، لم تكن مفروضة على أى ممر دولى كما لم يسبق لأحد أن طالب بها . فلماذا يستثنى ايدن قناة السويس من هذا الوضع ويطلب لها تنظيما خاصا بها ؟

ولقد تركزت حججه العلنية منذ السابع والعشرين من يوليو على ما يلى :

« لن تقبل حكومة جلالته أى ترتيب لمستقبل هذا الممر المائى العظيم يبقى عليها تحت السيطرة « غير المقيدة » لدولة واحدة » . (١)

ويضيف السير أنطوني ايدن فى نهاية قصته عن السويس ، تعريفا آخر ضمنه تنبؤا ينطوى على التشاؤم اذ قال :

« لا ريب فى ان أوربا الغربية ستكون من السداجة بمكان عظيم اذا توقعت أن تضمن لها حرية المرور فى القناة فى أوقات الطوارئ الا اذا كان لديها القوة الكافية على فرض هذه الحرية ، وهى قوة لا أعتقد أنها ستتوافر لها من جديد » .

ان هذا التأكيد فى هذه العبارة على القوة الكافية ترمز الى قضايا فى منتهى الخطورة . فلقد ظل ايدن وزملاؤه طيلة الفترة التى تلت السابع والعشرين من يوليو والتى تظاهروا فيها بالعمل من أجل ايجاد حل سلمى للوضع يؤكدون أن عبد الناصر قد « اغتصب القناة » ، وهذا ما ذكره ايدن فى اذاعته فى الثامن من أغسطس ، وأن مصر باتت تملك « سيطرة لا مقيدة » عليها ، وأن بريطانيا والعالم بأسره قد خسروا « القوة لفرض » حرية المرور فيها . ولكن ايدن فى قوله الى البريطانيين بأن عبد الناصر قد « اغتصب القناة » ، كان يرتكب مغالطة لا يمكن للمرء أن يشك فى أنها كانت مقصودة ومتعمدة . ولم يكن ثمة خارج مصر من انسان أكثر دراية ومعرفة بأن مصر لا تستطيع « اغتصاب القناة » لانها مصرية لحما ودما ، وطبقا لنصوص جميع الاتفاقات التى كان من ضمنها الاتفاق الذى

(١) خطاب ايدن فى مجلس العموم فى ٣٠ يوليو ١٩٥٦

وقعه ايدن نفسه . ومع ذلك فقد ظل السير انطونى ، وهو الدبلوماسى الفاره ، ذو الخبرة الطويلة طول حياته فى الدقائق القانونية وأهميتها ، يردد منذ بداية تلك الازمة الى نهايتها ، وحتى فى مذكراته بعد انتهائها ، هذه الاكذوبة الضخمة ذات الطابع الملتهب بصورة علنية (١) . ولقد نجح ايدن الى حد كبير فى ما هدف اليه ، اذ طبع مغالطته فى عقول البريطانيين حتى اننا نرى التعبير الشائع حتى اليوم عند الاشارة الى أزمة السويس ، يتردد على ألسنة البريطانيين على هذا النحو وعندما اغتصب عبد الناصر القناة أو أممها . وليس المقصود فى هذا التعبير مجرد المماحكة أو المشاكسة ، بل انه يؤلف خلاصة الازمة كلها وجوهرها .

ولعل ما هو أهم من هذا على أى حال ، ادعاؤه ، بأن مصر باتت تملك الآن « سلطة غير مقيدة » على القناة لأول مرة ، وكأنه يعنى بذلك ان هذه السلطة لم تكن موجودة لديها فى الوقت الذى كانت الشركة فيه تتولى ادارة القناة ، وان عمل عبد الناصر قد أدى الى اضعاف قدرة العالم « على فرض حرية المرور » . ولكن لو كانت الشركة قد ملكت فى يوم ما « السلطة على فرض حرية المرور » لكان فى امكانها حتما ان تجد القوة على مقاومة قرار مصادرتها فى السادس والعشرين من يوليو . فالواضح ان الشركة لم تملك قط هذه السلطة . ومن الواضح أيضا ان عمل عبد الناصر لم يفرض « سيطرة » جديدة على القنال ، اذ ان مصر كانت تملك هذه السيطرة الشرعية منذ سنوات طويلة . وجدير بنا أن نذكر ، أن وجود القوات البريطانية نفسها فى المنطقة حتى شهر حزيران « يونيو » لم يحل بين مصر ، وبين ممارستها هذه « السيطرة » فى موضوع الملاحة الاسرائيلية التى منعتها من عبور القناة .

وكان هناك تناقض أكثر بروزا فى موضوع «الحل السلمى للوضع» والمبررات التى استخدمت له . فلقد اقترح السير انطونى قيام سلطة دولية لتولى ادارة القناة ، وزعم أن وجود هذه السلطة ، سيزيل «سلطة مصر غير المقيدة» عليها . وليس ثمة الا سبيل واحد ، تستطيع هذه السلطة الدولية أن تحقق بواسطته اقتراح ايدن . وهو ايجاد قوة عسكرية دولية ترابط دائما على ضفتى القناة لحماية «السلطة الدولية» وحماية البواخر التى تنشد عبورها ، من السلطان العسكرى المصرى . ولكن ايدن لم يتقدم بمثل هذا الاقتراح أبدا . فلقد طالب بأن يعمل مجلس الادارة الدولى طبقا لاتفاق خطى يعقد مع مصر ، ولا يمكن أن يكون لهذا المجلس سلطان أضخم لفرض حرية المرور - من ذلك الذى كان فى حوزة الشركة وهى تتولى ادارة القناة . فالعاهدات وحدها هى التى تضمن حرية المرور . فمصر وحدها ستظل حتى مع قيام هذا

(١) كان من بين الحجج التى أوردها ايدن وموليه وشركة القناة . ان مقدمة ميثاق عام ١٨٨٨ ، « ضمنت » امتياز الشركة ، ولذا فان الغاء عبد الناصر للامتياز يعتبر خرقا للميثاق نفسه . ولكن ايدن وموليه ورجال الشركة لم يكلفوا انفسهم عناء تذكير الراى العام العالمى بأن المادة الرابعة عشرة من الميثاق تبطل هذه الحجة تمام الابطال . - المؤلف -

المجلس ، صاحبة السلطان الفعلى على القناة ، وصاحبة السلطة الفعلية فى منع حرية المرور للسفن التى ترغب حكومتها فى منعها .

ومع ذلك ، كان من حق العالم ان يطلب تأكيدات واضحة ومحدودة (١) من عبد الناصر بالنظر الى الطريقة التى اتبعها فى تأمين الشركة . وسنرى بعد قليل وبصورة مفصلة بأن عبد الناصر قد قدم مثل هذه التأكيدات بين السابع والعشرين من يوليو وبين السادس عشر من اكتوبر ، لا فى شكل تعابير عامة لا تحديد فيها عن حرية المرور فحسب ، بل فى شكل اقتراحات عملية محددة ومفصلة أيضا .

وسنرى فيما بعد أيضا أن ايدن وشركاءه لم يكتفوا بعد السابع والعشرين من يوليو ، بتجاهل هذه الاقتراحات المصرية تجاهلا كلياً فحسب ، بل حاولوا منع عرضها على الشعب البريطانى وشعوب الغرب عامة . وواصل ايدن حتى فى مذكراته الرغبة فى منع الناس من تفهمها .

وبالاختصار ، حاول ايدن وزملاؤه منذ اليوم الاول للأزمة ، أن يشوهوا حقيقة ما فعله عبد الناصر ، وما يعنيه هذا العمل للمتفعين بالقناة ، وأن يلقوا عليه لباساً من التضليل . ولقد تظاهروا بتقديم اقتراحات سلمية لا يمكن لها أن تصلح الوضع ولا أن تزيل الخطر « الكاذب » الذى حاولوا تصوير وجوده للناس . وشرعوا منذ البداية فى محاولة الحجب عن بريطانيا والعالم ، أن مصر كانت تؤكد وجود مصلحة كبيرة فى تأمين حرية المرور ، وانها كانت تعرض اوضح التأكيدات المتعلقة بكل نقطة من نقاط الفلق المشروع على مستقبل القناة . ويزل القلم بيد ايدن وهو يدون مذكراته المليئة بمثل هذه الزلات ، فيعترف ، بحقيقة ما كان ينتويه ، باقتباس البرقية التى بعث بها الى أيزنهاور فى السابع والعشرين من يوليو والتى قال فيها :

« ومن الواجب ألا نسمح لانفسنا بالخوض فى مجادلات فقهية حول حقوق الحكومة المصرية ، فى تأمين شركة تعتبر اصطلاحاً شركة مصرية واننى لأثق بأن الواجب يحتم علينا أن نشر المشكلة مع عبد الناصر على أوسع نطاق دولى ممكن » .

ويمكن لنا الآن أن نرى الطريقة التى عملت فيها هذه الخطة التى وضعها ايدن فى التأثير على الراى العام ، من صورة التعليقات التى ظهرت فى صحيفة التايمز اللندنية . فلقد نشرت فور ظهور أنباء التأمين فى السادس والعشرين من يوليو ، مقالا يحمل توقيع «خبر» جاء فيه ان الشركة مصرية من الناحية القانونية ، ولكنه مضى الى القول ، بأن بقاء ميثاق عام ١٨٨٨ الذى يضمن حرية المرور نافذ المفعول حتى بعد زوال الشركة من الوجود ، « تعتبر رداً على أولئك الذين يقولون بأن تأمين عبد الناصر للشركة سيؤدى الى اغلاق القناة او يهدد باغلاقها » . ولكن هذه الصحيفة نفسها عادت الى القول فى الاول من آب (أغسطس)

(١) سبق أن اوضحت فى صفحة سابقة أن لا وجود لهذا الحق مطلقاً . — العرب —

وبعد أن شرع ايدن يعمل على انتهاء أى خوض فى بحث المجالات الفقهية ،
مغيرة رأيها الاول على النحو التالى :

« ان النقاش فى القضايا الفقهية القانونية حول ما اذا كان من حق
عبد الناصر قانونا أن يغتصب العناة • سلوك يطرب المتأقين ويبهج
ضعاف القلوب ، ولكنه لا يصل مطلقا الى صلب القضايا وجوهرها » •

صورة ايدن عن هتلر وانتزاع الراين :

اثبتنا حتى الآن ان رد فعل حكومتى ايدن وموليه على عمل
عبد الناصر ، بالنسبة الى موضوع القناة ومستقبلها ، كان مصطنعا
وزائفا كل الاصطناع والزيف • وأرى لزاما على قبل البحث فى الاسباب
التي أدت الى هذا الاصطناع . ان اتعمق فى بحث دوافع ايدن الحقيقية
والخاصة ، من « جهرية وخفية » . ويتلخص رأى بعض الذين يعتبرون
انفسهم وسطا بين الآراء المتناقضة كل التناقض حول قضية السويس ،
والذين يتميزون بشيء من التفكير ، فى أن ايدن كان يود بالطبع الاطاحة
بعبد الناصر ، حتى ولو لم يجهر بعزمه هذا ، ويضيفون ان الحافز
لايدن على اتخاذ هذا الموقف أصيل ومعقول ، اذ انه كان يخشى أن يكون
عبد الناصر ، صورة ثانية لهتلر وأن يكون تأميم القناة صورة أخرى
لإعادة احتلال المانيا للرايخ . ولكن هل كان هذا الخوف أصيلا حقا ؟
او انه كان المبرر العاطفى ، والتبرير العقلى الظاهرى ، لحوافز أخرى ؟
حقا لقد كانت الصور التي استشارها ايدن فى هذا الموضوع مؤثرة الى
حد خطير ، ولكن هل كانت صورا حقيقية يا ترى ؟

لا ريب فى ان هذه الاسئلة الطريفة للغاية كانت تسيطر على المرء
عندما يشرع فى قراءة مذكرات ايدن . فالكتاب يعالج موضوع
عبد الناصر ، والعلاقات بين مصر وبريطانيا ، التي كان ايدن مسئولا
عنها منذ عام ١٩٥٤ . وفى القصة المفصلة والطويلة التي يعرضها فى
كتابه نرى رأيين متعارضين يشكلان قطبين متباعدين ، بالنسبة الى
وجهة نظره فى عبد الناصر . فهو يقول عنه بالنسبة الى عام ١٩٥٤
ما يلى : -

« ولم تظهر الادارة الجديدة فى مصر ايا من العلائم التي توحى
بوجود تلك المطامح التوسعية التي ظهرت فيما بعد . ولهذا ظهر لنا
اتفاق الجلاء بعد وزن ما فيه من مزايا وعيوب ، نافعا لنا وجديرا
بتجربتنا » .

ولكن لم يكن قد ظهر حتى ذلك الحين أى مجال من أى نوع لتجربة
الاتفاق • ولكن السير انطونى أحس بوضوح على أى حال • فى هذا العام
الذى دون فيه مذكراته ، أى فى عام ١٩٦٠ ، بأن من واجبه أن يشير الى
ان الاتفاق لم يكن الا مجرد تجربة ، وأنه كان يفكر طيلة الوقت بأن
الضرورة قد تقضى بتعديلها ، ولكننا اذا مضينا فى حديثنا ، وجدنا القطب
التاريخى الثانى من الصورة التي رسمها ايدن لعبد الناصر ، فى الصفحات
الختامية من قصته عن السويس ، بعد أن كانت بريطانيا وفرنسا قد
شرعتا فى تدخلهما ، اذ يقول :

« لقد تأخر الغرب كثيرا في الاطلاع على الكتاب الذي وضعه عبد الناصر عن « فلسفة الثورة » كما تأخر في الماضي عن قراءة كتاب « كفاحي » لهتلر ، مع أن الكتاب الجديد أقصر بكثير من سابقه ، وأقل تضخما ولكن حكام الشرق قد قرعوه . »

وكانت نظرية السير انطوني كلها . تقوم على أن الرئيس عبدالناصر قد أعلن ، مطامحه التوسعية المزعومة في هذا الكتيب الصغير . وواصل ايدن وزمرته منذ أيام أغسطس الاولى ، تحذير بريطانيا والعالم بمنتهى الجذ والخطورة ، من أن مافعله عبد الناصر بتأميم القناة لم يكن إلا مجرد خطوة واضحة في طريق تنفيذ مطامحه التوسعية الضخمة التي اعترف هو بنفسه بوجودها . وهكذا نرى أن ايدن يؤكد أن عبد الناصر لم يكن قد طلع بهذه « الاعترافات » في عام ١٩٥٤ ، ولكنه طلع بها الآن في أكتوبر عام ١٩٥٦ ، وأن كان « الغرب » قد تأخر في قراءتها كما سبق له أن تأخر في قراءة « كفاحي » .

ولكن لنعد الى التاريخ قليلا ، فعندما وقع ايدن اتفاق الجلاء في عام ١٩٥٤ ، كان كتاب « فلسفة الثورة » مطبوعا وموزعا . فلقد ظهر الكتاب أول مظهر في ابريل - مايو ١٩٥٤ ، في شكل مقالات نشرتها إحدى كبريات الصحف اليومية في القاهرة ، وكانت تترجم في كل صباح الى الانكليزية في دار السفارة البريطانية في القاهرة . ولو أردنا اضافة شيء من المنطق على رواية السير انطوني ، لتحتم علينا أن نصدق ، أنه على الرغم من أن هذا الكراس قد تضمن المطامع المفرعة والمرعبة والشاملة التي حذر منها ايدن شعبه البريطاني ابان أزمة السويس في عام ١٩٥٦ ، فإن أى انسان في السفارة البريطانية في القاهرة لم يجد فيها في عام ١٩٥٤ ، مايفزع أو يخيف مما يتطلب منه أن ينقله الى لندن وأن يلفت انتباه وزير الخارجية ، - أى ايدن - الذي كان يتفاوض آنذاك مع مصر على جلاء القوات البريطانية عنها .

وهناك شيء آخر ، فقبل أسبوع واحد من عقد اتفاق الجلاء بصورة رسمية الذي تم في التاسع عشر من أكتوبر عام ١٩٥٤ ، بدأ كتيب عبد الناصر ، في الظهور على حلقات في صحيفة الاوبزرفر اللندنية . ومع ذلك ظل ايدن - كما أعلن في مذكراته - يرى آنذاك أن عبد الناصر لم يكن قد كشف - بعد عن مطامحه ، وهو يطلب الينا بعد ذلك أن نصدق ، بأنه هو وزملاءه في وزارة الخارجية لم يعرفوا حتى ذلك الحين بأمر هذه الوثيقة التي عاد ووصفها بأنها مخيفة في عام ١٩٥٦ .

ومضى ايدن يقول ... انه « ظل نحوا من اثني عشر شهرا » بعد اتفاق الجلاء « لا يرى مدى مطامع مصر التوسعية » ويصل بنا قوله هذا الى نوفمبر عام ١٩٥٥ الذي نستنتج منه أن ايدن ظل حتى ذلك التاريخ كما يبدو لا يعرف شيئا عن « كراس » عبد الناصر ، مع أن هذا الكتاب كان قد انتشر انتشارا واسعا طيلة عام ١٩٥٥ في طول الشرق الاوسط وعرضه ، اما على شكل مطبوع أو على شكل مذاع . وكانت الحكومة المصرية قد وزعت عن طريق سفاراتها في كل مكان نسخا مطبوعة بالانكليزية من الكتاب . ومع كل هذه الحقائق السافرة ، يطلب الينا

ايدن أن تصدق أن أيا من موظفي جهاز وزارة الخارجية البريطانية سواء في مركزها أو في سفاراتها في الخارج ، لم ير خطورة فيما نعتة سلوين لويدي في الرابع عشر من آب (أغسطس) عام ١٩٥٦ ، باعتراقات عبد الناصر الواضحة عن مطامعه .

وأرى هنا أن نسير قدما مع رواية ايدن الخطية ، وأن نتساءل عند هذه النقطة عن الطريقة التي عالج فيها في مذكراته ما جرى بينه وبين عبد الناصر من اتصالات قبل عام ١٩٥٦ . ولقد روينا في فصل سابق المبادرة المتعلقة بفلسطين والتي وردت في خطاب ايدن الهام في جيلدهول في شهر نوفمبر عام ١٩٥٥ . فلقد شرع في ذلك التاريخ في محاولة من أكثر محاولاته الدبلوماسية أهمية في الشرق الأوسط ، عن طريق السعي للحصول على تأييد عبد الناصر ، سرا وعلانية بصورة سابقة عن البيان الذي انتوى الاقضاء به . وقد هوجم ايدن . في ذلك الحين هجوما عنيفا من إسرائيل عن طريق صحافتها وبياناتها الرسمية . إذ وصفت صحيفة « الجيروسالم بوست » الصهيونية خطوته بأنها « هجوم سلبي صدر عن وزارة الخارجية البريطانية في القاهرة » . ولكن السير أنطوني يشير في يومياته إلى خطابه في جيلدهول وإلى مبادرته الدبلوماسية اشارة عارية ، يعتبر الالفاظ التي لجأ إلى التعبير عنها بها كثيرة الدلالة إذ قال :

« وتعمدت ألا أكون واضحا في ملاحظاتي رغبة مني في إثارة المحادثات حتى ولو بأساليب الصاعقة ... وسيتطلب الوضع بعد ذلك اجراء مفاوضات طويلة وكثيرة الدقة ... وقد بدأت الآن في التفكير انه بعد شروع الاسلحة الروسية في التدفق على مصر بهذه الكميات الهائلة لم يعد من الحكمة في شيء إثارة قضية الحدود . ولكن المحاولة فشلت على أي حال » .

ويتعمد السير أنطوني هنا أن يخفي حقيقة واحدة وهي أن هذه « المفاوضات الطويلة والكثيرة الدقة » ، قد وقعت بالفعل مع عبد الناصر كما روينا من قبل . وهو يسقط كذلك من مذكراته حتى الاشارة إلى تلك القذائف المدفعية من نقد إسرائيل ، التي انصبت على رأسه . وهو يحاول أن يمر بالحادثة كلها مر الكرام ، بطريقة تجعل القارئ عاجزا عن تكوين أية فكرة عن الاتساق الذي كان قائما في العمل بينه وبين عبد الناصر ، كما يخفي عليه ، أي على القارئ ، الحقيقة الواقعة وهي أن إسرائيل هي التي أحبطت خطوته السلمية هذه . ويتضح السبب الذي دفعه إلى هذه المحاولة من اخفاء الحقائق في مكان لاحق من مذكراته عندما تبني ايدن وجهة نظر موالية لإسرائيل في نزاعها الكلي مع العرب وأن ما أصل إليه من استنتاج ، بالنسبة إلى هدف ايدن من تعمد حذف أية اشارة لعلاقاته بعبد الناصر ، في مثل هذا الكتاب الذي يضم من التفاصيل الوافية ما يتناول كل موضوع ، هو أن السير أنطوني لم يرغب أبدا في أن يظهر نفسه أمام شعبه بمظهر الذي نشد عون عبد الناصر في أي وقت من الاوقات . ولا ريب في أن ما أقوله هذا هو تصحيح رجعي للتاريخ .

ولكن ترى متى قرأ ايدن نفسه ذلك الكتيب الذي زعم أن محتوياته

تنطوى على الكثير من الندر؟ لو أخذنا بعين الاعتبار جميع الأدلة السطحية لقلنا انه قراه فى أغسطس عام ١٩٥٦ ، اذ انه فى كتاباته يؤكد ان اطلاعه على الكتيب كان عاملا حاسما فى تقرير حياته الدبلوماسية كلها . ولو أخذنا بعين الاعتبار ، ماوجهه من نقد « الى الغرب » لانه لم يكن قد قرأ الكتيب قبل وقوع أزمة السويس ، لتبين لنا انه يحاول أن يوحى لقرائه بأنه قراه فى ذلك الوقت ، وأن ما فيه من محتويات قائمة ، هى التى وجهته فى جميع ماقام به من تصرفات ابان الازمة . ومع ذلك فقد تجاهل ايدن فى جميع مذكراته التى وصفت بأنها « كتاب » ينطوى على جميع أفكار الساعة كما دونها فى وقتها لتتناول قضايا الساعة ، الاشارة الى التاريخ الذى لفت فيه نظره لأول مرة الى هذا الكتيب . حقا ان هذا امر غريب كل الغرابة . وقد تشدد هذه الغرابة ، عندما نتذكر ، ان سلوين لويدي وزير خارجية ايدن قد أعلن لبريطانيا فى اذاعته فى الرابع عشر من أغسطس عام ١٩٥٦ ، بأنه قرأ كتيب عبد الناصر « قبل مدة قصيرة » . ومن هنا تزداد الشكوك لدينا بان نظرية « تشبه عبد الناصر بهتلر » ، قد اختلقت واختيرت لاغراض تتعلق بالجدل الذى أعقب نشوب أزمة السويس .

ويصبح شكنا هذا طاغيا عندما ندرك أن تفسيرات ايدن ولويدي لاسمياه « باعترافات عبد الناصر الواضحة » هى من الكذب والتضليل على درجة كبيرة لا بالنسبة الى نصوصها فحسب بل بالنسبة الى طاقة مصر الفعلية ، والى سلوك عبد الناصر الفعلى بعد عام ١٩٥٦ . ولا ريب فى ان هذا التشويه المقصود لعبارات عبد الناصر فى كتيبه ، ولا يمكن أن أسميه الا تشويها من جانب ايدن ولويدي ، مهم كل الاهمية لقصة العلاقات بين العرب والغرب ، وسأتناول تفصيله فى مكان لاحق من هذا التحقيق .

وأرى لزاما علينا بعد ذلك أن نسأل اذا كان ما فعله عبد الناصر يمكن أن يقارن ، طبقا لأية قواعد ، بما وقع فى « الراين » ، وهو تشبيه واصل ايدن ابرازه فى ذلك الوقت وكان مازال يحاول ابرازه حتى عند كتابة مذكراته . وحرى بنا قبل الخوض فى البحث فى هذه النقطة ، أن نقول ان هذا التشبيه لم يكن مجرد ابتكار من مراقب هـاو للشئون الدولية ، بل كان صادرا عن رجل قضى حياته فى الدبلوماسية وبرز فيها وكان على اتصال دائم بأحداث فترة « الراين - ميونيخ » وما تبعها من تطورات (١) ونحن نرى ان ايدن يطلق تحذيرا فى مذكراته من المقارنات

(١) أرى لزاما على ان اشرح هنا ما يعنيه الغرب أو ايدن على الاخص بتشبيه أزمة السويس بالراين ، لقد نصت معاهدة فرساي فى نهاية الحرب العالمية الأولى ، على ان تظل منطقة الراين الألمانية منزوعة السلاح ، لتكون فاصلا بين المانيا وفرنسا . وقد ظلت المنطقة على هذا النحو منذ عام ١٩١٩ حتى مارس عام ١٩٣٦ عندما أمر هتلر قواته التى كانت لاتزال ضعيفة حتى ذلك التاريخ باحتلال المنطقة عسكريا متحديا بذلك معاهدة فرساي . وتتابع بعد ذلك أعمال هتلر من ضم النمسا فالسويد فأزمة ميونيخ ، فاحتلال تشيكوسلوفاكيا فالهجوم على بولنده . وقد =

الخطرة المستمدة من الماضي بالنسبة الى ماوقع في الهند الصينية ، ولكنه لا يلبث أن يناقض نفسه تمام المناقضة في هذا الصدد عندما يشرع في الحديث عن السويس . انه يقول عن عام ١٩٥٤ ...

« ولم اقتنع قط بتأكيدات المستر دالاس آنذاك بأن الوضع في الهند الصينية ... يشبه احتلال هتلر لمنطقة الراين » ..

ولكن هل كان عمل عبد الناصر في موضوع السويس يشبه عمل هتلر ؟ أنا لا أرى ضرورة هنا لتبرير ما عمله عبد الناصر ، أو لاضفاء صورة زاهية عليه في عبارات براقية . ان القضية لاتعدو أن تكون مجرد التساؤل عما اذا كان عمل عبد الناصر في السادس والعشرين من يوليو ، يمكن أن يقارن باحتلال الراين في حدود التجارب التي مر بها السير انطوني طيلة حياته ، وعلى ضوء تحذيره السابق من اجراء مثل هذه المقارنات . لقد تم تأمين القناة دون اطلاق عيار نارى واحد ، ولم يجتزأى جندى مصرى أية حدود ، كما لم يكن ثمة أى تهديد بعبور هذه الحدود . ولم تعلن مصر أية تعبئة لقواتها للقيام بهذا العمل . ولم تفتصب مصر بعملها هذا أرضا أجنبية أو أرضا يجرى النزاع حولها . ولم يكن حتى سلوين لويد كما يظهر قد قرأ ما يسميه ايدن كذبا « باعترافات » عبد الناصر التي حاول تشبيهها باعترافات هتلر في كتابه « كفاحى » ولم تمنع مصر أية سفينة بريطانية من عبور القناة أو تحاول حتى اعاققتها ، كما لم تهدد باتخاذ مثل هذا الاجراء ... فمن الصعب علينا والحالة هذه أن نجد أى وجه للشبه مهما كان بعيدا بين السويس وبين مشكلة الراين ، التي كانت ملامحها لاتزال حية الى حد كبير في ذهن ايدن ، مما دفعه قبل عامين أى في عام ١٩٥٤ ، الى التحذير من تشبيهها حتى بحرب فعلية كحرب الهند الصينية تقوم على قدم وساق .

وأرى من الانصاف للسير انطوني أن أقول على الفور . أنه لم يكن وحيدا في ابراز هذه الصورة . أى صورة الراين . فلقد بادر الى ذلك أيضا المستر جيتسكيل (زعيم العمال) ، في الخطاب الاول الذى ألقاه في البرلمان بعد أزمة السويس والذي تميز بالتعجل وعدم الاتزان في التفكير . والذي كان ولاشك حافرا للسير انطوني ومشجعا له على أن يقول ما قاله ، كما زوده بالمادة الضخمة لمهاجمة جيتسكيل والمعارضه فيما بعد عندما شرعت تقف في طريق تنفيذ خطته . ولكن صدور هذا التشبيه عن جيتسكيل لا يبرر مطلقا لايدن أن يحذو حذوه . فلقد كان

= ظهرت في الغرب كتب عدة تقول ان الغرب ، لو وقف من هتلر موففا حازما في عام ١٩٣٦ ، عندما عادت جيوشه الى احتلال الراين . وكان في قدرته أن يقف نظرا لضعفه الجيش الالماني آنذاك لما تكررت أعمال هتلر ونشبت الحرب العالمية الثانية . ولكن هذا التشبيه الغربى يناقض تماما الحقيقة ، إذ ان سيادة الرئيس عبد الناصر ، لم ينقض معاهدة أو اتفاقا دوليا في قرار التأميم ، وانما أصلح وضعها كان جائزا بالنسبة الى مصر ، ولم يكن فى يوم من الايام يفكر بالاعتداء على أحد ، وانما جعل رائده تحقيق رسالته الوحديية التاريخية التي لاتنطوى على أى عدوان .

— المغرب —

الشخص الواحد - اذا استثنينا تشرشل وقلة من الناس - الذي عاش فترة قيام هتلر على مقربة من الاحداث وعالجها واطلع على نتائج سياسة التهدة التي اتبعت ازاءه .

ومع كل هذا نرى ان عبد الناصر ينقلب في السادس والعشرين من يوليو « بقدرة قادر » الى هتلر ، وتتحول مصادرة شركة قناة السويس الى عملية « احتلال الراين » . ويصل بنا هذا ، الى النقطة الاخيرة في هذا التحليل الخاص . فلقد رأينا كيف ان ايدن كان يشتبك منذ عدة اشهر قبل السادس والعشرين من يوليو ، في صراع قلق مع عبد الناصر حول السياسات التي كان يتبعها في جميع أرجاء الشرق الاوسط ، والاحداث التي دارت على مسرحه ، والتي كان من المعتقد انه مسئول عنها مسئولية شخصية مباشرة كمظاهرات البحرين وطرد جلوب من الاردن وما شابه ذلك من احداث . ولكننا لانراه على أى حال في قصة تلك الايام القلقة التي سبقت السادس والعشرين من يوليو ، يلقي ولو مرة واحدة أية ذرة من الشك ، أو حتى يقسوم بأية محاولة تشبيه اختيارية للوضع بقصة هتلر وحوض الراين . وهو مع ذلك يطلب اليانا ان نصدق ، انه على الرغم من انه لم يقرأ كتاب عبد الناصر ، قبل نوفمبر عام ١٩٥٥ ، وان كان قد قراه عندما نشأت أزمة السويس ، وأحس احساسا خطيرا بخطأ الغرب في تأخره في قراءته ، لم تدرك في خياله صورة هتلر الجديد قبل السادس والعشرين من يوليو .

هناك سر خفي يحيط بهذه القضية ، وهو يتناقص في الشك شكاً هائلاً في أن تكون صورة « هتلر وحوض الراين » هي الحافز الجذري الخفي الذي دفع ايدن الى سياسته الجديدة . ويتمثل هذا الشك أيضاً في انه هو وزملاءه ، قد نادوا عامدين متعمدين بتفسير لكتاب عبد الناصر على أساس انه صورة أخرى « لكفاحي » ، وأن هذه الصورة كاذبة كل الكذب ، ومضللة كل التضليل . واني لارى هذا التشويه الخاطيء يحيط بجميع القصة المسهبة التي أوردها ايدن عن علاقاته بعبد الناصر منذ عام ١٩٥٤ ، وبكل ما اتصل بها من تسلسل الحقائق المتعلقة بهذا الكتيب . وليس ثمة ما يوحى مطلقاً بأن التفكير في هتلر الثاني قد ظهر قبل السادس والعشرين من يوليو ولاشك في أن هذه المقارنة ، حتى على صعيد تعبير ايدن نفسه بالنسبة الى ما ذكره عن الهند الصينية تعتبر ضعيفة الى حد يبعث على الالتباس والريبة . فكيف يمكننا والحالة هذه أن نفسر هذا الموقف ياترى ؟

دوافع ايدن الحقيقية :

قد لا يكون هدفي من هذا البحث ان اظهر ايدن في صورة « هتلر » التي رسمها ، بمظهر الانسان الافاك الذي يتعمد الكذب علناً . اذ انني أعتقد ان الحقيقة أكثر تعقيداً ، من مثل هذا الايضاح المباشر ، لانها تتعلق كما تتعلق القضايا الرسمية دائماً بتقويم لقائد مجموعة حاكمة بارز كل اليوم ومتألق كل التألق ، كرجل ، وكفرد .

كان ايدن رجلاً مريضاً ، يحمل أعباء ضخمة من مسئوليات

الحكم ولقد ظل حتى تبوا رئاسة الحكم في عام ١٩٥٥ ، رجلا قضى حياته الرسمية الطويلة ، مفسرا - على حد تعبيره هو المجازي في مذكراته المليئة بالاستعارات - للعبة الدبلوماسية . فهو يتقن تنفيذ السياسات التي يضعها سواء اتقانا كاملا ، كما يحسن التوسط في مجال ، لا يكون هو مسئولا عنه مسئولية سياسية تامة . وقد أظهر في توليه قيادة الوساطة البريطانية في أزمة الهند الصينية كل مالدیه من كفايات . لكنه كان آنذاك ، مجرد ايدن الذي يقف خلف تشرشل العظيم بكل ما فيه من شموخ وقوى خلاقه تفرض ارادتها . أجل لقد كان ايدن الذي يعيش في ظل شخص آخر يتولى خلق السياسة والرد عليها ، وعندما غدا رئيسا للوزراء ، وجد نفسه في وضع مغاير كل المغايرة ، مختلف كل الاختلاف عما ألفه في الماضي .

وكان ايدن رجلا عصبي المزاج ، شديد التفجر ، بالغ الحساسية الى درجة تختلف كل الاختلاف عن صورة ذلك الانسان المتأنق الذي يبدو في رسومه الفوتوغرافية . وكان مصابا بعقدة التخوف الحاد المطلق من أن يبدو انسانا مفتقرا الى القدرة على العمل . وقد تضخمت هذه العقدة في قرارة نفسه بعد أن صورته مجلة « بانث » الهزلية الانتقادية في احدى صورها الكاريكاتورية الساخرة ، على شكل انسان « ضعيف خائر » . يمضي الى جنيف في عام ١٩٥٤ بدلا من ميونيخ التي ذهب اليها نشمبرلين من قبل . وبعد أن حمل عليه اليمينيون من أعضاء حزبه كما حملوا على تشرشل بتهمة « تقطيع أوصال الامبراطورية » نظرا لتوقيع اتفاق الجلاء عن السويس . وبات ايدن يخشى كل الخشية من أن يعجز عن اثبات « رجولته » أو عن اقامة الدليل على أنه رئيس وزراء دولة لا تزال قوية ، قادر على أن يعمل كسلفه تشرشل بجرأة والهام . وتبين له في النصف الاول من عام ١٩٥٦ كما لم يتبين من قبل ، أن حزبه لا يعبا أبدا بزعامته للحزب . ولقى ايدن معاملة عدائية للغاية من مجلس العموم في شهر مارس عام ١٩٥٦ ، ولاسيما بالنسبة الى مواقفه في الشرق الاوسط والاردن ومسئولية عبد الناصر المزعومة عن طرد جلوب . ولم يستطع ايدن قط أن ينسى تلك المقابلة العاصفة التي قوبل بها ، والتي تعكس في مذكراته لمحات خاطفة من آثارها النفسية عليه اذ يقول ...

« وقد تلقيت درسا بالغا لأنساه في مجلس العموم ، اذ ارتبك أصدقائي وغالي خصومي في تقديمهم ، وكان التعليق العام في المجلس ، أنني بدوت ضعيفا في معالجه موضوع كنت ولا شك أعرفه كل المعرفة » .

وقد أدت كل هذه العوامل ، الى مزيج من العصبية من الوقوف موقف التردد أمام أي تحد رئيسي ، ومن التلهف الباطني الى التحسني وخوض المعارك . وكلنا يعرف أن الكثيرين من صفار الضباط يشكون عند تخرجهم من مدارسهم في قدرتهم على الظهور بمظهر البسالة في المعركة ، ويتحرقون شوقا مع ذلك الى الوقوف في موقف التجربة والاختبار . وهكذا يمكن القول أن هذا السياسي الذي عاش طويلا في الظلال وراء قائد آخر ، كان يحس الآن احساسا باطنا بالتلهف على تجربة تخوضها بريطانيا تحت لوائه .

وسواء أكان أيدن قد بادر الى خلق هذه التجربة في يوليو عام ١٩٥٦ مدفوعا بوعيه أو بعقله الباطن ، لاسيما وقد عرفنا من قبل الدور الخطير الذي لعبه في مقدمات أزمة القروض للسد العالي ، فان من الثابت انه منذ اللحظة الاولى التي بدأت الازمة فيها ، كان واقعا تحت تأثير توتر نفسى حاد كل الحدة . وكان التأثير العاطفى باديا عليه منذ البداية ، وسرعان ما اتخذ هذا التأثير شكلا متزايدا . وتعرض لحدث قوى من قرارة نفسه ومن المقربين اليه . وكان موقفه الشخصى من عبد الناصر كفرد ، متسلطا عليه كل التسلط الى الحد الذى اظهره حتى على شاشة التليفزيون بمظهر الحاقد عليه ، كما تبين هذا الحقد فى تقلبات صوته وهو يخطب أو يذيع عن أمر يتعلق بعبد الناصر . واتضح لكل من كان يعرفه آنذاك أنه ينظر الى الازمة بمنظار عاطفى شخصى خطر ، وكأنه يخوض معركة أو صراعا داخليا مع رجل يقيم فى القاهرة .

وليس لدى من ريب فى أن هذا الايضاح ، هو جوهر القضية وخلاصتها . فلقد كانت أزمة القناة من الناحية الرسمية حدا فاصلا فى العلاقات المصرية الانكليزية ، كما كانت نقطة حاسمة فى تاريخ التوتر القومى بين العرب والغرب الذى كنا نتابعه . لكن أيدن ظل ينظر الى القضية نظرة تحد شخصى ليس الا . ولا ريب فى أن هذه النظرة هى التى دفعته الى خلق صورة « الراين » ، وهى التى خلقت لديه قورا الحافز على خوض المعركة مع رجل واحد ، هو من المصريين ، لاسيما وأن أيدن كان مصابا بأكثر من مجرد كراهية عادية لهم . . وشجعه خطاب جيتسكيل الاول على خوض المعركة ، وأتاح له قوة اضافية عززت مشاعره الشخصية الغريبة التى عاد أيدن عن طريقها بعقله وخيالاته الى ماكان يتسلط عليه من أحاسيس فى حقبة الثلاثين ومطلع حقبة الاربعين وليس ثمة من ريب فى أنه شرع يؤمن بكثير من القوة العنيفة . ضمن هذا الاطار النفسى من العقد العميقة ، بصورة « الحلقة الكاملة » لتشبيه عبد الناصر بهتلر ، والسويس بحوض الراين ، أما المستر جيتسكيل ، فقد استفاق لتوه من الصدمة الاولى وأعاد التفكير فيما قاله . وينطبق هذا الموقف على كثيرين من الزعماء العمال ، على الرغم من تأثير بعضهم تأثيرا قويا بالدعايات الصهيونية عن عبد الناصر . لكن أيدن لم يفق الى نفسه قط ، ولم يعد النظر فى تفكيره ، ولم تمض أيام عشرة ، حتى بات يعتقد بانه لا يواجه هتلر جديدا فحسب ، بل كان يود دائما بحافز من عقله الباطن لو واجهه ، وبات يؤمن بأن الواجب يدعو الى استخدام هذه النظرية - نظرية تشبيه عبد الناصر بهتلر - سلاحا سياسيا لا بد منه ضد خصمه . أما زملاؤه فى الوزارة ، وكانوا أكثر منه معرفة ، وأقوى صحة ، فقد حملوا هذه النظرية على أنها صورة حديثة فى عام ١٩٥٦ ، للصورة التى رسمتها صحافة القرن التاسع عشر عن «عرابى العصامى» مطالبين بعنف باستخدام القوة ضده .

وهكذا تحقق لايدن ماكان يحلم به دائما وينتظره ، ولكنه وجد نفسه ، وقد واجه الحقيقة ، أضعف من أن يحتملها . ولم تكن حالته الصحية أيضا تسمح له بأن يتصرف فى الاحداث التى أثارها هو ، تصرفا ينطوى على الكفاية ولاسيما بالنسبة الى السياسات المليئة بالخداع

والمناورة ، والمفاوضات المعقدة ، والاستعدادات السرية للحرب والتعامل مع دولة حليفة نفذ صبرها وصارت متلهفة على العمل السريع كفرنسا ، والتصرف في مشكلة هذا الوزير لخارجية أمريكا الذي لم تكن علاقاته به طيبة ، والذي كان يتعذر عليه دائما أن يفهمه ، وكذلك - ولعل هذه المشكلة هي الأهم ، المناقشات الحادة التي يتعرض لها من معارضة برلمانية يقظة ، غاضبة بشكل متزايد . وكانت كل هذه المشكلات بكل ما فيها من جهد واططاء متأصلة وبعد عن السلامة ، كافية لان تحطم أى إنسان ، لكنها لم تحطمه .

وكانت هذه اللحظة غير عادية في التاريخ البريطاني . ورددت الأجواء أصدااء شيلبورن ، وأصداء كل القوى ذات النفوذ في لندن التي دفعت جلادستون الى التدخل « في مصر عام ١٨٨٢ ضد ضابط وطني آخر هو (عرابي) » . وكان هناك أيضا الحافز الكامن المتوتر في العلاقات بين البلدين ، والمرارة التي تحس بها بريطانيا من تبدل مركزها في عالم القوى الدولية ، والعداء الضخم الكامن في نفوس البريطانيين ضد المصريين . كانت هناك جميع هذه العوامل ، والى جانبها الحقيقة البسيطة المجردة ، وهي أن الكثيرين كانوا لابلون يذكرون أيام ميونيخ التي ألفت بالنسبة اليهم مركز الحياة التي عاشوها . ولكن الحافز على جميع هذه العوامل الكامنة التي انطلقت من عقالها فجأة ، تمثل في النفسية الغربية التي حملها رئيس الوزراء ، واستعداد زملائه السليمي البنية لان يسمحوا له بل ويشجعوه على اطلاق اندفاعاته العاطفية . حقا لقد كانت لحظة خطيرة ، وكان تأثيرها خطيرا كما هو متوقع أيضا ، عندما وقف رئيس وزراء بريطانيا ليعلن الى مواطنيه والى العالم ، وهو يعرف انه ليس صادقا ، ظهور هتلر جديد .

هل كان هدف ايدن الخلاص من عبد الناصر ؟

ما زالت امامنا مجموعتان من الحقائق التي تتطلب مناقشتنا . وأولى هاتين المجموعتين هي الادلة التي يجب علينا أن نعرضها والتي تقول ان ايدن وموليه وزملاءهما ، كانوا يعتزمون منذ البداية أن يحققوا عن طريق القوة هدفهم بالاطاحة بعبد الناصر ، وان هذا هو الهدف لا حل مشكلة السويس . وقد سبق لنا ان راينا ان ايدن وموليه ونورى السعيد والاسرائيليين كانوا يرغبون في تحقيق هذا الفرض قبل السادس والعشرين من يولييه . وراينا كذلك ، أن جميع ما قدمه ايدن بعد هذا التاريخ من تفاسير لعمل عبد الناصر في موضوع القناة ، وان كل ماعرضه من حجج علنية « لاصلاح الوضع سلميا » ، وكافة شروحه « لاهداف عبد الناصر » البعيدة المدى ، كانت زائفة ، مخادعة . والآن ما الدليل المحدد على ان الهدف كان بعد السابع والعشرين من يوليو الاطاحة بعبد الناصر ؟

لقد كان ايدن ووزراؤه ينفون هذه الحقيقة ، في ذلك الحين . وكانوا يعربون عن قلقهم على حرية العبور في القناة طيلة الاسابيع الطويلة التي امتدت بين تاريخ التأميم في السادس والعشرين من يوليو،

ونهاية أكتوبر ، حيث تحول اتجاههم الى تبرير « التدخل » مع فرنسا
بذريعة جديدة زعموها وهي الخوف الجديد الطارىء من انتشار
الحزب المصرية - الاسرائيلية في طول الشرق الاوسط وعرضه ، مما
يعرض القناة نفسها لخطر الدمار . وراح وزراء ايدن ينهالون بعد
ذلك على البرلمان بعد بدء « التدخل » بمجموعة ضخمة من المبررات
الاضافية . وفي وسعنا أن نتجاهل كل ذلك وان ننصرف الى البحث في
تاريخ الاحداث وسجلها .

حاول ايدن كما ذكرنا في عنوان هذا الفصل أن يؤكد في مذكراته
ما بذله من مساع لايجاد « تسوية سلمية » . وهو يقوم بذلك ليرد على
السؤال الذى حمل بريطانيا وفرنسا على الامتناع عن الحركة فورا
لاحتلال منطقة القناة . وأرى أن من الجدير بنا أن نعيد هنا ما كتبه
هو :

« هناك ردان على هذا ، أولهما سياسى . فتحن كدولة موقعة على
ميثاق الامم المتحدة وجدنا أن من واجبنا أن نبحث أولا عن استعادة
حقوقنا بالوسائل السلمية وان كان هذا لا يعنى مطلقا تخلينا عن
استعمال القوة كملجأ أخير . وكان هذا هو موقف حكومة صاحبة
الجلالة والحكومة الفرنسية فى جميع مراحل النزاع

» وأما الرد الثانى فعسكرى . فاذا لم يكن فى الامكان اتمام
العملية بواسطة القوات التى تحملها الطائرات وحدها ، فلا مناص من
القيام بحملة عسكرية من جزيرة مالطة فقد استغرق الاعداد
لغزو جزيرة صقلية ابان الحرب العالمية الثانية فى افريقية الشمالية قرابة
سته أسابيع . وصحيح ، كما قلت دائما أن العمل العسكرى ضد
المصريين لا يقارن عسكريا بالعمل ضد الالمان ولكن لم يكن فى الامكان
توفير الطائرات أو الرجال بين عشية وضحاها . »

وهكذا نرى ان ايدن يركز قبل كل شئ على مسألة المبادئ
والالتزامات تجاه الامم المتحدة ، والافتقار الى السوقيات الصالحة
لتأمين القوات العسكرية وتزويدها باحتياجاتها . ولكن مهمة السير
أنطونى فى اعداد قصة مطولة عن مشكلة السويس تقع فى نحو من مائة
وستين صفحة يتولى هو تحريرها وتنقيحها واضفاء الزخرف عليها ، كانت
تتطلب شكلا من أشكال العناية باتزان الفكر وثباته ، وهما أمران كان
يفتقر اليهما افتقارا لاثير الدهشة . فنحن بعد صفحتين فقط مما
رواه فى الفقرة السابقة نراه يعود فيقول

« وبدا الأمريكيون فى مطلع الازمة بمظهر الراغب فى ان
يفرضوا ضغطا ادبيا » على عبد الناصر ، وكانت هذه النية مقبولة لدينا
ومرضية لنا ، لولا أنها لا تحسب حسابا لاحتمال أن يصمم عبد الناصر
أذنيه عن الاستماع للضغط الادبى ، فهذه النية تعنى من الناحية العملية
عقد المؤتمرات ، واتخاذ القرارات دون القيام بأى عمل ، أى كلام فى كلام
وبدا الاشتباه فى هذا الخلاف بين وجهتى نظرنا يتضح فى التقارير التى
كنا نتلقاها من واشنطن عن ردود الفعل الاولى فيها . ولكن مالم يث هذا
الخلاف أن برز بشكل واضح »

أولا يحق لنا بعد هذا ان نسأل ايدن عما اذا لم تكن « التسوية السلمية التي زعم انه ينشدها ، وانه جعل منها المبدأ الذي يوجهه ، هي الضغط الادبي بعينه وهي المؤتمرات والقرارات ؟ وهل هناك نوع آخر من التسويات السلمية في العلاقات الدولية ؟ ان السير أنطوني يفصح نفسه منذ البداية تماما ولو شئنا أن نطيل امعان النظر فيما يقوله هو نحتم علينا أن نلاحظ إشارة خفية ، غريبة ، في الفقرة التي رويتها قبل قليل . فهو يقول انه كان دائم الحث لزملائه ، على أن اعداد القوة التي تغزو مصر يجب ألا تستغرق أكثر من ستة أسابيع . ولكنه يعود فيعترف فيما بعد ، وكان في هذه المرة وحدها صادقا في اعترافه ، بأن الحملة الانكليزية الفرنسية ، كانت على أهبة الاستعداد (في منتصف سبتمبر) أي بعد ستة أسابيع من بدء الازمة . ولهذا فهو لم يشعر بعد هذا التاريخ بأية حاجة للبحث على الاستعجال . ولكنه كان ، كما يستنتج من اعترافاته هذه ، يبحث قادة قواته المسلحة على ذلك في الاسابيع الستة الاولى من الازمة وهكذا يظهر من زلات قلمه هذه كلها ، انه لم يكن صادقا في القول بأن جماع نظريته في تلك الفترة كان يتركز على متابعة البحث عن الحل السلمي أولا .

وما المدي الذي نعرفه في الحقيقة عن هذه القضية ؟ اننا نعرف ان وضع أول خطة للفرز قد تم في الاسبوع الاول من شهر أغسطس ، وهي تقضي بالنزول في الاسكندرية والزحف على القاهرة وقد أطلق عليها اسم « عملية الفارس » (١) ونحن نعرف أيضا أن الفرنسيين كانوا متلهفين على السرعة في العمل ، الى الحد الذي دفع سفارتهم في القاهرة الى اصدار الامر للرعايا الفرنسيين من الاطفال والنساء في الواحد والثلاثين من يوليو لمغادرة مصر . ونعرف أيضا أن فرنسا حشدت قبل الثاني من أغسطس أسطولاً ضخماً في ميناء طولون يضم بأرجة وحاملتين للطائرات وطرادا واحدي وعشرين مدمرة وست غواصات . ونعرف كذلك أن كل صحيفة مسئولة في لندن وباريس فهمت قبيل الاسبوع الثاني من أغسطس ان الهدف الحقيقي لايدن وموليه هو الاطاحة بعبد الناصر قوة واقتدارا . واننا لنذكر الآن أن صحيفة « التايمز » اللندنية نفسها ، نشرت في ذلك الوقت ، على الرغم من تأييدها اللاحق لمذكرات ايدن ، ان اللجوء الى القوة كان « النتيجة الفريزية الاولى » لخطوة عبد الناصر . وقد أعلن الرئيس ايزنهاور في الاول من نوفمبر مايلي :

« وكان ثمة بعض حلقائنا ينادون منذ اللحظة الاولى التي أعلن فيها تأميم شركة القناة ، بأن تكون القوة هي رد فعلنا الاول على التأميم »
وأعلن المستر دالاس في التاسع والعشرين من يناير عام ١٩٥٧

(١) رواية الأخوين برومبجر ، وغيرها من الروايات . وقد تحولت خطة النزول الى بورسعيد ومنطقة القناة في أوائل سبتمبر عندما تبين للدولتين الغربيتين ان الهجوم المباشر على القاهرة سيؤلف عدوانا مكشوفاً سافراً .

— المؤلف —

أمام لجنة الاعتمادات في الكونجرس الأمريكى ، بشيء من اللباقة التى منعتها من الإفصاح كل الإفصاح ... مليلى :

« وقد أرادت بعض العناصر فى بريطانيا وفرنسا الاستيلاء بالقوة على قناة السويس ، فور اعلان مصر قرار التأميم » .

وكان وزير الخارجية الأمريكية قد مضى الى أبعد من هذا . فقد اتهم بصراحة فور نشوب حرب السويس وسيناء . كلا من انكلترا وفرنسا بأن هدفهما كان طيلة أيام الازمة الاطاحة بعبد الناصر - وأرى قبل أن أعود الى الفوص فى كتابات ايدن نفسه ، أن أقول بأن بورجيسى - مانورى ، وزير دفاع فرنسا ، حسر النقاب بعد انتهاء الازمة عن أن العملية المشتركة الفورية « أجلت نحو من ستين يوما » . ونحن نعرف من مختلف المصادر أن هذا التأجيل تم لان العسكريين ولاسيما من قادة القوات المسلحة فى بريطانيا قد أبلغوا قادتهم السياسيين بصراحة بأن أى غزو يفتقر الى العون الأمريكى لا يمكن أن يتم بسرعة وبشكل قوى ، قبل الاعداد له اعدادا كاملا وطويلا . وكانت هذه التضحية العسكرية وحدها ، مضافة الى ادراك ايدن وموليه أن الولايات المتحدة ستقاوم اللجوء الى القوة خارج نطاق الأمم المتحدة ، هى التى أدت الى هذا التأجيل .

وستنجلي أمامنا الدلائل التى تثبت صحة هذه الاهداف الواقعية أكثر فأكثر ، عندما نصل الى تحليل الاحداث المفصلة التى وقعت فى النصف الثانى من شهر أكتوبر عام ١٩٥٦ . ولا يبقى أمامنا فى الوقت الحاضر الا أن ندون هنا ، ماسيحدث للقصة التى رواها السير أنطونى نفسه بعد وقوع الهجوم الانكليزى - الفرنسى . فلقد طفق كأسه بالمرارة من موقف الولايات المتحدة ، وانسات منها الحقيقة العارية ، صارخة بما وقع اذ يقول ...

« ولا أجد مناصا هنا من المقارنة بين موقف أمريكا الآن ، وموقفنا نحن ابان حملة جواتيمالا . فلقد قام الأمريكيون فى تلك البلاد بتشجيع انقلاب ضد الحكومة الواقعة تحت النفوذ الشيوعى ، اذ اعتبروها خطرا يهدد سلامة أمريكا الوسطى كلها . وقد تفهمنا الحوافز التى دفعت أمريكا الى ذلك العمل ، وعملنا كل ما فى وسعنا لنحول دون عرقلة جهودها فى مجلس الأمن . ولكنهم الآن يسلكون سلوكا مغائرا لما سلكناه نحن تمام المغايرة » .

وعلى الرغم من هذا الانفجار العاطفى المذهل ، كان السير أنطونى ، قبل صفحات قليلة من مذكراته يجزم جزما أكيدا بأن الهدف الاوحد من « التدخل » ، كان وقف الحرب المصرية - الاسرائيلية ، وحماية القناة . وهو يقتبس فى مذكراته صورة البرقية التى بعث بها الى ايزنهاور فى الثلاثين من أكتوبر ، أى فى اليوم الذى وجهت فيه بريطانيا وفرنسا انذارهما الى مصر ، والتى يقول فيها ... « أعتقد أن الفرصة قائمة فى أن يقبل الفريقان انذارنا » . وهانحن أولاء نعرف الآن أن النية الحقيقية

لم تكن متجهة الى قبول فريق واحد منهما - اى مصر - بالانذار وانما كانت تستهدف الاطاحة به نهائيا .

اذن لم تكن الغاية الوصول الى تسوية سلمية لمشكلة القناة ، كما لم يكن ايضا استخدام القوة لمجرد الوصول الى هذه التسوية وفرضها ، وانما كان استخدام القوة للاطاحة بالحكومة المصرية . هذا هو الحكم الذى ادان به ايدن نفسه من مذكراته هو واقواله .

التظاهر بالتسوية السلمية :

واضطر ايدن وموليه على اى حال الى قضاء اسابيع مريرة طويلة، يتظاهران بالعمل على التفاوض ، بينما كانا فى الحقيقة يحشدان قوات ضخمة ، ويبعثان عن ذرائع ومبررات جديدة . وانى لارى لزاما علينا هنا أن ندون بعض الوجوه والصور .

ووصل المستر دالاس الى لندن فى مطلع شهر آب (أغسطس) ، وهو يهدف الى عدة غايات متشابهة . فهو يريد من الناحية الاولى توجيه بعض النكسات الحادة الى الرئيس عبد الناصر الذى كان يكره سياسته الحيادية اكثر من اى شئ آخر . وكان دالاس قد فوجئ بمفاجأة كلية بخطوة التأمين التى خطاها عبد الناصر ، فلقد كانت بريطانيا وفرنسا قد ضللتاه بقولهما ان عبد الناصر لن يفعل شيئا اذا ماسحبت أمريكا وبريطانيا العرض بتمويل السد العالى ، ولذا فقد طار وهو واثق من هذه الفكرة الى جنوب أمريكا حيث كان يقضى ليلة السادس والعشرين من يوليو فى جمهورية « بيرو » . أما الآن وقد وصل الى لندن ، فى الرابع من أغسطس ، فقد وصف غضب مصر بأنه مجرد « شكاوى خيالية » ، وراح يعمل ليرغم الرئيس عبد الناصر ، على التساهل فى موضوع القناة ولكن تحقيق مثل هذا الهدف من الارغام يتطلب الدرس المشترك مع الآخرين . وكان دالاس شديد الفلق من ناحيتين ، فهو يخشى من الناحية الاولى أن تستغل موسكو الازمة التى نشأت فى الشرق الاوسط ضد الغرب ، وهو يخاف من الناحية الثانية أن يجد ايدن وموليه المبرر للدعاء بأن جميع المحاولات لايجاد حل سلمى قد منيت بالفشل . وقرر على الفور أن قضية القناة يجب الا تحال مطلقا على الامم المتحدة ، اذ كان على ثقة من أن ايدن وموليه سيعملان على أن تقوم روسيا باستخدام حق الفيتو مع أى قرار قد يتخذه مجلس الامن ليعلنا على الفور انه لم يبق أمامهما أى مجال آخر سوى اللجوء الى القوة .

كانت هذه هى الدوافع التى حملت دالاس . وهى متفقة مع منطقته وان كانت مثيرة لغضب ايدن وموليه ، على أن يرفع قورا شعار الدعوة لاقامة ادارة دولية للقناة . وكان واتقا من أن ايدن قد بدأ يجهر بتمسكه بالحجج القانونية التى كان قد استبعداها فى البداية على أنها « ثروة قانونية » ، ثم مالبت أن شعر بالفائدة التى قد يحصل عليها منها . ويعترف ايدن نفسه فى مذكراته بهذه الشكوك الامريكية فى الحجج القانونية التى يستند اليها . ولم يكن دالاس لبخدع نفسه فى أن الادارة الدولية التى يقترحها قد تقدم ضمانات أوفى وأكثر فعلا وتأبرا بالنسبة

الى حرية العبور في القناة ، من الاقتراحات المصرية الجديدة أو من جهاز الشركة القديمة . فهو خير كل الخبرة بالسلطات التي تشرف على إدارة القنوات الرئيسية ، إذ أن حكومته هي التي تشرف بسلطاتها على إدارة قناة بناما . ولكن دالاس وجد نفسه عاجزا بما لديه من سلطات محدودة عن ارغام بريطانيا وفرنسا على التمسك بمبدأ المفاوضات وعلى انكار حقهما في اللجوء الى القوة . مما اقتضاه البحث عن سلطة جديدة . وأسفر هذا الموقف عن قيام تعقيدات يائسة جديدة في العلاقات بين الدول الكبرى الواقعة على كلا جانبي المحيط الاطلسي . وشرع دالاس في حديثه مع ايدن على أسس « الشرعية » ، وعندما واجهه ايدن بما يراه من حجج قانونية وأسس « دولية في العلاقات العامة » (١) ، راح دالاس يناقشه في قانونيتها وشرعيتها . وقد واصل الوزير الأمريكي الحديث عن وجوب « قص أجنحة » عبد الناصر ، ولكنه ظل صامدا كل الصمود في معارضة أى اجراء قد يقرب من « العمل » لتحقيق هذه الغاية التي كان يقول انه ينشدها . ولاريب في أن ما أعقب هذا الوضع من فوضى تضرب اطنابها ، قد ظهرت بارزة كل البروز في العرض الدقيق الذي قدمه ايدن في مذكراته عن هذه الفترة .

ونشأت عن هذه الطريقة التي عالج فيها دالاس الموقف عدة نتائج خطيرة . فلقد منح سلطات اضافية « لسلطة الادارة الدولية » التي طالب باقامتها ، والتي سبق لنا أن راينا ما في الحجج الداعية الى تكوينها من تناقض . ورفض دالاس العروض المقابلة التي قدمها عبد الناصر بنفس القوة التي رفضها بها كل من ايدن وموليه ، مدفوعا بما يحس به من كراهية لعبد الناصر ، ومتحديا في رفضه هذا نصائح خبراءه ومستشاريه . أدى موقفه هذا الى الاسهام في الحملة التي شنها ايدن « لتجريم » القاهرة ودفعها « بالعدوان والصلافة » ، والافتقار الى المرونة ورفض تقديم أية ضمانات الى العالم » .

ولكن عبد الناصر كان قد شرع على الفور في القاهرة في تقديم ضمانات يواجه بها هذه العاصفة الغاضبة من القلق الغربي الذي لم يكن ينتظره . (٢) وراحت القاهرة منذ السابع والعشرين من يوليو ، وماتلاه

(١) لا أعلم ما يقصده المؤلف من ذكر هذه الحجج القانونية التي استند اليها ايدن ، فكل من يعرف شيئا عن القانون الدولي ، يعرف أن مصر كانت محقة كل الحق في خطوة التأميم من الناحية القانونية ايضا ، أما الحجج التي قيل أن ايدن لجأ اليها فليست الا مبررات لفرض الاستغلال الاستعماري .

المعرب -

(٢) يروي المؤلف في هوامشه أن سيادة الرئيس عبد الناصر استدعى سفير أمريكا هنري بايرون وكان لا يزال في القاهرة ، وان كان الامر بنقله قد صدر عن واشنطن ، وراح يسأله عن السبب الذي حدا بالغرب الى الهياج كل هذا الهياج من الخطوة التي قام بها وكان في الثامن والعشرين من يوليو قد ضمن خطابا له العبارة التالية: « ترى هل كانت =

من أيام ، تكرر كل يوم وبصورة رسمية احترامها لميثاق عام ١٨٨٨ ، ومضى عبد الناصر الى ابعد من ذلك فراح في الواحد والثلاثين من يوليو، يعلن ماعاد فأكد به بصورة أكثر تفصيلا واسهاما في الثاني عشر من أغسطس اقتراحاته العلنية الجديدة لعقد معاهدة جديدة توقعها كافة الدول المنتفعة بالقناة ، خلافا للميثاق السابق ، وتضع صورة رسمية منها في الامم المتحدة لتكون بين وثائقها ، على أن تضمن هذه المعاهدة حرية الملاحة في القناة . وكانت المعارضة في لندن والصحف البريطانية قد أدركت الآن تمام الادراك حقيقة مايعتزمه ايدن ، فأخذت تطالب بالمفاوضات وتحذر من اللجوء الى استخدام القوة خارج نطاق الامم المتحدة . ولكن ايدن أصم اذنيه عن سماع صوت العقل ، وتجاهل عروض مصر ، وأخذ يتبجح الى أقصى حدود التبجح بما يقوم به من اعدادات عسكرية ، ويوقد أوار الهياج عند جماهير الشعب البريطاني . وكانت طريقته في اثارة حماسة الجماهير واضحة كل الوضوح .

والقى ايدن في الثامن من أغسطس خطابا ناريا أذاعه على الشعب البريطاني . ووصلت الى لندن صباح الثالث عشر من آب (أغسطس) اقترحات عبد الناصر الجديدة ، لعقد معاهدة تضمن حرية الملاحة ، وراحت وزارة العمال الرمزية (١) ، تصدر بيانا في نفس اليوم تقول فيه : « اننا لو استثنينا الحصار الذي يفرضه عبد الناصر على اسرائيل ، فليس فيما فعله ، ما يبرر اللجوء الى استخدام القوة المسلحة » . وظهر منزيس (٢) رئيس وزراء استراليا تلك الليلة على شاشة التليفزيون في لندن ، وكرر نظرية ايدن التافهة في القضية كلها ، وأعاد قوله بأن عبد الناصر « أمم قناة السويس لاشركتها » وأحس ايدن بأنه في حاجة الى المزيد من الهاب المشاعر ، فدفع في الليلة التالية ، مساء الرابع عشر من أغسطس ، بوزيره الامين المخلص سلوين لويد الى مكبرات الاذاعة ،

= مثل هذه الضجة ستثار بعد اثني عشر عاما . وكتبت صحيفة اخبار اليوم القاهرية في نفس اليوم تنشر مقالا لمصطفى أمين رئيس تحريرها يقول فيه : « علام كل هذه الضجة ، التي ما كانت لتحدث لو أن عبد الناصر قد القى بقنبلة ذرية ؟ »

(١) جرت عادة الحزب الذي يكون في المعارضة في بريطانيا أن يؤلف وزارة وهمية رمزية ، تماما كالوزارة القائمة ، لتكون على اهبة لتسلم الحكم في حالة استقالة الحكومة القائمة .

— العرب —

(٢) روى ايدن « قصة غريبة عن موقف الاذاعة البريطانية من خطاب منزيس ، ولكنه لم يذكر ابدا ، أنه بذل ضغطا لامثيل له ومخالفا للمألوف والعرف على مصلحة الاذاعة البريطانية للسماح لمنزيس بالظهور على شاشتها التليفزيونية . ولا ريب في أن سلوكه في هذه القصة وحدها ، يشير الى ما بذله من جهد يائس ليضمن التأثير الدعائي على الشعب البريطاني .

— المؤلف —

ليوجه الى الشعب رسالة أكثر جدية وخطورة . وقد تحدث في هذا الخطاب عن عبد الناصر بقوله

« كنت أقرأ في ذلك اليوم كتيباً وضعه عن الثورة . وهو يكشف فيه صورة تفكيره ومطامحه . فهناك ثلاث مراحل واضحة كل الوضوح ، أولاها السيطرة على البلاد العربية وزيتها ، وثانيها السيطرة على افريقية كلها ، والثالثة السيطرة على العالم الاسلامي كله ، (١) .

وقد ترك هذا الإنذار الذي لم يصدر عن كاتب مغمور ، وإنما صدر عن وزير خارجية حكومة صاحبة الجلالة انطباعاً فورياً وعلى نطاق عالمي ، وما زال هذا الانطباع قائماً عند الكثيرين من بسطاء الناس حتى اليوم . ولقد ظهرت بعض اشارات في بعض الصحف البريطانية تنعت عبد الناصر « بهتلر النيل » (٢) وان كانت التعليقات العامة ، قد شرعت تطالب بشيء من الحيطة والتعقل . ولكن الدولتان العظيمتان أصرتا على اصدار النذر متلاحقة وفي وقت واحد في كل من باريس ولندن بأن « فلسفة الثورة » ليس الا طبعة جديدة من « كفاحي » . وفي وسع المرء أن يرى ردود الفعل في كل مكان لهذه الدعايات (٣) ، وأن يشهد التحليلات تتعاقب في هذه الصحف التي اخترت بعضها دون هدف معين . وكانت مجلة « التايم » المشهورة قد حملت في عام ١٩٥٥ صورة عبد الناصر على غلافها ، وتناولته بالحديث في مقالها الرئيسي (٤) دون أن تشير الى كتاب فلسفة الثورة في مقالها الضخم هذا ، على الرغم من انقضاء أكثر من عام كامل على صدوره كما سبق لنا واشرنا من قبل .

أما الآن ولم يكن قد مضى على خطاب المستر لويد أكثر من أسبوعين صدرت « التايم » تنشر قصة غلاف أخرى (٥) عن الرئيس عبد الناصر ، تقول استناداً الى ما زعمته بالمصادر الرسمية أن « عبد الناصر يرى في نفسه رجل القدر ، الذي بعثته العناية الإلهية ليلعب دوره في الوطن العربي ، الذي كان يبحث ضائعاً عن شخصية البطل » . وتضمن « الاطار » الذي احتل ثلثي صفحة من الصفحات مقتطفات من كتاب عبد الناصر تحت عنوان ضخيم للغاية ، مع مقدمة خاصة من هيئة التحرير :

(١) لا ريب في أن كل من يقرأ هذه الأقوال يدرك على الفور أنها خيالات لا تصدر الا عن مخيلة مريضة أو أعماها الغرض ، إذ أن سياسة الرئيس عبد الناصر لم تقم في أي يوم على مثل هذه القواعد التوسعية كما لم تتناول في أي يوم الرغبة في اقامة جامعة اسلامية .

— العرب —

(٢) حملت صحيفة الديلي ميل والديلي اكسبريس هذه العناوين في شهر يوليو وبعده .

(٣) وحتى المستر دالاس نفسه استخدم هذا التشبيه في خطابه الذي ألقاه في « داره بلانكستر » في السابع عشر من أغسطس .

(٤) عدد المجلة في ٢٦ سبتمبر عام ١٩٥٥ .

(٥) عدد المجلة في ٢٧ سبتمبر عام ١٩٥٦ .

« الدور في البحث عن البطل »

« الحلقات الثلاث في طموح عبد الناصر »

« أضحي كتاب عبد الناصر الذي نشر قبل عامين من الكتب التي يجب أن تقرأها الجهات السياسية الرسمية في الغرب . ويطلق عليه موليه رئيس الوزارة الفرنسية اسم « كفاحي » بقلم عبد الناصر . وقد تكون المقارنات في أوقات الازمات في مكانها المناسب ، ولكنها كثيرا ماتكون خادعة مضللة . ولكن كتيب عبد الناصر ، شأنه في ذلك شأن « كفاحي » صورة ذاتية الانعكاس عن رجل قلق انتشى بأوسع المطامح » (١) .

وتلت هذه المقدمة مقتطفات من كتاب عبد الناصر ، الذي دونه بسرعة ، نال اثرها الكثير من الذبوع والانتشار ، ولاسيما فقرته المقتبسة من رواية ليرانديلو (٢) ، يعقد فيها مقارنة مع الوطن العربي ، فيقول ان هذا الوطن كان قد أعد « دورا » طالت حيرته وانتظاره لظهور « البطل » الذي يمثله ، ثم يمضي في لغة عربية نموذجية في قوتها يقول . . « ان ظروف التاريخ مليئة بالابطال الذين صنعوا لانفسهم ادوار بطولية مجيدة قاموا بها في ظروف حاسمة على مسرحه » .

ولو أخذت هذه الفقرات التي جاءت بهسا المجلة وحدها بعد اقتطاعها عن محتوياتها ، ظهرت غريبة . ولكن أية قراءة موزونة

(١) أكثر الغربيون من رسم صور مشوهة لسيادة الرئيس عبد الناصر ولاسيما من رجال الصحافة الغربية الذين استهواهم في وقت ما أن يسايروا التيار الضخم الذي ساد الغرب في فترة أزمة السويس لتشويه صورة سيادته في أذهان الشعب نتيجة الحملات الدعائية المضللة التي تولى قيادها ابدن وموليه ومن لف لفهما ، والتي عملت الصهيونية العالمية بما لها من سيطرة على الصحافة ووسائل الاعلام في الغرب على ترويجها . وليس أصدق من هذا المثل الذي أوردته مجلة أمريكية واسعة الانتشار (كالنايم) ، فالمعروف أن سيادته ، بل كل من عرفه يؤكد أنه أبعد الناس عن الاوضاع القلقة فلقد أثبت أنه من أعظم الناس تحكما في أعصابه في أيام الشدائد التي مر بالكثير منها . ومثل هذا التحكم لا يتفق مطلقا مع الاحساس بالقلق . أما الإشارة الى مطامحه فتهدف الى التشويه والتضليل إذ أن كل عربي يعرف أن كل مالدی الرئيس من مطامح هو أن يرى شعبه العربي في وطنه الكبير متحررا موحدا ، وهي أمنية كل عربي مخلص لعروبتة سواء اكان قائدا أم رجلا عاديا .

— المغرب —

(٢) لويجي ليرانديلو (١٨٦٧ - ١٩٣٦) كاتب مسرحي وقصصي ايطالي مشهور ، ولد في صقلية ودرس في جامعة روما ثم جامعة بون ومن أشهر كتبه « الجيوكوندا الشريفة » و « ست شخصيات تبحث عن مؤلف » . وله دراسة رائعة في فن السخرية في الكتابة .

— المغرب —

ناقدة لكتيب عبد الناصر الذى يقع فى اثنتين وسبعين صفحة : والذى جمع بين دفتيه المقالات الصحفية التى نشرت فى مستهل عام ١٩٥٤ ، تقيم بالدليل الذى لا يقبل الشك ، ما فى هذه المقارنة مع هتلر وكفاحي من نبو عن المنطق وبعد عن سلامة التفكير وميل الى الشر والاذى ، اذ من الواضح لكل من يفهم ما يقرؤه ، أن عبد الناصر لم يكن يشير الى نفسه فى حديثه عن « البطل » وعن « الممثل » ، الذى يجب أن يتجه البحث اليه فى الثورة المزدوجة التى يقوم بها الشعب العربى ، وانما كان يشير بصورة لا تقبل الريبة أو الشك الى « مصر » التى يجب أن تقوم بدورها القيادى فى ثورة الشعب العربى . فلقد تحدثت الفقرات التى تلت مباشرة تلك الفقرة التى اقتبستها مجلة « التايم » عن دور الثورة التى جاءت أخيرا لتستقر « على حدودنا » فى تحقيق أهداف الشعب العربى المناهضة للاستعمار والمطالبة بالاصلاح الداخلى ، و « أننا نحن » ونحن وحدنا بالنسبة الى وضعنا الجغرافى ، القادرون على أن نمثل هذا الدور » .

وليس فى أى جزء من أجزاء هذا الكتاب ، ما يوحى حقا ، بما أوحاه ضلالا للغرب ، بأن عبد الناصر يربط نفسه غيبيا بالرسالة التى اختارت الاقدار لمصر أن تؤديها . وما الكتاب الا مزيجاً من الذكريات الشخصية عن الافكار والتجارب الثورية المبكرة التى مر بها وتسجيلا وصفيا للافكار والآمال وخيبات الامل التى راودت حركة الضباط الاحرار قبل ثورة عام ١٩٥٢ وبعدها . ولا ريب فى أن ما أورده سلوين لويد فى خطابه من مقتطفات فى كتاب عبد الناصر التى تحدث فيها عن دور مصر الحيوى ، ومجالها ، ومسرح نشاطها ، وعن رسالتها الايجابية وسط هذه الامواج المتلاطمة ليس الا تأكيدا لما أراد عبد الناصر قوله من استحالة القبول بالعزلة الضيقة التى فرضت على مصر . (١)

وليس فى الكتاب أى تمجيد ذاتى أبدا . بل انه يضم عددا من الاعترافات من هذا القبيل . . . « ولست أريد أن ادعى لنفسى مقعد أستاذ فى التاريخ » ، أو قوله : ولو خطر لى أنتى أستطيع أن أحل كل مشاكل وطننا ، لكنك حائنا ، وأنا لا أحب أن أتعلق بالاوهام . . .

ولا ينطوى الكتاب على أى تفكير بالسيطرة ، سواء أكانت عسكرية أو عن أى طريق آخر . ولم تكن « المراحل الثلاث » التى أشار اليها سلوين لويد فى خطابه الا « الدوائر » الثلاث التى رسمها عبد الناصر كمحيطات خارجية تقع مصر وسطها . أما المحيط الاول الذى يعتبره عبد الناصر أكثرها أهمية ، فهو الوطن العربى ، الذى

(١) ورد مثل هذا الشرح ، للبحث عن هدف فى كتاب البانديت نهرو « اكتشاف الهند » الذى ظهر مؤخرا فقد قال . . . « هناك أسئلة عدة تتناول الصورة التى ستكون عليها الهند الحرة وتتناول ما تنتويه من عمل وما يربطها من علاقات بالآخرين » .

— المؤلف —

يصفه بأنه مجموعة من الشعوب المتجاورة ، المترابطة بكل رباط مادي ومعنوي يمكن أن يربط مجموعة من الشعوب . وكان عبد الناصر يطلق في قوله هذا ما سبق لنا أن أوردناه ، من نظرية قومية عربية شاملة عن الوحدة . وذكر وجود ثلاثة مصادر للقوة العربية وهي الروابط التي تجعل من الوطن العربي كلا واحدا متلاحما ، لا يقبل التجزئة ، والمركز الجغرافي الذي يجعل العرب يقفون على مفارق الطرق في المواصلات العالمية ، والزيت الذي يعتبره العمود الفقري للحضارة المادية . وليس في هذا الكلام أو ماتلاه ، أية إشارة أو تلميح لرغبة عبد الناصر في سيطرة مصر أو سيطرته الشخصية « على الدول العربية أو الزيت » ، وهو ما اتهمه به المستر لويد اتهاما مباشرا .

وننتقل بعد ذلك الى الحلقة الثانية التي رسمها عبد الناصر ، وهي القارة الافريقية التي ذكر أن مصر لا يمكن لها بأي حال من الاحوال وحتى لو ارادت ذلك ، أن تظل بمعناى عن نضالها في سبيل التحرر . . . وراح يعرب عن أمله بعد ذلك في أن تضم القاهرة في وقت قريب «معهدا كبيرا » يتولى دراسة الشئون الافريقية ومجاهلها .

ويقع ماورد في الكتاب من حديث عن افريقية في مائتين وخمسين كلمة استخلص منها المستر لويد ما دعاه « بالمرحلة الثانية » التي صور فيها مطامع عبد الناصر « في السيطرة على القارة الافريقية كلها » . ولم يشأ المستر لويد أن يقتبس من الكتاب الهدف الواضح الذي حدده عبد الناصر للمعهد الافريقي الذي تصوره عندما قال . . .

« يسعى هذا المعهد لكشف نواحي القارة امام عيوننا ، يخلق في عقولنا وعيا افريقيا مستنيرا ، ويشارك مع كل العاملين من انحاء الارض على تقدم شعوب القارة ورفاهيتها » (١) .

ومن الواضح أن في وسع المرء أن يزعم بأن هذه الاقوال ستار أراد منه عبد الناصر أن يخفي به حقيقة نياته . ولكن سلوين لويد أكد في اذاعته لبريطانيا والعالم ، انه قرأ في هذه الفقرات نفسها اعترافا مباشرا وبيانا صريحا عن اهداف استعمارية تشبه الاهداف التي وضعها هتلر . ونجد مثل هذه الصعوبة أيضا عندما نتحول الى البحث في الحلقة الثالثة التي تحدث عنها عبد الناصر في كتابه ، وهي حلقة العالم الاسلامي ، فلقد تحدث هنا عن ضرورة قيام تعاون أوثق عرى بين جميع المسلمين في العالم واشترط أن لا يتجاوز هذا التعاون بالطبع حدود ولائهم للبلاد التي ينتمون اليها .

ولكن المستر لويد لم يشأ أن يقتبس هذا النص الذي أورده

(١) تعمد سلوين لويد طبعاً حذف هذه الفقرة وأمثالها من مقتطفاته لار مجرد ذكرها ، يكشف الحقيقة للقراء غير البلهاء في الغرب ، وهذا ما كان يستبعده الوزير البريطاني ولا يريد ، تحقيقاً لاهدافه وأهداف رئيسه أيدن في الحملة على سيادة الرئيس عبد الناصر .

— العرب —

عبد الناصر في الخطاب الذي أذاعه - أي لويد - للملايين من سامعيه . وهو مع ذلك يجد من السهل عليه أن يستخلص « اعترافا » آخر من المائتين والخمسين كلمة التي تحدث فيها عبد الناصر عن الروابط بين المسلمين والتي أورد فيها التحفظ الذي ذكرت قبل قليل . وكان هذا « الاعتراف » الذي استخلصه سلوين لويد هذه المرة هو أن عبد الناصر يهدف إلى السيطرة على المسلمين في العالم بأسره . وقد يصعب على المرء أن يصدق في عام ١٩٦٢ ، أن مثل هذه الأقوال قد صدرت عن وزير يمثل حكومة جلالته ، ولكنها صدرت بالفعل على شكل اتهامات موجهة إلى الرئيس عبد الناصر .

وقد أدت هذه الاتهامات إلى أضرار ضخمة ، سريعة . وسارعت الصحف في جميع أطراف العالم إلى نشر هذه المقتطفات التي أوردها سلوين لويد من كتيب عبد الناصر ، وراح القراء في كل مكان يفسرون هذه المقتطفات على النحو الذي أراده لويد من اتهاماته . ولم تكن اللحظة مواتية . لأن يفكر الناس - الذين استمعوا إلى وزير الخارجية وهو يذيع خطابه - تفكيراً متزنًا في حقيقة ما كان يقترحه الوزير ، هذا إذا شئنا تسمية تشويه الأصول والحقائق مجرد اقتراحات . ولكن دهمائته في التحدث إلى الجماهير تركت آنذاك أعماق الانطباعات بحيث يتحتم علينا أن نقوم أقواله الآن تقويماً «رجعياً» .

فهناك من الناحية الأولى زعيم ثلاثة وعشرين مليوناً من المصريين الذين كانوا حتى ذلك الوقت أي في عام ١٩٥٤ عندما وضع الكتاب يؤلفون شعباً فقيراً للغاية ، يسيطر عليه الجهل ، وتنتشر في محيطه الأمراض . ولا يملك مصنعاً حديثاً واحداً للفولاذ . ولم تكن قواته المسلحة في ذلك التاريخ تربو على المائة ألف . وإن كانت الخطط الموضوعية تقضي بزيادتها إلى الربع مليون . وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن سلوين لويد اتهم الجيش المصري بالضعف في عام ١٩٥٦ ، أي بعد سنتين من ذلك التاريخ (١) ، فكيف يمكن أن نصدق ، أن زعيم هذه البلاد ، وهذه حالة شعبها وجيشها في عام ١٩٥٤ ، يمكن أن يفكر في السيطرة على سدس مجموع سكان العالم أي على نحو من أربعمئة وخمسين مليوناً من المسلمين الذين يأهلون ثلث مساحة العالم كله . وكان على هذا الزعيم المصري إذا أراد تحقيق هدفه « العالَمى » هذا أن يتحدى سلطان عدد ضخم من كبريات دول العالم مساحة وقوة كروسيا

(١) نقلنا هذه الأرقام التي أوردها المؤلف والتي لا نود أن نناقش صحتها . لكي نثبت بما فيها من صحة تقريبية على الأقل ، مدى التضليل الذي لجأ إليه الغرب ، لتشويه صورة السيد الرئيس أمام الشعوب الغربية وإظهاره بمظهر الطامع في التوسع ، وهو عين ما يلجأ إليه عملاء الغرب من الحكام العرب حتى يومنا هذا ، مع أن الحقيقة هي أن أعمال الرئيس انعكاسات قيادية لما يطمح إليه الشعب العربى . في الوحدة الشاملة .

- العرب -

والصين وبريطانيا وفرنسا والهند وجنوبى افريقية وبلجيكا وغيرها من دول العالم ، التى تؤلف غالبيتها .

واذا شئنا أن نمضى فى هذا التقويم التدريبى مرحلة أخرى ، قلنا ان المشكلات الهائلة التى تنطوى عليها مثل هذه المطامح الضخمة قد لا تعوق زعيم دولة كبرى متقدمة من الناحية الحضارية ، اذا كان مصابا بالعظام . ولكن لويد أو ايا من زملائه من ذوى السلطة لم يستطع أن يتهم الرئيس عبد الناصر ، بالافتقار الى اتزان التفكير ، بل على النقيض من ذلك ، وعلى سبيل المفارقة ، كان لويد نفسه ومن يستوحون منه الالهام من المسئولين ، ينعنون عبد الناصر بأنه واسع الدهاء . دقيق كل الدقة فى حساباته ، التى يقدر خطاه وفقا لها . ولم يحاول لويد أن يرسم لعبد الناصر ، صورة انسان يتكئ على كرة من البلور الكريستالى فى « عش للنسر » كعش برختسجاذن يتطلع منه الى الآفاق البعيدة امامه ، فيشتد عظامه ، وانما كانت الصورة التى رسمها ، وأراد من الناس أن يأخذوا بها ، وقد أخذوا بها فعلا اخذا ينطوى على الخطر ، تمثل عبد الناصر بشكل الانسان العاقل كل العقل ، الشديد الدهاء ، المتحكم فى عواطفه ، والذي يعلن بصراحة للعالم ، هذه الاهداف العالمية النطاق التى يسعى لتحقيقها . ولا أرى بى حاجة الى المزيد من القول ، ولكننى أريد أن أقول ان تبدل هذه الصورة ، التى حاول لويد ورئيسه ايدن طبعها فى عقول الغربيين مستخدمين غاية الجهد فى عملية نفسية دقيقة تتطلب بعض الوقت .

ولا أكشف سرا ان قلت ان مجلس الوزراء البريطانى ، ألف فى ذلك الحين ، « لجنة لخلق الذرائع » وايجاد المبررات من بين أعضائه . والتأم عقد مؤتمر لندن ، بعد كثير من التردد الحفى من جانب الدول المدعوة ، لأنها أدركت أن دعوة ايدن وموليه لها لم تكن بقصد بحث الاقتراحات التى سيقدمانها ومناقشتها ، بل بقصد اقرارها ليس الا . وكان من المحتم أن يفشل المؤتمر ، وألا يكون مجديا ، لاسيما وقد أصر الرجلان على دعوتهم . وعلى انعقاد المؤتمر ، على الرغم من الحقيقة الواقعة وهى ان الدولة صاحبة الشأن الأول فى الموضوع ، وهى مصر ، قد رفضت حضوره ، لأن جدول أعماله نص على أن توافق مصر على الطلب المقدم اليها بالتخلي عن ادارة القناة . وحاولت الهند أن توجه المؤتمر الى اقتراحات تصلح لكى تكون أساسا للمفاوضات ، وهى تنطوى على تأكيد ميثاق عام ١٨٨٨ وتعديله بحيث ينطبق على سياسات العصر ، وعلى أن تتولى مصر ادارة القناة شريطة أن تقدم تقريرا سنويا عن ادارتها الى الأمم المتحدة وشريطة قيام اتصال منظم ، دائم بين المنتفعين بالقناة من ناحية والسلطة المصرية التى تتولى ادارة القناة . ولكن الرفض كان نصيب الاقتراح الهندى ، وقرر المؤتمر بدلا من ذلك ايفاد « منريس » الى القاهرة ليقدم الى عبد الناصر طلبا بإنشاء سلطة دولية لادارة القناة ، على أن تقتصر مهمته على الطلب دون المفاوضة . وأعد ايدن وموليه العدة ، رغبة منهما فى زيادة حدة الوضع ضراما ، لكى يعلننا فى نفس اللحظة التى يؤم فيها منريس القاهرة ، عن وصول القوات الفرنسية الى قبرص التى لا تبعد أكثر من مائتين وخمسين ميلا عن

بور سعيد ، وعن استعداد ثمانى بواخر من ناقلات الجنود فى ميناء
ساوثهامبتون للتحرك فى اتجاه الجزيرة نفسها .

وكان الرجلان قد بدءا فى الوقت نفسه فى تنفيذ مخطط آخر للعمل .
فقد رتبيا ليظهرا مصر بمظهر العاجزة عن تسيير الملاحة فى القناة على أى
حال ، أن يمتنع المرشدون الموجودون فى الخارج فى أجازاتهم ، عن العودة
الى عملهم ، وقد اعترف ايدن بهذه الحقيقة فيما بعد فى مذكراته ، وروى
أنه والفرنسيين قد حثوا المرشدين على عدم العودة ، ورتبيا أيضا أن تنشر
الصحافة الغربية المقالات والبحوث الطوال عن الخبرة الفنية التى يطلب
توافرها لارشاد السفن داخل القناة وان ترفض الصحف الغربية الموالية
نشر ما يصدر من اعلانات عن مصر طلبا للمرشدين من الخارج ، ولكن
القناة ظلت تعمل كعهدها ، وحصلت مصر على مزيد من المرشدين^(١) .
وتم فى النهاية سحب من تبقى فى مصر من مرشدى الشركة ، وزعم ايدن
فى مذكراته أنه لم يعد فى وسعهم البقاء فى مراكزهم . وبدأت شركات
الملاحة فى تحدى ايدن بدفع رسوم العبور الى الادارة المصرية .

وظهرت فى شهر سبتمبر أيضا ظاهرة غريبة أخرى ، فقد وزعت
عن طريق البريد على جميع أعضاء البرلمان ورؤساء تحرير الصحف
ومديرى شركات الزيت وغيرهم من كبار الشخصيات والمؤسسات الهامة
فى بريطانيا وخارجها نشرة تحمل العنوان التالى : «مصر - معلومات عامة»
وقد حملت النشرة فى ظاهرها كل دليل مصطنع ، على أنها نشرة رسمية
مصرية ، وزعت عن طريق السفارات المصرية فى كل مكان .

وذكرت النشرة فى فصل حمل عنوان «مشروعات عامة» أن مصر
تقترح انشاء منظمة عربية جامعة تحت اشراف مصر لتسوية الزيت .
ووردت تحت هذا العنوان ، الجملة الغريبة التالية التى تحمل كل نذر الشر
« وسيؤدى خلق هذه المنظمة الى حرمان أعداء مصر من الزيت بينما
تضمن البلاد العربية التى تحظى بحسن نيات مصر ، تأمين حاجاتها» .

وانطوت هذه الحطة المذهلة على بعض التفاصيل الأخرى ، ففسد
ذكرت على سبيل المثال ، أن المؤسسة المصرية للبترول ستتولى تشغيل
مستودعات الزيت البريطانية فى القناة ، وهى المستودعات التى حدد
اتفاق الجلاء وضعها وضمه ، وأضـافـت أن مصر ستتمكن عن طريق
« حلفائها الجدد » وبمساعدهتهم من بناء مصاف جديدة لتكرير الزيت ،
(لاريب أن المقصود بالحلفاء الجدد هم الاتحاد السوفياتى والدول التابعة له)
وبذلك يصبح العرب فى الواقع «سادة زيتهم» وليس من المستغرب أن

(١) نسي المؤلف أن يشير هنا الى الدور البارز الذى لعبه المرشدون
المصريون فى تأمين عمل القناة فى الايام الاولى من هذه المقاطعة ، والذى
يرجع اليه أكبر الفضل فى ضمان سير الملاحة فى القناة نظرا لما بذلوه من
جهود تفوق حدود الطاقة البشرية .

- العرب -

تكون هذه النشرة الصغيرة قد أثارت فزعا عظيما في نفوس الكثيرين من الذين تلقوها أو اطلعوا عليها من ذوى النفوذ ، وراح الناس يتساءلون ، «أو لم يقل لنا لويد والوزراء الفرنسيون بمنتهى الجد والحزم بأن عبد الناصر كان صريحا في اعترافاته بمطامعه ، صراحة هتلر في الماضي ! أو لاتعتبر هذه النشرة ، مجرد اضافة على الاعترافات السابقة ؟ »

ولكن هذه النشرة كانت مزورة تزويرا كاملا ، فهي صورة طبق الأصل في مظهرها وشكلها ، وغلافها ، وتبويبها ، واخراجها ، عن نشرة مصرية موجودة تحمل هذا الاسم ، ولكنها تختلف في العبارة والمحتوى . ولو كانت الظروف عادية لتبين مافيها من تزوير على الفور آنذاك ، اذ ان جميع مافيها من معلومات كانت مصنوعة في عبارات تحمل معنى الاذى لمصر ، وهو مالا يمكن أن يصدر عن مصر نفسها ، وليس ثمة من شك في أنها قد «عكست» تماما عن أصلها المصرى الصحيح ، فقد أظهرت النشرة المزورة ، نسبة الأمية في مصر ، وذكرت أرقاما «ناقصة» لما تم توزيعه من أراض بموجب قوانين الاصلاح الزراعى ، كما عرضت أرقاما خفية جدا للدخل القومى فى البلاد ، ويدرك كل من يقرأها استحالة صدورها عن أية حكومة شرقية كانت أو غربية اذ لايعقل أن تعرض مافيها من حقائق — اذا كانت حقائق فعلا — على هذا النحو ، لكن الظروف التى جرى فيها التوزيع ، لم تكن عادية أبدا ، وقد تم فعلا فور البيان الذى أذاعه المستر لويد ، والذى رددت الصحافة صده ، ولم يكن فى وسع واحد فى المائة من متسلمى النشرة الزائفة ، أن يقارنوا بينهما وبين النشرة الأصلية الصحيحة ، كما فعل مؤلف هذا الكتاب . ولم تكن هذه النشرة الأصلية تتضمن أكثر من اشارة قصيرة واحدة لموضوع الزيت ، اذ ذكرت أن مصر تخطط لبناء مصفاة مصرية للزيت تعمل من أجل المصريين^(١) .

وقد أحدث التزوير على الفور الأثر المقصود منه ، وفى وسعى هنا أن أسرد على سبيل المثال ما نشرته مجلة لندن الصناعية المسماة « أسبوع البترول » ، فقد كتب محررو المجلة موضوعا تحت عنوان « مخطط مصر لزيت الشرق الأوسط » ، فقد كتب محررو المجلة موضوعا تحت عنوان : « زيت الشرق الأوسط » ، أكدوا فيه ثقتهم بصحة النشرة وأضافوا أن ما جاء فيها ينطبق على ما أعلنه عبد الناصر فى كتابه الذى أرخ فيه حياته ، ثم راحوا اكمالا للحلقة ، يقتبسون ما أورده لويد من اشارات لكتيب « فلسفة الثورة » ، (٢) .

وبادرت القاهرة الى اعلان تزيف النشرة ، ونفت نفيا باتا صدورها عن أية سفارة مصرية . ولكن مثل هذا النفى ما كان ليجدى فى مثل ذلك

(١) فى وسع القارئ المهتم بهذا الموضوع وبالمقارنة بين الوثيقتين الأصلية والمزورة أن يرجع الى الصور الزنكوغرافية للنشرتين كما صدرتا بمبكلهما الكامل فى صحيفة « الاجبشيان جازيت » فى عددها الصادر فى ١٢ من سبتمبر ١٩٥٦ . — المؤلف —

(٢) مجلة أسبوع الزيت — العدد الصادر فى ١٤ من سبتمبر

١٩٥٦ .

الجو الذي كان مسيطرا في سبتمبر عام ١٩٥٦ . وقد جاء تأثير التزوير ، معززا تعزيزا قويا لنظرية المستر لويد ، مما تكشف عنه حقيقة المقسال الذي نشرته صحيفة « أسبوع البترول » ، وأجرى المستر ادوارد مارو مراسل اذاعة كولومبيا ، مقابلة صحفية وتلفزيونية ، مع الرئيس عبد الناصر في أواسط شهر أكتوبر ، وسأله عما اذا كان يظن بأن المثل الذي ضربه في موضوع التأمين ، قد تحتذيه دول عربية أخرى في موضوع الزيت فرد عبد الناصر قائلا :

« أعتقد أن الوضع بالنسبة الى الزيت ، يختلف ، كل الاختلاف . اذا سألتني عن السبب ، قلت ان قيامي بتأمين الزيت يتطلب مني أن أكون مطمئنا الى طريقة نقله وشحنه ، ووثقا من وجود « الزبائن » الذين يتعاونون ، وقادرا على تأمين ما تحتاج اليه ادارة انتاجه في حقوله من خبرة فنية » .

وعادت مجلة « أسبوع البترول » فنشرت مقالا آخر في هذا الصدد دعمته بما أورده المستر لويد في حديث تليفزيوني ثان ذكر فيه أن « أحلام عبد الناصر في اقامة الامبراطورية التي يريدونها » قد بدأت تطل برأسها . وكان عنوان المقال الجديد . . « عندما يستعمل عبد الناصر صيغة المتكلم المفرد » . ولم يتركز المقال على ما وضعه عبد الناصر من تحفظات في حديثه للتليفزيون الأمريكي عن صناعة الزيت ، كما كان الواجب الصحفي يحتم على الصحيفة أن تفعل ، وانما ركز اهتمامه على الطريقة الانكليزية المثالية في التعبير التي استخدمها عبد الناصر ، كقول أي انسان انكليزي . . . (ولو أردت أن أوهم صناعة الفولاذ لتحتم علي أن أفعل كيت وكيت » . ولكن لفظة « المتكلم » في حديث عبد الناصر المشار اليه استخدمت كدليل جديد على أطماحه الشخصية وعلى ميوله الاستعمارية (كذا) بالنسبة الى الزيت الذي لا يوجد في أرض مصرية . وراحت المجلة البريطانية بعد ذلك تقتبس من أقوال المستر لويد ما تريد لدعم نظريتها ، ثم مضت تتحدث عن تزوير النشرة على النحو التالي .

« وسواء أصبح أن هذه النشرة بالذات مزورة أم غير مزورة ، فإن هذا أمر لانعرفه ، ولا يهمنا ولا سيما في مثل هذه الاوقات ، على أي حال من الاحوال » .

اما أن يكون ما فيها من أفكار أساسية انعكاسا لتفكير عبد الناصر ، فهذا هو المهم ، وهو ما اتضح للملايين من مشاهدي التليفزيون في الاسبوع المنصرم ، عندما رأوا عبد الناصر يبتسم وهو يقول وعلى اذا أردت أن أوهم الزيت ، أن أفعل كيت وكيت » (١) .

ولا ريب في أن هذه الطرائق الغريبة والاساليب العجيبة هي التي أدت في تلك الاشهر التي سادها القلق من عام ١٩٥٦ ، الى ظهور أعظم مثل في أواسط القرن العشرين ، على الايحاء الجماهيري على الصعيد العالمي ، عن طريق الترويج لفكرة معينة تستثير الذكريات

المرعبة عند هذه الجماهير . وراحت مصر في مثل هذا الجو المفتعل ، تطلع باقتراحاتها المتتالية عن مشكلة الفناء ، ليصطدم كل منها فور صدوره بالعقبات الناجمة عن مثل هذه المواقف العامة التي اصطنع حلها ضد مصر وراح عبد الناصر في الثالث من سبتمبر ، يعرض اقتراحا ما لبث أن اصفى عليه اللشير من التفصيل والصراحة في العاشر من الشهر نفسه ، مضيفا عليه أشياء جديدة واضحة كل الوضوح . وتضمنت هذه الاقتراحات بالإضافة الى معاهدة جديدة رأى إمكان توضيحها ، قيام هيئة من المنتفعين بالقناة تتسولى التفاوض مع مصر لعقد « اتفاقات ملزمة » تحدد مستوى الرسوم ، واستخدام العائدات فى أغراض الصيانة ، والقيام بمشروعات مقبلة لتحسين الممر المائى . ولكن وزارة الخارجية البريطانية بادرت الى الاعلان بان اقتراحات عبد الناصر لا تنطوى على « أى شىء جديد » . وراح ايدن يعلن فى مجلس العموم فى الثانى عشر من سبتمبر أن « مصر رفضت كل مسعى لايجاد تسوية سلمية » . وزعم فى مذكراته فيما بعد ، بالنسبة الى هذا التاريخ أن مصر لم تتقدم بأية اقتراحات مضادة الى منزيس . وهنا يقوم التناقض الواضح الصريح مع الواقع .

وكان مجلس الوزراء ، قد أقر بالفعل الطريقة التي يجب أن تسير فيها الامور قبل أن يمضى منزيس الى القاهرة . وقد حاول سير انطونى هنا أيضا اخفاء هذه الحقيقة ، ولكنه لم يفلح فى اخفائها بسبب ما فى كتابته من أسلوب موسيقى . فقد قرر مجلس الوزراء البريطانى فى الثامن والعشرين من أغسطس ، وكان قد أدرك ان الاستعدادات للحملة العسكرية قد شارفت على الكمال أن تلجأ بريطانيا وفرنسا الى مجلس الأمن فى حالة فشل بعثة منزيس التي كان المجلس على ثقة من فشلها (١) . ويقول ايدن فى مذكراته « ان مشروع القرار الذى ستتقدمان به سيقابل على الغالب بالفيتو الروسى » ويمضى بعد ذلك فيشرح تفكير مجلس الوزراء على النحو التالى :

« وفكرنا فى أن من الخير لنا أن نسارع الى عرض القضية ، وأن من الاهمية بمكان أن نأخذ زمام المبادرة قبل أن تأخذه مصر ، أو غيرها من الدول ولكن لم يكن من الحكمة من الناحية الاخرى أن تلجأ الى مجلس الأمن ، قبل أن تحصل بعثة منزيس على رد من عبد الناصر مخافة أن يوحى ذلك بالانطباع فى اننا كنا نتوقع من الحكومة المصرية رفض مقترحاتها .

وليس ثمة ما هو أوضح من الهدف الذى توخاه ايدن فى اللجوء الى استخدام الامم المتحدة . وكان دالاس يعرف فى واشنطن هذا الغرض ، اذ أدركه ونقلت اليه المخابرات الامريكية أن الاعمدادات العسكرية الانكليزية الفرنسية للحملة المقصودة ، تسارع نحو الكمال .

(١) « وتحتم علينا أن نستعد لتوجيه ضربتنا فى غضون أسابيع قليلة ، اذا صحت عزيمتنا على توجيهها ، اذ ان الابقاء على هذه القوات فى امكانها أمدا طويلا أمر باهظ التكاليف » فى مذكرات ايدن ص ٤٥٦ .
المؤلف

فراح يعمل الآن على ايجاد وسيلة أخرى لحصر ايدن وموليه ضمن نطاق البحث عن حل سلمى ، ولابعادهما عن فكرة اللجوء الى الامم المتحدة . ويدون ايدن هنا ملاحظة أخرى من تلك الملاحظات التي يحاول طمرها تحت ستار لاختفائها ، ولكنها تظهر لتشير الى كل شيء وتفضحه اذ يقول ، ان دالاس حذره من ان الولايات المتحدة لن تؤيد عرض الموضوع على الامم المتحدة لانها تخشى أن يكون هذا العرض وسيلة للحصول على غطاء للتعمية . وكانت الوسيلة في منتهى البساطة . وقد استخدمت بالفعل فيما بعد لخلق أزمة في الامم المتحدة عن طريق التقدم بمشروع قرار من طراز لايد وان تقابله روسيا باستخدام الفيتو ، ويكون غير مقبول بأي حال من الاحوال في مصر ، فيقوم ايدن وموليه ، على اثر هذا التطور باعلان استحالة القيام بأية خطوة جديدة ، وان الوقت قد حان الآن للعمل .

وأدى خوف دالاس من هذا التطور ، الى تقدمه في مستهل سبتمبر باقتراحاته الجديدة لانشاء هيئة المنتفعين بقناة السويس . وتقول رواية ايدن في هذا الصدد ان دالاس اقترح أن تتولى هذه الهيئة تسيير بواخر اعضائها عبر القناة ، وأن تجبى الرسوم ، دون أن تأبه برأي عبد الناصر ، وأنه مالبت أن « تراجع » عن مشروعه هذا بالاعلان جهرا بأن امريكا لن تدعم « هيئة المنتفعين » ضد مصر الى الحد الذي يؤدي الى استخدام القوة . ولا يهمني ان أورد التفاصيل الكاملة هنا فالمهم هو ما نعرفه حقا ، وما لا يتطرق اليه الشك مطلقا .

فقد لاحظ دالاس بين اوائل ٥ سبتمبر وأواسطه ، ان ايدن وموليه يحاولان استغلال مشروعه « لهيئة المنتفعين » وان يجعلاه منه أداة ينفذون عن طريقها ما يحاول هو تجنبه . فلقد وضعا خطتهما على أن يستخدما المشروع وسيلة لاستخدام القوة ، عن طريق ايفاد باخرة تعود الى الهيئة ، الى القناة على سبيل التجربة ، على أن يرفض قبطانها معونة المرشدين المصريين أو دفع الرسوم الى الهيئة المصرية فاذا ما رفضت مصر السماح لباخرته بعبور القناة عمد ايدن وموليه على الفور الى اتهام مصر بخرق ميثاق عام ١٨٨٨ . ويصبح استخدام القوة في مثل هذه الحالة مقبولا لدى الرأي العام العربي الذي مازال يحس حتى تلك اللحظة بالفزع من احتمال اغلاق القناة . وأعلن دالاس جهارا قبيل مغادرته لندن عائدا الى بلاده بعد ان أقر المؤتمر مشروع « هيئة المنتفعين » ، ان حكومته لن تشترك في أية عملية « لشق الطريق عنوة » عبر قناة السويس . وخيل اليه أنه قد كسب بعض الوقت على الأقل . وكان قد تقرر عقد اجتماع آخر ، ليحتفل رسميا بافتتاح « هيئة المنتفعين » بالقناة أن لا تجرى أية محاولة « اختيارية » من النوع المقترح قبل عقد هذا الاجتماع ، وقبل أن تشرع الهيئة الجديدة في اجراء مفاوضات صحيحة مع مصر .

ولكن على الرغم من معارضة دالاس العلنية والمعروفة ، وقبل ان تولد « هيئة المنتفعين » بشكل رسمي ، راح ايدن وموليه في الثالث والعشرين من سبتمبر ، تحيلان القضية برمتها الى مجلس الامن . وكانت الحملة العسكرية قد باتت جاهزة للعمل . واحتشدت قوة هائلة

قوامها مائة ألف رجل وعدد كبير من السفن الحربية والطائرات ، فى البحر المتوسط ، على قدم الاستعداد للعمل العورى . واحس دالاس بالفزع ، فشرع يعمل بالاشتراك مع همرشولد واولف الهندى ، والدكتور محمود فوزى ، على وضع قواعد عمليه سليمة تلون أساسا لقرار يصدر عن الأمم المتحدة ويبعد الازمة ثانية عن مجال استخدام انجلترا وفرنسا للقوة العسكرية . وتمت بالفعل « صياغة » ستة مبادئ ، تم الاتفاق عليها . ولكن الوفدين البريطانى والفرنسى أرفقا بهذه المبادئ ذيولا قدمها على شكل مشروع رسمى ، يدرك أى طلب فى الصف السادس الابتدائى ، أن روسيا ستستخدم حق « الفيتو » لابطاله فى حالة اقراره ، وأن مصر ستعارضه حتما . ونضمنت هذه الذبول عدة بنود ينص أحدها على أن تتعاون مصر ، الى أن يتم الوصول الى تسوية ، مع هيئة المنتفعين بالقناة ، وأن تبقى على القناة مفتوحة أمام كافة البواخر مهما كانت جنسياتها . وقد اعترف ايدن فيما بعد فى مذكراته انه أراد القيام « بتجربة » فى موضوع حظر مصر على السفن الاسرائيلية العبور فى القناة .

وكانت جميع الصحف الكبرى فى العالم آنذاك قد روت أن لندن وباريس تنظران الى « هيئة المنتفعين » بنظرتها الى « حصان طروادة » (أو ما نسميه نحن « مسمار جحا » ، وكان دالاس نفسه قد أثرب جهارا عن مخاوفه من أن يلجأ الانكليز والفرنسيون الى استخدامهما وسيلة لخلق المشاكل واثارة المتاعب ، وتبرير اللجوء الى القوة . ولم يكن هناك أدنى أمل فى أن مصر ستقبل هذه « الذبول » . وكان ايدن يعرف هذه الحقيقة تمام المعرفة . وكان موليه لا يقل عنه علما بها . واستخدمت روسيا حق الفيتو . ورفضت مصر الاقتراحات البريطانية - الفرنسية . وخرج بينو فى مجلس الامن فى الحادى عشر من اكتوبر ليعلن أن « لا أساس هناك للمفاوضات » . ولحق به زميله ساوين لويد يتول . . . « لقد عملنا كل ما فى وسعنا » . ومضى دالاس وهمرشولد وأعضاء الوفد الهندى ومحمود فوزى فى محاولاتهم للتغلب على النكسة . ولكن التسوية السلمية كانت قد انتهت .

وانتهى معها مايحيط باللغز من غموض . . .

الحرب الثلاثية

« الأسرار أدوات حادة ... »

ولنا يجب ابقاؤها بعيدة عن متناول الاطفال والمجانين .. »

السير مارتن مار - أول

هل كان ثمة تواطؤ بين بريطانيا وفرنسا واسرائيل ؟ اذا كان الرد بالايجاب ، فمن الذى أوجده ، وفى أى تاريخ وجد ، وما هى الخطط التى وضعها ، وما توقيت تنفيذها ؟ وهل كان ايدن على علم بخطة الهجوم الاسرائيلي ؟ وهل كان يعرف ان الفرنسيين سيقدمون الى اسرائيل عوناً حربياً مباشراً ؟ وهل كانت اسرائيل عالمة بالانذار الانكليزى - الفرنسى سلفاً وقبل تقديمه ؟ واذا صح انها كانت على علم به ، فما الذى استنتجته اسرائيل منه ؟

ان عرض هذه المرحلة الاخيرة من القصة ، عمل من أعمال رجال المباحث . فهناك حشد ضخيم من الحقائق المعروفة ، ومجموعة هائلة من الادلة والملايسات الثابتة ، وأجمات كثيفة من الفروض ، تضاف اليها كلها رواية ايدن البعيدة عن العقل ، والتى تضى على القضية التى يراد اكتشافها المزيد من الغموض والتعقيد بدلا من التبسيط والايضاح . ولقد حاول السير أنطونى فى مذكراته ألا يقول شيئا أيضا عن هذه الاسرار التى تلف قضية السويس ، وأن يترك المجال مفتوحا أمام الاجيال القادمة لاكتشاف غوامضها ومكنوناتها . فلقد وضع عرضا لا يرد فيه أى ذكر لكلمة التواطؤ أو أى مرادف من مرادفاتها ، ولا يقر فيه حتى ولو فى جملة واحدة ، ان أحدا قد اتهمه بوجود هذا التواطؤ . وهو لا ينكر أى شيء لانه لا يقر بوجود ما يستحق الانكار أو النفي . وهو يعترف بالقيل ، ولكن ما يرد على لسانه من اعترافات - هذا اذا استثنينا شطحات قلمه أحيانا - قد صيغ فى عبارات غامضة كل الغموض بحيث لا تصلح الا مادة لتحليل معقد متقاطع ، أو انها وضعت فى لغة تحمل الكثير من المعانى والاحتمالات لما فيها من افتقار الى الوضوح . وسنتولى هنا تمحيص جميع هذه الامور ، مع تحذير القارئ سلفا وقبل كل شيء ، من أنه سيجد عقله وقد « داخ » فى بعض المواضع من هذه الاحجيات . ولكن قبل أن نتعمق فى هذه « الغابة » من التعقيدات والغموض ، أرى أن أورد هنا ملاحظة أو ملاحظتين عامتين .

سبق لنا أن رأينا فى الفصول السابقة كيف سعت الحكومات

الثلاث ، البريطانية والفرنسية والاسرائيلية ، الى الاطاحة بعبد الناصر ، وكيف كانت تقوم باعداداتها النشيطة للشروع في هجوم عسكري . ولكن في وسعنا أن نكون واثقين من انه على الرغم من وجود هذا الهدف المشترك ، فلقد كانت هناك بعض التحفظات والكوابح الفردية عند حكومتين منها على الاقل ، وفي وسعنا أن نشرحها باختصار بادئين ببريطانيا .

كان تصميم السير انطوني الذي لايتزعزع ، كما حدده هو ، متركزا في وجوب خروج بريطانيا من قضية السويس وهي تملك « سلطه » أكبر — على حد تعبيره هو — من السلطة التي كانت لها في الشرق الاوسط العربي ، لا أقل منها . وكان هدفه بالاشتراك مع نوري السعيد ، لا ينحصر في الخلاص من عبد الناصر ، بل يتعداه الى اقامة نفوذ عربي — انكليزي دائم وجديد يحل محل نفوذ عبد الناصر ، يقوم ويتركز حول شخص نوري السعيد وفيام عراق أكبر ، يضم جميع الازدن أو بعضه على الاقل بصورة ثابتة . ولضمان النجاح في تحقيق هذا الهدف النهائي ، كان هناك « مؤهل » لابد وان يوجد في الطريق الى السويس والقاهرة . وليس هذا المؤهل بالشئ الجديد . فهو قديم قدم ايدن نفسه الذي عاش فيه ، اذ انه كان مبدأ أوليا من مبادئ السياسة البريطانية في الشرق الاوسط . وهو يتلخص في أن على بريطانيا أن تتجنب تماما في كل ما عمله ، أن يحمل أي طابع من طوابع العلاقة الظاهرية باسرائيل مهما ضؤل شأنه ، واعتقد ايدن ، وهو جد مخطيء ، أنه اذا خلص من « رجل » القاهرة ، فان العرب سيستجيبون الى قيادة نوري ، وان في وسع هذا وغيره من « الاصدقاء » السيطرة على « الدهماء » . ولكن ايدن كان يعرف خيرا معرفة ، دون أن يتطرق اليه شك ، في أن بريطانيا لو بدت تعمل متعاونة مع اسرائيل بأي سبيل من السبل ، فانها ستضيع على نفسها كل شئ . وتصيح هي وصديقتها نوري « موسومين » بوسم لا يمكن محوه أو اصلاحه عند جميع العرب في كل مكان .

علينا أن نضع هذه الحقيقة نصب أعيننا في كل ما يلي من تحقیقات وعلينا أن نذكر أيضا ما لدى اسرائيل من تحفظات . فلقد رأينا في الفصول السابقة ان عامل « تلقين العرب درسا لا ينسونه » كان مسيطرا على التفكير الصهيوني الحربي التواق الى العمل . وكان هذا الهسلف أساسيا في الخطة التي وضعتها اسرائيل للحرب في سيناء ، فهي تريد أن تحقق نصرا عسكريا مثيرا ، يترك انطباعه عند العرب جميعا . وهي لا تريد أن يحول بينها وبين تنفيذ هذا الهدف ، ولا سيما بالنسبة الى مصر ، أية معارضة أو ضغط أجنبي ، أو تدخل آخر معاد لمصر ، يظهر معه ان اسرائيل قد حققت ما تريد من نصر عن طريق العون « الاستعماري » . فهي تريد السلاح من الخارج ، ولكنها تريد أن تتولى هي القتال به ظاهرا على الاقل .

وسبق لنا أن رأينا أيضا أن بن جوريون كان يتوقع منذ البداية ، ان يؤدي احتلال اسرائيل لسيناء ، واقامة حدود جديدة لها على قناة

السويس الى ضرورة التدخل الخارجى فى منطقة القناة • ولكنه كان يتوهم
مثل هذا التدخل بعد احتلال سيناء لا قبله (١) •

وكانت فرنسا هى الدولة الوحيدة بين الدول الثلاث ، التى لا تحدد
من حريتها فى الحركة اية قيود أو مؤهلات • ولم يكن هناك ما تخشاه
من السير الى مصر جنبا الى جنب مع اسرائيل ، أمام بصر العالم وسمعه •
اذا كان هذا هو السبيل الامثل والانفع لها • ولم يكن القادة العسكريون
الفرنسيون من أمثال ماسو ، يتورعون عن القيام بأى عمل ، حتى ولا
اطلاق بعض قذائبيهم من الطائرات فى سماء القاهرة ليعملوا كل شئ
للاطاحة بعبد الناصر (٢) ، اذا كن هذا سيحقق لهم بعض الانفراج فى
الجزائر ، ويثأر للكرامة الفرنسية الجريح ، التى أصابها عبد الناصر
فى الصميم بتأميمه شركة القناة • وهكذا كن تحالف فرنسا مع اسرائيل ،
الى حد كبير ، حلفا يقوم على أكثر المصالح الذاتية علنية وصراحة • ولم
تكن جماعات العسكريين تنظر الى حكومتها آنذاك أى فى عام ١٩٥٦ بعين
الاحترام والتقدير • ولم تكن هذه الجماعات أيضا فى وضع نفسى يسمح
لها بالتسامح مع ما تبديه لندن أو حتى اسرائيل من تحفظات تفرضها
الامراض الدقيقة •

وفى وسعنا الان وقد انتهينا من تدوين هذه الملاحظات الاخيرة عن
الاهداف والنزعات التى حملها منفذو حرب سيناء - السويس فى افكارهم ،
أن نشرع فى سرد حقيقة ما وقع •

الحلف العسكرى بين فرنسا واسرائيل :

اتفق فى باريس فى السابع من أغسطس عام ١٩٣٧ ، على التفاصيل
النهائية المتعلقة بتسليم شحنات ضخمة وسرية كل السرية من الاسلحة
الى اسرائيل ، وذلك مع كبار موظفى وزارة الدفاع الاسرائيلية الذين أموا
العاصمة الفرنسية آنذاك • وتوقفت منذ ذلك التاريخ المعلومات التى تزود
بها فرنسا حليفاتها بريطانيا والولايات المتحدة ، عادة من شحنات الاسلحة
الفرنسية الى الشرق الأوسط ، عملا بسياسة التوازن فى التسليح التى
نص عليها البيان الثلاثى • وشرعت الحكومة الفرنسية تستأجر السفن
التي تستخدمها فى نقل الاسلحة الى اسرائيل ، بمنتهى السرية والتكتم ،
وكانت تدفع الى بحارتها أجورا اضافية لتضمن تكتمهم ، كما تعيد طلاء

(١) و (٢) انها مجرد أحلام كانت تراود أعداء العرب من مستعمرين
وصهاينة • وقد سبق لى أن أوضحت فى هامش سابق ، أن العدوان لو
لم يكن ثلاثيا واقتصر على اسرائيل وحدها ، لكانت نتيجته غير ما تحقق
لاسرائيل حتى فى الايام الاولى من المعركة • فاقد كان العرب على ثقة من
ان جيش مصر ، على الرغم من انه كان لا يزال وقت العدوان فى المراحل
الاولى من تسليحه وتنظيمه الجديدين ، كان قادرا على تلقين اسرائيل درسا
لا تنساه • - العرب -

هذه البواخر بين آونة وأخرى ذرا للرماد في العيون (١) . وتدفق سيل
اثواد الحربية باستمرار منذ شهر أغسطس ودون توقف على إسرائيل .

ومضت الاتصالات الفرنسية - الاسرائيلية منذ مطلع سبتمبر في
الاتساع السريع شاملة جميع الحقول والميادين . وصدر تلميح من كل من
موليه وبينو عن وجود « سر دبلوماسي » ، مما عني ان موضوع استخدام
القوة مع مصر لم يكن أمرا مستبعدا . وأعلن بن جوريون في اجتماع حزبي
عقد في تل أبيب في الثالث والعشرين من سبتمبر ، ان « اسرائيل وجدت
أخيرا حليفا صادقا لها » . وسنرى عما قريب أن تعيين هذا التاريخ أمر
في منتهى الأهمية والخطورة .

كتب السير انتوني ايدن في شهر أغسطس يقول :

« وبينما كانت للمملكة المتحدة ارتباطاتها الواسعة المدى مع الاردن
طبقا لمعاهدة التحالف بينهما ، كانت علاقات فرنسا وثيقة بإسرائيل، وكان
في الامكان تسوية الخلافات بيننا وبين الفرنسيين عن طريق الدبلوماسية
والاحداث ، ولكن هذه الخلافات لم تكن قد سويت في ذلك الوقت بعد » .

ولعل هذا القول ، من الاشارات العديدة الواردة في مذكرات ايدن
والطافحة بالمعاني المتعددة ، اذ انه لا يعنى شيئا محددا بالذات ، ومع
ذلك يعتبر رصيذا لرواية السير انطوني في حالة ظهور قصة كاملة الوثائق
عن سيناء والسويس . وتعزز المصادر الاخرى ، ما قاله ايدن هنا اذ تجمع
هذه المصادر على أن الحكومة البريطانية لم تكن تعرف معرفة واضحة عن
وجود تحالف فرنسي - اسرائيلي في ذلك الوقت ، وان كذا قد لاحظنا من
قبل أن فرنسا توقفت منذ شهر أغسطس عن تزويدها هي وأمريكا بآية
تقارير عن الشحنات تبعث بها الى الشرق الاوسط .

لكن الوزراء الفرنسيين لم يحتفظوا الى حد كبير بسرية الحالف الذي
عقدوه مع إسرائيل بعد انتهاء حرب السويس . فلقد أعلن المسيو بينو
في الجمعية الوطنية الفرنسية في شهر ديسمبر بصراحة قائلا : « كنا
نعرف حقيقة نيات إسرائيل . أو لم يكن من الطبيعي والحالة هذه أن
تتشاور حكومتنا ؟ » . وقال رئيس الوزارة الفرنسية موليه في اذاعة
تليفزيونية لأمريكا في التاسع من ديسمبر ما نصه : « لقد وفينا بما
قطعناه من عهد لإسرائيل » .

ترى ما هذه العهود ؟ وما هو هدفها وهدف هذا التحالف ، اذا
استثنينا موضوع الاسلحة ؟ وما هي الاتفاقات الاخرى التي تم الوصول اليها
بين فرنسا وإسرائيل ؟ وهل علم ايدن بهذه الاتفاقات في أي وقت من
الاقوات قبل بدء الهجوم على سيناء ؟ .

رسالة الى بن جوريون :

وانكشف سر من غياهب الجهول في عام ١٩٥٩ أضاف الكثير الى
ما كان هناك من أدلة عن هذه الاسرار التي كانت تكتنف حرب سيناء

(١) مجلة فرانس - اوبزرفاتور الفرنسية عدد ١٥ نوفمبر ١٩٥٦

والسويس ، وهى مختلفة عن ذلك الطراز الذى يعرفه المحققون عادة من المصادر الخاصة . فنقد تحدث شخص يدعى العقيد (الكولونيل) هنريكس فى رسالة بعث بها الى مجلة « الاسبكتاتور » البريطانية يرد فيها على مقال طويل نشرته المجلة المذكورة تحت عنوان « الانذار » (١) ، انقال انه حمل رسالة من أحد أعضاء مجلس الوزراء فى لندن الى بن جوريون . وهنريكس هذا ، مؤلف مشهور ، وجندى بارز ، وينحدر من أسرة انجليزية - يهودية قديمة ، وقد بدأ اهتمامه بالصهيونية واسرائيل فى عام ١٩٥٦ ، ورتب لنفسه زيارة لها فى أواسط سبتمبر من ذلك العام . وقد روى فيما نشره فى الاسبكتاتور ، انه اجتمع قبيل سفره الى اسرائيل بعضو فى الوزارة البريطانية ، أطلعته على كثير من الامور ثم حملة الرسالة التالية الى بن جوريون

« على اسرائيل أن تتجنب الحرب مع الاردن مهما كان الثمن . أما اذا قامت بالهجوم على مصر فى نفس الوقت الذى سيقع فيه الهجوم البريطانى عليها ، فان هجومها هذا سيكون فى مصلحة جميع الاطراف المعنية . وستتظاهر بريطانيا باستنكار العدوان الاسرائيلى فى أقصى عبارة ممكنة . ولكنها ستعمل فى مفاوضات الصلح التى ستلى ذلك على مساعدة اسرائيل فى الحصول على أحسن شروط ممكنة » (٢) .

وأوضح العقيد هنريكس ، فى رسائل أخرى ، أضفت على قصته الكثير من الصحة ، وان ألقت عليها أيضا « ظلالا » مرعبة ، أن هذه الرسالة قد سلمت اليه ليتولى ايصالها ، بدلا من أن ترسل بالطرق الدبلوماسية العادية ، لانها لم تكن بقرار رسمى من حكومة جلالته . وأضاف يقول : « ونقلت الرسالة الى بن جوريون وقلت له أيضا ان ثمة جانبا كبيرا من رأى العام داخل حكومة جلالته ، يؤيد كل التأييد مساعدة اسرائيل ، ويبدو ان هذا الوزير كان يعمل نيابة عن هذا الجانب من رأى الوزارى »

وتثير هذه القصة قضايا دستورية خطيرة ، تتعلق بالمسلك الوزارى الذى يمكن تسميته بالمسلك الذى لا يغتفر ، ولكننى لا أرى من المصلحة اضاعة الوقت فى مناقشتها . ولكن فى وسع كل انسان أن يدرك ما فى هذه القصة من أهمية جوهرية ، فهى تشير بوضوح الى ان النية كانت متجهة فى أواسط سبتمبر أى قبل ستة أسابيع من الهجوم على سيناء ، داخل الوزارة التى يرأسها ايدن الى التواطؤ مع اسرائيل فى شن الحرب على مصر . وكانت هذه النية قوية الى حد كبير ، ويتولى قيادة الدعوة اليها وزير خطير الشأن كان فى مكنته أن يبعث بمثل هذه الرسالة الى بن جوريون . وسنرى بعد قليل ان جميع التفاصيل التى أوردها الكولونيل هنريكس عن هذه الرسالة ، قمينة بالتصديق ، كما ان شخصية الوزير الذى بعث بها لا يمكن أن تخفى عن العيان .

(١) السبكتاتور عدد ٣٠ اكتوبر ١٩٥٦ .

(٢) السبكتاتور عدد ٦ نوفمبر ١٩٥٦ .

وعلينا الآن أن نعرض السياق الزمني في هذه القضية كلها .
نحن نعرف الآن أنه في منتصف شهر سبتمبر ، كان الحلف الاسرائيلي
الفرنسي في طريق التكوين بالنسبة الى السلاح ، وكان يسير في الوقت
نفسه وبسرعة في طريق التضج على جميع المستويات السياسية . وعندما
حل منتصف شهر سبتمبر كانت الحملة الانجليزية - الفرنسية قد باتت
على استعداد وانخذت القوات مواقعها ، وكان الفرنسيون يلحفون بوجوب
الاسراع في العمل الفوري . وبرز الاستهلال الانجليزي - الفرنسي بإيقاد
« باخرة التجربة » نيابة عن هيئة المشتفعين ولكن المستر دالاس ، أفلح في
احباطه منذ البداية . وفي الثالث والعشرين من سبتمبر وكانت الرسالة
الوزارية البريطانية قد سلحت الى العقيد هنريكس ، طلب ايدن وموليه
أخيرا عقد جلسة لمجلس الأمن . وأصدر بن جوريون في اليوم نفسه أي
في الثالث والعشرين من سبتمبر بيانه الهام الذي قال فيه ان اسرائيل
وجدت أخيرا « حليفا » صادقا واحدا ، ولم يقل انها وجدت حليفين .

ويروي العقيد هنريكس أنه عندما سلم الرسالة الى بن جوريون ،
اكتفى بمجرد بسمة لاحت على شفثيه . وبان على وجهه تعبير من يود أن
يقول « ... لقد سمعنا مثل هذه الوعود كثيرا من قبل » . ويتفق هذا
القول مع كل ما كنا نعرفه من قبل عن بن جوريون . فالمعروف انه
والصهيونيين عموما ، لا يصدقون الا ما يقدم اليهم من وعود واضحة
محددة عن المساعدة الخارجية ، ولما كانت بريطانيا قد وقفت مواقف
متعارضة من سياستهم في فلسطين حتى عام ١٩٤٩ (١) ، فانهم لم يكونوا
ميالين مطلقا الى تصديق هذه الوعود . لكن بن جوريون كان واثقا

(١) لا أدري كيف يسمح المؤلف لنفسه ، وهو الحضيف في معالجة
الاتجاهات السياسية أن يقول ان بريطانيا وقفت مواقف متعارضة من
سياسات الصهيونية ، الا اذا كان يتقصد الدفاع عنها متذعرا بما ذكره هو
عن ان بريطانيا تتنصّد اخفاء أي اتجاه منها تشتم منه رائحة الميل الى
اسرائيل حرصا على مصالحها الكثيرة في الوطن العربي ، وحفاظا على
أصدقائها من حكام العرب الذين ينفذون سياستها من أن « يحرقوا » -
وكانهم لم يحرقوا - أمام الشعب العربي ، فالقول بأن سياسات بريطانيا
وقفت موقف التعارض مع اسرائيل في أي وقت من الاوقات مغالطة واضحة ،
تخفي اتجاهها جديدا يصح أن نسميه اتجاه « الاستعمارية الجديدة » التي
تحاول اقامة علاقاتها مع العرب على أسس جديدة من التقرب والاعتراف
بالخطأ أحيانا . فبريطانيا ، ممثلة للاستعمار ، هي التي أقامت اسرائيل
في قلب الوطن العربي لتكون حائزا بشريا غريبا في قلب هذا الوطن
يجزئه وينفذ للاستعمار أهدافه ومآربه . فهي التي أعطت الصهيونية
وعد بلفور ، وهي التي عملت بسياساتها طيلة عهد الانتداب على تهيئة
السبل لقيام الدولة اليهودية ، وهي التي أحالت القضية عام ١٩٤٧ الى
الأمم المتحدة ، وعملت « سرا » على انجاح التقسيم ، كما مكثت المشروع
من التنفيذ عن طريق إيجائها لعملائها من حكام العرب بالعمل على تحقيقه
- العرب -

من موقف فرنسا ومطامنا اليه . وكان لا يزال على موقفه المظمن هذا في الثالث والعشرين من سبتمبر على الرغم من الحقيقة الواقعة وهي أن الخطط الفرنسية بدت وكأنها قد تحطمت على صخرة الأمم المتحدة ومناقشاتها الطويلة ، أو انحرفت عن طريقها على الأقل . وما نستنتج من هذا الوضع وهو ليس مجرد استنتاج ، أن بن جوريون كان واثقا في الثالث والعشرين من سبتمبر من أن فرنسا لا تنوى أن تسمح للأمم المتحدة ، بالهائها أو صرفها عن أهدافها مدة طويلة .

ولكن ما موقف بريطانيا ؟ هل أصبحت الآراء التي تحملها مجموعة من وزراء حكومة جلالته قرارا رسميا اتخذته الحكومة للتواطؤ مع إسرائيل ؟ كان السير انطوني ايدن قد تحول في شهر سبتمبر إلى أشد أنصار إسرائيل تشييعا لها . وكان هذا الموقف تحولا أساسيا عما كان يعتبر سياسة بريطانية تقليدية مشايعة للعرب . وقد أدت إلى هذا التحول عوامل عدة ، أولها كراهية ايدن المتسلطة عليه لعبد الناصر مما أدى بحكم الطبيعة إلى الاهتمام بجميع خصومه ، وحالته العقلية العامة وتأثره بالنفوذ الفرنسي ، وقد طبع هذا الشعور من الميل لإسرائيل حتى بعد ثلاثة أعوام ، جميع ما كتبه في مذكراته عن دورها في أزمة السويس ، مستخدما ما هو مختزن لديه من الدعايات الإسرائيلية في دعم حججه ، حتى في أدق التفاصيل . وسبق لي أن دونت ، أن تأثره بهذه الأحاسيس الإسرائيلية قد حمله على تعديل ما سجله عن حياته الدبلوماسية بالنسبة إلى موقفه بين مصر وإسرائيل ، بحيث لا يجد القارئ في مذكراته أي تلميح عن المحاولة التي بذلها في نوفمبر عام ١٩٥٥ عن طريق عبد الناصر ، والتي تلقى عليها صدمة من بن جوريون بالنسبة إلى اقتراحه السلمى الذي ضمنه خطابه في جيلدهول .

لكن انحرافه الشديد نحو إسرائيل ، لم يقع إلا في شهر سبتمبر . وهنا نتساءل ، ومتى ازداد هذا الانحراف شدة وخطا خطوة جديدة؟ وطار ايدن ولويد في السادس والعشرين من سبتمبر إلى باريس حيث قضيا يومين في مناقشات حارة مع موليه وبونيه . وفي وسع المرء أن يستخلص إشارة صغيرة عن الاتجاه العام في هذه المناقشات . فلقد اعترف ايدن نفسه في مذكراته ، أنه اتفق مع الفرنسيين في المناقشة التي دارت للوصول إلى قرار تقديم القضية إلى مجلس الأمن ، أن « يمهّد الطريق لإجراء عملية اختبارية بالنسبة إلى تحريم القناة على البواخر الإسرائيلية » . وهكذا نجد ايدن بين السادس والعشرين من سبتمبر والعاشر من أكتوبر قد وافق على إقحام إسرائيل في الجوانب السياسية والقانونية لازمة السويس ، مما يعتبر انعكاسا كاملا لسياسته التي كانت قائمة في شهر أغسطس ومع ذلك فإن هذه النتائج التي توصلت إليها ، لا تؤيد بعد القول بوجود تواطؤ محدود في الخطط الحربية مع إسرائيل ، وإن أوضحت اعترافات ايدن وجود مقدمات له . وقبل أن نتوغل في الحديث عن أحداث الأسبوعين المحمومين الآخرين من الأزمة ، وما يحملانها من أدلة كثيرة ، أرى أن أتساءل ، عما إذا كان هناك من أمور أخرى تستدعي الملاحظة والتسجيل أيضا .

الخطط الانجليزية - العراقية :

لعل من أكثر المظاهر بعثا للحيرة والدهشة في هذه المرحلة من الازمة ، أن التوتر العربي - الاسرائيلي . كان أقوى على الحدود الاردنية - الاسرائيلية ، منه على اية حدود أخرى ، ومنها طبعاً حدود مصر . وقد بلغت حوادث هذه الحدود في أشهر أغسطس وسبتمبر ومطلع أكتوبر ، ذروة التوتر مما أدى الى انتشار الاشاعات الصحفية عن توقع حرب قريبة على حدود اسرائيل الشرقية . وشنت القوات الاسرائيلية عدة هجمات تأريه ضخمة على الحدود الاردنية أسفرت عن قتل ثمانية وأربعين أردنياً واصابة ثلاثة وعشرين بجراح ، والحاق الدمار بقرية قلقيلية العربية في العاشر من أكتوبر . ترى لماذا وقع هذا التطور ؟

من المعترف به الآن ، وحتى في الروايات المتشعبة لاسرائيل ، ان هذه الحركات لم تكن الا مجرد ستار للتضليل ، وخداع يقصد منه خلق الانطباع في الشرق الاوسط وفي الغرب أيضاً ، بأن هدف الهجوم الاسرائيلي اذا كان لابد من وقوعه ، سيكون الاردن . وكان في الهدف الاسرائيلي بعض التعقيد ولكنه كان منسجماً كل الانسجام مع التخطيط العسكري الاسرائيلي العام الذي لا يتجاهل أبداً النواحي السياسية والنفسية . فعلى أثر ما أبدته بريطانيا وفرنسا من استعراض للعضلات في أواخر يوليو من استدعاء جنود الاحتياط وتجميع السفن الحربية وما شابهها من اجراءات ، سحب عبد الناصر نصف القوات التي يحتفظ بها عادة كحامية في سيناء الى الغرب من القناة . وهكذا ظل في شرقي القناة ، ثلاثون ألف جندي بدلاً من العدد المألوف وهو ستون ألفاً ، فقد سحبت فرقتان كاملتان ولواء واحد مدرع في سيناء للدفاع عن مصر نفسها وعن منطقة القناة ضد أي هجوم قد يقوم به الانجليز والفرنسيون . وهكذا كان هدف اسرائيل الابقاء على الوضع على هذا النحو ، عن طريق تضليل مصر ، بتركيز اهتمام العالم على الحدود الاردنية .

وأتاح الخوف من هذه الحرب الرئيسية ، ويا للغرابة ، لايدن ونوري السعيد فرصاً اضافية لتحقيق خططهما لاستيلاء العراق على الاردن . ولم تكن الانتخابات الاردنية قد جرت بعد . ولم يكن الملك حسين مطمئناً كل الاطمئنان الى ما يتمتع به الرئيس عبد الناصر من شعبية ضخمة في مملكته . وخشى الضباط القوميون في الجيش العربي الاردني أن يؤدي انشغال عبد الناصر بالتهديد الانجليزي - الفرنسي ، الى عدم تقديمه عوناً كافياً الى الاردن ضد الغزو الاسرائيلي ان وقع . وهكذا بذل نوري السعيد وايدن طيلة شهر سبتمبر ومطلع أكتوبر جهوداً ضخمة عن طريق السفير البريطاني في عمان ، وبعض المستشارين لأقناع الملك حسين وحكومته بقبول مجيء قوة عراقية كبيرة الى الاردن . وكان مثل هذا الطلب معقولاً ومنطقياً بالنسبة الى الخطر الظاهر من ناحية اسرائيل على الاردن . أما الهدف الحقيقي ، فهو ضمان مجيء قوات عراقية الى الاردن ، والحيولة دون تحول الانتخابات التي ستجرى في الثامن والعشرين من أكتوبر باتجاه مصر وسورية ، وللتأكد من ضم الاردن للعراق بسرعة عند وقوع الغزو الانجليزي - الفرنسي لمصر . ولكن ثبت في السادس من أكتوبر ان الأمل

فى التأثير على الانتخابات الاردنية كان خائبا . فلقد تشكك قادة الاردن الوطنيون فى الغاية من مجيء القوات العراقية ، ورفضوا مجيء أية قوات عراقية لا تكون تحت القيادة الاردنية مباشرة . مما أدى الى توقف المحادثات . ولم تدخل القوات العراقية الى الأردن الا فى الثانى من نوفمبر ، وكان نورى السعيد قد أدرك فى غضون ذلك أن الحطة كلها قد تحطمت على صخرة ما أثير من ضجة شديدة عن موضوع التواطؤ بين الدول الثلاث .

فكيف يمكن لهذه القصة أن تدخل فى نطاق ما نقوم به من تحقيق عن تفكير بريطانيا الرسمى فى موضوع اسرائيل ؟ لقد سبق لنا أن لاحظنا فى فصل سابق أن وزير خارجيه الامريديه ايهام ايدن بعد انتهاء الحرب الثلاثيه ايهاما مباشرا بالتواطؤ فى وضع المخططات الحربيه التى انطوت على سيطرة العراق على الاردن ليعقبه تقسيم البلاد بين العراق واسرائيل ، ولا ريب فى أن هذا الانهام كان خطيرا لصدوره عن شخصية أمريكية مسئولة ، لاسيما وأنه لم يكن يفتقر الى الاسس أو الفواعد . وكن من الممكن مقارنتها بالتهمة التى سبق للفاخرة أن وجهتها فى وقت مبكر أى فى يناير عام ١٩٥٦ ، وكان لهذه التهمة مغزاها على أساس اعتبارى . وأول هذين الاعتبارين أننا نعرف من مصادر لا عد لها ولا حصر ، بينها ما كتبه مؤرخ حياة نورى السعيد من أن رئيس الوزارة العراقية كان يرى أن تسوية مشكلة فلسطين أمر جد ضرورى ، اذا أريد الحيلولة دون قيام شخص آخر كعبد الناصر فى المستقبل . أما الاعتبار الثانى فهو أننا نعرف أن بن جوريون وزملاءه كانوا يشتهون جزءا من الاردن على الأقل وهو الضفة الغربية الممتدة الى نهر الاردن ، لأن هذه الضفة كانت جزءا من أرض فلسطين ، ولأن بقاءها فى يد العرب يؤلف خطرا سونيا . (استراتيجيا) يهدد بقطع اسرائيل الساحلية الى شطرين (١) .

وفى وسعنا أخيرا أن نذكر ما تضمنته رساله العقيد هنريكس التى حملها فى أواسط سبتمبر الى بن جوريون من أحد أعضاء الوزارة البريطانية ، . فهذه الرسالة تحذر الاسرائيليين من مهاجمة الاردن ، وتعرب عن ترحيبها بمهاجمة مصر كبديل عن الاردن ، وتعد بأن تعمل بريطانيا فيما بعد على مساعدة اسرائيل فى الوصول الى أحسن تسوية صلح ممكنة . ولا ريب فى أن بن جوريون يرى أن التسوية المثلى يجب أن تتضمن تسليم الضفة الغربية من مملكة الاردن الى اسرائيل ، وهو أمر تعرفه لندن تمام المعرفة .

ونصل الآن الى لغز القصة كلها فى أواسط شهر اكتوبر .

(١) راجع كتاب حكومة اسرائيل السنوى لعام ١٩٥٢ اذ يقول فى صفحته الثالثة عشرة : لقد تمكنا من بعث دولتنا فى الضفة الغربية من البلاد . . . فى اسرائيل ، وكان الصهيونيون يواصلون المطالبة بالهجرة الى شرقى الاردن منذ عام ١٩٢١ .

(المؤلف)

السادس عشر من اكتوبر ١٩٥٦ :

ظهر سلوين لويد صباح السادس عشر من اكتوبر عائدا الى لندن بعد انتهاء اجتماعات الامم المتحدة التي أصيبت بالتوقف والتأزم . وكان هناك اجتماع لمجلس الوزراء البريطانى بحضور رئيس هيئة أركان حرب الامبراطورية . وأعلن ايدن بعد ظهر ذلك اليوم أنه قرر أن يطير فورا الى باريس . وكان التفسير الرسمي لهذه الزيارة الذى قدم موعدها فجأة بعد أن كان من المقرر وقوعها في الثامن عشر من أكتوبر أن ايدن أراد أن يعود في الوقت نفسه ليقوم بافتتاح معرض للسيارات .

وهبط ايدن وسلوين لويد مطار باريس مع الغسق ، وسرعان ما عقدا في غرفة مغلقة مع موليه وبينو ، اجتماعا سريا دام أربع ساعات لم يشهده أحد سوى الرجال الاربعة ، من المستشارين أو التراجمة، وعندما كان الوزيران البريطانيان يهبطان أرض المطار كان بينو يعلن في مجلس النواب الفرنسى قائلا : « لدينا أوراق رابعة مهمة ما زلنا نحفظ بها في أكمامنا » . ترى ما هذه الاوراق الرابعة ؟ وما الذى بحثه الوزراء الاربعة طيلة تلك الساعات في هذه الجلسة التى أحيطت بكل هذه الظروف من السرية والتكتم ؟ وما الذى حدث بعد السادس عشر من اكتوبر ؟

لنبدأ أولا بما رواه ايدن في مذكراته . انه يقول أولا : « وبعد نحو من ساعة أو ما يزيد بقليل ... أوقفنا اجتماعنا لننتقل الى غرفة أخرى كان فيها مستشارونا في الانتظار » . والسبب أو لآخر ما زلنا نجهله ، لم يرغب ايدن في تذكير قرائه بالحقيقة التى لا يتطرق اليها الشك ، والتى اعترف بها حتى أكثر المدافعين عنه حماسة وهى أنه ظل مع رفاقه الثلاثة الآخرين وحدهم ، لايعاونهم موظفون أو مستشارون . فقد تناولوا العشاء وحدهم ، وتحدث بعضهم الى بعض دون أن يحضر أحد حديثهم (١) ولكن ترى ما الذى يقوله ايدن عن هذه المحادثات ؟ انه يقول ، انه ظهرت أخيرا وبعد عشرة أسابيع لمح عن وجود اقتراحات مصرية . ثم يروى بعد ذلك انه اتفق مع الفرنسيين على دراسة هذه الاقتراحات وبحثها . وراحوا بعد ذلك يبحثون في الاحتمالات الخطرة في الشرق الاوسط ، ولاسيما بالنسبة الى ما يحتمل أن تقوم به اسرائيل التى تشعر بالقلق . والتى تتعرض للاستفزاز من هجوم على الأردن أو مصر . ونصل بعد ذلك الى فقرات أخرى من حديث ايدن من النوع الذى عودنا أن نجده محملا بالمعاني المختلفة اذ يقول :

« واذا لم يكن هناك من مندوحة من الهجوم ، فمن الافضل من وجهة نظرنا أن يكون على مصر . وعدنا ننظر الى الوضع من زاوية أخرى . فاذا ما وقع الهجوم على مصر ، فهناك أيضا مخاوف تعرض سلامة قناة السويس للخطر ، وقد درسنا جميع هذه القضايا من نواحيها السياسية والعسكرية ، وكان علينا ، أن نبحث في حذر مشترك الاجراءات التى يجب أن نقوم بها ... »

(١) جون كونييل - البلاد الكثيرة الاهمية - كاسل ١٩٥٧ .

« وكنا في الأشهر الأخيرة نضاعف استعداداتنا العسكرية لمقابلة أى إجراء من جانب عبد الناصر ضد بواخرا أو رعايانا . أما الآن فقد بدأت سياسات عبد الناصر تتجه الى استفزاز إسرائيل بشكل لا يمكن تحمله ، فقد أصبح يتحتم علينا أن نستعد لهذا الطارئ أيضا » .

حقا انها لفقرة غير عادية ، فى كل حساب . وفى استطاعتنا أن نلاحظ على التو ما بينها وبين رسالة العقيد هنريكس فى منتصف سبتمبر الماضى من تشابه فى اقتراح الهجوم على مصر . . . فمثل هذا الهجوم كما تقول الرسالة « مناسب لجميع من يعنيه الامر » كما أنها « أفضل من وجهة نظرنا » كما يقول ايدن بالنسبة الى أحداث السادس عشر من أكتوبر ولكن فى وسعنا أن نترك هذه النقطة عند هذا الحد ، وأن نمضى قدما فى عرضنا . فلقد كتب ايدن يقول انه مضى مع لويد عائدتين الى الوطن ونقلنا الى مجلس الوزراء فى الثامن عشر من أكتوبر رأيهما فى أن الخطر آخذ فى الازدياد بأن إسرائيل قد تقوم بعمل عسكري نتيجة استفزاز مصر ، ثم قال :

« وكان الوضع خطيرا ، ولكن حكومة جلالته قررت فى هذه المرحلة انتظار الاقتراحات التى قيل ان فى وسعها انتظار صدورها عن مصر » .

وتشير هذه العبارة التى تتميز بما فيها من مجافاة كاملة للمنطق الى محاولة ضخمة من محاولات التزويق البيباني . ويقول ايدن ان « الاقتراحات » التى وافق مجلس الوزراء على انتظارها فى الثامن عشر من أكتوبر كانت تتعلق بقضية القناة . فاذا كان ايدن يطالب منا أن نصدق بأن خطر الحرب العربية - الاسرائيلية أمر مختلف كل الاختلاف عن قضية قناة السويس ، فلماذا تقرر حكومته « ترقب » الاقتراحات المتعلقة بالقناة قبل أن تفعل شيئا فى موضوع الحرب التى يعترف بخطورتها ؟ سنرى عما قريب أن فترة الترقب هذه اتخذت فى الحقيقة صورة تميزت بالنشاط غير العادى .

وفى كتابه أيضا قطاع قصير فصله عن غيره تتحدد فيه أفكاره تمام التحديد . ولا نرى فى هذا القطاع الا بضع عبارات قد لا تقتضى أن تعنى شيئا بحكم الضرورة ، ولكنها قد تكون أشبه « بالبدور » الكامنة تحت القشرة الخارجية ، عاجزة عن النشاط ، ولكنها لن تلبث أن تنطلق ، لتخرج الثمار الى الناس . اذا قدر لائى كتب مذكرات فى المستقبل ، « واءا كان بريطانيا أم فرنسا أم اسرائيليا أن يقول كل ما لديه . . . اسمعوا ايدن يقول :

« وقد خبرت عددا كبيرا من هذه الاوضاع المماثلة من قبل . . . تتردى باستمرار ، ولكننى لم أجد فيها عنصرا جديدا أستطيع أن أتمسك به وأن أستخدمه ، ولم يكن هناك من هو على استعداد لادخال مثل هذا العنصر . . . »

ولكن ما هو هذا العنصر الجديد الذى كان ايدن ينتظر أن يمسكه وأن يستخدمه ، وأن يجد من يدخله . وماذا يريد السير انطونى أن

يقول ؟ لكي نفهم ذلك علينا أن نضع نصب أعيننا أنه أورد هذه الفقرة بعد أن ابدى أنه هو وزملاءه الفرنسيين كانوا قد « درسوا دراسة فاحصة مشتركة » ، أي اجراء يمكن لهم أن يتخننوه تجاه هذه « المخاوف الجديدة » كضمان سلامة القناة مثلا ، في أية حرب مصرية - اسرائيلية . وها هو ذا يتحدث الآن عن ادخال عنصر جديد . وهو لا يحاول المزيد من ايضاح ما يعنيه سواء في هذه الفقرة ، أو في أية فقرة أخرى تنطوي على معان ضمنية أخرى ، ان المفهوم الذي يمكن استنتاجه يظل قائما « يثر أزيلا مدويا » أمام الاجيال القادمة لنصل الى حقيقته .

ونصل الآن الى الخامس والعشرين من اكتوبر . ويقول ايدن انه تلقى تقريراً في ذلك اليوم يفيد ان اسرائيل توشك على اعلان التعبئة العامة ... ثم يمضي فيقول :

« وكان الوزراء قد درسوا في اجتماعات عدة سابقة الطرق التي قد يتطور اليها الوضع . وتم تبادل الرأي بصدد هذا مع الفرنسيين . ودرست الوزارة في الخامس والعشرين من أكتوبر ، بصورة محددة ، احتمال قيام صراع بين مصر واسرائيل ، وقررت من حيث المبدأ ما يجب عليها أن تفعله في حالة وقوع هذا الصراع . وقررت الوزارة أن تقوم الحكومتان الفرنسية والبريطانية فوراً بدعوة الفريقين الى وقف الأعمال العدوانية ، وأن يسحبوا قواتهما ، الى مسافة معينة من ضفتي قناة السويس في فترة معينة ، فاذا رفض الفريقان الانصياع الى طلبنا في الفترة المحددة ، تحتم على القوات البريطانية والفرنسية أن تتدخل ، للفصل بين المتحاربين ولضمان حرية المرور في القناة »

لا ريب في أن هذا القول يعتبر من أخطر البيانات التي أذيعت عن حرب سيناء والسويس . ويدعونا الواجب الى تحليله بمنتهى الدقة . ولكن أرى أن نكتفي عند هذه المرحلة ، بتسجيل الجانب الذي اعتبره أكثر جوانب هذا القول أهمية وخطورة . فلقد زعم ايدن وزملاؤه طيلة عام ١٩٥٦ ان الانذار الذي أصدره بالاشتراك مع الفرنسيين في الثلاثين من اكتوبر، والذي يأمر بوقف اطلاق النار وانسحاب المصريين والاسرائيليين من منطقة القناة قد وضع في ذلك اليوم أي الثلاثين من اكتوبر ليس الا ، كاجراء وقائي طارئ أملته المفاجأة التي وقعت اثر الهجوم الاسرائيلي . وها نحن أولاء نرى ايدن يؤكد في عام ١٩٦٠ أن هذا الانذار قد قرر قبل خمسة أيام من صدوره وقبل أربعة أيام من بدء الهجوم الاسرائيلي .

فترة « الترقب » بين ١٦ و ٢٩ أكتوبر :

ولنعد الآن قليلا الى الوراء ، لنجمع كل ما نعرفه عن حقيقة ما وقع في السادس عشر من أكتوبر ، ابان تلك المحادثات المتناهية في سريتها في باريس بين ايدن ولويد من ناحية وموليه وبونيه من الناحية الاخرى . وعما حدث فعلا قبيل ذلك التاريخ . علينا أن ندخل هنا في صورتنا الصحفيين الفرنسيين ، الاخوين برومبيرجر ، اللذين لا نشك مطلقاً في انهما كانا موضع الثقة ، عند اعداد كتابهما ، من أعلى الفرنسيين مكانة

رثاننا ، وان كانا ولا ريب أيضا قد أفهما من جانب الحكومة الفرنسية
أو من جانب الجيش ، والفرق قائم بينهما ، ما بود فرنسا من عدم أن
يصدقه . يقول الفرنسيان أن الجنرال الفرنسي شارل وصل إلى لندن في
الخميس عشر من أكتوبر ، وراح يبيع السير الطونى ايدن في مقره في
ناونج سريت رقم ١٠ أن الاسرائيليين على وشك اسروح في الهجوم على
سيناء لموصول إلى القنافة . ويضيف الصحفيان أن ايدن رد عليه قائلا :
« حقا أنها فترة طيبة » ، ولكنه أصر على ألا يظهر التدخل الانجليزى -
الفرنسى فيما بعد ، بريطانيا بمظهر الحليف لاسرائيل . ويعود الاخوان
برومبرجر ، فيؤكدان أنه تم في الجلسة السرية التى عقدت في باريس
في اليوم التالى أى فى السادس عشر من أكتوبر خلف الابواب الموصدة
تنسيق الخطط الانجليزية - الفرنسية مع الهجوم الاسرائيلى (١) .

ترى هل هناك مصادر أخرى تؤيد صحة هذه الرواية عن قيام
فرنسا بعمل ما اعزم الاسرائيليوه القيام به إلى ايدن : أجل هذه المصادر
أخرى تؤيد صحتها ، وان اختلفت فى بعض تفاصيلها الثانوية عنها .
فهناك أولا الزيارة التى قام بها المسيو البير جازيه إلى لندن فى ذلك
الوقت . دبرت منظمة باريسية معروفة عادة بوسع اطلاعها ان المدّور
نقل إلى ايدن ، تنفيذا لتعليمات رئيس مجلس الدول الفرنسى ، تفاصيل
الصمانة الرسمية التى قدمتها فرنسا إلى اسرائيل (٢) . ونشرت عدة
صحف غربية المعلومات التى بلغتها مع مراسليها ، بناء على ما وجهه
اليهم من تعليمات تحرى كافة التفاصيل الممكنة عن حرب اسويس ،
والتي تتفق فى معناها تقريبا مع القصة التى رواها الاخوان برومبرجر عن
اجتماع السادس عشر من أكتوبر (٣) .

لكن ما وقع فعلا بعد السادس عشر من أكتوبر ، هو الذى يفضح
ما فى قول ايدن من « انتظار الاقتراحات المصرية » من أكاذيب . فقد
اتخذت منذ السابع عشر من أكتوبر الخطوات الثانية ، دون أن ترافقها
أية ضجة ..

١ - « تم حشد القوات الفرنسية فى منطقة مرسيليا - صولون
ومعها عربات كانت أساليب التعمية التى طبقت عليها من النوع الذى
يستخدم عادة فى الصحراء ، وفد أفهم رجالها بأنهم ليسوا متوجهين إلى
الجزائر . ووزعت أوراق نقدية تحمل عبارة « احتلال مصر » على ضباط
الرواتب .

٢ - « خرجت ناقلات الجنود الفرنسية فى التاسع عشر من أكتوبر
إلى عرض البحر ، تحت ستار القيام بمناورات بحرية بسيطة .

-
- (١) كتاب الاخوين برومبرجر - أسرار السويس .
(٢) مركز استعلامات الشرق الأوسط الفرنسى - باريس نشرة
١٩٥٦ - ١٩٥٧
(٣) من هذه الصحف واشنطن بوست والنيويورك تايمز ولهيرالد
تريبيون والاوزرفر .

٣ - « طارت قاذفات قنابل السلاح الجوى الملكى البريطانى النفاثة فى السابع عشر من اكتوبر الى مالطة » .

٤ - « تلفت سفن الاسطول الملكى البريطانى فى السابع عشر من اكتوبر ، وهى فى طريقها من موانئ الشرق الأوسط ، وأمر بالعودة فورا الى المنطقة لتكون قريبة من مدخل قناة السويس ومشارف مصر . ولعل أبرز مثل عليها المدرعة البريطانية « نيوكاسل » وكانت تمخر عباب المحيط الهندى ، متجهة الى استراليا ، لحراسة الدوق ادنبره فى طريق العودة » .

٥ - « توقف توزيع نشرات الوثائق الرسمية المصنفة على كبار الموظفين البريطانيين كالعادة ، وشطب أسماءهم من قوائم التوزيع حرصا على ما فيها من أسرار » .

٦ - « منح أحد كبار خبراء وزارة الخارجية البريطانية فى شئون الشرق الاوسط اجازة لم يكن يتوقعها ، كما منح عدد من كبار الموظفين اجازات مماثلة » .

٧ - « استقال السير وولتر مونكتون وزير الدفاع البريطانى فى الثامن عشر من اكتوبر لاسباب وصفها ايدن بأنها صحية ، وان كان المعروف ان الاستقالة نجمت عن معارضة الوزير لسياسات ايدن فى موضوع السويس . ولم يدخله المستر ماكميلان فيما بعد فى أول وزارة ألفها ، كما لم يعهد اليه بأى منصب غير مغمور » .

٨ - « قدمت اسرائيل فى السابع عشر من اكتوبر بهدوء تحفظاتها الى محكمة العدل الدولية فى موضوع صلاحيتها واختصاصاتها » .

٩ - « استدعت اسرائيل سفراءها فى المراكز المهمة لموسكو وباريس ولندن وواشنطن فطاروا اليها فورا » .

١٠ - « بدأ شحن أضخم معدات رفع الانقاض اعتبارا من السابع عشر من اكتوبر الى جزيرة قبرص . ووصلت سفينة الجرم المشهورة « ترمويل » الى ميناء فاما جوستا فى قبرص فى التاسع والعشرين من اكتوبر وهى تجر رافعة عائمة ضخمة » .

١١ - « وجد الدبلوماسيون الأمريكيون أنفسهم اعتبارا من السابع عشر من اكتوبر فى عزلة تامة عن اتصالاتهم الرسمية مع الموظفين الرسميين البريطان والفرنسيين والاسرائيليين فى لندن وباريس وقل أبيب » .

١٢ - وصل العميد بيرنارد فيرجوسن فى الثانى والعشرين من اكتوبر الى قبرص حيث ظل مقيما . وقد أعلن فى الواحد والثلاثين من اكتوبر انه يتولى ادارة حرب الحلفاء النفسية والدعائية ضد مصر » .

ومن العبث أن نضيع وقتا أطول ، فى النقاش ، لنصل الى النتيجة الواضحة وضوح الشمس ، وهى انه تم الاتفاق فى باريس فى السادس عشر من اكتوبر أى قبل تسعة أيام من شروع اسرائيل فى التعبئة العامة

نقواتها ، على المضى فى استخدام القوة • ونحن نعرف الآن أن أيزنهاور بعث فى ذلك اليوم برسالة الى ايدن (١) ، ولابد أن تكون هذه الرسالة اذا أخذنا بعين الاعتبار السرعة فى نقل الاتصالات البرقية فى أيام الازمات قد وصلت الى ايدن ابان الجلسة التى عقدها مجلس الوزراء فى ذلك اليوم أو فى أثناء الاجتماع الذى عقده فى باريس مع موليه والذى انتهى فى الساعة الواحدة والنصف صباحا ولقد كان رأى ايدن فى الطريقة التى سيتبعها أيزنهاور فى السماح له بتنفيذ مخططه فى قضية السويس من غوامض أزمة السويس • ولكن المعلومات الوالية تشير الى أن هذه الرسالة التى بعث بها أيزنهاور انطوت على الوعد القاطع لايدن بتسوية قضية السويس وان كان الرئيس الأمريكى قد أكد فيها لما قيل ، أن يديه ستظلان مغلولتين حتى تنتهى الانتخابات الأمريكية فى السادس من نوفمبر • وقد تواءمت هذه الأنباء عن انشغال أمريكا مع المخطط الانجليزى - الفرنسى ، ولكن الرسالة طلبت ولا ريب من بريطانيا المزيد من الحرص ولاسيما فى الأسبوعين الأولين من الفترة الواقعة بين السادس عشر من أكتوبر والسادس من نوفمبر • واتضح أن أى عمل قد يثير فزع أيزنهاور وغضبه يجب ألا يتخذ الا فى أقصر مدة قبل السادس من نوفمبر • فكل يوم قبل هذا التاريخ يزيد من خطورة تمكين أيزنهاور وحزبه من اتخاذ اجراء مضاد ، ووضع تفسير له للمقترعين الأمريكين والشروع فى العمل فورا ، وعلى هذا الأساس قرر الوزراء البريطانيون والفرنسيون فى اجتماعهم فى باريس فى السادس عشر من أكتوبر قطع جميع الاتصالات العادية مع الموظفين الأمريكين كما دونا سابقا مخافة تسرب الأنباء المتعلقة بمخططهم الى أيزنهاور •

ولكن الاحداث أثبتت فيما بعد ، ان ايدن وموليه اتاحا لايزنهاور أسبوعا كاملا قبل يوم الانتخاب • ونتساءل هنا ، لماذا وقع هذا ؟ علينا لكى نرد على هذا السؤال ، أن نفحص أولا طبيعة العملية الانجليزية - الفرنسية • لقد تضمنت فى سياقها الزمنى ثلاث مراحل • ويزعم الاخوان برومبجر بشىء من الامتناع ، يتفق مع الصورة التى رسمناها من أن فرنسا كانت تود أن تتخطى كل عقبة تقف فى طريقها ، ان هذا السياق الزمنى المنطوى على التوانى كان باصرار من ايدن • وتلخص المراحل الثلاث بوجوب تقديم انذار من نوع ما أولا ، ثم بالشروع فى حرب نفسية عن طريق الاذاعات العربية والقاء المنشورات العربية على مصر مع اختيار الأماكن التى تقذف بالقنابل مع الحرص على عدم إلحاق خسائر ضخمة بالأرواح ثانيا ثم الغزو ثالثا • وكان القصد من مرحلة الانذار الأولى ، شرح العدوان للعالم والقاء الملامه على عبد الناصر • أما القصد من المرحلة الثانية فالتحريض على ثورة شعبية فى مصر ضد عبد الناصر ، بينما استهدفت المرحلة الثالثة احتلال قناة السويس والزحف منها على القاهرة

(١) هناك مصادر عدة لهذه الرواية • وقد حصل راندولف تشرشل بضاً على هذه المعلومات التى أوردتها فى كتابه « ظهور وسقوط السير نطونى ايدن » من تعريب العرب أيضاً •

إذا تطلب الأمر هذا الزحف . وتقرر ان تتولى محطة الشرق الأدنى للاذاعة العربية الموجودة في قبرص تحت اشراف العميد فيرجوسن توجيه الحملة الدعائية وتحريض المصريين على الثورة وهذا ما عملته المحطة فعلا . أما المنشورات فقد تقرر أن تتضمن تحريض المصريين على الثورة ضد عبد الناصر ، وترديد ما تبثه اذاعة الشرق الأدنى الى المصريين قائلا : « لقد رأيتم كيف أثار عليكم عبد الناصر هجوم اسرائيل ، وها أنتم أولاء ترون كيف نستطيع قصف مطاراتكم بمنتهى الدقة ، وما لم يذهب عبد الناصر ، فسنلقى قنابلنا عليكم ونقتلكم » .

وفى وسعنا الافتراض على أساس هذا السياق انزمنى للمراحل الثلاث ، ان توقيت الانذار وعمليات الارهاب الدعائية والجوية ، قصد منه أن يتسق مع المراحل الختامية والمحمومة لحملة الانتخابات الامريكية شعورا من بريطانيا وفرنسا بان ايزنهاور سيدور عاجزا عن اعيان باى عمل قبل السادس من نوفمبر ، وأنه لا يستطيع استخدام القوات الامريكية دون تحويل من اللوجستى الذى لا يمدن ان يسلم قبل انتهاء المعركة الانتخابية . وتوقعت الدولتان من ايزنهاور ألا يسرع فى أى اجراء ، حتى ولو كان بطيئا ، وضمن نطاق الامم المتحدة قبل السابع من نوفمبر ، وفى هذه الفترة - أى فى غضون بضعة أيام لن تتأخر عن العاشر من نوفمبر ، الذى تشير كاه الدلائل ، الى أن المخططات وضعت للشروع فيه بالعمليات البرمائية ، والنزول الى منطقة القناة ، سيكون « التدخل » الانجليزى - الفرنسى قد بات أمرا واقعا يواجهه العالم ، ولما كان ايدن واثقا - وقد ثبت فيما بعد أنه كان حالما - من أن الشعب المصرى سيثور على عبد الناصر ، فقد كان يتوقع نشوب اضطرابات فى البلاد ، تجعل من المشكوك فيه تماما أن تقوم حكومه بتقديم بالشكوى من العدوان الى الامم المتحدة طالبة حمايتها . وليس أدل على وجود هذا الافتراض فى تفكير ايدن من طبيعة الحرب الدعائية التى شنها ، فمن الجنون كل الجنون أن تهدد شعبا بالقتل الجماعى ، الا اذا كنت واثقا ثقة عمياء بأن هذا الشعب سيقبل الحل البديل الذى تقدمه اليه ، وهو الثورة على حكومته . وليس ثمة من شك فى أن ايدن ومستشاريه كانوا على خطأ كامل بالنسبة الى تقديراتهم لموقف الشعب المصرى .

ولنعد الآن الى خطة الحملة على مصر . فالمفروض ان تاريخ « التدخل » قد حدد بحوالى السادس من نوفمبر ، بينما كان يوم الثلاثين من اكتوبر وهو اليوم الحاسم فى سياق الاحداث ، بعيدا كل البعد عن موعد الانتخابات الامريكية ، وتشير طبيعة عمليات الانزال كما وقعت أخيرا ، الى أن الخطة الاصلية قد تعرضت لبعض التعديل للاسراع فى تنفيذها ، كما ان هناك بعض الدلائل على هذا الاسراع بالفعل فلقد كان هناك نحو من احدى عشر الفا من الرعايا البريطانيين فى مصر فى اكتوبر عام ١٩٥٦ . ولم يصدر عن دار السفارة البريطانية فى القاهرة ، التى لم تكن تعرف فى الحقيقة ، شيئا ، أى عمل أو تلميح لتحذير هؤلاء الرعايا أو حمايتهم . وكان كل أمريكى فى الشرق الاوسط ، أمكن الاتصال به قد نصح قبل التاسع والعشرين من اكتوبر بأن يغادر المنطقة فورا .

أما حكومة ايدن فلم تكن حتى الثلاثين من أكتوبر وهو اليوم الذي أصدرت فيه أكثر الانذارات التي عرفها القرن العشرون استفزازا ، مصر ، قد اتخذت أى إجراء أو خطوة لحماية أحد عشر ألفا من رعايا جلالته يقيمون في تلك البلاد . فهل كان هذا الموقف ناجما عن الحاجة الى التكتم والسرية ، وصادرا عن قرار اتخذ على ضوء حسابات دقيقة ، وازنت فيها حكومة ايدن بين المصير المحتمل لهؤلاء الرعايا وبين المصالح العمومية العليا لبريطانيا ؟ أو أنه كان ناجما عن الافتقار الى الاستعداد ، لان كل شيء قد اتخذ على عجل وبطريق الصدفة المباغتة ؟ أو يمكن للمرء أن يتصور أن يصدر ايدن أكثر التهديدات عنفا وانذارا بسفك الدماء الى المصريين دون أن يبعث حتى برسالة رمزية الى سفير جلالته في القاهرة ليكون على أهبة الاستعداد لحماية رعاياها في مصر ؟ ان الحقائق تثبت أن هذا السفير السير همفري تريفلان ، لم يعلم بصدور الانذار الا من الرئيس عبد الناصر .

مساعدة فرنسا الحربية لاسرائيل في القتال :

فاذا كان ايدن وموليه قد وضعوا كافة هذه الخطط العسكرية الانكليزية - الفرنسية - في السادس عشر من أكتوبر كما روينا من قبل ، فما دور اسرائيل في هذه الخطط ؟ واذا كانت بعض نواحي الخطة قد انحرفت عما هو مرسوم لها ، فما الذي حدث وادى الى هذا الانحراف يا ترى ؟ وما المدى الذي كان فيه ايدن على علم بالخطط الاسرائيلية ؟

لعل من الاهمية بمكان بالغ ، أن السير انطوني ، لم يأت في مذكراته على ذكر الكثير عن بيانه التفصيلي الذي حاول فيه أن يوضح الاسباب والنتائج ، والذي القاه في مجلس العموم في العشرين من ديسمبر عام ١٩٥٦ . لاريب في أن أى قارئ لابنعم بذاكرة قوية ، أو لايملك مجموعة « هانسارد » التي تصدر دائما متضمنة سجل ما يدور في مجلس العموم البريطاني من مناقشات ، لايمكن أن يعرف أن ايدن قد ألقى مثل هذا البيان . ولكنني أنقل هنا ما قاله في المجلس حينما بعد أن هب من نفسه ليرد على المناقشات قائلا ٠٠ « أود أن أجيب عن هذه الاسئلة »

ومضى ايدن يقول :

« أريد أن أوضح قبل كل شيء أنه لم يكن هناك قرار مشترك منا ومن فرنسا قبل وقوع الاعمال العدوانية الاسرائيلية بصدد استخدام حق الفيتو ، (أى في مجلس الامن في الثلاثين من أكتوبر بصدد مشروع القرار الذي يدين اسرائيل) . ولم يكن هناك قرار مشترك أيضا بصدد استخدام القوة الجوية الفرنسية قبل بدء العمليات العسكرية .. ولم يكن نعرف من قبل أن اسرائيل ستهاجم مصر ، أبدا ، أبدا . ولكن كان هناك شيء آخر .. كان هناك خطر من احتمال وقوع مثل هذا الهجوم ، وقد عرفنا بوجوده ، وكان لابد لنا أن نجرى بعض المباحثات

والمنافشات في هذا الصدد ، وهو ما أعتقد بصحته المطلقة ، كما أعتقد أن أي انسان آخر ، كان لابد وأن يفعل ما فعلته أنا ، .

وقد ظهر ما في هذا البيان الأخير الذي تلاه أيدن في مجلس العموم من أكاذيب . قبل أن تصدر مذكراته بمدة طويلة . فلقد اعترف المستر أنطوني هيد (وزير الدفاع البريطاني) ، في الخامس من ديسمبر بأن أول ما وصل الى مسامع الوزارة البريطانية من معلومات صحيحة كان عندما تلقت الوزارة نبأ التعبئة العامة الاسرائيلية في الخامس والعشرين من أكتوبر . ولكننا رأينا أن أيدن في مذكراته يؤكد ، أن توقعات مجلس العموم البريطاني في ذلك اليوم نفسه أي الخامس والعشرين - ونود أن نستعمل هذه العبارة المتسامحة - عن هجوم اسرائيل كانت قد بلغت حدا من الضخامة بحيث بات لزاما عليه ، أي على المجلس ، أن يضع خطة مفصلة عما يجب عمله « فورا » ، كتوجيه انذار نهائي يتضمن كل التفاصيل والدقائق المتعلقة بوقف اطلاق النار والانسحاب . وكان السير أنطوني من الذكاء بحيث أدرك أنه لا يستطيع ايراد هذه الصورة من الرواية ، في الوقت الذي يعرض فيه ماسبق له أن قدمه من نفى قاطع في البيان الذي افضى به الى مجلس العموم في العشرين من ديسمبر ، مما يظهر « كذبه » على المجلس ، فأثر أن يحذف ذلك البيان كلية من مذكراته بمنتهى البساطة . ولكنه لم يكتف بحذف هذا البيان وحده ، وانما حذف من مذكراته أيضا ما هو أضخم وأكثر خطورة . نرى لزاما علينا التحدث عنه ، رغم محاولته اخفاء ما يتعلق به من حقائق ، وهو موضوع المساعدات العسكرية الفعلية التي قدمتها فرنسا لاسرائيل في معركة سيناء . وجدير بنا أن نلاحظ أنه في بيانه في مجلس العموم في العشرين من ديسمبر ، والذي أوردناه قبل قليل ، قد اعترف بصراحة بوجود مثل هذه المساعدات الفعلية ، ولكنه نفى اشتراك بريطانيا من قبل في تقريرها . ولكنه عاد في مذكراته الضخمة ، بكل ما فيها من اسهاب وتفصيل غزيرين ، يعتمد ، ألا يذكر أي شيء ، أو يشير أية اشارة من أي نوع لعون فرنسا الفعلي لاسرائيل ، حتى ولو ما ورد عنها في بيانه الرسمي الذي ألقاه في البرلمان والذي أثر أن يحذفه من مذكراته . وهنا يظهر الكثير من التناقض الغريب الذي رأينا بعضه حتى الآن ، والذي سنرى الكثير منه في تحليلنا المقبل ، بين ما قاله أيدن في تلك الايام ، وبين ما يحاول الآن قوله أو اخفائه في مذكراته .

فقد حلقت في التاسع والعشرين من أكتوبر ، وهو يوم الصفر بالنسبة للهجوم الاسرائيلي ، ستون طائرة فرنسية نفائة يقودها طيارون فرنسيون من رجال السلاح الجوي الفرنسي من قواعدهما في ديجون وسان ديزيه في فرنسا قاصدة اسرائيل . وقد هبطت هذه الطائرات في قبرص لتزود بالوقود وهي في طريقها الى هدفها . ويقول الاخوان بروميرجر ، على الرغم مما في قولهما من غرابة تكاد تصل الى حدود الخيال ، ان السلطات العسكرية البريطانية في قبرص ، لم تعرف شيئا عن كل هذا ، كما لم تدر حتى بوجود عدد من ضباط الاتصال الاسرائيليين في مطار اكروتييري القبرصي ، الذي لا يبعد أكثر من بضعة مئات من الياردات عن الخيمة التي اتخذتها القيادة العليا لقوات الحلفاء مقرا

لها . ولكن هل يمكن تصديق هذا ؟ حقا اننا نعرف انه كان ثمة الكثير من الاضطراب والفوضى ، والمجاذلات فى العملية الانجليزية - الفرنسية كلها ، كما نعرف ان قبرص كانت تعج فى التاسع والعشرين من اكتوبر بالرجال والطائرات والمعدات . ولكن على الرغم من كل ذلك يصعب علينا ان نصدق بأنه لم يلاحظ أى بريطانى فى المكان كله حتى ولا ضابط مراقبة المطار أو عامل الرادار ، مجيء ستين طائرة فرنسية تهبط لتزود بالوقود ثم تستأنف طيرانها فى اتجاه اسرائيل .

وليس ثمة ريب فى أن هذا النبأ قد نقل الى لندن ، ولكن من المحتمل ألا يكون قد عرض على مسامع ايدن حتى عشية التاسع والعشرين من اكتوبر أو بعده أيضا - أى بعد أن كانت العمليات الحربية قد بدأت فعلا . فاذا افترضنا صحة هذا الاحتمال ، فإن هذا الافتراض يبرر النفي الذى تقدم به الى مجلس العموم . وهذا شئ ممكن بالنسبة الى تلك الظروف التى كانت تسود لندن وقبرص فى ذلك الوقت . ولكن مرور الطائرات الفرنسية يثير تساؤلا آخر ، وهو لماذا قبلت اسرائيل وهى التى كانت تسعى وتحلم فى احراز نصر وحدها ، هذا العون من الطائرات من دولة كبرى ، وأن تسمح لطيارى هذه الدولة بقيادة الطائرات . وهم فى بزاتهم العسكرية الفرنسية ، وأن يقلعوا من مطارات اسرائيلية ؟ ولقد رأينا فرنسا تبعث منذ شهور طويلة قبل التاسع والعشرين من اكتوبر ، بشحنات خاصة من الأسلحة الفرنسية الى اسرائيل لتستخدمها هذه فى حرب اسرائيلية خاصة ، وفى ظل ستار من الكتمان الشديد . فلماذا اذن يتيح بن جوريون الفرصة للعرب لى يقولوا ان القوات الاستعمارية هى التى خاضت معركة سيناء الى جانب اسرائيل ؟

والرد على هذا السؤال معروف لدينا . ففى الساعة التى سبقت الصفر نقل قادة القوة الجوية الاسرائيلية رأيهم الى بن جوريون فى انهم عاجزون عن تأمين الحماية الجوية فى سيناء فى نفس الوقت الذى يؤمنون فيه الحماية لمدين اسرائيل ضد طائرات الاليوشن المصرية من قاذفات القنابل ، أو ضد أية هجمات جوية عربية أخرى . وهكذا راح بن جوريون فى الثامن والعشرين من اكتوبر يطلب من باريس الحماية الجوية عن طريق طائراتها المقاتلة (١) ، ولعل هذه الطبيعة المتأخرة لهذا

(١) يروى الاخوان برومبجر ، فى سلسلة المناقشات الكثيرة والمنطوية على الاهمال ، قصتين مختلفتين فى مكانين مختلفين فى كتابهما عن الطلب الذى تقدم به بن جوريون الى فرنسا . فهما يقولان مرة انهما سمعا بأن بن جوريون طار الى باريس سرا فى الثامن والعشرين من اكتوبر ليطلب من موليه تأمين الحماية الجوية لقواته . ومن هذا يستدل أن رواية اجتماع بن جوريون بموليه كانت صحيحة ، وأن الاجتماع وقع فى وقت مبكر عما عرفت فيما بعد . ولكنهما فى مكان آخر من الكتاب يرويان أن الطلب قدم الى فرنسا فى الثامن والعشرين من اكتوبر وهذا هو الموعد الصحيح . وقد أيدى العقيد هنريكس فى السبكتاتور - كما أيدى مضامير أخرى .

العون الجوي من جانب انطائرات الفرنسية المحاربة ، هي التي توضح فقط لماذا طارت هذه الطائرات الفرنسية الستون مع طيارها الفرنسيين في أزيائهم الفرنسية . وكان الوقت أقصر من أن يسمح بمحو الأعلامات الفرنسية عن هذه الطائرات . فالأسراب مستعدة وعلى أهبة الطيران في مطارات ديجون وسان ديزيه ، ولا يستغرق انتقال هذه التفانات من فرنسا الى اسرائيل اكثر من أربع ساعات . وكان في إمكانها أن تصل الى هناك في وقت يمكنها من أن تذهب فوراً الى العمل العسكري عند ما تشن اسرائيل هجومها . ولكن لم يكن هناك وقت متوافر لحمل الطيارين الفرنسيين على تبديل بزاتهم العسكرية بالبزة الاسرائيلية ، أو حتى لإقناعهم بذلك . ولعل هذا السبب هو الذي حمل عدداً كبيراً من الصحفيين الغربيين في اسرائيل ، على معرفة هذا العون العسكري المباشر الذي قدمته فرنسا الى اسرائيل ، مع ما في معرفتهم هذه ، من تعريض لنيه هذه في الاحتفاظ بمظهر الفردية في حركتها (١) .

وكانت هناك أشكال أخرى من المعونة الفرنسية العسكرية والفعلية لاسرائيل . فقلد تولت أربعون طائرة نقل فرنسية من طراز « نوردي اطلس » حمل شحنات التموين والغذاء والماء ، من مطار تيمبو في قبرص ، الى القوات الاسرائيلية في صحراء سيناء ، بالإضافة الى ما كانت تقذفه اليها من عتاد وسيارات جيب . وتولت السفن الحربية الفرنسية حماية الساحل الاسرائيلي . وقام الطراد الفرنسي « جورج ليجوس » بقصف المواقع المصرية عند رفع بقذائف مدافعه عندما اصطدمت القوات الاسرائيلية بمقاومة عنيفة من هذه المواقع . وقد بدأ نقل المؤن والمعدات الى القوات الاسرائيلية فور بدء الهجوم عشية التاسع والعشرين من أكتوبر . أما القصف البحري فقد وقع في الساعة الرابعة من صباح الأول من نوفمبر .

اسرائيل والانذار :

ومن المحتمل أن تكون الوزارة الاسرائيلية في هذه اللحظة من الخوف الذي يسبق المعركة ، قد أملت ألا تكون الحماية الجوية الفرنسية ظاهرة جداً الى الحد الذي يعرض ما تريده من « سمعة النصر المستقل » الى الخطر . وكان الاسرائيليون يأملون عن طريق النفي المتكرر لوجود عون فرنسي ، مع التأكيد المتواتر عن الانتصارات الوهمية في سيناء ، أن ينشروا في العالم عن طريق الدعاية الصهيونية ، الواسعة النفوذ ، رأياً يتغلب على قصة العون الفرنسي ويدفع بها الى مؤخرة الصورة ، فيحققون بذلك ما يريدونه من ارباب العرب وتخوينهم . ولكن السؤال الذي يمثل أمامنا الآن ، هو هل كان الاسرائيليون حقاً يريدون أن يوجه

(١) كان بين هؤلاء مراسلو روتر والمانشستر جارديان وباري بريس وليموند وفرانس أوبزرفاتور والنيوز كرونكل الذين رووا احاديث جرت لهم مع الطيارين الفرنسيين .

الإنذار - البريطاني - الفرنسي المشترك بعد أقل من أربع وعشرين ساعة من هجومهم . وهل كان زعماء إسرائيل يرضون طوعا بأن يذهبوا الى المعركة ، وهم يعرفون ان الحرب الانجليزية - الفرنسية ستبدأ بعد تسع عشر ساعة فقط ، من هجومهم ، وانهم سيحملون وصمه «مخلب الاستعمار» ، ويحرمون مما يحلمون به من نصر مستقل .

من المحتمل أن يكون الاسرائيليون قد ظلوا يعتقدون حتى الثامن والعشرين من أكتوبر أن في وسعهم ان ينتصروا وان هذا الاعتماد اصبح مغلما بعد هذا التاريخ على الأمل في تأمين ما يحتاجون اليه من حماية جوية . فلقد كانوا يعتمدون على الظن بأن مصر لم تكن قد استكملت بعد تدريب قواتها على الأسلحة التشيكية الجديدة التي لم تكن صفقتها قد عفت منذ عهد بعيد ، وكانوا يعرفون ما سيواجهونه من هذه الأسلحة في سيناء ، أما الحديث عن الهجوم المصري الضخم القريب والمزعوم ، فلم يرد ذكره الا متأخرا أى بعد التاسع والعشرين من أكتوبر .

وأرى ان المجال صالح الآن للبحث في القصة المتأخرة عن العدوان الشامل الذي زعم الاسرائيليون أن عبد الناصر كان يعد له لسنه عليهم . ان هناك حقيقة واقعة ، وهي انه لم يكن قد انقضى حتى ذلك الحين وقت طويل كاف لتدريب عدد ضخم من الجنود المصريين على الأسلحة السوفياتية الجديدة وبينها الدبابات . ويصدق هذا أيضا على الطائرات النفاثة من قاذفة ومقاتلة . ولهذا فقد كانت تلك اللحظة من أسوأ اللحظات للتفكير بأي هجوم شامل على إسرائيل ، اذ أن التدريب على الأسلحة الجديدة كان يتطلب عدة شهور أخرى . ولقد رأينا من قبل أيضا ان التهديدات البريطانية الفرنسية منذ شهر يوليو قد أرغمت مصر على سحب نصف قواتها من سيناء الى مصر للدفاع عنها ضد الدولتين الغربيتين . وكانت مصر في أكتوبر عام ١٩٥٦ . مشتبكة في كفاح يائس للتغلب على ما يواجهها من رأى عام عدائى في الغرب . وكان عبد الناصر يغرف تمام المعرفة أنه لا يستطيع القيام بأي عمل حربي ضد إسرائيل قبل أن تتم تسوية مشكلة السويس . ومن هذا يتبين ان القصة التي نشرتها دول العدوان الثلاثي فيما بعد من أن الصور والأدلة التي عثر عليها في سيناء قد حسرت النقاب عن وجود خطة مصرية للهجوم الذي كان مرتقبا في كل لحظة على إسرائيل ، كانت قصة خرافية وان وجدت بعض الانتشار والكثير من الأثر . أما التهديدات العربية الصحفية والإذاعية فلم تكن بالشئ الجديد . وتظل هناك حقيقة تافهة رواها كثيرون من الاسرائيليين ، وهي ان القوات المصرية في سيناء ، كانت في مواقع أمامية ، وسنحل هذه الحقيقة وأسبابها في فصل لاحق .

وكان الاسرائيليون واثقين كل الثقة من أنهم اذا منحوا وقتا « كافيا » فسيلحقون الهزيمة بمصر وحدهم . وكان أيدن وموليه يحملان نفس الثقة أيضا ، اذ اعترف أيدن بها في مذكراته ، وكان سلوين تريد قد ذكر في مجلس العموم في شهر يوليو أن ميزان القوى المسلحة

في الشرق الاوسط يعيل الى جانب اسرائيل . اذن ما الفائدة لاسرائيل من هذا الانذار ؟

زعم كثيرون من الصحفيين فيما بعد ، أن بن جوريون غضب أشد الغضب من التدخل الانجليزي - الفرنسي . (١) ولكن الاسرائيليين كانوا يعرفون منذ عهد طويل بهذا التدخل في حالة هجومهم ، وكانوا منذ أشهر يرون أنه جزء لا يتجزأ من خطتهم العسكرية الشاملة ضد سيناء . وقد أكد لهم الفرنسيون أن التدخل سيقع ، وأوضحت لهم الرسالة التي حملها هنريكس في منتصف سبتمبر وجوده . ولكن ترى ما الذي ذكره موليه لبن جوريون ؟ هل قال له أن بريطانيا وفرنسا ستتدخلان بعد تسع عشرة ساعة فقط من صدور البلاغ الحربي الاسرائيلي الاول عن طريق توجيه انذار ، يصاغ في عبارات تجعل أمر «التواطؤ» حقيقة واضحة محتومة ، ويوقت بحيث يغدو العمل العسكري الانجليزي - الفرنسي ضد مصر شيئاً مؤكداً بعد انقضاء مدة الانذار المضروبة ، أي في غضون اثنتى عشرة ساعة .

لا يمكن لاسرائيل أن تحقق نصراً سريعاً على مصر في سيناء في غضون تسع عشرة ساعة أو حتى احدى وثلاثين ساعة ، فنحن نعرف أن الخطة الاسرائيلية نفسها لم تكن تقوم على أساس مثل هذا النصر السريع ، وإنما كانت تتوقع أن تطول الحملة أربعة أيام . وبالفعل لم يتحقق مثل هذا النصر . ولكن النقطة المهمة ، ليست فيما ذكره البعض أحياناً من أن الاسرائيليين كانوا يعرفون أن مصر سترفض الانذار ، وأن الوقت سيتاح أمامهم لتحقيق مايطمعون فيه . وإنما كانت النقطة المهمة، هي أن التعابير التي صيغ فيها الانذار نفسه ، قد قضت على كل حلم لاسرائيل في أن تظهر بمظهر المنتصر . فلقد وصلت الطائرات البريطانية القاذفة للقنابل في وقت أسرع مما كان متوقعا . يضاف الى هذا أن الاسرائيليين كانوا جد مخطئين في اعتقادهم ، بأن الرئيس الامريكي الذي يخوض معركة انتخابية سيجد من الصعب عليه أن يتخذ أي إجراء ضدهم ، ولا سيما أن الانذار البريطاني الفرنسي قد أتاح لايزنهاور كل ما يتوخاه من عون لانقاذ نفسه من الورطة الانتخابية التي يجد نفسه فيها اذا استنكر عدوان اسرائيل .

وهكذا اختفى حلم « الانتصار المستقل » الذي راود مخيلة الاسرائيليين . وذلك عندما وقف ايدن بعد ظهر الثلاثين من أكتوبر في مجلس العموم ليوجه انذاره المشهور . ومن السهل والحالة هذه أن نفهم لماذا وجد الناطق الاسرائيلي نفسه مضطراً لوصف الانذار «بالقنبلة» . لقد أخطأت حسابات إسرائيل . (١) وأساء بعضهم تنفيذ الخطة .

(١) عدد الاوبزرفر في ٢٥ نوفمبر فقد ذكر ان اسرائيل كانت تتوقع عوناً من فرنسا لتخوض هي معركتها وذكرت التايمز اللندنية أن بن جوريون لم يكن يرغب في شيء من ألا يتيح للمصريين الفرصة في القول بأن قوات الدول الثلاث هي التي حققت لاسرائيل ما تريده .

— المؤلف —

هل كانت اسرائيل هي التي أساءت التنفيذ أولا ؟

قبل تحديد المسئول عن الخطأ وطريقته ونوعه ، أرى لزاما على أن أتحدث عن غريبة أخرى من غرائب سيناء والسويس . فلقد كانت الانتخابات الأمريكية بالنسبة الى بن جوريون وايدن وموليه أيضا ، قضية حرجة نظرا لملاقتها بتوقيت الهجوم . وكان هناك في البداية ميل قوى الى الاعتقاد بأن حزب أيزنهاور سيعارض معارضة شديدة وطاغية في أية خطوة قد يخطوها ايزنهاور في معارضة اسرائيل في المراحل الختامية من الحملة الانتخابية التي كانت الاصوات اليهودية تعتبر فيها دائما عنصرا مهما كل الاهمية ، يجد التقدير والاحترام من رجال السياسة . ولكن لماذا اختير يوم الصفر بالنسبة الى الهجوم الاسرائيلي قبل ثمانية أيام طويلة من يوم الصفر بالنسبة الى الانتخابات الأمريكية؟ ولماذا حدد الهجوم الاسرائيلي في التاسع والعشرين من أكتوبر بدلا من أن يكون الثالث أو الرابع من نوفمبر ؟

هناك احتمال معقول بأن تكون اسرائيل قد وجدت نفسها مرغمة على تقديم ساعة الصفر، وهناك تفسيران معقولان كل العقل لهذه الخطوة . فلقد روى الرئيس أيزنهاور - في عام ١٩٦٠ في تعليقه على مذكرات ايدن كيف انه المستر دالاس اجتمع الى أبا ايبان سفير اسرائيل في واشنطن قبيل سفر الاخير الى اسرائيل في زيارة قصيرة وكيف أن دالاس قال للسفير ما معناه انه اذا كان يعتقد بأن عواطف اليهود الأمريكيين قد تلعب دورا في التأثير على الانتخابات أو أنها قد تؤثر عليه هو بالنسبة الى ما قد تقوم به الحكومة الأمريكية من اجراء لمنع نشوب الحركات الحربية ، فانه - أي دالاس - يود أن يصحح له معلوماته ويقومها (٢) .

وقد حمل أبا ايبان هذا التحذير الى الاجتماع الخطير الذي عقده سفراء اسرائيل في العواصم الحساسة ، مع بن جوريون في تل أبيب بين السابع عشر والرابع والعشرين من أكتوبر . وكان لرأي أبا ايبان وزن كبير عند بن جوريون وغيره من المسئولين الاسرائيليين . ترى هل اثر هذا التحذير من أيزنهاور على التوقيت الذي كان بن جوريون قد قرره؟

(١) من الواضح أن اسرائيل كانت تريد ألا يظهر أي عون من جانب فرنسا أو انجلترا لحملتهما العسكرية على سيناء ، وان كانت تعتمد كل الاعتماد في خططها على هذا العون . فبالإضافة الى أنها حاربت بأسلحة فرنسا والى أن القوات الجوية والبحرية الفرنسية قد عززت هجومها النى لولاها لفشل الهجوم منذ اللحظة الاولى بسبب تفوق مصر الجوي والبحري ، فان اسرائيل كانت تعتمد في حساباتها على تخوف مصر من الهجوم البريطاني والفرنسي وكانت مطمئنة الى أنه مهما كانت نتيجة المعركة فلن يضرها شيء بسبب عون هاتين الدولتين لها .

- العرب -

(٢) عدد النيويورك تايمز في ٢٧ من يناير ١٩٦٠ .

وهل حمله هذا التحذير على التفكير في حسنات التبكير بموعد الهجوم؟
ولماذا هذا التفكير يا ترى ؟

وقعت مظاهرات في بودابست في الثالث والعشرين من أكتوبر . حملت ناجى الى رئاسة الوزارة في المجر . ولم يحل الخامس والعشرون من أكتوبر حتى كان قد أضحي من الواضح ، أن هناك ثورة على نطاق واسع ومناهضة للسوفييات ، تسير طريقها في المجر . وأصدرت الحكومة الاسرائيلية في تلك الليلة أول أمر لها بإعلان التعبئة العامة السرية في مرحلتها الاولى . ولم يحل الثامن والعشرون من أكتوبر حتى كان قد بدا أن الولايات المتحدة لن تكون أقل انشغالا في ثورة المجر من الاتحاد السوفيياتي ولذا بادرت اسرائيل في اليوم نفسه الى اعلان المرحلة الاخيرة التي لا يمكن النكوص عنها من التعبئة العامة ، وهي التي تقضى بدعوة أفواج الاحتياطى جهارا الى الخدمة ، مما لا يحتمل أى تأويل بأن القصد منه هو اجراء « تمرينات » من أى نوع . وكانت الصدفة رائعة ، فقد ظن بن جوريون أن حوادث المجر ، ستحول بين بن جوريون وبين الانتباه لما قد يقع في الشرق الاوسط ، كما ستصرف اهتمامه عنه .

وهل هناك أى دليل على ان اسرائيل قد قدمت فعلا ساعة الصفر بالنسبة الى غزوها لسيناء . ؟ لم تحاول وزارة الخارجية الامريكية أن تتكتم ما حصلت عليه من معلومات تفيد بأن اسرائيل قد باتت تخشى أن ينتبه البيت الابيض لما هو واقع فعلا ولذا قدمت موعد الهجوم من يوم الى ثلاثة أيام بالنسبة الى ما كان مقررا من قبل . (١) وقد أكدت التحقيقات التي أجرتها صحف عدة هذه الحقيقة (٢) . يضاف الى هذا انه عرف بأن آخر شحنات الاسلحة الفرنسية ستصل الى اسرائيل بعد فترة تتردد بين يوم وثلاثة أيام من موعد الغزو المقرر في التاسع والعشرين من أكتوبر (٣) وروت المخابرات الامريكية لحكومتها في السادس والعشرين من أكتوبر وقوع زيادة غريبة في الاتصالات البرقية بين فرنسا

(١) روت النيويورك تايمز هذه الرواية مسندة اياها الى «مصدر مسئول في الخارجية الامريكية» .

(٢) الاوبزرفر عدد ٢٥ نوفمبر . وقد اكدت أن يوم الصفر الاصلى بالنسبة الى اسرائيل كان بين الثاني والتاسع من نوفمبر . وروت وكالة الصحافة المشتركة أيضا تاريخا متأخرا مماثلا .

(٣) اكد العقيد هنريكس في السبكتاتور أيضا وجود عدة مصادر أخرى تؤيد هذا الموضوع . والجدير بالذكر أن تسهيلات هائلة قدمت لهنريكس ليضع كتابه الذى اسماه « مائة ساعة الى السويس » والذي اعترف فيه بأن حكومة اسرائيل قد راقبت النسخة الاصلية منه قبل نزولها الى المطبعة . ولم يحسر العقيد هنريكس النقاب عن أى شىء يتعلق بالمساعدة الفرنسية أو التواطؤ ، أو تقديم موعد الهجوم في كتابه الذى صدر في عام ١٩٥٧ . ولكنه ما لبث في مقالاته التي نشرها في السبكتاتور بعد عامين أن دون أمورا عدة تستحق الملاحظة والتسجيل . فهو يقول ان آخر طائرات «الميستير» الفرنسية المشبوهة الى اسرائيل ، =

واسرائيل ، مما يشير الى البحث في شيء جد هام ويتطلب السرعة .
حقا لقد كان هذا الشيء هو قرار اسرائيل بأن تبكر في موعد هجومها .

ولكن هل عرف ايدن ؟

لا ريب في أن القارئ قد لمس حتى الآن بأن الأدلة على وجود خطط شاملة للتواطؤ بين الدول الثلاث من الوفرة بحيث لم تعد هنالك ضرورة للمضى في هذا التحليل . ولكن اذا كنا نشعر بالحاجة الى أن يكون تحقيقنا في هذه القصة التي لا تكاد تصدق ، صحيحا وسليما ، فإن من واجبنا الا نتجاهل أية ناحية منها مهما ضؤل شأنها ، ومنطقية كانت او غير منطقية . وليس ثمة من ريب في أن موقف ايدن ، وعلاقة الحكومة البريطانية بكل هذا ، هو الذي يستحق مثل هذا التحقيق العميق . ولهذا أرى أن نعود الى خفايا الانذار من وجهة نظر ايدن البارزة نفسها .

ولقد سبق لى أن أشرت في العدد الخاص من مجلة السبكتانور ، أنه لو قدر لنا ان نصف ايدن وسلوين لويد بنىء من اذكاء العادى بدان من المحتوم عليهم أن يبحثا عن جدول أوقات للتواطؤ ، يظهره بمظهر الشيء غير القائم او الموجود بقدر الامكان . ولقد رأينا كيف جاء الانذار محطما لآمال اسرائيل . ولكنه لم يكن أقل من ذلك تحطيا لايدن نفسه ، بينما لم يؤثر على الفرنسيين الذين لم يكن يهمهم مطلقا لو ظهر التواطؤ الخفى بين الدول الثلاث أو ظل سرا من الاسرار . وهذه نقطة في منتهى الاهمية . اذ أن ظهور التواطؤ كان حريا بأن يأتى بنتائج عكسية لاسرائيل وبريطانيا وحدهما . فلو صحت عزيمة ايدن وسلوين لويد على حماية مركز بريطانيا المقبل في الوطن العربى وبالتالي على حماية عهد نورى السعيد ، بعد الاطاحة بعبد الناصر ، فمن الواجب أن يظل هناك فرق زمنى واضح يزيل كل الشكوك بين الهجوم الاسرائيلى و « التدخل » الانكليزى - الفرنسى . ولنضع هذه النتيجة المنطقية في صورة أخرى . فى وسع اسرائيل أن تهاجم مصر اما قبل الحركة الانكليزية والفرنسية أو بعدها ، سريطة ألا يقع الهجومان فى وقت واحد . يضاف الى هذا انه كان من المهم جدا بالنسبة الى ايدن وبن جوريون أن يشرعا فى حركتهما ضد مصر فى الوقت الذى تكون فيه يدا ايزنهاور مغلولتين تماما فى الانتخابات الامريكية . ففى مثل هذه الحالة وحدها يمكن أن تكون هناك نتيجة لسيناء أو للسويس ، وان تحقق حكومة ايدن واسرائيل اهدافهما وتحميانهما .

ولنصف الآن الى كل ما قلناه حقيقة أخرى ، وهى ان الوقائع

= لاستخدامها فى سلاحها الجوى لم تكن قد وصلت فى التاسع والعشرين من اكتوبر ، وان دبابات « شيرمان » الفرنسية وصلت متأخرة بحيث مضت الى المعركة دون أجهزة « اذاعة » . وراح هنريكس فى مقالاته هذه يعكس ما كان قد ذكره فى كتابه بالنسبة الى توقيت الهجوم .

— المؤلف —

اثبتت ان العملية الانكليزية - الفرنسية قد حدثت دون ان تكون الاستعدادات قد استكملت في الواحد والثلاثين من اكتوبر عندما شرعت القاذفات الانكليزية والفرنسية في التحليق فوق مصر وضربها بالقنابل . وقد اشارت جميع التقارير التي بعث بها الفريق كيتلي ، والتعليقات التي صدرت على السنة العسكرية الفرنسيين للصحفيين معربة عن الملل من التأجيلات البريطانية وكذلك الدلائل التي قامت على ان انزال المظليين من الجو كان مقررا في السادس من نوفمبر وان بدء العمليات البرمائية كان مقررا في العاشر من نوفمبر ، الى هذه الحقيقة التي اوردناها ، واذا ما أضفنا اليها كلها ، ما وقع من عدم تحذير السفارة البريطانية في القاهرة لرعاياها ، وفشلها في مساعدتهم ، وما قيل عن دهشة بن جوريون وغضبه ، لان الانذار جاء بسرعة بعد بدء الهجوم الاسرائيلي، وما صدر عن الوزراء البريطانيين من تعليقات قظة وصريحة، على اعتراف الفرنسيين فيما بعد بوجود التواطؤ أثناء الضجة التي اثيرت (1) ، وما ظهر على ايدن وسلوين لويد وزملائهما من حيرة وعجز عن التقدم بأية ردود معقولة على الاسئلة التي اثيرت في مجلس العموم، والتي كان لا بد لاي طالب في الصفوف الابتدائية ان يتوقع اثارها بعد « الفيتو » الانكليزي - الفرنسي في مجلس الامن وبعد الانذار المشترك في الثلاثين من اكتوبر ، تبينت لنا الحقيقة واضحة جلية . وظهر لنا ايضا ان احدا لم يعرض بعد عرضا صحيحا الاعمال التي قام بها أعضاء مجلس الوزراء البريطاني في ذلك اليوم .

تري لماذا كان هذا الارتباك التافه مسيطرا على الجميع في ذلك اليوم ؟ أنا لا اشك في أن الوزراء جميعا كانوا يعرفون بأن الاسئلة ستنصب عليهم انصيابا داخل مجلس العموم وخارجه . فقد تعرضت سمعة أولئك المسئولين عن الخطة كلها ومكانتهم الشخصية للخطر البالغ ، ومع هذا تعرض فقد ظهروا جميعا بمظهر الضياع والعجز عن أية ردود معقولة . لماذا ؟ ليس ثمة الا تفسير واحد ، وهو انه طرا لسبب من الاسباب تبدل جوهرى على الخطة كلها في الثلاثين من اكتوبر .

طلب الانسحاب :

واذا ما طرحنا افتقار الوزراء البريطانيين الى المنطق جانبا تبين لنا ، ظهور ثلاثة أمور جديدة من تسلسل الاحداث التي وقعت يومى التاسع والعشرين والثلاثين من اكتوبر ، والتي أدت الى ظهور التواطؤ وبرهنت على عجزها الفاضح عن تأكيد ما وقع على الخطط من تبدل

(1) لنضرب مثلا بما قاله المستر بتلر « لقد أوضحنا موقفنا ، كما أوضح المسيو موليه موقفه . وليس من حقى أن أرد على ما ذكرته الحكومة الفرنسية » . وقال ايدن في العشرين من ديسمبر . . « اننى اعتبر نفسى مسئولا عما أقوله في هذا المجلس ، لا عما يقوله الوزراء الآخرون في البلاد الأخرى في برلماناتهم » .

— المؤلف —

طارىء . وأول هذه الأمور ان اسرائيل ذكرت فى أول بلاغ حربى أصدرته فى الساعة التاسعة من مساء التاسع والعشرين من اكتوبر ، عبارة غريبة كل الغرابة ، اذ زعمت أن قواتها قد باتت على مشارف قناة السويس . وكان هذا القول فى منتهى الغرابة لسببين أولهما ان اسرائيل كانت كاذبة فيه ، اذ لم تكن قواتها فى تلك الساعة على مشارف السويس. كما ادعت . وثانيهما أنه حتى ولو افترضنا جدلا صحة الادعاء الاسرائيلى ، فلماذا الاعلان عن هذه الحقيقة ؟ ولماذا تثير وهى المتلفسة على أن تعزو النصر لقواتها وحدها ، وباعلائها الى العالم الشديد «الحساسية» بالنسبة الى القناة فى ذلك الحين ، قلق هذا العالم ، من احتمال تعرضها الى الخطر بسبب العمليات الحربية فى الوقت الذى لم تكن قواتها قد جاوزت حدودها الى مسافة بعيدة ؟ فليس ثمة ماهو أكثر مدعاة الى التدخل الدولى من أى نوع فى هذه الحرب من مثل هذا الاعلان ، وهو تدخل سيقع حتما قبل أن يتمكن بن جوريون من تحقيق ما يتلطف على الوصول اليه وما يريد أن يبرهن عليه .

أما السبب الثانى فى الغرابة ، فهو صدور الانذار الانكليزى - الفرنسى فور صدور النشرة الاسرائيلية الاولى ، متضمنا طلبات تبدو متممة للبلاغ الحربى الاسرائيلى وان كانت فى الحقيقة غير متفقة مع حقائق الوضع العسكرى فى يوم صدوره أى فى الثلاثين من اكتوبر . فلقد صدر الانذار فى الساعة الرابعة والنصف من بعد ظهر الثلاثين من اكتوبر، وهو يطلب من اسرائيل ومصر وقف اطلاق النار وسحب قواتهما الى مسافة تبعد عشرة أميال عن كلا جانبي قناة السويس ، لا كلا جانبي خط الهدنة ، أو على الأقل من جانبي النقطة التى كانت فيها قوات الفريقين عند تسلمهما الانذار . فسرعان ما ظهرت الحقيقة الضخمة الصارخة ، وكان لا بد من ظهورها ، وهى ان أية قوات اسرائيلية لم تكن بعد ظهر الثلاثين من اكتوبر على بعد عشرة أميال من قناة السويس . ومن هذا يتضح ان الانذار البريطانى - الفرنسى المشترك ، كان بمثابة دعوة صريحة الى اسرائيل للتقدم غربا نحو القناة ، والتوغل داخل الاراضى المصرية ، حتى قبل أن توقف اطلاق النار طبقا لنص الانذار .

ولا تكشف هذه الحقيقة وجود التواطؤ فحسب ، بل انها أيضا تثبت وجود الكثير من الحماسة ، ومن الاثم الذى يستحق اللعنة . وهنا يجوز لنا أن نتساءل ... هل كان من الممكن أن بضمن القادة الاسرائيليون بلاغهم الحربى الاول ، تلك الإشارة الغريبة لو أنهم كانوا يعرفون أن انذارا انكليزيا - فرنسيا مشتركا سيصدر بعد تسع عشرة ساعة ، وسيكون محطما على هذا النحو لأهدافهم الرئيسية فى اخفاء التواطؤ ، للظهور بمظهر المنتصرين وحدهم ؟ ولماذا بحق السماء . أدخل ايدن هذا الطلب بالانسحاب فى انذاره ثانيا ؟ ولماذا ، وقد قرر أن يصدم العالم كله وبهزة هزة عنيفة باستخدام الفتوة ضد مشروع القرار الذى اتخذه مجلس الامن تجاه الهجوم الاسرائيلى ، وبات على استعداد ليهز العالم باصدار انذاره الذى أصبح وشيك الصدور ، بوافق على اضافة ذلك الطلب المؤذى والغريب الى انذاره ؟ ولا يبدو هذا العمل منطقيا على الحقم فحسب ، بل يبدو أمرا لا ضرورة له

مطلقا ، فليس من المتوقع الا يكون ايدن قد تصور ، أو حتى أراد أن يرفض عبد الناصر الانذار ، إذ أن كل خطوة تالية تتوقف على هذا الرفض . وكان مجلس الامن في جلسات مستمرة ، كما كان الأمريكيون على وعى بما هو واقع ، وقد استفزتهم الحركات الأخيرة الى الغضب والسخط . وكيف يمكن لبريطانيا أن تشرع في حربها النفسية وفي القاء قنابلها للطاحنة بعبد الناصر كإجراءات تمهيدية لغزو مصر ، متجاهلة الامم المتحدة كل التجاهل ، إذا كان عبد الناصر ، سيرضى مدعنا بوقف إطلاق النار وباحتلال الدولتين الفرييتين لمنطقة القناة ؟

كان ايدن على يقين من أن عبد الناصر سيرفض أى انذار انكليزى - فرنسى مهما كانت شروطه وعباراته . وكان يتوقع أن يستمر القتال بين مصر واسرائيل اياما عدة . وعلى هذا الافتراض ، تصور ايدن أن الفرصة ستتاح للاسرائيليين للتوغل داخل سيناء حتى يصلوا الى ضفاف القناة . فلماذا إذن يكلف نفسه عناء الطلب منهم الانسحاب سلفا الى مسافة عشرة أميال من القناة ؟ لقد كان الوقت فسيحا أمامه لتوجيه هذا الطلب فيما بعد ، أى عندما تحين ساعة المرحلة الثالثة من خطته ، وهى النزول الفعلى فى أرض مصر عن طريق القوات الانكليزية - الفرنسية . وكان فى وسعه أن يحقق هدفه هذا سرا ، عن طريق الاتفاق خفية مع الاسرائيليين ليعلموا عند اقترابهم من القناة أنهم « أخذوا فى توطيد مراكزهم » على بعد عشرة أميال من القناة ، وهى خطوة عسكرية عادية . وإذا كان تفكير ايدن منصرفا الى السماح لاسرائيل باحتلال سيناء كلها ، والاحتفاظ بها ، فقد كان فى وسعه أن يحقق هذا الهدف دون أن يعلن الى العالم الدعوة التى وجهها الى اسرائيل لتحقيق ما يريد .

اذن ما الذى حمل ايدن على اقحام طلب الانسحاب فى الانذار ؟ ان ما نواجهه من صعوبة فى هذا التحليل ، يتلخص فى أننا نحاول اضاء صفة المنطق على « اللامنطق » ، وهو ما تميزت به وجهتا نظر كل من ايدن وبن جوريون .

وقد سبق لى أثناء تحليلى للانذار فى مجلة « السبكتاتور » قبل أن يصدر ايدن مذكراته أن قلت ان هناك دلالة ضخمة بارزة ، على أن وثيقة الانذار ، تبدو اذا ما حلت كلمة كلمة ، كشيء أعد سلفا ليعالج وضعاً مغايراً تمام المغايرة للوضع الذى صدر الانذار لمعالجته ، وهو وضع كان ايدن يتوقع ظهوره بعد انقضاء فترة من التناقل الزمنى . من الواضح أن ايدن كان يتوقع وصول القوات الاسرائيلية الى القناة ، مما يخلق خطراً فورياً على الملاحاة فيها من جراء تبادل إطلاق النار فوقها ، وهنا تتاح له المبررات لحمايتها ، « والفصل بين المتحاربين » ، وتكون الحجة التى أوردها فى الانذار منطقية تمام المنطق ، ويصبح التدخل الانكليزى - الفرنسى بسبب ما يتصوره من انشغال أيزنهاور فى انتخاباته ، أمراً معقولا بالنيابة عن العالم كاحراء ضرورى وسريع . ومثل هذا الوضع حرى بالآ يظهر وجود أى تواطؤ بين ايدن واسرائيل ، كما يحقق لاسرائيل هدفها فى نسبة « الانتصار » الى قواتها ، ويتيح

لبن جوريون الفرصة للموافقة على التدخل ، بالنسبة الى حدود اسرائيل الغربية ، الجديدة . وهكذا يكون الانذار في صيغته وعباراته كلها ، وثيقة صالحة لمعالجة هذا الوضع . ومن هذا يبدو ، ان الانذار قد وضع من قبل ، وقبل الثلاثين من أكتوبر ، لمعالجة وضع خطط له ان يقوم ، ولكنه لم يكن قد قام فعلا ، عندما صدر الانذار .

رواية ايدن الجديدة :

ويعيدنا هذا الاستنتاج الى مذكرات ايدن نفسها ، والى ما حاول هو قوله فيها مبررا انذاره . فلقد ذكر الآن ان شروط الانذار قد وضعت من قبل ، أى فى الخامس والعشرين من أكتوبر ، وبينهما بالطبع شرط الانسحاب . ولعل هذا هو السبب الذى دفعنى عندما اقتبست هذه الفقرة الى القول بأنها كانت من أهم البيانات التى صدرت عن قناة السويس . ويحاول ايدن ان يمر بهذه النقطة مر الكرام ، وان لا يضع عليها أى توكيد معين . بل يجعلها فقرة من ألوف الفقرات التى وردت فى كتابه ، ليبدل القصة كلها . فلقد ظل هو ووزراؤه يزعمون باصرار طيلة عام ١٩٥٦ ، كما ظل زملاؤه الذين واصلوا الحكم بعد تنحيته يدعون ابان المعركة الانتخابية التى جرت فى أكتوبر عام ١٩٥٩ ، ان الانذار اجراء طارئ أملتته الضرورة ، وقررتة فى الثلاثين من أكتوبر لمواجهة الانباء المفاجئة التى حملها ذلك اليوم .

وجدير بنا ان نلاحظ ان ايدن على الرغم من هذا التبدل الهائل فى موقفه لم يعترف بالتواطؤ مطلقا . وان كان لم ينفه ، مكتفيا بتجاهله واهماله . وكان كل ما اراد التأكيد عليه الآن ، ان حكومته تميزت بالتبصر وحسن الفطنة ، فأعدت بدقة متناهية ، الانذار الذى وجدت ان من المحتم أن تصدره ، فيما اذا قامت اسرائيل بالهجوم على مصر . وهكذا يعترف ايدن بأن وثيقة الانذار قد أعدت سابقا ولكنه لا يعترف أنها أعدت لمواجهة وضع مختلف كل الاختلاف عن الوضع الذى صدرت فيه . فهل هذا الاعتراف الرواية التى يوردها أقرب الى العقل يا ترى ؟

وهكذا نجد أن ايدن يحاول أن يقول لنا فى مذكراته ان مجلس الوزراء ، قرر قبل أربعة أيام من وقوع الهجوم الاسرائيلي ، أن يصدر الأمر الى قوات مصر وقوات اسرائيل ، فور هجوم الاخيرة ، بالانسحاب من منطقة القناة ، ووقف اطلاق النار . ولكن هناك حقائق جغرافية وسوقية (استراتيجية) يجب تدوينها الآن قبل أن نمضى فى تحليلنا . فالحجوم الاسرائيلي يعنى ان قوات اسرائيل ستعبر خطوط هدنتها مع مصر ، وتبعد هذه الخطوط نحواً من مائة وخمسين ميلاً عن قناة السويس . ويعنى الوصول الى القناة ان على قوات اسرائيل أن تقطع هذه المسافة البعيدة عبر صحراء سيناء . زاحفة على طرق صحراوية وعرة ، ومقاتلة نحواً من ثلاثين ألف جندي مصري ، ومهاجمة بكل ما تتطلبه القوات من معدات موسوقة للقتال والمعارك . ولا ريب فى أن وزارة الحربية فى لندن ، كانت أكثر معرفة بهذه الحقائق من أية هيئة عسكرية أخرى ،

إذا استثنينا القيادتين المصرية والإسرائيلية . وتضم هذه الوزارة عشرات الخرائط التي تم إعدادها لشبه جزيرة سيناء على أيدي الخبراء بصورة متكرزة ، وبكل ما في المواقع الأرضية من تفاصيل ، منذ استعداد الجنرال النبي للزحف شرقا عبر سيناء إلى فلسطين التي كان يحتلها الأتراك في الحرب العالمية الأولى . وقد تولى المهندسون البريطانيون في تلك الفترة الطويلة شق ما في هذه الصحراء من طرق وإصلاحها بصورة مستمرة .

ولكن على الرغم من كل هذه الحقائق ، نجد أن قصة السير انطوني الهادئة ، والتي يصفى عليها الكثير من الوقار والجِد ، تحاول أن تقنعنا ، بأنه هو وزملاءه ، تبصروا منهم بما سيقع قبل وقوعه ، وأدراكا منهم لما يجب أن يفعلوه فوراً ، إذا هاجمت إسرائيل مصر ، قد قرروا أن قوات إسرائيل يجب أن تكون عند القناة في الوقت الذي يتحتم عليهم هم والفرنسيون أن يبادروا إلى العمل العسكري . وهكذا نرى أن أيدن يحاول اقناعنا . على الرغم من هذه المسافات الشاسعة التي كان يتحتم على قوات إسرائيل وهي وحدات عسكرية كاملة لا مجرد سيارات سباق خلوية ، وعلى الرغم من وعورة الطرق التي ستسير عليها في الصحراء ، ومن المقاومة المصرية التي يتحتم عليها أن تقهرها في طريقها ، بأن الإنذار الذي توصل إليه والذي يطلب سحب القوات الإسرائيلية من القناة التي لم تصلها والتي لم يكن في إمكانها أن تصل إليها بمثل هذه السرعة الهائلة ، هو خير خطوة لمعالجة الموقف الذي كان قائماً آنذاك .

لم يسبق أن صدرت مثل هذه السخافات التي لا يمكن فهمها ، في مثل هذا الوقار الذي اصطنعه أيدن ، عن أي رئيس وزراء عاقل . في بيان رسمي يصدره . ونو شئنا أن نبسط الصورة للقارئ الإنكليزي ليفهمها ، لقلنا إن ما يريد أيدن اقناعنا به ، هو تماماً كأن نقوم واشنطن . وهي في حالة قلق من وقوع هجوم الماني على بريطانيا ، بانخاذ قرار سابق على ذلك ، بأن تصدر «فور» سمائها . بمغادرة أسطول الغزو الألماني سواحل أوروبا متجهاً إلى بريطانيا ، إنذاراً للقوات الألمانية ، بالانسحاب من شوارع لندن .

ويحاول أيدن شرح المخاوف المحددة التي أحس بها مجلس الوزراء البريطاني من توقع الهجوم الإسرائيلي ، فيقول أنها انطوت على القلق مما قد يحل بقناة السويس من أضرار بسبب العمليات الحربية . ومن انتشار الصراع ليشمل الدول العربية الأخرى . ولكنه من الناحية الأخرى يريد منا أن نصدق بأنه هو وزملاءه ، رأوا من المناسب لحماية القناة من الضرر ، أن يضعوا صيغة إنذار سابق ، يطلب من إسرائيل وقف إطلاق النار والانسحاب ، إذا كانت قواتها قد وصلت فعلاً إلى القناة . لكن أيدن لم يضع أية اشتراطات أو قيود في الوصف الذي يقدمه إلينا . وليس في قصته ما يوحي بأن الوزارة البريطانية قد درست أية احتمالات أخرى للوضع العسكري ، إذ أنها لم تر ما يدعوها إلى هذا الدرس . وكل ما فعلته هذه الوزارة ، أنها قررت في الخامس والعشرين من آذار «مارس» ، ما يجب أن تفعله الدولتان الخليفتان ، بريطانيا وفرنسا ، عندما تحين ساعة

العمل الفوري • دون تفكير فى حقيقة ما سيكون عليه الموقف العسكرى بالنسبة الى اسرائيل فى ذلك الوقت •

وحرى بنا أن نسبر غور ما فى قصة ايدن من غرابة مذهلة طويلة الوقت • فهناك أولا ، مجلس وزراء ، يفكر سلفا بما قد يقسح من جراء هجوم اسرائيلى يخشى وقوعه • ومن المفروض فى مثل هذه الحالة • وطبقا لابسط قواعد المنطق ، أن يدرس هذا المجلس مدى السرعة التى ستتصل إليه فيها أنباء المباشرة بالهجوم • ومن المفروض أيضا بالنسبة الى الوضع هذا ان تصل إليه الانباء بسرعة هائلة ، اذ أن صـ.حـرـاء سـيـنـاء ليست من مجاهل الهيمالايا البعيدة عن كل اتصال سريع بما تبقى من أرجاء العالم • وبالإضافة الى احتمال صدور بيان اذاعى من اسرائيل باعلان الحرب ، والى احتمال صدور بيان اذاعى مماثل من مصر فور تلقيها الانباء اللاسلكية الاولى ، من مراكز حدودها الامامية ، كانت هناك فرق المراقبين الدوليين المرابطة على الحدود والمجهزة بآلات الارسال اللاسلكى المباشر • وفى مثل هذه الحالة يكون فى امكان مجلس الوزراء • وهو الواقع تحت سيطرة الخوف من الخطر على القناة ، أن يتوقع تلقى الانباء بعد مضي بضع ساعات من عبور القوات الاسرائيلية الحدود المصرية • فلما اذن نكون ثمة حاجة الى انذار « فوري » يأمر بالانسحاب من مسافة تبعد مائة وخمسين ميلا عن الحدود التى تم اجتيازها قبل بضع ساعات فقط ؟ ولماذا لا يعد مجلس الوزراء هذا ، العدة لتوجيه انذار آخر يأمر اسرائيل بسحب قواتها الى ما وراء حدودها ، مهما كانت المسافة التى قطعتها عند تلقيها الانذار • كان هذا الطلب بالفعل ، هو ما تضمنه مشروع القرار

الذى قدمته الولايات المتحدة الى مجلس الأمن • ولا ريب فى أن الحكومة الأمريكية وضعت صيغة قرارها وأبرقت به الى سفيرها فى لندن الذى تولى عرضه على سلوين لويد فى الساعة التاسعة والنصف من صباح الثلاثين من اكتوبر • ومثل هذا الاجراء ، ولا شك ، هو العمل المنطقى السريع والاصيل لوقف النزاع • وبالتالى لحماية القناة من الخطر • • ومنع انتشار الحرب الى الدول العربية الاخرى ، وهى الاهداف التى ادعى ايدن أنها وجهت حكومته فى اتخاذ قرارها باصدار الانذار •

ويبرز هنا ثانيا سؤال آخر • اذ لو كان صحيحا ما ادعاه ايدن من أن حكومته ، تبصرا منها بما يجب عمله فورا فى حالة هجوم اسرائيل ، قد قررت هنا بالاتفاق مع فرنسا اصدار هذا الانذار منذ أربعة أيام ، لماذا تقاعست بريطانيا وفرنسا عن اصداره عشية التاسع والعشرين من اكتوبر أى بعد صدور البلاغ العسكرى الاسرائيلى الاول فى الساعة التاسعة مساءً ؟ ولماذا التأجيل المطلق اذا صبح ان الغاية من الانذار ، كانت العمل الفوري لحماية القناة ووقف الحرب والحيلولة دون امتدادها ؟

وهناك ثالثا تساؤل آخر ، سنعود اليه حتما فيما بعد ، وهو لماذا لم تقم حكومة ايدن ، اذا صبح ادعاؤها بأهداف هذا التبصر البعيد النظر ، بتبادل الراى مع أيزنهاور فى السادس والعشرين من اكتوبر بصدد هذه الاجراءات الوقائية التى أقرتها فى الخامس والعشرين منه ؟

أرى أن من مضيعة الوقت أن نقول أكثر مما قلناه حتى الآن في عرض هذا الجانب الخاص من رواية ايدن الجديدة على حقيقته ، وأن ننتقل منه الى البحث في ما صدر عنه من أقوال أخرى . ويبدو لي أنه وهو يخط هذه الفقرة الغريبة في مذكراته عن قرارات وزارته في الخامس والعشرين من أكتوبر ، قد أدرك أنها ستثير الدهشة عند الكثيرين . فهد يحاول على الفور أن يواجه هذه العقبة التي قامت أمامه ، وأن يزيل من نفوس القراء ما قد يثور من شكوك اذ يقول . .

« وقد تساءل النقاد لماذا نزلنا في منطقة بعيدة عن ميدان القتال ؟ والرد على هذا هو أن النزول في أية منطقة غير تلك التي سبق تحديدها في الخطة الأولى كان سيؤدي الى التأخير حتما ، ولم يكن في وسعنا أن نسمع بأي تأخير . يضاف الى هذا أننا كنا نعاني نقصا في معدات الانزال وكان علينا أن نستعمل أحد الموانئ لهذه الغاية » .

ولكن ايدن يناقض في قوله هذا قصته كلها بحذافيرها، وهي الفصة التي تركزت على أن النزول لم يكن بعيدا عن منطقة القتال ، بل كانت في المنطقة التي كان القتال يدور فيها وهي منطقة القناة . وهو يطلب منا في مكان آخر ، أن نفتتح بأن الانذار الذي تمت صياغته في الخامس والعشرين من أكتوبر ، ظل صالحا للعمل في الظروف التي وجدت فعلا في الثلاثين منه . ويمضي بعد ذلك فيقول . . انه كان من الضروري بعد وصول أنباء الهجوم الاسرائيلي الى لندن ليلة التاسع والعشرين من أكتوبر ، التثبت من جميع الحقائق المتعلقة به . ويكفي أن نلاحظ هنا تعليقا على قوله هذا، بأنه لم تكن ثمة أية حقائق تتطلب التثبت ، لو كان ايدن صادقا في أهدافه ، سوى أن القوات الاسرائيلية قد تخطت الحدود ، وهو أمر كان ايدن يعرفه حق المعرفة . ومع ذلك فهو يقول ان « القيادة البريطانية قامت بعمليات الاستكشاف عند الفجر صباح الثلاثين من أكتوبر لالتقاط بعض الصور للقوات المتحاربة وتحديد مواقعها ان أمكن » .

ثم يقول : « وتلقى مجلس الوزراء صباح الثلاثين من أكتوبر أن القوات الاسرائيلية وصلت الى نقطة تقع في منتصف الطريق بين الحدود والاسماعيلية ، وقيل ان قوة اسرائيلية ثانية كانت تشق طريقها نحو السويس . . وكان هذا هو الموقف الذي بحثه مجلس الوزراء قبل خمسة أيام » .

وقد يصعب على المعلق الغاضب على هذا الاختلاق الصارخ، أن يمتنع عن القول ، بسلامة منطق ايدن في هذه الفقرة ، لو أنه كان صادقا فيما رواه منها ، ولكن السير انطوني مدفوعا بحرصه على أن يقدم كل تفصيل ممكن لما حدث قد حطم أي «منطق» أو «شبه منطق» في قصته التي رواها في عام ١٩٦٠ ، اذ لم يكن في وسع أية طائرة من طراز كمبيرا أو غير كمبيرا طارت فجر الثلاثين من أكتوبر ، أو أي شخص وقف على رمال

سيناء فى ذلك الصباح ، أن يحدد مواقع القوات الاسرائيلية فى المكان الذى حدده ايدن ، لانها لم تكن فى ذلك المكان أبدا ، وهو يذكر أن قوة اسرائيلية كانت تشق طريقها نحو الاسماعيلية ، وقد وجدت هذه القوة بالفعل ، ولكنها فى فجر الثلاثين من اكتوبر لم تكن فى المكان الذى زعم ايدن أن طائرات الكميرا قد صورت وصولها اليه ، بل كانت واقفة فى مواقعها التى لا تبعد أكثر من عشرة أميال داخل حدود سيناء فى نقطة تسمى أبو عجيلة ، وذلك بسبب المقاومة المصرية العيفة التى واجهتها . . ولم يكن فى وسع طائرات الكميرا أن تحدد مواقع الاسرائيليين فى منتصف الطريق الى الاسماعيلية الا بعد يومين ونصف اليوم من ذلك التاريخ (١) ولم يكن فى الامكان أن يقع المسئولون فى خطأ فى تفسير الصور التى التقطها الطيارون ، اذ أن نقطة الوسط بين الحدود والاسماعيلية واضحة كل الوضوح من الجو ، اذ تبدأ منها مرتفعات أرضية لا يمكن أن تغيب عن الصورة أو العين .

ويشير ايدن الى قوة أخرى ، كانت تريد الاندفاع باتجاه السويس فى فجر الثلاثين من اكتوبر ، كان هناك فوج معزول من المظليين يعد نحواً من أربعمئة جندي ، يخندق فى مواقعهم ، وقد صدرت اليه الأوامر بالأى يحاول حتى الاتجاه من المكان الذى هبط اليه فى مضيق « المتيلة » والواقع على بعد أربعين ميلا الى الشرق من السويس حتى تصل اليه النجذات . ترى هل كانت هذه هى القوة الثانية التى عنها ايدن ؟ ليس من الممكن أن تكونها ، اذ أن هذه القوة ظلت طيلة صباح الثلاثين من اكتوبر ولعدة ساعات تلت ، خافية على عيون الطائرات من جراء الضباب الذى خيم فوقها ، والذى حجبها عن عدسات الطائرات التى تحلق فوق ارتفاع عال . أما النجذات التى وعدت بها ، فكانت فى تلك اللحظة مبعثرة فوق مساحة واسعة لا تتجاوز النقطة الأمامية منها فى بعدها عن الحدود الخمسين ميلا ، وكانت طلائعها مختفية بين أكواخ وأشجار واحة « ثامد » ، أما بقية اللواء فتخوض فى الرمال الى الخلف وقد توزعت على مساحة واسعة ، ولم تتجمع هذه القوات عند « المتيلة » الا فى الساعة العاشرة والنصف من مساء الثلاثين من اكتوبر بينما زعم ايدن أن هذه القوات قد عززت بسرعة ، ولكن مالبث اللواء بكامله أن واجه قتالا عنيفا وعنيذا من القوات المصرية التى تحركت الى المنطقة بحيث تحطمت قواه ولم يستطع التقدم شبرا واحدا طيلة الأيام التى تلت حتى مساء الثانى من نوفمبر .

ولكن السير أنطونى ايدن ، رئيس وزراء بريطانيا ، يقف بعد ظهر

(١) اذا صبح أن القوات الاسرائيلية قد وصلت الى تلك النقطة ، بعد يومين ونصف من ذلك التاريخ ، فذلك ناجم عن انسحاب القوات المصرية الذى بدأ فى الثلاثين من اكتوبر بعد أن تبينت للرئيس عبد الناصر حقيقة المؤامرة الثلاثية مما دعاه الى اصدار الأمر للقوات بالانسحاب الى غرب القناة تجنباً لوقوعها فى الشرك الذى نصبته دول العدوان الثلاثى لها .
- العرب -

الثلاثين من اكتوبر ، فى مجلس العموم ، ويقول فى منتهى الجد والوقار ان القتال كان يدور فى تلك الساعة فى نقاط «قريبة» وقريبة جدا من القناة ، بل لعله يدور فى القناة نفسها . وهو قول لم يصبح حقيقة الا بعد أربعة أيام عندما أصبحت القوات الاسرائيلية تطل على القناة بعد انسحاب القوات المصرية تنفيذا لأوامر قيادتها العليا ، ولا شك أن ايدن فى قوله هذا ، كان أكثر اغراقا فى التفاؤل من الاسرائيليين أنفسهم ، إذ أن خطة القيادة الاسرائيلية نفسها كانت تقوم على أساس افتراض الوصول الى القناة فى غضون ثلاثة أيام ، ترى هل هناك من داع الى المزيد فى الايضاح ؟

ولكن ما الذى حدث حقا ؟

لسنا فى حاجة الى المضى مع ايدن فى مذكراته ، فكل ما فيها أحاديث لا ينطبق عليها أى منطق ، هذا اذا أردنا الاعتدال فى وصفها ، كقوله مثلا فى قصته التى يحاول استدرار الدموع بها ، ان الوقت لم يتوافر للحكومة للتشاور مع واشنطن أو مع مجموعة الشعوب البريطانية مع أنه هو يعترف أن الحكومة قد وقعت تحت سيطرة الخوف والقلق قبل بدء الهجوم الاسرائيلي بأربعة أيام ، أو كانفجاره الغاضب والفجائى بعد أن انتهى كل شئ معربا عن الله ، فى افشاء كل ما أحاط بحملة جواتيمالا من أسرار ، ولكن مازال أمامنا واجب تقرير حقيقة ما حدث ، فكل ما فعلناه حتى الآن هو أن نظهر بأن الانذار لم يكن متفقا مع الحقائق ، ولا مع ضرورات اسرائيل وضرورات ايدن نفسه ، وانه أعد مسبقا - وهو ما اعترف به ايدن أخيرا - وانه كان يقصد معالجة وضع مختلف كل الاختلاف - وهو ما يحاول ايدن حتى الآن اخفائه - ولكن ترى ماهو هذا الوضع المختلف ؟ وما الذى حدث حتى انقلبت الخطة رأسا على عقب ؟ ولماذا صدر الانذار فى شكله الاصلى فى الثلاثين من اكتوبر ولم يتبدل بتبدل ماوقع من تطور ؟

هناك افتراض واحد ، وقد يكون أكثر من مجرد افتراض ، ولكن الوثائق التى تثبت تعديه هذه المرحلة لم تتوافر لاي كاتب حتى الآن ، وهذا الافتراض هو الذى يفسر دون سواء تسلسل الاحداث على النحو الغريب الذى وقعت فيه ، وليس ثمة من شك فى أن التواطؤ كان قائما . فلقد عرف ايدن وزملاؤه طيلة الوقت ، واطلعوا بالتفصيل منذ السادس عشر من اكتوبر على حقيقة ما تعتزم اسرائيل فعله ، وراحوا يعدون مع زملائهم الفرنسيين خطة تغالى فى عنايتها بكل التفاصيل حتى التافه منها لاستغلال الهجوم الاسرائيلي (١) . وقام الفرنسيون طيلة الوقت بدور

(١) هناك أدلة كثيرة أخرى تثبت هذه الحقائق وقد يكون المضى فى سردها مملا للقارئ ، فمثلا ألفت الطائرات البريطانية فى الواحد والثلاثين من اكتوبر منشورات باللغة العربية على مصر تشير بوضوح الى «الهجوم الاسرائيلي» فلو صح ما ادعاه ايدن ، بأن أنباء هذا الهجوم لم تكن أكثر من مجرد «تخوف» يسود لندن حتى ساعة متأخرة من ليلة التاسع والعشرين فكيف كان فى الامكان اعداد هذه المنشورات والموافقة =

الوسطاء ، ولكن ليس دائما وباستمرار ، فقد عرف أن موسى ديان القائد العام للقوات الاسرائيلية والذي تولى شخصيا قيادة حملة سيناء ، قام بزيارة لندن في شهر اكتوبر ، وقضى وقتا لا بأس به في وزارة الحرب البريطانية ، وكانت الخطة كما يبدو على النحو التالي :

الخطة الرئيسية

٢ نوفمبر - الجمعة - يوم عطلة عند المسلمين ، يميل فيه المسلمون الى الراحة والتراخي ، وتبدأ في نفس اليوم آخر عطلة أسبوع محمومة في حملة الانتخابات الامريكية ، تقرر أن يبدأ هجوم اسرائيلي في ساعات الصباح الباكر ، وأن يستمر منفردا حتى الخامس من نوفمبر .

٥ نوفمبر - يكون القتال مع القوات المصرية قد اقترب من القنساء مهددا حرية الملاحة فيها ، يصدر الانذار البريطاني الفرنسي المشترك طالبا الى الفريقين الانسحاب الى مسافة عشرة أميال من القناة ، والى مصر قبول الاحتلال البريطاني الفرنسي المشترك للقناة ، سيكون ايزنهاور عاجزا عن القيام بأي اجراء ، وترفض مصر بالطبع هذا الانذار .

٦ - نوفمبر - يوم الانتخابات في الولايات المتحدة ، ينتهي الآمد المضروب في الانذار المشترك ، وتبدأ الطائرات البريطانية والفرنسية ضرب مصر بقنابلها ، تبحر القطع البرمائية من مالطة في الطريق الى مصر التي تصلها بعد ثلاثة أيام عند بور سعيد ، يدخل المظليون في الصورة ، يشتد الاضطراب في الميدان الدولي ، يدخل نوري السعيد الى الأردن في قوات كبيرة .

٧ نوفمبر - يتظاهرايدن وموليه بالعمل على فصل الفريقين المتحاربين عن بعضهما ، يجتمع مجلس الأمن ولكنه لايتخذ أي اجراء حاسم ، ولا تتوافر لأغلبية لمعارضة نزول المظليين الانكليز والفرنسيين في منطقة القناة .

١٠ نوفمبر - يبدأ الغزو البرمائي الكامل . اما أن يمضي عبد الناصر أو تأسره قوة ضاربة تتجه الى القاهرة ، يواجه العالم بالأمر الواقع .

★ ★ ★

هذا هو التوقيت الزمني للخطة ، ويبدو الانذار المشترك على صموء هذا التوقيت معفولا كل العقل ، فما الذي حدث ، وقلب الخطة والتوقيت معها . .

= عليها ، وصوغها بالأحرف العربية ، ثم طبعها بكميات هائلة تبلغ مئات الألوف وفي صور مختلفة ، ثم اعدادها في مطارات قبرص قبل الواحد والثلاثين ، أي في مثل هذه الساعات القليلة ؟ ولماذا رفض ايدن الاشتراك مع ايزنهاور في توجيه تحذير لاسرائيل في الثامن والعشرين من اكتوبر تنفيذاً لاقتراح رسمي وعاجل من الرئيس الامريكي

- المؤلف -

أولا ، وقبل كل شيء تحركت اسرائيل قبل الموعد المقرر ، وقد اضطر بن جوريون الى ذلك مدفوعا بثلاثة اعتبارات :

أولها - الخوف من أن يتدخل ايزنهاور على الرغم من انشغاله في الانتخابات .

وثانيها - الخوف من أن تؤدي الحطة كلها الى حرمان اسرائيل من «الانتصار المستقل» الذي تريده لنفسها .

وثالثها - ماغمره من ارتياح لادراكه أن احداث المجر وثورتها في الخامس والعشرين من اكتوبر ، خلقت وضعاً جديداً قد يشغل ايزنهاور وايدن فترة طويلة .

وهكذا بدأت اسرائيل تعبئة قواتها في الخامس والعشرين من اكتوبر ، وعرف الفرنسيون بالطبع بأمر هذه التعبئة ، كما عرف ايدن بها أيضاً ، ولكن ايدن -وهو الرجل المريض للغاية- منذ أن فاجأته الحمى بشكل فائق للعادة في مطلع اكتوبر بات أسير الهواجس والشكوك ، فهو لم يمتز في طريق مغامرته هذه بالاتفاق مع اسرائيل وهو مرتاح الضمير فالحوافز التي تدفعه كلها ، وكيانه العاطفي وأعصابه المجهدة ، كلها من النوع الشاذ وغير العادي ، وعندما اقترب «صريف الاسنان» وهي العبارة التي استخدمها هو في مذكراته ، كان قد بات نهبا للشكوك والتردد ، فلقد تمكن المستر همرشولد ومعه دالاس ورجال الوفد الهندي والدكتور محمود فوزي في الثاني والعشرين من اكتوبر ، من التغلب تماما على جميع العقبات التي وضعها ايدن وموليه قبل عشرة أيام في طريق الوصول الى تسوية ، وأغرقت الصحف بالمقالات والانباء المتفائلة التي تعارض استخدام القوة أو اللجوء اليها ، وهاهي ذي المجر تبرز الآن ماثلة أمام العيان . يضاف الى هذا أن الانتخابات الامريكية لم تشغل ايزنهاور وحكومته ، وهاهي واشنطن تسأل لندن كل يوم عن الاسباب التي تحول دون تشاورها معها ، وعما يدور في الخفاء ، وتحذرنا من أي حيل وأعداء «واهية باطلة» ، ولكن ايدن قد التزم ، وكانت العملية الانكليزية-الفرنسية المشتركة قد مضت في طريق التأهب والاستعداد . ولا ريب في أن هذا الجهد المربع الذي عاناه هذا الرجل المريض في تلك الايام الاخيرة ، قد أوصله الى صعدان خطيرة . وهكذا مضى ايدن الى معركتي سيناء والسويس وهو في أسوأ أوضاع يمكن لانسان أن يصل اليها .

وكان الفرنسيون يعرفون هذه الحقائق كلها ، ويعرفون أيضاً ، أنه بعد الخامس والعشرين من اكتوبر ، ستزداد حدة تردد ايدن بعد أن تصل اليه أنباء تقديم اسرائيل لموعده الساعة الصفر بالنسبة الى هجومها ، وظل الفرنسيون يتصلون به عن طريق الهاتف يوميا ليعثوا في نفسه الثقة والطمأنينة وقرروا أن لايفزعوه أكثر فأكثر بإبلاغه ماطلبه الاسرائيليون من غطاء جوى فرنسي لحملتهم . ومن هنا يظهر أن ايدن كان صادقا عندما نفى

في العشرين من ديسمبر معرفته بهذا الغطاء الجوي ، اذ أن هذا الموضوع لم يكن نتيجة «قرار بريطاني - فرنسي مشترك ومسبق» .

واتخذ الفرنسيون قرارا آخر ، كبير الأهمية ، وهو أن التوقيت الأصلي للخطة الانكليزية - الفرنسية المشتركة لم يعد صالحا ولا آمينا حتى ولو قدم موعده مع ابقاء مراحل على ما هي عليه للتوافق مع التاريخ الاسرائيلي الذي قدم موعده ، وقرر الفرنسيون ان لا معنى لأي تسوية بعد بدء الهجوم الاسرائيلي أو لأية فترة قبل البدء بالعملية البريطانية - الفرنسية المشتركة ، هذا اذا كان المطلوب أن يحافظ ايدن على كلمته ، واذا كانت الغاية الاطاحة بعبد الناصر والوصول بها الى النهاية ، وخشى الفرنسيون أن ينهار رئيس الوزراء البريطاني المريض في الفترة الواقعة بين الهجومين ، وأن يفقد ارادته ، أو يخضع لواشنطن أو لأي ضغط قد يتعرض له من بعض زملائه فيعدل عن تنفيذ العملية كلها .

وكان موليه وبينو في توصلهما الى هذا القرار متأثرين أشد التأثير بعامل آخر ، وهو ضغط العسكريين الفرنسيين ، فلقد كانت فرنسا الجمهورية الرابعة في ذلك الحين قريبة من مرحلة الحكم الذي يقوم على التكافؤ بين ضدين ، هم السياسيون والعسكريون (١) . وكان العسكريون قد استهوتهم الفكرة القتالية أخيرا ، ودفعهم حماسهم لها الى الشك في نيات الوزراء ، ولذا باتوا يلحون على موليه بوجوب الاسراع الى العمل ، بنفس القوة التي كان فيها هذا يلح على زميله ايدن ، وظلوا يتحرقون ارما وغيظا مدة ثلاثة أشهر طوال ، من هذا الحذر الذي تبديه بريطانيا ممثلة بساستها وعسكرييها ، وراحوا يندرون موليه ، بأن من الواجب وضع حد لهذا التردد . . والا ، وهكذا اتخذ القرار القدرى بأن يطلب موليه الى ايدن المبادرة فورا الى العمل ، دون انتظار الفترة بين الحركتين الاسرائيلية ، والانكليزية الفرنسية ، كما كان متفقا عليه من قبل .

ولكن موليه وبينو لم يبحثا موضوع هذا القرار الجديد من قبل لامع بن جوريون ولا مع ايدن . وعندما وافقا على طلبه تزويد اسرائيل بما تريده من غطاء جوي ، اقترحا عليه أن يضمن بلاغه الحربى الأول ، اشارة الى قناة السويس ، تفيد منها فرنسا في حركتها المقبلة ، وأبلغاه في الوقت نفسه انهما لن يبدلا شيئا من الخطة السابقة ، ويواصل العمل بموجبها ، أى بعد انقضاء الفترة المقررة .

(١) وضعت الدوائر العسكرية الفرنسية في الثاني والعشرين من اكتوبر بدون علم من موليه خطتها المنطوية على الخديعة والرامية الى الامساك بقيادة الجزائر المجاهدين الذين كانوا يطهرون للاشتراك في محادثات تهدف الى السلام تحت اشراف ملك المغرب ، وقد ألهمت هذه الخدعة مشاعر العرب في كل مكان ، وهو ما كان الفرنسيون يهدفون اليه ، وكانت أيضا بمثابة تحذير الى موليه الذي لم ينس قط ما أصابه من اهانة في الجزائر عندما قذفه المستوطنون الفرنسيون فيها بالطماطم أثناء زيارته لها في السادس من فبراير عام ١٩٥٦ .

— المؤلف —

وهكذا مضى بن جوريون وزملاؤه فى تنفيذ الحطة كما كان مقررا لها من قبل ، دون أن يبلغوا بقية أعضاء الوزارة بما يعتزمونه الا فى الثامن والعشرين من اكتوبر ، وهو ما اعترف به بن جوريون نفسه فى مجلس الكنيست فى الثانى من ابريل عام ١٩٥٧ .

وتوصل الفرنسيون أيضا فى هذه الساعات الأخيرة التى سبقت الحرب الى قرار آخر ، قدر له أن يكون فى منتهى الأهمية والخطورة ، فقد تلقوا فى الثامن والعشرين من اكتوبر اقتراحا من الرئيس ايزنهاور الذى أفرغته الأنباء التى تلقاها عن اعلان التعبئة العامة فى اسرائيل يطلب فيه منهم ومن ايدى اصدار تحذير أمريكى - بريطانى - فرنسى مشترك ، الى بن جوريون ، وقضى شركاء أمريكا فى البيان الثلاثى لعام ١٩٥٠ من بريطانيين وفرنسيين طيلة الثامن والعشرين والتاسع والعشرين من اكتوبر وهم يراوغونها ويتحايلون عليها للخلاص من هذا الطلب ، بينما واصل سلووين لويد بعث الطمأنينة فى نفس السفير الأمريكى فى لندن ، مؤكدا له أنه لا عظم نه مطلقا بما يدعو الى القلق ، واتضح فى باريس الآن ، ان ايزنهاور سيوجه فى اللحظة التى تبدأ فيها اسرائيل هجومها ، دعوة الى مجلس الأمن للاجتماع فورا ، وقررت فرنسا أن تستخدم الفيتو فى المجلس أمر ضرورى للغاية . ولكن هذا القرار الخطير لم ينقل الى ايدى أيضا ، اذ أن فرنسا لم تكن راغبة فى أن تزيد من حدة الحالة ، العصبية التى يعانى منها حتى اللحظة الأخيرة ، ومن هذا يتبين أيضا أن نفى ايدى فى العشرين من ديسمبر لموضوع الفيتو ، كان صحيحا أيضا .

وطار موليه وبينو الى لندن صباح الثلاثين من اكتوبر وقد صمما على أن يحملا بريطانيا على القيام بالعمل الكلى الشامل فورا ، وقد نقلا الى ايدى قرار فرنسا باستخدام الفيتو ضد مشروع القرار الأمريكى فى مجلس الأمن الذى كانت الحكومتان قد تلقيا تفاصيله ذلك الصباح ، وراحا يؤكدان لايدى أن خطوتهما لن تجدى فتىلا ، اذا كانت فرنسا وحدها . هى التى ستلجأ الى استخدام الفيتو ، فلقد حملت الحكومتان صـورة الحليفين فى الشرق الأوسط أمام العالم كله ، وقد رصدت مئات الملايين من الفرنكات للحملة المشتركة ، ولا يمكن للرأى العام الفرنسى أن يسمح لبريطانيا بوقوفها موقفا متعارضا مع فرنسا فى الامم المتحدة .

وجدير بنا أن نذكر أن الرسالة التى حملها العقيد هنريكس فى منتصف شهر سبتمبر ، من الوزير البريطانى قد أوضحت لبن جوريون أن بريطانيا ستجد نفسها مضطرة لاستنكار الهجوم الاسرائيلى بشدة أمام العالم ، وكان هذا هو ما اعتزمه ايدى دائما ، حتى وعندما أصبح من الواضح عدم اجراء مناقشة فورية فى هذا الموضوع فى حالة تنفيذ الحطة الاصلية ، وكان ايدى يرى فى هذا الاستنكار العلنى ، بالإضافة الى مختلف الظروف الأخرى ، الوسيلة لدفع الشكوك عنه وعن زملائه . فستكون هناك قوات اسرائيلية تحارب فى منطقة القناة أو على مقربة منها . وستقوم بريطانيا بتوجيه نقد علنى شديد الى العمل الاسرائيلى وسيقدم بعد ذلك انذار موجه الى الفريقين المتحاربين .

واذا ما جرؤ انسان على التساؤل عن الأسباب التي دعت بريطانيا وفرنسا الى المطالبة في انذارهما بانسحاب القوات الاسرائيلية مسافة عشرة أميال فقط عن القناة ، لانسحابها الى ما وراء حدودها الاصلية فسيكون رد ايدن : أن النقطة المهمة الآن هي ضمان ابتعاد الفريقين المتحاربين عن القناة حرصا على سلامتها وضمان وقف الحرب بينهما وان حكومته والحكومة الفرنسية قد طلبتا هذا الاجراء حرصا منهما على ضمان قبوله من الفريقين ، وسيعمل استنكار بريطانيا العلني لهجوم اسرائيل على الابقاء على «سلطة» بريطانيا ونفوذها في عراق نوري السعيد وفي العالم العربي على النحو الذي سيكون فيه بعد الاطاحة بعبد الناصر ، وفي وسع الدبلوماسية البريطانية في المفاوضات التالية لعقد الصلح في فلسطين أن تبعد مطالب الصهيونية عن مجالات النقد العلني .

وقد ركزت كل التركيز على بحث هذه الناحية ، لأنى أراها كبيرة الأهمية في الخطط التي وضعها ايدن ، ولان من المهم أن نلاحظ هنا بأن الخطة الاصلية كانت في منتهى الذكاء والدهاء ، فلم تكن على النحو الذي ظهرت فيه فيما بعد ، صبيانية وحمقاء ومضحكة ، ولم تكن حكمة ايدن الدبلوماسية قد تعرضت بعد عند وضع الخطة الاصلية للتعطيل والتوقيف وقد وافق المقربون من أعضاء وزارته على الخطة الاصلية ، على الرغم من أنهم لم يكونوا متحمسين للعمل من أساسه كحماسه هو ، لأنها - أى الخطة - بدت أمامهم سليمة من الناحية السياسية ، بعيدة عن كل شكوك عامة ، ومن المتعذر علينا أن نحلل قضية السويس ، الا اذا وضعنا نصب أعيننا أن حكومة ايدن لم تكن مؤلفة من رجال ذوى ادراك وتفكير صبيانين .

ولكن ايدن مالبت أن استسلم الآن ، أى في الثلاثين من اكتوبر لهذه الحجج الفرنسية الطاغية الأولى ، وحملت أسلاك البرق الى السير بيرسون ديكسون وأوامر حكومته باستعمال «الفيتو» ضد مشروع الفرار الأمريكى ، ولم يكن هذا الاستسلام . الا الأول من حلقة كبيرة من الازعان وعلائم الاستسلام . وكان الثانى تلبية لطلب فرنسا بأن تقوم الدولتان بالعمل فوراً ، دون انتظار مهلة الايام القليلة التي كانت مقررة في السابق ، فلقد أسرع اسرائيل في تخطي الحاجز ، وسبقت الخطة الاصلية ببضعة أيام ، وهاهو ذا ايزنهاور يثور ويبادر الى العمل فوراً ، وهاهى ذى الأمم المتحدة تتداعى الى الاجتماع ، ولن تمضى بضعة ساعات قبل أن تجتمع الأمم المتحدة ، وسيصبح من المتعذر فى غضون يوم أو يومين القيام بالعمل الوحيد وهو التدخل الانكليزى - الفرنسى للاطاحة بعبد الناصر ، ولذا بات لزاما الاسراع بالعملية كلها . ومن الواجب صدور الانذار فوراً ، وفى هذا اليوم ، ولا تستطيع فرنسا الاحتفاظ بكافة الاسرار السابقة ، اذا انهارت المغامرة كلها ، وقال موليه لايدن ، ان الجيش الفرنسى نفسه هو الذى سيتولى افشاء الاسرار ، وراح يسأله كيف يمكن له أن يبرر هو وبينو للجيش الفرنسى وفرنسا كلها ، العدول عن الحملة كلها ووقف استعداداتها مع الابقاء على عبد الناصر فى الحكم ؟ ان مصدر فرنسا كلها معلق بالقاهرة .

واستسلم ايدن ثانية ، وهو يدنو من الانهيار الكامل أمام هذه الحجج الملحفة من جانب موليه ، وتقرر اصدار الانذار المشترك فوراً . وأصر الفرنسيون على أن الحطة الأصلية مازالت صالحة للعمل . وراحوا يقولون لايدن ان التقارير التي تلقوها من سيناء تشير الى أن زحف اسرائيل فيها أسرع مما كان متوقعا . وأكدوا له أن قوات اسرائيل أصبحت على ابواب القناة ، وهو مراح يسر به الى أعضاء مجلس العموم في جلسة اليوم نفسه ، وأن الوضع الذي كانوا يريدونه في خطتهم الأصلية ، سيتحقق في غضون ساعات . ولم تتوافر لايدن معلومات مباشرة عن معركة سيناء . فلقد كان الفرنسيون هم الذين ظلوا طيلة الوقت على اتصال وثيق باسرائيل . (١) وقبل ايدن الصورة التي رسمها له الفرنسيون . وأعتقد أن الانذار في صيغته الأصلية التي وضع فيها مازال صالحا للعمل . ورأى ان في وسع اسرائيل أن تحتفظ بسيناء ، وأن في وسعه أن يستخدم احتلالها لها وسيلة للضغط ، لتقرير مصير قناة السويس ولاقرار الصلح في مشكلة فلسطين على النحو الذي كان هو ونوري السعيد قد انفقا على وضعه والدعوة اليه . أما الفرنسيون فكانوا بدورهم عازمين على أن تحتفظ اسرائيل بسيناء ، وأن يسترضوا بن جوريون الذي لابد وأن يفضب لما يظنه من خديعة تعرض لها من جراء تدخل الدولتين الحليفتين قبل الموعد المقرر

وحاول الفرنسيون أخيرا في ذلك اليوم ، الثلاثين من أكتوبر ، اقناع ايدن بالتخلي ، عن فكرة العملية على مراحل دقيقة ، وأن يوافق على غزو مصر فوراً عند انتهاء فترة الانذار ، على أساس افتراض رفض مصر لشروطه ولكن ايدن ظل مترددا في الاستجابة لهذا الاقتراح . ولم يكن في الامكان الوصول الى اتفاق في هذا الصدد في ذلك اليوم ، الذي صدر فيه الانذار المشترك . ولم يذعن السير أنطوني لرغبة حلفائه الفرنسيين والحاجهم المتواصل الا بعد مدة ، وبعد أن كان الضميج قد علا في كل من لندن والجانب الثاني من المحيط الأطلسي وبات النزول البرمائي ، عملا يقرب من الكارثة . وانهار ايدن انهيارا محزنا وكاملا أمام هذا الجهد المرعب الأخير وامتدت روح الثورة الآن الى معظم أعضاء وزارته وكان بين هؤلاء عدد من الوزراء الذين كانوا قد أيده تاييدا حماسيا في الأشهر السابقة ، ولكنهم وقد رأوا الآن مكانة بريطانيا المالية على وشك الانهيار تحت هذا الضغط الهائل على الجنيه الاسترليني ، أخذوا يهددون ايدن بالاستقالة الا اذا أذعن لقراراتهم الجديدة . وقد اغفلت العروض التصويرية المطبوعة الحديث حتى الآن ، عن الطريقة التي انتهت فيها قصة السويس داخل

(١) اعترف المستر هيد وزير دفاع بريطانيا بذلك في مجلس العموم في الواحد والثلاثين من أكتوبر عندما قال : « ليست لدينا معلومات مباشرة عن العمليات الحربية بين مصر واسرائيل » . ولا أرى بي حاجة الى القول ، بأن أيا من الوزراء ، لم يشر في أي لحظة . في تلك الايام الى قيام طائرات الكاميرا بأعمال التصوير الاستكشافي ، لأسباب لا تخفى على القارئ اللبيب .

— المؤلف —

داوننج ستريت رقم ١٠ عندما قررت الحكومة البريطانية الاذعان أخيرا للأمم المتحدة .

ويعرض الاخوان بروميرجر هذه الفقرة التي لا تكاد تصدق في كتابهما المشحون بالأخطاء ..

« وقبيل صدور الأمر النهائي بوقف اطلاق النار، اقترح الفرنسيون القيام بهجوم آخر لاحتلال القناة قبل انتهاء المهلة المقررة في الأمر ... وهتف رئيس وزراء بريطانيا قائلا « آه اذن هذا ماتريدونه . ليتقدم أصدقاؤكم على طول القناة . وفي مثل هذه الحالة نستطيع أن نقصف كلا من الاسرائيليين والمصريين معا بقذائف مدافعنا .

ولم أحاول في هذا التحقيق أن أعنى بالقضايا التي تختلف عليها الاحزاب في بريطانيا أو الشخصيات داخل حزب المحافظين ، كما أنني لأود أن أخوض في مثل هذه التفاصيل ، في قصتي هذه . ولكن من المسموح به في رأيي أن أدون هنا أن هذه الصورة التي رسمها الاخوان بروميرجر على الرغم من عدم اتفاقها في أي شكل من الأشكال مع الصورة العامة التي رسمت لايدن قبل أزمة السويس إلا أنها تتفق فعلا مع صورته بعدها ، الممثلة في شخص رئيس وزراء محطم صحيا يحاول أن يمسك حتى النهاية بأية وسيلة يعيد سياسة بلاده التقليدية تجاه اسرائيل ، الى سابق عهدها وهو عهد لم يكن هو راغبا شخصيا في تحطيمه ، ولم يفكر في يوم ما بأن اتفاقاته السرية ستحطمه . وقد حاولت الحكومة البريطانية بالفعل كل ما في وسعها أن تعيد هذا العهد الى ما كان عليه، ولهذا لم تعترض بريطانيا على قرار الأمم المتحدة الذي يطلب سحب اسرائيل لقواتها سحبا كاملا . وان كانت فرنسا قد اعترضت عليه .

وهكذا تنتهي القصة . لقد كان هناك تواطؤ . ولكن أحسن وصف يمكن اطلاقه على هذا التواطؤ ، هو أنه انقلب في اللحظات الحرجة الأخيرة الى تواطؤ مزدوج وفردى من جانب فرنسا ، وهي الشريكة الوحيدة التي لا تحمل أية تحفظات أو أية شكوك تجاه ظهورها بمظهر الاتصال مع اسرائيل والدولة التي تقع حكومتها المدنية تحت وطأة ضغط عنيف من جانب جيشها نفسه . ولم يكن ايدن وابن جوريون قد توقعا في أي يوم مضى ، أن تتلاحم العمليتان العسكريتان بمثل هذا الوثوق ، ومثل هذه الادانة لكليهما . وكانت فرنسا هي العامل الأخير في تحقيق هذا الالتحام . لكنها قصة لم يجرؤ ولا يجرؤ حتى الآن ايدن ولا أي من وزرائه على روايتها . وقد تعمده ايدن عند كتابته مذكراته ، التقليل من الاشارة الى فرنسا ودورها في أزمة السويس قدر الامكان . فليس ثمة من ذكر لمساعدة فرنسا الفعلية لاسرائيل في معركة سيناء ، وليس ثمة أكثر من مجرد ايماءات عابرة عن طريق تعبيرات لفظية غامضة ، كقوله يصف المحادثات العميقة التي جرت بينه وبين الفرنسيين حول موضوع خطر الهجوم الاسرائيلي على مصر ، بأنهم « أحاطوا » علما بهذا الخطر . ويبدو أن الفرنسيين قد غضبوا غضبا شديدا بعد انتهاء العملية ، لما صدر عن الوزراء البريطانيين من تعليقات على دور فرنسا .

وأقضى موريس شومان بعد أن بدأت الضجة الهائلة في موضوع التواطؤ ، بتصريح أشار فيه ، وهو العارف ببواطن الأمور ، إشارة زمنية غامضة اعتبرت آنذاك رامية الى وقت أبكر من نهاية أكتوبر اذ قال :

«أيجوز لنا أن نعتف الحكومة الفرنسية لأنها وافقت على تلاحم عسكري قوى دون أن تصر في الوقت نفسه على تلاحم سياسى مماثل ، يضمن عدم انسحاب أى من الدولتين من العملية دون موافقة الدولة الأخرى ؟ ان الرد على هذا السؤال يكون بالإيجاب ، هذا اذا لم تجد فرنسا نفسها مضطرة للتغلب على تردد بريطانيا والقيود التى فرضتها » .

وأرى الوقوف هنا ، فهذا الكتاب لا يتناول الديموقراطية البرلمانية البريطانية ، ولذا ، فهو ليس بالمكان الصالح للتعليق الشامل على المعانى العميقة لهذه الحرب الثلاثية فى تاريخ تلك الديموقراطية وتركيبها . ولا ريب فى أن آلاف القراء من ذوى النية البريئة السليمة قد قبلوا التاريخ الذى وضعه السير أنطونى ايدن عن حرب السويس سواء فى مذكراته التى أصدرها ككتاب أو فى مذكراته التى نشرها فى الصحف كأجزاء . فقد سبق الاعلان عنها بدعاية ضخمة أضفت عليها صورة الصحة والصدق ، وأفلحت الطبول التى قرعت فى تحقيق غايتها . وصدرت أقوال عن مراجع رسمية مسئولة تقول ان المذكرات قد سجلت الحقائق ، والوقائع التى حدثت فعلا ، (١) ! وقد نسي الناس فى بريطانيا الآن الا قلة قليلة قضية «السويس» ورفض المسئولون كل ماقدم من طلبات لاجراء تحقيق رسمى وساعدت الانتخابات العامة التى جرت فى عام ١٩٥٩ ، هؤلاء المسئولين فى رفضهم (لأنها أسفرت عن نجاح المسئولين عن «السويس») ، ومازال أى فرد عاجزا حتى الآن عن عمل أى شئ لمواجهة هذا الرفض . وضاعت أرواح بريطانية كثيرة ، وتحطمت حقبة كاملة من حقبة الدبلوماسية البريطانية ، وبلغت تكاليف العملية أكثر من مائتين وخمسين مليوناً من الجنيهات . وانى لارى من واجبي دون التحيز الى أى رأى من الآراء ، أن أقول بأن ما وقع سيظل مصدرا ضخما من مصادر القلق ، والافتقار الى الراحة الضمير ، لا سيما وقد أذيع عما وقع ، بعض الاسرار ، ولم يدفع ما أذيع الناس الى كشف الحقائق الكاملة ، التى ترك أمر كشفها الى ضماير المخلصين من خلاء السير انطونى وزملائه . ولا يمكن للانسان أن يبعد عن نفسه الشعور بأن النسيج الدائر والمستمر للحياة البرلمانية البريطانية يتضمن خيوطا من الأكاذيب ونواحي الوهن والضعف حيكت فيه حياكة غير محكمة وقد يختفى العيب عن عيون الناس شهرا بعد شهر أو عاما بعد عام ، ولكنه مازال قائما .

وقد لا تشكل العيوب السابقة فى الجهاز الديموقراطى أى خطر مقبل الا على صعيد بقاء المواطنين جهلاء لا يعرفون عن وجودها ، ولا يتعظون بعبرها ولا بما يجب أن يتعلموه منها من دروس يتطلبها الوعي والحرص فى المستقبل . وعلى هذا الصعيد وحده ، هذا اذا أغفلنا الآثار الدائمة

(١) صحيفة التايمز اللندنية .

التي تركتها حرب السويس خارج بريطانيا ، سيظل موقوف عام ١٩٥٦
خطرا كامنا ، طالما انه يحتاج الى الايضاح والشرح .

ان ما حدث في مصر في غضون هذه الايام المجنونة ، يحسر النقاب
على حد ذاته ، عن الجهل الفاضح الذي سيطر على حكومة ايدن وعلى الذين
ينولون تقدير المواقف لها ، بحقائق الأوضاع في الشرق الأوسط . ولما
كانت حقيقة ما دار من قتال في سيناء مازالت مجهولة الى حد كبير ،
فسأتولى الحديث عنها في الفصل التالي . لكن ما أود قوله هنا انه لم يكن
هناك « انتصار اسرائيلي ساحق » كما حاولت الدعايات تصويره ، بل كان
هناك انسحاب كامل من سيناء ، تم بأمر صريح من القاهرة ، فور قيام
طائرات السلاح الجوي البريطاني بقصف المطارات المصرية . ولم تشترك
الدول العربية في الحرب ، لأن الحكومة المصرية طلبت اليهم التريث حتى
تحين الفرصة المواتية ، التي لم تحن قط .

وحلقت الطائرات البريطانية في سماء مصر . وهدرت وزمجرت ،
وألقت بالآلوف من المنشورات تحض الشعب على الثورة على عبد الناصر ،
وتحذره من تصديق عبد الناصر ، ولكن الثورة التي توقعوها لم تقع ، وإنما
وقف الزعيم المصري يوجه رسالة الى شعبه بصوته الرنان ، وهو يردد
القول المأثور .

« سنقاتل في كل معركة من قرية الى قرية ومن مكان الى مكان ،
ليكن كل فرد منكم جنديا في القوات المسلحة .. وليكن شعارنا أننا
سنقاتل ولن نسلم ... سنقاتل .. سنقاتل ولن نسلم »

وأعلن الزعيم المصري أنه سيظل مع حكومته في القاهرة . ثم راح
يسير في شوارع العاصمة ، في سيارة مكشوفة ليؤدي الصلاة في أحد
مساجد المدينة (الأزهر الشريف) . وأمر بتوزيع ألوف البنادق على نفس
المواطنين المدنيين الذين أغرقتهم المنشورات الانكليزية - الفرنسية ،
والذين أمطرتهم الدعايات الاذاعية بوابل من منشوراتها ، طالبة اليهم الثورة
عليه ، وصدرت الأوامر الى الجنود المنسحبين من سيناء ، بالعودة الى قراهم
وأعدت العدة لحرب من أعنف حروب الفدائيين وأكثرها دماء ، ليخوض
الشعب المصري غمارها ضد الغزاة في حالة استمرار الغزو ، ولم يكن
تمة هلع أو ذعر . وأثبتت فرق مكافحة الغارات الجوية من رجال الدفاع
السلبى كفايتها وحسن تدريبها ، وهرع الشبان والشيوخ الذين يمثلون
مختلف نواحي الحياة المصرية الى مراكز التطوع والتدريب في الميادين العامة
ليتسلّموا بنادقهم ويتدربوا عليها . وعومل الأحد عشر ألفا من الرعايا
البريطانيين في مصر ، الذين أعرب ايدن في مجلس العموم ، عن تخوفه من
مصيبرهم ، دون أن يكلف نفسه عناء الاعاز لسفارته في القاهرة بتحذيرهم
قبل البدء بعدوانه ، معاملة تنطوي على الطيبة وضبط النفس ، وأغلقت
مصر قناة السويس ، واحتفظ عبد الناصر بقوته الجوية في مواقعها
الأرضية ، قائلا لطياريهما المتلهفين لخوض المعركة أنهم أعز عليه ، وأثنى

من أن يضحى بهم فى معركة جوية غير متكافئة وضد قوات هائلة تفوقهم.
علا وكما .

وهكذا وجدنا سياسة الغرب ، مندفعين وراء نتيجة مغايرة لما وقع فعلا يتوخون الوصول اليها ، يضعون مصر للمرة الثانية ، فى غضون أشهر قليلة ، أمام المحك والتجربة . تجربة للكرامة ، عند رجال ، كان ايدن وأضرابه عاجزين عن فهمهم ، ولم يكونوا يتوقعونها من مصريين أو عرب . لأنهم من جبلة تختلف عن جبلة الذين عرفوهم فى الماضى من الباشـووات والشيوخ . وكانت اللحظة غريبة كل الغرابة فى تاريخ العلاقات بين الغرب والعرب . ففى نواذى بريطانيا ومواخيرها ، كان البريطانيون الذين أفلح ايدن وسلوين لويد فى اثارتهم وتحريضهم ، يفرقون فى الحديث عن هؤلاء « المصريين » و « الدهماء » و « الأهالى » وغير ذلك من العبارات التى تنطوى على الزراية والامتهان التى افوا توجيهها عندما يقرعون « أجراس » فندق شبرد لاستدعاء الخدم . لكن هؤلاء « المصريين » و « الدهماء » و « الأهالى » كانوا يقفون منتصبى القامات رافعى الهامات يدافعون عن كرامتهم ووطنهم وقال لى أحد المصريين . . « لقد حملت على عبد الناصر فى وقت مبكر من هذا العام . أما الآن . فانى نادم . لقد ثبت أنه كان على حق . واننى لأحس بشعور غريب كل الغرابة ، ولاول مرة فى حياتى . أننى أحس بأن فى وسعى أن أرفع الآن رأسى أمام أى شخص من أمثال ايدن وموليه ودالاس وحتى بولجانين ، على الرغم من مساعدته لنا . » وتوقف لحظة يبحث عن عبارة يود أن يوضح بها ما يريد قوله . . ثم قال . . « وحتى الآن لم أكن مخورا بنفسى وشعبى ، ولكننى الآن فخور . »

ولم يكن هذا الاحساس خاصا بمصر أو ماجاورها ، بل كان شعورا ساد الشرق الأوسط برمته . ولم تكن « كسرة » سيناء بالشىء الذى يعلق الشعب عليه كبير أهمية ، ولكن ما همه أكثر من أى شىء آخر ، هو ان هذا الزعيم « وهذا الشعب » ، وقفا صامدين أمام هذه القنابل التى تقذفها طائرات دولتين كبيرتين ، مرفوعى الرأس موفورى الكرامة . ولم يكن فى وسع انسان أن يتوقع أن « تنتصر » مصر عسكريا على القوة المشتركة لدول ثلاث هى بريطانيا وفرنسا واسرائيل . ولكن كان هناك نصر من نوع آخر نصر طالما كان العرب فى حاجة اليه ، وطالما استهوى نفوسهم فى كل مكان أكثر من انتصار السلاح ، وهو نصر الكرامة . ومن هنا يظهر المعنى العظيم للشعار الذى رفعه الشعب العربى بعد انتهاء معركة السويس والذى تغنى به وهو « انتصار بور سعيد » ، ولم يؤد الافتقار الظاهرى للوحدة العسكرية بين العرب انتصارا لمصر عند العرب الى نفس الاستنتاجات التى توصل اليها الغربيون بسرعة فائقة . وصدق العرب فى كل مكان ماقاله لهم الرئيس عبد الناصر ، من أنه هو الذى اعتذر عن قبول عروض المساعدة من بعض الدول العربيه بينما كانت الشكوك تغلى وتتقد فى صدور بعض العرب الآخرين ، عاكسة المسئولية فى ذلك على العهود القديمة وفى طليعتها عهد نوري السعيد فى العراق ، الذى كاد ينهار آنذاك .

ومع هذا الاحباط الكلى لآمال الرسميين الانكليز والفرنسيين فى حوادث مصر التى أثبتت عكس ماتوقعوه عجز الغرب كل العجز عن هضم «عنايه» نصر» بور سعيد للعرب ، مما أشار الى الهوة الضخمة من سوء الفهم التى تقوم بين الغرب والعرب . وكنت أقف ذات يوم من أيام أواخر يناير عام ١٩٥٧ ، عند ناصية أحد الشوارع الرئيسية فى القاهرة ، وقد حملت نسخة من إحدى صحف لندن كانت صادرة قبل أربعة أيام فقط وقد تضمنت نبأ قالت انها استقتته من أحد المصادر العليمة ، يقول ان عبد الناصر يعيش فى « خوف دائم من قيام ثورة شعبية عليه » وفى نفس اللحظة التى كنت أحمل فيها الصحيفة التى نشرت هذا النبأ تحت عنوان بارز ، مر « الرجل الذى يعيش فى هذا الخوف الدائم » أمامى فى سيارته المكشوفة وسط جماهير غفيرة من الناس ، وقفت لتراه وتهتف له ، لا لتثور عليه . ولم يقتصر مروره على شارع واحد من شوارع المدينة أو جزء من شارع ، اذ سار موكبه يذرع القاهرة طولا وعرضا .



قد يكون من اللازم اللابزب ، أن نوضح بدقة ، حقيقة ماحدث فى سيناء والسويس . لقد قامت حكومة بريطانية تمثل حزب المحافظين بعدوان متعمد وضعت له الخطط المحكمة ، متعمدة تعمدا كليا ، ومدروسا ، تضليل مواطنيها وبرلمانها ، ودول جامعة شعوبها ، وحلفائها فى حلف الأطلسى ، وأعضاء الأمم المتحدة . وقد وضعت خططها متظاهرة بأنها تهدف الى انقاذ الممر المائى العظيم ، مع علمها الثابت الأكيد ، بأن عدوانها سيفلق هذا الممر فى وجه الملاحة الدولية عدة أشهر ومستغلة معرفتها المسبقة الواضحة بالعدوان الذى تعتزم دولة أخرى القيام به وهى اسرائيل ، وزاعمة أن كل ما تفعله انما يرمى الى رفع لواء القانون الدولى ، وسيادة الأخلاق ، وأنه يتفق كل الاتفاق مع شرعة الأمم المتحدة .

ولما كانت كل هذه الادعاءات قد لامست حالة من الانفعال والتشنج عند الراى العام البريطانى ، فان العقيدة التى ما زالت سائدة عند الكثيرين هى أن كل ما وقع من خطأ فى معالجة قضية السويس انما نجم عن خطأ « غير محكمة » الاعداد ليس الا . ومن المعقول أن يكون هذا الشعور بتحميل مسؤولية ماوقع لمجرد «عدم احكام» الحطة ، هو الذى انتقد حزب المحافظين من الفشل فى الانتخابات ، بالإضافة الى هذا « الكابوس » من المرارة والعداء الذى يسيطر على هذا الراى العام تجاه ذلك « الرجل » الذى تقررت الاطاحة به ، ولكنه صمد وظل قائما .

وأرى لزاما على أن أوكد هنا بكل ما فى التأكيد من شدة ، انه لم يكن هناك فرصة ، ولا للحظة واحدة ، فى تحقيق أهداف حكومة ايدن . ولو افترضنا جدلا أن العدوان قد استمر ، وأن الانكليز قد استولوا على القاهرة ، وأسروا عبد الناصر أو قضوا عليه أو ابعده ، فان أهداف ايدن ماكانت لتتحقق أبدا . اذ انى على يقين من أنه حتى ولو صحت هذه الافتراضات ، فان روح المقاومة فى مصر كانت ستستمر ، وستقوم حرب نصابات مخيفة تدوم الى أمد غير محدود .

وأى نوع من الحكومات يا ترى كان فى الامكان ضمان قيامها لتخلف حكومة عبد الناصر ، ان ما عجز ايدن عن فهمه ، هو أنه لم يكن فى استطاعة أية قوة سياسية فى مضر فى عام ١٩٥٦ ، ان تقيم حكومة ثابتة مستقرة . تعيش فى ظل قوى الاحتلال الأجنبى . ولو وجد من يؤلف هذه الحكومة وأنا أشك فى وجوده ، فان حكومته ما كانت لتعمر طويلا اذ سيطاح بها حتما . ولم يكن فى وسع أى من الزعماء السياسيين السابقين أن يشرع حتى فى فرض سيطرته على البلاد . وكل ما كان يمكن وقوعه ، هو أن يقوى عود فلول الشيوعيين والاخوان المسلمين ، ليس الا .

ولو حدث هذا أيضا لتعرضت أرواح الرعايا البريطانيين والفرنسيين وممتلكاتهم للخطر ، اذ أن تلك الإصالة فى ضبط النفس وكبت العواطف من المصريين حكومة وشعبا ما كانت لتستمر مع وجود هذا العدوان الباغى وما يصاحبه من عنف ، الا اذا افترضنا أن المصريين من الملائكة ، لا سيما وأن وصول المحتلين الى القاهرة ، كان يعنى زوال حكومة عبد الناصر ، التى ضمنت من شعبها هذا الانضباط الرائع .

ولو حدث هذا أيضا ، واستمر الغزو ، فان النتيجة الحتمية ، هى أن يقوم الوطن العربى كله ، من المحيط الى الخليج قومة رجل واحد كمرجل يغلى بالعنف ، ليحطم كل رمز من رموز السيطرة والنفوذ البريطانيين والفرنسيين فى هذه المنطقة ، وكان هذا التحطيم سيتخذ صورة «اضرب واهرب» ، لا سيما وقد دلت الأحداث التى وقعت ، على أن السير انطونى ايدن وجى دى موليه قد اقتربا فعلا من مرحلة اشعال النيران فى المنطقة كلها ، تاركين آثارا مرعبة لا يستطيع المرء تصويرها .

وكان ثمة تناقض غريب فى الطريقة التى اتبعت فى وقف الهجوم فقد أسدلت ستارا كثيفا من الغموض على بعض الدروس والعبر الكثيرة الأهمية . والتى كان من الواجب تعلمها بسرعة وبصورة كاملة ، لضرورتها لإى إعادة نظر للسياسات الغربية فى الوطن العربى . وكان حريا بالمستز دالاس . وبقيادة حزب المحافظين وبعض زعماء حزب العمال ، أن يتعلموا هذه الدروس وأن يعوها تمام الوعي . ولا يكفى أن ندين قضية السويس ، بالخطأ وان نحكم على خطتها بأنها كانت « غير محكمة » ، فلقد كان هناك خطأ أكبر بكثير من كل هذا ، يقبع خلف هذه المأساة ، ويمس بجريوته كل مصلحة ضخمة من المصالح التى يحتاج الغرب الى الحفاظ عليها فى الشرق الأوسط . (١) ولكن لما كانت كل هذه الأخطاء العميقة قد ظلت أسراراً لم تكشف كارثة السويس عنها ، ولما كان « الكابوس

(١) تبدو فى هذه الحملة وما يتبعها من عبارات طبيعة المؤلف ، فى صورتها الصحيحة . فهو غريب قبل كل شيء . واذا كان قد توخى الحقائق فى كتابه هذا الى حد كبير ، فالدافع له على توخيها هو حرصه ، على الحفاظ على ما للغرب من مصالح فى الوطن العربى ، شريطة ان يقوم هذا الحفاظ على أسس التفهم المتبادل والمتكافى .

- العرب -

الذى جثم على صدر ايدن ، مازال حيا ويجثم على صدر الكثيرين فى الغرب
فان الغرب قد خسر الكثير ولا يزال يخسر . وضاعت العلاقات الغربية -
العربية فى متاهات من سوء الفهم التلقائى الوضع والخلق . وهذا الكابوس
القائم حتى الآن ، كغيره من الكوابيس العميقة الضخمة ، لا يرتفع بسهولة
بعد أن يبدأ جثمه على صدور من يصابون به . وسيظل الكثيرون من
الغربيين طيلة السنوات القادمة ، يلفظون عبارة « عبد الناصر » بطريقة
تنطوى على الانحراف والخطأ اللفظى ، مع بقاء ما فى هذه العبارة من معان
بعيدة عن عوامل « الزمن » و « الواقع » . ولقد جعلت الاسباب العامة
لهذا الكابوس جزءا لا يتجزأ من قصتى هذه كلها . لكن أية دراسة دقيقة
لطبيعته ، ستساعد الغرب ، على الرغم مما نيهى من مرارة . على تجنب
كوابيس مماثلة نعملها عن الآخرين .

تلعب شخصية « القائد » دورا أكثر أهمية فى قضايا السياسة
الدولية ومشكلاتها من النحو الذى نود نحن أن تؤمن به فى دولنا الديمقراطية
ونحن ندون هذه الملاحظة تبعا لما نبديه من اهتمام بالمذكرات التى وضعها
« رجالنا العظام » عن أيام الحروب ، وفى أوضاع لا نود أن تسود عندنا
فى أيام السلم أو فى الايام التى تسبق الحروب . ونحن نفترض أيضا
أن الشخصيات الذاتية لرؤساء وزاراتنا أو رؤساء جمهورياتنا لا تستطيع
أن تؤثر تأثيرا خطيرا على تمثيلهم لنا ولآمالنا ومخاوفنا وطرائق حياتنا،
وسياساتنا الخارجية التى نود من قادتنا أن يعرضوها . ولكننا نسارع
رغم ذلك الى الافتراض بأن الشخصية الذاتية للقائد الوطنى الذى ننتهيه
« بالفردية » هى التى تقرر طريقة تعاملنا معه . ولقد وقع جيل الساسة
الذين تولوا قيادة مصائرنا فى حقبه الخمسين فرائس لهذا الافتراض الخاطى،
فلقد كانوا يشعرون بالنسبة الى سياساتهم فى الشرق الاوسط ، أنهم انما
يعاملون « عبد الناصر » عاجزين تبعا لذلك عجزا مضاعفا عن تفهم
الشعب الذى نبع منه « عبد الناصر » والمحيط الذى دفعه والتراث
التاريخى الذى حركه . ولعل هذه الهوة فى النظرة الى الشخصية قد سارت
فى خط متواز مع الهوة فى تقرير السياسات التى توسعت مع مضى
السنوات التى سبقت ظهور عبد الناصر، وهى جديرة بملاحظتنا وتدويننا .

فعبد الناصر ، لم يكن قديسا من القديسين كما انه لم يكن ولن
يكون انسانا متعطشا للدماء كما حاولوا تصويره . هذه حقيقة واقعة
يجب أن نسجلها . فلقد رفض عندما كان الزعيم المنتخب لحركة الضباط
الاحرار ، القيام بانقلاب على العهد فى عام ١٩٥٢ ، تسفك فيه دماء فاروق
ورجال عهده ، ولذا كانت الثورة التى تولى قيادها ثورة بيضاء . ولقد
ظل طيلة حكمه رجلا يكره الدم ، ويعارض سفكه . وروى لى قصة رآها
فى شبابه جعلته يكره كل أمر دموى ، وذلك عندما سأله ذات يوم عن
السبب الذى يمنعه من قتل نورى السعيد . . ثم قال . . « لقد كان فى
مكنتنا دائما أن نقتل نورى ، ولكننى ضد الاغتيال ولا أوافق على هذا
الطراز من العمل مطلقا . ثم ما جدوى قتل رجل فرد ، اذا كان نظامه
سيبقى ؟ » .

ولكن هذه « النزعة السلامية المتأصلة في نفس عبد الناصر » ، على حد تعبير صحفي بريطاني موضوعي كتب عنه (١) لا تنعكس فيما يعرفه الغرب عنه ، على ضوء ما ينقل اليه من ترجمة مشوهة لأقواله . وهو يرى في هذا الرجل الهادئ الحديث الذي تمتزج ابتساماته بصلابته ، والذي قابله المئات من سياسة الغرب ومبعوثيه وصحفييه في سنوات الأزمات صورة واحدة ظاهرة تخفي الصورة الحقيقية ، وليس هذا الرأي في الواقع الا التعبير عن الموقف العام الذي يقفه الغرب من كل زعيم قومي . يقف مصارعا له . أما الجانب الثاني من الصورة ، فيعكس ما يراه الغرب في شخص ايدن ، وهو رأى اذا تحرينا الموضوعية ، يتمثل في شخصية الرجل الهادئ الذي تظهر فيه رقة أبناء المدينة ، والذي يقدم في نفس اللحظة التي يتحدث فيها الى هذا الزعيم الوطني - أي عبد الناصر - متقربا اليه ، على محاولة طعنه في ظهره بالدعوة لحلف بغداد وزعامة نوري السعيد فيصدق فيه وصفهم لأمثاله بالرجل ذي الوجهين .

ولكن المفارقة بين طبيعة عبد الناصر السلامية الاصيلية وبين مسلكه الظاهري ولهجته تقوم في سياق تعابيره . فهو انسان هادئ كل الهدوء ، ولكنه يثور لكرامته أشد الثورة ، وقد تجلت ثورته هذه في غضبه الذي بلغ الأوج عندما تعرض للضغط الغربي الخارجي الذي جعلته موضوع هذا الكتاب « وللضغط الخارجي من الشرق كما حدث في مستهل عام ١٩٥٩ » . فهو رجل يقف وسطا بين عالمين مصطربين . نشأ في الريف المصري فاحتفظ بذلك الوعي المتقدم ، الذي ألهمت مصر كلها من جراء ما تميز به الماضي من استغلال واذلال . وهذا الاتصال بجماهير الشعب من الفلاحين كان أكثر اصالة وأقوى غريزة عنده ، من اتصال نهرو مثلا ، الذي ولد في طبقة أرستقراطية ثرية ، وقام اتصاله بجماهير القرويين في بلده نتيجة الفكر والادراك ، والتماس العاطفي الذي نشأ أول مانشأ تحت تأثير غاندي . أما عبد الناصر ، الذي نما من وسط شعبه وفلاحيه ، ورفع التعليم من شأنه ، فقد ظل على وعي ، بأن انفصامه عن شعبه وماضيه . وان كان ممكنا لا يستطيع أن يبعده عن قرارة عواطفه التي هي عين عواطف أولئك الفلاحين الذين لم يكونوا يجدون الطاقة على التعبير عنها ، وان ظلت أملا يتعلقون به . وظل عبد الناصر مفتقدا لذلك الحد من الانفصام عن العواطف التي تأصلت في نفسه ، والذي يؤثر نحن في الغرب تسميته « بالفراشة السياسية » . فلم يكن من أبناء تلك « الطبقة الوسطى » التي يستطيع أفرادها ، أن يقفوا بهدوء في نوافذ وزارات الخارجية في مدنها ، وهم يرون عروض السد العالي تسحب بمثل تلك الصلافة ، وانما كان فردا متحررا من أبناء تلك الطبقة البائسة من « الفلاحين » الذي يشعرون شعورا عميقا ، بأن ليس من واجب مصر أن تتعرض لمثل هذا النوع من الضغط الأجنبي ويجب أن لا تتعرض له .

ولكن هذا الرجل الذي ارتفع الى المسئوليات الثورية والدبلوماسية

(١) يعنى توم لتيل مؤلف كتاب مصر . لندن ١٩٥٧ .

كان من عالم يختلف نفسانيا كل الاختلاف عن ذلك العالم الذي ينتمي اليه أمثال ايدن ولويد وماكميلان وحتى دالاس ، وهم الذين ظلوا طيلة الوقت يعتقدون بأنهم انما يتعاملون معه وحده . ولعل هذا السبب هو الذي جعل من بعد النظر الذي تميز به بشكل خاص ، مبعوث أو مبعوثان من ممثلي الغرب في القاهرة، أمرا لا يقدر بثمن للغرب الذي أضاعهما في الفترة المبكرة في الصراع . فلقد كان هذان المبعوثان هما الوحيدان اللذان يستطيعان أن ينفذا الى قلب هذا الضابط الشاب القادم من قرية « بني مر » وأن يفهما مزاجه النابض بالحياة والاندفاع . وأول هذين المبعوثين هو هنري بايرون سفير الولايات المتحدة . التي أدت به صراحته في الحديث عندما كان يقضى أجازته في بلاده ، الى تعرضه لحملة دالاس والكونجرس والصهيونيين الامريكيين الذين اتهموه بمحاولة « استرضاء » عبد الناصر ، وسلبوا منه منذ مطلع عام ١٩٥٦ كل نفوذ وتأثير . وأما المبعوث الثاني . فهو السفير الكندي اللامع نورمان الذي قضى وقتا قصيرا بعد أفول نجم بايرون ، والذي بات فريسة بائسة لاضطهاد المكارثية الظلمة التي هاجمته بعنف متهمه اياه بالانحرافات الشيوعية ، مما ضاق به ذرعا فآثر الانتحار في القاهرة في ابريل عام ١٩٥٧ . وكان في وسع الدكتور محمود فوزي وزير خارجية مصر ، الدبلوماسي المصري المحترف والناشي على الأساليب الغربية في الدبلوماسية ، ان يبذل كل ما في وسعه لسد الثغرة القائمة بين خريجي كلية « ايتون » من السياسة البريطانيين ودالاس المتعلق بمثل طائفة « المتطهرين » « البيوريتان » وأخلاقهم من ناحية وبين هؤلاء الشبان الخارجين من حصار « الفالوجة » من الناحية الاخرى ولكن عند ما انهار الموقف ، أصبح من الأسهل على رجال من أمثال سلوين ولويد أن يتحدثوا الى القمر ويتفاهموا معه من أن يتحدثوا الى عبد الناصر ويتفاهموا معه ، وكانت القفزة ويا للأسف مفاجئة من عصر الى عصر . فلقد اختفت عبارة « الأهالي » من قاموس مصر ، واختفى معها استدعاء « الخادم » في فندق شبرد بمجرد لمسة سحرية من الجرس ، وأصبحت رسالة جورج واشنطن الوداعية للمستعمرين الانكليز ، النور المهيمن على القارتين الافريقية والآسيوية . لكن كل هذه المعاني التي عمت الآفاق كلها لم تصل الى مسامع القابعين في « داوونج ستريت » في لندن وشارع بنسلفانيا في واشنطن (يعنى المسئولين الانكليز والامريكان) ، ولم يكونوا قد أدركوها بالنسبة الى الوطن العربي .

ولم يكن العنف الذي بدا فيه عبد الناصر في بعض مواقفه العامة ناجما ، عن سورة عارضة من سوررات الغضب ، أو من ضعف سيطرته على القائمين بأمر دعايته من المتحمسين . وانما كان ناجما عن شيء أصيل في قرازة نفسه حمله معه من قرية « بني مر » ، فلقد كان يعرف ما يتميز به الفلاحون من قصور ذاتي وطاقة على الاستمرار في الحركة . وكان يعرف أن الوطن العربي لم يكن من القوة في أي عنصر من عناصره ، بحيث يضمن بصورة آلية فرض احترامه على سياسة الغرب واسرائيل . ولو لم يتلق عبد الناصر ، تينك الصدمتين المترابطتين زمنيا من حلف بغداد وغارة غزه لقل اتجاهه الاساسي قائما على التركيز على بعث متدرج للنهضة في بلاده

وضمن قوتها عن طريق الإصلاح الداخلى والزيادة فى الانتاج . ولقد رأينا فى منتصف عام ١٩٥٤ ، يصدر النداء تلو النداء الى شعبه معلنا أن الصراخ مهما علا لا يجدى فى ميدان القوى . . وأن تغيير الماضى لا يمكن أن يتم بجرة قلم واحدة . ولكن عبد الناصر ، رأى فى حلف بغداد وغارة غزه ، كما رأى غيره من القوميين العرب ، نذرا عاجلة ، بأن ايدن لم يكن يعنى ما يقول ، عندما أعرب عن أمله فى قيام « عهد جديد » بين البلدين أثر اتفاق الجلاء .

وهكذا فحماية البيت الذى نبنيه « على حد تعبير الرئيس عبد الناصر تتطلب استثارة المصدر الوحيد للقوة العربية وبعثه الى الحياة ، وهو الكرامة وهو مصدر ظل كامنا لا يجد من يبعثه ، وينفخ به فى روح الجماهير وارادتهم ، داعيا الى الوعى الجديد بين الفلاحين . ولقد قال لى الرئيس عبد الناصر ذات يوم . . « لا أدري ان كنت قد حققت شيئا ، ولكننى آمل اننى نجحت فى أن أعيد لأبناء شعبي احساسهم بكرامتهم » .

لكن هذه المواقف التى كان عبد الناصر يقفها ، وهذه الروح التى ينفخها فى شعبه ، كانت تبدو فى عيون المسئولين الغربيين شيئا مناقضا كل التناقض للكرامة ، وهنا يظهر من جديد هذا التناقض فى النظرة والفهم بين الفريقين وكما أن أى واحد من النواب البريطانيين الذين أطلق عليهم اسم « ثأرى السويس » لمعارضتهم حكومتهم فى الجلاء عن مصر ، لم يكن ليتأثر مطلقا من رؤية عبد الناصر ، يقف ودموع الفرح تنساب من عينيه على وجنتيه ، يرفع العلم المصرى على بور سعيد فى يونيو عام ١٩٥٦ ، بعد أن تحررت مصر نهائيا من جنود الاحتلال ، فان أى غريب كان يرى فى تحدى زعيم مصر للدول العظمى ، أمرا زريا ، أجوف . فمن القواعد التقليدية العميقة الجذور فى « الفراهة السياسية » عند الغربيين ، أن لا تتبع أية حكومة سياسات لا تملك « السلطان » لفرضها ، وهم يعتون بالسلطان القوة العسكرية والانتاج الاقتصادى والمكانة الدولية المعترف بها . وكان الغربيون يعتقدون أن عبد الناصر لا يملك أيا من هذه العناصر الثلاثة للسلطان لدعمه . وكل ما يملكه فى رأيهم هو حماسة الجماهير والدهماء .

وبينما كان هذا الافتقار لعناصر السلطان التقليدى . يبدو للغرب شيئا زريا ، كان عبد الناصر ، يرى فيه دعوة صريحة الى استخدام وسائل أخرى للتعويض عنه . وسيطرت عليه بعد حلف بغداد وغارة غزه مشاعر من الخوف من دوام السيطرة الأجنبية فى وطنه ، الا اذا استفادت الحركة العربية القومية ، ووحدت شعبا يفرق ثمانية أعشاره فى حالة من اليأس والقنوط ، وينشغل العشران الباقيان فى مناقشات جدلية سفسطائية ومطامع شخصية انتهازية . ورأى ان عامل الزمن ليس فى صالحه ، فهو لا يستطيع الاعتماد على اليقظة البطيئة المتدرجة عن طريق الإصلاح الداخلى فى ميدان الاقتصاد والاجتماع ، ولذا فقد قال : « لقد حاولنا جهدا أن نتجنب معركة صريحة ، فقد كنا ندرك حاجتنا الى الوقت لكى نبني بلادنا ولكن الاستعمار كان يرى غير ما كنا نراه » .

وكان هذا الوضع فريدا من نوعه فى سلسلة التجارب التى مر بها

الغرب مع الحركات القومية في آسيا بعد الحرب العالمية الثانية . ويرجع السبب في هذا التفرد الى عاملين اولهما ان الغرب لم يفرض مثل ما فرضه من ضغط هنا على أى جزء آخر من المنطقة الافريقية - الآسيوية ولم يقاوم التطور فيه كما قاومه هنا ، وثانيهما ان أية حركة قومية أخرى ، لم تجد نفسها معرضة كتعرض الحركة العربية ، لمثل هذا العدوان الفعلى ، أو حتى مكشوفة له . وكان عبد الناصر بعقلية المتخرج في كلية أركان الحرب ، والمدرّب عسكرياً أحسن تدريب ، لا يرى في وطنه جزيرة ، أو شبه قارة متماسكة الأطراف ، ذاتية الاكتفاء واضحة الحدود الطبيعية . وكثيراً ما قال في وصفها انها منطقة مكشوفة وهو يعنى بذلك انها منطقة فسيحة الأرجاء معتدة على أنحاء واسعة من الجيوب التى تفصلها الصحارى يسكنها شعب عربى واحد ، يتيح موقعها هذا للدول القريبة الكبرى فرصاً مختلفة لا حد لها للعودة اليها اذا ما خرجت من الباب ، « من النوافذ الخلفية » . ومن هنا تنشأ ضرورة الحملات لليقظة والاستعداد لمقاومة أية مؤامرات جديدة .

ولم يكن عبد الناصر ، ذلك الرجل الماكر الذى رآه الغرب فيه ، فهو اذا ما استثنينا أهدافه ومثله العليا ، وما يضعه بمعونة مستشاريه من خطط التنمية الاقتصادية والتطوير الاجتماعى لبلاده ، لا يضع نصب عينه مشروعات طويلة المدى من النوع الذى يتصوره الغرب فيه . وقد صرفته الاحداث التى وقعت بين عامى ١٩٥٥ و ١٩٥٩ الى محاولة تلطيفها أو الرد عليها ، في سلسلة متلاحقة الحلقات من الاعمال . ولقد قال لى ذات مرة ... « ان منطقتنا غنية بالمفاجآت . ولن تتركنا الدول الكبرى وشأننا قط ، وهى لن تنسحب من منطقتنا نهائياً كما انسحبت بريطانيا من الهند . فكيف نستطيع ان نخطط لأنفسنا ؟ ان كل مانستطيع ان نفعله هو ان نرد على مانواجهه » . ولقد أيد سجل الاحداث ما قال منذ حلف بغداد وغارة غزة حتى اليوم . فهو يخوض معركة دفاعية - هجومية متصلة الحلقات منذ ذلك الحين تركز على حركة غربية كبيرة أو اسرائيلية ، لا تلبث أن تهدأ ، ويشرع العرب فى التعلق بأهذاب الأمل فى أن « يتركوا هذه المرة وشأنهم » راكبين الى فترة من الاستجمام والراحة فى المعركة لبدأوا « تطعيم الشعب ضد الخطر وتهيئته للغد » (١) حتى ينطلق انفجار غاضب آخر ، ضد حادث جديد ، وترتفع الصيحات عن وجود « مؤامرة » جديدة ، وعن شن حملة دعائية عنيفة أخرى . ولا تشير كل هذه الاحداث المتلاحقة الى تخطيط سابق من جانب عبد الناصر ، وانما تشير الى النقيض من ذلك ، وهو الرد على ما يحاك ضد بلاده .

وكان أمل عبد الناصر فى البداية ، أن يكون ايدن قد عنى حقيقة

(١) من مقال لسيادة الرئيس عبد الناصر فى مجلة «لايف» بتاريخ السابع عشر من أغسطس عام ١٩٥٩ . وكان يشير الى حملته الأخيرة ضد الشيوعية رابطاً بينها وبين حملاته ضد حلف بغداد ومشروع أيزنهاور .

ما قاله وهو قيام « عهد جديد » بين مصر وبريطانيا ، منطوق على سلامة النية والاخلاص . أما فيما بعد ، فقد استند في الآمال التي كانت تعاوده بين الفينة والفينة ، الى تقديره المبني على أساس التجارب ، لما اعتبره مصالح غربية ، لا يستطيع أى سياسى غربي ، أن يفكر في تعريضها للخطر . وعلى هذا الاساس وصف الانذار الانكليزي - الفرنسي المشترك والهجوم الذي تلاه بقوله :

« لقد اثبت ايدن انى كنت على خطأ فقد اقيمت تقديرى للموقف على اساس وجهة نظره هو وكنت اناقش انهم من وجهة نظرهم هم ، سيفقدون الكثير بل اكثر من الكثير » (١) .

ولا ريب في أن هذه العبارة التي انطلق بها لسان عبد الناصر قد تضمنت من السخرية أكثر مما كان يتصور . ولكن المسئولية في ذلك لا تقع على عاتق ايدن وزملائه وحدهم . فقد نمت في الغرب قبل عدوان السويس وابانه وبعده حملة من سوء الاعلام التي شملت تقريبا كل وجه من وجوه الاتصال بين الشعوب ، وبانت وقائعها في جميع الصحف والمجلات من الاكاديمية العلمية الى صحف التوزيع الجماهيري الواسع . وقد تأثرت بهذه الحملة تأثرا مؤسفا كل الاسف مقاييس الدقة وتحري المصادر وانتقاء العبارات التي نعتز بها في الغرب أشد الاعتزاز ويبدو هذا واضحا عندما نعرض أوضاع صحافتنا ووسائل نشرنا . فلقد ظهرت في انكلترا مثلا ابان أزمة السويس ، نشرة رخيصة تافهة تؤكد أن مصر تحكمها زمرة من مقلدي الفاشية الموسولونية (٢) . وعلى الرغم من أن هذه النشرة كانت بقلم شخص كان يعتبر فيما مضى حجة في شئون الشرق العربي ، إلا أنها تضمنت أخطاء واقعية مذهلة للغاية ، كقولها ان عبد الناصر لم ينضم الى جماعة الضباط الاحرار الا بين عامي ١٩٤٩ و ١٩٥١ ، بينما ثبت الوقائع ان عبد الناصر هو مؤسس الجماعة في مطلع حقبة الاربعين ، وحاولت النشرة ان تثبت ان القاهرة كانت ثير في دعايتها المسلمين ضد المسيحيين واستشهدت على قولها هذا بأقوال زعمت أنها اقتبستها من اذاعات القاهرة في تواريخ اختلقتها . وكانت الصورة التي رسمتها النشرة من النوع المرعب الى الحد الذي يرغم الانسان على تحري صحتها . وكان بين الخطباء المزعومين الذين اتهمتهم النشرة بالحملة على المسيحية الاستاذ عباس محمود العقاد ، الذي تبين أنه مؤلف سفر جليل عن حياة السيد المسيح ، أصدرته إحدى دور النشر المشهورة . وزعمت النشرة أيضا أن خطيبا آخر هو سليمان حزين قد ذكر من اذاعة القاهرة أن «المسيحية عنصر غريب حتى على أوروبا» ، وقد تبين بعد قراءة نص الحديث الاذاعي ان ما قاله الدكتور حزين هو « ان المسيح كان ولا ريب رسول السلام والحب والتسامح» .

وزعمت النشرة في أماكن أخرى من مزاعمها الكثيرة ، وهي نشرة

(١) حديث صحفي مع ديزموند ستيوارت مؤلف كتاب « مصر الحديثة » ١٩٥٨ .

(٢) وهلتر لاكير في كتابه « مصر عبد الناصر » نيكولسون ١٩٥٦ .

واحدة من مجموعة نشرات مماثلة ، ان اذاعة القاهرة بدأت في عام ١٩٥٥ جملة « تمجيد لكل ما هو سوفياتي » . وادعت أن هذه الاذاعة قد اذاعت في الحادى عشر من أكتوبر عام ١٩٥٥ ، ان « الديموقراطية الامريكية تتيح المجال للرأسمالية للتحكم في البلاد ... وان الاتحاد السوفياتى هو البلد الذى تتمثل فيه الديموقراطية الصحية » . وعندما قمت مرة ثانية بتحرى حقيقة ما اذاعته القاهرة في ذلك اليوم تبين انها اذاعت ما يلى :

« ليس ثمة ما يدعو الولايات المتحدة الى التخوف من احتمال انتشار الشيوعية بين العرب عن طريق استخدام الاسلحة السوفياتية والقروض الروسية ، وذلك لان للعرب مبادئ ونظما وعقائد ، لا يمكن لهم ان يتخلوا عنها » .

وكانت هناك مصادر عدة لهذا التأيد المتعمد لهذه الافكار المسيطرة على الشرق الاوسط ذاته . وبذل المسئولون الاسرائيليون وأنصار الصهيونية والحاثون عليها في جميع انحاء العالم ، كل ما لديهم من جهود ، لبعث الفرع والهأب مشاعر الغرب ضد الزعيم المصرى الذى يمثل البعث العربى الجديد والوحدة العربية ، وهما امران تشعر اسرائيل . بحتمية التخوف منهما على حد اعتراف بن جوريون نفسه . وتمكنت صحيفة النيويورك تايمز من ان تنشر في اواخر شهر أغسطس ، رسالة أنباء صحفية تلقتها من تل أبيب ، كأخبار واقعية لا مجرد تعليق ، تقول ان اسرائيل لم تعد تقف وحيدة ضد عبد الناصر وأحلامه التوسعية في اقامة الامبراطورية « . ولا ريب في أن هذا القول ، كان بمثابة دليل قوى كل القوة .

ونجد من الناحية الاخرى ، أن حكام العرب من رجال العهد القديم ، كانوا يؤكدون النظرية القائلة بأن عبد الناصر « شيوعى مقنع » وأنه على حد تعبير نورى السعيد « يود أن يتألق كزعيم للعرب كلهم وهذا هو خطؤه » (١) ، وكان الصحفيون الغربيون وقد ألفوا هؤلاء الحكام ، ونعتوهم بأنهم من مؤيدى الغرب لأنهم وقعوا أحلافهم معه ، يميلون الى تقبل ما يصدر عنهم من بيانات وتصريحات على اعتبار انها حقائق واقعة لا تقبل الشك أو النقص . وبات الاجراء الطبيعى عند هؤلاء الصحفيين أن يصدقوا كل اتهام يوجه الى مصر في أى موضوع يتعلق بمؤامرة لاغتيال احد الناس ، على أنه حقيقة ثابتة ، وأن ينشروا هذا الاتهام تحت عناوين بارزة ، كما ينشرون نبأ طرد الدبلوماسى المصرى ، الذى يوجه اليه رجال العهد القديم هذا الاتهام ، ثم يمتنعون بعد ذلك عن نشر أية أنباء لاحقة قد تتعلق بالموضوع ولا سيما اذا كانت تحمل طابع النفى للتهمة أو دحضها . أما اذا أعلنت القاهرة نبأ مؤامرة تحاك ضد مصر ، أو الجمهورية العربية المتحدة فيما بعد ، فإن هؤلاء الصحفيين المغرضين يصفون هذه التهمة بأنها « اكذوبة كبيرة » . وليس

(١) حديث نورى السعيد الى صحيفة الديلى تليفراف اللندنية عدد ٣٠ مارس ١٩٥٦ .

ثمة من ينكر أنه كانت هناك حلقات متصلة من التآمر والتجسس . يقوم بها رجال العهد البائد ضد مصر وسورية والقوميين العرب . وليس ثمة من ينكر أيضا أنه كان هناك تفاهم وتعاون بين الدبلوماسيين المصريين وبين القوميين العرب الذين يلقون الاضطهاد من حكوماتهم ، وكان هذا يتم دون علم أحيانا من الرئيس عبد الناصر . وهكذا نشأت في الغرب حالة تشبه حالة « العسكر والحرامية » فلا خطأ في رايه يمكن أن ينجم عن عهد مناويء لعبد الناصر وموال للغرب ، ولا اتهامات كاذبة يمكن أن تصدر عنه . وكانت الاتهامات التي يوجهها مثل هذا العهد ، تقبل على علاتها ، وجملة وتفصيلا ، أما الاتهامات التي توجه الى هذا العهد نفسه فلا تلقى تشجيعا ولا تنشر في الغرب مطلقا ، الا اذا كان القصد من النشر تكذيب القاهرة أو دمشق (١) .

وكانت هناك أيضا عملية غير عادية من الاطراء المستمر في الصحافة الغربية لعهد نوري السعيد . ولقد قيل مثلا لقراء صحيفة التايمز اللندنية قبيل حرب سيناء والسويس ، ان « العراق يؤثر الازدهار الاقتصادي على الفكرة القومية » . ومع ذلك فقد كان نوري السعيد وايدن يعدان العدة فعلا في تلك الآونة لاستيلاء العراق على الاردن وضمه اليه . واخذت الصحف الغربية بعد انتهاء حرب السويس تبرز القصص الموحى بها من العراق ، بأن سورية توشك ان تصبح دولة شيوعية تابعة . ومع ذلك ، كان نوري السعيد في الوقت نفسه ينشط في اعداد العدة لانقلاب مسلح في دمشق ، ويبعث بالاسلحة اللازمة الى سورية لضمان نجاحه . وعندما أحبطت الحكومة السورية هذا الانقلاب ، وقدمت المتآمرين الى المحاكمة ، راحت بغداد تكيل التهم بأن المحاكمة ليست الا صورة من « المحاكمات السوفياتية السورية » ، وهي قصة راحت الكثيرات من صحف الغرب تنشرها بدقة وأمانة . وبينما كان المستر ماكميلان ونوري السعيد يتهمان الجمهورية العربية المتحدة علنا

(١) من أمثلة هذه المواقف التي وقفتها الصحف الغربية الاتهامات التي ادعاها الملك حسين عن مؤامرة «ابريل» المزعومة في عام ١٩٥٧ ، والتي سأتولى شرحها في مكان لاحق . ومنها أيضا مزاعم المسيو سيوستيل المرتكزة على « اساءة الترجمة » من اللغة العربية ، والتي ادعى فيها ان عبد الناصر يسيطر سيطرة مباشرة على الثورة الجزائرية ويوجهها .

أما المثل الثالث فهو ما زعمه الملك حسين في عام ١٩٥٨ من محاولة الطائرات السورية النفاثة الاعتداء على طائرته . وقد اتهم الجمهورية العربية المتحدة ، بأنها أعدت مؤامرة لاغتياله ، واحتل اتهامه الصفحات الاولى من الصحف الغربية التي نشرته تحت عناوين بارزة . أما ما اُبرق به بعض المراسلين الغربيين الكثيرى النشاط من حقائق تفند هذا الاتهام وتظهر بطلانه ، وبينها نفى وكالة الامم المتحدة لما ادعاه حسين من أنه طلب الاذن بالطيران فوق اراضى الاقليم السوري عن طريقها ، فلم يلق اية عناية من هذه الصحف .

— المؤلف —

فى يونيو عام ١٩٥٨ ، «بالعدوان غير المباشر» ، كانا يبحثان فى الوقت نفسه موضوع غزو يقوم به العراق لسورية ، وهكذا طيلة هذه الفترة من السنوات الطويلة كانت صحافة الغرب تمجد « حسنات القيادة الثابتة المستقرة » فى العراق ، بينما كانت تصم أذنيها عن سماع ما يقوله أولئك الذين كانوا يعرفون خير معرفة أن نوري السعيد إنما يجلس على فوهة بركان من الاقطاع سينفجر حتما مفجرا معه كل ما للغرب من مصالح ومطيرا هذه المصالح وعهد نوري السعيد معها فى السماء .

وتظهر أية دراسة تشخيصية دقيقة لصحافة الغرب فى هذه السنوات وحتى عند وضع هذا الكتاب ، صورة أخرى من هذه العملية المشحونة بالضرر والأذى . فكثيرا ما تكون الصورة والتعليقات التى يرسمها محررو بعض الصحف البارزة والمجلات الاسبوعية ومراسلوها الدبلوماسيون مختلفة كل الاختلاف عن البرقيات التى يبعث بها مراسلو هذه الصحف والمجلات فى الشرق الاوسط الى الدرجة التى يصعب لحينها على القارئ أن يصدق بأن تلك التعليقات وهذه الرسائل تظهر فى صحيفة واحدة . والسبب فى هذا التباين واضح كل الوضوح ، وبسيط كل البساطة ، فمكاتب التحرير فى الصحف واقعة تحت تأثير اعلامى معين ، رسمى أو غير رسمى ، ولهذا فهى لا تأخذ بعين الاعتبار ما برد اليها من مراسليها فى المنطقة من انباء وصور تختلف عن الصورة المرسومة لها فى الوطن ، وتعتبرها « غير صالحة » ، وتكون النتيجة الثانية لهذا الوضع ، أن يتعرض المراسلون فى الشرق الاوسط لضغط مستمر من ادارات صحفهم ، لاختفاء « لون معين » على ما يبعثون به من برقيات . وكثيرا ما صبغت الحقائق الاساسية فى عبارات تحمل معانى الشك والزرارية ، تلبية لرغبات المكاتب الرئيسية فى الوطن ، وارضاء لأذواق جماهير القراء فى الغرب الذين يحملون صورا مشوهة عن العرب ولا سيما عن المصريين . ولو قمنا بعملية مقارنة دقيقة بين البرقيات الصحفية التى صدرت عن الشرق الاوسط بين عامى ١٩٥٥ و ١٩٥٨ ، وتلك التى صدرت عن جنوب شرق آسيا مثلا ، لتبينت لنا حقيقة واقعة ، وهى أن برقيات الشرق الاوسط لم تكن تسير فى طريق صحيح وسليم .

وكان ثمة عامل مهم آخر ، وهو الطريقة التى تتبعها اذاعات الغرب وصحافته فى التعبير . فكثيرا ما كنا نسمع بعبارات من أمثال « موال للغرب » أو « معاد له » و « موال لعبد الناصر » أو « معاد له » ، ولم تكن هذه التعبيرات الا ناجمة «عن رغبة هيئات التحرير» فى الصحف فى الاختصار بالتعبير لاداء المعانى من ناحية ، وعن ظهور نوع من «المكارثية» السياسية التى تحت على استخدام طريقة للتفريق بوضوح للقراء بين العهود الموالية للغرب فى الشرق الاوسط ، وتلك التى تقف مناوئة له ، وكثيرا ما تكون هذه التعبيرات خالية من أى نوع من أنواع التحليل لأسباب الموالاة أو العداء ، مما يجعلها تترك أثرا سيئا كل السوء فى توجيه الراى العام .

ولم تكن عبارة « موال للغرب » تعنى فى عين الحقيقة المجردة أكثر من

وجود انسان من طراز نوري السعيد ، على استعداد للاشتراك في تنفيذ سياسات معينة يروجها السياسة الراهنون ترويجا آليا في بعض الدول الغربية ، أى أنهم يتلونون ويختلفون مع تلون تلك السياسات واختلافها، أما عبارة « معاد للغرب » فلا تعنى الا أولئك العرب الذين يعارضون منفذى تلك السياسات من أمثال نوري السعيد والسياسات نفسها . ويصدق هذا التفسير أيضا على عبارة « معاد لبريطانيا » ، ومع ذلك فقد أدى تكرار هذه التعابير الى تثبيت أكثر الصور التعميمية خطورة في عقول الغربيين العاديين ، وهى صور « العرب الطيبين » أو « العرب الأخيار » ، وهم الذين يعتبرون الى جانبنا ، وصورة « العرب الأشرار » الذين يريدون « دمارنا » . وأدت هذه العناوين البارزة التى تظهر في صحف الغرب عن « الفتن التى يثيرها العرب المناوئون للغرب » الى احياء ذكريات الحروب الصليبية وأغانى رولاند وصيليل السيوف ، فى اذهان الغربيين بصورة جماعية ، وكان عبد الناصر ، قبل أى انسان آخر المحور الذى عتكرز عليه كل هذه الرؤى والصور .

ولو هبطنا من مستوى الصحف الكبيرة ، الى المستويات الخفيفة من صحف الاقاليم ذات التوزيع الضخم فى الغرب ، وما تنشره من صور ، لتمثلت لنا فيها صورة الرئيس عبد الناصر ، التى وجدت فيها « نعمة » ركزت عليها أكثر من أربع سنوات طويلة ، لنيفضه الى قلوب الناس من قرائها .

ولم يقتصر هذا الاتجاه على الصحافة وحدها ، ففى مطلع عام ١٩٥٨ التقطت شبكة تليفزيونية أمريكية شريطا لمقابلة صحفية استغرقت عشرين دقيقة بين الرئيس عبد الناصر ، وبين مراسلها المقيم فى القاهرة ، وظهر الرجلان فى الشريط يتحدثان بهدوء وقد ارتديا الملابس المدنية . ونقل الشريط بالطائرة الى نيويورك ، وعندما عرض على مديرى الشركة ، وجدوا أن الشريط « يفتقر الى القوة » ، وسرعان ما حذفوا من الشريط صوت مراسلهم فى القاهرة ، واستعاضوا عنه بصوت رجل أمريكى أجش ، يوجه أسئلة قاسية توحى بوجود جو من التوتر بين الرجلين . كقوله ... موجهها الحديث المدسوس الى الرئيس ... « هل لك بإسيادة الرئيس أن تعترف أو تنكر كذا وكيت » وسرعان ما استخرج المسئولون أشرطة قديمة من محفوظاتهم يعود تاريخ بعضها الى أربع سنوات ، وقصوا منها ما يعجبهم من صور أدخلوها غشا ، وتضليلا على الشريط الجديد . وعندما عرض الشريط بشكله المزور ، على جماهير النظارة من الأمريكين ، سمعوا أسئلة استفزازية وتنطوى على الشك توجه الى الرئيس ، واستمعوا الى ردود أضفوا عليها نغمات عدوانية ، ورأوا عبد الناصر وهو فى زيه العسكرى يتحدث الى جماهير ثائرة من الناس يهللون ويذمجون . وعمت الدهشة سفارة الجمهورية العربية السورية المتحدة فى واشنطن ، من رؤية موظفيها رئيس جمهوريتهم وقد عاد الى ارتداء بزته العسكرية ، فأبرقوا الى القاهرة ، ينقلون اليها ما رأوه . وغضب الرئيس عبد الناصر لهذا التزوير الفاضح ، وامتنع لمدة ستة أشهر أخرى عن السماح للصحفيين الغربيين بمقابلته .

وقد سبق لى فى فصول سابقة أن استعرضت الاسباب الاخرى التى تدعو الى مثل هذا التركيز . ولكننى أرى الواجب يحدونى هنا الى ذكر سببين آخرين ، أولهما أن عبد الناصر كان أول حاكم قومى عسكرى يظهر على المسرح الافريقى الآسيوى بعد الحرب العالمية الثانية، وثانيهما ما يقوم فى أذهان افراد الدوائر المتحررة الفكر فى الغرب . المتيقظة عادة ، من ردود فعل تجاه ما يتسلط على المسؤولين المحافظين عن ضغوط فكرية مهيمنة ، تثير الشكوك العميقة والامتعاض . وليس من اضاءة الوقت فى شىء أن نتساءل اذا كان « كابوس » عبد الناصر !! كان سيمضى عميقا فى سيطرته على أذهان هؤلاء ، لو أن الغرب فى عام ١٩٥٦ ، الف قيام الحكام من الثائرين العسكرين ، وكان قد فهم ما يساور الدنيا الافريقية الآسيوية من شكوك فى اصلاح النظم الغربية البرلمانية لها ، مما أدى الى قيام عدد كبير من أمثال هذه الانظمة الجديدة فى الحكم فى عام ١٩٥٨ (١) .

وأخيرا يمكن القول ان الشرق الاوسط ، لم يكن فى نظر هؤلاء الاحرار من الفريبيين ، منطقة مستعمرة . ولم يكن هؤلاء الاحرار فى نظرتهم الى المستعمرات سواء اكانت بريطانية أم فرنسية أم هولندية يأخذون بما تلجأ اليه السلطات الرسمية من تعابير محافظة لنعث الحركات الوطنية فيها كعبارتى « المطامع الشخصية » ، و « حفنة من مثيرى الشغب » ، وغيرها من عبارات الاغراق فى تبسيط الامور ، بل كانوا ينظرون اليها نظرة الشك وعدم التصديق . أما بالنسبة الى العرب ، فلم يحمل الاحرار أمثال هذه الشكوك أبدا تجاه ما يصدر عن الدوائر الرسمية المحافظة من تعبيرات . ولم يكن هناك قط بالنسبة الى العرب ، نفس الاحترام الذى يبديه الاحرار تجاه الحركات الوطنية فى أى مكان آخر من المستعمرات ، إذ أن العرب كانوا يعتبرون «أحرارا» يضاف الى هذا ، أن الصهيونية لعبت دورا كبيرا فى تشويه الموقف الليبرالى الغربى من السياسات العربية ، إذ أن دعايتها أى الصهيونية- كانوا يواصلون وبنجاح نشر فكرتهم فى أن الشرق الاوسط ، لا ينطوى الا على حركة وطنية صحيحة واحدة وهى حركتهم .

ولعل من المهم هنا أن نلاحظ ، ان الصحف والمجلات البريطانية نشرت صورا « كاريكاتورية » بعد صدور تقرير ديفلين عن نياسالاند ، تمثل الافكار المتسلطة عليها تجاه الحركات الوطنية ، ولم تظهر بينها أية صورة لاي زعيم عربى . وكانت هذه الرسوم تمثل صورا تاريخية لشخصيات وطنية تحدث السلطة الاستعمارية البريطانية وأدينبت بتهم « القتل والارهاب واثارة الفتن » لتعود فتعترف بها كشخصيات قادة لها وزنها واحترامها . وكان بين هذه الشخصيات التى أظهرتها هذه

(١) كان بين هذه الانظمة الجديدة نظام الفريق عبود فى السودان وقاسم فى العراق ، وأيوب خان فى الباكستان ونيوين فى بورما وناسوتيون مع سوكارنو فى اندونيسيا ، وكذلك نظام نكروما فى غانا .
- المؤلف -

الصور ، ديفاليرا ، ونهرو وتكروما ومكاريوس ، وكذلك الدكتور باندا ، وهو يقف وراء القضبان ينتظر دوره ليصبح في عداد أولئك القادة . ولكن لم يكن بين هؤلاء حتى سعد زغلول أو أى قائد وطنى آخر من قادة الشرق الاوسط ، على الرغم من الحقيقة الواقعة وهى أن تاريخ زغلول لا يختلف مطلقا عن تاريخ هؤلاء حتى فى أدق تفاصيله ، وبينهما النفى بالطبع . لكن سعد زغلول ، لم يعمر حتى تستقبله لندن كما استقبلت قادة البلاد الاخرى التى استقلت . لكن هذه الحقيقة لم تكن السبب فى عدم ظهوره أو ظهور شخصية عربية أخرى بين قائمة هذه الشخصيات التى جالت فى خواطر راسمى الصور الكاريكاتورية فى لندن فى عام ١٩٥٩ .



ويظل أمامنا فى هذه الدراسة التى نقوم بها لحرب سيناء والسويس ، موضوع أساسى يجب أن نتولى التحقيق فيه . فلقد كانت هناك معركة سيناء نفسها فى خضم هذه الازمات التى لفت العالم كله فى الايام الاولى من شهر نوفمبر عام ١٩٥٦ . وكانت الصورة العالمية الشاملة التى برزت لنتائجها هى السبب فى اضعاف لون جديد على افكار الغرب تجاه الشرق الاوسط منذ ذلك الحين ، كما أثرت تأثيرا حيويا على جميع التقديرات اللازمة الاكثر اتساعا ، والتى انهيته دراستها الآن . والآن ارى ان نتساءل ... ترى ما الذى وقع فى سيناء حقا ؟

حرب سيناء

« لقد كانت حملة مستقلة ، خاضها الاسرائيليون وحدهم .
وقد حاربوا فيها دون أى ارتباط بالقوات البريطانية أو
الفرنسية .. ودون أى عون منهما »

« من أكاذيب جون كونييل فى كتابه الذى أصدرته الهيئات
الصهيونية » .

بنيت من قبل أن الاسرائيليين استهدفوا من هجومهم على سيناء كفاية
قصوى الاستيلاء على شبه الجزيرة كلها ، وتأمين الوصول عن طريق
التدخل الانكليزى - الفرنسى اللاحق فى وقت معين الى حدود غربية جديدة
لاسرائيل تقف منسجمة ومتجاورة مع منطقة قناة السويس التى سيتم
تدويلها . وكان أدنى ما طمعت فيه اسرائيل ، احراز نصر مستقل . ينتشر
مره فى جميع ربوع الشرق الاوسط ، وجميع أرجاء العالم . ويبدو أن
اسرائيل وقد عجزت عن تحقيق هدفها الاقصى . أرادت اقناع العالم بأنها
ججت فى تحقيق هدفها الادنى ، والخلص من حرب سيناء والسويس
بأقل ما يمكنها من مغام ، فراحت تعمل على صدور تصريحات وأقوال
كالذى أوردته فى مقدمة هذا الفصل . يتاح لها أوسع انتشار فى
الصحافة الغربية . مما أدى الى تصديقها على نطاق عالمى واسع . وبدأ
الناس فى الغرب يتحدثون عن « انتصار » سيناء ، حتى أن هذه الدعاية
باتت جزءا من التاريخ الذى يكتب فى الغرب . وقد أدى تكرار هذه
الادعاءات الى أنها باتت تصور على أنها حقائق .

ولكن سبق لنا أن رأينا ان الحقائق الواضحة المستندة الى التفاريق
المستقلة الموثوق بها والتى لا يمكن نعتها لحظة واحدة بالتحيز الى المصريين
تناقض هذه الادعاءات المزعومة عن الزحف الاسرائيلى السريع الذى قامت
به القوات المهاجمة . وسبق لنا أن رأينا أيضا كيف انهارت المزاعم التى
وردت عن هذه الفترة من تاريخ الشرق الاوسط . واحدا اثر آخر ، على
أنها أساطير وأكاذيب . ولهذا فان أى تحليل لحرب السويس ، لا يمكن
له أن يمر مر الكرام بحقيقة ما دار من قتال فى شبه جزيرة سيناء . هل
كان هناك نصر اسرائيلى حقا ؟ هذا هو السؤال أما الرد عليه ، فيتطلب من
المحقق أن يجمع الحقائق وأن يربط بينها ويظهر أوجه التناقض بين
مختلف المصادر سواء أكانت مستقلة أم اسرائيلية أم مصرية . وأنا لا أعرف
ان دراسة موثوقا بها ومحايدة حقا قد صدرت حتى الآن عن هذا الموضوع
بكل ما فيه من تفاصيل . لكن فى ونس القارىء أن يعثر على وقائع الميدان
المجردة بتفاصيلها واردة فى السرد الذى سأتلوه . والذى نشره الرائد

ادجار أوبالانس في كتابه « حملة سيناء » ، وهو الكتاب الذي لا يمكن
لإنسان أن يتهمة بالتحيز لمصر . (١)

وأرى قبل كل شيء ، أن نتناول بالشرح والتفصيل الفكرة القائلة
بأن حملة سيناء كانت « حملة مستقلة » ، بين إسرائيل ومصر ، ولا شأن
لأحد آخر بها . وهنا أود أن أقول : ان هذه الحرب كانت بالطبع ومنذ
البداية حربا ذات طابع دولي كامل ، منذ استهلالها في التاسع والعشرين
من أكتوبر ، بل وقبل هذا التاريخ مذ كان في وسع واضعي الخطط
العسكرية الاسرائيلية استغلال العوامل الدولية . فلقد رأينا في فصل
سابق ، ان القاهرة اضطرت منذ أواخر شهر أغسطس ، الى سحب نصف
قواتها التي ترابط في سيناء للدفاع عنها وبينها لواء مدرع كامل . الى
مواقع أعدت للطوارئ غرب القناة . كرد على ما صدر من الدولتين الغربيتين
الكبيرتين - بريطانيا وفرنسا - من تهديدات راعدة ، ومن حشود عسكرية
بيتت نية العدوان ، في جزيرة قبرص ، وعندما أتمت إسرائيل تعبئتها
العامة . كان الجنرال دايان يعرف تمام المعرفة انه لن يواجه في سيناء ،
القوات المصرية العادية المؤلفة من ستين ألف جندي بسلاحها المدرع . وانما
سيواجه ثلاثين ألفا فقط ، وكان على يقين أيضا من أنه لن يجد أمامه
قوة الدبابات السوفياتية الضخمة التي زعموا وجودها فيما بعد ، وانما
سيجد نحو من سبعين دبابة معظمها من الدبابات الانكليزية والامريكية
القديمة . وقد حشدت إسرائيل أمام هذه القوة الدفاعية ، نحو من خمسة
وأربعين ألفا من الجنود ونحو من مائتين وثلاثين دبابة . وعلينا أن نضيف
الى هذه المقارنة العددية حقيقة واقعة أخرى ، وهي أن ثلث القوة المصرية
المؤلفة من ثلاثين ألف جندي كانت من جنود خط القتال المحاربين ليس الا ،
أما نسبة الجنود المحابين الى غيرهم من الفئات العسكرية الاخرى ، فكانت
أعلى في القوة الاسرائيلية .

وكان ثمة عامل آخر أكثر أهمية ، يجعل هذه الحملة بعيدة عن أن
تكون حملة اسرائيلية . فلقد دخل الجنرال دايان معركة سيناء ، معتمدا
على العون الفعلي المباشر من جانب فرنسا ، المتمثل في قاذفات سلاحها
الجوي المقاتلة النفثة وفي البسحرية الفرنسية . أجل لقد اتكل على
ما سيلقاه من عون من ستين طائرة فرنسية نفثة من القاذفات المقاتلة
وأربعين طائرة أخرى من طائرات النقل من طراز « نورد أتلان » ستتولى
نقل المعدات والمؤن من قبرص لقفها من الجو الى القسوات الاسرائيلية
الامامية ، والى ما ستضيفه السفن الحربية الفرنسية من حراسة على المذ
الساحلية الاسرائيلية لحمايتها من أي عمل حربي مصري . واذا ما أردنا

(١) اكدت عبارة « وقائع الميدان » بالنسبة الى هذه الدراسة ،
لاني لا أعتبر أن الكتاب الذي لا يشير الى المعونة العسكرية الفرنسية
الفعلية لاسرائيل أو حتى الى احتمال وجود التواطؤ كهذا الكتاب مصدرا
مقبولا تماما كحجة في الموضوع . وجدير بالذكر أيضا أن الراءد أوبالانس
قد قبل أيضا بصورة خاطئة التاريخ الذي قيل ان اسرائيل قد قررت
الهجوم فيه . فهو تاريخ خاطيء روجته الدعايات الصهيونية . المؤلف

تقويم العون الذي حصلت عليه اسرائيل من القاذفات المقاتلة الفرنسية وحدها ، أمكننا أن نؤكد تأكيداً قاطعاً ، بأن هذه الطائرات قد أناحت مجال التفوق الجوي على مصر في النفايات الخارقة لحجاب الصوت . وكانت مصر تملك في عام ١٩٥٦ ، نحواً من مائة طائرة من طراز ميج (١٥) وخمسين طائرة (اليوشين) من القاذفات النفاثة وثمانين طائرة من طراز ي فامباير وميتور ونحوها من عشرين طائرة قديمة من الطائرات القاذفة التي عرفت في الحرب الثانية . (١) وكانت اسرائيل تعرف (٢) انه في اكتوبر عام ١٩٥٦ ، كان تدريب الطيارين المصريين على هذه الطائرات الروسية لصنع ، الحديثة ، قد بدأ قبل فترة قصيرة للغاية ، وانه لم يكن لدى مصر أكثر من ثلاثين طياراً مدرباً على الميج وعشرة طيارين على الاليوشين ، وان عدداً آخر من الطيارين كان لا يزال يتدرب خارج البلاد . تنفيذاً لصفقة الاسلحة التشيكية التي نصت على أن يدرب الطيارون المصريون في أوروبا الشرقية لا في مصر ، منعاً لمجيء عدد كبير من المدربين الى مصر نفسها .

وهكذا لم يكن لدى مصر في الواقع الا ثلاثون طائرة ميج عاملة فعلاً وعشر طائرات اليوشين وأربعون طياراً يصلحون لقيادة الطائرات النفاثة البريطانية القديمة . وكانت اسرائيل تملك مقابل هذا نحواً من ستين أو سبعين طائرة « ميسنير » نفاثة ، وهي التي كشف عنها الرئيس عبد الناصر في عام ١٩٥٥ ، وستين طائرة « ميسنير » من السلاح الجوي الفرنسي وبعض الطائرات الامريكية من طراز (ف - ٨٤) واثنى عشرة نفاثة من طراز أوراجان . وخمسة وعشرين طائرة من طراز ميتور وبعض طائرات الفامباير والموستانج القديمة . ومن هذا يتبين أن قوة الطائرات المحاربة عند اسرائيل - وبينها الطائرات الفرنسية الفعلية طبعاً - كانت تبلغ أكثر من مائة نفاثة مقابل ثلاثين مصرية ، مع شيء من التعادل في الطائرات القديمة . وكانت لدى مصر عشر طائرات قاذفة تستطيع أن تهاجم اسرائيل ذانها ، اذا تمكنت من خرق ذلك السياج الواقى من الطائرات المقاتلة التي تفوق الصوت في سرعتها .

وهناك أخيراً عامل مهم آخر ، من عوامل المساعدة الخارجية التي

(١) لايعنى ادراج هذه الارقام التي وردت في الكتاب الانكليزي اى اقرار بصحتها ، كما أن نقلها لايعنى مطلقاً الكشف عن أسرار حربية ، اذ أن هذه الارقام انتشرت في النص الانكليزي للكتاب وهو في متناول العدو وكل ما قصدناه من نقلها ، هو أن نعرض وجهة نظر الكاتب في حقيقة ما دار في حرب سيناء .

— العرب —

(٢) اعترف حتى العقيد هنريكس المعروف بتشيعه للصهيونية في الملفات التي كتبها عن حرب سيناء، والتي تشبعت بروح التشيع لاسرائيل، أن واضع خطة الهجوم في سيناء من الاسرائيليين قد ركزوا خطتهم على أساس « أن مصر لا تستطيع استخدام أكثر من نصف مالدتها من الطائرات لافتقارها الى الطيارين المدربين » .

— المؤلف —

تلقتها اسرائيل ، فى التاسع والعشرين من اكتوبر ومن الواجب أن نذكره فلقد ظلت اسرائيل طيبة أكثر من ثلاثة أشهر قبل الهجوم ، تقوم بعملية تظاهر مدروسة ومحكمة فى خلق التوتر مع الاردن وهدفها اقناع القاهرة واقناع العالم أيضا ، بأنه اذا كان ثمة من خطر لحرب حول فلسطين فار هذا الخطر قائم على الحدود الاردنية لا فى سيناء . وكل ما ظهر فى هذه الفترة بالطبع سلسلة من الاتهامات توجهها اسرائيل الى الاردن بتهمة خلق حوادث الحدود ، وسرعان ما تتبع هذه الاتهامات بغارات انتقامية على قرى حدود الاردن كالغارة التى وقعت على قلقيلية مثلا فى العاشر من اكتوبر . وقد اعترف الاسرائيليون بعد انتهاء حرب سيناء بأن كل ما وقع من نشاط على حدود الاردن لم يكن أكثر من مجرد ستار أو غطاء تخفى به خطتها التى وضعتها لسيناء .

وسمعنا السير انطونى ايدن ، فور حادث الاعتداء على قلقيلية يحذر اسرائيل علنا من مهاجمة الاردن . وكان التفسير الرسمى الذى صدر للعالم عن ذلك الاجتماع الخطير الذى عقد فى باريس فى السادس عشر من اكتوبر ، أن الدولتين الكبيرتين ، أى بريطانيا وفرنسا ، وجدت ضرورة للبحث فى «الوضع الاردنى» . وتعنى هذه الحقائق بالاختصار ، ان بريطانيا وفرنسا وقد كانتا تعرفان حق المعرفة حقيقة نيات اسرائيل واتجاهها قد تعاونتا معها فى حملة تضليلها وخداعها ، وساعدتا على ابعاد العالم عن رؤية الاتجاه الحقيقى للخطر . ويقال أن القاهرة لم تكن تعرف فى التاسع والعشرين من اكتوبر بأن اسرائيل ستهاجم سيناء ، مما يشير الى أن حملة « الخداع » التى قامت بها الدول الثلاث قد حققت غايتها (١) .

وأعدت اسرائيل خطتها العسكرية ، على أساس الافادة مما حققته الاستعدادات السياسية والعسكرية والنفسية التى قامت بها الدول الثلاث من ثمار ونتائج . وقد عرفت المخابرات الاسرائيلية ، ان مصر قد ركزت قواتها الدفاعية الامامية على حدود قطاع غزة ، وعلى مراكز تقاطع الطرق المهمة فى العوجة ، لمنع اسرائيل من تكرار اعتداءاتها ، على مدن القطاع كما وقع فى فبراير عام ١٩٥٥ عندما اغار الاسرائيليون على مدينة غزة ، كما

(١) قد لا يكون قول المؤلف صحيحا هنا ، ولكن القاهرة ، وهى نتيجة بانظارها الى هذه الحشود الهائلة التى تحشدتها بريطانيا وفرنسا من قوات عسكرية واساطيل بحرية وجوية فى جزيرة قبرص ، وغيرها من قواعد البحر المتوسط ، والتى تتوافد الانباء اليها عن عزمها - أى هذه الحشود - على مهاجمة مصر ، لم تكن لتستطيع أن تفعل شيئا أكثر مما فعلته . فهى تدرك أن الخطر الهائل ماثل فى هذه الحشود الضخمة من قوات الدولتين الكبيرتين ، وأن عليها أن تعد العدة لمواجهة حار وقوع العدوان . ومن هذا يتبين ان حشود الدولتين الكبيرتين كانت أقوى عامل لعب اثره ، فى حرب سيناء ، اذ لولاها ، لرتبت القيادة المصرية خطتها على أساس مواجهة عدو واحد هو اسرائيل ، وكان حريا بهذه الخطة أن تضمن هزيمة اسرائيل ، لو كانت وحيدة فى هجومها على مصر .

— العرب —

عرفت تبعا لذلك ان القوات الدفاعية في منطقة سيناء نفسها ، ولا سيما على الطريق الصحراوي الممتد من الكنتلا عبر مضيق المتيله الى بور نوفيقي على قناة السويس ، لم تكن كثيفة لان التركيز في الدفاع كان قائما في المنطقة الساحلية . ولم يكن بالفعل في هذه المنطقة الصحراوية في التاسع والعشرين من اكتوبر عام ١٩٥٦ أكثر من ألف وخمسمائة جندي موزعين على بعض النقاط المهمة كثامد ونخل .

وهكذا تركزت الحطة الاسرائيلية كما يظهر في الخريطة المنحقة على القيام بتوغل عميق في هذه المنطقة الوسطى الصحراوية عن طريق اغواء قوات من المظليين على مضيق المتيله وارسال لواء مدرع على جناح السرعة بطريق البر على طريق (الكونتيلة - المتيلة) للاتصال بالمظليين . واعتقد الاسرائيليون ان نجاح هذه الحطة سيذهل القيادة المصرية ويحول انتباهها فورا الى مضيق المتيله ، مما يؤدي الى اغلاق الطريق الى وسط شبه جزيره سيناء نفسها . وهنا يبدأ تنفيذ المرحلة الثانية من الحطة الاسرائيلية . بعد أن يكون اهتمام القوات المصرية قد انصرف الى المتيلة في الصحراء ، وهي تقضى بهجوم قوى باتجاه الغرب من مثلث العوجة على الخطوط المصرية الدفاعية حول « أبى عفيله » باتجاه الطريق المهم الآخر الذي يعبر سيناء الى الاسماعيلية وتبدأ المرحلة الثالثة في موعد مقرر بعد ذلك بشن هجوم رئيسي ثالث على رفح في الشمال لعزل قطاع غزه وفتح الطريق الساحلي الى القنطرة على القناة . بينما تتجه قوة رابعة من ميناء أيلة في الجنوب على طول ساحل خليج العقبة للوصول الى شرم الشيخ .

وأود أن أؤكد نقطة مهمة هنا ، وهي أن بن جوريون ودايان ، على الرغم من اعنمادهما الكلي على تواطؤ فرنسا وبريطانيا معهما . وعلى ما ينبغي لهما هذا التواطؤ من مزايا ، لم يفيما خطنهما لحملة سيناء على أساس فصف الطائرات البريطانية لمطارات مصر بعد ثمان وأربعين ساعة من بدء الهجوم على سيناء ، أو على التدخل البريطاني - الفرنسي عن طريق الابداز المشترك بعد أربع وعشرين ساعة من نقطة البداية . فلفد أوضحت من قبل ، ان الحطة الاسرائيلية كانت تستهدف منذ البداية الحصول على « نصر مستقل » وهو ما كان ايدن يريده أيضا لابعاد شبهة التواطؤ عن بريطانيا . وتنتج عن هذه النقطة عدة ملاحظات يجب ايرادها ، وهي أن الاسرائيليين لم يفترضوا أن يقوم السلاح الجوي البريطاني بابعاد سلاح مصر الجوي عن سماء المعركة ، في مثل هذا الوقت العصير . وكانوا يفترضون انهم سيواجهون قوة مصر الجوية العاملة والتي شرحناها من قبل . ولم يكن الاسرائيليون أيضا يتوقعون عملية انسحاب مصرى مبكر من سيناء أمام التدخل الانكليزي - الفرنسي ، وانما كانوا يركنون الى شيء آخر . وهو أن التدخل الانكليزي - الفرنسي بعد أربعة أيام من بدء هجومهم سيؤدي الى عزل القوات المصرية في سيناء ، وإلى ابعاد الطيران المصري عن سماء المعركة بعد هذه الايام الاربعة .

وليس المهم في ايضاح هذه النقطة . مجرد النزاهة في العرض بل تبيان المصدر الذي دفع اسرائيل الى الاقدام على هذا الهجوم كله ، مع

مالها من مخابرات نشيطة . فالصورة الظاهرية للوضع ، تتمثل فى ان اسرائيل قد أقحمت نفسها فى هذه الحرب الصحراوية ودفعت اليها بالقسم الأكبر من قواتها كلها ، لتواجه دولة عربية واحدة لها حليفتان عربيتان أخريان ترتبط اليهما بالتزامات عسكرية ثابتة وهما سورية والاردن ، بينما تقوم وراءهما دولة عربية ثالثة هى العراق لا تستطيع تحت تأثير شعبها الوقوف مكتوفة اليدين فى أية حرب عربية اسرائيلية شاملة . لكن اسرائيل كانت واثقة بل لعلها كانت وقحة فى ثقتها هذه . فهى مغتررة أولا بما حققته من مكاسب فى حرب عام ١٩٤٨ ، وان لم تكن عمياء عما طرأ على الجيوش العربية بعد ذلك التاريخ من إعادة تنظيم وإعادة تجهيز وبعث للمعنويات . وقد تستطيع اسرائيل الهجوم على الاردن ، والوقوف موقف الدفاع من سورية ومصر ، ولكن الهجوم بجيش قوامه خمسة وأربعون ألفا من الجنود وبضعف ما تملكه من الدبابات على الأقل على صحراء سيناء ، التى تبعد مسافات نائية جدا عن أية جبهة جديدة قد تفتح عليها ، شئ آخر ، لا سيما اذا تحقق لها ما هدفت اليه من خرق الجبهة المصرية فى «أبو عقيله» ورفح والتوغل عميقا فى سيناء .

وهنا بالذات ينشأ الترابط فى التوقيت بين الهجوم الاسرائيلي والحملة البريطانية - الفرنسية . فلقد كان بن جوريون ودايان على تفة بأن الدولتين المتواطئتين معهما ستتدخلان بعد أربعة أيام على الأكثر . واقاما تبعا لذلك حساباتهما على قيام فترة أولية من الاضطراب فى الوسط العربى ، ومن الاتصال بين القاهرة والعواصم العربية الاخرى ، مما يتيح لهما مجالا للتنفس قبل أن تقدم أية دولة عربية أخرى على شن هجوم مؤيد نصر . وكان كل ما تخشاه اسرائيل انيا ، وفى الفترة الاولى ، قيام انطاثرات من الدول العربية الاخرى بالاغارة عليها ، كرد فعل آنى ، وقد عالجت خوفها هذا ، بالسنتين طائفة الاضافية الفرنسية التى استقدمتها لمساعدتها فى حربها وكلها من أحدث المقاتلات النفائة . وكانت تتوقع من الناحية الاخرى أن يؤدى توغلها السريع الأولى ، فى اتجاه لا يتوقعه العرب ، الى خلق شئ من الاضطراب والتردد عند الدول العربية الاخرى ، وهذا يفسر زعمها فى بلاغها الحربى الاولى بأن قواتها وصلت الى مشارف القناة . وسيؤدى هذا التردد الى كسب الوقت الثمين الذى تريده اسرائيل ، قبل أن تشرع الدول العربية الاخرى بهجوم جدى مضاد عليها ، هذا اذا قدر لهذا الهجوم أن يقع مطلقا ، ليحين موعد التدخل الانكليزى - الفرنسى ضامنا لها ما أرادته من نصر مستقل ومحافظة لها على غنيمتها الكبرى فى سيناء . وآذاك لا يعود ثمة مجال لتدخل عربى آخر ، أمام التدخل الغربى .

وكانت المغامرة والحالة هذه خطيرة ، ولكن ما يخفف من خطورتها أن لها فترة محدودة ضمنها التواطؤ بينها وبين الدولتين الغربيتين وهو التواطؤ الذى يحول حتما دون وقوع أى هجوم من دولة عربية أخرى . وكان مدى التوغل عاملا هاما فى انجاح الخطة الاسرائيلية ، مما دفع قادها المسئولين الى الادعاء فى البلاغ الحربى الاول ، زورا وبهتانا . بأن قواتهم وصلت الى مشارف القناة . ومن هنا تظهر أهمية النزول من الجوى

مضيق المتيلة ، فى الخطة الاسرائيلية كلها ، اذ أن هذا النزول ، كان يهدف الى اكساب اسرائيل ما تريده من هدف عن طريق ادعاء التوغل البعيد المدى ، بالاضافة الى ما يتركه من آثار نفسية فى القاهرة وعمان ودمشق وغيرها من العواصم العربية ، وكذلك من آثار فى دول العالم تهيوها لقبول فكرة التدخل الانكليزى - الفرنسى . ولا أكون مبالغاً أن قلت ، ان محور الخطة الاسرائيلية كلها قد تركز على هؤلاء الاربعمائة مظلي ، الذين انزلتهم الطائرات فى المتيلة ليكونوا محور المفهوم الاسرائيلي التفليدى عن « السوقية اللامباشرة » .

وقد استهلكت حملة سيناء بحركة أخرى تنطوى على الحيلة والخداع انجهدت نحو الاردن عندما تحرك اللواء الاسرائيلي المدرع الثانى بعد المائتين ناقصاً فوجاً واحداً ، فى التاسع والعشرين من اكتوبر باتجاه الحدود الاردنية على مسمع من العالم وبصره . أما الفوج الناقص ، فقد حملته طائرات النقل ، ليهبط رجاله فى الساعة الخامسة من مساء اليوم نفسه عن طريق المظلات فوق مضيق المتيلة ، فى الوقت الذى حولت بقية اللواء انجاهها فجأة لتدفع الارض بسرعة نحو سيناء ، ونقطة الحدود فى الكونتيلة على الطريق الى المتيلة . وكانت الطائرات الفرنسية الستون بطياريتها الفرنسية . رابضة فى مطارات اسرائيل بعد أن قطعت البحر المتوسط ، متأهبة لخوض المعركة . وأقلعت من مطار تيمبو فى جزيرة قبرص الطائرات الاربعون من طائرات النقل الفرنسية فى طريقها لتلقى الى المظليين الذين هبطوا فى المتيلة ، ما يحتاجون اليه من معدات وعتاد وأسلحة وذخائر ومؤن . واندفعت من مثلث العوجة الذى اغتصبته اسرائيل متحديه الامم المتحدة فى سبتمبر عام ١٩٥٥ ، ثلاثة ألوية اسرائيلية كاملة ، أحدها مدرع ، لتهاجم الخطوط الدفاعية المصرية الرئيسية عند « أبو عقيله » . واجتازت الوحدات الاولى من الرتل الاسرائيلي المندفع من ميناء « ايلة » جنوباً خطوط الهدنة فى زحفها على شرم الشيخ . ووقفت السفن الحربية الفرنسية وفى طليعتها جورج ليجو وسيركوف وكير سانت ، تحمى سواحل اسرائيل ومشارفها البحرية على المتوسط . وهكذا بدأ سباق اسرائيل مع الزمن .

ووصلت أنباء الهجوم الاسرائيلي عبر خطوط الهدنة الى القاهرة ، وكان جل اهتمامها منصرفاً الى هذه الحشود البريطانية الفرنسية الهائلة فى قبرص ، والى تلك المناورات الخادعة التى تقوم بها اسرائيل على حدود الاردن . وتلقت القيادة العامة من قائد السرية المصرية فى المتيلة نبأ هبوط المظليين الاسرائيليين فراحت تبعث بأولى النجذات الى ذلك الموقع ، وهى مؤلفة من فوجين من أفواج المشاة . ولم يكن قد اتضح للقاهرة بعد حقيقة ما تنويه اسرائيل . وهل تقصد من هذه الحركات تغطية هجوم شامل على الاردن ، لا تستطيع القاهرة أن تقف منه مكتوفة اليدين على الرغم من تركيز جل اهتمامها على حشود قبرص ، ولم تمض بضع ساعات حتى كانت الأوامر قد صدرت بارسال نجدات قوية على جناح السرعة الى سيناء بعد أن اتضحت حقيقة الاهداف الاسرائيلية . وعلى الرغم من هذا الواقع الذى أضحت مصر تجابهه ، لم تستطع القيادة العامة ، وحشود قبرص

مائلة أمامها أن تبعث إلى الميدان بأكثر من عشرة آلاف جندي آخر ، معهم مائتا دبابة • وهكذا اضطرت مصر • حتى في تلك اللحظة التي تواجه فيها هجوما إسرائيليا عاما • ألا ترسل إلى سيناء العشرين ألفا الآخرين من الجنود الذين كانت تحتفظ بهم عادة فيها ، بسبب ما تتوقعه من هجوم الدولتين الغربيتين عليها ، نتيجة هذه الحشود الضخمة في قبرص • وطبعا اعتمدت إسرائيل في حساباتها على هذا الواقع ، كما اعتمدت على المدى الزمني الذي يتطلبه نقل النجدة عبر سيناء إلى الجبهة الرئيسية في منطقة العقيلة - رفح - غزة ، أمام هجمات من الجو تشنها الطائرات الفرنسية والإسرائيلية • ولكن في وسع المرء أن يقول إن المعركة دارت في صباح الثلاثين من أكتوبر في أقصى شدتها •

وقد تميزت المعركة بمرحلتين واضحتين ومختلفتين فرضتهما القوى الخارجية ، أولاهما سياسية نفسية وثانيتها عسكرية وقعت فيها نقطة تحول ، بدلت طبيعة المعركة كلها • ولن أحاول في هذا الكتاب سرد وقائع المرحلتين ساعة بعد ساعة ، إذ أنني أعتقد أن مما يفى بالغرض من هذا البحث ، أن اكتفي بدرس ما كان واقعا أولا عند صدور الانذار الانكليزي - الفرنسي في الساعة السادسة مساء (وقت سيناء) في الثلاثين من أكتوبر ، وما حدث عندما بدأ السلاح الجوي البريطاني في قصف مصر بصورة مستمرة في الساعة السابعة والنصف من مساء الواحد والثلاثين من أكتوبر • وتظهر الخريطتان الملحقتان الآخرين حقيقة الوضع في هذين التاريخين •

عندما أعلنت الدولتان الغربيتان انذارهما المشترك ، وراح ايدن يعلن في مجلس العموم متحدثا عن القتال الإسرائيلي - المصري أن الحرب أخذت تدور على مقربة من القناة بل لربما كانت تدور الآن فوقها • لم تكن إسرائيل قد حققت أي تقدم بارز ومهم ، إلا على الطريق الصحراوي بين الكونتيلة والتميلة ، الخالية من وسائل الدفاع • فقد تمكن اللواء الإسرائيلي الزاحف بدباباته للاتصال بالمظليين الذين انزلوا في مضيق التيميلة من التغلب على مركز واحد في ثامد ، لا تدافع عنه الاسريتان من المشاة ظلما تقاتلان ببسالة وبطولة حتى خسرتا أكثر من ستين جنديا من رجالهما • وواصل الإسرائيليون تقدمهم في طريق خالية لا يعوقهم شيء إلا ما يتعرضون له من الغارات الجوية المصرية ، والتي أنزلت بهم خسائر فادحة للغاية • إلى أن وصلت مظلة جوية من الطائرات الفرنسية والإسرائيلية لحمايتهم بعد ظهر ذلك اليوم • وعندما صدر الانذار كان الإسرائيليون قد شرعوا في هجومهم على نخل ، وهي المركز الدفاعي الوحيد بين ثامد والتميلة • وجدبر بنا إذا أردنا أن نفهم طبيعة العملية كلها في هذه المنطقة من أواسط سيناء ، أن نتحرى بعض الشيء عن حقيقة موقع نخل ومعركته •

كان للمصريين في هذا الموقع فوج واحد من أفواج المشاة تؤلف السريتان اللتان كانتا تتوليان الدفاع عن الثامد جزءا منه • وقد هاجم الإسرائيليون هذا الموقع بقوة تضم نحو من ألفي جندي تعززهم مجموعة من دبابات Anx الفرنسية الجديدة ، وخمس وثلاثون من العربات

نصف المجنزرة التي تجعلها نصف - دبابات ، وثمانية عشر مدفع ميدان وثمانية عشر مدفع هاون ثقيل . وليس في المعقول ألا تغلب هذه القوة الهائلة من الاسلحة الثقيلة في التغلب على القوة المدافعة الصغيرة . وكان هذا العامل ، هو الذي مكن القوات المهاجمة من الوصول الى مضيق المتيلة، وهو الذي يقيم الدليل على بطلان الادعاء بأن اسرائيل حققت نصرا ساحقا على قوات تفوقها عدا .

وتعرض المظليون الذين هبطوا من الجو في مضيق المتيلة لنيران السرية المصرية المراقبة في المكان ولنيران الطائرات المصرية التي أغارت عليهم في فترات متعاقبة الى أن وصلت الطائرات الفرنسية والاسرائيلية فضمنت لهم شيئا من الغطاء الجوي . وأقام المظليون في خنادق حفروها في التلال الصخرية بعد أن جمعوا ما قذفته اليهم طائرات النقل الفرنسية من مؤن وعتاد بواسطة سيارات الجيب التي أنزلتها اليهم هذه الطائرات في الليل أيضا ، وتعرضوا طيلة اليوم الثلاثين من أكتوبر لنيران حامية من مدافع الهاون المصرية التي ردت عليها الطائرات الفرنسية بصواريخها منزله بعض الخسائر بالنجيدات الواحدة من السويس . ولم يتقدم المظليون شبرا واحدا طيلة ذلك النهار ، وظلوا في حالة سيئة الى ان وصلت اليهم

طلائع اللواء المدرع في منتصف ليلة الواحد والثلاثين من أكتوبر . أما في الشمال الشرقي حيث وقع الاندفاع الرئيسي ضد «أبو عقيلة» في الطريق الى الاسماعيلية ، وحيث واجه المهاجمون الخطوط الدفاعية المصرية الجدية ، فلم يتمكن هؤلاء من احراز أى تقدم يذكر قبل صدور الانذار المشترك . ولم يكونوا قد نوغلوا أكثر من عشرة أميال عن الحدود (١) . وكانت القوة الاسرائيلية المهاجمة تتألف من ثلاثة ألوية أحدها مدرع ومعها خمس وثمانون دبابة ثقيلة ومتوسطة الحجم . أما المدافعون المصريون فقد تألفوا من ثلاث كتائب مشاة . ولم تكن هذه الاميال العشرة التي اجتازتها القوات الاسرائيلية الا نتيجة حركة التفاف في نصف دائرة الى الجنوب عبر الفسيمة . ولكن الخطوط المصرية التي تحمي شمال سيناء كله ، كانت صامدة كل الصمود ولم تظهر أية اشارة توميء الى ضعفها . وأرى من الجدير بنا أن نسجل هنا ملخص الوصف الذي عرضه الرائد اوبلاس عن صورة الوضع العسكري في نهاية الثلاثين من أكتوبر اذ قال :

« احتل الاسرائيليون الفسيمة بصعوبة هائلة وبعد خسائر جسيمة، وفشلوا فشلا ذريعا في مضيق المتيلة ، كما ردوا على أعقابهم عند «أبي عقيلة» . وكان المصريون من الناحية الاخرى ، قد بوغتوا في بداية الامر . ولكنهم سرعان ما نجوا من وطأة البغلة ، ولم تمض اثنا عشرة ساعة على

(١) جرى بنا هنا أن نعيد ما زعمه ايدن في مذكراته من أن طائرات الكميرا التقطت صوراً في فجر الثلاثين من أكتوبر للقوات الاسرائيلية وهي في منتصف الطريق الى الاسماعيلية ، لتظهر مدى ما أورده هذا الرجل من افتراءات .

— المؤلف —

بدء العمليات العسكرية حتى كانت النجذات القسوة تتحرك بسرعة الى الجبهة » .

« لاريب في أن هذه الصورة الشاملة للوضع العسرى ، بعد انقضاء ثلاثين ساعة على بدء الحرب ، تثبت بالدليل القاطع أن اسرائيل لم تكن قد حققت حتى ذلك التاريخ أى مساء الثلاثين من اكتوبر عندما صدر الانذار البريطانى الفرنسى المشترك أى نصر مهما كان شكله . ولا ريب أيضا في أنها تنفى نفيا قاطعا ، كما سبق لى ان قلت ، أية حجج يندرج بها للدفاع عما جاء في الانذار من نص وتعابير . فالقتال بين مصر واسرائيل ، لم يكن عند صدور الانذار يهدد القناة أى تهديد . وحتى القوات البريه المتقدمة في وسط الصحراء الى مضيق المتيلة ، لم تتمكن من الوصول الى الاربعمائة مظل المحصورين في المضيق الا بعد انقضاء عدة ساعات على صدور الانذار . واذا ما استثنينا هذه القوة الصغيرة المحصورة ، التى لا نؤلف خطرا في حد ذاتها بالاضافة الى أنها كانت بعيدة عن القناة أكثر من أربعين ميلا . فإن أية قوة اسرائيلية لم تكن في نقطة يقل بعدها عن المائة والعشرين ميلا من القناة نفسها .

وهز الانذار المشترك ، القاهرة هزة عنيفة ، ولم يصدق الناس فيها ما سمعوه حتى في هذه المرحلة . وأعلن الرئيس عبد الناصر جهارا أنه لا يصدق كون هذا الانذار أكثر من مجرد « بلفة » ، وانه لا يصدق بأن الحكومة البريطانية ستهاجم مصر ، حتى تقذفها فعلا بقنابلها ، وهو ماوقع بعد أربع وعشرين ساعة من صدور الانذار . وتؤيد الاعمال التى قامت بها مصر في غضون هذه الساعات الاربع والعشرين حقيقة هذا الاتجاه الفكرى . وصحيح أن مصر لم تأمر بارسال نجذات أخرى في غضون هذه الفترة الى سيناء ، ولكن النجذات التى صدر الامر بارسالها قبل طلوع الانذار كانت لا تزال متجهة الى الشرق ولم تتلق أى ايعاز بوقفها عن السير بله ارجاعها . وواصلت جميع المواقع الدفاعية المصرية بذل أقصى طاقاتها في المقاومة . وانتهت المهلة التى أعطاهها الانذار في الساعات المبكرة من صباح الواحد والثلاثين من اكتوبر ، ولم يقع أى هجوم فرنسى - انكليزى . ومر النهار دون أى هجوم . ولم يقبل عبد الناصر ورفاقه مرارة الواقع ويبادروا الى العمل الا في الساعة السابعة والنصف من مساء ذلك اليوم عندما ظهرت الموجات الاولى من طائرات السلاح الجوى البريطانى في سماء مصر .

ولا يشكك أحد ، أو أى حجة موثوق به . في القرار الذى اخذه عبد الناصر ورفاقه . كما لا تجرؤ السلطات الاسرائيلية نفسها على انكاره سرا . وان كانت قد أصرت على رفض الاعتراف به علنا وطواعية لاسباب واضحة سأتولى الآن شرحها . كان هذا القرار يتلخص في سحب كل جندى وكل معدات ممكنة على التو ، وفي أقصى السرعة ، من شبه جزيرة سيناء كلها قبل أن يتمكن الغزو الانكليزى - الفرنسى من قطعها ، وايقاعها في الشرك . وتتابع الاوامر صادرة عن القاهرة منذ الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم ، ويرجع التأخر في تنفيذ بعضها مما أثار بعض الشكوك في أنها قد تكون صادرة في وقت لاحق الى سببين ، أولهما مادار من نقاش بين القاهر-

وبين قادة الميدان • حول ما تنطوي عليه هذه الاوامر من مساس بمصر
وثانيهما ما دار أيضا من نقاش كثر حول خير السبل لانقاذ هذه الاوامر •
وقد نص الأمر الأساسى على وجوب انسحاب جميع الوحدات التى لم تكن
قد اشتركت بعد فى المعركة فوراً ، أما الوحدات المشتبكة فى القتال فيتحتم
عليها أن تبدأ فوراً بانسحاب متدرج ، يقرر طبيعته قاداتها ، على أن تستمر
عمليات الاعاقة فى المؤخرة • وكان الاستثناء الوحيد ، متعلفا بالقوة
المرابطة فى قطاع غزة والمؤلفة فى نحو خمسة آلاف جندي • فقد كان عبد
الناصر ورفاقه يعرفون ان نشوب أية معركة رئيسية فى القطاع ، سيؤدى
الى خسائر مريعة فى أرواح اللاجئين الفلسطينيين الذين يكتظ بهم القطاع
الضييق والذي يربو عددهم على المائتى ألف • ولكن القاهرة كانت تخشى
أيضاً أن يؤدى أى انسحاب من القطاع الى خلق حالة من الفزع والرعب ،
قد تسفر عن نتائج لا تقل خطورة عن نتائج الصمود • ولهذا فقد صدر
الامر الى الحاكم العسكرى للقطاع ، بأن يستسلم عندما يقرر ان اللحظة
تحتم عليه التسليم •

وليس ثمة من شك فى أن قرار القاهرة بالانسحاب من سيناء مهم
بالغ الأهمية فى تقدير المعركة كلها ، مما يحتم علينا على الأقل تحليله
باختصار ، وهنا لابد من القول أولاً ، وقبل كل شئ ، انه ليس «تراجعا»
أبداً أمام الاسرائيليين أو تسليماً لهم نتيجة نجاح حققوه ، فلم يكن هناك
حتى هذه اللحظة ، ورغم انقضاء يومين كاملين على بدء المعركة ، أى نجاح
ظاهر ، ولكن الامر جاء نتيجة قرار عسكرى حتمه الخوف من سقوط
قوات سيناء كلها فى فخ تنصبه حركة كماشة اسرائيلية - فرنسية -
انجليزية وكان قصف مصر جواً على صعيد ما جاء فى الانذار منبهاً بغزو
انكليزى - فرنسى شامل ، لمنطقة السويس كلها ، قاذفاً بخط من النار
والقولاذ تملؤه دولتان عظيمتان ، يقام عبر الممر الوحيد الذى ستتسحب
منه القوات من سيناء أو الذى سيجرى تعزيزها عن طريقه ، ولم يكن فى
وسع أى قائد عسكرى فى القاهرة سواء أكان مصرياً أو غير مصرى ، أن
يصل فى مثل هذا الوضع الى غير النتيجة التى توصل اليها عبد الناصر
فى ليلة الواحد والثلاثين من أكتوبر تلك ويمكن القول أيضاً أن أى جيش
فى الحروب الحديثة لم يواجه مثل هذا الموقف اليائس الذى واجهه جيش
مصر ، أو مثل هذا القرار الحتمى الذى لم يكن ثمة مناص منه •

ولقد أطلقت حكماً عاماً فقلت ان اسرائيل لم تكن قد حققت أى نجاح
فى سيناء • عندما هدرت طائرات السلاح الجوى البريطانى مرعدة فى
سماء مصر ، وعندما وصلت القاهرة الى مثل هذا القرار المتناهى فى
خطورته ، وأرى لزوماً الآن أن أفصل هذا الحكم وأن أسنده بالادلة
والبراهين ، ولناخذ المعركة قطاعاً بعد قطاع ، بادئين بالقطاع الجنوبى ،
لم يكن زحف اسرائيل فى اتجاه شرم الشيخ فى هذا الوقت قد بدأ حركته
الرئيسية باتجاه الجنوب على الساحل بعد • ولم يكن أكثر من فوج واحد
قد اندفع الى ماوراء رأس النقب •

أما فى الجهة الوسطى ، عند مضيق المتيلة ، فقد انضمت بقية

اللواء المدرع الى المظليين الأربعمائة ، الذين كانوا قد هبطوا من الجو ، ولم تتمكن هذه القوات كلها طيلة الواحد والثلاثين من أكتوبر من عمل شيء سوى تعزيز مواقعها في «حيطان ديفلة» في منطقة الممر ، ولقد ذكر الراحل أوبيلانس في كتابه أن هذه المعركة كانت أقسى ماعرفته الحملة كلها وأكثرها ضراوة ، وأضاف أن الاسرائيليين كانوا قد وصلوا الى حالة شنيعة من الجهد والانهك .

وأما في الشمال في منطقته «أبو عقيلة» فقد صد المصريون كافة الهجمات الاسرائيلية من الشرق ، وصمدت مواقع المصريين الأساسية صمودا رائعا ، وإن كان الاسرائيليون قد قاموا بحركة التفاف من الجنوب يضاف الى هذا ان أيا من النجذات التي يبلغ تعدادها العشرة آلاف لم تكن قد وصلت الى هذا القطاع من الجبهة بعد ، لاهي ولا دبابتها المائتان وكانت لا تزال تتحرك شرقا على الطريق من الاسماعيلية ، وعلى الطريق الساحلي ، وهي تواصل تقدمها رغم ما تتعرض له من غارات جوية عنيفة تقوم بها الطائرات الفرنسية والاسرائيلية ، وثبت أن دايان نفسه شعر ليلة الواحد والثلاثين من أكتوبر بالقلق الزائد على مصير معركة «أبو عقيلة» في حالة وصول هذه النجذات المصرية اليها .

وكان الاسرائيليون قد فتحو جبهة جديدة في الشمال الأقصى باتجاه رفح لدى سماعهم بسقوط أول قبيلة من قنابل الحلفاء على أرض مصر ، ولم تكن هذه المعركة قد سارت سيرا حسنا بل كان الهجوم قائمًا توقف وظل متوقفا الى أن تعاونت المدافع الاسرائيلية والبوارج الفرنسية في قصف المواقع المصرية في الساعات المبكرة من صباح الاول من نوفمبر .

ويلخص الراحل أوبيلانس الذي عاد فاستعمل عبارة «انتصار» في النهاية في سرده للقصة ، الوضع عشية الواحد والثلاثين من أكتوبر على النحو التالي :

«وتبين بعد يومين من القتال أن الاسرائيليين لم يكونوا قد حققوا بعد شيئًا على النحو الذي كانوا يطمعون فيه ، وإن كانوا قد أحرزوا بعض التفوق .. أما بالنسبة الى المصريين ، فلم يكونوا قد أضاعوا كل شيء بعد فهناك لواء مدرع يزحف على الطريق الوسطى ولم تكن رفح قد سقطت بعد ، كما لم تكن مواقع «أبو عقيلة» قد ضعفت أمام المهاجمين ولم يكن الهجوم على العريش قد بدأ بعد » .

ويستحق هذا التلخيص للوضع أيضا بعض الانتقاد لما فيه من تناقض غريب ، ولأنه لا يؤلف صورة صحيحة عن الوضع كما كان عليه ليلة الواحد والثلاثين من أكتوبر ، ولا سيما بالنسبة الى ما كان متوقعا ، وكل ما حدث بعد الآن كان شيئًا حاسما حتما ، فالراحل أوبيلانس يعترف بتأثير أوامر القاهرة بالانسحاب ، ولكن اعترافه جاء في صورة غريبة ومخالفة للواقع الذي تحتتمه الطبيعة العامة للمعركة .

فلقد توقف الوضع منذ تلك اللحظة عن أن يكون حربيا ، وشرعت قوات مصر الرئيسية في تلك الليلة ، أي ليلة الواحد والثلاثين من أكتوبر في تنفيذ أوامر الانسحاب من قطاع اثر آخر ، متراجعة على طرق صعبة

الى الغرب باتجاه القناة • وفي الشمال البعيد ، أى فى رفح ، تلقى القائد المصرى وهو يرى مدافع البارجة الفرنسية جورج ليجو ، والمدافع البرية الاسرائيلية تصب نار قذائفها على مواقعه ، الامر من القاهرة بالانسحاب وتمكن رغم الهجوم الجديد الذى شنه الاسرائيليون على مواقعه تلك الليلة وفى الساعات المبكرة من صباح الاول من نوفمبر من اخراج معظم قواته وسحبها باتجاه العريش ، بفضل الحماية التى أمنتها له وحدات صغيرة قاتلت قتال مؤخرة تميز بالبسالة طيلة الوقت ، قبل أن تسقط رفح فى ذلك اليوم •

وتكرر نفس الوضع ، وإن تأخر بعض الشيء فى قطاع أبو عقيلة فلقد كان الانسحاب من هذا القطاع ، صعبا بعض الصعوبة من جراء حركة الالتفاف التى وقعت من ناحية الجنوب ولكن وحدات المؤخرة تمكنت من الصمود طيلة اليوم الاول من نوفمبر فى المواقع الرئيسية الى أن تم انسحاب الجزء الأكبر من القوات المصرية نحو الغرب ، ولم يتمكن الاسرائيليون من احتلال هذه المواقع الا فى صباح الثانى من نوفمبر •• عندما وجدوها تقريبا خالية من جنودها •

وأصبحت الطريق الى الاسماعيلية الآن من الناحية النظرية مفتوحة ولكن حرى بنا أن نتوقف قليلا عند هذه الطريق لنشرح كيف وقع الانسحاب ، ففي الساعات المتأخرة من صباح الاول من نوفمبر اندفعت الوحدات الامامية من الحركة الالتفافية حول العقيلة باتجاه الغرب على الطريق تعززها قوة كبيرة من دبابات شيرمان الضخمة ، ولكن هذه القوات الاسرائيلية ، اصطدمت فى «بئر سالم» بالعناصر الامامية من رتل النجدة المصرى الذى كان يتحرك شرقا باتجاه «أبو عقيلة» منذ الثلاثين من أكتوبر رغم ما يتعرض له من هجمات جوية عنيفة ، ودارت معركة عنيفة بين عدد متساو تقريبا من دبابات شيرمان الاسرائيلية ودبابات (ت ٣٤) المصرية مما أدى الى وقوع اصابات وتلفتت القوات المصرية آنذاك الامر بالانسحاب فانسحبت غربا ، بينما ظلت القوات الاسرائيلية فى مواقعها أربعا وعشرين ساعة أخرى طلبا للراحة من المعركة العنيفة التى خاضتها ، ولو صح ما زعمه العقيد هنريكس وغيره من الكتاب المتشيعين للصهيونية من أن مصر قد «هزمت» فى هذه المعركة لكان الانسحاب المصرى فى معركة «بئر سالم» قد تحول الى هزيمة يسيطر عليها الذعر ، ولا تقف حدودها الا عند الاسماعيلية ، ولكن القوات الاسرائيلية ما لبثت أن اشتبكت فى «بئر جفجفة» فى صباح الثانى من نوفمبر أى بعد مضي أكثر من يوم على صدور الامر من القاهرة بالانسحاب مع الدبابات المصرية ، ولننقل هنا ما قاله الرائد أوبيلانس عن هذا الاشتباك •

«ودارت معركة دبابات استمرت طيلة ساعات بعد الظهر ، ومعنى فيها الفريقان بالحسائر ، ولكن المصريين تمكنوا من صد الاسرائيليين حتى حل الظلام ، وراحت دباباتهم تتراجع بنجاح وبسرعة فى اتجاه القناة»

ويتبين من هذا أن القوات المصرية كانت تقوم حتى مساء الثانى من نوفمبر بعمليات مؤخرة تعويقية لتغطية الانسحاب ، وهنسا كان الاسرائيلون قد وصلوا الى النقطة • التى كان ايدن قد زعم وصولهم اليها

فى الثلاثين فى أكتوبر أى قبل ثلاثة أيام كاملة • ومع ذلك لم تكن القوات التى وصلت الى هناك الا طليعة أمامية فى الدبابات ، ما فتئت حتى تلك اللحظة تلقى مقاومة مصرية منظمة وعنيدة ، رغم انقضاء يومين على صدور الامر بالانسحاب •

وتظهر نفس هذه الصورة عندما نستدير جنوبا الى مضيق المتيلة وكان القائد المصرى هناك قد تلقى الاوامر بالانسحاب فى ساعة مبكرة من ليلة الواحد والثلاثين من أكتوبر ، وشرع على الفور فى تنفيذها وهكذا عندما شرع اللواء الاسرائيلى الكامل فى الهجوم فى الصباح ، وجد أن معظم الخطوط المصرية قد أخلى من الجنود الذين خلفوا وراءهم جماعات مؤخرة صغيرة لتغطية الانسحاب بزرع الألغام فى الطريق، واعاقة التقدم الاسرائيلى ولكن الاسرائيليين وقد أنهكهم القتال ، على حد تعبير الرائد أوبيلانس ، لم يحاولوا التقدم غربا طيلة ذلك اليوم كله ، ولم يحاولوا أيضا التقدم باتجاه القناة طيلة الثانى من نوفمبر ، اذ لم يستطيعوا اسكات آخر جيب من جيوب المقاومة المصرية الصغيرة فى المضيق قبل الثالث من نوفمبر •

ونعود فنتطلع الآن الى الوضع فى أقصى الجنوب فى شرم الشيخ . لم يكن التقدم الاسرائيلى نحو حامية هذا الموقع قد حقق نجاحا كبيرا ولم يشرع فى هجومه الفعلى قبل الرابع من نوفمبر ، وكان القائد المصرى فى شرم الشيخ قد تلقى أمرا من القاهرة بالانسحاب ، ولكنه رد على ذلك باستحالة التنفيذ وانه سيقا تل والحالة هذه حتى النهاية ، وكان الضابط يقود ألفا ومائتين من الجنود ليس الا ، تواجههم قوة اسرائيلية ضخمة مؤلفة من لواء مدرع كامل ، وبعض القطع البحرية فى أيلة ، وتعززها غارات جوية تقذف قنابل النابالم المحرقة، وتنزل المظليين فى بعض المناطق ومع ذلك ظل القائد المصرى صامدا حتى النهاية رغم ما أصيب به من خسائر أرببت على المائتى شهيد والثلاثمائة جريح ، ولم يستسلم الا فى الخامس من نوفمبر أى بعد خمسة أيام كاملة من تلقيه ما يشعره من القاهرة باستحالة وصول أية نجدات اليه ، وما يبلغه أن بقية القوات المصرية ، أخذت تنسحب من سيناء ، وهنا يجوز لنا أن نتساءل ، هل هذه الحقائق الثابتة المؤكدة تنطبق مع ما زعمه الاسرائيليون من « نصر خاطف » أو « هزيمة » ؟

وأرى أن أنتقل الآن بعد أن سردت ما وقع بعد ليلة الواحد والثلاثين من أكتوبر، من صدور الأوامر بالانسحاب، البحث فى عامل آخر ذى أهمية عسكرية بالغة الخطورة • فعندما وصلت التقارير الى الرئيس عبد الناصر فى الأول من نوفمبر عن نتائج الغارات التى قامت بها الطائرات البريطانية على مطارات مصر • اصدر الزعيم المصرى امرا آخر • وكانت هذه الغارات قد انزلت بعض الحسائر بالمطارات المصرية ، فتوصل عبد الناصر ، على الرغم فى حماسة قادة سلاحه الجوى ، الى قرار آخر بوقف كل نشاط جوى مصرى • وكانت حفنة الطيارين المصريين الممتازين قد قامت بنحو من (١٥٥) عملية طيران فوق سيناء طيلة الثلاثين والواحد والثلاثين من أكتوبر ، وحقت نجاحا ، يفوق كل ما عرف من أرقام قياسية ، وان كانت الطائرات الفرنسية والاسرائيلية النفثة التى تفوق سرعة الصوت ، قد

بدت متفوقة كما على الطائرات المصرية • أما الآن فقد تغير الوضع تماما • وبات لزاماً على الصدرات المصريه ان تخترق السيج اجري لدى فرضته الطائرات البريطانية والفرنسية فوق مصر ، قبل أن يصل الى سماء المعركة لتواجه الطائرات الفرنسية والاسرائيلية النفائة التي تفوقها عدداً ، والتي تعمل من مطارات سيناء نفسها • وآمن الرئيس عبد الناصر ، أن قيام الطيارين المصريين بأية حركات جديدة في مثل هذه الأوضاع ومن مطارات تتعرض باستمرار للقصف الجوى من الطائرات البريطانية والفرنسية يعتبر عملاً انتحارياً ولا جدوى منه مطلقاً •

ولم يكن هناك في القاهرة من يستطيع التكهن في هذه المرحلة أى بعد الأول من نوفمبر ، بحقيقته ما سيحدث ، وإن كان بتصميم قاسماً على القيام بنضال طويل ضد الغزو الانكليزي - الفرنسي وضد اسرائيل أيضاً • وقرر عبد الناصر ان حفنة الطيارين المصريين الموجودين آمن من ان نضحي بهم عبثاً ، لأن مصر ستكون في حاجة اليهم في نضالها الطويل المقبل • ولهذا الاسباب كلها ، أصدر الرئيس عبد الناصر أوامره بوقف كل نشاط جوى ، وراحت طائرات الاليوشن واييج ، يقودها طياروها ، تجد الملجأ الآمن لها ، في مناطق بعيدة لا تصل اليها صائرات الدول المعتدية • وقامت بعض الطائرات العاملة من مطارين عسكريين في سيناء ، بأخر طيران بعد ظهر الأول من نوفمبر • وباتت الاجواء منذ تلك اللحظة على حد تعبير الرائد اوبيلانس ، السخيف ، تحت سيطرة القوة الجوية الاسرائيلية • ولكن يجب ان نضيف ، اذا كان هو قد نسي هذه الاضافة أو تجاهها ، ان الاجواء باتت تحت سيطرة القوة الجوية الفرنسية العاملة في سيناء على مساعدة الاسرائيليين •

وأثر خلو الجو من الطائرات المصرية على التوات المنسحبة غرباً في سيناء باتجاه القناة ، اذ أخذت الارتال المنسحبة تتعرض لجحيم من نيران الطائرات الفرنسية والاسرائيلية ، كما تعرضت لهذا الجحيم أيضاً القوات التي كانت لانزال صامده في العريش وخان يونس وشرم الشيخ • وكان حاكم قطاع غزة قد نفذ أمر التسليم ظهر الثاني من نوفمبر ، لكن حامية خان يونس قررت أن تصمد ، وحاولت أن تستمر في القتال ، ولكنها لم تستطيع المقاومة أمام ما تعرضت له من جحيم الدبابات والطائرات ، فانهارت صباح الثالث من نوفمبر •

وكان الانسحاب أمراً شاقاً في وجه هذه الاوضاع التي لم يلقها جيش من الجيوش في الحروب المصرية ، لا سيما بعد أن فقدت القوات المنسحبة أى غطاء جوى ، بعد قرار وقف النشاط الجوى المصري ، وأصبحت هدفاً صالحاً للطائرات النفائة المغيرة التي تستخدم ضدها المدافع الرشاشة والصواريخ والقنابل وقذائف النابالم المحرقة • ولا يعني هنا أن أبحث في أمر ما تميزت به هذه الغارات من بعد عن كل ما يسمى « بالاخلاق » ، لان الطيارين الفرنسيين والاسرائيليين ، كانوا يعرفون أنهم لن يواجهوا أية مقاومة سوى ما يحمله الجنود المنسحبون من مدافع وبنادق • ولكن

الحاجة الى وضع الصورة على حقيقتها ماسة لاثبات ما فى كلمة « نصر » من زيف ومين .

ولم يكن هناك أمل فى النجاة أو فى الرد على الطائرات المغيرة ، أو فى النجدة تأتى من أية جهة كانت . وكان الضباط والجنود يعرفون ان بلادهم تتعرض لهجوم من دولتين عظيمتين ، وأن الأوامر صدرت اليهم بالانسحاب من ميدان المعركة مع اسرائيل . وهم يرون أنفسهم مسوؤا أكانوا مشاة أم فى سياراتهم هدفا يائسا لنيران الرشاشات والصواريخ والقنابل والقذائف المحرقة والتي تحدث أزيزا مخيفا وهى تنزل عليهم من الطائرات الفرنسية والاسرائيلية التى تروح وتقود كما تشاء . ولم يكن ثمة مكان تختفى فيه هذه القوات ، فالأرض صحراوية ومكشوفة تعلوها الرمال .

ولا أدري ما سيكون عليه موقف جنود اسرائيل لوجدوا أنفسهم فى مثل هذه الأوضاع النفسية والبدنية . ولكن ما أعرفه أن سلوك جنود مصر ، لم يكن مختلفا عن سلوك أى جنود يمتنون الى أعظم الدول العسكرية . فالجنود ينسحبون وفقا لخطة مرسومة من القتال ، ويجدون أنفسهم فجأة وقد فقدوا كل حماية جوية ، وليست لديهم مدافع كافية ضد الطائرات وليس أمامهم من ملجأ أمين أو غطاء طبيعى من صخور أو أشجار تخفيهم عن عيون الطائرات المغيرة عليهم باستمرار . . . انهما أوضاع لا تنطبق فى رأى على أى عرف للمعارك . ومع ذلك فقد أثبت جنود مصر شجاعة وبسالة فائقتين فى دفاعهم مما اضطر بن غوريون نفسه ازاءه الى الاعتراف به وهو مندهش فى أول تقرير عسكري قدمه الى برلمانه .

ولو أخذنا بعين الاعتبار عدد الذين استشهدوا فى معارك « شرم الشيخ » و « قسيمة » و « حيطان ديفله » و « أبو عقيلة » طبقا للأرقام التى اعترفت بهما اسرائيل نفسها لتبين لنا ، بوضوح ، أن هذه الأرقام لا يمكن أن يقدمها الا شجعان بواسل ، صمدوا فى مراكزهم يقاتلون حتى النهاية .

وأرى لزاما على الآن ان الحى الوضع . ففي التاسع والعشرين من اكتوبر ، لم تكن اسرائيل قد حققت أى نصر فى سيناء ، واذا كانت قد حققت أى نجاح ، فان هذا النجاح لم يكن اسرائيليا ، وانما كان بريطانيا - فرنسا - اسرائيليا . وفى وسعى أن أقول ، انه لم يكن هناك أى « نصر » بما تحمله هذه الكلمة من معنى حتى بدأ القصف الجوى البريطانى والفرنسى على مصر . وأما بعد صدور أوامر الانسحاب ، فلم يكن هناك فى رأى الا « نصر » واحد تستطيع اسرائيل أن تتبجح به فى سيناء ، وهو ما أنزلته ، بهؤلاء الجنود المنسحبين المفتقرين الى كل حماية جوية من خسائر فى الارواح .

ونتساءل الآن . . . ما مدى أهمية أوامر الانسحاب فى المعركة ؟ ان الرائد أو بالانس الذى سمح لنفسه باستعمال عبارة « نصر » رغم عدم وجودها ، والذي لا يمكن للصورة التى رسمها أن تسمى « مؤيدة لمصر » يحكم على الاثر الذى تركه التدخل ، الفرنسى الانكليزى على النحو التالى :

« لو لم يقع التدخل ، لطالت حملة سيناء أياما وأياما ، واسابيع واسابيع وقد لا تتغير النتيجة ، ولكن اسرائيل ، كانت ستخرج من القتال حتما ، وهي مثخنة بالجراح ومجهدة ماليا واقتصاديا وماديا ، وكانت خسائرها في الأرواح مستبلغ جدا مرعبا بالنسبة الى دولة صغيرة كاسرائيل ، (١) » .

وكانت العوامل الرئيسية في هذه الحرب ، مقررّة في مجموعها منذ امد طويل ، وهي من الوفرة بحيث يجب تقديمها في أي تكهن عن الحرب لو وقعت في شكل مغاير ، وكان من المستحيل أن نفترض حربا تقع في شكل مغاير في عام ١٩٥٦ ، فلو افترضنا مثلا عدم وجود «تدخل» فرنسي - انكليزي ، لتحتم علينا أن نفترض أيضا عدم وجود «تواطؤ» سابق ، ومثل هذا الافتراض ، يستلزم أن لا تكون هناك أزمة «قناة» وما رافقها من تهديدات انكليزية - فرنسية مستمرة ، قبل سبتمبر وبعده ، وإذا افترضنا أن «التدخل» الانكليزي - الفرنسي لم يقع تحتم علينا أن نفكر «بتدخل» عربي ، كان لابد وان يقع ، ولم يمنع وقوعه الا طلب القاهرة من الدول العربية ، بأن لا تتدخل وان تقف دون حراك .

وعلينا فوق هذا كله ، اذا افترضنا عدم وجود «تدخل» انكليزي - فرنسي ، أن نضع بعد ذلك السؤال العريض الضخم .. هل كان في الامكان في مثل هذه الحالة أن يقع هجوم اسرائيل ؟ اني أرى للأسباب الذي شرحتها في هذا الفصل وفيما سبقه من فصول ، ان ثمة مبررات تدعو الى الاعتقاد بأن مثل هذا الهجوم ما كان ليقع ، ولو وقع لما وقع في اتجاه سيناء أبدا ، وهل كان في وسع موسى دايان أن يتحدى القوة المصرية الكاملة التي تحتفظ بها عادة في سيناء ، والقوات الاضافية التي كان في وسعها أن تزج بها في الميدان لولا الحشية من حشود قبرص ؟ وهل كان في وسعه أن يتحدى قوة مصر الجوية بدون هذه الطائرات النفثة الفرنسية الستين التي جاءت له لنجدته ؟ وهل كان في وسعه أن يتجاهل الدول العربية الاخرى ؟

أجل لقد كان هناك نصر لاسرائيل في سيناء ، ولكنه نصر على الورق ليس الا ، وفي صحافة الغرب وبرلماناته التي خلقت أسطورة «النصر الاسرائيلي المستقل» ولم تكن هذه الأسطورة الا واحدة من الأساطير العديدة التي ظل الصهيونيون يخلقونها في الغرب طيلة أربعين عاما .

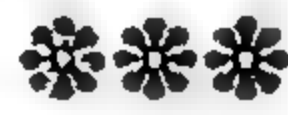
(١) هذا ما رآه هذا الكاتب المشايخ لاسرائيل والذي يظهر تشييعه في اشارات الكاتب اليه وفي استخدامه لعبارة «نصر» اكثر من مرة ، وهو ادري من سواء بأنه لم يكن هناك أي نصر من أي نوع ، أما رأى المحايدين فيختلف كل الاختلاف عن هذا الرأي ..

- المغرب -

الى النقطه التي لارده عنها

« كان في وسع الولايات المتحدة الامريكية في شهر اغسطس عام ١٩٤٥ ، ان تعمل على مساعدة البعث الثوري لآسيا ، وان تعترف بالتبديل الحتمي في الاوضاع الراهنة ، وان تتولى قيادة الثورة نفسها وكانت تلك الفترة بالنسبة الى آسيا من أكثر الفترات حراجه في تاريخ العالم ولكن الولايات المتحدة فشلت في أن تحمل لواء رسالتها التاريخية في آسيا ، وذلك لان الحكومة الامريكية كانت آنذاك أكثر اهتماما بميزان القوى منها بالبواعث الاجتماعية » .

روبرت بين - ١٩٤٩
في كتاب «تقرير عن أمريكا» لجون داي



« هل ترانا سنكون مخلصين لتقاليدنا عندما نرى الشعوب الاسيوية تتقدم اليها طلبا لتفاهم والثقة » أو هل سيكون موقفنا منها موقف الزاجر ، مرددين نغمتنا الماثورة سيسيئر عليكم أنروس اذا لم تفتحوا عيونكم ؟ » .

شيستر باولز في كتابه
« تقرير سفير » - لندن ١٩٥٤



هناك نوع من التآلف التاريخي بين هذه المعارك الضخمة التي تخوضها الآمال ضد التقاليد الاستعمارية وبين هذه الكوايس التي تخوض معاركها ضد الواقع . ولقد أتاحت للدول الكبرى ، المرة تلو المرة ، أوضاع نسميها نحن بنقاط التحول التاريخية ، تكون فيها دروس الماضي وعبره تحت تصرفها . ولكن هذه الدول الكبرى ، كانت تمر بهذه النقاط بشيء من التردد المنجع من الكرام ، فيظل الصراع قائما بل ويمضي في الحدة والاشتداد . وآنذاك تقع النقاط التي لا تحول فيها ولا ردة عنها ، والتي لا يمكن التأجيل فيها في إعادة تقدير المواقف ، لأن السياسات والمواقف التي تتطلب إعادة التقدير والنظر قد هوت حطاما ، وقد انتقل زمام المبادرة الغربية في الشرق الاوسط ، بعد نقطة التحول في السويس الى الولايات المتحدة ، وانتقلت معه الفرصة التي لا تقدر بثمن ، للاستفادة من عبر السويس ودروسها .

وكنيت ذات يوم من ايام ديسمبر عام ١٩٥٦ ، اتحدث في حانوت صغير في بلدة أريحا (في الاردن) الى رجل منصف من اللاجئين الفلسطينيين عن الاثر الذي تركه عدوان السويس عند الخمسة والثمانين الف لاجيء فلسطيني المقيمين عند سفوح جبل التجربة (جبل فرنطل وراء أريحا) فقال لي الشاب ... « اعرف . انه امر مدهش . فنحن كبار السن نهتم بالسياسة طبعاً ، ولكن الغريب ان اجد ولدى الذي لا يتجاوز الثالثة عشرة من عمره ، يتحدث فيها ويفكر كما نفكر لأول مرة » .

وسألت الرجل بالطبع ، عما قاله الصبي حتى حمله على قول ما قاله ، فأبلغني ان زلزالاً ارضياً عنيفاً وقع ذلك اليوم وهز الاردن كله . وجاءه ولده يسأله عن سبب وقوعه ، فلما رد الوالد بانه لا يعرف ... انفجر الولد هاتفاً ... كم كنت اود لو وقع في لندن وباريس وهدمهما . وسأله أبوه ... ولماذا لندن وباريس ؟ لا موسكو وواشنطن مثلاً ؟ ... فرد الصبي والدهشة تعلو وجهه ... لا . لا . انهم صدقونا .

وكان تقع سيناء وبورسعيد قد بدأ ينجلي ، كما ان سورة الغضب العاصف ، أخذت تهدأ شيئاً فشيئاً . ولقد انتهى الخطر الحاد اماًل . وسلبت حكومتا ايدن وموليه بلاديهما ما كان لهما من نفوذ نافع في الوطن العربي ، وكان ايدن في هذا اكثر ضرراً من زميله . فلقد كان في مكتة العرب ان يفهموا ان تخوض فرنسا حرباً ضدهم في مصر ، طالما انها تخوض حرباً ضدهم في الجزائر ، ولذا لم يكن عدوانها غريباً بالنسبة اليهم ، لكنهم أصيبوا بما يشبه الصدمة العنيفة من جراء عمل بريطانيا . وكانت هذه الظاهرة غريبة ولكنها مألوفة في المفاهيم القومية . ففي هذه الموجة من الغضب الثائر ، كان المرء يسمع أحياناً من العرب قولهم ... « لا ريب في أن ايدن رجل مريض . ومريض للغاية . اذ ليس من المعقول أن تقدم بريطانيا على ما فعلته » . ويميل الانسان الوطني الى دراسة الحدود المحتملة لما يمكن ان يقوم به خصمه من أعمال على ضوء مصالح هذا الخصم وحدها . وعندما يقوم هذا الخصم بعمل يقضي على مصالحه هو ، فان الوطني لا يكتفى باظهار الدهشة وحدها ، وانما يحس أيضاً وبطريقة غريبة بالألم من أجل خصمه . وليس هذا الشعور زائفاً ولا مصطنعاً ، وانما هو شعور حقيقي أصيل .

لكن كل هذا لم يكن اكثر من مجرد التفاتة متباطئة الى الماضي . فلقد خلفت الدولتان الكبيرتان فعلاً فراغاً في المنطقة ، وكان في وسع المرء ان يلمس هذا الفراغ في كل مكان . ولكن ترى أي نوع من الفراغ خلفنا ؟ وجد العرب أنفسهم يتأرجحون بين الاحساس بالاعتراف بالجميل للاتحاد السوفياتي ، وبين التوقعات المذهلة والتي لا تكاد تصدق من جانب امريكا . حقاً لقد كان هذا هو الميزان الصحيح ، الاعتراف بجميل موسكو ، والامل في واشنطن . وأخفت أصوات المدافع في بورسعيد وسيناء ، وتلك التي ما زالت مدونة في الجزائر منذ عام ١٩٥٤ ، هدير الدبابات السوفياتية وهي تقتحم شوارع بودابست .

ولكن ان ظلت مذابح المجر ، خفية على العرب لا يرونها . فان موقفهم الاساسى من الحساد لم يتبدل أبدا . وعاد الغرب يخطئ فى قراءة الوضع وتفهمه من جديد . فالتصور بجميل موسكو لا يعنى مطلقا الاستعداد لتوقيع احلاف معها ، أو منحها ايه قواعد . وعلى النقيض من ذلك تماما ، فان الطريقة التى اتبعتها روسيا فى تهديد بريطانيا وفرنسا بالصواريخ ، قد ذرت العادة الوطنيين بشئ من القوة ، بان هناك دولة عظمى أخرى . (١)

واخطأ عدد كبير من العرب فى الوقت نفسه ، فى فهم ما عملته أمريكا . وقد اعتبر هؤلاء عملها مجرد استنكار لهجوم استعماري . واطلقت بارقة أمل لفره قصيرة فى شهر نوفمبر عام ١٩٥٦ ، ما لبثت ان عمت العرب ، فى ان تكون الولايات المتحدة قد تخلت عن ذلك الطراز من السياسات الذى ورطها فى سحب عروض القروض للسد العالى ، وانها قد عادت الى تفاليدها المناهضة للاستعمار . واذا كان قد وجد فراغ فى الشرق الاوسط ، فان هذا الفراغ لم يكن متعلقا بالنفوذ بل بالامال المتجهة الى أمريكا . وليس ما اقوله مجرد تلاعب فى الالفاظ أو استعارات ، بل كانت اللحظة تاريخية من تلك اللحظات التى يمكن مقارنتها بما وقع فى آسيا فى عام ١٩٤٥ . والتى يمكن اعتبارها نقاط تحول لا ردة عنها .

ولم يتح للولايات المتحدة فى اى وقت منذ عام ١٩٤٨ ، ان تقف مثل هذا الموقف الخلى بالفرص فى الشرق الاوسط . ويتساءل المرء ماذا عنته تلك الفرص يا ترى ؟ لم تكن الحاجة ماسة آنذاك لاية خطوات مشيرة ، كما لم يكن هناك اى مجال لترياق شاف ، ولم يكن فى الامكان اجراء اية محاولة فى موضوع فلسطين لعدة أشهر قادمة على الاقل ، كما لم يكن من المتوقع القيام بأى شئ عاجل فى موضوع قناة السويس . وكل ما كانت الحاجة ماسة اليه آنيا ، هو ان تتبع أمريكا سياسة حذرة . واضحة تعمل على تشجيع ثقة القوميين العرب بها ، وتستغل ببطء ولكن بشئ من التاكيد ، ذلك الوفرة الضخم من الآمال التى علقها العرب عليها من جراء موقفها تجاه العدوان الثلاثى على السويس .

وكانت الحاجة ماسة من الناحية العقائدية الى ايماءات واضحة من جانب الولايات المتحدة تشير الى استعدادها للتسليم للعرب بموقف عدم الانحياز الذى سلمت به للهند ، والى اعترافها وتفهمها لحلم العرب فى وحدتهم ، وانها على استعداد للسماح للعرب باختيار القيادة التى

(١) القى الرئيس عبد الناصر خطابا عنيفا فى الواحد والعشرين من نوفمبر ١٩٥٦ أعلن فيه ان مصر لن تصبح دولة تابعة لاية دولة عظمى، وقال انها لن تسير فى ركاب الماركسية أو الفاشية أو العنصرية أو الاستعمارية أو الاستيطانية . ولا ريب فى انه كان مصمما على مراقبة شعور الاعتراف بالجميل الذى غمر جماهير شعبه . وظلت اذاعة القاهرة تذكر المستمعين طيلة الفترة التالية بأن القومية العربية لا تعنى الشيوعية . المؤلف .

يشاءونها . اما اذا تعذر على الولايات المتحدة ان تتخذ هذه المواقف كلها . فقد كانت فرصتها تحتم عليها على الاقل ان تمتنع عن مطالبة العرب ، وهزة العدوان الانكليزي - الفرنسي ، مازالت حية وقوية في اذهانهم ، بالاعتقاد بانهم معرضون لخطر العدوان السوفياتي .

لكن شيئا واحدا ، كان واضحا كل الوضوح بحيث بدا لي ان من الفجاجة بمكان ان ادونه وأنا أطوف أرجاء المنطقة في نوفمبر عام ١٩٥٦ اذ لم يكن من مصلحة أمريكا نفسها ، ولا من مصلحة الغرب عامه في المنطقة ان تبحث هي عن الحصول على التزامات سوقية (استراتيجية) جديدة من المنطقة او من اية دولة عربية ، مهما كان الاسم الذي ستحملة هذه الالتزامات . ولم يكن الوضع يسمح بتفضيل دولة عربية على أخرى او اختيار تلك العهود الراجعة في قيام مثل هذه الالتزامات . فلقد جاء عدوان السويس بمثابة دليل جديد للشباب العربي بأن الحلف الاجنبي في أى مكان من الوطن العربي يهدد المنطقة كلها . ولم يكن ثمة جدوى من مناقشة هذا الرأي ، فهناك حقيقة مجردة وهي أن التسهيلات الخاصة لاتفاقات حلف بغداد والتي تشمل السماح بقيام قواعد للسلاح الجوي البريطاني في العراق ، كانت جزءا لا يتجزأ من الشبكة السوقية لدولة عظمى ، لم يمض طويل وقت على غزوها مصر .

يضاف الى هذا ان تبني الولايات المتحدة لسياسة عدائية تجاه مصر وسورية ، يعرضها لعداء الملايين من العرب خارج هذين البلدين أيضا . فلقد تحطم النسيج العربي كله عن موقف عبد الناصر ، على صخرة السويس التي أدى هو الى العدوان عليها ، ولم تكن هذه النتيجة مجرد تخمين او افتراض مطلقا .

لا انها ليست فرضية بل حقيقة واقعة ، انطلق صوتها عاليا في سماء كل عاصمة بل قرية عربية ، ولم يكن المستر ايزنهاور في حاجة الى ان يهدى الرئيس عبد الناصر مسدسا آخر مطليا بالفضة ، عربونا على صداقته وكان في وسع ساسة أمريكا ان يحملوا مايشاؤون من آراء شخصية عن الرجل . ولكن كان من الضروري جدا تجنب سياسات تتعارض مع الاتجاهات التي جعلت من عبد الناصر الزعيم والرمز للعرب جميعا .

ولم تكن هذه الضرورات بالنسبة الى السياسة الامريكية تمثل مثالية أو احسانا ، وانما كانت في حكم كل تقويم صحيح ، الرد المصلحي والصادق على « المقدمات » السوفياتية . فلقد أضحى الاتحاد السوفياتي في الواقع دولة من دول الشرق الاوسط في دبلوماسيته ، وهو وضع لم يكن في الامكان تبديله في عام ١٩٥٧ كما لم يكن في الامكان تجنبه في عام ١٩٥٤ . وقد قرر الاتحاد السوفياتي أن يدخل حلبة الصراع الثقافي المستمر في الوطن العربي الثوري . وبينما كانت مراكب الانتقاد التابعة للامم المتحدة تتولى تطهير القناة . كانت فرقة للرقص الشعبي التشيكي تؤدي ادوارها على مسرح دار الاوبرا في القاهرة . . . وهي الدار التي بنيت للامبراطورة الفرنسية يوجيني عند مجيئها الى القاهرة لافتتاح قناة السويس . والتي كانت اوبرا « عائدة » لفيردي ، أول ما مثل على

مسرحتها . ولم يكن في الامكان ايضا الحيلولة دون اشتراك الاتحاد السوفياتي في هذه المنافسة الثقافية . وكان الاتحاد السوفياتي قد اخذ يسعى الى التغلغل عميقا في اسواق تجارة الوطن العربي ومشاريعه الاقتصادية . . وقرر الاتحاد السوفياتي ان يكون دولة عظمى ذات مهابة في عيون العرب ، بتولى الدفاع عن حركاتهم الوطنية . والتأكيد لهم باحترامها لحيادهم ، وبيعهم ما يحتاجون اليه من سلاح وسلع ، دون أية اشتراطات سياسية ومقدمة اليهم ما يحتاجون اليه من قيود غير مشروطة بفوائد طويلة الاجل لاتعدو الاثنين والنصف في المائة . فهل كان في مكنة الغرب ان يرد على الاتحاد السوفياتي ردا ايجابيا في كل هذه النواحي ؟

وكانت هناك في التركيب المعقد للسياسات السوفياتية ، بعض الآمال التي تنال حق الاولوية والتفضيل على غيرها . وكان اول هذه الآمال ، امكان العثور ضمن الحركة القومية العربية التي يسميها الشيوعيون « بورجوازية » والتي يقودها الرئيس عبد الناصر ، على عدد كاف من الرجال المستترين عقائديا بحيث يصبح في الامكان اخفاء تصاميم الصداقة العربية - السوفياتية - الصينية ، على المشهد الكامل للحركة العربية . لكن آمال الخبراء الروس في شئون الشرق الأوسط في تحقيق هذا الهدف ما لبثت ان طاشت في نهاية عام ١٩٥٦ . ففي مصر ثبت ان عبد الناصر لا يمكن ان يكون من ذوى العقائد الانطوائية المستترة كما توقف في سورية التعاون التكتيكي المعادي للرجعية بين البعثيين الاشتراكيين وبين شيوعيي خالد بكداش . أما الشيوعيون في مصر . فكانوا اما رهن المراقبة الشديدة او رهن الاعتقال . وكانت موسكو نفسها قد يئست من نشاطهم وحيويتهم ، واصبحت تطلق عليهم اسم الانتهازيين (١) .

ولكن ظل هناك هدف بعيد المدى ، وهو السعي الى الرفع من مكانة الاتحاد السوفياتي دائما في عيون العرب ، بحيث اذا حلت لحظة ثورية مواتية في مكان ما خارج مصر ، ظهر حزب شيوعي محلي ، ضمن اطار جبهة تقدمية ، يفرض عن طريقها سلطانه السياسي المباشر . وكان «البقاء على هذا الاحتمال قائما ، يتطلب ثلاثة شروط أساسية اولها اهتبال الفرص المستمرة المواتية للظهور أمام العرب بمظهر المدافع عنهم أمام المطامع الاستعمارية الغربية وثانيهما استغلال كافة الفرص للظهور أمامهم أيضا بمظهر الدولة الكبرى الوحيدة التي تمنح القروض غير المشروطة الى دولة الحياض العربي ، وثالثها ، الانقاء على التجزئة السمية والسياسية بين العرب ، بحيث يمكن القيام بعمل مرن متلون لمواجهة زعامة عبد الناصر .

(١) قام المؤلف بتحقيقات خاصة في هذا الموضوع لدى عدد من مصادر الاعلام . ففي عام ١٩٥٧ ، منع عرض أحد الافلام السوفياتية في دمشق . والفى عرض سلسلة من الافلام السوفياتية في مهرجان سينمائي في القاهرة .

— المؤلف —

وكان من الواضح الى حد بحث الرعب في النفوس ، أن في امكان الاتحاد السوفياتي . ان يحقق هذه الشروط الثلاثة بسهولة مابعدھا من سهولة ، اذا سلت الولايات المتحدة سلوكا خاطئا بعد انتهاء مشكلة السويس . وكانت الدول المعتدية الثلاث في سيناء والسويس ، قد حاولت علنا وجهارا ، أن تبرر عدوانها بين ماقدمته من تبريرات بالحاجة الى مواجهة خطر العدوان الروسي في الشرق الاوسط . وكان هذا الادعاء بمثابة تضليل وخداع صارخين في عيون العرب ، بل حجة باطلة لجأ اليها الاستعمار الغربي ، أظهر الموقف الذي اتخذه الاتحاد السوفياتي بطلانه وكذبه ، ولقد ثبت للعرب ، أن المساعدات الغربية مشروطة ، بل مغالية في شروطها . وبدت حكومتا سورية والاردن (في عهد الحكم الوطني) ووراءهما تأييد شعبي قوى ، راغبتين رغبة اكيدة سجلتها الوثائق الرسمية ، في اقامة اتحاد تعاوني (فيدرالي) مبكر ، مع مصر ، كخطوة حثيثة في طريق انجاز الوحدة العربية الشاملة التي حاء عدوانا سيناء والسويس دليلا واضحا على ضرورتها السريعة . وهكذا ظهرت ثلاثة تساؤلات جوهرية أمام العرب ، كان عمل الولايات المتحدة أن تجيب عنها . وقد توقف على طريقة جوابها ، كل ما للغرب من علاقات مع العرب ، وكل ما لموسكو من فرص في المستقبل .

وظهر هناك عامل آخر في هذه الفترة من الترقب في اواسط نوفمبر عام ١٩٥٦ ، ويتلخص في مخاوف رجال العهد القديم المحافظ في الشرق الاوسط واهدافهم ، من جماعات نوري السعيد وشمعون ، وساسة المدرسة القديمة في الاردن ومعظم أفراد الاسرة المالكة السعودية ، اذا وجد هؤلاء الافراد عونا خارجيا قويا ، وكان نوري السعيد قد اعتمد سنوات طويلة ، على ذريعة الخطر الشيوعي لاضطهاد المعارضة الوطنية داخل العراق ، والحفاظ على العون الغربي لعهدده ونظام حكمه ، ورأى رجال المدرسة القديمة في الجهود الرجعية في الشرق الاوسط ، في الجهود المجمومة التي بذلتها حكومة ايدن لتبرير عدوانها على السويس بادعاء وجود قواعد سوفياتية في سيناء ، دليلا مرشدا لهم يستطيعون السر على منواله والتمسك به . وكانت الدولة الغربية الوحيدة التي ظلت تملك شيئا من المبادرة في الشرق الاوسط ، هي الولايات المتحدة وكانت مصابة بعصاب اكبر ضد الشيوعية ، يبلغ حدود الهوس . وقد فشلت الخطة التي رسمها نوري السعيد مع ايدن لضم الاردن الى العراق ، وجرت انتخابات حرة هناك في الواحد والعشرين من أكتوبر أسفرت عن فوز العناصر الوطنية بالاعلبية الحاسمة . لكن الخطر من قيام وحدة بين مصر والاردن ، ظل متوقفا على قيام وحدة بين مصر وسورية . ورأى نوري السعيد وهو الماكر الداهية ، في سورة الفرصة لاعادة التوازن مع القومية العربية الفتية التي يمثلها عبد الناصر ، وللحصول على عون امريكي حاسم . وكانت هناك حتى في صفوف الجبل العربي الجديد جماعات من المثقفين ثقافة غربية ، وكانوا يخشون متآثرين بالدعايات الغربية الكاذبة التي يقرأونها من أن يغدو عبد الناصر أسير السياسة السوفياتية . ورأى نوري السعيد في كل هذه العوامل فرصة فعزم على اهتبالها ، ولم يضيع وقته .

وصدوت في أواسط نوفمبر موجة صوتية متصاعدة تنشر الشائعات التي تبعث الرعب ، وتنسبها الى المصادر الموثوق بها ، ناقله اياها الى الغرب ، زاعمة أن المقدم عبد الحميد السراج رئيس المكتب الثاني السوري (آنذاك) ، يوشك أن يصبح « القوميسار الاحمر في سورية » وقيل ان هناك انقلابا مشايخا للسوفييات يوشك أن يحدث في سورية ، كما قيل ان الطائرات السوفياتية النفثة شوهدت في مطارات سرية في سورية ، وأن الخبراء السوفييات يتدفقون على البلاد ، وهم متنكرون تنكراً بسيطاً ، ولم يكن في سورية الا عدد قليل من الصحفيين الغربيين ، اذ أن البلاد كانت لاتزال في حالة طوارئ نتيجة العدوان الثلاثي ، وكانت تغلق حدودها اغلاقاً محكماً . وانتشر الذعر في الغرب انتشار النار في الهشيم ، تغذيه الروايات التي تصدر عن بغداد وبيروت وأنقرة وباريس ولندن . (١) ولكن مؤلف هذا الكتاب ، تمكن من التجول بحرية في سورية داخلاً اليها وخارجاً منها كما يشاء . وتبين له أن كل هذه الشائعات ، كاذبة ولا أساس لها من الصحة ، وأن عبد الحميد السراج ليس الا ضابطاً وطنياً شاباً ، وقد أثبتت الايام صحة رأي المؤلف اذ أن السراج سرعان ما قاد في عهد الجمهورية العربية المتحدة حملة لمكافحة الشيوعية في الاقليم السوري . وبينما كانت الانباء الرسمية المستمرة التي يوحى بها شمعون ، تحتل صحف بيروت متحذثة عن الخطر الشيوعي في سورية ، راح ضابط كبير في المخابرات اللبنانية يعترف لي بصراحة ، أنهم على يقين من أن السراج ليس شيوعياً .

لكن الضرر كان قد وقع وحتى قبل أن يتمكن رجال من أمثال هانسون بلدوين المحرر بصحيفة « النيويورك تايمز » من الطيران الى سورية باحثاً عن القواعد السوفياتية ليعود فيبعث الى صحيفته بأنه لم يعثر على قاعدة واحدة منها . وراح المستر دالاس يعلن تأكيد بلاده مساعدتها لحلف بغداد . وأخذت واشنطن تعج بالانباء الرسمية عن خطوة أمريكية جديدة تهدف الى « مواجهة الخطر الشيوعي في الشرق الاوسط » ومعالجة وضع « فراغ النفوذ » الذي خلقته أزمة السويس . وراح نوري السعيد في أواسط شهر ديسمبر وبعد أن تمت له تهيئة الرأي العام في الغرب ، يحاول القيام بانقلاب عسكري مسلح في دمشق ، فيبعث بالأسلحة العراقية عبر الحدود الى شركائه من السوريين المتآمرين . (٢) وتمكنت الحكومة السورية من احباط المؤامرة ، ولكن

(١) نشرت « التايمز » اللندنية في عددها الصادر في ٢٨ نوفمبر عام ١٩٥٦ رسالة من بغداد تقول أن المستشارين الروس يتدفقون على سورية . وأن الاسلحة الروسية بدت تغمرها وأن رئيس الوزراء صبرى العسلي رجل لاهول له ولا طول ، وأن السراج هو حاكم سورية المطلق .

(٢) عثر على الأدلة القاطعة على محاولة الانقلاب فيما بعد في أوراق نوري السعيد الخاصة بعد ثورة العراق ، ولم يحاول أي من رجال نوري السعيد انكار صحتها في محاكمات بغداد عام ١٩٥٨ ، وأن كان هؤلاء قد انكروا بعض التهم الاخرى التي وجهت اليهم . - المؤلف -

هندما بدأت محاكمات المشتركين في المؤامرة الانقلابية ، أخذت بغداد في اشباع وسائل الاعلام الغربية بنظريتها عن « المحاكمات الصورية على الطراز الشيوعي في سورية » .

وحملت أسلاك البرق ليلة الخامس من يناير عام ١٩٥٧ الى بيروت الرسالة الخاصة التي وجهها الرئيس ايزنهاور الى الكونجرس الامريكي والتي باتت تعرف بمبدأ ايزنهاور . وكانت هذه الرسالة أول بيان رئيسي عن السياسة الامريكية في الشرق الاوسط منذ انفجار سيناء . وقد ضمت الرسالة عدة ألوف من الكلمات ، وكانت موجهة قبل كل شيء الى الكونجرس الامريكي ، وان كانت الاستعدادات الرسمية والدبلوماسية قد اتخذت من قبل لضمان وصولها الى أكبر عدد من العرب . وعلى الرغم مما في الرسالة من عدد كبير من الكلمات ، فان الفقرات التالية ، كانت الاشارات الوحيدة التي تمت ولو من بعيد الى الافكار والمخاوف والعواطف التي كانت تجتاح الوطن العربي عندما خرج من محنة السويس وسيناء ... قالت الرسالة :

« وقعت مؤخرا حركات حربية اقحمت فيها الدول الغربية التي كانت تتمتع بنفوذ كبير في المنطقة نفسها . وادى الهجوم الكبير نسبيا ، الذي شنته اسرائيل في شهر اكتوبر الى توسيع شقة الخلافات الاساسية القائمة بينها وبين جيرانها العرب . وعملت الشيوعية الدولية على تضخيم ماوقع من عدم استقرار ، مستفلة اياه احيانا كل استغلال ... ولن يحل هذا البرنامج الذي وضعت ، جميع مشاكل الشرق الاوسط .. فهناك مشاكل فلسطين ، ومشكلة مستقبل اللاجئين العرب .

« وهناك مشكلة الوضع المقبل لقناة السويس . وتزيد الشيوعية الدولية في حدة هذه المتاعب ، ولكنها تظل في معزل عن تهديدها .

ويهدف التشريع المقترح الى معالجة احتمالات العدوان الشيوعي سواء اكانت مباشرة أم لا مباشرة » (١) .

وهكذا كان المستر ايزنهاور يتحدث عن « شرق اوسط » لا يشبه في قليل أو كثير « الشرق الاوسط » الذي كان مؤلف هذا الكتاب وغيره من الصحفيين الغربيين يتولون آنذاك دراسة أوضاعه . فلقد كان الوطن العربي لا يزال يترنح من صدمة العدوان الغربي الثلاثي . ومع ذلك يقوم رئيس الولايات المتحدة بعد أن يعرض لهذه الاحداث بعبارتين يصف فيهما عدوان الدولتين الكبيرتين « بالحركات الحربية » وعدوان اسرائيل « بالهجوم الكبير نسبيا » ، فيبدى رأيه في أن هذه الاحداث لا يمكن أن تقاس بخطر العدوان الشيوعي . وراح مراسل التايمز اللندنية في واشنطن يبعث بعد اسبوع من صدور رسالة ايزنهاور الى صحيفته بالبرقية التالية .

« كانت وزارة الخارجية الامريكية تأمل منذ وقت ليس بالقصير

(١) عدد النيويورك تايمز في ٦ يناير ١٩٥٧ ، نص رسالة ايزنهاور

أنه فور جلاء القوات البريطانية والفرنسية عن الأراضي المصرية ، وفور خلاص عبد الناصر من الضغط الاجنبى ، سيتعرض عبد الناصر لمظاهر جديدة من الضغط من أسرة الدول العربية ، تفرض نفسها عليه فرضا فتخفف من غلوائه وعناده . ومن المتوقع أن تعنى وزارة الخارجية بتشجيع هذه الامتعااضات ضمن الاسرة العربية الواحدة ، عن طريق تطبيق وسائل الاغراء أو الوعيد مع مجموعة الشخصيات العربية البارزة التى ستقصد واشنطن عما قريب » (١) .

وكانت هذه المجموعة من الشخصيات التى أشار اليها المراسل البريطانى تضم الملك سعود ، وشارل مالك وزير خارجية لبنان الجديد والأمير عبد الله ولي عهد العراق أسما وملكه فعلا . وقد تحدث الى فى هذه الآونة فى بيروت موظف كبير فى شركة الزيت العربية الامريكية (أرامكو) فقال أن شركته هى التى أعدت أمر زيارة ملك العربية السعودية الى واشنطن ، أملا منها فى أن يغدو الملك سعود الشخصية التى تلتف حولها « جميع القوى المعادية لعبد الناصر والمناهضة لسياسة الحياد » . وكانت وزارة الدفاع الامريكية (البنتاجون) ، متلهفة على الوصول الى اتفاق عقد اجارة طويلة المدى لقاعدة الظهران الجوية التى كان يستخدمها السلاح الجوى الامريكى حتى تلك اللحظة بموجب عقود ايجار شهرية . وكان سعود بدوره متلهفا لزيادة عائداته ، التى كانت على الرغم من موارد الزيت أقل بكثير من نفقاته الشخصية ونفقات أسرته المالكة التى تبلغ عشرين مليون جنيه فى السنة ، أى خمس مورد الزيت والتى يدفعها كمرتبات شخصية لنحو من ألف أمير من أقربائه (٢)

ووقع تطور مهم آخر فى مصر فى شهر يناير ، لم يلق آنذاك اية عناية من مناقشات الصحافة العالمية . فلقد أدى تجميد أرصدة مصر من الاسترليني والفرنك والدولار منذ شهر أغسطس عام ١٩٥٦ ، وما تبعه من وقف وصول المؤن ابان حرب السويس وسيناء ، الى البلاد أن اشرفت على الشلل الكامل . وتبلجت الحقيقة ذات يوم من أيام مستهل يناير ، عندما أدركت السلطات المسئولة ، أن مخزون الحنطة فى البلاد لا يكاد يفى باحتياجاتها الاستهلاكية مدة أسبوعين وأن مخزون الزيت (البترول) ، لا يكفى لاربعة أيام ، وأن مافى البلاد من كميات البنسلين وبعض أنواع العلاج الاخرى ، قد استهلك فى مستشفيات بورسعيد

(١) عدد « التايمز » فى ١٢ يناير ١٩٥٧ .

(٢) كتاب سنت جون فيلبى « عبد الله فيلبى » - أربعون سنة

فى الصحراء .

والمعروف أن نفقات الملك سعود الشخصية قد تجاوزت هذا الرقم الذى أورده فيلبى بكثير ، ولا سيما فى السنوات الأخيرة ، عندما كثرت رحلات الملك الى الخارج وتزايدت نفقاته على هذه الرحلات وعلى ما يقوم به من مؤامرات فى أرجاء الوطن العربى . والمعروف أيضا أن هذه النفقات قد أربت مؤخرا على الاربعين مليونا من الجنيهات أى مايزيد على ربع الميزانية العامة كلها .

- العرب -

وفى تلبية طلبات الجماهير فى بلاد يسهل انتشار الامراض السارية فيها اذا ضعفت الرقابة الصحية عليها . وناشدت الحكومة المصرية الولايات المتحدة ان تبعث اليها بعون عاجل ، ولكن المستر دالاس ، رفض تلبية هذا النداء ، وبعثت مصر بطلب آخر الى واشنطن ، تسألها فيه الافراج عن بعض أرصدة دولاراتها المجمدة لتتمكن من شراء ماتحتاج اليه البلاد حاجة ماسة . ولكن أمريكا رفضت تلبية هذا الطلب ايضا (١) وراح عبد الناصر بعد ذلك يبرق الى بولجانين فتلقى ردا فوريا منه بان السلع التى تريدها مصر ، قد شحنت حالا وبينها ستمائة ألف طن من القمح . وعرف المصريون فى شهر فبراير من لون الخبز الذى أكلوه ، أن روسيا قد اقامت الدليل على أن الصديق عند الضيق « . أما ماحققة المستر دالاس من رفضه ، فكان أقل وضوحا وجلاء .

وعلى الرغم من أن دالاس كان ينفى بين الفينة والفينة مايقال من انه يرى أن هناك « فراغ نفوذ » فى الشرق الاوسط ، وان احدى الدول العظمى يجب أن تملأه ، الى أن هذا التعبير ظل ينتشر ويذيع عند الناس ولاريب فى أن هذا التعبير كان يعتبر عند الوطنيين العرب استفزازيا فى معناه . وعلق البانديت نهرو من مكانه البعيد فى دلهى الجديدة غاضبا على هذا القول بأن هدف الوطنية الاصيلية ، الحلول محل كل نفوذ دخيل غرب . وقمت فى القاهرة بزيارة المكتبة التى انشأها مكتب المعلومات الأمريكى ، وواجهتنى فى مدخلها لوحة اعلانية ضخمة تقول ان هناك نسخا مجانية للتوزيع من « مشروع ايزنهاور » وقد حملت العنبران الضخم التالى : « هل هناك فراغ فى الشرق الاوسط ؟ »

وأوفد الرئيس ايزنهاور المستر ريتشاردز مبعوثه الخاص بمشروعه ليجول أرجاء الشرق الاوسط ، ويطلع الحكومات العربية على مضامين السياسة الأمريكية الجديدة . واكتسب المشروع نتيجة هذه الزيارات طابع الاتفاقات الثنائية التى يعقدها مع الحكومات الراغبة ، لمقاومة الشيوعية وسياسة الحياد وذلك فى البلاغات المشتركة التى كانت تصدر اثر زيارة المبعوث الأمريكى لكل عاصمة عربية . واخذت الخرائط الجديدة تظهر مرحلة اثر أخرى ، فى الصحف الأمريكية والصحف البريطانية المحافظة مقسمة الشرق الاوسط الى مناطق « موالية للغرب » ، وأخرى « موالية لعبد الناصر » ، طبقا لموقف كل حكومة من مشروع ايزنهاور الجديد . وكان الوطنيون العرب ، يرون كل هذا ولايغيب معناه عن أذهانهم . واعلنت الولايات المتحدة الأمريكية فى الثالث

(١) عدد صحيفة « التايمز » اللندنية فى ١٨ يناير ١٩٥٧ .
لمراجعة التفاصيل . وقد اطلع المؤلف على تفاصيل أخرى عن طريق التحقيقات التى قام بها فى ذلك الوقت ، والتى تأيدت له فى المقابلة الصحفية التى أجراها مع الرئيس عبد الناصر فى أواخر عام ١٩٥٨ .
راجع ايضا مقابلة الرئيس مع رؤساء تحرير الصحف الأمريكية فى مارس ١٩٥٧ .

والعشرين من مارس انها ستنضم الى اللجنة العسكرية لحلف بغداد .
وكان المستر دالاس قد اقسم قبل ايام ، بأن الولايات المتحدة لم تأسف
أبدا على قرارها سحب عرض القرض للسد العالي ، وأن « الاحداث »
قد برهنت على أن هذه العروض لم تكن في مصلحة أمريكا أو بريطانيا .
ولا ريب في أن مثل هذه التصريحات كانت تزكى شكوك العرب وتؤيدها
وهكذا لم تمض فترة خمسة شهور ، حتى كانت أمريكا قد أضاعت
الفرصة التاريخية التي أتاحت لها . فقد اتخذت السياسة الأمريكية
الجديدة شكلا ، كان في امكان المرء أن يتوقع نتائجه ، وهي النتائج التي
تحققت وانتهت في يوليو ١٩٥٨ .

من المتعذر على الكاتب أن يعرض في مجلد واحد ، كل ما وقع في
تاريخ الشرق الاوسط بعد أزمة السويس من أحداث ، عرضا عميقا
مفصلا ، متحدثا عن أزمة الاردن في أبريل عام ١٩٥٧ وثورة لبنان ،
والنقطة التي لارده عنها في بغداد في الرابع عشر من يوليو (تموز) عام
١٩٥٨ وقد لا أوافق على التزمّت والاصرار على رأي معين في التاريخ
الانساني لان من طبيعة الانسان الشك في كل تزمّت ولكن القضية هنا
من القوة والطفيان بحيث يتضح لكل انسان أن العوامل التي دفعت
السياسات الغربية في الشرق الاوسط الى تلك النقطة التي لارده عنها
لم تكن بنت ساعتها ، وانما كانت تنمو وتقوى منذ امد بعيد قبل أزمة
السويس . وكل ما آمله الآن ، أن تكون هذه الآراء السياسية والافكار
والاخطاء ، قد أصبحت واضحة لقراء هذا الكتاب . ويمكن تلخيص
مآدات اليه هذه الآراء والاطحاء في ثلاث من دول الشرق الاوسط على
النحو التالي : (١) الاطاحة بحكومة شعبة منتخبة في الاردن ليحل محلها
عهد يقوم على الاحكام العرفية ويستند الى الولايات المتحدة وبريطانيا .
و (٢) ثورة أهلية في لبنان كلفت مئات الارواح وكادت تنقلب الى حرب
أهلية طائفية لولا أن اللبنانيين - لا الامم بكان - قد حالوا دونها في الوقت
المناسب ، و (٣) ثورة في بغداد قذفت بكل ما للسياسة الغربية من بنيان
الى الحضيض ، محطمة آياه من اساسه .

أزمة الاردن في أبريل عام ١٩٥٧ :

حملت الانتخابات التي جرت في الثاني والعشرين من اكتوبر عام
١٩٥٦ ، أي قبل بضعة ايام من بدء حرب سيناء والسويس ، والتي تعتبر
حتى على حد تعبير التايمز (١) اللندنية ، « أهذا ما عرفته البلاد في
تاريخها من انتخابات ، أكثرها نزاهة » الى مقاعد البرلمان غالبة من
الوطنيين . وأعلنت الحكومة الجديدة التي انشقت عن البرلمان المنتخب
والتي رأسها سليمان النابلسي ، السياسات التي كانت الاحزاب المشتركة
فيها قد تعمدت أدان المعركة الانتخابية بتعيينها ، وهي سياسات تسير
في التيار المباشر للقومية العربية التي يتولى قيادها عبد الناصر .

(١) عدد « التايمز » اللندنية في ٢٢ اكتوبر ١٩٥٦

وتضمنت هذه السياسات اقامة قيادة عربية مشتركة مع مصر وسورية وقيام علاقات دبلوماسية مع موسكو وبكين ولكن مع التزام سياسة الحياد ، والفاء المعاهدة الانكليزية - الاردنية ، والسير في خطوات فعلية للاتحاد مع سورية . واوضحت المقابلة الصحفية التي اجراها النابلسي مع مراسل « التايمز » (١) هذه السياسات ايضا اوفى اذ قال ان الاردن سيواصل قبول العون الامريكي غير المشروط وسينشد السلاح في الغرب أولا ، ولكنه لن يتوانى عن اخذه من أى مكان آخر اذا اقتضت الضرورة . وبدأت على الفور الخطوات اللازمة للاتحاد مع سورية ، اذ توحدت المناهج الدراسية وتم التوقيع على وحدة جمركية . وكان النابلسي صريحا كل الصراحة في تحديد الهدف عندما قال في بعض خطبه ان مصر الاردن النهائي ، هو أن « يختفى » كيانه ويذوب في وحدة عربية اشمل . ولم يحتج احد على هذه الأقوال او تلك السياسات ، ولم تقع مظاهرات عدائية ، فالهدوء يعم المملكة « المفتوحة » لكل انسان ، وذلك لان حكومتها كانت تتمتع بتأييد شعبي لاشك فيه .

وحظى الملك حسين الشاب ، آنذاك بقسط من هذه الشعبية . وسمح قادة الاردن الوطنيون سواء في الجيش او خارجه ، للناس بأن يصدقوا ان حسين وحده ، هو الذى طرد جلوب باشا في مارس عام ١٩٥٦ ، وقبل الملك الفلام تننازعه سرا عوامل الادراك لما يريده شعبه حقيقة ، وما تفرضه عليه كبرياؤه الملكية ، نتيجة الانتخابات ، متظاهرا بالترحيب بها ، ونال الملك اعجاب حتى الغالبية من رعاياه من أبناء فلسطين الذين لا يدينون بأى ولاء خاص للأسرة الهاشمية وتقاليدها . وراحوا يقولون عنه ... « يبدو انه قد تحول الى أكثر من ملك ، وأصبح وطنيا عربيا » .

لكن حسين لم يكن في الحقيقة من ذلك الطراز الوطنى العربى الذى خاله شعبه وحكومته الجديدة ، والذى ظنه الراى العام السائد فى الشرق الأوسط (٢) . اذ لم يكن طويل وقت قد مضى على اخراج جلوب من البلاد ، عندما وقع حادث فى القصر اوضح الخلاف فى الراى بين الوطنية التى يفهمها هو ، والوطنية التى يفهمها شعبه . فقد استدعى الفلام الضباط الاحرار ، الذين كانوا قد شجعوه على طرد جلوب ، وأعدوا بالفعل خطة ابعاده . وراح يشكرهم ، ثم قال لهم انه يأمل فى أن يساعده الآن فى المهمة العظمى وهى « الدفاع عن القومية الاردنية ضد أمدائها » وخيم صمت قصير على الموجودين ، وانبرى على أبو نوار الضابط الشاب الذى يتزعمهم يقول : « لانفهم يا صاحب الجلالة ماتعنيه كلمة القومية الاردنية . ولم يحدث قط أن تحدثنا اليك عنها . فنحن لا نعرف الا قومية واحدة ، هى القومية العربية » .

(١) عدد « التايمز » اللندنية فى ٢٨ ديسمبر ١٩٥٦ .

(٢) كان السبب الحقيقى الذى حمل حسين على الموافقة على طرد جلوب . مقالا قرأه فى نهاية فبراير عام ١٩٥٦ فى إحدى مجلات لندن ، تصف جلوب بأنه « ملك الاردن المتوج » .

وقد تأجل منذ ذلك الحين ، الصدام بين الاهداف وان ظل قائما وراء الكواليس . وكان السبب الوحيد في هذا التأجيل ، هو ان حسين ورجال العهد القديم الذين يحيطون به في القصر ، لم يستطيعوا ايجاد مخرج لهم من هذه الورطة . وتبخر بعد معركة السويس كل أمل لحسين في العون البريطاني . وكان حسين يعرف أنه مع العجز الذي يبلغ الاربعة عشر مليونا من الجنيهات في العام في موازنة حكومته ، لا يستطيع البقاء مستقلا اذا توقفت المعونة المالية البريطانية التي تنص عليها المعاهدة، في حالة الفائها ، ولكنه كان يعرف أيضا ، أن شعبيته كلها تعتمد على السماح بالالغاء الموعود للمعاهدة بل على تشجيعه لهذا الالغاء . وكان يعرف أيضا أن الخطوة التالية لالغاء المعاهدة هي الانضمام الى سورية وضياع عرشه . وبدا لحسين وساسة العهد القديم حتى شهر يناير عام ١٩٥٧ ، أنهم عاجزون عن عمل أي شيء مع هذه القوى الجديدة التي أقر حسين نفسه بظهورها . وبالفعل تم في التاسع عشر من يناير اقرار معاهدة المعونة العربية المشتركة للاردن التي وقعتها كل من مصر وسورية والعربية السعودية .

لكن شيئا خفيا كان يدور في تلك الآونة وراء الكواليس وظل مستمرا حتى ابريل من ذلك العهد ، وهو الخطوة الحاسمة التي قامت بها الولايات المتحدة ، وأطلقت عليها اسم « مشروع ايزنهاور » . وكان الرئيس النابلسي قد طلب معونة غير مشروطة من واشنطن بقيمة ثلاثين مليون دولار ، ولكن واشنطن رفضت طلبه هذا . وراح السفير الامريكي في عمان في هذه اللحظة ، يهمس في اذن الملك حسين على انفراد بأن الولايات المتحدة ستعين الملك في المحافظة على « استقلال » الاردن ، اذا تخلت حكومته عن سياسة الحياد وعن اقامة العلاقات الدبلوماسية مع موسكو وبكين . . وراح السفير يطمئنه ، بأن أمريكا لا تطلب منه ان يؤيد مشروع ايزنهاور تأييدا علنيا ، نظرا لكراهية الشعب له ، ولكنها تشترط عليه ان يقيم الدليل للكونجرس على وجود خطر شيوعي في الاردن ، وان الملك قادر على السيطرة على ذلك الخطر .

واستهل الملك الفتى العنيد تنفيذ اتفاقه مع السفير الامريكي ، برسالة وجهها في الواحد والثلاثين من يناير الى الرئيس النابلسي يحذره فيها من الشيوعية ، وأمر باذاعتها ونشرها حتى قبل ان تصل الى الرئيس وزرائه الموجهة اليه ، اذ رأى في هذا العرض الامريكي الوسيلة التي تخرجه من الورطة التي يجد نفسه فيها . وكانت الخطوة الغربية في هذا الموضوع أمريكية الصفة تماما ، ولكنها استخدمت معونة العربية السعودية الدبلوماسية . (١) لكن وزارة الخارجية البريطانية كانت على اطلاع على هذا الاستهلال في المناورة الجديدة ، وعملت على مساعدته عن طريق تساهلها في الغاء المعاهدة مع الاردن بعثا للامال في نفس حسين (٢) وأخذ النزاع يشتد احتداما أسبوعا بعد آخر بين الملك الذي انتحل لنفسه

(١) عدد الاكونومست الصادرة في ٤ ايار ١٩٥٧ .

(٢) حصل السفير البريطاني مثلا على موافقة حسين على احتفاظ بريطانيا بحقوقها السابقة في مرور قواتها العسكرية جوا في

سلطات دستورية اضافية وبين الحكومة . ولكن الجانبين حرصا على ابقاء الخلاف بعيدا عن أعين الجمهور ، وكان دافع الحكومة الى ذلك ، أن كثيرين من أعضائها كانوا لا يزالون يأملون في امكان اقناع حسين بتقبل التيار الشعبى الواضح ، بينما كان دافع حسين والساسة القدامى الذين دبت الحياة فيهم من جديد ، تجنب كل ما يؤدي الى الاضعاف من موقفه كوطنى عربى امام الجماهير . ولم يدهش معظم الاردنيين من تصريحات حسين المعادية للشيوعية ، لانهم كانوا قد سمعوا من عبدالناصر اكثر من مرة أن « الشيوعية ليست طريق القومية العربية » . وكان الرئيس النابلسى قد أوضح هذا الامر أيضا أكثر من مرة ، وعاد في التاسع عشر من مارس فكرر « أن الاردن لن ينتمى الى الكتلة الغربية او الكتلة الشرقية » .

وألفيت المعاهدة الانكليزية - الاردنية بصورة رسمية في الثامن عشر من مارس عام ١٩٥٧ ، وشارك حسين مرة أخرى وزارته في الشعبية العظيمة التى نالتها عند الاردنيين الذين طربوا ابتهاجا . ولكنه أحس أن الوقت قد حان الآن للعمل . وأوفد حسين في الاول من ابريل رئيس ديوانه الى القاهرة ليطلب الى الرئيس عبد الناصر عقد اجتماع لرؤساء الدول العربية . ولم تعرف الحكومة الاردنية بما وقع الا بعد وقوعه . وطلبت الحكومة من حسين التمسك بالدستور ، وأن يطرد عددا من كبار الموظفين الرجعيين الذين يحتلون مراكز حساسة . والذين يؤازرونه في أعماله هذه المنافية للدستور . ولكن حسين رفض اجابة طلب الحكومة .

وتزعم الروايات الغربية في حديثها عن أزمة ابريل التى وقعت فيما بعد ، أن الملك اكتشف مؤامرتين متعاقبتين للاطاحة به ، وأنه « بشجاعته » أحبطهما وأنقذ الاردن من السيطرة الناصرية والشيوعية . ويجد القارئ الذى يهتم الموضوع ، صورة صحيحة لما وقع في الذيل الذى الحقته بهذا الكتاب . ويكفى أن أقول هنا ، أن حسين نفسه هو الذى « اصطنع » هاتين المؤامرتين المزعومتين بمنتهى الذكاء ، كالوسيلة الوحيدة للخلاص من حكومة النابلسى ، مع الاحتفاظ لنفسه بالشعبية التى تمتع بها ، وذلك اعتقادا منه بأن هناك مجالا في أن يلقي الدعم من الاردنيين اذا صدقوا بأن الحكومة كانت على وشك الاطاحة به ، بينما سيفقد هذا الدعم حتما اذا اكتفى باقالة حكومة النابلسى دون أى سبب من الاسباب .

واقال الملك حكومة النابلسى في العاشر من ابريل . وقدم وفد من النواب في الثالث والعشرين من ابريل سلسلة من المطالب الى الملك الذى رفضها . ووقعت في اليوم التالى مظاهرات جماهيرية واسعة واضرابات عامة شملت البلاد كلها ، فلجأ الملك الى اذاعته وألقى حديثا

— سماء الأردن ثم جاء الى مائدة المفاوضات ليواجه الوفد الاردنى بقبول الملك كأمير واقع . ولكن الوزارة رفضت اعطاء بريطانيا هذه الحقوق .

— المؤلف —

اتهم فيه مصر بأنها كانت وراء المؤامرتين اللتين سبق أن أعلن وقوعهما للاطاحة به ، واتهم النابلسي بالعمل في خدمة الشيوعية وإسرائيل ومبدأ أيزنهاور (وهي مزيج غريب من التهم يكفي مافيها من غرابة لظهور بطلانها) . وراح يعلن في تلك الليلة نفسها فرض الاحكام العرفية . وشرعت قوات البدو الموالية له باعتقال الوطنيين ، وسرعان ما صدر عن واشنطن أكثر الاعمال خطورة منذ اعلان مشروع أيزنهاور . فلقد هرع الاسطول السادس الى الناحية الشرقية من البحر المتوسط ، وهو يوجه انذارات صريحة مكشوفة بان المظليين الامريكيين على استعداد للنزول في الاردن لحماية « كيان المملكة واستقلالها » . وراحت واشنطن تعلن تقديم منحة فورية وغير مشروطة قدرها عشرة ملايين دولار الى الملك حسين .

ولم ينته شهر ابريل حتى كان كل شيء قد انتهى في الاردن . واضحى أكثر من خمسمائة شخص من الوطنيين رهن السجون ، ووزعت البلاد تحت نير الاحكام العرفية الصارمة مدة سنة ونصف السنة . وبدأت مع مطلع مايو الحرب الكلامية التي تبودلت فيها الاتهامات بين حسين والزمرة التي تحيط به في قصره من ناحية وبين دمشق والقاهرة من الناحية الاخرى . وهكذا أطاحت الولايات المتحدة بحكومة شعبية وبرلمان انتخب انتخاباً حراً لم يقدر لهما أن يعيشا أكثر من أربعة أشهر وظهرت أمريكا في عيون العرب في كل مكان بمظهر الوارث لبريطانيا تقوم عنها بأداء الدور الذي اضطرت هي الى التخلي عنه . وكان عبد الناصر قد حذر الغرب منذ أكثر من عام من أن « الشيوعية لا تكون خطرة إلا عندما تستغل الرأي الجماهيري للحركات الوطنية » . وهكذا أفسح المجال لروسيا ، بعد أن سلمتها اياه الولايات المتحدة على طبق من الفضة .

واذا لم تكن الشيوعية في الواقع قد أحرزت تقدماً عظيماً في الاردن بعد ابريل عام ١٩٥٧ ، فإن الفضل في ذلك لا يعود الى مشروع أيزنهاور ولا الى الموقف الذي وقفه الملك والذي راح الغرب يتفنى بشجاعته وعناده ، وإنما يعود ، وهنا تقوم المفارقة العجيبة التي تعتبر من زمرة المفارقات الكثيرة والتي لا تكاد تصدق في هذه الفترة من تاريخ الشرق الاوسط ، الى تعلق عرب الاردن تعلقاً قوياً بالقومية التي يتولى عبد الناصر وأبصاره قيادتها ، وهي نفس القوة التي كان الغرب متدافاً على تحطيمها . ولنتنقل الآن الى لبنان ، حيث وقع ما هو أسوأ بكثير .

ثورة لبنان :

كانت حقائق الشعور الشعبي في الاردن ووقائعه واضحة كل الوضوح بعد أزمة السويس لاي خير أمريكي كلف نفسه عناء دراسة وضع الانتخابات التي أوصلت وزارة النابلسي الى الحكم . ولا ريب في أن كل ما وقع في الاردن مما سردناه قبل قليل ، نجم اما عن جهل قاضح بواقع الوضع وحقائقه أو عن تجاهل متعمد لهذا الواقع وتلك الحقائق ، ولم تكن هناك في لبنان بعد حرب السويس وقائع أقل وضوحاً وجلاءً من مثيلاتها في الاردن .

ولقد ظل الميثاق الوطني الذي عقد عام ١٩٤٣ والذي اتفق عليه قادة المسلمين والمسيحيين ليوحدوا كلمتهم ضد السيطرة الفرنسية هو الوجه طيلة ثلاثة عشر عاما لسياسة الجمهورية الصغيرة الخارجية ولم يكن هذا الميثاق الا اتفاقا كريما عقد بين زعماء الطائفتين الكبيرتين ليكون اساسا لحركتهم المتحدة في سبيل الحرية وهو ينص في جوهره ، على وجوب التفاهم بين المسيحيين والمسلمين على سياسة « وسط » بالنسبة الى علاقات لبنان المتحرر مع العالم الخارجى . ووافق المسلمون على الرغم من تشبعهم الفطرى بالروح القومية التى تسود جيرانهم من العرب على أن يظل لبنان بلدا مستقلا ، شريطة أن « يظل له وجهه العربى » (١) ووافق المسيحيون بعد أن اطمأنوا الى ماحولهم من قومية عربية يسيطر عليها المسلمون أن يظل لبنان حرا من أية أحلاف مع أية دولة أجنبية ، أى مع الدول الغربية (٢) وكانت لدى الفريقين ذكريات قوية أخضعوها لارادتهم عندما توصلوا الى هذا الاتفاق « الوسط » . وكان المسيحيون بما لهم من ارتباطات ثقافية بالغرب ، يذكرون ما حدث فى عام ١٨٦٠ ، بينما كان المسلمون يذكرون أن فرنسا ظلت طيلة قرن كامل ، ومعها بريطانيا الى حد ما ، تحاول استغلال وجود الجيوب المسيحية على سواحل البحر المتوسط لتؤمن لنفسها القواعد والسيادة على المنطقة .

وهكذا كان ميثاق عام ١٩٤٣ ، مقامرة جريئة فى الفراهة السياسية اذ أنها أتاحت للمسيحيين شيئا من التفوق فى السلطان الداخلى . ولكنه نجح نجاحا كاملا فى السياسة الخارجية . وكان لبنان واقفا مع أشقائه العرب فى موضوع اسرائيل . وتمكن بانضمامه الى الجامعة العربية فى عام ١٩٤٥ من ضمان سيادته ، اذ ان ميثاق الجامعة العربية يضمن سيادة جميع الدول الاعضاء فيها . ولكن ميثاق عام ١٩٤٣ حال بين لبنان وبين الانضمام الى حلف بغداد . وكان يتولى رئاسة الجمهورية فى اكتوبر عام ١٩٥٦ مسيحي هو كميل شمعون بينما كان يتولى رئاسة الوزارة ، وذلك طبقا للعرف الدستورى المتبع ، مسلم هو عبد الله اليافى وكان الاول معاديا عداء ظاهرا للتيار القومى الجديد الذى يتولى قياده عبد الناصر بينما كان الثانى يعرب عن عطف مسلمى لبنان على هذا التيار . وعلى الرغم من هذا التضارب كان فى مكنة لبنان أن يظل هادئا هدوءا معقولا فى اموره الداخلية عن طريق هذا التوازن الدقيق المعقول .

وجاءت ازمة السويس فكادت تمزق لبنان شر ممزق ، وذلك

(١) هذا القول مقتبس من العبارة الشهيرة التى وردت على لسان المرحوم رياض الصلح عند توقيع الميثاق فى اكتوبر عام ١٩٤٣ . ويمكن للقارئ الحصول على نص الميثاق من الصحف العربية التى صدرت فى ذلك التاريخ ومن مجلة « منبر الشرق الاوسط » من مقال للسيد ديب فى يناير ١٩٥٧ .

(٢) قال المرحوم رياض الصلح . . « لا يريد اخواننا فى الوطن العربى من لبنان أن يكون للاستعمار مقرا ، او ممرا » .

— المؤلف —

بالنسبة الى ماوقع من خلاف حول الاجراءات التى يجب على الحكومة القيام بها . فلقد اتعد غضب المسلمين من جراء العدوان الثلاثى على مصر ، وطالبوا لبنان بأن يقطع على الاقل علاقاته الدبلوماسية بالدولتين الباغيتين ، اى بريطانيا وفرنسا . ولكن الفئة المسيحية الحاكمة والتى يتولى شمعون رتاستها رفضت أن تقوم بهذا الاجراء . (١) واشتد التوتر بين الجانبين . وفرض شمعون الاحكام العرفية ، ولم يكن فى الامكان حفظ النظام فى البلاد لولا الجهود التى بذلها قائد الجيش اللواء شهاب ، الحياذى النزعة ، وذو الكفاية الكبيرة . وآنر رئيس الوزراء الياقنى الاستقالة على أن تنقسم البلاد الى قسمين ، بعد أن توصل الى اتفاق وسط مع الرئيس شمعون قضى بأن يقترح لبنان فى الامم المتحدة مستنكرا عدوان بريطانيا وفرنسا ، دون أن يقطع علاقاته بهما . وتولى رئاسة الوزارة ، سامى الصلح الكبير السن . الكثير الاستسلام ، واصبح الدكتور شارل مالك ، الذى تعرفه امريكا أكثر مما يعرفه لبنان وزيرا للخارجية . واعربت الصحف اللبنانية عن ارتياحها لحل المشكلة الحل الذى حفظ لها وحدتها وصان لها ميثاقها الوطنى ، واستقبل اللبنانيون عام ١٩٥٧ وقد هزتهم الازمة الماضية هزا ، وهم لا يكادون يصدقون ان الجمهورية قد اجتازت المحنة وعاشت .

وفى هذا الجو من الهدوء الذى يعقب العاصفة ، والذى كان الحياذ فيه بالنسبة الى لبنان أكثر من ضرورة قصوى ، نقلت أسلاك البرق الى بيروت ذات ليلة من ليالى يناير عام ١٩٥٧ نص مشروع ايزنهاور الجديد . وليس لهذا المؤلف من فضل أن يذكر ان لبنان لو قبل تلك السياسة الامريكية الجديدة على النحو الذى اعلنت فيه ، لانفجر فى حالة من الاضطراب والفوضى لم يسبق له أن رأى مثيلا لها من قبل . ولم يمض اسبوع على اعلان المشروع ، حتى بدأت الانباء تتردد وبصورة لاتكاد تصدق بان واشنطن تأمل فى تركيز نفوذها على لبنان والعربية السعودية ... اذ يقال ان لبنان سيكون أول دولة تتلقى المعونة الاقتصادية ، على اعتبار أنه سيكون مركز الاستقطاب فى المنطقة الى الناحية الثانية» (٢) ولاريب فى ان هذا الاستقطاب لم يكن يعنى فى عرف المستر دالاس الا اتخاذ موقف العداء للناصرية (٣) .

وهذا ما حدث فعلا . فقبل ان يقر الكونجرس الامريكى التشريع

(١) رجب شمعون وانصاره سرا بالهجوم على مصر . وقد روى المعلق المعروف درو بيرسون أن شمعون قال له ، ان الخطأ الوحيد فى الهجوم هو أنه لم يسمح لاسرائيل بتوجيه ضربة قاضية الى الرئيس عبد الناصر .

— المؤلف —

(٢) صحيفة التايمز اللندنية عدد ١٨ يناير ١٩٥٧ .
(٣) يطلق الغربيون اسم « الناصرية » على الفكرة التى ينادى بها الرئيس عبد الناصر من دعوة الى التحرر والحياد الايجابى والاشتراكية والوحدة ، وما تتضمنه هذه الفكرة من مذاهب سياسية واجتماعية وفكرية .

— العرب —

اللازم المتعلق بمشروع ايزنهاور ، راح شارل مالك يعلن موافقة لبنان على المشروع ، بينما شرعت اجهزة الاعلام والدعاية في البلاد ، في شن حملة تأييد ضخمة له . ولعبت « مغنم » المعونة الأمريكية ومخاوف المسيحيين ، وحملات التخويف من شيوعية السراج في سورية ، والرشوة دورها في الحصول على أغلبية في البرلمان اللبناني أيدت المشروع . واستقال سبع أعضاء المجلس على أي حال فوراً احتجاجاً على نتيجة الاقتراح . ورفض الرئيس شمعون طلباً للمعارضة بتأليف حكومة انتقالية تشرف على الانتخابات العامة التي تقرر شهر يوليو موعداً لها ، وتمكنت حكومة شمعون - مالك ، من احراز الاغلبية الجديدة التي تريدها عن طريق تزيف الانتخابات . وكان هذا التزييف واضحاً لجميع المراسلين الصحفيين الغربيين الذين يقدرّون مسؤولياتهم ، ولكن غطت على أنبائه في الصحافة الغربية الاتهامات العالية التي وجهت عن وجود « تدخل » سوفياتي ومصري وسوري في هذه الانتخابات ، واعتقد أن ايراد مثال واحد على ما وقع في هذه الآونة أمر كاف . فلقد وقعت في هذه الايام مظاهرة عدائية لمشروع ايزنهاور وانفجرت في المظاهرة بعض القنابل ، وراح المسؤولون يعلنون أنها من صنع سورية وبتحريضها ، وهو ما نقلته الصحف الغربية تحت عناوين واسعة ، ولكن ضابطاً لبنانياً من ضباط الامن العام ، أعلن في شهادة قدمها في المحكمة فيما بعد أن الاوامر صدرت اليه دائرته باصطناع الانفجارات ، من حكومة شمعون - مالك . ولم تنقل الصحافة الغربية بالطبع نبأ هذا الاعتراف .

وانطلقت الآراء المناهضة لمشروع ايزنهاور الى العراق واسحة مكشوفة ، حتى قبل بدء المعركة الانتخابية . ولم يحف البطريرك الماروني نفسه وجهة نظره في معارضة المشروع ، كما خرج الشيخ بنساره الخوري اول رئيس للبنان المستقل في اواخر شهر مايو عن صمته السياسي الذي استمر نسيئاً سنوات ، ليعلن استنكاره لقبول مشروع ايزنهاور على اعتبار أن هذا القبول خروج على الميثاق الوطني لعام ١٩٤٣ . ولكن المبادرة الاسهلانية حرزت نجاحاً مؤقتاً وساعدت في نجاحها ، زيارات الصداقة وحسن النية التي قام بها الاسطول الأمريكي لمتابعة وصول الاسلحة الأمريكية الجديدة التي رافقتها طبول الدعاية . عن طريق الجو الى لبنان عشية يوم الانتخاب . وأخذ لبنان بسيرة المانحو الفوضى والاضطراب بسبب غضب المسلمين على ما قام به الأمريكيون في الاردن ، وبسبب ما انتشر من فضائح مالية وأخلاقية طيلة الشتاء نسبت الى كبار موظفي الدولة (١) وتزايد هرب الاسلحة عبر الحدود تزايداً خطراً . لكن الاعتقاد ساد الغرب كله ، بأن لبنان بات كسباً مستقراً مؤيداً للغرب في نزاعه مع الناصرية .

(١) ادعت الأنباء التي نشرتها الصحف الغربية في هذه الآونة أن أموالاً قد صرفت في لبنان ابان المعركة الانتخابية لانجاح مناهضة مشروع ايزنهاور ولكن ما ظهر فيما بعد في محاكمات بغداد من وثائق بثبت أن نوري السعيد كان يدفع رواتب منظمة لبعض الشخصيات الرسمية في لبنان .

وجاءت أنباء الوحدة بين مصر وسورية المجاورة للبنان في مستهل فبراير عام ١٩٥٨ وسرت هذه الأنباء التي سنشرحها في فصل لاحق سريان الكهرباء في لبنان كله . وأخذ الآلاف بعد الآلاف من اللبنانيين يقطعون التسعين ميلا من الأرض الجبلية الى دمشق لحضور احتفالات الوحدة ، ولكن زعماء المسلمين على الرغم من التحيات التي كانوا يزجونها للوحدة، ظلوا يصرون على استقلال لبنان وكيانه، ومع ذلك مالبث المسيحيون ان هاجوا وماجوا بعد أن راح الرئيس شمعون يتهم فوراً الرئيس عبد الناصر بصورة علنية ، بأنه يعتزم في خطوته الثانية ضم لبنان الى الجمهورية العربية المتحدة . ولم يكن هذا الاتهام مجرد كذب صراح بل كان أكثر من ذلك ، اذ لو قبلنا جدلاً وجود الاطماع المزعومة عند عبد الناصر . فان لبنان لم يكن بالهدف المقصود أبداً . فضم لبنان يستدعى ترويض نحو من ستمائة ألف مسيحي ، كما يستفز غضب الغرب وتدخله العسكري بصورة حازمة . وتعتمد تجارة لبنان ، وهي كثيرة الازدهار والثراء في ظاهرها ، على تجارة الاستيداع والعبور ، والتعامل بالنقد ، وهو ازدهار لا يلبث أن يزول اذا ما فقد لبنان سيادته . ولم يكن في وسع عاقل أن يتجاهل كل هذه الاخطار التي لا يمكن قهرها أو التغلب عليها ، وليس ثمة من يقول بأن عبد الناصر ليس بالإنسان الذكي الواسع الإدراك والذي يحسب للعواقب حسابها ومن هذا يظهر ان هذا الاتهام حتى في معايير المناهضين لعبد الناصر ، باطل ولاصحة له .

لكن الاتهام ترك على أي حال أثارا ضارة كل الضرر في كل من لبنان والغرب . وسرعان ما اتضح هدف شمعون من توجيهه . فلقد سمح في مستهل شهر ابريل بأن يقال على لسانه بأنه يعتزم ترشيح نفسه لرئاسة الجمهورية مرة ثانية ، ولما كان الدستور يحظر انتخاب الرئيس لدورة ثانية ، فقد بات لزاماً أن يعدل الدستور ، لتحقيق غايته ، ولما كانت المعارضة قد أدركت الآن أن الاسلحة الأمريكية الجديدة باتت توزع على الفئات المؤيدة لزمرة شمعون الحاكمة ، فقد وحدث جهودها استعداداً للمعركة الفاصلة ، وأخذت تعمل على تسليح رجالها بشراء الاسلحة لهم من الاسواق غير الرسمية في سورية . واغتيل في الثامن من مايو رئيس تحرير صحيفة التلغراف ، الاشتراكي النزعة والمناهض لمشروع ايزنهاور ، ولحكم شمعون ، وكان من المسيحيين الذين يعارضون دكتاتورية شمعون ومسايعه لاعادة انتخابه . ولم تمض أربعة أيام حتى انفجر لبنان ، فانتشر الاضراب ، وقامت المظاهرات ، ووقعت الاصطدامات مع الشرطة ، وتحول الوضع الى ثورة داخلية عنيفة . وبدأ مشروع ايزنهاور الذي طبق عن عمد على أكثر الدول ضعفاً في الشرق الاوسط، يجنى ثماره الكثيرة المرة .

وتقدمت حكومة شمعون - مالك ، بتأييد علني من امريكا وبريطانيا بشكوى الى مجلس الامن من أن الجمهورية العربية المتحدة تقوم « بتدخل جماعي » في لبنان . وجريا على مألوف هذه السنوات ، تجاهل الغرب كل التجاهل الحقيقة الواقعة وهي ان جميع وزراء خارجية لبنان السابقين منذ بدأ عهد الاستقلال ، قد استنكروا في مذكرة

جماعية هذه الشكوى ، وان بطريرك المسيحيين وشيخ عقل الدروز قد استنكراها ايضا ، وان ضابطا كبيرا من ضباط الشرطة ، قد استقال احتجاجا على تسليح الجماعات العسكرية المسيحية مثل افراد الكتائب . وكانت الأدلة التي قدمها شارل مالك ، وتبنت الولايات المتحدة تأييدها ، سخيصة الى درجة لا تكاد تصدق (١) . وعندما جاءت هيئة المراقبين الدوليين الذين انتدبتهم الامم المتحدة للتحقيق في أمر التدخل ، لم تجد أى أثر لأى تدخل جماعى أو غير جماعى ، اذ لم يكن هناك فى الحقيقة أى تدخل .

ولا أجد مبررا يدفعنى الى المضي فى سرد كل ما وقع بعد ذلك ، اذ ما زالت الاحداث المتلاحقة التى وقعت ماثلة فى الخواطر ، وبينها بالطبع نزول قوات البحارة الامريكية فى لبنان ، وتجمع القوات الامريكية داخل لبنان وخارجه ، والانضباط الذى تميزت به هذه القوات فى أثناء ادائها لمهمة لم تكن واضحة لها ، وتسليم شمعون أخيرا بالامر الواقع ، وانتخاب اللواء شهاب الذى ظل طيلة الوقت يرفض استخدام الجيش فى سحق المعارضة والثورة ، رئيسا للجمهورية . ومضى مشروع ايزنهاور الى زوايا الغيب والنسيان . ولم يحقق الغرب أى كسب من قبول لبنان بصورة غير ديموقراطية وآلية رتيبة للمشروع ، رغم ما فى هذا القبول غير المشروع من استفزاز لثورة نصف سكان البلاد وغضبهم استفزازا قد يستدعى استخدام القوة معهم ، لقمع ثورتهم . وبالطبع لم يكسب لبنان من كل هذا بل خسر خسارة كبيرة . فقد أدت الثورة الى ضياع المئات من الارواح ، الذى تقع مسئوليته على جبهة لا تخفى على اللبيب .

واذا كان ثمة من كسب ، فان هذا الكسب ساخر مضحك . ففي هذه الثورة الغريبة التى كانت أشبه بمسرحية ساخرة ، شرع اللبنانيون كبارا وصغارا يفكرون لأول مرة فى الشؤون السياسية ، وفى الشرور الطائفية الكثيرة القائمة فى حياة بلادهم الداخلية والتى ظلت لا يلمسها أحد من قريب أو بعيد يبحث أو درس . ولن يعود لبنان قط الى ما كان عليه قبل الثورة . فلقد بعث الى الحياة ذلك البحث عن انتهاء الطائفية الذى كان رياض الصلح فى عام ١٩٤٣ قد ناشد شعبه ان يقوم به ، ولكن الوقت لتحقيق هذه الغاية بات ضيقا للغاية .

ولكن السخرية فى هذه القضية مزدوجة . فهذا الشد والجذب فى الحياة الداخلية اللبنانية انما جاء نتيجة ما وجده الشعب اللبناني كله ، لا المسلمون وحدهم ، أخيرا من مفارقة لا يستسيغونها بين ما تعلموه من البعثات الامريكية من رسالات سامية قبل نحو من قرن وبين هذه

(١) تضمنت الأدلة التى عرضها شارل مالك صورا فوتوغرافية لرشاشات زعم انها من صنع مصر فى عام ١٩٤٩ ، وكان ضباط المخابرات البريطانية والامريكية يعرفون تماما أن مصر لم تكن تصنع الرشاشات فى عام ١٩٤٩ . ولكن هذه الصور رغم ما فيها من تزوير ظاهر ، وجدت محالا واسعا للنشر فى الصحافة الغربية .

— المؤلف —

السياسات التي تتبناها الحكومة الامريكية الآن اى فى عام ١٩٥٨ .
ولقد صور معلق امريكى واسع الادراك ، الوضع كما رآه عندما حلت
اللحظة الثانية من لحظات الدهشة الامريكية فى يوليو عام ١٩٥٨ ، عندما
هوى كل شىء للغرب فى بغداد متحولاً الى خرائب وانتقاض فقال ..

« لقد ظللنا نقيم اوضاعنا بالاستناد الى الملوك لا الى الشعوب ،
تماماً كما فعل الانكليز من قبل . وعلى اساس الوضع الراهن الذى
توقف عن الوجود منذ امد طويل . تماماً كما فعل الانكليز » (١)

ونصل الآن الى النقطة التى لا ردة عنها فى القصة الطويلة المؤلمة
... الى الثورة فى العراق .

الثورة فى العراق :

كان نورى السعيد الذى علق عليه ايدن اكبر الآمال فى خلق
العهد الجديد فى العلاقات العربية - الانكليزية بعد الاطاحة بعبد الناصر ،
الضحية الاولى ، فى الحقيقة لحرب سيناء والسويس . وكان الرد
الطبيعى على هذه الحرب فى العراق ، ان تقوم الثورة الحتمية لولا
مشكلة ظلت تقض على الوطنيين العراقيين مضاجعهم عدة سنوات
طويلة ، فلقد كان الاشتراك بين السلطان البريطانى الممثل فى قاعدة
السلاح الجوى الملكى ، وفى كل ما قام من علاقات بين انكلترا والعراق ،
وبين نظام الامن الذى أقامه نورى السعيد وفرضه على البلاد متيناً
وقوياً . ولم يكن بالامكان تحدى نظام الحكم عن طريق الاجراءات
الدستورية . وكان معارضو العهد ، يجدون أنفسهم وراء القضبان
لمجرد ان تشير تصرفاتهم شكوك الشرطة السرية ، وأن تعتقد هذه
الشرطة بأن ثمة احتمالاً لوقوع اى اضطراب . وكانت البرلمانات تحشد
دائماً بالانصار ، وتعطل اذا ما ظهر منها اى اعتراض . ولم يكن فى
المستطاع قيام تنظيم صحيح للضباط الأحرار يتطور فى طريق النضوج ،
داخل نطاق القوات العراقية المسلحة ، لأن هذه القوات كانت تتعرض
دائماً لعمليات تطهير شاملة ، وكانت التفرقة تسود صفوفها بفضل
ما يلجأ اليه كبار الضباط الذين يحسن نورى السعيد انتقاءهم من
اجراءات . وعلى هذا الأساس ظل مفتاح الثورة فى يد نورى السعيد
الذى تمكن باجراءاته الماكرة من الحيلولة دون وصول أية وحدات
عسكرية يشك فى قيادتها الى بغداد أو الى مقربة منها ، ومعها عتادها
وذخيرتها .

وهكذا عاش نظام نورى السعيد وعبد الاله ، اكثر من سنة
واحدة بعد عدوان السويس وسط جو من النقمة الشعبية المتزايدة ،
بينما ظل التردد يسود أوساط القوميين من المدنيين والمؤيدين لهم من
رجال الجيش ، متأثرين بالكثير من الاحداث التى يقف فى طليعتها نجاح
الانقلاب الرجعى الذى قام به الملك حسين فى الاردن ضد شعبه
وحكومته وجيشه . وجهد نورى متعاوناً سراً ، تعاوناً وثيقاً مع الحكومة

(١) اذاعة لهوارد سميث من شبكة كولومبيا فى ٢٠ يوليو ١٩٥٨

التركية . ومع شمعون رئيس لبنان ، ومكميلان وسلوين لويد ، للاطاحة بالحكم الوطني في سورية ، محاولا تحقيق ذلك ، المرة تلو المرة . وأقام نوري حساباته مع مكميلان . في عام ١٩٥٧ على أن السبيل الامثل « لعزل عبد الناصر » يتوقف على خلق نوع من التحالف (غير المقدس طبعا !) في الشرق العربي يضم العراق ، والاردن بعد خلاصه من الحكم الوطني ، ولبنان في ظل حكومة ثابتة في ولائها للغرب ، وسورية بعد تطهيرها من الحكم الوطني الحياذي فيها . وراح دالاس في واشنطن يمنح بركته لهذه المشروعات ، ويتعاون تعاوناً متعمداً يفتقر الى الادراك في انفاذها اما التعمد فقد أوضحناه في سياسات مشروع ايزنهاور التي سبق لنا أن أوضحناها . واما الافتقار الى الادراك والذكاء فقد ظهر في تصديق واشنطن لهذه الانبياء الزائفة التي تروجها بغداد وعمان وبيروت وأنقرة ولندن عن هذا « التغلغل السوفياتي » في سورية خالقة نوعاً من الذعر عند الرأي العام الامريكي يتطلب من حكومته المبادرة الى الاجراءات المضادة .

ولا نجد نفسى في حاجة الى المزيد من التفصيل، للتدليل على أن الاثر الوحيد لهذه السياسات في العراق ، وفي أجزاء المشرق العربي الأخرى ، يتمثل في تقوية العداء الشعبي وتركيزه في النفوس ضد نوري السعيد ، وضد جميع اولئك الذين كان مكميلان يصر على مجيدهم في الخطب التي يلقيها في ويستمنستر (مجلس العموم) ناعماً اياهم « بالاصدقاء المخلصين جداً » ، والذين اتجهت نية دالاس الى ضمهم الى صفوف « حلفائنا في العالم الحر » . وقد ظل هذا التضليل مستمراً طيلة عام ١٩٥٧ . وما كاد عام ١٩٥٨ ، يهل على الوطن العربي ، حتى جاءت مفاجأة الوحدة بين سورية ومصر فهزت قواعد السياسة الغربية هذا . وأحس نوري السعيد وحسين بنذر الشر ، التي اشترك معهم في الاحساس بها كل من مكميلان ودالاس وشمعون ، فهرعاً يقيمان اتحاداً عربياً (بالاسم فقط !) يضم العراق والاردن ويوحد بين العرشين الهاشميين في نظام اتحادي تعاوني . لكن النتيجة الحتمية ظلت تواصل السير في طريقها نحو النهاية .

والتقى عدد من ضباط الجيش العراقي ، وكلهم من رتبة العميد (الزعيم في الاصطلاح العراقي) في ايار (مايو) عام ١٩٥٨ أثناء مناورات عامة ، وكانت المرحلة السلبية في تفكيرهم قد وصلت الى نهايتها . واتفقوا على ان الأمل الوحيد في الخلاص ، وفي الثورة المبكرة ، يقوم على اهتبال أول فرصة ممكنة ، يعرضها وصول احدي وحداتهم الى العاصمة لأمر ما ، وهي في كامل أهبتها وعتادها . واتفق المجتمعون على أن يقوم أي منهم بتأجيج له هذه الفرصة بالقبض على ناصية السلطان فوراً ، ليلحق به الآخرون على الاثر . وبالطبع لم تكن هذه هي الطريقة المثلى في الاعداد للثورة .

وعندما نشبت الثورة في لبنان ، قرر نوري أن يعين شمعون ، في احتلال سورية ، والاطاحة بحكومة الاقليم الشمالي من الجمهورية العربية المتحدة ، محطماً بذلك وحدته مع الاقليم الجنوبي في مصر ، ليقوم اتحاد الهلال الحبيب الذي تنزعه بغداد ، والذي كان تفكيره

قد انصرف اليه منذ عام ١٩٤٢ . ووضع خطته للشروع في العمل في يونيو ، ولكنه اضطر الى التأجيل بسبب النصيحة التي تلقاها من ماكميلان ، نتيجة وصول مراقبي الأمم المتحدة الى لبنان . واتضح في شهر يوليو ، ان المد الثوري في لبنان يسير معاكسا لشمعون ، كما ان قرار مراقبي الأمم المتحدة ، ، جاء معاكسا له تماما . ووصلت أوامر نوري السعيد الى الزعيم عبد الكريم قاسم ، قبيل الرابع عشر من يوليو ، وقد تضمنت ان يمضى فوراً بالوحدة التي يتولى قيادتها الى الاردن ومعها كامل معداتها وعتادها ، ليفض بعد وصوله اليه ، غلافا يحمله ، يتضمن أوامره الجديدة . (١) وكان الشرق الاوسط يعج بالشائعات بأن شمعون قد طلب الى نوري السعيد مساعدته وتدخله ، وان هذا الموضوع سيدرس في الاجتماع الذي ستعقدّه دول حلف بغداد في انقره في الخامس عشر من يوليو . وتوصل قاسم عن طريق الاستنتاج ، الى ما يمكن ان تحتويه الرسالة السرية التي يحملها من اوامر لا يجوز له ان يعرف محتوياتها الا عند وصوله الى الاردن على مقربة من الحدود السورية . وكان يعرف كما يعرف غيره من الضباط العراقيين ان نوري السعيد ، كان يرسل الاسلحة سرا وبطريق الجو الى شمعون منذ عدة سنوات .

وفي الساعات المبكرة من صباح الرابع عشر من يوليو ، دخل العقيد عبد السلام عارف ، الذي يعمل تحت قيادة قاسم (٢) بوحدة الى بغداد بحجة تنفيذ الاوامر الصادرة باجتياز المدينة في الطريق الى الاردن وقام بتنفيذ انقلاب خاطف بسرعة البرق ، قابضا على زمام السلطان .

(١) يبدو ان المؤلف اعتمد في التحقيقات التي قام بها في هذا الصدد على كتاب اللورد بيردودر الذي وضعه عن تاريخ حياة نوري السعيد ، والذي كان متشيعا لنوري كل التشيع . ولكن ما كشف من اسرار الثورة العراقية حتى الآن ، تختلف في نقاط كثيرة عن هذه الرواية ، فهناك أدلة ثابتة على أن الضباط الاحرار ، الذين أعدوا للثورة ، لم يكونوا كلهم من رتبة العميد « الزعيم » كما قال المؤلف ، بل كان الكثيرون منهم دون هذه الرتبة ، كالعقيد عبد السلام عارف مثلا ، او كالعقيد الشهيد رفعت سري . يضاف الى هذا أن هناك حقيقة ثابتة أيضا ، وهي تختلف في مضمونها عما أورده المؤلف ، وهي انه كان ثمة تنظيمان سريان يعملان للثورة ، وأن هذين التنظيمين اللذين ينتمى قاسم وعارف الى احدهما ، قد وحدا جهودهما في الايام الاخيرة التي سبقت الثورة .

على أي حال . أنا لا أرى هنا أن المجال في هذا الهامش الصغير يفسح لاستعراض الوقائع التي سبقت الثورة ، فلها مكانها في أي تاريخ صحيح يوضح عنهما .

(٢) اعتقد ان المؤلف قد أخطأ هنا ، اذ أن عبد السلام عارف لم يكن مرؤوسا لقاسم . وان كان أقل منه رتبة ، اذ كان عارف يقود وحدة أخرى غير وحدة قاسم ، نيابة عن قائدها الاصيل .

— العرب —

في العاصمة . واذا كنت في هذا الكتاب سأمر مرا عارضا بالتفاصيل الكاملة لما وقع في الساعات المذهلة والمرعبة الأولى ، فأننى أرى على أى حال . أن من السواجب عدم التقليل من أهميتها . لقد كانت الثورة العراقية . عند مقارنتها بثورة مصر البيضاء في عام ١٩٥٢ تفجرا دمويا . ولا ريب في أن أسباب البون بين الثورتين في منتهى الأهمية . ففي مصر ، كان هناك تنظيم سرى للضباط الوطنيين يعمل في الخفاء منذ سنوات . وكانت الخطط توضع وتدرس ومحصى ، ويجرى النقاش حول القرارات في لجان خاصة . كما كان على رأس الحركة ، زعيم ، هو عبد الناصر ، يعارض سلفك الدماء ، وقد اختبر زملاؤه قيادته وتقبلوها باعجاب . أما ثورة العراق ، فلا تحمل أى وجه شبه لهذه العوامل . وقد تم تنفيذها بشيء من السرعة المباغتة لأن الفرصة للتنفيذ لاحت أخيرا . وكل ما يمكن أن يقال . الى أن تتوافر جميع التفاصيل الثابتة ، هو أن قاسم وعارف ، لم يختارا لحظة يمكن فيها اعتقال عبد الاله وفيصل الثانى ونورى السعيد ضمن إطار خطة مدروسة تتنكب العنف سبيلا لها (١) .

لكن ما وقع في ثورة العراق من حوادث عنف ، انما نجم عن حقيقة واقعة ، وهى أنها كانت تفجرا ثوريا اجتماعيا شاملا ، يتشابه الى حد كبير مع ما وقع في باريس يوم الباستيل في الثورة الفرنسية . فلقد اندفع من أحياء بغداد الفقيرة ، ومن « صرايفها » القذرة الالوف من الناقمين ، الذى أعماهم الجنون الثورى ، والاندفاعات العاطفية يجتاحون الشوارع كالحمم البركانية تجرف كل ما أمامها . واتصلت أنباء الثورة بنحو من مائتى ألف رجل يعيشون في أكناف المدينة القائظة في أكواخ من القصب والاعصان ، مفتقرين الى كل وسائل الصحة العامة الى الحد الذى يجعل حتى جرائم البلهارسيا عاجزة عن العيش في المياه الملوثة التى يشربونها ، فاندفعوا الى المدينة ، ولم يحل دون ما يؤدى اليه انفجارهم الرهيب الا مبادرة قاسم وعارف الى نشر القوات العسكرية لمنع تدفقهم على العاصمة . ولكن حوادث العنف التى قام بها « دهماء » المدينة نفسها أدت الى اختفاء بعض الأجانب الأبرياء (رأى المؤلف !) فى اتونها . وحاول نورى السعيد الهرب فاعتقل وقتل . وعلقت جثة عبد الاله بعد تشويبه خارج بوابة وزارة الدفاع ذات الاقواس . ووقفت بين جماهير الشعب الغاضب الشائر ، التى احتشدت لمشاهدة هذا الاحتفال المكفهر ، السيدة ديفارج ، أرملة الضابط الوطنى ، سراج الدين ، الذى كان عبد الاله قد أعدمه ، وعلق

(١) تقول الرواية الرسمية للثورة أنه عندما دخلت جماعة من الجنود القصر الملكى لاعتقال الملك وولى عهده عبد الاله ، انتضى الأخير مسدسه ، وأطلق حراسه النار ، فوقع ما وقع نتيجة معركة استخدمت فيها المدافع والبنادق

— المؤلف —

جثته في نفس هذا المكان العام من الفجر حتى الظهر في عام ١٩٤٨ . (١) .
وحاول أحد الزعماء الوطنيين من المدنيين ، مناشدة الجمهور الساخط
انزال جثة عبد الاله ، مؤثبا اياه على هذا السلوك « غير المتحضر » فهايله
الناس بالصغير والسخريه وهم يقولون « . . . هل نسيت سراج الدين؟ » .
هكذا تعمل ذكريات الشعوب .

وأعاد قاسم وعارف الامن الى نصابه ، وبدأت الدول الغربية في
ردود فعلها على ما حدث ، والذي اعتبرته أعظم صدمة فردية منيت بها
في الشرق الاوسط في أواسط القرن العشرين . واقتنع المستر دالاس ،
بما جاء في تقارير مخابراته بأن موسكو والقاهرة ، هما اللتان خططتا
لثورة ، ووضعنا تصاميمها ، وان الثورة نفذت بأمر من عبد الناصر
وأصدرت الحكومة الامريكية أمرها بالتدخل العسكري على الساحل
الشرقي للبحر المتوسط ، قبل نصف ساعة من تلقيها طلب شمعون
الرسمي للتدخل . وطلب الرئيس أيزنهاور عقد جلسة عاجلة لمجلس
الامن الدولي ، ولكنه أصدر أمره لقواته بالنزول في لبنان ، وفي نفس
الوقت الذي ارسلت فيه قوات المظليين البريطانيين الى الاردن ، قبل ان
ينعقد المجلس . ولم يكن التدخل الأمريكي اجراء « طوارئ » لاطفاء
نار شبت بصورة مفاجئة ، وانما كان تنفيذا لعملية عسكرية خطط لها
منذ امد ما ، واعذت على شكل انزال متسلسل الحلقات ، وضعت
تصميماته الكاملة والمعقدة من قبل ، وتدعمه قوات جوية وبحرية ؛
وعمليات تموينية تامة الاعداد . وتبينت في غضون يوم واحد ، طبيعة
الكلية لهذه العملية ، وتبين بالدليل أنها في جوهرها ، ليست الا عملية
واحدة من العمليات العديدة التي تم تدريب الأسطول الامري في
السادس على القيام بها وفقا لدراسات كاملة ، لمواجهة بعض حالات
الطوارئ .

ولا أرى بي حاجة هنا الى الاكثار من الاهتمام بما دار من جدال
حول طبيعة الموافقات التي دفعت الى حركات النزول البريطانية
والامريكية ، ومبرراتها . اما العامل الكامن فهو عجز هاتين الدولتين
عن فهم امكان القيام بثورة داخلية يخطط لها من الداخل ضد

(١) ارتكب المؤلف هنا بعض الاخطاء ، فالمقصود بالضابط
الوطني «سراج الدين» هو المرحوم العفيد الشهيد صلاح الدين الصباغ
أحد قادة الجيش الاربعة الدين اشتركوا في ثورة رشيد عالي الكيلاني
في عام ١٩٤١ . وقد اعتقل الشهيد في تركيا بعد مضي مده على انتهاء
الثورة وسام الى السلطات البريطانية التي تولت بدورها تسليمه الى
حكومة نوري السعيد في العراق ، فقصت باعدامه . والمعروف أن
عبد الاله قد حضر تنفيذ الاعدام الذي تم في الخامس عشر من اكتوبر
عام (١٩٤٥) ونيس في عام (١٩٤٨) كما ذكر المؤلف خط ، وصر على
تعليق جثته امام وزارة الدفاع تشفيا وانتقاما وليكون عبرة على حد
قوله للعراقيين . ولكنه لقي نفس المصير ، الذي لقيه خصمه الشهيد
مع الفارق طبعا بين الميتين على ضوء معايير الشرف والكرامة . اما
السيدة ديفارج فهي زوجة الشهيد الاول وهي من اصل في .
- العرب -

« أصدقائهما » ولم تكن حكومة ماكملان تتوقع مطلقا نشوب ثورة في العراق ، ولهذا فان الصدمة التي واجهتها كانت عنيفة الى الحد الذي جعلها عاجزة عن التفكير بهدوء وروية واتزان . وكان الملك حسين قد وضع نفسه بتشجيع من الانكليز والامريكان في مأزق خطر مع شعبه ، الى الحد الذي يخشى معه أن تؤدي أحداث بغداد الى اشعال نار الثورة عليه في الاردن فورا . اما بالنسبة الى الاثر في لبنان ، فان تقديرات المخابرات الامريكية للموقف عن وجود تدبير « شيوعي - ناصري » للثورة في بغداد ، قد جعل التفكير الهادي المتزن في واشنطن أمرا مستبعدا ايضا . ولو كان هناك شيء من التبصر والتفكير ، لمثلت أمام المسئولين في واشنطن الصورة الصحيحة وهي أن جيش الجمهورية العربية المتحدة ، سواء في مصر أو سورية لم يكن قد عبى أو وضح في حالة الطوارئ وأن عبد الناصر نفسه كان في يوغوسلافيا عندما وقعت الثورة .

وراحت المصادر الرسمية في واشنطن ولندن ، تدعى فيما بعد ان خطر تحرك اسرائيل ضد الاردن لحيولولة دون وقوع أي تبدل في نظام الحكم فيه ، هو الذي ادى قبل إلى عامل سواء : الى اتخاذ انفسرار بارسال القوات الى لبنان وعمان . وبو صبح هذا الادعاء ، فان من المؤسف حقا ، أن تحمل أعظم دولتين غربييتين العالم معهما الى شهير الحسب النووية المفاجئة ، لمجرد ان دونه صغيرة - كاسرائيل - أدينت قبل عامين باعدوان ، كانت لا تزال فادرة على التهديد باتخاذ عمل من جانب واحد . وإذا افترضنا جدلا أن من حق بريطانيا وأمريكا أن تخشيا على اسرائيل من هجوم يقع عليها من وحدة جديدة لم تقع بعد بين الجمهورية العربية المتحدة والاردن ، فان مثل هذا الهجوم لا يمكن أن يقع فور تحقيق الوحدة ، وبين عشية وضحاها . ولم يكن نحن في عام ١٩٥٨ ، لتسامح في أي مكان في العالم باللجوء الى التهديد بالحرب ، الا اذا كان القصد من هذا التهديد الحيولة دون هجوم مفاجيء . وتحتاج هذه النقطة الى بعض التأكيد والشرح ، لان هذا الوضع ، ما زال قائما عند وضع هذا الكتاب . فلقد كان أمام اسرائيل متسع من الوقت في عام ١٩٥٨ ، وسيظل دائما أمامها هذا المتسع من الوقت ، في أية لحظة يتم فيها انضمام الاردن الى دولة عربية أخرى ، للتقدم بالشكوى الى الامم المتحدة ، وإقامة الدليل أمامها على وجود الخطر الفوري الذي يهددها . ففي عام ١٩٥٨ ، وعندما زعمت لندن وواشنطن ان تهديد اسرائيل هو الذي دفعهما الى فعل ما فعلناه ، لم تكن الجيوش العربية المعنية قد عبئت ، ولم تكن مصر قد طلبت أو ضمنت حتى انسحاب قوات الطوارئ الدولية من الحدود التي تفصلها عن اسرائيل . ويدرك كل من يعرف شيئا عن الشؤون العسكرية ان هاتين الخطوتين ضرورتان لازمةتان لاي هجوم ، وأن تنفيذهما يتطلب بعض الوقت . وليس ثمة من مبرر من أي نوع ، لا لاسرائيل في التهديد بحرب من جانبها اذا تغير الوضع القائم في الاردن ، ولا لاية دولة عربية في أن تقبل ببساطة هذا التهديد وان تكيف اجراءاتها على ضوئه دون أن تحسب حسابا مطلقا للامم المتحدة .

وعلى الرغم من كل هذا ، فما زالت الحجج التي تذرعت بها الدولتان الغربيتان لتبرير تدخلهما في لبنان والاردن تحتل مكانتها عند الغربيين.

ولا سيما تلك التي تقول بان التدخل كان نافعا للجميع - وحتى العرب - لأنه حال دون وقوع حرب بين العرب واسرائيل . ولقد كان من مقاييس المواقف الشاذة كل الشذوذ التي وقفها الرأي العام الغربي والتي ما زال يقفها حتى الآن من قضية فلسطين ، ان سلوك اسرائيل لم يكن يتعرض في اية حالة من الأحوال للنقد ولا للمناقشات الحادة . ولم نسمع الا أصواتا قليلة في الغرب تتعالى موجهة السؤال الذي لا بد وأن يسأله كل عاقل ، وهو ... اذا كانت اسرائيل تشعر حقا بمثل هذا الخطر فلماذا رفضت ولا تزال مصر في رفضها السماح لأية قوات من الامم المتحدة بالمرابطة في جانبها من حدود الهدنة ، حيث في مكنة هذه القوات ان تبقى لحماية اسرائيل ؛ حتى لو طلبت الجمهورية العربية المتحدة سحب قوات الطوارئ الدولية من ناحيتها ؟ ولم يسأل احد من الغربيين عن الأسس التي استند اليها بن جوريون في الاقتراح الذي قدمه آنذاك ، لتجريد الضفة الغربية من الاردن من السلاح ، تحت اشراف الامم المتحدة ، دون أن يقترح تجريد منطقة مهما كانت صغيرة من السلاح على الجانب الاسرائيلي من الحدود، وكان رد اسرائيل في الرفض بالنسبة الى السؤال الأول ، انه ليس ثمة مكان في اسرائيل للقوات الاجنبية . ولم يكلف الكثيرون من المعلقين الغربيين انفسهم عناء الطعن في هذا المبرر عن طريق القول بأنه يتناقض تمام التناقض مع الحملات السنوية التي تقوم بها حكومة اسرائيل لتأمين الهجرة الواسعة النطاق الى تلك المنطقة التي يحتجون باكتظاظها بالسكان . ولقد نسي الغرب حركات النزول الانكليزية والامريكية في الاردن ولبنان . وتم سحب تلك القوات دون أن تطلق رصاصة واحدة . ولم يحدث أي انفجار في المنطقة أو تسودها أية فوضى . وتقول الحجج الرسمية ، ان التدخل كان مفيدا ، ويقول البعض أن فائدتها تقوم في تجنب خطر اسرائيل ، وقد ناقشنا هذا القول من قبل ، ويقول البعض الآخر ان فائدتها قائمة في انها حالت على أي حال بين عبد الناصر وبين « ابتلاع » اراض جديدة ، (١)

(١) كثيرا ما تحدث الغربيون عن اطماع عبد الناصر التوسعية وعن « ابتلاع » اراض جديدة . والسبب في هذا الحديث أن الغرب لا يريد أن يفهم ، وان فهم فهو لا يريد أن يقبل ، وحدة عربية تضم ارجاء الوطن العربي ، لأن في هذا الوحدة القضاء النهائي على نفوذه ، وتعرض مصالحه للخطر . ولقد أدى الاستعمار الغربي دوره في تجزئة الوطن العربي للحفاظ على هذا النفوذ وتلك المصالح ، وما زال يستخدم نفوذه وأمواله ، وأجرائه ، ومؤامراته ، للحيلولة دون تحقيق هذه الوحدة التي يقصد من اقامته «لاسرائيل» في قلبها ، منع وجودها . ولو فهم الغربيون هذه الحقائق أو اعترفوا بفهمهم لها - والفهم واقع - لما قالوا أن لعبد الناصر « اطماعا » ، فما الرئيس الا الانعكاس القيادي لآمال الشعب العربي كله في الوحدة ، واذا كان يعمل لها ، فلأن عمله تعبير عن ارادة هذا الشعب الذي أسلمه قياده بكل ايمانه وجوارحه .

أما نزول القوات الامريكية في لبنان والقوات البريطانية في الاردن ، فلم يهدف الا لتقوية مركز الملك حسين في الاردن وهو المركز الذي كان

وأرى من الضروري أن تناقش هذا القول إذا أردنا أن نحكم أخيراً على الطريقة التي انتهت بواسطتها في عام ١٩٥٨ حقبة طويلة من العلاقات العربية - الغربية . ولكن هذه المناقشة تتطلب تقويماً شاملاً لحركة الوحدة العربية ، وهو ما يقتضي البحث فيه فصلاً منفرداً .

= ينتظر له أن يهوى بعد انتفاضة العراق ، ودعم العناصر الرجعية في لبنان ، والتمهيد لضرب الثورة في العراق التي حطمت للغرب أهم قاعدة له في المنطقة ولكن وعى الشعب العربي ، والموقف الحالد الذي وقفه الرئيس عبد الناصر ، ونقمة الرأي العام العالمي ، هي التي حالت بين الغرب وبين هدفه في ضرب ثورة العراق .

- العرب -

الوحدة العربية

اليوم اتحد الشعب العربي في سورية مع
الشعب العربي في مصر، وكويت الجمهورية العربية
المتحدة ، هذه الجمهورية ستكون سنداً للعرب
جميعاً ، ستكون قوة للعرب جميعاً .

لننظر الى القومية العربية التي نادينا بها
والتي حلمنا بها والتي كانت لنا من الامماني
وسنعمل جميعاً بعون الله على تثبيت أهداف
القومية العربية وعلى تثبيت أسسها .

من اعلان الوحدة المشترك في اول فبراير سنة
١٩٥٨

« اننى لاثق نفسى ثقتى بالله ، ان هذه
التجربة لن تكون الاخيرة ، انما كانت التجربة
عملية رائدة استفدنا منها الكثير في تقديرنا ،
أعان الله سورية الحبيبة على أمورها وسدد خطاها
وبارك شعبها » .

من خطاب الرئيس جمال عبد الناصر بعد
الانفصال في الخامس من أكتوبر عام ١٩٦١ .

أعلن في الرابع من فبراير عام ١٩٥٨ ، في كل من القاهرة ودمشق،
عن قيام أول وحدة فعلية بين دولتين عربيتين ذواتي سيادة ، وقد استقبل
بعاصفة ضخمة من الحماسة الاصيلية عند جماهير العرب في طول الشرق
الايوسط وعرضه . ولا ريب في أن قيام الجمهورية العربية المتحدة التي
ضمت مصر وسورية كانت نقطة تحول ، وكانت المحاولة الاولى لدحض
التشاؤم في موضوع الوحدة العربية الذي عبر عنه ابن خلدون قبل قرون
خلت ، والذي جعله الكثيرون من المعلقين موضوع تعليقاتهم في القرن
العشرين (١) ولكن هذه الوحدة ما لبثت أن تحطمت بعد ثلاثة أعوام ونصف
العام ، على أثر حركة انقلابية مفاجئة قام بها ضباط الجيش السوري

(١) فائز صايغ - الوحدة العربية نيويورك ١٩٥٨ .

ضد ما أسموه ، واشتركت معهم في تسميته وزارة السياسيين التي اقاموها « بالطفيان المصري » (١) .

وكان رد الفعل عند الغربيين لهذه الاحداث المثيرة ، النى وقعت في اواخر عام ١٩٦١ ، التي كانت للعرب مفاجئة حقا ، يشير الى شيء من التحسن في الفهم . فلقد ظهر لأول مرة حقا منذ نمت في الغرب تلك الافكار المسيطرة عليه عن عبد الناصر ، استعداد جديد لتفهم بعض الدوافع الحقيقية القائمة عند عبدالناصر خلافا لما يحمله الغرب من اعداء عن اطماعه الاستعمارية الشخصية . وقد أصيب معظم المعلقين الغربيين بالدهشة المطلقة عندما رفض عبد الناصر كرئيس للجمهورية العربية المتحدة استخدام القوة ضد الثائرين ، مؤكدا أن الوحدة داخل سورية نفسها هي أهم شيء عنده ، وعندما أوضح أن حكومته لن تعارض في عودة سورية من جديد الى عضوية الجامعة العربية أو الأمم المتحدة . ولكن هذه الدهشة لم تكن الا انعكاسا للظنون السيئة السابقة . ومع ذلك فقد كان هناك استعداد متجدد في الغرب ، للاعتراف بهذه الدهشة ، وللاعتراف على سبيل التغيير بوجود دوافع معقولة عند عبدالناصر . (٢) وقد كشف رد الفعل هذا عند الغربيين، مافي قرارة نفوسهم من شعور بالابتهاج لانحلال الجمهورية العربية المتحدة، ولما توهموه من «هزيمة شخصية» لعبدالناصر، لم تتحقق عند عدوان السويس . وهناك صورة ثانية صحيحة وان كانت سلبية قد بدأت الآن في الظهور في ردود الفعل الغربية . فقد تبين للغرب اخيرا أن عبد الناصر ليس باذوالى للشيوعية ، وأن خطر الانفصال يتمثل الآن في احتمال انتهاء ما كانت تنعم به من استقرار من ناحية مكافحه الشيوعية .

ولكن ترى ماذا حدث حتى انهيار هذا الحلم الكبير الذي منلته الوحدة لجميع العرب في كل مكان ؟ لا ريب في أن تحليل الوحدة الممثلة في الجمهورية العربية المتحدة ، يحمل أكثر من تفسير واحد . فلقد نجم عن مجموعة من الأعباء الخفية التي فرضتها الوحدة ، مضافة الى الاخطاء المصرية والسورية ، وعوامل الضغط الخارجى . وأرى أن يبدأ أى تشريح لكل هذه العوامل ، بعرض موجز عن طبيعة الجمهورية السورية وشخصيات قادتها .

الجمهورية السورية :

انتقل ما تبقى من سورية الكبرى في عام ١٩٤٦ بعد فصف المدافع الفرنسية لدمشق الذي أدى الى مصرع أكثر من ألف انسان ، الى مرحلة

١ (١) لم تقم بالحركة الانفصالية الا فئة قليلة من ضباط الجيش السوري ، تجمع بين فريقى الانتهازيين والعملاء ، وقد ثبت أن الايدى والاموال الاجنبية لعبت دورا كبيرا في الحركة الانفصالية . أما الادعاء بوجود «طفيان مصرى» فلم يكن الا ذوبعة زائفة لجأ اليها الانفصاليون، لتغطية الجريمة الكبرى التي ارتكبوها بحق الوطن العربى . العرب (٢) مقتبس من مقال في عدد ٨ أكتوبر عام ١٩٦١ من صحيفة «الساندى تايمز» .

السيادة المطلقة بعد أكثر من حقبتين من السيطرة الفرنسية الانتدابية . وكانت للحساسيات التي تسود السوريين تجاه الأجانب ، وهي ما يطلق عليه الغربيون اسم « كره الأجانب » أسباب وجيهة ملموسة ، تتعدى حدود الأوضاع النفسية التي تعقب الصراع مع الاجنبي عادة . فلقد بدأ هذا الصراع العاطفي أثر انتهاء الحرب العالمية الأولى وقيام الحلفاء بتجزئة سورية - على الرغم من اشتراكها المفروض في حرب التحرير ضد الأتراك - بين بريطانيا وفرنسا ، والصهيونية . وعندما بدأت حقبة الخمسين أحس القوميون العرب في سورية ، الذين تحمل عاصمتهم ذكريات الخلافة الأموية العظيمة ، أن مخلفات هذه التجزئة تحيط بهم من كل ناحية .

فالى الشمال ، تقوم تركيا ، الدولة العضو ، فى الأحلاف الغربية . السوقية (الاستراتيجية) . والى الغرب يقوم لبنان الانعزالي ، الذى استغلت فيه فرنسا المدارات الطائفية كسلم لبسط نفوذها على المشرق العربى مدة مائة عام . والى الجنوب الغربى تقوم فلسطين العربية التى كانت أيضا جزءا من سورية ، والتى اغتصبت الصهيونية معظم أجزائها بموافقة الغرب وتأييده ، بعد أن طرد معظم أهلها العرب عن طريق القوة والارهاب ليجبروا على الإقامة فى معسكرات اللاجئين . والى الجنوب يقع الاردن الذى يسيطر عليه البريطانيون ، والذى يحتفظ فيه ملوكه بأطماعهم فى الاستيلاء على دمشق . والى الشرق يقوم عراق نورى السعيد وعبد الاله ، المربوط أيضا الى عجلة بريطانيا . والذى يتلف حكاه أشد التلف للسيطرة على اتحاد يضم سورية الى العراق . وفى عام ١٩٥٥ أضيفت شبكة حلف بغداد الى هذه الاجواء المحيطة بسورية ، رابطة بين العراق وبين تركيا ، مع احتمال شد الاردن اليه أيضا .

ومن مثل هذا الجو النفسى المفعم بالمرارة والشكوك ، بدأت تظهر فى سورية موجة من المد الوجدوى ذى طابع تقدمى اشتراكى تثبت وجودها فى سورية . وقد تبلور هذا الاتجاه الوجدوى الاشتراكى فى حزب البعث الاشتراكى وبين الضباط الشبان فى الجيش السورى ، وأخذ يتطلع والأمل يحدوه والسخط على الأوضاع القائمة فى الوطن العربى يحرقه ، الى ثورة مصر وعبد الناصر ، لتحقيق ماينشده ، وكان الشيوعيون العرب ، بعد أن فقدوا أملهم فى غضون ذلك ، فى العثور على أرض خصبة فى مصر فى ظل عبد الناصر ، قد ركزوا اهتمامهم وجل نشاطهم فى سورية . وبدأت سورية بين عامى ١٩٥٥ و ١٩٥٨ ، الحقل المفضل لانتشار الشيوعية فى الشرق الاوسط . فلقد كانت تلتزم سياسة الحياد ، وكانت شكوكها فى الدول الغربية الكبرى قد حملتها على رفض كل نوع من أنواع العون الغربى الرسمى . بينما يفتقر تكوينها السياسى والاقتصادى الى الاستقرار والاصلاح .

وأخذت الاحداث المتلاحقة على حدود سورية ، كحلف بغداد وبعثة تمبلر فى الاردن ومؤامرة نورى وايدن لضم الاردن الى العراق وحرب السويس وسيناء ومؤامرة الاسلحة العراقية السورية ، وحرب التشهير بالمقدم السراج والتلويح بالخطر الاحمر ، ومشروع أيزنهاور وانقلاب الملك حسين الرجعى فى الاردن ، تضخم بصورة متدرجة ، من هذا الجيشان

العميق الجذور في صدور السوريين . ولم يحل صيف عام ١٩٥٧ ، حتى
أخذ الرأي العام في سورية يميل ميلا متزايدا الى التطلع الى الاتحاد
السوفياتي كالصديق المخلص الذي لا قيد له ولا شرط لنقومية العربية .
وأخذت اذاعة موسكو تحسن من برامجها العربية وتكسب في كل يوم
أنصارا آخر مع كل خطيئة جديدة ترتكبها أمريكا .

وفي هذه الآونة ، بدأ الهيكل السياسي الداخلي في سورية يتفاعل
مع الأخطاء الغربية الضخمة ويصطدم بها وباتت هذه المصادمات بمثابة
مقدمة للوحدة مع مصر . ولم تكن هناك أية ثورة اصلاح داخلي في سورية .
وظل البرلمان واقفا تحت سيطرة أغلبية من «المستقلين» ، ومن حزبين هما
حزب « الشعب » اليميني والحزب « الوطني » اليميني - الوسط ، وجميع
هؤلاء وأولئك من النواب المحافظين من أصحاب الأرض والتجار وأرباب
المصارف وفئات الطبقة الوسطى .

وكان الشيء الجديد الوحيد هو دور البعثيين لا في مجلس النواب
حيث لم يكن لهم الا ستة عشر نائبا من مجموع مائة اثنين وربعين نائبا
يل في الوزارة السورية التي تألفت في عام ١٩٥٧ . وكان الدور المحوري
الذي لعبه الحزب في هذه الوزارة مشجعا وتافها في آن واحد ، اذ كان
ثمرة المناورات التي تقع في المسرح السياسي السوري غير المستقر والذي
تسيطر عليه الخلافات الحزبية .

وقد أسقط اكتشاف مؤامرة الأسلحة العراقية من قيمة حزب
الشعب الذي كان زعماءه يتطلعون بصورة تقليدية الى الاتحاد مع العراق .
وقد لعب حزب البعث وانصاره من العسكريين دورا كبيرا في الحط من
قيمة حزب الشعب . وكان الاتجاه البعثي اليساري قد نال من التأييد
الشعبي ما ضمن لقادته أن يكونوا عنصرا أساسيا في كل وزارة شريطة
أن تكون ائتلافا يضم العناصر السياسية الأخرى . وأقام الحزب الوطني
الدليل على أنه حليف ودود للبعث ضد حزب الشعب ، ولذا فقد كان ممثلا
في الوزارة . ولما كان خالد العظم قد ألقى بثقله بين النواب « المستقلين »
وراء حزبي البعث والوطني ، فقد كوفئ بمقعد وزارة الدفاع . وقد أشارت
هذه الضرورة الى وجود الأخطار المتأصلة في السياسات السورية الداخلية
في عام ١٩٥٧ ، ولا ريب في أن استخدام خالد العظم لوزارة الدفاع قد
فجر أخطارا أخرى .

يعتبر خالد العظم من أكثر الناس ثراء في الهلال الخصيب وواحد
من القوى الفعالة على مسرح السياسة السورية . وكان له مطمح واحد ،
يكاد يلهيه ، وهو أن يغدو رئيسا لجمهورية سورية ، ولم يترك ناحية من
نواحي المحيط السياسي في سورية ، دون أن يطرق بابها ناشدا عينا
مساعدها في تحقيق هدفه . وكان يكفي للمرء أن يقابله في واحد من
بيوته التي تشبه القصور في عام ١٩٥٧ ، ليدرك ان هذا الرجل يمكن أن
يكون كل شيء الا أن يكون مشايخا للشيوعية ، ومع ذلك فلم يكن يتورع
في أن يلجأ الى الاستعانة بالشيوعيين وبما يقف وراءهم من مكانة
سوفياتية . وقد أتاح له منصبه كوزير للدفاع في أغسطس عام ١٩٥٧
هذه الفرصة التي كان ينشدها .

ووقع الوفد السوري الذي يرأسه خالد العظم في السادس من أغسطس في موسكو اتفاقا أساسيا نص على تقديم أنواع مختلفة من العون السوفياتي ، العسكري والمالي لسورية . ووجه العام وهو في موسكو دعوة شفوية الى الزعماء السوفيات لزيارة سورية ، دون أن يكون مخولا في الحكومة السورية بتوجيه هذه الدعوة ، وعندما عاد الى دمشق ، استخدم صلاحياته كوزير للدفاع في اقالة رئيس الاركان العامة وعددا من الضباط الذين يحتلون مراكز حساسة ، مستعينا عنهم بآخرين سرعان ما أقاموا الدليل على أنهم من المؤيدين لتوثيق علاقات الصداقة مع روسيا . وقام بمحاولة لابعاد السراج المناوي للشيوعية عن البلاد ، ولكن بقية أعضاء الوزارة أحبطوا محاولته هذه في الوقت المناسب .

ولم تكن الوزارة في أغسطس عام ١٩٥٧ أكثر تشييعا للسوفيات مما كانت عليه في بداية ذلك العام . وكان قد اتجهت الى موسكو تطلب عونها لنفس الأسباب التي حملت مصر على طلب عونها من قبل ، ولعل في مقدمتها ان موسكو تعرض مساعداتها دون قيود او شرط . ولكن قدرة الاتحاد السوفياتي والزعيم الشيوعي الكبير خالد بكداش على استغلال هذا العون استغلالا خطرا كانت تعتمد كل الاعتماد على الطريقة التي ستسلكها الولايات المتحدة في الرد على هذه الخطوات السوفياتية الجديدة . ولم يكن كل شيء قد ضاع في سورية بعد في أغسطس عام ١٩٥٧ ، وكان في مكنة السياسة الرشيدة لو اتبعها الغرب ، أن تسمح للرئيس القوتلي وقادة حزب البعث وغيرهم من الزعماء . بأن يواصلوا سياسة الحياد . ولكن العمى الاخرق الذي تميزت به كل خطوة قامت بها واشنطن في المنطقة في هذه الآونة ، اتاحت لخطط خالد العظم ان تخلق حالة من الهوس الجنوني في سورية .

وراح المستر دالاس يبعث في التاسع والعشرين من أغسطس بالمستر لوى هندرسون في رحلة صحبتها حملة من الدعايات العريضة يطوف فيها عددا من بلدان الشرق الأوسط باستثناء سورية نفسها ، معلنا في الوقت نفسه أن لدى « جارات سوريا » كل مبرر للفرع حقا من الحالة فيها . ونقلت كميات ضخمة من الأسلحة الأمريكية بطريق الجو الى سورية في تلك الآونة مصحوبة بحملة دعائية مثيرة ، كما أقلع الاسطول السادس الى القسم الشرقي من البحر المتوسط من جديد . وراحت الحملات الصحفية الحرقاء ، تزيد النار ضراما بعناوينها الهوجاء من أمثال . . . « رأيت المتطوعين الحمر ، و « الرجال القساة الجامدى الوجوه بالألوف » . وتبدلت وجهات النظر بين الملك سعود وحسين ونورى وحكومة شمعون - مالك . ومضى سعود ونورى السعيد الى دمشق ، (١) فقبولا برد فعل عنيف من الشعب السوري ، ووجد أن

(١) اعتقد ان المؤلف خلط هنا بين نوري السعيد ، وعلى جودت الأيوبي ، فلقد كان الأخير هو رئيس الوزارة العراقية في تلك الآونة ، وهو الذي أم دمشق ، وأصدر البيان المشار اليه هنا .

الحكمة تتطلب منهما أن يصدرا بيانا ينفيان فيه ادعاء المستر دالاس الذي زعم فيه أن هناك ما يبرر لجيران سورية قلقهم من الوضع فيها. وراحت إذاعة موسكو وقد ساعدها إطلاق القمر السوفياتي الأول « سبوتنيك رقم واحد » تستغل جميع الفرص الذهبية التي أتاحتها لهما تصرفات واشنطن الحمقاء .

وكان عبد الناصر يرقب جميع هذه الاحداث من القاهرة بشيء من القلق ، وقد بذل كل ما في وسعه لمساعدة الوزارة السورية . وقد أصدر بيانا حازما يعلن فيه تأييده لسياسة الحياد السورية . وعندما اشتدت الأزمة على الحدود بين تركيا وسورية في سبتمبر عام ١٩٥٧ ، كجزء من الخطة الغربية العامة للضغط على سورية ، راح عبد الناصر يبعث الى شمال سورية بوحدة من القوات المصرية كرمز على التضامن معها . وكان هذا العمل أول تنفيذ فعلي لاتفاق القيادة المشتركة بين البلدين الذي قرره الميثاق الدفاعي المعقود بينهما في عام ١٩٥٥ . ولكن الغرب اعتبر هذه الخطوات ، محاولة استعمارية من مصر للاصطياد في مياها سورية العكرة ، كما اعتبرها اجراء محتملا يحقق الأهداف الموالية للسوفييات ايضا . ولعل المفارقة الغربية في الموضوع أن مصر كانت تحاول الرد على الاستغلال السوفياتي لاططاء السياسة الامريكية ، في الوقت الذي تعين فيه سورية على دفع أي تدخل تركي أو عراقي . ولا ريب في أن السوريين كانوا سيستديرون حتما نحو موسكو لولا العون الذي جاءهم من مصر

ولكن الضرر الذي سببه حمق الغرب وهوسه ، تركز الآن في نقطتين في سورية ، فلقد ارتفعت أسهم خالد العظم في عيون ضباط الجيش السوري ، على اعتبار أنه الرجل الذي حصل للجمهورية على سلاحها الجديد الذي تحتاج اليه لا للدفاع ضد اسرائيل فحسب ، بل لمواجهة الخطر المتزايد في تركيا والعراق أيضا .

ونال خالد العظم عن طريق القرض الكبير الذي حصل عليه من موسكو ، مكانة بارزة عند الشعب أيضا . وراح الشيوعيون السوريون الى جانب هذه التطورات ، يستغلون هذا الضغط الذي يفرضه الغرب على بلادهم ، وما تلقاه من عون سوفياتي لدرئه ، ولم يكن للشيوعيين الا مقعد واحد في البرلمان ، وهو المقعد الذي يشغله خالد بكداش . ولكن منظمي الحزب وأركانهم أخذوا يكسبون القوة في المجالس البلدية ، وكان لهم عدد من المؤيدين في أوساط الجيش . وأدرك البعثيون ورفاقهم في نهاية عام ١٩٥٧ . أن التحالف بين خالد العظم والشيوعيين أصبح احتمالا تكتيكيا قويا . وبدأ حقا أن سورية ماضية في طريقها نحو الفوضى . وقد شرح لي صلاح البيطار الزعيم البعثي هذا الوضع عندما اجتمعت اليه . . . فقال . . .

« . . لم يكن هناك خطر عاجل من قيام انقلاب شيوعي . ولكن كان من المحتمل أن يفتنم الانتهازيون الفرصة وأن يكسبوا عن طريق استغلالهم تأييد الشيوعيين ، والسمعة التي يتمتع بها الاتحاد السوفياتي . وكنا نخشى خشية أكيدة ما قد يسفر عنه هذا الائتلاف من نتائج في الانتخابات

النيابية التي كان من المقرر إجراؤها في هذه السنة ، وما قد تؤدي إليه هذه النتائج من تطور في انتخابات رئيس الجمهورية .

.. وكان لزاما علينا أن نختار هذه اللحظة لتحقيق الوحدة . إذ أنها كانت لحظة لو أضعناها ، لضاع علينا حلمنا لسنوات طويلة في هذه الجحيم من دوامة الديمقراطية البرلمانية الزائفة ، (١).

ويجدر بنا أن نذكر أن هذه هي صورة الاوضاع التي كانت تسود سررية والتي وضعها البعثيون أمام الرئيس عبد الناصر ليدعموا بهما طلبهم تحقق الوحدة الفورية والكاملة مع مصر .

نداء الوحدة

لم تكن فكرة الوحدة جديدة ، عندما طار وفد من السياسة السوريين والضباط القوميين في الجيش ، وفي طليعتهم ممثلو حزب البعث الى القاهرة ، يحملون معهم نداء الوحدة . فلقد كان الدستور السوري لعام ١٩٥٠ يتصور شعبا عربيا واحدا في المستقبل. تضمه دولة واحدة . ونص دستور مصر الذي صدر في عام ١٩٥٦ على أن مصر جزء من الوطن العربي .. وقد أدى هذا الاتجاه الذي سبق لنا شرحه لايجاد تعاون وثيق مع مصر الى اتخاذ قرار بالاجماع في المجلس النيابي السوري في الخامس من يوليو عام ١٩٥٦ ، للشروع في مفاوضات لخلق اتحاد تعاوني (فدرالي) بين البلدين . ولكن هذه الخطوات ما لبثت أن توقفت بسبب الأزمات التي توالى في عامي ١٩٥٦ و ١٩٥٧ وفي طليعتها أزمات السويس ومشروع ايزنهاور وانقلاب الاردن الرجعي . ولكن الدولتين أعلنتا في الرابع من سبتمبر ١٩٥٧ وصولهما الى اتفاق مبدئي على قيام وحدة اقتصادية بينهما يتم تنفيذها عن طريق اقامة صناعات ومصارف وشركات للنقل مشتركة وأن تنتهي هذه الخطوات باقامة نقد موحد . وتم الاتفاق في التاسع عشر من نوفمبر عام ١٩٥٧ على الشروع في مفاوضات لاقامة اتحاد تعاوني (فيدرالي) بين البلدين .

ولكن على الرغم من الموافقة على أهداف الوحدة ، الا أن القاهرة لم تكن تتوقع صورة هذه الوحدة التي طلبها السوريون الآن ولا توقيتها . ولم تمض بضعة أسابيع حتى كان معظم المعلقين الغربيين ومعهم الدعاية الاسرائيلية يتهمون عبد الناصر ، بعملية ضم « سورية الصغيرة التي لا حول لها ولا طول » ، ويشبهونها بضم هتلر للنمسا (الانشلوس) ، ويصورونها على أنها الخطوة الرئيسية الأولى في طريق اقامة « الامبراطورية » التي كان الحديث عنها دائرا على قدم وساق منذ عام ١٩٥٥ . لكن الواقع كان يختلف عن هذه الدعايات اختلافا عموديا كاملا . وقد اعتمدت في هذا السرد الذي سأتلوه هنا ، عن حقيقة ما دار على المعلومات التي جمعتها من الفريقين .

(١) مقابلة للمؤلف مع صلاح البيطار في القاهرة في أكتوبر عام

لقد دهش عبد الناصر وزملاؤه دهشة حقيقية مما تضمنه الطلب السوري من حث على الاسراع في تحقيق الوحدة ، ومن تطرف . وكان عبد الناصر يتوقع كما كان يتوقع أي انسان آخر ، أن تستمر المفاوضات التي تم الاتفاق على الشروع فيها لتحقيق الاتحاد التعاوني سنوات عدة . ولم يكن الزعيم المصري قد ضمن برامجه الأولية أية أهداف لوحدة دستورية بين البلاد العربية حتى يناير عام ١٩٥٨ . وكان ينشد أول ما ينشده « التضامن » وهو التعبير الذي طالما استعمله ، في شئون الدفاع والسياسات الخارجية ، لينقل من مرحلته الى مرحلة الاصلاحات الداخلية ، ومن ثم الى الوحدة الاجرائية في الشئون الاقتصادية والتربوية والدفاعية ، على أن لا تتحقق الوحدة أخيرا الا بعد اتفاق يقوم على دراسة حذرة ودقيقة . وكان يدرك ، ادراكا عاما ، ما تتعرض له سورية من أخطار سياسية . وكان أول رد فعل صدر عنه بعد أن استمع الى العرض الكامل الذي قدمه اليه السوريون عن أوضاعهم ومشاكلهم ، توجيه النصيح اليهم ، بأن يقوموا الآن بذلك الطراز من الثورة الداخلية ضد الرجعية وضد ما يبدو من ضعف في النواحي الخارجية . الذي تبناه هو وزملاؤه من الضباط الاحرار في ثورة عام ١٩٥٢ .

ورد السوريون قائلين بأن جيشهم يفتقر الى الوحدة التي تسود الجيش المصري . وأن الوقت لا يسمح لهم بأي ابطاء لتمهيد الطريق تمهيدا سليما لتحقيق تلك الثورة . وأضـافوا أن السبيل لتحقيق ماينشدونه من اصلاح لا يتم الا عن طريق تقوية وضعهم بإقامة الوحدة مع مصر التي تلقى تأييدا شعبيا طاغيا . وعندما تساءل عبد الناصر ، عن السبب الذي يحول دون قيام الاتحاد التعاوني (الفدرالي) الذي سبق لهم أن تصوره ، ردوا بأن هذا المشروع لم يعد بغي بالفرض من ايجاد القوة المنبعة . وهنا أضاف السوريون بعض الحجج التي انطوت على شيء من الملامة وراحوا يتساءلون . . ولماذا لا نحقق الوحدة الكاملة على أي حال ؟ أو لا تحقق هذه الوحدة بالتأكيد الهدف القومي العربي ، وتحظى بالتأييد الطاغى من جماهير العرب ؟ أولا شير تاريخ العرب الحديث الى الضي من التردد والخوف من التقدم الى الامام ، مما يترك ثغرات للدسائس الاجنبية التي تكس التجزئة ؟ وهل يرضى عبد الناصر أن يترك سورية العربية تهوى فريسة للشيوعية أو للعناصر الرجعية الانتهازية المتحالفة مع عراق نوري السعيد والدول الغربية ؟

ولقد قدر للرئيس عبد الناصر بعد ثلاث سنوات ونصف السـنة أن يستذكر هذه الحجج والأقوال بشيء من السخرية المرة التي يمكن فهمها ، مهما كانت الاخطاء التي وقعت في هذه الآونة . (١) ولكنه في

(١) قال الرئيس عبد الناصر في خطابه الذي ألقاه في الثامن والعشرين من سبتمبر عام ١٩٦١ : « لقد قلت ان الوحدة تحتاج الى تمهيد الوحدة متاعب والوحدة مشاكل والوحدة امتزاج . . قلت هذا ولكنهم قالوا لي أين الاهداف التي أعلنتها ؟ هل تنكر لهذه الاهداف ؟ وهل تترك سورية ؟ هل تتركها لتتنازعها الاحقاد ؟ هل تترك سورية لتضيع ؟ » المؤلف

يناير عام ١٩٥٨ ، راح نهجاً لثلاث مؤنرات ، فلقد أدرك أولاً . أنه لا يستطيع هو ولا يستطيع سفيره في دمشق الذي كان يوصى بالإنابة والتمهل البالغين في موضوع الطاب السوري ، أن يسبرا حفا عور الخطر على سورية ، كما يستطيع السوريون أنفسهم أن يسبروه . ولدنه كان من الناحية الثانية يحس في قرارة نفسه بذلك الشعور الحماسي لتحقيق هذه الوحدة . الذي يسيطر على الشرق الأوسط بكامله . ويرى أهمية ما في سبق الزمن من قيمة للحركة العربية . ومع ذلك فقد ظل يحتفظ من الناحية الثالثة بذلك التشكك العميق ، من جراء الانغماس في مثل هذا الالتزام الجذري بدون أن تسبقه دراسات عميقة ودقيقة للغاية . وأدرك أن هذه الوحدة التي يصر السوريون على تحقيقها ، ستواجه عداء متواصلاً من الحكام العرب الرجعيين ومن الصهيونية والدول الغربية والشيوعية . وأدرك أن هؤلاء الأعداء ، سيجدون منافذ تتمثل في أي مصدر من مصادر الضعف فيها أو من علائم الفرقة الداخلية ، لطعنها ومهاجمتها . ولكن كانت هناك الاحتمالات الأخرى التي عرضها السوريون ، فاما أن تتعرض بلادهم لانقلاب شيوعي ، أو الى حالة من الفوضى يستغلها نوري السعيد بموافقة الغرب أو حتى عن طريق تدخله الفعلي ، مما يعرض قيادته للحركة العربية للخطر .

ولعل من الصعب على المرء أن يتصور معضلة تعادل تلك التي واجهها عبد الناصر . وكان ما توصل اليه من حل أخيراً هو أن يضع أمام الوفد السوري تلك الشروط ، التي يرى ضرورة توافرها أولاً وقبل كل شيء حتى تقبل مصر تحمل هذا الالتزام العظيم . ولقد أكد زملاؤه فيما بعد لمؤلف هذا الكتاب ، أن عبد الناصر كان يأمل في أن تؤدي هذه الاشتراطات التي وضعها الى أن يعيد السوريون النظر في موقفهم ليقرروا ما اذا لم يكن من الأفضل لهم أن يحاولوا الوصول الى علاج أقل جذرية ، أو يقرروا على الأقل أن الاتحاد التعاوني (الفيدرالي) قد يكون أصحح لهم من الوحدة الكاملة .

ونصت الشروط التي وضعها الرئيس عبد الناصر ، على أن واقعية الوحدة الكاملة تتطلب القيام في سورية بخطوات لمواجهة العوامل السياسية تضاهي ما اتخذ في مصر لمواجهة العوامل المشابهة ، كحل الأحزاب السياسية كلها في سورية والاستعاضة عنها بتكوين اتحاد قومي ، كما نصت أيضاً على وجوب ابتعاد الجيش السوري ابتعاداً تاماً عن السياسة وعلى أن يختار الضباط الراغبون في العمل السياسي أو الحكومي بين هذا العمل وبين مناصبهم العسكرية . وأضافت أن الوحدة الكاملة تتطلب الدمج بين اقتصادي البلدين ، وأن تشمل قوانين الإصلاح الزراعي وخطط التنمية الاقتصادية التي توجهها الدولة الاقليم السوري أيضاً . وحذر عبد الناصر الوفد قبل كل شيء ، من أنه في حالة اتمام الوحدة على النحو الذي يطلبونه ، فمن الواجب ألا يكون هناك أي تأفف أو تدمير ظاهر ، وكما أنهم قد ذكروه بمسئوليياته تجاه القضية القومية كلها ، فانه يود أن يذكرهم أيضاً بمسئولياتهم ، هذا اذا كانت القضية ستعرض لامتحان من جراء هذه المغامرة الشاقة .

وطار الوفد عائدا الى دمشق للتشاور ، ولكنه ما لبث أن رجع الى القاهرة قبل انقضاء بضعة أيام ، وقد حمل الموافقة على جميع الشروط . وقبول الرئيس سكروى القوتلى للمشروع . واقترح الوفد مع هذه الموافقة ، اعلان الوحدة فورا كاجراء عاجل على أن يترك أمر التخطيط للمستقبل . وهكذا لم يحل اليوم الأول من فبراير عام ١٩٥٨ ، حتى اهتز الوطن العربى كله بذلك الاعلان القصير الذى نقلته فى مستهل هذا الفصل . أما الآن وبعد أن وقع الانفصال فليس فى وسع أى انسان ان ينكر لحظة واحدة ، بأن تلك الخطوة كانت تاريخية عند العرب جميعا ، اذ تفجرت فيها الآمال ، والأمانى المشرقة ، وارتفعت مشاعر الاعتزاز الى أسنى الذرى ، بشكل لم يسبق له مثيل فى تاريخ العرب الحديث ، وانتقل عبد الناصر الى سورية . وتدفقت الجماهير أياما ثلاثة متوالية من جميع أنحاء البلاد ، لترايط أمام القصر وقد زحفت اليه لرؤيته ، حتى اضطر الى مناشدتها شخصيا العودة الى الأماكن التى جاءت منها لمباشرة أعمالها . وإذا كان الأجنبى الغربى الذى لا علاقة له بالموضوع يحس بالألم كلما عاد بذاكرته الى تلك اللحظات ، فإن من الممكن أن نتصور مدى الآلام التى أحس بها الكثيرون من العرب عندما انفصلت عرى الوحدة التى أحاطوها بمهجم . وعندما رد الغرب ، بتوجيه التهم الى الرئيس عبد الناصر ، بأنه ضم اليه سورية عنوة كما ضم هتلر النمسا الى المانيا وعندما سارع الغرب الى اقامة الاتحاد الهاشمى المنافس القصير العمر بين عرشى بغداد وعمان ، ظل عبد الناصر من ناحيته متخوفا كل التخوف . ولقد سمعناه بعد أربعة أيام من الاعلان التاريخى الذى عمت أنبأؤه الشرق الاوسط بأسره ، يقول فى خطاب ألقاه عن الوحدة ...

« ان الطريق الذى نقبل عليه طويل وشاق .. »

« ان رحلتنا عليه ليست نزهة نروح بها عن النفس .. »

« وانما رحلتنا هي مشاق ومتاعب ، وكفاح وجهاد .. »

« ... ولكن علينا أن ندرك أن لهذه الفترة الرائعة أخطارها أيضا . وربما كانت شهوات أنفسنا هي أكبر الأخطار التى يتعين علينا مواجهتها لقد مرت علينا قرون من الزمان ، وأحلامنا وأمانينا ورغباتنا ، وأهدافنا حبيسة وراء الحواجز والسدود التى صنعها الاستعمار . »

« ولقد تهاوت الحواجز والسدود ، لمسا زال وجود الاستعمار من بلادنا، وهكذا بدأت الأحلام والأمانى والرغبات والأهداف تنطلق من عقالها . وتتدافع بسرعة فى مثل تدفق الفيضان . »

« ولقد كان هذا هو التفسير الحقيقى لسرعة الحوادث فى جيلنا ، وهذا أمر طبيعى ، بعد أجيال عديدة مكبوتة ، ولكن هذا أيضا تحذير كما هو تفسير . »

« انه تحذير بأن من أول واجباتنا أن نقيم من الحكمة خزانة على

امانينا ، ثم تفتح عيونها ليمر التيار . . على شكل الفيضان المنظم ،
ولا يخر فوق رؤوسنا كالطوفان العالى الشديد . (١)

ولا ريب فى أن هذا القول غريب على زعيم كان الغرب يفترض فيه
بصورة عامة ، أنه كان منتشيا فى تلك الايام بتحقيق « امبراطوريته
الجديدة » وأنه كان قد شرع يتطلع حوله لتوسيع جديد فى العراق أو
الاردن أو لبنان . ولم يكن هذا القول على أى حال آخر دلالة على تحفظ
عبد الناصر فى موضوع الوحدة العربية الدستورية وعلى شكوكه فى
موضوع الوحدة مع سورية . ففي الثانى والعشرين من يوليو عام ١٩٥٨ ،
كان العراق يعيش فى ظل موجة عارمة من الحماسة الثورية ، وكان
الغرب واقعا تحت سيطرة كابوس التخوف من استعمارية عبد الناصر ،
وكان الجانبان يتوقعان منه أن يدعوا الى الوحدة بين الجمهورية العربية
المتحدة والجمهورية العراقية الجديدة . ولكن عبد الناصر ، أشار فى
الخطاب الهام الذى أذاعه فى ذلك اليوم الى الخطر الذى قد ينجم عن
التسرع فى اقامة الوحدة (٢) . وأضاف أن الوحدة مع سورية قد تمت
بصورة عاجلة ، دون أية دراسات مسبقة من النوع المعتاد وأن حكومته

(١) خطاب سيادة الرئيس الى مجلس الأمة فى الخامس من
فبراير ١٩٥٨ وقد نقلته الاذاعة أيضا .

(٢) أنا اختلفت مع المؤلف فى رأيه هذا عن تخوف الغرب من سيادة
الرئيس عبد الناصر ، وان كنت لا أنفيه . او انفى وجوده ، فالغرب
يتخوف من الوحدة العربية اننى يحمل سيادته راية الدعوة اليها ويمثلها .
وهو - أى الغرب يناهض تحقيقها ، ويحاول الإبقاء على تجزئة الوطن
العربى رعاية منه لمصالحه . ولهذا السبب أقام اسرائيل ، ويبقى على
العروش الوهمية فى المنطقة العربية ، ولهذا السبب أيضا قام بعدوانه على
السويس وارتكب ، ما ارتكب مع العرب من آثام . فالاستعمار الغربى
يرى فى القومية العربية التى يحمل سيادة الرئيس لواء الدعوة اليها .
« البعبع » الذى يفزعه . ولقد سبق له أن عارض الوحدات التى كان يحاول
القيام بها حتى من يسميهم أصدقاءه ، فلقد عارض فى وحدة الاردن
والعراق فى عهد الملك عبد الله فى عام ١٩٥٠ مع أن عبد الله وعبد الاله
ومعهما نوري السعيد كانوا يسرون فى ركابه ويأتمرون بأمره . لأنه
يخشى مستقبل هذه الوحدة لاحاضرها ، ويخاف من تحولها مع الايام الى
أيدي الشعب من أيدي الاعوان . واذا كان قد وافق فى عام ١٩٥٨ على
الوحدة المصطنعة بين العرشين الهاشميين ، فى الاردن والعراق ، فلأنه
وجد نفسه مضطرا لقبولها ليواجه بها الوحدة الحقيقية المنبثقة من ارادة
الشعب والتى يتولى قيادها الزعيم المؤمن الملمم الرئيس عبد الناصر .
والتي خلقت الجمهورية العربية المتحدة . فالتخوف اذن هو من الوحدة ،
ولأن الرئيس هو الذى يتولى لواءها منطلقا من الايمان الاصيل بها وحدة
متحررة من كل نفوذ وتبعية ، فان الغرب يخشاها كل الخشية وقد عمل
وما زال يعمل على احباطها والحيولة دون قيامها .

-المغرب-

لم تكن قد درست حتى الميزانية السورية التي ثبت وجود عجز كبير فيها -

ورحت أسأل الرئيس عبد الناصر ، في حديث طويل أجرите معه في شهر أكتوبر عام ١٩٥٨ ، عما يراه في حركة الوحدة العربية . وعن المرحلة التي يعتقد أنها وصلتها . فكرر على مسامعي ما سبق له ان ذكره أكثر من مرة ، وان هدفه الاول هو التضامن في السياسة الخارجية وشئون الدفاع ، وتوحيد الخطة الرامية الى تحقيق الاصلاح الداخلي . وقال ان هذا الرأي انما نجم عن الثورة العراقية وأضاف أن ليست لديه أية خطط عن الوحدة مع العراق . أبدا أية خطط . ثم قال « لقد مللت من تكرار هذا القول دفعا لما يوجهه الغرب الى من اتهامات . ورحت أسأله عما يمكن فعله الآن في موضوع الوحدة طالما أن العرب . ينادون بها سواء أكانت هناك خطط موضوعة أو لم تكن فقال ..

« لا ريب في أنك تعلم أننا كنا حتى الآن نفكر على صعيد روحي أو معنوي لا على صعيد محسود ، وأن تفكيرنا لم يكن يعدو حدود الاماني والآمال . ويشبه موقفنا وضع ذلك الشاب الذي لا يتوقف عن الاحلام قبل الزواج .. قل لي هل أنت متزوج ؟ »

وقلت للرئيس اننى متزوج ، واننى فهمت ما يعنيه فابتسم ، ولكنه ما لبث أن قال بمنتهى الجد وهو يبحث عن الكلمات التي يريد أن يرددها على مسمعى وسط سحابة من دخان لفافة التبغ التي كانت في يده ..

« .. اذن فالشاب يوالى بحثه وهو حالم ، يأمل في الحب ، وفي المرأة التي يبنى بها ، والاطفال الذين سينجبهم والاسرة التي سيبنونها ، وكل ذلك بطرق روحية . ويحقق أمله أخيرا فيتزوج . وهنا تبدأ المشاكل في البروز أمامه . فعليه أن يجد القوت والملبس لزوجته وأطفاله ، وعليه أن يؤثث بيته . وأن يخطط لغده . وأن يبقى على علاقاته الجديدة في أسعد حال . وسرعان ما يجد ان تفكيره العملي لم يهيئه لمواجهة كل هذه المشاكل العملية ..

هذا على ما أظن هو حالنا الآن بالنسبة الى القومية العربية والوحدة - فالاحلام وحدها لا تكفى . »

تبعات الوحدة ومسئولياتها :

ولدت الجمهورية العربية المتحدة أول ما ولدت تحت كنف من التبعات والمسئوليات المتأصلة ، التي لو قمنا بتعدادها وحدها ، لتبين لنا الكثير مما دعا الى تحللها . فليست هناك حدود مشتركة بين مصر وسورية ، وانما تقوم بينهما الاردن واسرائيل . ولم يمر شعباهما بفترة تمهيدية من التعارف المشترك الذي ينضج ببطء واستمرار ، ولا تقتصر فيها الاتصالات على الزعماء والمسؤولين عن الحكم أو حتى البارزين من المواطنين بل تتعداها الى مختلف الفئات لخلق جو من التفهم الصحيح للفروق بين الامزجة والطباع والبيئات . ولكن فجأة ، وبين عشية وضحاها . وجد هذان الشعبان نفسيهما شعبا واحدا في دولة واحدة ذات

علم واحد . ويصح أن يقال ، أن مثل هذا الوضع لم يحدث من قبل في أي مكان آخر في العالم (١) .
وكان هناك أيضا عامل الحجم ، فالإقليم المصري عملاق في حجمه ، إذ يضم ستة وعشرين مليوناً من السكان ، وهو يتحد مع الإقليم السوري الصغير . والذي لا يتجاوز تعداد سكانه الأربعة ملايين ونصف المليون من الناس . ولو كانت الوحدة التي قامت من نوع الاتحاد التعاوني (الفيدرالي) الذي تحتفظ فيه الأطراف بسيادتها ، لكان في الإمكان تدبير مشاريع الاحتكاك الناجمة عن الاتحاد ، ولكان في مقدور القائمين عليه ، إزالة الشعور الحتمي الذي يخالج الشريك الأصغر دائماً بأنه واقع تحت سيطرة الشريك الأكبر . أما بالنسبة إلى الاندماج الكلي الذي خلقتة الوحدة الكاملة بين إقليمي الجمهورية العربية المتحدة ، فإن هذا العامل وحده كاف لخلق مشاعر التوتر الحادة ، حتى ولو كانت الأوضاع القائمة في الجمهورية العربية المتحدة وحولها مثالية في صلاحها لدعم الوحدة . مع العلم بأن هذه الأوضاع لم تتوافر أبداً .

عوامل الضعف الاقتصادية :

وفي وسعنا أن نتميز المصاعب التي فرضتها الوحدة بوضوح ، إذا لاحظنا بعض الأوضاع المعاكسة التي نشأت منذ البداية . وقد نبين أن الفروق بين الكيانين الاقتصادي والاجتماعيين في مصر وسورية ، قد ألقت مصدر الخطر الأكبر منذ البداية . فلقد بدأت مصر التي ضاقت بسكانها ثورة داخلية جذرية ، تقضي على الامتيازات الاقتصادية وأوجه السلطان السياسي السابق ، التي كان يتمتع بها الاقطاعيون الأغنياء والقلّة

(١) وقع المؤلف هنا في خطأ أساسي أوصله إلى النتيجة الخاطئة التي سجلها هنا . فهو كما يبدو يفترض وجود شعبين مختلفين في مصر وسورية ، تختلف أمزجتها وطبائعها وبيئاتهما ، مع أن الشعب واحد في البلدين ، وفي الأجزاء الأخرى من الوطن العربي التي ما زالت تتلهم لتحقيق الوحدة . ومن هنا تجاهل المؤلف الدوافع المادية الملموسة والعوامل الروحية التي تقوم حتمية الوحدة العربية على أساسها ، ولعله لم يستطع أن يعرف أن للشعب العربي كله تاريخاً واحداً ومشتركا . وأن أرضه واحدة مشتركة تؤلف كيانا مادياً متكاملاً ، وإن له لغة واحدة ، وإن اختلفت لهجاتها ، وفكراً واحداً ، وتراثاً قومياً واحداً ، ومصالح مادية واحدة ، بالإضافة إلى ما يوحد من نضال مشترك ضد عدو استعماري واحد ، وإن اختلفت الدول التي تؤلف جبهته .

وأرى لزاماً علينا هنا أن نؤكد نقطة واحدة . وهي أن الشعب السوري لم يكن هو الذي قسم الوحدة التي كان الفارض لها ، وإنما الذي قسمها ، جماعات من الانتهازيين المرتدين والتجار ، والرجعيين من كبار الرأسماليين والاقطاعيين ، وعملاء الاستعمار .

من التجار وذوى المهن . وكان فى مصر اصلاح زراعى يسير فى طريقه ، وكانت هناك تنمية اقتصادية توجهها الدولة ، كما كانت هناك رقابة صارمة على التجارة والصيرفة ، وأعمال البنوك . ولم تؤد هذه الاجراءات الهادفة الى ازالة عدم التكافؤ الاقتصادى والاجتماعى الى أية هزة سياسية لأن معظم أصحاب الامتيازات الذين فقدوها لم يكونوا من المصريين بل من المقيمين الاجانب من بريطانيين وفرنسيين وبلجيكيين ويونانيين وغيرهم .

أما فى سورية ، وعلى سبيل المقارنة المربعة ، فلم تكن هناك أية ثورة داخلية من أى نوع ، كما يدل على ذلك العدد الصغير من نواب حزب البعث الاشتراكى فى البرلمان . وعندما وقعت الوحدة كان فى سورية نظام اقتصادى ، يفوق فى حريته وعدم تقيده ، وانفتاحه أمام أصحاب الاعمال أى نظام آخر ، فى أى بلد ثان بعد الحرب العالمية الثانية . وكان التجار وأرباب المصارف السوريون قد تعودوا على ما ألفه القرن التاسع عشر من افتقار الى تدخل الدولة فى توجيه الاقتصاد ، لا سيما وانهم هم الذى يسيطرون على هذه الدولة مباشرة أو عن طريق الفئات المختلفة من ضباط الجيش . وليس ثمة من يشك أو يناقش فى ان سورية كانت فى حاجة ماسة الى اصلاح الداخلى ، وفى حتمية هذه الاصلاحات . ولكن عندما بوشر الآن فى التطبيق ، ولا سيما فى حدود القرارات الاشتراكية العربية التى صدرت عن الرئيس عبد الناصر فى يوليو عام ١٩٦١ . صبت الفئة القليلة من ذوى الامتيازات فى سورية جام نقيمتها على مصر وعلى الوحدة . ولم يكن عدد الاجانب من ذوى الامتيازات فى سورية كبيرا جدا بحيث يمكن حرمانهم منها . وتحتم أن يكون الصراع الذى سيحدث بين السوريين أنفسهم . وكان الخطر قد اتضح منذ السنة الاولى للوحدة فى بيان صريح كل الصراحة صدر عن الرئيس عبد الناصر ، اتر مقابلته لوفد من غرف التجارة فى سورية جاء ينسكو اليه فلقد قال . . « اذا بعثنا اليكم ببعض مسئولينا ، قيل انهم جاءوا ليحكموا سورية . أما اذا امتنعنا عن ايفادهم ، فيقال ان مصر لا نهتم بسورية » (١) .

(١) هناك حقيقة واقعة يجب أن لا نتغافلها . وان تغافلها المؤلف ، وهى ان سورية كانت تضم طبقة من الاقطاعيين والرأسماليين وذوى المصالح شأنها فى ذلك شأن الاجزاء الاخرى من الوطن العربى الذين أفرعتهم القرارات الاشتراكية لما ستؤدى اليه من تهديد لمصالحهم الشخصية الاستغلالية التى تقوم على ابتزاز عرق العامل والفلاح وجهدهما ، وان أفراد هذه الطبقة تتشابه مصالحهم دائما مع مصالح الاستعمار ، وان لم يكونوا يرتبطون به رباطا مباشرا فى الظاهر على الأقل . ولما كان هم الاستعمار أن يفصم الوحدة . حرصا على مصالحه ، وإبقاء على ربييته اسرائيل التى كانت الوحدة تمثل الخطر الاول عليها ، فقد استغل عن طريق أعوانه واجرائه فى الاجزاء الاخرى من الوطن العربى ، هذا الشعور الطبقي عند الفئات الرجعية والرأسمالية فى سورية ، وسخر أفرادها بعضهم عن طريق العمالة المباشرة ، والبعض =

وإذا أضفنا الى هذا العامل المعاكس ، بعض الاخطاء التي وقعت -
هيئت لنا صورة عن الاوضاع . فلقد افترض المخططون والاداريون ، ان
ما يصلح لمصر من أساليب واجراءات ، يصلح لسورية أيضا . وكثيرا
ما ضاق هؤلاء صبرا ، من رؤيتهم الاقليم الشمالى ، لا يتقبل بسهولة
مفاهيم التنمية الاقتصادية التي تخططها الدولة وتوجهها ، لان هذا
الاقليم لم يألّفها . وصحيح ان الحاجة الى الاصلاح والتخطيط كانت
قائمة ، الا ان المثقفين السوريين وحتى المؤمنين منهم بمثل هذه الاصلاحات
الاشتراكية ، لم يكونوا يحسون بالحاجة الملحة اليها ، والتي تتسلط على
التفكير فى الاقليم المصرى بسبب الضغط الناجم عن تكاثف السكان .

عوامل الضعف السياسية :

هناك عدد كبير من علامات الاستفهام التاريخية فى قصة الوحدة
بحيث يصبح من الصعب ، لا سيما وأن الوقت لم يطل بعد ، على وقوع
المأساة ، للحكم على ما اذا لم تكن المتناقضات الاجتماعية - الاقتصادية
الاساسية من النوع الذى سيطغى على أى حال . ولكن المشاكل السياسية
الداخلية فى الجمهورية العربية المتحدة ، كانت من نوع ضخم أيضا .
ولقد كان أول رد فعل عند الغرب لحركة الانفصال هو الافتراض بأن
القوى الديموقراطية فى سورية قد ثارت على ما أسمته بالسيطرة المصرية .
لكن ما يبدو فى هذا الافتراض من بساطة . سرعان ما ظهر بطلانه من
الحقيقة الواقعة . وهى ان العهد الانفصالى نفسه . لم يتح للأحزاب
السياسية حريتها ، ولم يسمح بقيامها . وسأتولى فى الفصل المقبل
البحث فى مفهوم عبد الناصر ، عن البنيان السياسى الذى يقوم على عدم
وجود الأحزاب ، وهو مفهوم يسير فى خط مماثل ومتواز مع كل مفهوم
من نوعه فى الدنيا الافريقية - الآسيوية . ولكننى أرى من الاهمية بمكان
هنا أن أشرح بعض نقاط الضعف فى جهاز الاتحاد القومى الذى قبل به
السوريون أنفسهم كشرط من شروط الوحدة الكاملة التى أصرّوا هم على
قيامها .

وإذا ما وضعنا نصب أعيننا حقيقتين أساسيتين ، وهما حجم مصر
الضخم وزعامة عبد الناصر الشعبية الجارفة الطالعة من القاهرة ، فان
سؤالا ضخما سرعان ما يبرز أمامنا ، وهو ألم يكن الوفد السورى الذى
ذهب الى القاهرة فى يناير عام ١٩٥٨ ، سعيا وراء الوحدة ، يدرك أن
مصر ستكون هى صاحبة الدور الاكبر ، كنتيجة طبيعية فى الاندماج الذى
يطلبه ؟ ان الرد على هذا السؤال يتطلب منا نظرة أعمق تجاه الاهداف
الاجابية التى دعت زعماء البعثيين للمطالبة بالوحدة ، ويبدو لمؤلف هذا
الكتاب أن هذا الرد يعرض قضية عقائدية أساسية بالنسبة الى خالقى
الوحدة . فإكرم الحوراني الزعيم المحترف لحزب البعث ، وميشال عفلق

= الآخر دون وعى وادراك فى العمل على تحطيم الوحدة . ولهذا العيب هذه
الفئات دورا بارزا فى عملية الانفصال .

— العرب —

وصلاح البيطار ، الزعيمان العقائديان للحزب ، كانوا جميعاً يرون في شخص عبد الناصر الزعيم الصادق والنزيه ، وذا الدور التنفيذي التاريخي للحركة العربية ، وكانوا يؤمنون بأن مصر يجب أن تكون مركز الثقل في هذه الحركة . ولكنهم مدفوعين بشيء من الغرور والاغراق في الثقة بالنفس اللذان يظهران بوضوح في غموض برامجهم ، كانوا يعتقدون أن هذه الحركة في أشد الحاجة الى محتواهم العقائدي وسياساتهم المتلاحمة . وعلى الرغم من اعترافهم ، أي زعماء البعث بأن قيادة عبد الناصر ما لبثت أن طلعت بمحتواها ومفاهيمها العقائدية ، الا أنهم ركزوا عند طلب الوحدة ، هدفهم على أساس الافتراض بل النية ، على أن يكون التلاحم قائماً بين قيادة عبد الناصر ، ومفاهيمهم العقائدية .

ولم تمض بضعة أسابيع على صدور اعلان الوحدة ، حتى كان زعماء البعث يسرون حتى الى رجال الصحافة الغربية بأنهم يتوقعون بسرعة الحصول على نفوذ مسيطر لا مجرد نفوذ نسبي ، أو حتى متكافئ في حكومة الجمهورية العربية المتحدة كلها . ولا ريب في أن هذه المطامع هي التي حدث بهم الى ذلك التسرع في تجاهل جميع تلك الاخطار الضخمة من قيام وحدة متسعة وغير مدروسة أو مقامة على أسس خطط لها ، وهي الاخطار التي حذر الرئيس عبد الناصر منها عندما حاول افناعهم بتعديل مطالبهم . وكان البعثيون بالنسبة الى قرار حل الاحزاب ، قد رأوا ، وهم الذين يعتبرون منظماتهم أكثر من مجرد حزب ، ان هذا الحل لا ينطبق عليهم ، اذ أنهم توقعوا أن يصبح البعث في الحقيقة الحركة « الرسمية » في الاقليم السوري .

ولا ريب في أن هذه القضية الباطنية من الثقة ، هي أحد العوامل الغربية التي لعبت دوراً هاماً في الجمهورية العربية المتحدة . ولعل من الصعب جداً على الباحث أن يحكم على المدى الذي كان فيه عبد الناصر ، غير محق في خلافه مع قادة البعث أو على المدى الذي كان لا بد لهذا الافتراض الغريب الذي أشرت اليه والمختفى وراء هدفهم ، من أن يجعل الصدام شيئاً حتمياً ويستفزه . فلم تكن الحقائق الواضحة في « الواقع السياسي السوري » داخل سورية نفسها تبرر ما قام به الرئيس عبد الناصر في بادئ الامر من العطف عليهم كل ذلك العطف الذي جعله يرفعهم الى مركز الزعامة القيادية في سورية . وكان هدفه الرئيسي من اقامة « الاتحاد القومي » ومفهومه ، اقناع جماهير السوريين بأن الاحزاب السياسية أصبحت شأناً من شئون الماضي . ويجب علينا على كل حال أن نقول ان حزب البعث ، كان العنصر السياسي الواضح الوحيد في سورية الذي يحمل مفاهيم اصلاحية متطرفة أمام الناس وأمام مؤيديه من ضباط الجيش والموظفين ذوي النزعات المتطرفة . وعلى هذا الاساس فقد كان الحزب، النواة التي تلتف حولها الحركة النضالية الطبقيّة ضد الطبقة المختارة القديمة بشكل واضح عند السوريين . وعندما وقعت القطيعة بين الرئيس عبد الناصر ، وبين قادة البعث في عام ١٩٥٩ ، لم تنبثق زعامة شعبية سورية جديدة ، من صفوف الاتحاد القومي الذي كان لا يزال يمر بفترة من فترات التجربة البطيئة .

وهكذا يمكن تلخيص النتيجة في عبارات عامة . ففي الوقت الذي شرع فيه عبد الناصر ضمن إطار هذه الوحدة التي كان من الطبيعي تفوق العنصر المصري فيها ، في تنفيذ برامج الإصلاح والتطور والانماء في سورية ، مستفزا بذلك صراعات طبقية حادة ، لم تكن هناك على المسرح السياسي السوري ، قيادة شعبية متطرفة . ولم يكن هناك الا حب الجماهير من السوريين الذي يبلغ درجة العبادة لعبد الناصر المقيم في القاهرة . وجهاز الاتحاد القومي الجديد الذي مازال موضع التجربة . يضاف الى هذا انه كان هناك سخط متزايد النمو لدى الفئات المثقفة الفتية من السوريين على الاجراءات البوليسية التي يقوم بها المسئولون في الاقليم السوري .

نقطة ضعف خارجية :

وقد يفدو الحكم على الفرقة التي وقعت بين الرئيس عبدالناصر وحزب البعث أكثر صعوبة عندما نضيف الى الموضوع الهدف الاساسي الثاني الذي حمله البعثيون عند سعيهم الاساسي لتحقيق الوحدة . فلقد كانوا كمعظم القوميين السوريين مع بعض القلو في التطرف . وذلك بسبب مفاهيمهم العقائدية - الفلسفية المستمدة من التاريخ العربي ، ولذا فقد آمنوا بما كانوا يسمونه دائما « بالمرحلة التاريخية الحاسمة » . وكانوا يعتقدون ان الشعب العربي يواجه الكثير من المصالح الداخلية التي تجد استثمارها في الانفصال والتجزئة ، كما يواجه الكثيرين من اعداء الوحدة من الاجانب بحيث باتوا يرون التدرج في تحقيق الوحدة عملا لا أمل فيه بل قد يكون معرقلا لها . وكانوا يعتقدون أيضا ان هناك لحظات حاسمة في التاريخ العربي وتطوره ، يكون في وسع عمل ثوري جرى يتميز بالدينامية في طريق الوحدة ، أن يغير الصورة العربية كلها ، بينما قد يؤدي التردد الى تأخير الحركة كلها مدة حقبة كاملة .

وهكذا راوا في أزمة سوريا الداخلية في يناير عام ١٩٥٨ ، لحظة من تلك اللحظات التاريخية الحاسمة ، التي قد يتحول فيها المأزق الى نصر حاسم . ولم يدركوا قط أن الزمن عامل أساسي في الوحدة بين مصر وسورية ، وان تحقيقها يتطلب بعض الوقت . فعلى النقيض من ذلك : كان من الطبيعي بالنسبة الى مواقفهم أن يصروا على أكثر أنواع الوحدة اثارة وحماسة ، كما كانت ثقتهم بأنهم سيمسيطرون هم على الوحدة ، هي التي دفعتهم أيضا الى المطالبة بسرعة ضم العراق والاردن اليها . وكانوا يعرفون أحسن من غيرهم من الفئات العربية الاخرى ان مايراه عبد الناصر من شروط يجب توافرها في المراحل التي تسبق الوحدة ، يختلف عن مفاهيمهم تمام الاختلاف . ولكنهم كانوا يتوقعون أن يكسبوه الى صفهم ، وان تمتد الجمهورية العربية المتحدة وتوسع بسرعة عن طريق القدوة والدعوة ، والقوة .

القضية العراقية :

وقع الخلاف بين الرئيس عبد الناصر وبين البعثيين بالنسبة الى هذا الهدف الخارجى بعد أشهر قليلة من تحقيق الوحدة ، أى بعد الرابع عشر من يوليو عندما وقع الانفجار الثورى فى العراق ، وليس ثمة من شك فى أن نداء الوحدة فى تلك الايام الاولى من ثورة العراق ، التى تميزت بالحماسة والتفجر العاطفى ، كان يلقي لو صدر عن الرئيس عبد الناصر ، استجابة جماهيرية طاغية فى العراق . وكان الناس يتوقعون تحقيق الوحدة بين العراق والجمهورية العربية بين لحظة وأخرى ، اذ انها تعتبر مستلزما أساسيا من مستلزمات الثورة . أو لم يكن نوري السعيد على أى حال هو الذى عزل العراق عن العرب وأبقى على عزله هذه ؟ أولم يذهب العقيد عبد السلام عارف « بطل بغداد » على الفور الى دمشق لتحية عبد الناصر باسم الثورة ؟ ومع ذلك ظلت القاهرة على صمتها ولم تصدر عنها أية دعوة للوحدة أو حتى أية اشارة . وبدلا من أن تصدر هذه الدعوة راح عبد الناصر بعد تسعة أيام من قيام الثورة ، يلقي ذلك الخطاب الهام الذى تحدث فيه عن مساوئ التسرع فى تحقيق الوحدة على أسس غير مدروسة واتقضت الايام . وطار كامل الجادرجى الزعيم العراقى ورئيس الحزب الوطنى الديموقراطى ، الى القاهرة ، بعد أن رأى العقيد عارف وجماعة البعث فى العراق ينادون علنا بتحقيق الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة ، رافعين شعارها . وبعد أن رأى أن بعض المسئولين المصريين فى بغداد . يفترضون ان الوحدة واقعة لا ريب فيها . وعاد المذكور الى بغداد ، وقد زالت من نفسه الشكوك بعد أن قابل الرئيس عبد الناصر ، واقتنع بأنه لا يريد أية وحدة عاجلة (١) .

وكان الرئيس عبد الناصر ، على الرغم مما تعرض له من ضغط شديد من وزرائه ، قد نقل وجهة نظره هذا الى عبد الكريم قاسم (٢) . وكان عبد الناصر يؤثر الوحدة العملية على الوحدة العاجلة ، وتم الاتفاق فعلا عليها ، واتخذت خطوات فعالة لتنسيق شئون الدفاع والتعليم والتخطيط الاقتصادى بين البلدين (٣) . وذكر عبد الناصر لقاسم ، أنه حتى لو طلب العراق الحديث علنا الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة ، فانه - أى عبد الناصر ، سيمصر أولا على وجود براهين واضحة تثبت أن الغالبية الطاغية للرأى العام العراقى تؤيدها ، وثانيا على اجراء مفاوضات ودراسات طويلة ودقيقة . واتفق بصراحة ، على وقف أى حديث عن

(١) مقابلة صحفية للمؤلف مع الجادرجى بعد مقابلته للرئيس عبد الناصر .

(٢) مصادر قاهرية عديدة فى سبتمبر ١٩٥٨ وفى حديث شخصى بين الرئيس عبد الناصر والمؤلف .

(٣) استقرت وحدات من الطائرات العربية النفاثة فى العراق وكان طياروها يتولون تدريب العراقيين . وذهبت بعثات تعليمية واقتصادية وزراعية عربية الى العراق .

المؤلف

الوحدة ، سواء اكان بالسلب ام بالايجاب . وقد يقال ان هذا الصمت كان ينطوى على شيء من الخطأ ، اذ لو صدر بيان مشترك يدعو الى وقف كل نقاش في الموضوع ، لامكن عن طريق هذا البيان تجنب الكثير من المتاعب . ولكن لم يكن من المعقول ، أن يتولى الرئيس عبد الناصر اصدار هذا البيان بشكل منفرد ، لان قادة الثورة العراقية ، كانوا قد انقسموا في الموضوع .

ومع ذلك استمرت الضجة في طلب الوحدة من جانب البعثيين في سورية وممثليهم في حكومة الجمهورية العربية المتحدة من ناحية ومن جانب العقيد عارف والبعثيين العراقيين من الناحية الثانية . وكانوا على ثقة من ضرورتها وكانوا يعرفون أن الرئيس عبد الناصر ، لا يستطيع أن يرفض طلب الوحدة ، اذا جاء مطلبها شعبيا عاما ، وكانوا يخشون خشية كبيرة من أن يقع اتفاق بين الدول الغربية والشيوعيين العراقيين وأن يؤدي اتفاقهم الى تعقيد قضية الوحدة وتأجيل قيامها . وكانت هناك قوتان تعاكسان عارف والبعثيين ، واولاهما الحزب الوطني الديموقراطى الذى يعارض في الوحدة ، لانه يخشى من أن يؤدي تحقيقها الى الحيلولة دون قيام نظام ديموقراطى على الاسس الغربية ، هم يؤثرونه ويودون وجوده عندهم ، وثانيتها تمثل الشيوعيين العراقيين ومعهم حلفاؤهم من الاكراد الانفصاليين الذين يؤلفون نحو من ثمانمائة ألف . وقيمون في شمال العراق - ويعارضون في قيام الوحدة . وبدا للشيوعيين العراقيين والعرب والسوفييات والصينيين أن الثورة في العراق قد أمنت لهم تلك الفرصة التى طال ترقبهم لها في الشرق الاوسط ، والتى طالما ضاعت منهم ، وهى فرصة استغلال المكانة السوفياتية واقامة قاعدة محلية للسلطان الشيوعى المحلى النموذجى والفعلى . وكانت الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة التى لايسمح فيها بأى نشاط شيوعى . والتى ستؤدي الى تقوية زعامة الرئيس عبد الناصر على الصعيد العربى العام ، تعتبر بمثابة « مصيبة » تحل بهم . ولقد كانوا كالديموقراطيين الوطنيين يريدون حرية حزبية كاملة يستغلونها لتحقيق اهدافهم .

وكان عبد الكريم قاسم هو مفتاح هذا الصراع كله . وكان مفتاح السلوك الغريب الذى يسلكه قاسم ، هو افتقاره الى الشخصية الثابتة المستقرة ، وهو مالا حظله الشيوعيون الغربيون منه والذين لم يفصحوا فى بادىء الامر عن حقيقة ميولهم العقائدية ، وأخذوا فى استغلاله . وقد اكتشف الشيوعيون فيه ظاهرتين نفسييتين اولاهما المساس الكامن العقلى بفكرة واحدة وثانيتها عقدة الاحساس بالاضطهاد التى كثيرا مايصحبها نوع من ازدواج الشخصية . (١) وكانوا يحثون هذا « الزعيم » الانطوائى المعقد المفتقر الى كل تجربة وعقيدة سياسيتين بان

(١) لايشك أى من المراقبين المدققين فى هذه الظواهر النفسية ، ولكن الواقع أنها ظواهر غير مستمرة وانما تقع فى شكل نوبات . وتعتبر مطالبته بالكويت فى عام ١٩٦١ ، دون مشاورة مجلس الوزراء . احدى امثلة هذه الظواهر .
- المؤلف -

يظل « فوق الأحزاب » وأن يغدو « الزعيم الأوحـد » للعراق الجديد . وراحوا يوحون له بأن العقيد عارف والبعثيين يتآمرون عليه وهو مابدا معقولا لديه بسبب دعوتهم المستمرة للوحدة . واخذوا يقنعونه بصورة بطيئة ولكنها مستمرة ، بأن لا يصدق ما يقال له من أن الجمهورية العربية المتحدة لاتقف وراء عارف والبعثيين في دعوتهم الوحـدية .

وظل قاسم في بادئ الامر يرفض هذه الاقوال التي يهـمسون بها في اذنيه عن عارف وعن البعثيين . ولكنه مالبث أن اخذ يصدقها ، فأنزل من مكانة عارف ، وأقصى حزب البعث عن تأييده وعطفه . ولكنه ظل واثقا من تأكيدات الرئيس عبد الناصر ، حتى بعد أن أبعد العقيد عارف في اكتوبر عام ١٩٥٨ الى منصب في المانيا الغربية . (١) لكن هذه الثقة اخذت تقلق عبد الناصر ، الذي ساورته المخاوف من ظهور هذه العناصر الشيوعية القوية التي احاطت بقاسم واحتلت المناصب المهمة (٢) وتزايد الضغط على قاسم . وشرع الشيوعيون العراقيون الذين يحتلون المراكز الهامة ، التي تسللوا اليها ، يشنون الحملات العلنية على عبد الناصر والجمهورية العربية المتحدة . وتمكنوا من اقناع قاسم بأن عبد الناصر هو عدوه الاول . وانفجرت الحملات الشيوعية داخل محكمة الثورة ، وفي صفوف فرق المقاومة الشعبية وعلى صفحات الصحف وعبر موجات الاذاعة ، بينما بدا رئيس الوزراء المفتقر الى الاستقرار وكأنه قد تخلى عن الحكم .

وبعث عبد الناصر في هذه المرحلة بأربع رسائل متتابعة الى قاسم مقترحا عليه عقد اجتماع عاجل طبقا للظروف التي يقررها قاسم والموعـد الذي يحدده . (٣) واعترف رئيس وزراء العراق بتسلم الرسالة الاولى ، ولكنه لم يزد على أي منها . واعتقد الشيوعيون العرب في ديسمبر عام ١٩٥٨ أن الفرصة اصبحت مواتية لهم للاسراع في تنفيذ مخططهم البعيد المدى ، فشرعوا في حملة اثارة مكشوفة داخل سورية يحرضون الناس ضد الوحدة مع مصر ، ويفهمونهم أن « مصير سورية الطبيعي » يقوم في ارتباطها مع العراق . وفي غضون ذلك ، كان جميع القوميين في العراق ، حتى المعتدلين منهم في سعيهم وراء الوحدة ، أو أولئك الذين يرونها الهدف النهائي كزعماء حزب الاستقلال مثلا ، قد عدوا اما رهن السجون أو تحت الرقابة ، أو مبعدين في الخارج أو مختفين في الداخل .

وهنا فقط يدعى نقاد عبد الناصر من البعثيين ، شرع الرئيس العربي في حملته العلنية ضد الاتجاه الذي يسير فيه العراق ، وأصابته حملته هذه برشاشها حتى نيكيـتا خروشوف . ولكن هذا التسلسل في الاحداث أدى - الى تدعيم اتجاهين رئيسيين في الجمهورية العربية المتحدة ،

(١) مصادر عراقية رسمية في بغداد والقاهرة .

(٢) مقابلة شخصية مع الرئيس عبد الناصر .

(٣) مصادر رسمية في الجمهورية العربية المتحدة ، واكدها مصادر

بغداد .

— المؤلف —

أولهما الخلاف بين الرئيس عبد الناصر ، وبين قادة البعث السوريين ،
وثانيهما اتكاله على قوات السراج ، لمقاومة الحملة الشيوعية ضد
الوحدة في سورية . وعندما حل منتصف عام ١٩٥٩ ، لم يعد الخلاف
قائما بين عبد الناصر والبعث فحسب ، بل ركزت جميع العناصر الناقمة
على الوحدة في سورية ، سخطها على البعث ، على اعتباره عاملا رئيسيا
في قيامها . ونقد صبر المثقفين السوريين المخلصين للوحدة ورئيسها
عبد الناصر من تصرفات أكرم الحوراني الذي كان يشغل منصب نائب
رئيس الجمهورية العربية المتحدة . وأسفرت الانتخابات التي أجريت في
سورية في يوليو عام ١٩٥٩ للجان الاتحاد القومي . عن فشل المرشحين
المعروفين بميولهم البعثية على الرغم من أن الحزب كان قد حل رسميا مع
بقية الأحزاب . واتسعت شقة الخلاف مع هلال عام ١٩٦٠ ، واستقال
الوزراء البعثيون الأربعة من حكومة الجمهورية العربية المتحدة .

وقوى نفوذ السراج في غضون ذلك في سورية . فقد اضطر
الرئيس عبد الناصر ، نظرا لاستمرار الحملة الشيوعية من ناحية ،
وبعث عبد الكريم قاسم لمشروع العراق القديم في وحدة « الهلال
الخصيب » متحديا بذلك وحدة الجمهورية العربية المتحدة تحديا مباشرا
وكذلك نظرا لمعارضة الطبقات الرجعية المستمرة للوحدة في سورية إلى
اللجوء إلى سياسة الحذر ، والقبض على ناصية الأمور بالحزم والشدة
وكان يوفد إلى دمشق بين الفينة والفينة نائب رئيس الجمهورية المشير
عبد الحكيم عامر الذي يأمر بتقديم الشكاوى من السوريين إليه مباشرة
وقد خوله الرئيس الصلاحيات المطلقة لبدال أية سياسات في الأقليم
فورا إذا اقتضى الأمر . فقام مثلا بمحاولة إجراء تعديلات في سياسة
الإصلاح الزراعي ، فور ظهور أية أخطاء فيها ومع ذلك فقد برزت من
جديد وعلى هذا الصعيد قصة الحزبات الإقليمية بين المشير والسراج
وهو آخر سوري كان في وسع الرئيس أن يركن إليه (١) .

وحفزت قرارات عبد الناصر الاشتراكية في أواسط عام ١٩٦١
وتوسيعها على صعيد الجمهورية العربية كلها ، جماعات المعارضة
اليمنية في سورية للوحدة إلى العمل المباشر . ووجد هؤلاء الرجعيون
بعض التأييد لدى فئات الطبقة الوسطى وبعض العناصر المحافظة من
ضباط الجيش . واستغل هؤلاء جمعا وجود فئة أخرى من الضباط
الذين لم يكونوا يعارضون الوحدة ، وإنما كانوا مستائين من بعض الأوضاع
فاعتقدوا أن في إمكانهم الركون إليهم . ورأى المتآمرون أن القيام بعمل
حاسم يتطلب المزيد من الضباط المتعاونين معهم . وكان المشير في سورية

(١) اخطأ المؤلف في رد ماوقع في آخر أيام الوحدة من خلاف بين
نائب رئيس الجمهورية المشير عبد الحكيم عامر والسيد عبد الحميد
السراج ، إلى النزعة الإقليمية . فلقد كان من الواضح أن الخلاف قائم
في الآراء حول خير الوسائل لتعزيز الوحدة وخدمة الجمهورية العربية
المتحدة .
— العرب —

في نهاية سبتمبر عام ١٩٦١ . وقام الرئيس حسنا للخلاف بين المشير والسراج ، بتعيين الاخير كنائب للرئيس في القاهرة ، بعد ان عدل الوزارة وجعلها مؤلفة من اربعة عشر من الاقليم السوري وخمسة وعشرين من الاقليم الجنوبي ، كما اصدر امرا بمنع اعتقال اي انسان دون امر من النيابة العامة . وأشار المقدم النحلاوي ، السكرتير الشخصي للمشير وهو من اركان المؤامرة . على قائده باجراء بعض التبديلات في الجيش الاول واحالة عدد من الضباط الى الاستيداع ، فوقع المشير الامر الذي استغله النحلاوي في اقناع الضباط الذين وردت أسماؤهم في الامر ، بالاشتراك في المؤامرة الانفصالية .

بعض الاحكام :

لم يكن من السهل على وانا اكتب هذا الفصل بعد اسبوعين من الانفصال ، ان اتوصل الى احكام جازمة عن الاسباب العميقة التي أدت اليه ، أو الى تكهنات صادقة عما سيؤدي اليه من نتائج . ولكن يتضح من التعقيدات التي اوردها عند التحدث عن الاسس التي أدت الى الانفصال ، ان من المستحيل ظهور ايضاحات جلية في مثل هذا الوقت القصير . أما الزعم الذي ساد أوساط الغرب بأن الانفصال لم يكن الا هزيمة « لاطماع عبد الناصر الاستعمارية » فليس الا نتيجة تلك الضغوط الغربية التي تسيطر على عقول الغربيين وليست الا تجاهلا للحقائق الاساسية . فلقد كانت هنالك وحدة لم يكن عبد الناصر متوقعا لها بمثل هذه السرعة ، ولم يكن هو الذي فرضها على سورية ، وانما حمل نفسه اعباءها تلبية لطلبات السوريين العاجلة الملحة . وكان عبد الناصر هو اول من اعترض على طبيعتها المتلاحمة الاندماجية ، واول من خاف من نتائج التسرع فيها . وكان عبد الناصر ايضا « هو الذي رفض باصرار توسيع حدودها بشيء من التسرع ، رغم الفرص العظيمة التي أتاحت له ، كما كان هو الذي رفض الابقاء عليها باستخدام القوة وقت الانفصال . ومن الواجب ان لاتلقى جميع هذه الحقائق دهشة من أحد ، اذ انها تتفق مع ماضي عبد الناصر ، وأهدافه المعروفة سابقا وفلسفته السياسية .

ولقد وقعت بعض الاخطاء في تنفيذ سير الوحدة ، اما اذا كنت على غير استعداد لاستنكار الاشراف المركزي على سورية أيام الوحدة ، فان مرد ذلك الى سبب واضح ، وهو أن مانعرفه نحن في الغرب كحرية لايمكن أن يصلح للتطبيق العملي في مجتمعات لا غربية كالمجتمعات الافريقية الآسيوية اليوم . وسأحاول شرح هذه النقطة بمزيد من التفصيل في الفصل المقبل . وهناك سبب وجيه آخر ، يدعوني الى تسخيف تلك الانتقادات التي يوجهها الغربيون للحكم المركزي في سورية ، وهو ان الديمقراطية القائمة على سياسات الاحزاب ، ظهرت كتجربة فاشلة في سورية ومالبت ان تنهار . ولاريب في أن تلك الديمقراطية التي أسماها صلاح البيطار نفسه بالزائفة ، كانت تسبب اخطارا على استقرار البلاد وكيانها ، وتعرضها لمخاطر التغفل الشيوعي والسيطرة النهائية على الجمهورية .

ولا ريب في أنه كان من الخطأ السماح لسيطرة المباحث في الاقليم السوري ، بالوصول الى اقصى حدود التطرف . ولكن قبل القول بأن الواجب كان يحتم السماح للسوريين بممارسة النظام السياسي الذي يرغبون فيه ، أرى من الضروري الإشارة الى تحفظين . فما الذي يعنيه المعلقون الغربيون بعبارة « السوريين » عندما يستخدمونها ضمن هذا المحتوى ؟ هل يعنون الجناح اليميني المحافظ من الطبقة المختارة ؟ أو هل يعنون التركيب القديم من القادة السياسيين وضباط الجيش المتنافسين وأصحاب المصالح المستثمرة ، والذي أوصل سورية الى تلك الأوضاع ، التي شرحها الوفد السوري لعبد الناصر في يناير عام ١٩٥٨ ؟ أو هل هم أولئك الفريق من المتخلفين تعليميا ، والمحرومين من الامتيازات ، والذي يحسبون اسما من جماهير المقترعين في أية انتخابات ؟ ان الردود على هذه الاسئلة هي في ايدي السوريين من جديد ، وأنا غير متفائل من أنها ستجد التعبير الصحيح . وها هي ذى جميع العناصر السورية القديمة ، قد عادت وأنا أدون هذا الفصل الى الظهور من جديد على المسرح السياسي .

وأرى لزاما علينا ثانيا ونحن نحاول الحكم على الاسلوب الذي كان من الواجب اتباعه لسياسة الحكم في سورية في ظل الوحدة ، أن نتذكر الخطر الشيوعي الذي كان مبعث الدعوة العاجلة الى الوحدة ، والحملة التي كان الشيوعيون قد شرعوا في شنها في سورية . وكانت هذه الحملة التي تبدأ بخروشوف وتنتهي بأصغر شبيوعي ، قد بلغت ذروتها في العراق الذي تسوده الفوضى ، والمجاور لسورية ، وامتدت الى نشاط الشيوعيين السوريين في الاقليم الشمالي .

وكان الامل متركزا في أن تقوم قيادة سورية تتمكن من كسب التأييد الشعبي، وتقف وسطا لتحول دون ٣ ساط اليمين المتطرف واليسار المتطرف أيضا . وهناك حقيقة لا يمكن نكرانها أو مناقشتها ، وهي أن سورية كانت تفتقر الى مثل هذه القيادة ، في يناير عام ١٩٥٨ ، وذلك باعتراف الذين كانوا يرشحون أنفسهم لها ، وقد أدى هذا الافتقار الى قيام الوحدة مع مصر . فهل كان في الامكان أن تخلق هذه القيادة في غضون السنوات الثلاث والنصف التي انقضت منذ قيام الوحدة ؟ ويعيدنا الرد على هذا السؤال الى قضية العلاقات بين البعثيين وبين عبد الناصر ورفاقه، اذ أن عملية خلق قادة جدد وشخصيات جديدة لتولي القيادة من قاعدة الاتحاد القومي ، كان لا بد وأن تكون بطيئة كل البطء حتى في أحسن الاحتمالات . وقد اعترف الرئيس عبد الناصر في الخطاب الذي ألقاه في السادس عشر من أكتوبر عام ١٩٦١ بأن نظام الاتحاد القومي لا يفي بالاغراض المتوخاة منه .

وتطور الخلاف مع حزب البعث تطورا سريعا ، ولا سيما بعد أن ظهرت أطماع قادته ، ولاسيما أطماع زعيمهم أكرم الحوراني ، مثل غيره من السوريين ، في الحصول على النفوذ المسيطر ضمن الجمهورية العربية المتحدة ، وسرعان ما لحق به أيضا الخلاف على توسيع الوحدة ومدها الى أقطار أخرى . ولا ريب في أن مما يستدعي المناقشة التساؤل عما

إذا كان من الصواب التخلص منهم وإبعادهم عن الحكم ، أو أن الصواب هو الاحتفاظ بهم على الرغم من أن الرأي العام السوري الذي كان قد تحول ضدّهم تحولاً ظاهراً ، وعلى الرغم من أطماعهم التي تكشفت ، ولكن خلف كل هذه التكهّنات ، كان يقوم عامل أساسي أصلي ، وهو أن الوحدة كانت متسرعة بين شريكين يختلفان كل الاختلاف ، وكان صغيرهما في طلبه للوحدة ، ينشد حماية الشريك الأكبر من مكان الضعف التي يعاني منها (١) .

والآن ترى ما هي التركات التي خلفتها تلك الوحدة السيئة الحظ والطالع . كان العهد الانفصالي الجديد في سورية ، عندما كنت أضع هذا الكتاب ، قد وجد نفسه مضطراً إلى الإشادة بالإصلاحات التي حققتها برامج

(١) لا ريب في أننا نختلف مع المؤلف في الكثير من النقاط التي أوردها في تحليله لأوضاع الوحدة ، ونتائجها ودوافع الانفصال وأسبابه ، وكذلك بالنسبة إلى ما أورده من استنتاجات لجميع هذه التحليلات التي أوردها . وقد آثرنا أن ننقل وجهات نظر المؤلف كما هي ، دون أن يعني ذلك أننا نتبنّاها ، ليطلع القارئ على وجهة نظر كاتب غربي ، لا نشك في سعة فهمه للأمور ، ولكن مناقشة كل نقطة من هذه النقاط ، يتطلب أكثر من مجرد تعليق في هامش . لكن هناك نقاطاً نحس أن تؤكدّها ، لا سيما وقد مرت على الانفصال مدة كافية تبين فيها الكثير من غوامض وخفائيه ، وأهمها أن الانفصال كان جريمة في حق الأمة العربية ، تقع مسؤوليتها على الفريق الذي دبر مؤامراته بليل ، ليفصم عرى الوحدة تنفيذاً لما أرب الاستعمار وأعوانه ، وخدمة مباشرة للصهيونية وأهدافها ، وعلى الفريق الذي انساق مدفوعاً بانتهازيته التاجرة أو المرتدة ، أو بحزازاته الشخصية وراء الفريق الأول ، منفذاً له أغراضه ، وقد ثبت أن الحملات التي شنت على طريقة الحكم في الإقليم السوري أيام الوحدة ، كانت منبثقة إما عن العناصر اليمينية الرجعية التي هالها التقدم الذي حققته الوحدة في الطريق الاشتراكي السليم ، أو عن العناصر الشعبوية التي تجد في ظل الفوضى السياسية ، والحكم الرجعي الأرض الخصبة لانتشارها وطعن الوحدة في ظهرها ، أو عن العناصر الخائنة التي تدين بالولاء للاستعمار وأعوانه في المنطقة ، الذي هاله قيام الوحدة لتهديدها لمصالحه في الصميم ولما يمكن أن ينبثق عنها - ولا بد أن ينبثق - من خطر على إسرائيل التي خلقها الاستعمار ركيزة له في الوطن العربي .

وقد تبين بعد انقضاء أكثر من عام على الانفصال أن المبررات التي قيلت في السابق ، لوقوعه ، لم تكن إلا مجرد ادعاءات « زائفة » قصد منها تخدير جماهير الشعب السوري المؤمنة بالوحدة بعد أن تبين لهذه الجماهير هول ما وقع . وقد نجح هذا التخدير في تحقيق غايته بعض الوقت ، ولكن إرادة الشعب العربي في الوحدة ستنتصر في النهاية ، ولا سيما بعد أن تبين لجماهيره الحقيقة ، وبعد صحو الضمير ، هند بعض الفئات التي انسأقت وراء الانفصال في البداية .

- العرب -

التطور في سورية منذ تمت الوحدة في عام ١٩٥٨ ، وكان قد عكس أيضا بعض الوعي لدى الفئات الرجعية القديمة الناعمة بالامتيازات ، في أن ليس في وسعها أن تعود بعجلة التقدم الى الوراء ، وأن تعود الى سابق عهدها في التنعم بامتيازاتها كما كانت قبل الوحدة . وقد بدأ الكزبري أول رئيس وزراء بعد الانفصال ، عهده بإعلان العودة الى نظام « حرية المشاريع والعمل الاقتصادي » . ولكن هذه الوزارة نفسها وجدت من الضروري لها أن تعلن بعد أسبوعين فقط من قيامها ، عزمها على التمسك بمعظم نواحي الإصلاح الزراعي التي حققها عهد الوحدة ، ومعظم القوانين التي قضت باشتراك العمال في أرباح المؤسسات التي يعملون فيها ، وبمعظم القرارات التأميمية التي اتخذها ، والقيود على الأرباح التي أقرها . ولكن مهما كان نصيب هذه العهود للشعب السوري من الصديق أو الخداع ، ومهما حدث لها ، فإن هذه العهود نفسها ، حتى ولو عاد النظام السياسي في البلاد الى ما كان عليه قبل الوحدة ، ستؤلف تركة من أهم التركات التي خلفتها الوحدة .

لكن أهم تركة خلفتها الوحدة في رأيي هي ذلك التشبيه الذي رسمه الرئيس عبد الناصر ، والذي صور لي فيه ذلك الشاب الذي يحلم بالزواج والأمل قائم في سورية وفي جميع أرجاء الوطن العربي في أن تؤدي تجربته الوحدة بين سورية ومصر ، الى درس ما وقع فيها من أخطاء ، وأن تكون حافزا أخيرا للقوميين العرب لوضع الوقائع العملية في صف واحد مع أحلامهم النبيلة . (١) ترى ما هذه الوقائع ؟ وما المصاعب الحقيقية التي يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار عند نشدان وحدة عربية تجمع بين الهدوء والثورية ؟

العقبات أمام الوحدة :

هناك أولا عدد من المشاكل الجغرافية والسكانية الأساسية فالعالم المتعرب (تسمية غريبة من المؤلف للوطن العربي) لا يؤلف وحدة جغرافية متلاصقة ، وإنما هي مجموعة من الجزر الانسانية في محيط من الرمال والسهوب يمتد فوق مساحة تعدو الخمسة ملايين من الأميال المربعة ، أو ما يعادل جزءا من أحد عشر من مساحة اليابسة في

(١) ليست الوحدة العربية حلما يتطلع العرب الى تحقيقه ، سواء اتصف هذا الحلم بالنبل أو لم يتصف ، بل هي حتمية وجود، يفرضه الواقع المادي والواقع التاريخي . ولو ارتفعت من الوطن العربي عوامل التجزئة التي فرضها الاستعمار عليه على اختلاف صورها ، وهي كثيرة لحظة واحدة ، لرأينا الشعب العربي يتحد في ومضة عين في كيان موحد ، ليس فيه أي أثر لهذه المصاعب التي يتصورها المؤلف والتي لا تعدو أن تكون من تلك العوامل التي خلقها الاستعمار بوسائله السياسية والعسكرية والاقتصادية والفكرية لفرض التجزئة وليس أدل على هذه الحتمية من وحدة الشعب العربي في كل مكان في الأهداف التي تؤلف الجمهورية العربية المتحدة طليعتها القيادية والتي يمثل الرئيس عبد الناصر انعكاسها القيادي .

— المغرب —

الكرة الأرضية . وقد أزال طرق الاتصال الحديثة ، العزلة عن هذه الجزر من الانسـانية المستعربة ، بالنسبة الى ما كانت عليه فى أيام الامبراطورية العربية القديمة . ولكن الحقيقة الواقعة تظل قائمة وهى ان الأوضاع الجغرافية للوطن العربى لا تؤدى الى وحدة سيامية متماسكة (١).

(١) و (٢) - هناك نقاط عديدة فى هذا البحث ، نختلف فيها مع المؤلف . أولا : نحن لا نقر هذه التسمية التى يطلقها المؤلف على الوطن العربى ، وهى « العالم المتعرب » ، وما الهدف من هذه التسمية الا الادعاء بأن الوطن العربى من المحيط الى الخليج لم يكن عربيا وانما استعرب بعد الفتح العربى . ولست الآن فى معرض التدليل على الجذور العربية التى كانت فى جميع أرجاء هذا الوطن قبل عهد الفتوحات العربية ، ولكننى أود ان أقول ان الأخذ بهذا المنطق الظاهرى للمؤلف ، يعنى حرمان كل بلد فى العالم من قوميته الراهنة . فانكلترا لم تكن انكليزية قبل القرن السابع الميلادى وانما كانت « كلتيه » ، وكذلك الحال بالنسبة الى فرنسا التى جاءت قبائل الفرنجة فى القرن الرابع للميلاد وألمانيا التى جاءت قبائل التيونون فى القرن الرابع قبل الميلاد . وأخيرا القارة الأمريكية كلها ، التى جاءها أهلها بعد اكتشاف أمريكا فى عام ١٤٩٢ . فاذا أخذنا بهذا المنطق لم تبق لاي بلد من بلاد العالم طيبة القومية الراهنة .

ثانيا - نحن لا ندري هذا المنطق فى اعتبار الصحارى والسهوب أجزاء منفصلة عن الوطن أو حدودا تفصل بين أجزاء الوطن الواحد ، ولو أخذنا بهذا المنطق لتحتم تقسيم الولايات المتحدة الى وطنين تفصل بينهما صحارى تكساس وكولورادو وسهوب الوسط ، وتقسيم الاتحاد السوفياتى الى عدة أوطان تفصلها الصحارى والسهوب وكذلك الحال بالنسبة الى الصين والهند وأستراليا وكندا والبرازيل ومئات البلاد غيرها .

ثالثا - لا يمكن لاتساع مساحة الوطن الواحد أن يكون عاملا أصليا فى التجزئة ولاسيما فى هذا العصر الذى قربت المواصلات الحديثة بين الأبعاد وجعلت العالم « عالما واحدا » . واذا كان الوطن العربى الحالى بما كان يتبعه من بلاد ضمت أسبانيا فى الغرب ، وإيران وشرقها من الهند والصين فى الشرق ، قد ألف وحدة واحدة ، لها دولة واحدة ونظام واحد ، قبل ثلاثة عشر قرنا عاشت مئات السنين فى عهد الراشدين والامويين وشرطرا من الخلافة العباسية ، فكيف يمكن لهذا العامل الجغرافى الذى يعرضه المؤلف أن يعتبر عائقا فى طريق الوحدة العربية الراهنة اليوم !!

رابعا - لم يعتبر العرب فى أى وقت من تاريخهم وحدة الدين عاملا أساسيا فى مفاهيمهم القومية ، فللرابطة الاسلامية قوتها ولا شك ، ولكنها لا تؤثر على المفاهيم السياسية ، ولعل خير تدليل على ذلك ، ان العرب كانوا يعطفون على نضال القبارصة اليونانيين القومى فى سبيل التحرر مع ما فى ذلك من تعارض مع مصالح الاتراك المسلمين . وهناك أمثلة كثيرة من تاريخ العرب القديم والحديث على هذه الحقيقة لا مجال لسردها الآن وان كنت أود التأكيد على ان مقومات القومية العربية هى مقومات كل قومية أصيلة ، من وحدة الارض والتاريخ واللغة والثقافة والهدف والمصالح المادية والنضال فى سبيل التحرر .

- العرب -

وهناك تناقض عجيب في الاتر الذي تخلقه هذه الاوضاع الجغرافية فلقد أدى الافتقار الى حدود طبيعية واضحة ، بدوره ، الى محاولات لايضاحها من الشعوب التي تعيش على جانبي الوطن العربي ، مما دفع العرب الى أن يكون بحثهم عن شخصيتهم القومية مرنا ومائعا حقا . فاسباب اى جزء من الارض العربية انسيابا يؤدى فى النهاية الى الاختفاء فى الصحراء ، او فى سهب من السهوب التي يعيش فيها اناس بشكل متناثر ، قد ادى الى أن تكون القضايا الكبرى المتعلقة بالعقيدة القومية وبالتركيب القومى أكثر عرضة للانفجاح فى هذا الوطن منه فى غيره من الاوطان . لكن هذا الانفتاح ، ساعد من الناحية الأخرى على ظهور حلم قوى يتغنى بالقومية فالحلم بوجود شعب واحد تقوم مقوماته فى التقاليد المشتركة ، واللغة الواحدة ، والدين السائد المشترك الى حد ما قد أضحت أكثر تأثيرا من النواحي العاطفية (٢) ، لأن الخصائص المميزة للوطن المستعرب الواحد قد ضعفت نتيجة العزلة . ويؤلف الشعور الاسلامى بالأخوة الدينية جزءا واحدا فقط من القومية . ولا يتطلب هذا الشعور الكثير من التشابك الانسانى على نطاق واسع ، كما أن أوجه التباين المحلية فى البيئات والطباع ، لا تعتبر المقياس لهذا الشعور ، إذ ان هذه الفروق ، لا تنضج للعرب ، لأنهم لا يعيشون فى حالة من الامتزاج الكامل .

لكن هذا الانفتاح ، وتلك المرونة ، وذلك الشعور العاطفى فى الاتجاه القومى يمكن أن تكون « موجودات » ضخمة تعمل على تحقيق الوحدة الحقيقية . فالعوامل التي تدعو العرب الى الوحدة على الرغم من تنوعها ، أكثر منها عند أى شعب آخر فى العالم . ووحدة اللغة التي تضمهم تعطيهم ميزة فريدة على غيرهم من الشعوب على صعيد هذا البحث عن الوحدة ولهذا فإن ما يقوله الغربيون دائما من « أن العرب يدعون الاخوة بينما يمسك البعض منهم بخناق البعض الآخر » ليس الا قولاً زائفاً . ولكن الغرب لا يكلف نفسه عناء السؤال عن سبب هذا الواقع . ان كان واقعا ؟ ولا ريب فى أن ليس فى مصلحة الغرب نفسه أن يردد هذا القول ، إذ أن مسئوليتنا عن فرقة العرب الظاهرية مسئولية كبرى حقا .

فلقد استغل الغرب أوضاع العرب الجغرافية وماكانوا عليه من ضعف سياسى نتج عن قرون طويلة من الحكم التركى الاجنبى ، فراح يعمل فعلا على تجزئة الجماعات العربية التي لم تكن فى حاجة الى هذه التجزئة ، ويرغمها على أن تستنفد كل مآلديها من طاقات سياسية لرفع كابوس السيطرة الغربية عنها ويميل بعض الغربيين الآن الى صرف النظر عن هذه التذكيرات المستمرة بالحقائق المسرة التي هى من هذا النوع . ويحملون على من يورد ذكرها قائلين انها باتت من شئون الماضى والتاريخ واذا صح أن هذه المرحلة من العلاقات العربية - الغربية الحديثة فدانتهم الآن ، الا أنها لم تنته الا منذ سنوات قليلة ، ولا يمكن أن تتم الوحدة العربية من النوع الذي يريده العرب فى غضون سنوات قليلة (١) .

(١) لكن هذه المرحلة لم تنته حقا . فما زالت للاستعمار قواعده فى الوطن العربى ، وما زال له نفوذه فى بعض أرجائه وما زال له أعوانه ، أجراؤه الذين ينفذون له غاياته ، وما زال هذا الاستعمار مستخدما جميع سبل

وحتى لو افترضنا أن أسوأ أوضاع الصراع بين العرب والغرب ، قد انقضت الآن ، فإن ذروة هذا الصراع في حقبة الخمسين ، ولدت عددا من الحوافز التي تخلق صعوبات في طريق الوحدة الهينة . وكان بين هذه الحوافز انسعى من الغرب دائما لدوقوف موقف الخصم من قيادة عبد الناصر النورية الدينامية . وأدى هذا الى تولد الشعور لدى عبد الناصر وغيره من القوميين العرب في كل مكان الدين يتطلعون الى دور مصر القيادي والمؤثر ، بأن الواجب يدعوهم الى حشد العرب في كل مكان في صف واحد ، والى بث ذلك الاحساس بالدرامة والافه والتصميم الحازم لمقاومة الضغط الاجنبي ، لا سيما وان هذا الحشد هو السلاح الوحيد المتوافر في أيديهم . ولكن مع هذا الحشد ، ومع جميع الشعارات التي يرفعها القوميون في وجه الاعداء الاجانب ، يقف أيضا حافز قوي يدعو الى تحقيق الوحدة العربية . وظل عرب الاردن ، الذين أفزعهم هدير النفات البريطانية وهي نظير في موجات كان القصد منها أن تبث الرعب في نفوسهم في يوليو عام ١٩٥٨ (بعد ثورة العراق) ، يتعلقون بحبال ثلاثة آمال ضخمة . فهم لم يركزوا آمالهم فحسب على الخلاص مما يعانونه من كبت واضطهاد في داخل الاردن يفرضها عليهم ملك « مرتد » ، ولا في الخلاص مما تمثله تلك الطائرات النفثة من ضغط اجنبي يهدف الى دعم ذلك الملك ، وانما ركزوا أملهم العظيم الثالث ، الذي تغذيه في كل يوم اذاعات القاهرة ودمشق وبغداد في مطلع عهد الثورة عن طريق دعاياتها القومية ، في أن يحققوا اخوتهم مع العرب الآخرين ضمن اطار وحدة ايجابية محددة .

وهكذا نشأ هذا « الطوفان من الاماني » الذي اضطر عبد الناصر نفسه الى التحذير من خطره عند ما دارت محادثات الوحدة مع سورية وكان الشعار البعني باقتناص « اللحظات التاريخية الحاسمة » واقامة الوحدات فورا ثم البحث عن التفاصيل العملية ، هو التعبير العفائي في معناه الصحيح عن الاحساس القومي العربي الجماهيري بالضرورة الماسة القصوى في تحقيق الوحدة العاجلة . ولكننا رأينا من قبل ان القيادة المسئولة عن تعبئة هذا الرأي العام على صعيد جماهيري ، للاساس بخطورة الحاجة الى الوحدة لمواجهة الضغط الغربي ، لم تكن ميالة الى المغامرة في افامة وحدة متسعة لا تلبث أن تتطاير شذر مذر . وهنا يتساءل الغربي « أو لم يكن في استطاعة عبد الناصر أن يوضح ايضا أكثر جلاء للعرب ، الفرق بين « التضامن » و « الوحدة » ؟

هناك أسباب تدعونا الى حد ما الى الاعتقاد بأن عبد الناصر كان قادرا على أن يفعل ذلك ، ولكنه لم يفعله ولم يكبح من جماح الدعايات

= والوسائط ، يقف سدا منيعا في طريق الوحدة، ويحاول تحطيم ما يتحقق منها كلما تمكن العرب من فرض مشيئتهم ، ولعل ما قام به الاستعمار من دور غير مباشر في انفصال سورية ، وما يقوم به الآن عن طريق أعوانه في محاولة العدوان على اليمن ، خير مثل على ما تقول .

— العرب —

اليومية التي كان ينشرها ويذيعها معلقوه الاذاعيون . ولكن القضية تكن في رأيي على هذا القدر من البساطة . فالدائرة المفرغة التي تشبه « هل البيضة من الدجاجة أو الدجاجة من البيضة » والمتعلقة بالاحاجي التي تنطوي عليها الحركة العربية هي أكثر تعقيدا من أن يستطيع أي انسان ، حتى ولو كان عبد الناصر نفسه ، حلها . فليس في وسعه . مع ماله من شعبية هائلة ، تحتل قلوب الملايين أن يكتفى بمجرد القول للعرب ، أن ليس في الامكان اقامة وحدات دستورية لهم الا بعد سنوات طويلة من الدراسات العميقة المخصصة . ولو قال لهم هذا القول ، لمسا فهموه أبدا . فهناك أربعة اشتراطات جوهرية يجب توافرها في القראה السياسية المرتبطة بالحركة القومية في المنطقة ، وما لم تتوافر هذه الاشتراطات وتفهم فهما كاملا فان ما في دائرة الاحاجي العربية المفرغة من تعقيدات لا يمكن أن يحل .

القيادة المركبة أو الجماعية :

أول هذه الاشتراطات التي يجب أن أسردها بإيجاز ، هو القيادة المركبة أو الجماعية التي يجب أن تتوافر فيها نفس الخصائص الاساسية ومثل هذه القيادات وحدها ، اذا انبثقت من كل جزء من أجزاء الوطن العربي هي التي تستطيع وقف المد القومي الثائر في فيضانه (١) . ولو القى المرء نظرة الى « الخريطة السياسية للشرق الأوسط » لرأى أنها لا تتألف فقط من مجرد عدد من الكيانات المصطنعة على الغالب ، بل تضم أيضا طرزا من أنظمة الحكم المجزأة ، داخل كل كيان من هذه الكيانات . واذا كانت الوحدة العربية ، ستعنى أكثر من مجرد ترابط رسمي ظاهري ضمن نطاق الجامعة العربية ، وهي تعنى بالفعل للفكر القومي العربي الحديث أكثر من هذا الترابط ، فان تحقيقها ، لا يمكن أن يتم والحالة هذه الا عندما تختفي هذه الفروق كلها ، أو معظمها على الأقل . ولا ريب في أن ثمة حقيقة لا تقبل نقاشا أو جدالا لما فيها من وضوح ، وهي أن هذه السنوات الشاقة المرهقة الأخيرة ، التي بلغ فيها المد القومي أوجه ، لم تدفع الى الصف الأمامي في أي بلد من بلاد الشرق الأوسط ، قائدا يستطيع أن يقف موقف المضاهاة أو حتى التشبيه بعبد الناصر .

وليس من الحتمي أن تكون هذه القيادات الجماعية في الاجزاء الاخرى من الوطن العربي منبثقة عن الجيش أو ممثلة في شخص قائد

(١) ومن قال للمؤلف ان أية قيادات عربية تود «وقف المد القومي الثائر في فيضانه » فالمد القومي سيظل هادرا في كل مكان من أرجاء الوطن العربي ، أما ما كان يفتقر اليه في مراحل الأولى من تخطيط صحيح على أسس روحية ومادية سليمة فهو في حيز الوضع الآن ، وقد خطط الميثاق الوطني الذي قدمه سيادة الرئيس عبد الناصر الى الشعب خطوطه العريضة التي سيكون من مهام الاتحاد الاشتراكي العربي وضع تفاصيلها .

— العرب —

دومي ذي شخصية طاغية ، بل يكفي أن تنبثق عن حكومة ثورية مهمّة كان تركيبها ، شريطة أن تكون متمتعة بتأييد شعبيها ، ميالة ميلا أصيلا الى الإصلاح . حيادية النزعة في سياساتها الخارجية ، ومستقرة في بلدتها استقرارا معقولا . ولا ريب في أن الغرب يخطئ أشد الخطأ ، اذا أنحى باللامه على عبد الناصر ، لعدم ظهور مثل هذه القيادات في الاجزاء الأخرى من الوطن العربي . فاذا كانت الفرصة قد أتاحت للأردن بعد انتخابات اكتوبر عام ١٩٥٦ ، في اخراج مثل هذه القيادة ، فان هذه الفرصة ما لبثت أن ضاعت وحرمت منها عرب الاردن بفضل الانقلاب الرجعي الذي قام به الملك حسين واشرف على تنفيذه الانكليز والامريكيون بعد نحو من ستة أشهر . أما في سورية فكان ضعف هذا الطراز من القيادة وان كانت قد انعكست اسميا في الوزارة التي تألفت في عام ١٩٥٧ ، قد بلغ حدا خطيرا ، حمل الذين كانوا يدعون لها ، الى البحث عن وحدة وثيقة العرى مع مصر لحماية ماتمكنوا من تحقيقه . أما في العراق ، فقد وصلت التناقضات الداخلية بعد الرابع عشر من يوليو عام ١٩٥٨ الى ذروتها .

فلقد كانت القيادة الثورية التي نجمت في العراق نتيجة سنوات طويلة من القمع الذي يسنده الغرب للقومية الفتية من الطراز الضعيف ، غير المستقر . وقد تضاعف هذا الضعف وذلك الافتقار الى الاستقرار ، نتيجة ظهور النشاط الشيوعي الضخم ، والخوف من الذوبان في تلك الوحدة العظيمة المتمثلة في الجمهورية العربية المتحدة ، والناجمة عن ضعف القيادة السورية (١)

واذا ما استثنينا هذه الفرص القصيرة ، غير الكافية لقيام قيادات جماعية عربية مركبة أو متشابهة في تفكيرها ، فان الشرق الاوسط مازال في حاجة ماسة الى انتاج قيادات من طراز يختلف عن طراز السلالات التقليدية . وشبه الاقطاعية (٢) . وكانت نتيجة هذا الوضع ، تركيز الاهتمام الاخرق من الغرب على شخص واحد ، تحمله كل التبعات ومن العرب الذين يحملونه كل ما في القومية من مسئوليات ومتطلبات ، مع أن هذا القائد يمثل عهدا يقوم في بلاد كان تفوقها على غيرها من اجزاء الوطن العربي في نواح عدة مصدر ضعف كما هو مصدر قوة في الحركة الحدودية .

(١) أعتقد أن المؤلف يخطئ كثيرا عندما يربط بين الوحدة وبين ضعف القيادات العربية الاقليمية أو قوتها ، فالدعوة الى الوحدة ليست ناجمة عن الضعف أبدا والتصميم على الانفصال ليس ناتجا عن قوة القيادة مطلقا وانما ينجم عن تفوق النزعات الانتهازية عند هذه القيادات على النزعات القومية الصافية والصادقة مصحوبة بالكثير من المشاعر الانوية الانانية .

- العرب -

(٢) لقد استثنيت عن عهد عهد الرئيس عبود في السودان والقيادة التي ظهرت في لبنان بعد ثورتها من هذا التقييم للأوضاع ، وذلك بسبب وجود مشاكل خاصة في هذين البلدين ، تجعلهما خارج التيار الرئيسي الاولى للجدل في موضوع القومية العربية .

المؤلف

الثورة الاجتماعية :

وتعرض القيادة العربية الجماعية أو المتشابهة في تفكيرها ، بدورها اشتراطا ثانيا وهو مد الثورة الاجتماعية الاساسية في الوطن العربي لتشمل أجزاءه الأخرى . وقد غالى عبد الناصر ، وأنصاره الذين لا يعدون ولا يحصون في جميع أرجاء الوطن العربي في تقويم الدور الذي لعبته العناصر « الرجعية » في الانفصال السوري . فمن الواضح أن التوترات التي وقعت أبان الوحدة قد انطوت على أكثر من مجرد المعارضة الشخصية الأنانية التي واجهت بها الجماعات الثرية في سورية اصلاحات عبد الناصر الاشتراكية . ولكنني لا أنكر أن الرجعية كانت موجودة ، وأنها كانت في قلب الحركة الانفصالية ، وكان دورها الضخم السابق في « مناورات الديمقراطية الزائفة الجهنمية » في عهد ما قبل الوحدة ، قد ترسب في قرارة ما واجه الوحدة المتسعة من معارضة داخل سورية ، وليس هذا هو كل ما فعلته الرجعية ، بل كان هناك ما هو أكثر من ذلك . ولا ريب في أن القوميين العرب الشبان على حق تماما عندما يرون في « الرجعية » عقبة أساسية من العقبات التي تقف في طريق الوحدة ولا ريب أيضا في أنهم رأوا ولم ينسوا المثل البارز لما تلعبه الرجعية في معارضة الوحدة في المؤامرة السعودية الملكية التي جرت في مطلع عهد الوحدة لاغتيال الرئيس عبد الناصر ، والحيلولة دون تحقيقها . (١)

وإذا كان الغرب لم يفهم -فهما كاملا أهمية هذا العامل فان القوميين العرب أيضا في حاجة الى دراسة موضوع «الرجعية» من جديد . فليس ثمة من مشكلة كبيرة بصدد السعوديين وما يشبههم من عهود حاكمة . وقد يندفع الأمير السعودي مع التيار القومي العام ، متأثرا بالمفاهيم القبليه التي ترجع الى عدة قرون والتي تعنى اعتزاز البدوى بالقبيلة التي ينتمى اليها . ولكن هذا المفهوم غير المفهوم الذي يحمله العالم العربي الجديد الفتى عن القومية ، أو ما يفهمه الافارق الجدد عن حركاتهم انقومية أو عن الجامعة الافريقية (٢) . ولا تستطيع الوحدة التي ينشدها قوميو العرب اليوم ان تستسيغ الاستغلال الملكي السعودي ، ولا التزمت العقيدى الوهابى . وليس ثمة من شك فيمن سينتصر في النهاية . ومن المؤكد أيضا ، أنه عندما توجه التعليقات الغربية نقدها للقوميين العرب

(١) سبق لى أن ذكرت في هذا الكتاب أن حقيقة هذه المؤامرة لا يتطرق اليها أى شك أبدا ، وإن كان الغرب قد تجاهلها ، وتجاهل مغايرها - المؤلف -

(٢) لقد تغير هذا الوضع بالنسبة الى الأحرار من الأمراء السعوديين فلقد تخلى طلال واخوته عن لقب « الامارة » ، وجاء تخليهم دليلا على أن مفاهيمهم باتت عين مفاهيم الشباب العربى القومى ، فى النواحي القومية . - العرب -

لما يبدو أنه من عدم احترام « لكيانات » كالكيان السعودي ، فإن هذا النقد يخلق فرقة جديدة بين عالمي الغرب والعرب فالغرب يمتعض مما نسميه « بالتدخل » ولكن القوميين العرب يحسون بالسخط على ما يبذره المالكون السعوديون من دخل هو دخل الشعب العربي في السعودية كله . ويتحرفون لهفة على وضع نهاية لهذا السخط في تبذير أموال الشعب العربي في السعودية .

وستظل هناك حتى تقع تبدلات أساسية في العهود العربية التي هي من هذا النوع ، مساحات كبيرة بيضاء في الخريطة المثالية التي يرسمها الشباب العربي في فكره عن الوحدة . ولكن المشكلة الأكثر تعقيدا وصعوبة بالنسبة الى القوميين العرب هي تحديد « الرجعية » في الأجزاء الأكثر تقدما من الوطن العربي . أو بكلمة أخصر تحديد الاختلافات العرضية في مفاهيم الاشتراكية العربية ، وقد ثبت أيضا بوجه التحديد ان المصالح المستنمرة في وجود عدم الكفاؤ والفروق الطبيعية على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي ، انما نجمت عن الكيانات العربية المتفرقة التي ظهرت في القرن الحالي . ولعل عبد الناصر كان عظيم التوفيق عندما حدد أكر هذه المصالح ظهورا بعبارة واضحة جلية ذكرها في خطاب أخير له قال فيه انه « لم يعد في مجتمعنا منسج لأصحاب الملايين » (١) لكن الصعوبة تنشأ على صعدان أخفض من صعيد أصحاب الملايين ، أي في الطبقة التي يسميها الغرب « بالوسطى » والتي تضم التجار وأرباب الصناعة والمهن . وليس ثمة من شك في أن لأفراد هذه الفئات مصالح يستثمرونها في الأوضاع الراهنة وفي بقاء التجزئة العربية . ولقد ارتفعت مستويات الحياة التي يعيشها افراد هذه الفئات وارتفع دخلهم عبر حقبة من التجزئة التي فرضها الغرب . ولم يكن جميع هؤلاء من الاوغاد الجشعين . أو من المحتالين أو المتميزين بأنانيتهم كما لم يكونوا جميعا عاجزين عن الاحساس بما يحس به القوميون العرب من أمانى الوحدة ولا سيما الفتيان والفتيات منهم . ويؤلف الانطباع الذي تخلفه الاشتراكية والتقليل من الكيانات في كثير من الحالات صراعا بشريا طبيعيا يعمل في صدورهم بين الوطنية والولاء للأسرة .

ولا زيب في أن هذا الصراع الطبقي المتزايد في الوطن العربي ليس الا النسخة المتأخرة في صورة الصراعات الطبقيّة في الغرب . ولكن تجربة الوحدة بين مصر وسورية أوحث بعبرة ضمن محتوى الوحدة العربية وهذه العبرة هي أن أي اتحاد تعاوني « فيدرائي » زخو الوشائج

(١) وردت هذه العبارة في الخطاب الذي ألقاه الرئيس عبد الناصر في السادس عشر من أكتوبر عام ١٩٦١ والذي حدد فيه أهداف حكومته الاشتراكية وأخطاء الماضي .

— المؤلف —

أما التوترات والازمات التي تفرضها الثورة الاجتماعية على البلاد التي تشترك في وحدة أوثق عرى ، حتى ولو اختلفت هذه البلاد في مراحل تطورها الاجتماعي ، فهي اعظم من ان تتصور . وليس ثمة من شك في أن مثل هذه الازمات والتوترات ، كانت ستظهر حتما لو وقع اندماج بين سورية والعراق ، على غرار الوحدة التي تمثلت في قيام الجمهورية العربية المتحدة .

الانظمة السياسية :

ولو افترضنا أن الثورة الاجتماعية قد خلقت جيلا جديدا من القيادات العصرية والمستقرة ، والمتجانسة في تفكيرها ، وان هذه القيادات قد تمكنت من رسم مخططات الوحدة والتفاوض بصددتها ، فان ثمة اشتراطا أساسيا سيظل قائما وجوهريا ، يتطلب التحقيق . فمن الطبيعي أن يظل الشعب الذي لم يتأكد من أى السبل هي الامثل لحكم نفسه ، مترددا في الاندماج مع ما يحمله من شكوك في أى شعب آخر . فهناك عدة قوى طاردة من المركز (طرد بمركزية) قوية في الوطن العربي ، من النوع الواقعي ، الذي يجعل من الاستقلال الداخلي الذاتي ضرورة أساسية في أية عملية وحدوية ، كما أن النظام المركزي في الحكم ، هو الذي يهدم كل استقلال داخلي ذاتي . وأرى أن هذا العامل أيضا يتطلب تفهما من الغرب من ناحية ومن العرب من الناحية الأخرى . فمن الثابت أن من المشاكل الخطيرة التي واجهتها الوحدة السورية - المصرية ، مشكلة الافتقار الى نظام سياسي يسمح بشيء من الحكم الذاتي ، ولكن جدير بنا أن نضع الى جانب هذه الحجة حجة منطقية أخرى ، وهي أنه لو « سمح » لسورية بالاحتفاظ « بالديموقراطية » التي كانت قائمة فيها ، فان هذا السماح يعنى تجاهل الاوضاع التي كانت قائمة في الجمهورية السورية عندما تمت الوحدة . ولا ريب في أن من الجراءة بمكان كبير ، أن يقدم أى معلق غربي على القول بأن « الديمقراطية » على النحو الذي يفهمه الغرب ، قد زالت من سورية بعد تحقيق الوحدة .

وكانت المشكلة الآن تتلخص في الطريقة التي يمكن بواسطتها إعادة بناء المنظمات الديموقراطية المهدمة أو تحديدها على الأقل . وستقع مسئولية البحث في هذا الموضوع على عاتق الفصل المقبل . ولكن يبدو لي من زاوية الوحدة العربية التي أفرق دائما بينها وبين التضامن العربي أن على القوميين العرب أن يواجهوا هذا التحدي بشكل أكثر واقعية . فاذا ظلت الانظمة السياسية الديموقراطية الجديدة صعبة على التطور أو بطيئة فيه ، فليس هناك مرة ثانية من وحدة أكثر أمنا وسلاما للعرب من الاتحادات التعاونية (الفدرالية) . وقد يكون من الخداع القول بأن الفكرة « الناصرية » تؤلف عقبة خاصة في هذا الصدد ، إذ يمكن للمعلق أن يفهم بوضوح ان أية وحدة بين أية دولتين عربيتين مهما كان الحكم القائم فيهما في الوقت الحاضر ، قد تضمن وجود أنظمة ديموقراطية فيهما متحررة من الناحية السياسية بحيث تضمن لهما حتى بعد الاندماج ، نوعا من الاستقلال الذاتي .

وليس هذا التحدي للعرب لدراسة ما اذا كانت الاندماجات الكلية

لا تحد من المتاعب السياسية الفردية الراهنة للدول العربية الا طريقة أخرى من صرق عرص الحاجة الماسة اليها . ولم تتوفر في الشئون العربية فترة طيبة القرن الحالى ، كهذه الفترة ، التى يتمكن فيها علماءهم السياسيون وفانونيوهم الضليعون ، واقتصاديوهم وسياستهم ، من بحث المسائل العملية للوحدة العربية بحثا دقيقا موزونا . وكان التفكير المنظم وتبادل الآراء فى الموضوع ، يتعرضان دائما لازمات داخلية وحسارية الى كبت واضطهاد من الخارج وشكوك متبادلة ومراقبة من الداخل . وكان طوفان اللهفة الساعرة للوحدة الذى يواجه مثل هذا العدد الضخم من الاعداء بالغرب والصهيونيه واليهود القديمة والشيوعية مؤخرا ، أشد عنفا من أن يتغلب عليه الحذر أو الروية . وهل كان فى وسع الرئيس عبد الناصر أن يتبنى عملية درس من هذا النوع ؟ لو أنه فعل ذلك لسارع الغرب وأصدقائه الى اتهامه من كل ناحية بالتآمر « لاقامة امبراطورية له » . وهل كان فى وسع العراقيين أن يتولوا مثل هذه الدراسات ؟ ان عهد نوري السعيد الذى كان الانكليز يؤيدونه ، ما كان يسمح بأى نقاش فى موضوع الوحدة الا على شروط نوري وعبد الاله . ويصدق هذا القول على بقية أنحاء الوطن العربى .

وانى لأتمنى لو أن الكتاب الأمريكى « أوراق فيدرالية » يوزع باللغة العربية فى المنطقة كلها ، ليطلع العرب ، لا عن طريق الوصاية بل عن طريق انود ، على ما فكر به شعب ثورى آخر ، وما ناقشه من مشايل ، وهو يسعى الى وحدة ولاياته . وليس للامريكان الذين تعود الى ذكراهم أحداث الحرب الاهلية التى سببت أشد الآلام لاتحادهم قبل أن يمضى على قيامه سبعون عاما أو للاوروبيين الذين يذكرون ولا شك أحداث التاريخ الاوروبى الحديث أن يظهرُوا استنكارهم لما يحس به العرب من عذاب والم . ولكن العرب فى حاجة حقيقية ماسة الى « أوراق اتحادية » عربية ، فى كمها وعربية فى تنوعها .

التحرر من الضغط الاجنبى :

ونصل الآن الى الاشتراط الجوهري الرابع للسير الهين فى طريق الوحدة العربية ، وهو التحرر من كل ضغط أجنبى . فلقد ادعى الغرب فى افريقيه اليوم ، كما ادعى فى الوطن العربى من قبل ، أنه قد تخلى فى سرعة البرق الحافظ عن ضغطه السابق ، وأن عهد الضغط قد انتهى . ولهذا السبب نرى الغربيين يصفون التهم التى يوجهها القوميون ضد « المؤامرات الاستعمارية » وضد « الرجعية التى يؤيدها الاستعمار » مجرد دعاية . وقد تكون هذه التهم أحيانا كذلك ، ولكن اذا فهم الغرب مرة واحدة ، أن الوعي السياسى اليومى عند العرب فى كل مكان الآن لا ينحصر فى البلد الذى يسكنون فيه بل يشمل منطقتهم كلها ، فان ما يبادر به العرب من سخرية عاجلة سرعان ما ينقلب الى شعور بالحجل . ولا ريب فى أن كل من يقوم بتحقيق دقيق فى المنطقة العربية اليوم ، أى فى عام ١٩٦١ أو عام ١٩٦٢ ، يجد حتما أن الضغط الغربى لم ينته من المنطقة مطلقا .

ففى المغرب العربى ما زالت هناك قواعد عسكرية أمريكية يكره الشعب وجودها فى مراكش ، كما توجد فيها بعض رواسب الاستعمار الفرنسى الجديد . وتوجد حرب مكشوفة فى الجزائر مع فرنسا . انتهت هذه الحرب والحمد لله باستقلال الجزائر) ، وهناك فى تونس أكثر من ألف أسرة تبكى أبناءها الذين استشهدوا فى معركة بنزرت . وهناك قواعد عسكرية أمريكية وبريطانية فى ليبيا ، لا يستسيغ الشعب وجودها ، على الرغم مما تحمله الى البلاد من موارد مالية ، كتفقات يصرفها القائمون عليها . وإذا ما اتجهنا شرقا وصلنا الى مصر ، حيث لا تزال ذكريات العدوان على السويس القريبة عالقة فى الاذهان ، وحيث يقوم وعى كامل بما يحمله الغرب لها من عدااء مستمر . وفى السودان ذكريات ، وفيها احساس بالوجود الاستعماري فى افريقية . ويؤلف الاردن حالة خاصة ظاهرة تحتاج تعليقا خاصا منا . وتؤلف مأساة فلسطين رمزا حيا مستمرا على الضغط الغربى ، وكأنها خنجر يظل دائم الحركة فى جرح لا يندمل . ولم يمض على ارتحال القوة الحربية الامريكية عن لبنان أكثر من أربع سنوات . أما سورية فقد سبق لنا أن شرحنا ما أحاط بها من أجواء نفسية غريبة . وفى العراق احساس بوجود الحلف المركزى فى جارتين من جيرانها ، وبوجود السلطان البريطانى العسكرى والسياسى فى الخليج والبحر العربيين ، وما حدث مؤخرا من اطلاق بريطانيا سراح الكويت ، ليس الا نموذجا بارزا لما يجب على بريطانيا أن تفعله الآن على طول السواحل العربية ، هذا اذا أردنا حقا أن يزول من الاذهان تماما الاحساس العربى بوجود الضغط الامريكى .

ولا ريب فى أن الأثر الجماعى على العرب لهذه الامثلة الواقعة عن «الوجود» البريطانى فى بلادهم ضخم هائل . وهو مختلف كل الاختلاف حتما عن الصورة التى تنطوى عليها العبارة التى كثيرا ما نسمعها ، «حسننا لقد خرجنا . . . او لم نخرج» ، ولا ريب أيضا فى أن هذا الحلاف يمثل مظهرا جديدا من مظاهر الانقسام بين العرب والغرب . ويتحول هذا الشعور بالضغط الى حافز جديد يدفع العرب دفعا الى البحث عن الوحدة . حتى فى المناطق التى لا وجود فيها لاية عقبة غربية تقف فى طريق الوحدة . وليس ثمة من شك فى أن هذا الخوف من الغرب . قد لعب دورا لا يقل عن الدور الذى لعبه التخوف من الشيوعية فى الاسراع بقيام الوحدة بين مصر وسورية وكان السوريون يعرفون كما يعرف عبد الناصر نفسه أن فى استطاعة نوري السعيد ان يضمن تأييد الغرب لأى مشروع يضعه للتدخل فى سورية ، معتمدا على الأمل برغبته فى ابعاد الخطر الشيوعى عنها . ولا نستطيع نحن فى الغرب أيضا أن نحلل أنفسنا من مدى المسئولية فى الضغط الذى فرضناه على الوحدة ، مما أدى الى تشديد قبضة عبد الناصر على سورية . وكان عدااء الدول الغربية للوحدة من الحقائق المكشوفة الصريحة فى عام ١٩٥٨ حتى قيام ثورة العراق ، ولا يمكن لانسان أن ينفى الادلة القاطعة على ان الغرب والدول الشيوعية قد تعاونا فى أواخر عام ١٩٥٨ ، فى تشجيع الحلاف الذى عاد الى الظهور والاستقطاب

بين القاهرة وبغداد • وتجند شك العرب في السياسة الغربية واستمر في الوجود •

وظلت الاردن تحتل النقطة الأساسية في اقحام الغرب لنفسه في معارضة بحث العرب عن الوحدة • وكان لابد أن تتخذ بريطانيا والولايات المتحدة قرارا نهائيا في موضوعه ان آجلا وان عاجلا • ومهما كانت صفات الجرأة والاقدام التي يحاول الغرب الصاقها بالملك حسين فان عهده يؤلف مفارقة خطيرة على نفسه وعلى الغرب والعرب أيضا • فكل سلطة في الغرب تدرك حق الادراك ان عهد الملك لا يحظى بأى تأييد شعبي • ولا يعيش هذا العهد الا على حراب جنوده من البدو وما يقومون به من اجراءات القمع والاضطهاد والا على ما يلقاه من عون مالى مستمر وتأييد عسكري متحفز للعمل من الولايات المتحدة وبريطانيا ، وعلى تسامح الدول الغربية بتهديد اسرائيل الدائم باحتلال الاردن في حالة وقوع أى تبدل في نظام الحكم فيه • ولا يكاد يقع أى اضطراب في الاردن ، أو تجرى أية محاولة على الملك • أو تصل اذاعة القاهرة الذروة في حملتها عليه ، حتى ترتفع الصيحة بصورة متأججة في الغرب نصرة للملك • ولكن لا تكاد تمضى بضعة أسابيع حتى يصدر اعتراف جديد من جانب الغرب في أكثر من صحيفة واحدة ، بأن عهده لا يحظى بأى تأييد من الشعب الأردني •

ولا يعنى هذا الوضع أى استقرار ، وانما يعنى فرض سياسيات القوة التي لا تعدو نهايتها حقيقة واحدة يمكن التكهّن بها بسهولة • وهو يعنى أيضا التحريض المستمر للقوميين العرب على أن يمارسوا مساعدة منهم لعرب الاردن ما تمارسه الدول الغربية نفسها في الاردن • ولا شك في أن استنكار الغرب للهجمات التي يشنها العرب على عهد حسين في نفس الوقت الذي تقدم فيه له عمدا ومباشرة ، واحيانا عسكريا اذا اقتضى الامر العون الذي يحتاج اليه للصمود أمام غالبية الشعب الأردني ، رياء لا يمكن للغرب أن يستمر فيه في الشرق الأوسط الى أجل غير مسمى •

وقد تكون الحقائق مرة أحيانا ، ولكن يجب على المنصف ان لا يتورد لحظة واحدة في قولها • فلقد كان الغرب هو الذي استن سنة « التدخل الخارجي » بين الدول العربية ، وهو الذي أرغمها على ممارستها بين بعضها البعض ، ولعلها حقيقة ثابتة لا تحتمل أى نقاش ، اذ باتت جزءا من التاريخ انه لم تمر سنة واحدة على الوطن العربي ، منذ عام ١٩٢٢ لم تتدخل فيها الدول الغربية تدخلا مباشرا ومتعمدا • في شئون دولة عربية أو بينها وبين دولة أخرى • ومن المرغوب فيه كل الرغبة • أن يجد العرب وسائل لاشأن للعنف فيها لتحقيق الانسجام بين بعضهم البعض • ولقد سبق لنا ان رأينا استحالة توقف ما يطلق عليه الغرب اسم « التدخل الخارجي » الا اذا أفلحت الثورة الاجتماعية في جميع أجزاء الوطن العربي في ابعاد تلك القوى التي تحتم عليها مصالحها واطواعها مقاومة القومية العربية في أى مكان عن مجالات الحكم والسلطان • ولكن الغرب لا يستطيع ادعاء البراءة في موضوع الاردن أو في غيره من المواضع ، وما دام الغرب يلجأ الى تطبيق وسائله القديمة فان كابوس « الاستعمار » الذي يجثم على صدور

العرب سيستمر ، وسيظل سعى العرب الى الوحدة مرتكزا على الاساليب التي يستهجنها الغرب .

وقد يكون من المفيد أخيرا ان نعرض في فكرنا صورة قاتمة أخرى فيها بعض المفارقة عن قصة القومية العربية وتطورها حتى اليوم . فليس ثمة من شك ، على الرغم من وجود بعض مظاهر الرياء والتناقض . ومن عمليات محاولة ابقاء حتى اللحظة الأخيرة ، في أن الغرب يرغب على العموم في الخلاص من مشاكل الوطن العربي ، وأنه قد بدأ يفهم في أن من حق العرب أن ينشدوا الوسائل التي يريدونها لتحقيق وحدتهم (١) . ولكننا لم نستفك الى الواقع والحقيقة الا متأخرين ، فقد وقفنا أمدا طويلا نحول بين العرب وبين تطورهم الاجتماعي ، ونفرض عليهم التجزئة ، ولم نكد نفكر في الخروج من المنطقة حتى ظهر على عتبتها عدو جديد للوحدة العربية . وقد تبنت الشيوعية التي تسيطر عليها روسيا الآن نفس سياسة « فرق تسد » التي كنا نتمناها ، لتحقيق لنفسها السيطرة ، ولتعرق كل وحدة لاتضمن لنفسها حق الاشراف عليها . وقد سبق لي أن أوضحت في فصل سابق حقيقة الوضع في عراق الثورة وما حوله من بلاد . وليس ما وقع هناك الا مقدمة أو مجرد بداية . ولا أرى أن العبر التي تعلمناها من مواقفنا السابقة تجاه الوحدة ، ومن ظهور قيادة عبد الناصر في مظهرها المتميز بالنشاط وبالانسجام العقائدي ، بعيدة عن الشيوعية ، وكذلك من آخر المواقف التي وقفها الغرب والتي عملت بصورة ساذجة على دعم الشيوعية ، تتطلب مزيدا من الشرح والتفصيل ، وإذا كان على العرب أن يواجهوا اليوم بشيء من الفجيرة هذا التحدي الجديد لتطلعهم الى الوحدة ، فإن الغرب سيواصل معارضته لها مع ما في ذلك من تعريض لنا ولهم للخطر .

الوحدة العربية - المستقبل :

تري ما الذي نصل اليه من كل هذا البحث الدقيق وعرض ما في هذا الأمل الذي يطمح اليه العرب من مصادر السوء والضعف ؟ فهذا الأمل هو في الواقع حلقة مفرغة شريرة ذات طابع تاريخي معقد من الحوافز والعقبات ومن القوى المركزية الطاردة والمجاذبة التي تعمل في أفئدة تسعين مليوناً من البشر يؤلفون واحداً من ثلاثين من مجموع أبناء الجنس البشري . ومن الواجب أن يدون واضحا لكل انسان أن الخير من العقبات التي تقف في طريق الوحدة العربية ان لم يكن معظمها لم تكن وليدة الحاضر الذي نعيش فيه بل وليدة حقبة طويلة تمت فيها وتطورت .

(١) لا أرى من أين جاء المؤلف بهذه الفكرة الجديدة من أن الغرب قد غسل يديه في وطننا العربي وعدل عن مقومته لئلا نوحدها . اننا لم نر أي تطور في سياسة الغرب في هذا الاتجاه ، فهو لا يزال يبقى على العهد الرجعي في الأردن ، وهو يحتل سواحل الجنوب العربي وهو الذي يحبك المؤامرات ضد الوطن العربي ووحدته وقد ظهر ذلك في هذه الحركات العدوانية التي يقوم بها في اليمن لوقف المد التحرري العربي .

— العرب —

فهل يمكن لأية صورة عن الوحدة العربية المقبلة أن تكون ذات معنى؟
في وسعنا فقط أن نتصور خطوطها العريضة بإلصاقه إلى كل ما يحسنه
حتى الآن من عناصرها . وهناك بالنسبة إلى الحاضر الفوري الجامعة
العربية ، التي تعتبر هدفا لحملات العدو في نقاد الصبر ، على جمودها
الناجم عن وجود جذورها في حصة « العهود القديمة » والقدرة حتى الآن
على العمل الإيجابي الخلاق الذي يحمل صانع الإلهام كما ثبت في عملها
بالنسبة إلى أزمة الكويت . ويبدو لي أن هذا الترابط الرخو بين الكيانات
الرسمية سيظل إلى أمد ما المحور الذي يركز عليه التعاون العربي النافع
رغم ما فيه من تقلب .

وفي المتوقع أن تقوم حلقة اقليمية من الوحدة في المغرب العربي
الكبير بعد أن نحل المسألة الجزائرية حلا نهائيا . وتقوم هناك «موجودات»
وحدوية خاصة تعمل على تعزيز الدعوة للوحدة واهمها وجود عنصر
المقاتلي البربري الخاص ، والدروب الثقافية الفرنسية احصاه وسورد
الاقتصادية المشتركة (١) . وقد اتفقت الاحزاب الرئيسية في المغرب
واجزائر وتونس في المؤتمر الذي عقدته في ابريل عام ١٩٥٨ على اتحاد
تعاوني (فدرالي) في المستقبل يضمها مبتدئا بقيام مجلس استشاري .
وليس هناك من يتجاهل وجود صراعات داخل المغرب على الصعيح
بين النزعة المحافظة في المغرب (مراكش) وابورقينية انوسية ،
والاشتراكية الوطنية الدينامية في الجزائر . ولكنني اعتقد أن العوامل
الحدوية ستتغلب على هذه الخلافات المؤقتة فور خروج الفرنسيين من
البلاد . ولا يستبعد ان تتطوع ليبيا عربا نحو هذه الوحدة . (١)

(١) اختلف مع المؤلف على هذا الرأي الذي ورد به بالنسبة إلى الوحدة
المغربية ، ولا سيما ما يعنى منه « بالعصر القديم البربري احصاه » بما
اسماه ، فليست هناك أية نزعة عنصرية بربرية خاصة ، وان كان
الاستعمار الفرنسي قد حاول طيلة المدة اطويله ان يفسد في اجزاء
المغرب العربي ، ان يخلق هذه النزعة وأن يستغلها فخابت مساعيه كلها .
وأثبت النصارى الجزائري اجبار ، الذي اشترك فيه العرب وابربر معا شغل
الاستعمار الفرنسي فيما هدف اليه ، اذ أن قبائل البربر ، في الجزائر
ومراسش وبوس ، تعتبر نفسها جزءا من الشعب العربي في المغرب العربي ،
ولم تزل دوماً كذلك لما ينبت التاريخ العربي بادننه وسواعده ، ويعني
أن نول ان صارق بن زياد ، انما هو العربي ادعاهم كن من اصل بربري .
ويؤيد التاريخ ان قبائل البربر هي من موجات الهجرة العربية من الجزيرة
العربية .

(٢) ان الشعب العربي سواء اكان في المغرب العربي او الوسط
العربي والمشرق العربي أو الجنوب العربي شعب واحد ، له هدف واحد ،
وهو الوحدة العربية الكاملة الشاملة . أما النول بالاتجاه غربا او شرقا
او جنوبا ، فلا يعنى مطلقا البحث عن وحدات خاصة . وانما يعنى تعري
خير السبل المؤدية الى تحقيق الهدف الكبير .

— المغرب —

وتقف الجمهورية العربية المتحدة (مصر) الآن ، أمام قرارات جديدة وستظل اتجاهاتها الخارجية دائما • مزدوجة ، وهي العمل على وحدة وادي النيل مع السودان والقيام بدور فعال في الاتجاه الوحدوى ضمن المنطقة العربية كلها • وانا لا أعتقد باحتمال قيام أية حكومة سودانية في المستقبل القريب بالدعوة الى أكثر من مجرد وحدة اجرائية عاملة مع مصر • بسبب ذكريات تعود الى المحاولات التي كانت تبذلها الملكية الرجعية القديمة في مصر للسيطرة على أعالي النيل ، وبسبب الحاجة الماسة الى تحقيق وحدة أقوى عرى داخل السودان نفسها بين شمالها وجنوبها • وستحول هذه المشكلة السودانية الداخلية في الوقت نفسه وهي تعريب قبائل الجنوب ودمجها قوميا في السودان ، دون اشتراك السودان اشتراكا فعلياً في الشئون العربية الداخلية •

ومن الصعب على أن اتصور أن الرئيس عبد الناصر سيقبل بأية وحدة متسعة لا تقوم على أسس ثابتة مع أية دولة من دول المشرق العربي • ولكن من الصعب على في الوقت نفسه أن أصدق أن الرئيس سيتخلى عن القومية العربية التي جعلها عقيدة يؤمن بها أشد الايمان • وكان أول رد فعل له حركة الانفصال السورية ، مناشئة الشعب المصري التمسك بعروبتة ، وعدم قبول العزلة الروحية ضمن حدود وادي النيل ودلتاه • (١) وتشير الخطب الأولى التي ألقاها الرئيس بعد الانفصال الى أن تفكيره اتجه اتجاهها جديدا وهو وجوب تحقيق الثورة الاشتراكية العربية قبل السير في أية محاولات جديدة نحو الوحدة • ولكن هذه النتيجة التي توصل اليها ليست غريبة ، ولا تمثل أى تحول أساسى في تفكيره ، فلقد كانت

(١) هناك نقطة واحدة يبدو أنها غابت عن تفكير المؤلف ، وهي ان كارثة الانفصال ، رغم ما فيها من فجعية ، قد أظهرت بجلاء ، حقيقة لا تقبل الشك ، وهي استحالة « التهساد » بين القومية العربية التي يمثلها الرئيس عبد الناصر ، وبين الرجعية العربية التي تعمل « مخلب قط » للاستعمار ، وان ظهور هذه الحقيقة قد ادى الى قيام الحركة السافرة بين هذين الاتجاهين الذي ظهر بجلاء ما بعده جلاء ، في الثورة التحريرية الرائعة التي قامت في اليمن للخلاص من عبودية الرجعية والانطلاق في الطريق التحررى السليم ، وما عقب هذه الانطلاقة الجدية في الجنوب العربى ، من وقوف الجمهورية العربية المتحدة بكل امكاناتها تنصر الانطلاقة ، التي سيكون لها شأن وأى شأن في تحطيم معازل الرجعية العربية فى كل مكان من أرجاء الوطن العربى • كما أثبتت الانطلاقة ان الاستعمار ، واعوانه من ملوك الرجعية لم يفلحوا فى الغاية الاساسية التي توخوها فى مؤامرة الانفصال وهي عزل الجمهورية العربية المتحدة ، وصرف أنظارها عن التيار الوحدوى ، بل فشلتوا فشلا ذريعا اذ ظلت الجمهورية وستظل قلعة النضال العربى ، كما اثبتت مؤامراتهم ان وحدة الهدف الذى يتلخص فى « التحرر والاشتراكية والوحدة » هي أقوى أثرا من الوحدات « الشرعية » التى يظل للرجعية فيها دورها ، وأنه لم يعد هناك مجال لما يسمونه بالتضامن العربى أو بكلمة أصبح التهادن مع الرجعية •

— المغرب —

ماثله في خاطره في يناير عام ١٩٥٨ عندما طلب الى أعضاء الوفد السوري الذي جاء يسعى للوحدة . أن ينظموا شئون بلادهم الداخلية قبل التفكير في الوحدة .

ومن الصعب على المؤلف ، ولم يمض على الانفصال الا أمد قصير جدا أن يتكهن بالآثر الذي سيتركه هذا الانفصال على مكانة الرئيس عبد الناصر في الوطن العربي (١) فهناك عدة عوامل تقوم وراء الافتراض المتسرع بفقد شيء من المكانة . فسيظل العرب الى الشرق من مصر ، يتطلعون اليها كعنصر جوهري لا غنى عنه في أية وحدة عربية ، سواء في شئون الدفاع أو في شئون الزعامة القومية والاصلاحية ، ولم يكن عبد الناصر هو الذي خلق هذا الرباط المقدس . بل كان القائد الذي عرف كيف يوجهه وكيف يمثل له الرمز الدينامي الفعال . ولكن الاحداث قد تثبت ، أنه الى أن يتحقق الاصلاح الاجتماعي الداخلي في كل من العراق وسورية والاردن ، والى أن يتحقق الاستقرار فيها على أسس شعبية ، فإن المشكلة المعقدة ستظل قائمة وهي كيف يمكن لمصر أن تكون أوثق اتصالا بالشرق العربي . ويرى كثيرون من القوميين العرب الذين يؤمنون بزعامة مصر وقيادة الرئيس عبد الناصر ، ان البرامج الاشتراكية العربية التي يقوم الرئيس بتطبيقها في مصر الآن عظيمة الأهمية لهم أيضا ، وان في وسعهم انتظار نتائجها . وقد يصل عبد الناصر الى نفس النتيجة أيضا . وستواجه القرارات الاشتراكية التي أصدرها في يوليو عام ١٩٦١ والتي تعهد بتنفيذها في شهر أكتوبر أعظم تحد لها وسيتوقف على نتائجها الكثير (٢) .

ويبدو أن أية محاولة جديدة ، في غضون هذه الفترة لتحقيق وحدة أوثق لدول الهلال الخصيب أي العراق وسورية والاردن ستكون موضع النقاش ، عما قريب . ولقد بات مستقبل سورية السياسي كله يؤلف من جديد علامة استفهام كبيرة . ولا يمكن لأي عهد وطني أصيل ويساري وشعبي في سورية أو العراق أن يتصور امكان الارتباط في وحدة مع

(١) نود أن نطمئن المؤلف بأن مكانة الرئيس العربي جمال عبد الناصر ، قد ازدادت قوة ورسوخا بعد الانفصال عند جماهير الشعب العربي في كل مكان ، فقد تبين لهذه الجماهير نتيجة الحلف غير المقدس الذي قام لدعم الانفصال في سوريا بين قوى الاستعمار والرجعية العربية والانتهازية المرتدة والشيوعية المحلية ، والذي تؤيده اسرائيل بصورة لا مباشرة ان لم تكن مباشرة ، ان القومية العربية التي يمثلها الرئيس العربي هي العدو المشترك . ورأت هذه الجماهير أن من واجبها الوقوف وراءه في معركة العروبة . - المغرب -

(٢) لم يعد هناك مجال لهذه المخاوف التي أعرب عنها المؤلف . فقد أثبتت تجربة الاشتراكية العربية نجاحها لانبثاقها عن دوافع مادية وروحية أصيلة . وها هي ذي تجربة الاتحاد الاشتراكي العربي تسير في طريقها الصحيح الذي يعلق عليه كافة القوميين العرب أضخم الآمال .

- المغرب -

عهد الملك حسين في الاردن الذي تشرف عليه بريطانيا وأمريكا (١) ولا ريب في ان الغموض الداخلي الذي يكتنف قيادة قاسم في العراق ، ما يرافقه من اضطرابات ضخمة تقوم بها الاقلية الكردية الكبيرة هناك . سيدفع اليمين السوري واليسار اللاشيوعي الى الحذر من أية وحدة مع العراق .

وقد أتاحت الآن فرصة جديدة لموسكو ولشبكات الشيوعيين العرب في خضم هذه المجهولات الجديدة في الميدان السياسي في المشرق العربي . ولكن هذه المجهودات ، ستظل تدفع جميع القوميين العرب في المشرق العربي الى التطلع نحو مصر وعبد الناصر ، كما ستدفع هذين الى التطلع اليهما بشيء من القلق والتخوف على مصيرها .

وهكذا سيظل التطلع مستمرا نحو الوحدة ، في منطقة يرتبط أهلها العرب في جزء من أجزائها بأرثق العرى بأهل الجزء الآخر ، وسيظل هذا التطلع يحمل طابع اللهفة والايجابية ، ويهدف الى الغايات الدفاعية والمادية العملية . وقد يكون تفهم هذه المشاعر الايجابية أكثر صعوبة على الغربي من تفهمه لما في الدعوة الوحدوية من أصطفائية وتناقضات (٢) . وليس تقبل عبد الناصر لما وقع من انفصال الا مثلا واحدا في معناه لهذه التناقضات (٣) والتباين في الشعور بين العربي المغربي وبين العربي العراقي اللذين تفصل بينهما ألوف الأميال مثل آخر (٤) . أو كيف يمكن

(١) لا يمكن لأي عهد وطني أصيل يرتكز الى ارادة الشعب في سورية ، كما يصفه المؤلف أن يتجه أي اتجاه سوى العودة الى الوحدة مع مصر ، أما مشروع الهلال الخصيب وغيره من المشاريع التي يقصد منها عزل « مصر عربيا » ، فلا يمكن أن تحظى بأي تأييد شعبي من الجماهير الواعية . - المغرب -

(٢) سبق لي في هامش تعليق سابق أن أوضحت عدم وجود أية تناقضات في الدعوة الوحدوية ، لان حوافز الوحدة عند العرب أكثر اصالة منها عند أي شعب آخر .

(٣) لا ريب في أن المؤلف مخطيء كل الخطأ ، عندما يقول ان سيادة الرئيس عبد الناصر قد تقبل الانفصال كأمر واقع . أما ما حدث فعلا فهو ان سيادته رغب مدفوعا بنزعاته الاصلية في تجنب الشعب العربي في سورية الفتنة الداخلية التي كان لا بد من وقوعها لو اتخذ موقفا آخر غير الموقف الذي اتخذه ، مع ما قد ينجم عن ذلك من نتائج دامية هي أبعد شيء عن تفكير الرئيس لتناقضها مع جبلته الطبيعية . ولا ريب ان الرئيس كان مدفوعا الى موقفه ذلك ، بايمانه المطلق في انتصار ارادة الشعب العربي أخيرا في سوريا الذي لا يقبل عن الوحدة بديلا .

(٤) ليس هناك من فروق بين عربي المغرب وعربي العراق ، الا بعض الفروق الوهمية التي خلفها الاستعمار طيلة حكمه الطويل للوطن العربي ، وهي فروق سطحية لا تلبث أن تنهار أمام الدعوة الوحدوية الاصلية . - المغرب -

لنا أن نفسر كيف أن الموظفين السيسوريين الذين كانوا يشتركون في المناقشات الحادة حول حسنات الوحدة ومساوئها قبل وقوع الانفصال ، أحسوا بما يشبه اليأس وتفجرت دموع الألم والقتوط من مآقيهم عندما حانت ساعة الانفصال فعلا ؟ • لقد دامت هذه العواطف أكثر من مجرد التعبير عن ألم لانقضاء عهد زمالة شخصية •

وقد تكون هذه التناقضات الواضحة منافذ للغربيين يعربون فيها عن ارتياحهم أو سخطهم أو طربهم ، طبقا لما يحملونه من اتجاهات تختلف باختلاف أشخاصهم • ولكن لما كان العرب في كل مكان سيواصلون مساعيهم لتحقيق الوحدة وسيواصلونها حتما ، مهما كانت العقبات التي تقف في طريقهم • فإن من الخير لنا نحن في الغرب أن نبحث هنا عن المذات الذي تقسم فيه مصالحنا حقا • ولن يكسب الغرب من استمرار التجزئة العربية ، ومن خلافاتهم المهلكة ومن بديد مواردهم الاقتصادية ، كما لم يدسب شيئا من السنوات الطويلة التي قضاه في افراز مثل هذه التجزئة • ويحس الغرب بمثل هذا الواقع بالنسبة إلى إفريقيا التي ننطوي دعوتها إلى الجامعة الإفريقية على مشاكل وظواهر متباينة فوق ما ننطوي عليها الدعوة إلى الوحدة العربية من مشاكل وظواهر • وقد ظهر على المسرح الآن ، العنصر الجديد الذي يفيد من بقاء التجزئة العربية ، وهو الشيوعية التي قد نفيد فعلا من بقائها ، بينما لم تفد الدول العربية منها ، وذلك لأن الشيوعيين أكثر عناية بشئون الظلم الاجتماعي واصرحها من الغربيين •

وإذا كان لابد للغرب من أن يتابع التمسك بدوافعه السلبية لسياساته في الوطن العربي ، فإن حاجته إلى التعرف على ما يختج في نفوس العرب من شوق متحرق تصبح أشد وأكثر مساسا • فبالإضافة إلى المشاعر الإنسانية التي تدعو الغرب إلى العطف على النوحنة ، هناك عامل إيجابي آخر يجب أن يحفز الغرب على تأييد الدعوة الوحدوية • فوزاء هذه الدعوة فكرة نحن نسهم في المسئولية عنها ، وهي مفهوم الشخصية القومية الذي نقلناه إلى العرب ، وأدخلناه في تقاليدهم ، وروابطهم المشتركة • (١) وقد حان الوقت لنا للاعتزاز بهذا الامهام ، وقد حان الوقت أيضا لنا للتوقف عن معارضة نتائجها السياسية واعاقتها ومحاولة تهديمها • وحان الوقت كذلك لتخلي عن مخاوفنا القديمة ولنساعد العرب على دحض ما ادعاه ابن خلدون في القرن الرابع عشر من تشاؤم بصدد الفكرة العربية الوحدوية وعلى الساسة ورجال الصحافة والمعلقين من أهل الغرب ، الذين يجدون فيما يحس به

(١) سبق لنا أن بينا في تعليق سابق أن المؤلف يخطئ كل الخطأ في اعتباره الوحدة العربية فكرة مقتبسة أو مستقاة من الأفكار الغربية أو مقلدة لاية فكرة سابقة • فالحركة الوحدوية العربية ، حركة أصيلة ، منبثقة من ضرورة الوجود العربي ، ومن حوافزه المادية ، ورسائله الروحية ، وتاريخه المشترك ، وتقاليده الواحدة ، ولغته ، وعاداته وثقافته وراثته الحضاري •

— العرب —

العرب من عذاب لعدم تحقيق وحدتهم وسيلة سهلة لظهار تفوقهم في فن التهكم ، أن يدركوا أنهم إنما يهزأون ماجنين ، بأروع ما قدمه الغرب للوطن العربي من اسهام ادراكي . وعليهم أن يدركوا أيضا أنه كلما قرأ عربي أو سمع هذا التهكم الماكن منهم على مشكلة يعتبرونها أعمق المشاكل التي تحز الألم في نفوسهم ، فإن خيطا آخر من خيوط الايمان العربي بالثقافة الغربية سينقطع حتما .

ولا استطيع انهاء هذا الفصل الا باعلان أحدد فيه ايماني . أن وحدة هذه الملايين من العرب ، قادمة حتما ، ولكنها قد تتأخر بعض الشيء ، وقد لا تكون في شكل دولة جامدة مركزية الحكم تمتد من المحيط الى الخليج . ولكن اليوم الذي سيعثر فيه العرب على الواقع السياسي والدستوري لحلمهم ولقوميتهم « التي لا ترسم حدودها على الأرض بل في القلوب والارواح » (١) قادم حتما . ولا ريب ان امام العرب مهمة شاقة ، وعملا مجهدا ، وتفكيرا مضنيا واصلاحا يجب أن يتحقق قبل أن يتحقق الحلم . وليست المشكلة أمام الغرب الا أن يتقبل العرب على حقيقتهم بشرا ، لا يشعرون بالتفوق أو الامتياز ، ولا نعتبرهم متخلفين أو غير مروضين على حكم أنفسهم بأنفسهم . واذا ما وصل الى هذه المرحلة التي يتخلل فيها عن أفكاره السابقة ، أصبح لزاما عليه أن يعيد النظر في سياساته السابقة ، وأن يبعد منها آخر أثر من آثار مساعيه لوقف مداهم الوحوى . أجل سنرى عما قريب الولايات المتحدة العربية . وأنا لست واثقا من أن علاقاتنا بها ستكون آنذاك صدوقة ودية ، اذا لم نسرع الآن ، وقبل قوات الآوان الى تنمية هذه العلاقات .

(١) من كتاب « فرق تخسر » لميشيل ايونيدس - من تعريب العرب .

الثورة الداخلية

« وكانت عقولنا تحاول أن تلحق بقافلة البشرية المتقدمة التي تخلفنا عنها خمسة قرون أو يزيد ، وكان الشوط مضنيا والسباق مروعا مخيفا » .

من كتاب « فلسفة الثورة » للرئيس عبد الناصر
« لم تعد التربية الاقتصادية والاجتماعية في الشرق الاوسط بعد عميقة عمقا يكفي لتمكين جنود الديمقراطية السياسية من النمو والانبات ... ويتطلع معظم سكان الشرق الاوسط الى حكوماتهم طلبا للتوجيه والمبادرة كما أن بعضهم يتوخى اقصر الطرق بواسطة الانقلابات العسكرية . ويستحق هذان الاتجاهان عناية أكثر وتفهما أعمق مما حصلنا عليه حتى الآن من المراقبين الانجلو - سكسون »
الاستاذ شارل عيساوى في مقال له في مجلة الشؤون الدولية عدد يناير ١٩٥٦ .

« ترى متى يتغل العالم الغربى من فلسفة حكوماته التمامية » فينوبابهاى الهندى فى كتاب « القديس يسير » .

* * *

عالجت في هذا الكتاب حتى الآن سير الثورة الخارجية في الوطن العربى وتفاعلها مع السياسات الغربية . ولكن في كل ما كتب عن الازمات المتلاحقة في هذا الوطن ، كانت الثورة الداخلية العربية تعترض طريقى وتبرز كعامل له اثره أيضا في تلك العواطف الهوجاء من سوء الفهم في العلاقات العربية الغربية فالثورتان متلاحمتان ولا يمكن تجزئتهما مطلقا اذ أن المشاكل الداخلية المتعلقة بالتطور السياسى والاقتصادي عند العرب تؤثر تأثيرا مباشرا على سعيهم المتواصل لتحقيق الوحدة ، كما تؤثر على بحثهم عن العون الخارجى . وعلى قدرتهم على « النفاذ » الى عقول ساسة الغرب ومعلقيه كشعب عاقل له مكانته التى يجب ان تحمل على محمل الجد .

ولقد تركز اهتمام الغرب على مصر فى الدفقة الطويلة من الازمات

التي تتابعت بين عامي ١٩٥٤ و ١٩٥٨ ، ولذا فمن حقنا ان نشرع في هذا البحث في عرض ما حظيت به ثورة مصر الداخلية من اهتمام ضئيل جدا في اوساط الغرب . فلقد سادت الغرب فكرة شائعة ، وهي ان عبد الناصر قد « تحلى » عن نياته السابعة في الاصلاح الداخلي والتطوير الانمائي ، التي كان الغرب قد لاحظها عنده قبل عام ١٩٥٥ وذلك لاشغاله في « المغامرات الخارجية الشاملة » ، والحملات الجماهيرية « وليس ثمة من شك الآن ، في ان هذا الانطباع كان خاطئا وان عبد الناصر ، كان قد ركز الكثير من اهتمامه في تلك السنوات على القضايا الخارجية . ومن الواضح أيضا ان نسبة كبيرة من موارد مصر الاقتصادية ، وامكانيات قروضها الخارجية قد استهلكت في « تعصير » قواتها المسلحة عن طريق صفقة الأسلحة التشيكية . وقد شرحت في الفصول السابعة الاسباب التي أدت الى هذه الخطوة . ولكن مما يجب تسجيله أيضا ان الحكومة المصرية كانت حتى في تلك السنوات من الازمات الخارجية غارقة في مشاريع انمائها ، لا تتخلى عنها وانما تعمل على توسيعها .

وقد مضت حكومة القاهرة قدما في تطبيق الاصلاح الزراعي واعادة توزيع خمس الأراضي المزروعة التي تمت مصادرتها ، واقامة حزام من الزراعه التعاونية في الاراضي الموزعة حديثا وفرض الحد الأعلى لاجور الارض الذي قرره الحكومة لأول مرة في تاريخ مصر . ومضت أعمال التنمية الأخرى من توزيع البذور الجديدة وريية الماشية ، وتحسين وسائل الري قدما في اراضي اخرى مؤدية الى زيادات ملحوظة في نسبة الانتاج السنوي . وقطعت الخطط الرامية الى تنفيذ مشروع السد العالي كما ذكرت سابقا خطوات ضخمة ، هادفة الى غاية مزدوجة وهي زيادة مساحات الارض المرروعة ، وتثبيت موارد المياه السنوية ، وتأمين القوة المحركة للمشاريع الصناعية الجديدة ، وقامت وحدات خاصة بأعمال المسح الصحراوية ، مما ضمن توفير مليوني فدان أخرى للمشاريع الزراعية . وتم تنفيذ مشروع استنباط القوة الكهربائية الجديدة من خزان اسوان الحالي ، حتى قبل الشروع في السد العالي ، وبدأ المولد الجديد الجبار في انتاج قوة كهربائية بمعدل (٣٤٥) ألف كيلو واط ، في عام ١٩٦٠ . ونفذت الحكومة اصلاحات ضخمة في حمل الوقاية والصحة العامة ، وبينما كان وباء التيفوس قد ادى في عام ١٩٤٧ الى وفاة أكثر من ثمانية عشر ألف شخص ، لم تقع في عام ١٩٥٨ وفاة واحدة بهذا الوباء ، وبينما كانت نسبة انتشار البلهارسيا تبلغ في عام ١٩٥٢ الثمانين في المائة من مجموع عدد السكان ، هبطت هذه النسبة في عام ١٩٥٨ الى أربعين في المائة . وشرعت الحكومة منذ عام ١٩٥٤ في مشاريع ضخمة لتأمين مياه الشرب النقية لجميع سكان البلاد بينما لم تكن نسبة أهل الريف الذي يشربون المياه الصالحة تربو قبل هذا التاريخ على الخمسة عشر في المائة . واستمرت عملية بناء « الوحدات المجمع » في القرى والارياف وتزويدها بالموظفين ، وفي كل وحدة منها طبيبها الخاص والعدد اللازم من المساعدين والموظفين الزراعيين لتقدم

خدماتها لاكثر من خمسة ملايين انسان في سنوات الازمات . وتضاعف عدد المدارس الابتدائية في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٥٢ و ١٩٥٨ . وتم التعاقد على انشاء مصنع جديد للحديد والصلب خارج القاهرة وقد تم بناؤه لتبلغ طاقته الانتاجية مائتي ألف طن في السنة الواحدة مستمدا موادہ الاولى من مسحوق الحديد الذي عثر عليه في مصر العليا حديثا . وتم بناء مصنع مارديانت لانتاج الاسمدة الكيماوية في أسوان أيضا .

ومن المحتمل أن يكون بعض الإبطاء قد وقع ، وأن تكون أخطاء قد حدثت ، ولكن مهما قيل عن هذا الإبطاء أو تلك الأخطاء ، فإن ما حدث فعلا يختلف عن الصورة الشائعة التي كان يحملها الغرب عن أحداث مصر الداخلية في هذه السنوات . وليست القضية أننا ركزنا انظارنا في الغرب على سياسة مصر الخارجية وحسب ، بل ان مصر نفسها قد ركزت الاهتمام في الظاهر على النواحي الخارجية أيضا ، مما أدى الى غلو الغرب في ادعائهم بأن حكومة عبد الناصر وزملائه لم تحقق الا الفيل في الميدان الداخلي بينما تسير الحقائق الى عكس هذا الادعاء والى أن ثورة أساسية في الميدانين الصناعى والاجتماعى مضت قدما في مصر امام أعيننا .

ولا ريب في أن عقد الكراهية التي سبق لى أن شرحتها في فصل سابق قد ساعدت على بقاء هذه الثورة الداخلية خافية عن عيون الغربيين .

ولا ريب أيضا في أن الدعاية الصهيونية قد لعبت دورا بارزا في هذا المضمار . مدفوعة الى ذلك بأمانيتها العذاب من ناحية في بقاء العرب على محلهم ، واصرار الصهيونية المعتمد على نصرتها العديدة القابله بان العرب قوم منحرفون . وان اسرائيل اسى يدعمها العرب ويتولى حمايتها ، هي المبادرة وحدها على نشر التهم الحصارى الحديد في الشرق الاوسط . ولكن العرب ظل على باقره بهذه الدعاية وهو تأير يجب ان ننجه اليه في بحثنا الان لنسجل اسبابه ونستشفها . والمشكلة لا تقتصر على بصر العلاقات بين مصر والعرب ، بل نمتد الى العلاقات العربية العربيه كلها ، ووصل الى حدود العلاقات الغربية في المنطقة الافريقية الاسيويه كلها أيضا .

ونميل نحن في الغرب ، اكثر من غيرنا من الجماعات الثقافية وذلك بسبب ما كان لجماعتنا نحن من ارتباطات مغالية في ثقافتها بنفسها مع خارج حدودنا ، الى فحص المجتمعات الأخرى ونتوحيها على أساس قواعدنا وتجاربنا . فمن نفيس « الحلم العسكرى المطلق » على ضوء مقاييسنا ، ونحن نعنى بالديمقراطية ، مفاهيمنا الديموقراطية الغربية . ولا تعنى « الاستراتيجية » في نظرنا الا الاستراتيجية على قواعد الأوربيية ، وهكذا دواليك . وكانت الحاجة التي « نفترضها » الى من نسميهم « بأصدقائنا » في الشرق الاوسط هي التي دفعتنا كما سبق لى وان أوضحت في جميع الفصول السابقة في عملياتنا الدبلوماسية والعسكرية اليومية ، الى تجاهل

ما يرتكبه هؤلاء « الأصدقاء » من أخطاء في سياساتهم الداخلية . وفي وسعنا تلخيص النتائج التي حققناها من هذه المواقف .

تكونت لدينا في الغرب وجهة نظر عميقة الجذور ، لا بالنسبة الى العرب وحدهم بل الى جميع الشعوب الافريقية - الآسيوية ، تنطوي على عقدة محافظة متورمة بأن أى شعب لا يقيم نظام حكمه بعد استقلاله على أسس الديمقراطية السياسية الغربية ليس بالشعب الذى يستحق الاستقلال . ونجم عن هذه الفكرة خيبة أمل حتى عند العناصر الليبرالية في الغرب ، سرعان ما تحولت الى شكوك ، وذلك عندما انتهت الفكرة الليبرالية الداعية الى تلقين أسس الديمقراطية الغربية الى الشعوب الحديثة بقيام الديكتاتورية عند هذه الشعوب . وكانت السلطات الغربية المحافظة أكثر استعدادا للوثوق بارستقراطي القرن التاسع عشر « فى عقليتهم » من العرب ، والذين يحكمون حكما ديكتاتوريا صريحا ، منها بالضباط القوميين الشبان ، الذين يرفعون صادقين شعارات الديمقراطية وان كانوا يرفضون أن يقيموا فى بلادهم أنظمة الحكم الديمقراطية الغربية . وكان هؤلاء الغربيون يثقون كل الثقة بنورى السعيد مثلا . لأنهم يرون « ان بغداد لا تعرف الهزل ، وان ابناء الصحراء فى حاجة الى حاكم قوى يسيطر عليهم » ولكن هؤلاء المحافظين انفسهم يرون « الشر » فى عبد الناصر « لانه كما يقولون لا يحكم حكما ديمقراطيا » .

هذا بالنسبة الى المحافظين ، أما بالنسبة الى الأحرار (الليبراليين) فقد كانوا يرون فى حكم نورى السعيد لعنة من اللعنات ولكن نظرتهم هذه قد تكون أسوأ بالنسبة ، الى الحكم فى القاهرة ، لانهم يرون فيه انحرافا عن الثورة التقدمية ، نجم عن المطامع الشخصية . وقد ضخمت الدعايات الصهيونية هذه النظرة ونشرتها وعملت على أن يحاول الليبراليون المقارنة دائما بين هذه الفكرة ، وبين ما تعرضه لهم من ادعاء التقدم الاجتماعى فى اسرائيل لتكون هذه المقارنة منبر مراقبة يتطلع منه الغرب الى الوطن العربى (١) . ومع ذلك فقد ظل هناك بعض الأحرار الذين يشكون فى دقة ما تقدمه الدعايات الصهيونية اليهم من معلومات عن المسرح العربى والذين لا ينسون الحقيقة الواضحة وهى ان الغربيين انفسهم هم الذين اقاموا هذه المنظمات التقدمية فى اسرائيل ، وانفقوا عليها مساعدات تفوق حدود التصور اذ تبلغ ما معدله ثلاثمائة ألف جنيه فى اليوم الواحد ، يدفعها الغرب لاسرائيل .

لكن كلتا النظريتين خاطئتان ، وعليهما أن نحكم على الانظمة

(١) نشأت هذه الصورة الخاطئة عن الدعايات الصهيونية المضللة التى تسيطر على وسائل الاعلام فى الغرب . ولا حاجة بي الى التدليل على خطئها ، لا سيما وأن المؤلف كان موفقا كل التوفيق فى بيان خطئها وبالنسبة الى أن لقوله وزنا أكبر لعدم وجود أية عوامل تدعوه الى التحيز مع العرب .

— العرب —

السياسية والاجتماعية الراهنة من زاوية مختلفة تماما . علينا أولا وقبل كل شيء أن نرى ما اذا كان المجتمع العربي اليوم يشبه في أي صورة من الصور في تركيبه أو قواعده المجتمع الغربي الذي تنفذ فيه مفاهيمنا الديمقراطية . ومن المفروغ منه وان لم يكن كذلك فعلا في الغرب حتى الآن ان على الغرب اذا اراد الحكم على أي مجتمع عربي أو أفريقي آسيوي على أسس المفاهيم الغربية ، أن يرى أولا وقبل كل شيء أن هناك قواعد متشابهة بين هذين المجتمعين .

علينا أولا أن نبرز وجود عدة صراعات في المجتمع العربي نجمت عن تأثيرات الحضارة الغربية في القرنين التاسع عشر والعشرين ولم تحل بعد فقد فصلت الدنيا المسيحية بشكل رسمي بين السلطتين الدينية والزمنية . وقد انتقلت مسؤوليات الفرد الاجتماعية ودوره في المجتمع الذي ينتمي اليه بصورة متدرجة الى رمز زمني أو علماني دائم التطور والانتشار اتخذ شكل الدولة القومية والحكومة الوطنية وجدير بنا ان نلاحظ هنا تحقيقا لهدفنا من هذا التحليل الذي نقوم به الان ، ان الحكومة الوطنية في الدولة القومية هي ثمرة هذه العملية التطورية لا بدايتها .

ولم تقع في المجتمع الاسلامي ولا في المجتمعات الأفريقية الآسيوية الى حد ما عملية مماثلة من هذا النوع . وفي وسعنا ان نرسم صورة المجتمع العربي - الاسلامي على النحو الذي كان فيه قبل أن يتأثر باشعاعات الغرب في القرن التاسع عشر على النحو التالي :

« ١ - كان الفرد في هذا المجتمع يعي تمام الوعي أنه عضو في الأمة أو في المجتمع الاسلامي الذي سظم شريعته طريقه سلوكه ، كما تحدد له الخطأ والصواب ، طبعا لعمق عقيدته ، ولتقبله أحكام العلماء . ولا يختلف هذا التعريف بالنسبة الى المجتمعات المسيحية المستقلة استقلالا ذاتيا والموجودة في الوطن العربي .

« ٢ - ظل نشاط الفرد في المجالات السياسية والاقتصادية محصورا في حدود جماعته الاجتماعية المباشرة والجهة التي ينتمي اليها سواء أكانت قبيلة تعيش في الصحراء ، أم جماعة تعمل في الزراعة ولكنها منظمه قبليا ، أو نقابه مهنية مدينية ، أو اتحاد أو اخوة صوفية .

« ٣ - وبدأت السلطة المركزية أو سلطة « الدولة » كمنظمة ازدواجية تجمع بين السلطتين الروحية والزمنية ، وتتولى المهام العسكرية والسياسية والاقتصادية المشتركة للامبراطورية العربية الاسلامية . وظلت هذه السلطة المركزية المستودع الأمين للاسلام . ولكن لما كان الاسلام لم يحل مشكلة « الخلافة » حلا واضحا ، فان « الدولة » غدت فريسة للمنازعات بين السلالات المتنافسة . وقد تعرض زعماء المسلمين الدينيون لهذا الصراع مما أدى الى أنهم باتوا غير قادرين على فرض سلطة سياسية مركزية . كما لم يستطيعوا عزل أنفسهم عنه لخلق طبقة وراثية حاكمة ، ولم يجدوا من يرغمهم على عزل أنفسهم عنه أو على حل الخلافات العقائدية بالنسبة الى الأمة كلها

« ٤ - وهبطت منزلة الزعامات الدينية في ظل السيادة العثمانية التي بدأت في القرن التاسع عشر الى القيام بدور الوساطة بين السلطة السياسية للامبراطورية القائمة في أيدي الخلفاء المسلمين ، وبين التوترات الداخلية التي تخلفها الشيع المختفة . وتدهورت قيمة الجماعات الصوفية . وسار الحكم في الولايات العربية العثمانية على أسس اقطاعية قريبا ، ولم يندمج اهلها لا سياسيا ولا اقتصاديا في أي كيان للدولة الامبراطورية .

« ٥ - وهكذا حرم الفرد من أي رمز حافظ له يقوم على رأس مجتمعه الديني وظلت الدولة التي كان عليه يدين لسلطانها الزمته بالولاء أو كان عليه أن يثور عليها اذا لم يكن راضيا عنها تحمل في نظره طابع الطغيان وتقع بعيدة عنه في أعمالها السياسية -الاقتصادية وظلت هذه السلطة في شكلها الحلافي البعيد غير العربي في القسطنطينية ، تمثل له رمزا يحيره ويذهله .

كانت هذه هي الاسس الاجتماعية القائمة ، عندما لقت المفاهيم الغربية عن الدولة القومية العثمانية ، بما فيها من حكم منظم ومن تقدم ومن عقيدة عن الشخصية القومية ، بثقلها على جمهرة من الفئة العربية المثقفة في القرن التاسع عشر . وهنا لابد من التحديد والايضاح ، فبينما قام عثمانيو القرن التاسع عشر ، وأسرة محمد علي في مصر ، باقتباس خصائص الدولة الحديثة الاجرائية والتكوينية ، وراحت أقلية من المفكرين المثقفين تبحث عن الطريقة اللازمة لاقتباس ما وراء هذه الدولة العقائدية ، هي مفهوم القومية . ولكن الجماهير الطاغية من العرب ظلت تعيش في أوضاع من الشك والعجز والفقر ، وفي حالة من الخواء الاجتماعي العميق ، بعيدا في الريف . وظلت العقيدة الدينية متراخية في استجابتها للآثار الغربية العقلية . واذا كانت بعض تعاليم المصلحين العظام الحديثة الداعية للتجديد والبحث قد توصلت الى التأثير على جماهير العرب المسلمين ، فان وصولها لم يتم على الطريقة التي يعرفها الغرب عن تعاليم الكنيسة اذ لا نظام يشبه النظام الكهنوتي في الاسلام . ولكن هذه التعاليم لم تخلق أية روابط اجتماعية جديدة ملء الفراغ . واحتفظ العلماء المحليون بسلطانهم رغم هذا التجديد في التعاليم .

واذا شئنا التعميم قلنا ان مفهوم الدولة القومية وأعمالها وصل الى المجتمع العربي في القرنين التاسع عشر والعشرين عن طريقة القمة في هرمه الاجتماعي . ويمكن القول أيضا بالنسبة الى المدى الذي يقوم فيه تنظيم اقتصادي مركزي ، أن هذا المفهوم من الناحية الاقتصادية قد فرض أيضا فرضا على المجتمع من عل . وهكذا يتضح الفرق بين هذا الوضع وبين تطور المجتمع الديموقراطي العربي ، الحدث في نواح عدة . ولعل أبرز مثل على ذلك هو أن حكومة الدولة القومية قد أقيمت في المجتمع العربي ، دون أن يكون لها تقاليد حية من الحكومات الذاتية . المحلية ، وان نظام الحكومة المركزية قد نشأ دون أي نمو يصاحبه في هيئات الحكم المحلي ، البلدية والقروية ، ولا نستطيع الغلو

في تأكيد هذه النقطة ، ففي نظم الحكم التي عرفها الوطن العربي في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين كان الحدام الدين تعينهم الحكومة المركزية او المجالس التي يختار هي اعضاءها من النبداء الارباء يقومون بالاعمال الادارية التي يتوجب اجراؤها على المستويات المحلية، كما يقوم بها ايضا موظفو الحكومة المركزية وشرطتها وعسكريوها ، والشيخ او كبار الملاك الذين تنتدبهم هي . ولم يكن هناك عند العرب ما يماثل المجالس البلدية او القروية الانكليزية التي عرفت منذ قرون او الهيات البلدية الامريكية .

ووسعت الدولة من نفوذها مع تطور التنظيم السياسي والاقتصادي والتعليمي . ولكن البرلمانات التي خلقت مع هذا التطور ظلت تضم « ممثلين » عن الاعنابية الساحقة من أبناء الريف العربي . ينتمون الى الطبقات التقليدية من صاحبات السلطة او من محدثي النعمة من ارباب المال والتجارة . وكان جل هؤلاء في مصر مثلاً من كبار ملاكي الارض . والتجار ، وكبار ارباب الصناعة المحدثين . اما في العراق ، فقد سيطرت على برلماناته المتعاقبة ، طبقة شيوخ القبائل ، الذين وسعت ساططهم ضمن اطرار التشريعات . الاقتصادية الجديدة التي ضمنت توزيع اراضي الدولة عليهم . وكانوا يعودون من بغداد بعد انتهاء الدورات البرلمانية الى مناطقهم في الارياف . وهي المناطق التي يحكمونها كشيوخ قبليين وكنبلاء اقطاعيين ، ولا يمثلونها تمثيلاً صحيحاً . ولم تكن الحكومة المركزية التنفيذية لتصل الى اوساط جماهير اهل الريف ، الا على شكل مراسيم وأوامر وغرامات وضرائب . ولم يكن من السهل في مثل هذه الاوضاع ان يجتذب المزارع العربي الى اسهام ذاتي الشعور في هيكل اجتماعي ، يزيد عن القرية التي يعيش فيها المجتمع البدوي الذي ينتمي اليه . اذا قدر للتعليم المجاني أن يصل اليه ، وحدث عرضاً أن تضمن هذا التعليم القواعد الاساسية في مسؤوليات التربية الوطنية وتبعاتها . فان هذا القروي لا يجد في محيطه المباشر اي تنظيم سياسي يستطيع عن طريقه تطبيق ما تعلمه من افكار . واذا حدث وتسربت اليه افكار الخلاص من الفقر ومن الدين ، وقد تسربت فعلاً ، فانه يجد نفسه لايزال محروماً من التنظيم الاقتصادي والطبقي الذي يستطيع عن طريقه التعبير عن مطالبه .

وفي هذا التركيب الاجتماعي ، قامت بين طبقتي الشعب السائدة الحاكمة ، والمسودة الفقيرة ، طبقة من الاقلية التي أخذ عددها في النمو ، تضم المثقفين الذين نميسل نحن في الغرب الى تسميتهم بالطبقة الوسطى على الرغم من ان هذا الابرار للتجربة الغربية قد ينطوي على شيء من التضليل . وقد انتشرت بين هذه الطبقة انتشاراً ينطوي على القلق ونفاد الصبر ، مفاهيم العدالة الاجتماعية والاقتصادية الحديثة المقتبسة من الغرب ، ومفاهيم الديمقراطية البرلمانية الصحيحة . ويمكن للانسان أن يقول. أن تسعة اشعار الشبان والشابات العرب ، الذين ولدوا بين عامي ١٩١٠ و ١٩٣٠ والذين هيأت لهم الظروف الحصول على تعليم ثانوي او تعليم عال ، قد تشبعوا بالمبادئ الغربية العامة عن الديمقراطية السياسية والاجتماعية . وعلى ضوء هذه الحقائق يتبين

ان الضباط الاحرار من أبناء هذه الاجيال الذين قاموا بثوراتهم ، انما كانوا يحملون نفس الافكار التى يحملها أبناء جيلهم من المثقفين المدنيين ، وقد بينا من قبل ان الافتراضات الغربية . عن انهم يمثلون طبقة « فاشيه » عسكريه ، خاطئة كل الخطأ ، على ضوء هذه الحقائق التى التى اوردتها .

ولم يكن عبد الناصر ، نسيجا وحده فى هذا الموضوع . فلقد كان فى عام ١٩٥٢ . المدافع الاول بين اخوانه الضباط الاحرار ، عن الراى المعاكس باعاده الديموقراطية البرلمانية فورا . وعندما رفض اخوانه الضباط من أعضاء مجلس قيادة الثورة فى نهاية يوليو عام ١٩٥٢ ، اعادة السلطان الى البرلمان . اسحب الرئيس من المجلس اذ كانت نتيجة لاقتراح سبعة مقابل واحد . وراح زملاؤه يفكرون فى اليومين التاليين فيما يفعلونه ، وما فتشوا أن استدعوه وأعلنوه بموافقتهم له على ما يراه . . . واقترح عبد الناصر تكليف حزب الوفد بالحكم مقابل شرط واحد وهو أن يسن قانونا للاصلاح الزراعى ، فرفض الوفد هذا الشرط . وهكذا أحسن عبد الناصر لأول مرة بخيبة الامل ، ومضى مجلس الثورة يصدر قانونا بمرسوم ينص على الاصلاح الزراعى ، فى مطلع شهر أغسطس كما أصدر قرارا آخر باشروع فى التحقيقات اللازمة حول نزاهة الحكم فى جميع الاحزاب السياسية .

ولكن عبد الناصر واخوانه لم يكونوا يفكرون بالاحتفاظ بالحكم السياسى بصورة دائمة . وكانوا يعتقدون أن البلاد بحاجة قبل كل شىء الى ازالة مالمملكية من ثروة خاصة وسلطان ، والى ازالة ما للاقطاعيين والتجار الفاسدين من نفوذ ، والى فرض الاصلاح الزراعى وتوزيع الارض على مستحقيها . وكانوا يتوقعون أنه بعد تنفيذ هذه الخطوات الاصلاحية الجديدة ستقوم قئات من الساسة المدنيين من غير ذوى المصالح الذاتية ومن ذوى العقول الاصلاحية النيرة بممارسة الحكم البرلماني . وكان ايمانهم بما فى الديموقراطية الحزبية من صلاح طبيعى للعمل . لا يزال قويا الى الحد الذى دفعهم الى الاعتقاد بأن دورهم لا يعدو تطهير مجتمعهم الفاسد مما فيه من أدران وجراثيم . وكان الرئيس عبد الناصر لا يزال يقول علنا وجهارا فى عام ١٩٥٤ ، طبقا لايمانه الشخصى فى كتابه فلسفة الثورة . .

« وأما دورنا فهو دور الحراس فقط ، لا يزيد ولا ينقص . . الحراس لمدة معينة بالذات موثوقة بأجل ، .

ووصف مهمة الضباط الاحرار بأنها تجميع « قافلة هاجمها اللصوص وقطاع الطرق ، فتفرقت ، ومضت كل جماعة منها فى طريق ثم قال . . .

« وما أشبه مهمتنا فى هذا الوضع بدور النى يمضى فيجمع الشاردين والتائهين ليضعهم على الطريق الصحيح ثم يتركهم يواصلون السير . .

واعتقد الفريق ايوب خان فى الباكستان عام ١٩٥٨ ، ان فى وسع

الجيش أن يترك الحكم لجهاز الموظفين ، ولكن سرعان ما تبين له أن الفساد قد استشرى أيضا بين الموظفين إلى حد كبير . وفي مصر بدأ عبد الناصر ورفاقه يتساءلون يوما بعد آخر ، عن الطريقة التي يمكن بها أن يعود الحكم إلى أيدي المدنيين . وقد نما الشك في إمكان تحقيق ذلك في عضون مرحلتين ، أولا هما مرحلة الشك المتزايد في إمكان العثور على قوة سياسية : متحدة ومستقرة ومتحررة إلى حد معقول من المصالح الاقتصادية الخاصة ، وغير خاضعة للسيطرة الإخوان المسلمين أو الشيوعيين . أما المرحلة الثانية ، فقد وقعت في مطلع عام ١٩٥٧ ، عندما بدأ الشك في امدان تطبيق الديمقراطية الحزبية على النظام الغربي في مصر تطبيقا أصيلا يضمن تمثيل جماهير الفلاحين التي تنقذ سبعين في المائة من السكان وتضمن خلاصهم من الاستغلال .

وقبل أن تنتقل إلى بحث ما تنطوي عليه هذه الشكوك من مغاز سياسية خطيرة . أرى لزاما علينا أن ندون بعض المشكلات الاجتماعية ، والاقتصادية التي تواجه الراغبين في أن يغدوا من الاشتراكيين الديموقراطيين في الوطن العربي . ومن بين الاتجاهات التي كثيرا ما اوغرت صدور الاشتراكيين الغربيين قيام دعاة الإصلاح من الأفريقيين الآسيويين باغداق الوعود بأنهم عندما يصلون إلى الحكم سيقومون بإعادة توزيع الثروات والأراضي ، فإذا ما وصلوا إليه فشلوا في توزيع شيء ، أو إذا ما قاموا بتنفيذ أية إصلاحات فإنها تكون من النوع المعتدل ، الذي يشير إلى ميولهم في إدارة حماسه الجماهير بدلا من أن يشير إلى عقيدة راسخة لديهم . فهم لا يقدمون على أي إصلاح زراعي إلا من النوع الجزئي ، ولا يكادون يمسون أنظمة الضرائب التي وجدوها عند وصولهم إلى الحكم . ويبدو هؤلاء المصلحون خائفين أو غير راغبين في سن أية قوانين تمس الطبقات الثرية من أنباء المدن ، لمنفعة الجماهير . وقد حافظت الطبقة الوسطى في المدن على مستوى معيشتها المرتفع نسبيا ، وبدأت قادرة على المضى في استهلاك السلع الكمالية التي تستخدمها الطبقات العالية والتي يجب استيرادها مبددة في ذلك الارصدة الثمينة من النقد الأجنبي .

وتقوم وراء هذه الإيماءات ، مشاكل عميقة ، تشير بوضوح أيضا إلى الفروق الجوهرية الهائلة القائمة بين الأوضاع الآسيوية - الأفريقية والأوضاع العربية . وظهرت الحركات الإصلاحية والعهد الثورية في هذه البلاد تحمل طابع « الطبقات الوسطى » ، إذ أن القائمين عليها ، كانوا يجدون استحالة في أداء أي من الخطوات البارزة التي يعتبرها الاشتراكي الغربي ضرورة أوتوماتيكية رتيبة بالنيابة عن جماهير الطبقة العاملة « البروليتارية » . وإذا ظلت الأسباب التي تقوم وراء هذه المواقف غير مفهومة ، فإن الحوار الدائم بين الإنسان الغربي والإنسان الأفريقي - الآسيوي يظل مفتقرا إلى الواقعية .

فالطبقة العمالية العربية ، التي تؤلف خمسة وسبعين في المائة أو يزيد من مجموع سكان البلاد ، ليست طبقة من أهل المدن أو من الفئات المثقفة أو المنظمة أو التي تعمل في الصناعة . إنها طبقة ريفية تعمل في

الزراعة جاهلة لا تعرف القراءة والكتابة ، محدودة في آفاقها السياسية والاجتماعية (١) وقد اخذ نموها الاجتماعي القديم في الانهيار ، وسن لم يعم حتى الآن أي بنيان دينامي جديد يحل محل البنيان القديم . وما زال الفلاح يعيش في حانه من الجمود في دلت اخواء الاجتماعى الذى نجم عن أوضاع التأثيرات الغربية السابقة والتي شرحتها في فصل سابق . ولقد باب الفلاح على وعى متزايد بإمكان التبدل ، وبأن ليس من الضروري أن يموت الاطفال الرضع ، وأن فى الامكان القيام باجراءات غريبة فى الحفل الزراعى لزيادة الحصول . ولكنه لا يملك من العلم ومن التقنية ، حتى فى أبسط أشكالها ما يضمن له القيام بالاصلاح اللازم بنفسه . وهو مدرك أيضا بشيء من الاعتزاز وبكثير من الحماسة للنظرية القومية بمفاهيمها الواسعة ، عن وجوب الخلاص من المحتل الاجنبى . ولكن مفهومه عن دوره لا يتعدى ، وهذا أمر مهم بل فى غاية الاهمية ، حدود التابع للبطل ، وهذا البطل هو جمال عبد الناصر . ولكنه لا يستطيع من الناحية الايجابية ومن ناحية التفهم ، أن يربط بين بطله « جمال » وبين المفهوم الواقعى عن « حكومة الدولة القومية التى يعتبر نفسه مواطنا فيها عليه واجباته وله حقوقه » . فعلى النقيض من ذلك ، يميل الفلاح فى هذه المرحلة الحالية من مراحل تطوره الاجتماعى ، الى مقاومة الفكرة القائلة بأن « بطله » هو « الحكومة » لان الحكومة تحمل الى ذهنه ذكريات ذلك الرجل الذى يصل الى قريته ليصدر الاوامر ويفرض الغرامات ويحبى الضرائب والاتاوات . ولم تكن للفلاح أيضا تنظيمات سياسية أو اقتصادية ، ولا يحمل فراغه الاجتماعى أيا من هذه النواحي ، ولم تعمل الاحزاب القديمة على تشجيع اقامة الخلايا القروية عنده ، لان السلطات المحلية التقليدية عنده من شيوخ وعمد وعلماء تعارض وجودها .

وإذا كان هذا أحد الفروق الجوهرية بين الوضع هناك وبين العناصر الجذرية فى الديمقراطية الاشتراكية الغربية ، فإن هناك فروقا أخرى أيضا . ويعتمد العمل فى مجتمع الدولة العربية ، فى حالة وجود أى تنظيم فيه على الاقلية المثقفة التى نسميها بالطبقة الوسطى والتى يود مناضلوها الشبان سواء أكانوا من المدنيين أم العسكريين أن ينفذوا الديمقراطية الاشتراكية فى بلادهم . وقد ألقت غالبية هذه الفئة طرازا معيناً من الحياة ذا مستوى خاص ، وهم على أى حال من البشر . ويكتفى المصلح بنزع ملكية الثروة الأرضية من الفئة المختارة القديمة ، لكن هذا الاجراء يثير المشكلة الحقيقية ، التى تتلخص فى سؤال واحد ، وهو الى أى حد متطرف يمكن تغيير نظام فى مثل المجتمع الذى يبرز فيه الثراء الصارخ المفرط ؟ وما هى يا ترى الاجراءات المعقولة ، والاجراءات التى يمكن تنفيذها ؟

(١) لعل الاستثناء الوحيد الظاهر لهذا الوضع يقوم فى تونس ، حيث توصلت خلايا حزب الدستور الجديد الذى أقامه أبو زقيبه الى فئات الطبقة العمالية فى كل قرية . ولكن هناك عاملاً خاصاً سرعان ما يبرز ، وهو أن ثلث السكان من أهل المدن وأن التنظيم النقابى متقدم تقديماً غير عادى .

وإذا كانت إدارة البلاد كلها تتركز في أيدي قلة صغيرة تعودت أن تعيش في مستوى أرفع من ذاك الذي تعيش فيه الكثرة ، فهل تؤدي الأرباح الناجمة عن أعاده توزيع شيء من ثرواتهم إلى موازنة الخسائر ، وقد تطلب هذا النوع من الثروة الاشتراكية على أي حال حيوية متحمسة من بلاد جديدة طليعية لا من مجتمعات قديمة تؤلفها التقاليد وتربطها .
وإذا كان من الصعب توليد هذا انطراز من الروحية بين الجماهير ، فهل من الحكمة أن نهدم ذلك الطراز من الروحية، التي تسيطر على الأقلية ؟ ولكن هل يمكن الإبقاء على ثروتها الكبيرة نسبيا سليمة لا تمس ، لا في حدود الحاجات المالية ولا في حدود السخط الشعبي المتزايد ؟

هذه هي بعض المشاكل القاسية التي كانت تنف وراء القرارات الخطيرة، التي اتخذتها حكومة عبد الناصر، في البرامج الاشتراكية العربية والتي أعلنها عام ١٩٦١ ، ولا ريب في أن مشاكل مماثلة لها تواجه كل حكومة افريقية آسيوية . ولا ريب في أن الحد الأعلى للدخل الذي حدد بخمسة آلاف جنيه في بلد كمصر - التي لا يتعدى متوسط الدخل الفردي فيها الخمسين جنيها في السنة - يعتبر مبالغا ضخما ، ومع ذلك فإن تقبله يتطلب ثورة نفسية في أوساط أقلية « الطبقة الوسطى » . وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار مشكلة تزايد السكان في البلاد بشكل ضخيم، مع بقاء الأرض محدودة لا تزيد ، فإن تخفيض الحد الأعلى للملكية الأرض من مائة فدان إلى مائة فدان يبدو شيئا حتميا ، ومع ذلك فإن الأقلية من الطبقة الثرية قد لا ترضى به .

وأخذ قادة الشعوب الافريقية - الآسيوية المناضلون ، يواجهون بصورة متزايدة ، موضوع ما إذا كانت الإصلاحات التي هي من هذا النوع يمكن أن تصدر على شكل قوانين تقرها برلمانات ، تسيطر عليها « الطبقات الوسطى » . ولكن المشكلة لم تكن أهون بالنسبة إلى أي حكم مركزي ، وكان على عبد الناصر أن يتكلم على هذه الطبقة تماما كما يتكلم عليها نهرو في الهند . وكانت المشكلة بالنسبة إلى الحكامين ، في موضوع إعادة توزيع الأرض هي : هل يمكن العثور على عدد كاف من رجال الشرطة النزيهين، الذين يستطيعون تنفيذ مثل هذه الاجراءات ؟

وعدم النزاهة تعبير لا معنى له تقريبا في الأوضاع التي يسودها الفقر المدقع ، ولقد كان يسود الغرب في يوم ما . وقد تشتت هذه الظاهرة في المجتمعات التي يرتفع فيها عدد أفراد الأسرة الواحدة إلى المئات ، إذ أن الالتزامات العائلية على الذين لديهم شيء ما بالنسبة إلى أولئك الذين لا يملكون شيئا تكون كبيرة، ومن هنا يشتد الضغط على موضوع النزاهة إلى حد مخيف . فالموظف ينشأ على التقاليد القائما، بأن عليه أن يخدم القوت للفقراء من أبناء عمومته . فإذا وجدت وظيفة خالية ، فكر أول ما فكر في إعطائها إلى ابن عم له دون أن يكون للكفاية أي وزن . ومن هنا ينشأ الضعف في الجهاز الإداري من ناحية ، ويكون التجاهل للقانون كجهاز للخير العام من الناحية الأخرى .

وليست هذه إلا بعض الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي حفرت

على انارة الكثير من الشكوك فى الدنيا الافريقية الآسيوية فيما اذا كانت الديموقراطية السياسية الغربية التى تقوم على نظام الاحزاب صالحة على الاطلاق لهذه البلاد . ولا تدون هذه « البدع » التوظيفية « على حد ما يوجهه أى مفكر غربى حر أو مثقف افريقى - آسيوى نفاذ غريبه ، من تسمية لهذا الوضع . شيئا يعتبر فسادا ، أو حكما متسلطا فى أى بلد من البلاد ، فهى تركز من ناحية على الاشكال السياسية الغربية الصورية ، ومن الناحية الاخرى ، على الجهد المضمنى فى المحاولات الواقعية لايجاد مجتمعات أفرو - آسيوية تتواءم فيها العناصر الاولى التى تركز عليها الديموقراطية الغربية نفسها ، وقد يؤدى الشك بالطبع الى اذاحة الفرص لبعض النصابين بالعظام من الافراد ، للتعبير فى السياسات العامة التى يتبنونها ، عن الافتراض ، بأن فى وسعهم أن يحكموا ويقودوا بشكل افضل بسبب الافتقار الى نظام أخير . ولكننى أرى أنه من الخطأ بالنسبة الى الغرب أن نعتبر كل من يحمل هذا الرأى فى الدنيا الافريقية ، الآسيوية ، مصابا بشهوة الحكم . فأنا اعتقد أن مثل هذا التفكير يصدر أيضا وبصورة طاغية عن قادة يؤمنون ايمانا قاطعا بأن الحكومة يجب أن « تنبثق من الشعب » وأن يتولاها « رجال من الشعب » لتعمل فى سبيل « خير الشعب » ، ولكنهم لا يجدون فى الاوضاع الاجتماعية الراهنة فى بلادهم ، أى وجه شبه مع المجتمع الغربى ، الذى نبئت فيه هذه العقيدة مصورة فى منظمات تنبض بالحياة .

وأرى لزاما على قبل أن نعرض ما فى هذا القول من شرعية على محك التجربة ، أن ندون عاملا آخر فى الوطن العربى ، وهو عامل الضغط الاجنبى والتصادم بين سياسات القوة وبين التطلع العربى للإصلاح الاجتماعى . ولم تمر سنة واحدة طيلة الأربعين سنة الماضية ، لم نتعرض فيها أى بلاد عربية ، للمناورات التى تقوم بها دولة أو أكثر من الدول الكبرى ، عن طريق ذوى المكانة العالية فى تلك البلاد أو عن طريق مجموعات من الساسة من ذوى النفوذ أو الاحزاب السياسية . ولقد لاحظنا من قبل أن الضغط الغربى كان أكثر مباشرة ، ويتخذ أشكالا تتراوح بين الضغط الاقتصادى ، وبين الدبلوماسية التى تفرضها « البوارج الحربية » ، فالهجوم المباشر الواضح . وأنا لا أرى أن هناك جزءا آخر من الدنيا الافريقية - الآسيوية قد تعرض لمثل هذا الضغط الخارجى المستمر الذى تعرضت له أرجاء الوطن العربى . وسواء أكان هذا الضغط فى أى وقت من الاوقات واقعا أم خياليا ، وسواء أكان أحيانا وسيلة لتبرير الحكم الفردى ، فإن الحقيقة الواقعة تظل ماثلة ، وهى أن مثل هذا الضغط الخارجى وحده سبب كاف لجعل قيام الديموقراطية الحية الاصلية أمرا يشبه الاعجوبة أو المعجزة . وقد بات الاتحاد السوفياتى الآن يمارس هذا الضغط ممارسة كاملة . وبات لزاما على الدول الغربية الكبرى الثلاث أن تضع سياسات واضحة تجاه المنطقة وأن تقيم علاقاتها معها على أسس غير الضغط والتآمر والتناور ، والا فإن الغرب نفسه سيسهم اسهاما فعالا فى قيام أشكال الحكم الفردى التى يشكو هو من وجودها .

وهناك أسباب جوهرية أخرى تبعت على هذا الشك فى الديموقراطية

القائمة على نظام الاحزاب . فالنظام البرلماني المستند الى الانتخابات التي تجري من حين الى حين يفترض وجود المستلزمات التالية :

١ - أن تكون هناك أغلبية من المقترعين قادرة على تقرير مواقفها في السياسات القومية المختلفة التي تعرضها الاحزاب السياسية على ناخبها بعد استثناء القواعد الثلاث التي تتفق عليها جميع الاحزاب وهي التحرر الوطني والحياد والوحدة .

لكن التجارب الماضية وحتى النقدرات المنبثقة عن العطف، على الاوضاع الاجتماعية الراهنة والمستويات التعليمية بالنسبة لجماهير الفلاحين العرب ، لا توحى بأن هذا الوضع متوافر وقائم .

٢ - أن تؤلف الاحزاب السياسية على أساس التقاليد السائدة بوجه عام ، والفروق القائمة في الدخل والطبقة ، والتباينات الواضحة بين السياسات الوطنية المنبثقة من هذه الموارد .

ولكن ليست هناك تقاليد حزبية سياسية في الوطن العربي تشبه من قريب أو بعيد تقاليد المحافظين والعمال في بريطانيا أو تقاليد الجمهوريين والديموقراطيين في الولايات المتحدة . وليس ثمة شك في ان احزاب التي يقوم على الاسس الطبقيّة العربية الراهنة ، تكون ممثلة . كما يفترض للطبقة الفقيرة التي تؤلف جماهير الشعب من ناحية والطبقة الوسطى الصغيرة من الناحية الثانية، وهما طبقتان تتصارعان وتتصادمان طبقيا في موضوع الفقر القومي . والخلاف في السياسات بالنسبة الى المرحلة الراهنة من التطور الاقتصادي، ضئيل جدا الى الحد الذي يجعل من الاحزاب السياسية في الدنيا الافريقية - الآسيوية، اذا استثنينا البعض منها، غير ممثلة في الواقع لاية قضايا تتطلب من المقترعين أن يختاروا .

٣ - أن يقوم هناك توازن كاف في السلطان الاقتصادي والعرض ، والدينامية الاجتماعية ، والقيادة السياسية النيرة ، بين مختلف قطاعات الناخبين ، بحيث تدور المنافسات الطبيعية على الحكم ، الذي قضى به الديموقراطية الحزبية في حو من احترام القانون ، وتفوق رأي الاغلبية في الاقتراع . وحرية الاجتماع والدعاية الانتخابية .

ولكن ما يتميز به الفلاحون العرب من جمود وامية وخواء اجتماعي ، وما يظهر منهم من اندفاع في تيار انتقال الفائض من العمال الى المدن والبلدان الصغيرة ، مشاكل تجعل من العسير وجود هذا التوازن بين عشية وضحاها . وينتج عن هذا أن تكون الاقلية الصغيرة المثقفة هي التي تتولى تأليف الاحزاب السياسية العربية وتوجيهها وقيادتها والتأثير عليها الى حد كبير جدا في الدعايات الانتخابية .

٤ - أن توزع أعمال الرأى التمثيلي فى الحاجات الملموسة والقضايا العامة ، عن طريق التدرج فى جهاز الدولة القومية ، وهذا يعنى أن يقوم التوازن بين الجهاز الممثل للبلاد على صعيدها العام فى مناقشاته وتقرير سياسته وبين أنظمة الحكم المحلى الممثلة فى البلاد والمجالس القروية .

ولكن سبق لى أن قلت ان دساتر السلاسل العربية ومنظمات القومية ، قد صيغت لأوضاع مجتمعات عربية لا تقاليد لها فى الحكم الدستورى، ولم يسبق لها أن مارست أنظمة الحكم المحلى الذاتى .

هذه أربعة من المستلزمات الجوهرية التى تتطلبها الديمقراطية الغربية الحزبية لتكون قواعد لها ووسائل لتطبيقها . وإذا ما طبقنا هذه المستلزمات على الأوضاع فى الوطن العربى فى ظرفه الراهنة ، فمن لنا حقل ما فى الافتراض بأن « الديمقراطية » على النحو الذى يفهمه الغرب ، يمكن أن تعيش وتزدهر بين العرب ، وقد قام المؤلف بتعميم هذه المشاكل فى البنود السابقة ، وأن كانت قوتها وضعفها تختلفان بين بلد وآخر . ولكن هذه هى الوقائع بكل تأكيد ، التى حاول الغائبون أن يعرضوا عن طريقها اعتقادهم المتحمس بأن هذا الشكل من أشكال الديمقراطية يمكن تحقيقه بوجه عام .

ويصل المفكرون العرب ، ومعهم معظم المفكرين الأفريقيين - الآسيويين شيئاً فشيئاً الى استنتاج جوهرى ، وهو أن حكومات الأحزاب السياسية كانت ولا تزال وستظل « ديمقراطية زائفة » حتى تتوافر للمجاهير العربية الحوافز والوشائج العقائدية اللازمة التى تربطها بفكرة الدولة القومية ، وحتى تنهيا لها سبل التعليم والسلطان - الاقتصادى التى تمكنها من الشروع فى تمثيل نفسها . وهم يشعرون ، أنه ما لم تتوافر هذه الشروط فإن حكومات الأحزاب السياسية تخلق خطر البطء فى تنفيذ الإصلاحات الأساسية ، كما تخلق العقبات فى طرأ برامج الانماء والتطور ، التى لا يتناولها على أى حال ، أى مجال أساسى للخيار ، وتسبب أوضاع المحسوبية فى الحصول على الوظائف والدعايات الانتخابية على أسس رجعية من قلية أو طائفة ، أو ما شابه ذلك . وعن طريق وجوه البلاد المحليين المعترف بهم كالأقطاعيين والشيوخ والعلماء الذين تتعارض مصالحهم تمام التعارض مع تحرر الفلاح من الرق والجهل .

وتنشق عن هذه الشكوك ثلاث فكر إيجابية تهدف الى خلق « طريق رابعة » بالإضافة الى الطرق الثلاث المعروفة ، وهى الديمقراطية الغربية ، والجماعية الدكتاتورية ، والشيوعية . أما الفكرة الأولى فتقول : أن العيوب الثابتة التى نجمت عن وضع السلطة التنفيذية (الوزارة) تحت رحمة البرلمان القائم على الأساس الحزبى ، قد أدت - مع ما يصاحبها من الاتجاه القومى للعشور على القيادة القومية المهمة فى أوساط الجماهير - الى النزعة الى قيام سلطة تنفيذية ينتخبها الشعب لفترة مقرر ، ولا يكون للبرلمان السلطة على الإطاحة بها . ولا ريب فى أن هذا الاتجاه هو الذى يسيطر على جميع البلاد التى تمتعت فيها أحزاب التحرر الوطنى بعد الاستقلال ، كمصر والمغرب والباكستان وبورما واندونيسيا .

وتقضى الفكرة الثانية بالتأكيد على ضرورة تأمين التمثيل المحلي
أرلا لجماهير أبناء الريف عن طريق أجهزة ، يتناقشون فيها ويتحملون
مسئولياتهم ، ويتدربون فيها على الديمقراطية الصحيحة ويكتسبون
الاحساس بالاسهام كأفراد في مجتمعات أكبر من المجتمع المباشر الذي
ينتمون إليه كالقرية أو الاسرة أو العشيرة . وقد هدف الرئيس
عبد الناصر عن طريق الاتحاد القومي « وعن طريق الاتحاد
الاشتراكي العربي الجديد) ، الذي يقوم على أساس الانتخابات الشعبية
للجان المحلية ، الى تحقيق هذه الغاية ، وقد أقر الرئيس صراحة
في عام ١٩٦١ ، بوجود بعض الاخطاء في هذا التنظيم التي نجحت
عن الهوة بين الحكومة المركزية والقرية ، (وهي الاخطاء التي يتوخى
الاتحاد الاشتراكي العربي اصلاحها) . وقد شرعت الباكستان مؤخرا
في مثل هذا التنظيم الذي أطلقت عليه اسم «الديموقراطيات الأساسية» ،
ولكنه ما زال في مراحله الاختبارية الاولى ، وقد تكفل بالنجاح .

وتمثل الفكرة الثالثة ، وهي مهمة كل الاهمية ، مابتنا نشهده في
معظم الاقطار الافريقية الآسيوية في بعث العقيدة الاغريقية القديمة
المتكررة في « اجماع الراي » . وهذه الفكرة هي التي تقبع وراء التعبير
الذي بتنا نسمعه أكثر فأكثر في الاوساط السياسية العربية والافريقية
الآسيوية عن « الديمقراطية غير الحزبية » . ومن الامور البارزة مثلا
ان الزعيم الاشتراكي الهندي جايا براكاش نارايان ، تلميذ الفيلسوف
الهندي فينوبا بهاف ، استقبل استقبالا حارا في الشرق الاوسط أثناء
الرحلة التي طاف بها أرجاءه . وقد قضى نارايان - الذي نظم شكوكه
في صلاح الديمقراطية الغربية الطراز للهند وقدرتها على العمل في
أوضاعها الراهنة - نحسوا من اثنتي عشرة ساعة في أحاديث مع قادة
الاتحاد القومي في مصر . وعندما عاد نارايان الى الهند ، أعلن في تصريح
علني أفضى به في بومباي ، أنه يعتقد اعتقادا جازما بأن عبد الناصر ،
ديموقراطي مخلص في ديموقراطيته . واثارت آراء نارايان الاهتمام
الكبير في عراق الثورة ولا سيما عند زعماء حزب الاستقلال من أمثال
صديق شنشل .

وتتلخص زبدة هذه الفكرة في أن من الضروري في شعب يعتمد
تقدمه ورخاؤه ، على العمل والتضحية ، ويعيش حاليا في وضع يائس
من الفقر ، أن يكون في الامكان خلق « اجماع في الراي » علم كل مستوى
من مستويات الحكم من المحلي الى القومي ، دون الحاجة الى اية احزاب
سياسية . وشعر أصحابها أنه ليست هناك قضايا جوهرية «تجزىء»
الشعب ، وأنه لا يمكن السماح بتجزئة الشعب دون خلق الفوضى ، وأن
من الواجب العثور على وسائل جديدة ، لحشد رايه وراء الحكومة ، عن
طريق قيام « اتحاد قومي » متحرر من المنافسات بين الاحزاب العديدة .
وإذا كان الغربي يرى في هذه الفكرة شيئا من « ديكتاتورية الحزب
الواحد » ، فان شكوكه يجب أن تكبت ، فليس من قبيل الصدفة
أن يظهر تعبير « الاتحاد القومي » شيئا فشيئا في أسماء الاحزاب
الجديدة التي تظهر في الدنيا الافريقية - الآسيوية ، وفي أحداث
السياسة ، في هذه الدنيا الجديدة . ويعكس هذا التعبير لهفة مخلصة
لايجاد الحيوية الجماعية والتضحية بالذات الجماعية وللحد الجماعي

للإطماع الشخصية أو الطبقية . وهو ينشد بصورة خاصة أن تحدد الأقلية المتعلمة ، الأكثر رفاهة مادية والتي يحتم أن تتولى زمام القيادة لعدة سنوات قادمة على الأقل ، من حرصها على مصالحها الشخصية وهي تطالبهم كمواطنين بأن يكونوا على استعداد للعمل ضمن منظمة سياسية شاملة الى الوقت الذي يخلص فيه مواطنوهم في القرى من أوضاعهم الجامدة الراكدة ، ومن شقائهم ومن خوائهم الاجتماعي .

ولا ريب في أن هذه الفكرة رائعة كل الروعة . وقد ناشد غاندي المؤتمر الهندي بعد تحقيق الاستقلال ، عبنا ودون استجابة ، أن يتبنى هذا المفهوم وأن يطبقه في عمل من أعمال الإنكار الذاتي وروحيا وجماعيا . ويأمل نارايان في أن يحقق هذا النكران للذات عن طريق صناديق الاقتراع . ويحققه بورقية عن طريق السلطان الجماعي القوي لحركة حزب الدستور الجديد التي حققت الاستقلال وعن طريق اخفاق أية معارضة جديدة . ويمثل اتحاد تنجانيقا الأفريقي الوطني الذي أقامه جوليوس ناييري ، صورة ثانية من صور مفهوم الديمقراطية غير الحزبية وسيعرض لمحك التجربة بصورة كاملة عما قريب . وتحاول مصر والباكستان ، حيث كان النظام الحزبي قائما ، تطبيق هذه الفكرة عن طريق القانون . فالأحزاب ممنوعة في البلدين . وتنحصر مهمة المؤتمر العام للاتحاد القومي في الناحية الاستشارية ، مما يضع السلطة على عاتق الهيئة التنفيذية التي يتحتم عليها أن تظهر للنواب أن انتقاداتهم تلقى التقدير والعناية دون أن تكون مبعثا لخوف الجهاز التنفيذي . ويشير تكوين الاتحاد الى احتمال النجاح . فالنواب أعضاء في اللجان الإقليمية والمحلية ، التي تضم ممثلين عن لجان القرى والمدن . وعلى هذا يترتب أن تكون هناك طريقة سليمة في الربط بين القضايا المحلية والقضايا العامة ، لتمكن جماهير المواطنين من الحصول على ما هي في حاجة اليه من فهم لدورها على جميع المستويات .

وليست هذه الطريقة الا واحدة من طرق اختبارية أساسية عدة لتحقيق الديمقراطية التي تتجاوب مع الأوضاع السائدة في الوطن العربي . فهل يمكن لهذه الطريقة أو لاية طريقة أخرى ، تقوم على أساس اللاحزبية ، أن تحقق النجاح في عملها ؟ من الصعب علينا أن نصدر أحكاما جازمة متيسرة ، ولكن ثمة مخاطر ومتطلبات يجب إدراجها وإيضاحها .

تشارك هذه الانظمة كلها في شيء واحد ، وهو أنها تؤمن شيئا جديدا لجماهير الشعب في الوقت الذي تحد فيه من الحرية السياسية للأقلية أو ما نسميها في الغرب بالطبقة الوسطى المثقفة ثقافة غربية . ولا يمكن للفكرة أن تسير في طريق النجاح في قطاعي الشعب ، الا اذا تضمن تطبيقها العمل عدة عناصر . فاذا أخذنا جماهير الشعب البجاهلة التي تمر الآن - على حد تعبير الرئيس عبد الناصر - في مرحلة التمرس على الديمقراطية ، وهي المرحلة الجديدة والغريبة التي تتضمن اختيار الممثلين ، ومناقشة السياسة ، وممارسة الحوافز الفردية ، فان هذه الفكرة لا يمكن أن تعيش ويكون لها معنى ، الا اذا كانت مترابطة مع

المشاكل التي يستطيع الفلاح فهمها ومع الامور التي تتصل بحياته اليومية . ومن الواجب ان تظل « لجنة الاتحاد القومي » التي يشترك هو فيها ، على اتصال دائم ، ومسئولة بشكل متزايد عن عمليات التطوير المحلية كشق الطرق مثلاً ، والعناية بالصحة القروية وبناء المدارس ، واقامة التعاونيات الزراعية . ومن الواجب ان يكون للجان القروية ميزانياتها الخاصة التي تتولى الانفاق منها بمشورة الخبراء المختصين . ومن الواجب أيضاً عدم توفير أى جهد لدمج كافة اجراءات التمثيل السياسى والتنمية الاقتصادية ، والعناية بالرفاء الاجتماعى في تجربة متكاملة واحدة ومستمرة . فعن طريق المؤسسات اليومية التي يصطدم بها الفلاح في حياته ، يستطيع ان يدرك المكان الذي يحتله هو ويحتله صوته في الحياة القومية .

أما العنصر الثانى الذى لا يقل أهمية وحيوية في القطاع الشعبى ، فهو السرعة التي يتحقق فيها التقدم الاجتماعى والاقتصادى . ولقد قال لى الرئيس عبد الناصر ذات يوم . . . « ان الشعب يتوقع منا ان نقطع عصور البخار والكهرباء والزيت في ومضة عين لنجد أنفسنا على عتبة العصر الذرى ، وذلك لان الجماهير على الرغم من أن غالبيتها لاتقرأ ولا تكتب الا أنها تعرف عن طريق الاذاعة ، أن هذه المعجزات ممكنة ، وهي تريد ان نحققها في سرعة هائلة » . . . ويطلق القادة المعارضون بصلابة لشيوعية ، من أمثال عبد الناصر - عن طريق فتح القرى العربية أمام الحياة والفكر العصريين وأغراءاتها - قوى نفاد الصبر الجديدة من عقالها . وما لم تسر مجالات التقدم الاقتصادى على نحو مطابق في سرعته لذلك التطور ، شريطة أن يكون هذا التقدم حقيقياً ومعقولاً ، فان النتائج ستكون في منتهى الخطورة ، وقد يكون من المفارقات ، على الرغم مما فيها من صحة ، أن إحدى الدعامات المؤقتة الضخمة التي تستخدم حاجزاً ضد التحديات الشيوعية الرئيسية في الوطن العربى ، هي العزلة الجامدة التي تفرض على الفلاحين ، مع العلم بأن الزحف الشيوعى في العراق ، مثلاً ، لم يتم الا في المدن في البداية . ولا ريب في أن البحث عن الديموقراطية الاصلية ، سيسارع في انهيار هذه الدعامات . وسيتمثل الخط الفاصل في المستقبل بين لجنة قروية غير شيوعية من لجان الاتحاد القومى وبين كوميون شعبى قروى في شق طريق جديدة ، أو فتح عيادة قروية ، أو بناء قناة للرى في الوقت المناسب ، أو التأخر في القيام بمثل هذه الخطوات اللازمة ، مما يتيح المجال لانتشار الشيوعية .

وتتطلب هذه السببولة المتزايدة في المجتمع الريفى العربى ، المترابطة مع مشاكل الفقر والامية الاساسية ، المعونة الكبيرة من رءوس الاموال الاجنبية . وما لم تفهم الدول الغربية المتقدمة حرجاً هذه المشكلة المعينة بالنسبة الى افريقية وآسيا ، فستفقد ذات يوم . بعد سنوات طويلة من السفسطة العقيدية في اظهار مساوىء الافتقار الى الديموقراطية الغربية الطراز ، ومقارنته بهذا العبث من المطبوعات التافهة ، لنجد ان الوسيلة الممكنة الوحيدة لتحقيق مثلنا وأهدافنا ، قد هزمت هزيمة نهائية حتى قبل ان نتفهم هذه الحقيقة . وعلى الغرب ، والحالة هذه ، أن يقدم عونه بسرعة ووفرة ودون قيود أو شروط .

ولنستدر الآن الى قطاع الاقلية من الشعب ، لنرى ان هناك تحديات خطيرة مماثلة ومتعادلة بالنسبة الى الاصلاحيين والهرطقة الجدد من اهل البلاد الافريقية الآسيوية ، من ناحية ، وإلى الغرب من الناحية الاخرى . ولا يقل العربى من خريجي جامعات هارفرد وكمبريدج والسوريون وبيروت والقاهرة في عدم تفهمه للديموقراطية غير الحزبية وشكه فيها عن الليبرالى الغربى (١) . ولم يستطع دعاة هذه النظرية الاصلاحية المتطرفة حتى الآن أن يوضحوا نظريتهم هذه ايضا متلاحما ودقيقا وعميقا (٢) لأنها تتناقض مع كل مفهوم ومع كل سابقة في الكتب العلمية الموثوق بها عن الديموقراطية . ومن هنا تنشأ الشكوك والفوارق العاطفية عند الفئات المثقفة التى لا تقدر وطنيا بشئ . ويعتقد الكثيرون من أبناء هذه الفئات ان القادة ، من أمثال عبد الناصر ، مخلصون كل الاخلاص ، وهم يعجبون أشد الاعجاب بتجردهم الشخصى وتطهرهم المسكلى ، وقد وقفوا ، يدونهم طلبة الازمات الخارجية في حقبة الخمسين . ولكن هؤلاء الشبان والشابات الذى يتلقون احياءهم من الثقافة الغربية قد اقتسموا من الغرب العقيدة القائلة : أنهم بالنظر الى ثقافتهم ، وعلو كعبهم في الادراك يستحقون أن يتحملوا المسئوليات الديموقراطية كأوصياء على اخوانهم المواطنين الأميين . وهم يتململون من أية قيود قد تفرض على نشاطهم السياسى او الفكرى او الصحفى . وهم ينتظرون الايضاح ، في حدود التعابير التى يفهمونها لهذه العقائدية الجديدة التى تقوم وراء فكرة الديموقراطية غير الحزبية .

ومن هذا يبدو لى ، أن هناك اشتراطين أساسيين تماما لهذه التجربة الجديدة الخارجة على القواعد المألوفة ، يجب توافرها ، ولم

(١) أعتقد أن المؤلف قد أخطأ فى تعميم هذا الحكم ، فهناك المئات بل الالوف من خريجي الجامعات التى ذكرها ، الذين باتوا يؤمنون عن اقتناع ، بأن « الديموقراطية الزائفة » التى كانت متبعة في بعض أرجاء الوطن العربى ولا تزال متبعة في بعض أرجائه الاخرى ، عقبة كأداء في طريق التقدم الحضارى الصحيح ، وأن الديموقراطية الحزبية ضمن المفهوم الغربى لا تصلح لأوضاع الوطن العربى الراهنة ، لما تؤدى اليه من بقاء سيطرة طبقة واحدة هى طبقة الاقطاع ورأس المال المستغل على الحياة السياسية وبالتالي الحياة الاجتماعية في الوطن العربى . وقد آمن هؤلاء عن اقتناع بأن الديموقراطية غير الحزبية ، التى تعمل على تمثيل جماهير الشعب كلها ، على مختلف الصعدان هى الوسيلة الصحيحة لدفع عجلة التقدم الحضارى الى الامام بسرعة تتفق مع عصر الصاروخ شريطة توافر فرص النقد والنقد الذاتى اذا كانا من الطراز البناء ، وكانا صادرين عن وعى وفهم صحيحين للمسئوليات والتبعات الوطنية .

(٢) أصدر المؤلف كتابه قبل صدور الميثاق الوطنى الذى حدد فيه سيادة الرئيس عبد الناصر بوضوح وجلاء كل هذه النقاط التى يوردها المؤلف ، فكان بذلك النهج العقيدى لهذه المفاهيم الجديدة .

— العرب —

يتوافق اجمد . وأول هذين الاشتراطين ، أنه لما كان من المعروف ضمنا ، أن أى تنظيم حزبي أو نشاط سيحظران قانونا خارج نطاق « الاتحاد القومى » ، فإن من الضرورى خلق جو من الحرية والتحرر الفكرى فى الصحافة والطباعة والمناقشة والنشر ، يتيح للمثقفين العرب ، الحافز والمجال لبيان ما لديهم من افكار بناءة . ولن يكون فى امدان أى قدر من النيات على تحقيق الديمقراطية اخيرا ، أو أى قدر من اعلان هذه النيات ، أن يخلص حكومات « الانتقال » من الاقدام على خلق تجمد فكرى عن طريق الرقابة والخطر ، ومن الواجب ألا يعتبر هذا « الجوى من الحرية » امتيازاً أو تساهلاً . فعلى القادة من امثال عبد الناصر وهبوع وبورقيبة وأيوب خان وغيرهم ان يتبينوا ان الحيوية الفكرية عند الاقلية المثقفة هى رأسمال ضخم . فهى كنز لا يقدر بثمن ولا تقل خطورة كبتها مهما خلصت النيات عن خطورة السماح بالصراع الحزبى الفوضوى غير المقيد . ولكن على الغربين ألا يقلوا من صعوبات تأمين هذه « الاجواء الحرة » فى الاوضاع العربية الراهنة ، حيث لايزال القادة العرب يواجهون مشاكل ضخمة كمشكلة الصراع لتحقيق الوحدة العربية ، ومشكلة مواجهة التحدى الدينامى الجديد للشيوعية . ومع ذلك لا يستطيع أى من هؤلاء القادة احتمال مثل هذه الاجواء . واذا كان من المقرر ان تتوقف هذه الاقايمة المثقفة عن ممارسة عملها السياسى على المقاييس الغربية ، فلا بد أيضا ، أن يعتبر السماح لها بمقاييس تفكيرها وتنميتها ، امرا حكيما وعادلا .

اما الاشتراط الثانى ، وهو يتصل بالاول تمام الاتصال ، فيتناول العزلة غير المستحبة القائمة بين القادة القوميين وبين المثقفين من رجال ونساء ، الذين تعتبر طاقاتهم الفكرية وعبقرياتهم وحماسهم القومى ، واحساسهم بحاجة الوطن اليهم ، ارسدة وطنية ضخمة لا تقدر بثمن . وأرى من الضرورى أن يبذل كل جهد ، وأن يبتكر كل تنظيم ممكن لاشراكهم فى اعمال الحكم والقيادة والتوجيه والتخطيط السياسى . وأرى أن الحاجة تفوق مجرد الاكتفاء بالمشورة الظاهرة فى المنظمات الرسمية الاستشارية ، التى لا اعتبرها أكثر من مجرد صمام أمن . وانى أرى ان هناك كل ما يبرر الاستعانة بهم فى أكثر من مجرد العمل الرسمى ، وان يكونوا جزءا من الرسالة الوطنية . وليس لدى شك فى أنهم سيستجيبون استجابة دينامية ، اذ أن هذا هو ما يشدونه ، على ضوء أى تحليل ، وهو أن يشعروا بأنهم يستخدمون فى خدمة شعبهم وأن خدماتهم تختبر الى اقصى حدود الاختبار ، اذ أن تحقيق هذا الارضاء لمشاعرهم يفوق فى استهوائه لنفوسهم السماح لهم بتأليف الاجزاب السياسية . ولقد لمست هذا الشعور بالعزلة من رجال يمكن أن يكونوا موضع الثقة والاعجاب ، وهو شعور يجب ان يقهر .

ولقد كنت فى سردي لهذه الضرورات السالفة أشير بصفة خاصة الى الفئة المختارة من الطبقة المثقفة فى الوطن العربى . ولكن هناك طبقة اخرى ، وهى الطبقة المتزايدة عددا والتي تضم الشباب من ذوى التعليم الثانوى والمهنى الذين يحتاجون بدورهم الى طراز جديد من التوجيه . وهنا يتجه المرء بفكره بصورة خاصة الى فيالق الشباب التى يجند

أفرادها تجنيدا ديموقراطيا لأعمال التطوير الوطنى . وقد شرعت الجمهورية العربية المتحدة فى مثل هذا التنظيم الذى يسمى « بمنظمة رعاية الشباب » ، كما أقامت غانا تنظيما مماثلا أسمته « لواء البنائين » . ومن الواجب إيلاء هذه التنظيمات الكثير من العناية فى إدارتها مخافة أن يؤدى بعض الإهمال أو الانحراف إلى تحولها إلى منظمات شبه عسكرية للمجندين . لكن هدف هؤلاء الشباب يجب أن يظل ، تأليف فرق طليعية ريادية لعمل والخدمة الوطنية ، وتحويل الطاقات والاحاسيس التى كانت منصرفة حتى الآن إلى القضايا الوطنية الخارجية إلى اقية لبناء التطورات الداخلية المثمرة .

وللغرب فى هذا التطلع المانع والمعذب للعثور على طريق جديدة للديموقراطية الاصيلية فى البلاد العربية والافريقية الآسيوية ، دور آخر لا يقل أهمية عن الدور الذى سبق لى أن أشرت إليه وهو تقديم المعونة الاقتصادية والتقنية الضخمة . فعلى الغرب أن يظل الحارس الأمين لمفاهيم الحرية السياسية التى تسربت إلى هذه الشعوب (١) . ولا يعنى ظهور ما فى الأمل الليبرالى الغربى التقليدى من غرس هذه المفاهيم عند هذه الشعوب جنبا إلى جنب مع نقل الحرية السياسية إليها ، من تفاهة ، أن على الغرب أن يضعف من الدور الذى يجب أن يتولاه كحارس ومدافع بليغ الحجة عن هذه المفاهيم .

فمهمتنا الآن أكثر دقة وصعوبة . إذ علينا من الناحية الاولى أن نواصل الرقابة والتذكير والنصح بوجوب الاحتفاظ بالمثل الديموقراطية مخافة أن تنحصر هذه المفاهيم بصورة مبتسرة ، وعلينا من الناحية الثانية أن نعين ديموقراطىي الغد فى الدنيا الافريقية الآسيوية على قبول التحدى ، الذى لم نهيههم له أثناء مدة وصايتنا ، والذى لم نتهيا له تهيؤا كاملا . وفى وسع الغرب أن يقدم هذا العون عن طريق الوقوف موقفا أكثر تفهما وأقل سخرية من هذه التجربة السياسية التى تقدم فى هذه الدنيا الجديدة ، والتى لا تزال نسميها « هرطقة » بالنسبة لمفاهيمنا ، وأن يتمثل هذا العون فى مقالات وتعليقات ودودة تظهر فى الصحافة الغربية التى ما زال لها قراؤها من الافريقيين - الآسيويين . فهناك شعور متزايد فى هذه المنطقة كلها من السخط ونفاد الصبر تجاه ما يبدو للافريقيين الآسيويين بمظهر الفطرسة الثقافية الغربية المندفعة . وهم يرون هذه الفطرسة فى الادعاء بأن كل ما يمكن تعلمه عن الديموقراطية وعرضه وتطبيقه ، هو من منجزات الغرب ، وهو صالح للتطبيق فى كل

(١) قد يحمل هذا القول رغم ما فيه من تظاهر بالتححرر معنى دوام السيطرة الفكرية بعد زوال الاستعمارين السياسى والاقتصادى . لكن الشعوب الافريقية - الآسيوية التى تحررت وتود استكمال تحررها من كل قيود التبعية ، لا يمكن أن تقبل بالتبعية الفكرية . إذ أن فى وسعها أن تختار لنفسها ما يتفق مع أوضاعها من مفاهيم وعقائد دون تبعية أو تأثير .

— العرب —

مكان في العالم . ولكن ترى هل نحن نؤمن حقا بما نقول ؟ اني اشك في ذلك كل الشك . ومع ذلك فنحن نوحى للناس بأن هذا هو إيماننا .

وهناك ضرورة أخرى تقف وراء هذا العون المتمثل في تحديد المواقف ، وهي أن يواصل الغرب البحث على القيام بدراسات علمية أكاديمية جديدة لمشاكل الحرية والسياسة في هذه الدول القومية المتخلفة والناشئة . ولعل الدليل النافع على وجود الحاجة الى هذه الدراسات ، تقوم في أن المراجع أو الكتب التي توضع عن إعادة التفكير المتفتحة والجديّة في موضوع الديمقراطية على النحو الذي يمكن فيه تعهدها في خارج الغرب ، قليلة للغاية . ولقد التقيت بعدد من القادة الأفريقيين والآسيويين في مكاتبتهم التي تفص بالوقوف التي صفت فوقها عشرات المراجع الغربية وكتب الفلسفة السياسية ، وكانوا يشيرون بمنتهى الصدق والمنطق الى هذه الكتب قائلين - بشيء من اليأس .. « لم نعثر في كل هذه الكتب على ما يفيدنا نحن هنا فائدة عملية » .

ويمكن الغرب عن طريق تنقيح كتبه الجامعية ، وتخصيص المنح للدراسات الجامعية الأكاديمية على أسس جديدة ، أهمها أن أشكال الديمقراطية الدستورية والعلمية في الغرب ، قد لا تكون ملائمة للشعوب الأفريقية الآسيوية ، وعن طريق الاشراف على عقد المؤتمرات والحلقات الدراسية المتكررة مع المفكرين الأفرو - آسيويين ، أن يعمل الكثير لضمان قيام الديمقراطية أخيرا عند هذه الشعوب التي تبلغ ثمانمائة مليوناً ، وقد يدعونا هذا إلى حد ما الى مواجهة تحد جديد وهو أن نزيل صورة « غربية أخرى كانت تحجب الواقع والحقيقة عن عيوننا أمدا طويلا . وهذه الصورة هي جزء من الرجعة الفكرية التي كانت مغلقة على الغرب من ناحية والشعوب الأفريقية الآسيوية ولا سيما العربية منها من الناحية الثانية . وعندما نكون نحن في الغرب ، قد بتنا حقا في أمس الحاجة الى إعادة التفكير جديا في نواحي ديموقراطيتنا ضمن نطاق منطقتنا نفسها ، فإن هذا الحافز الإضافي بالنسبة الى الدنيا الأفريقية - الآسيوية ، لا يعتبر بحال من الاحوال شوكة ناخزة مدلة . وحرى بي أن اقتبس هنا بعض العبارات التي أوردها مراقب بريطاني معروف عن الوضع العربي اذ قال :

« لو كان هناك نظامان محدودا المعالم قادرين على أن يضمنا تعلم الناس لهما وتطبيقهما ، فإن فكرة الاختيار الواضح بينهما ، تصبح أمرا مفهوما . ولكن ليس هناك مثل هذا التجديد . فالقضية في البطلان المتخلفة ليست قضية الاختيار بين نظام معروف ونظام آخر . وإنما هي قضية ابتكار طرق جديدة لضمان سير الامور وتنفيذها ... »

« ويمثل التحدي الحقيقي لابتكاراتنا التنظيمية العملية ، لا لما في محطات اذاعاتنا من قوة ، او لما في كتابات واضعي شعاراتنا من صقل

لفظي ، أو لما في تصرفات المحاربين من ساستنا من نعومة ، أو حتى لما في جيوشنا من قوة ، » (١)

ولم نشرع نحن في الغرب حتى الآن في فهم ما في هذا التحدي الواقعي من أهمية رمزية . ولكن هذا التحدي بدأ فعلا في الوطن العربي . وفي أنحاء الدنيا الأفريقية الآسيوية . وفي مارس عام ١٩٦١ قال نيديتا خروشوف لوفد برلماني من الجمهورية العربية المتحدة ، كان يزور موسكو ما بضمه :

« سيكون التاريخ الحكم الفصل بيننا . فنحن شيوعيون ، وأنتم لا علاقة لكم بهذه الكلمة . ولكن التاريخ سيعلمكم . . . انكم لا تريدون الشيوعية الآن . حسنا فليكن ما تريدون . ونحن لا نفضب من هذا . ولكنكم ستجدون في المستقبل اننا على حق . »

وسرعان ما ردت الجمهورية العربية بجواب نشر في القاهرة . « ولا ريب في أن هذه الوثيقة في منتهى الأهمية والخطورة ، ولكنها لم حظ كالعادة بأي اهتمام من الغرب . وترجع زبدة هذا الرد أصداء الأفكار التي هم الدنيا الأفريقية الآسيوية كلها ، كما تؤلف جزءا من الحوار المستمر حينما مع الغرب وحينما آخر مع الكتلة السوفياتية - الصينية ، والذي يؤكد فيه القادة الأفريقيون - الآسيويون حقهم المطلق والمستقل في تكوين تنظيماتهم على النحو الذي يريدونه . قال رد الجمهورية العربية المتحدة ... »

« وفيما يتعلق بالراسمالية والشيوعية ، فإننا لا نقتنع حتى الآن بأن التطور التاريخي للانسان يسير في طريق مسدود ، الراسمالية بدايته ، والشيوعية منتهاه الحتمي وإنما نحن نعتقد أن مجال الاجتهاد الفكري مفتوح لجميع الشعوب ... »

« ان شعبنا لا يقبل أن يكون محصورا في هذا الخيار ويعتقد ان الافق الفكري للعالم الآن أرحب من هذه الدائرة المغلقة » (٢) .

ويؤلف هذا الرد العربي على خروشوف تحديا أيضا للغرب . ومن المؤسف أننا حتى هذه اللحظة لم نظهر أي احساس مناسب به ، اذ ان الغرب في هذا الطراز من التطلع الأفريقي - الآسيوي ، يتفوق تفوقا واضحا على الصينيين - السوفيات . فنحن هنا في بلادنا ، نظهر اعتزازنا ونتفاخرنا بما في منتظماتنا من مرونة ، وذلك من ناحية استعدادنا

(١) رسالة من ميشيل ايونيدس في صحيفة التايمز بعنوان «معركة آسيا» عدد ١٣ يناير ١٩٥٩ .

(٢) نشر هذا الرد في عدد صحيفة الاهرام الصادر في التاسع من يونيو عام ١٩٦١ لا في الثالث من مايو كما يقول المؤلف . وكان الرد صادرا عن السيد أنور السادات رئيس الوفد البرلماني العربي الذي قام بزيارة موسكو والذي واجهه خروشوف بتلك الاقوال .

— العرب —

لتعريض اجراءاتنا السياسية والاقتصادية ضمن اطار مثلنا العليا .
وعلىنا ، حرصا على مصلحتنا نحن ، ان نبذل عناية خاصة في ان نظهر
للغرب بل ولجميع الافريقيين الآسيويين اننا تقبل حقهم في ان يفعلوا
مثلما نفعل ، وسنرى أشياء غريبة تعزى الى تعابيرنا « كالديموقراطية
مثلا أو « الاشتراكية » ، وهي التعابير التي نفترض عن
ثقة وإيمان باننا الوحيدون القادرون على تفسيرها وشرحها . وسنسمع
القادة القوميين العرب ينادون بسياسات « الاشتراكية الديمقراطية
التعاونية » ، وقد نجد من الصعب علينا ان نتميز ما نعنيه نحن بمثل
هذه التعابير في حقيقة ما يقومون به هم . وليس من حقنا مهما كانت
الظروف ان نتوقف أو نهمل الحكم حكما تقديا على ما يقومون به من
تجربة وما يتطلعون اليه من أهداف . فهناك طراز من النقد يكون في
نصه ومحتواه نافعا كل النفع لهذه الشعوب الحديثة .

ولكن كلما قرأت في صحيفة غربية ما يشبه السخرية المتفطرية،
ورابت التطبيق الذي يحمل طابع التقرير لشعاراتنا وتعابيرنا الغربية
المتزمتة ، وذلك في التعليق على ما يبدو على هذه الشعوب من حيرة
أصيلة في بحثها ونشدانها الحقيقة ، أتذكر فورا ، ذلك العربي الذي
قذف بالصحيفة الغربية التي كان يقرأها ذات يوم من يده ، ملتفتا الى ،
وفي وجهه سيماء السخط ، قائلا عبارة أرى أنها خير خاتمة لهذا العرض
لما فيها من بساطة... « انك تعرف اننا كما تقولون قد انتهينا من مرحلة
الحاجة الى التعهد والتشئة ، ولكن بحق السماء ، لماذا تحاولون في
الغرب ، كما يحاول الشيوعيون ، الافتراض بأن لديكم الحلول لكل
ما يواجه المجتمع الانساني من مشكلات ؟ »

الخاصة

« لا بد بالطبع من الواقعية ، اذ ليس ثمة من بلاد تقيم سياساتها الداخلية أو الخارجية على مجرد حسن النية أو التحليق في الخيال . ولكنها الواقعية الغربية هي التي تنتهت بفوقية الماضي الجوفاء وتتجاهل أو ترفض فهم حقائق الحاضر الإنسانية ، التي لا تتناول الزواحي السياسية أو الاقتصادية فحسب ، بل تشمل أيضا مشاعر عدد كبير من الناس وأمانهم » .

جواهر لال نهرو - عام ١٩٤٤

هناك دلائل برزت منذ وقوع جوائح عام ١٩٥٨ انها ليست جوائح بالنسبة الينا ، على ان حكوماتنا وعددا من معلقينا العامين ، قد شرعوا في تبين الدروس والعبر الواضحة التي تمخضت عنها الاعوام الاربعون من العلاقات العربية العربية ولكنني اعتقد بضرورة ايلائها المزيد من الايضاح هنا . وقد بتنا الآن أكثر تسامحا مع سياسة الحياد أو اللانحياز التي تتبعها القارة الافريقية الاسيوية مما كنا عليه في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٥٥ و ١٩٥٨ . وليس ثمة من شك في أن أية حكومة بريطانية ما عادت لتفكر مجرد تفكير بالقيام بمغامرة كمغامرة سيناء والسويس . ومن المأمول أيضا ألا تفكر الحكومة الأمريكية الجديدة في أية عملية تقويض لحكومة عربية تنال تأييد شعبها وبرلمانها كالعمالية التي قامت بها الحكومة الأمريكية السابقة عن طريق الملك حسين في الأردن عام ١٩٥٧ للاطاحة بالحكم الوطني فيها . (١)

ولم يصدر حتى هذه اللحظة أي بيان يشر الدهشة عن داوونج ستريت يقول ان ربح التطور قد اكتشفت وهي تهب عبر أرجاء الشرق الأوسط . ولكن اكتشاف رياح مماثلة في سماء افريقية قد يعكس تبديلا كافيا في التفكير عند أولئك المسؤولين عن السويس ، ليشمل بآفاقه العلاقات الغربية - العربية أيضا . وهناك احتمال في ان يأمل الانسان بأن يكون العهد القديم قد مضى وانقضى .

(١) لكن مهزلة الهجوم على كوبا في عام ١٩٦١ تلقى بعض الشكوك على هذا القول - المؤلف .

ولكننى كغربي لا أستطيع أن أحس بأية كبرياء وأن كنت أحس بشيء قليل من الارياح ، لانفضاء نك العقبة ، ذلك لانها خلفت من الجراح عند العرب ما لا يمكن له أن يندمل بسرعة وقد تبتى أمدا أطول مما نعتrof به ونقره ، لا سيما وأن الفضل في انقضاء تلك الحقبة يعود الى العرب لا الى ساستنا . واذا كان عرب الشرق الاوسط لم يتحولوا الى الشيوعية » فان هذا تم على الرغم من السياسات الغربية التي كانت تبدو وكأنها تقصد تحويلهم الى تلك النتيجة . واذا كنا قد تخلفنا عن تلك السياسات الى حد كبير ، فان السبب في ذلك يرجع الى تبييننا في اعقاب عام ١٩٥٨ ، أن هذه السياسات لا يمكن لها أن تكال بالنجاح ، فلقد اختفت معظم العهود التي كانت تلك السياسات تعتمد عليها . واذا كان لا يزال هناك عند العرب بعض الشعور العميق بالاحترام للغرب ، والاهتمام به بحيث تستطيع بعض « فضائل » ثقافتنا أن تسهم في خلق مستقبل عربي افضل ، فان مرد ذلك الى أن كثيرين من العرب ظلوا يرفضون دائما التخلي عن أملهم في الثقافة التي استمدوا من منبعها الكثير من الالهام على الرغم من كل ما فعله ساستنا لتشويه ذلك الالهام . (١)

تري ما هي الجراح التي خلفناها وراءنا هناك ؟ أول هذه الجراح هو الشك ، الشك العميق المستشري كالسرطان في عقول الشباب العرب ، بأن أسوا ما عند دول الغرب قد انتهى . ومن سوء حظنا أن ليست هناك دلائل كثيرة على أن الغرب في مجموعه يدرك هذه الحقيقة . فلقد كان في وسع بعض الصحف والشخصيات العمة في الغرب ، أن تظهر الحنق حتى في عام ١٩٦١ ، على ما تواصله القاهرة من حملات دعائية ضد بريطانيا ، وكان في مكنة بعض المعلقين عندنا ان يقولوا بمزيج من الهياج والسخرية ، أن القوميين العرب ما زالوا يرون في الاستعمار الغربي السبب في كل نكبة . ولكن هذه الاقوال تصدر ولما تنقض على احداث العدوان على بور سعيد وقيام أهلها بانتشال جثث الضحايا من اقربائهم من تحت الانقاض اكثر من خمس سنوات ، ولما تنقض اكثر من ثلاث سنوات على رؤية القوات المسلحة للدول الغربية تجتاح بلدين عربيين (لبنان والاردن) ، ودون أن تمضي أية مدة على حشد دولة غربية اخرى لنحو من اربعمائة الف جندي ضد اخوانهم العرب في الجزائر . حقا ان أمرنا عجيب ، اذ أننا نطلب من الشعوب ان تنسى بسرعة . وقد يكون من الفطوسة بكل الفطوسة ان نتوقع من العرب أن يعدلوا عن شكوكهم في بريطانيا ، بينما لا يزال يحكمها

(١) يقالى المؤلف كل انغلاة في حديثه عن الهام الثقافة الغربية واثرها على العرب . وفي ربطه بين التأثير الثقافى والتأثر السياسى . فالثقافة تراث حضارى واحد تتناقه الشعوب وقد أخذ العرب عن الغرب في القرون الاخيرة ، كما أخذ الغرب عن العرب في نهاية القرون الوسطى . ولهذا فلا شأن لتأثر العرب بثقافة الغرب في اتجاهااته وروابطه السياسية .

— العرب —

رجال كانوا من المسئولين عن السويس ، ولم تصدر عنهم أية ايماءة تشير الى الندم على ما فعلوه . انها غطرسة ، اذ كيف يمكن لمصر ان تنسى وهي لا تزال تبكي موتها في سيناء وبورسعيد .

وهناك نقطة أخرى ، ولعلها من أكثر المفارقات سخرية ، وهي أننا لا نستطيع أن نفهم ما خلفناه من شكوك ومرارات في مصر ، اذ ان الانكليز الأفراد ، مازالوا يستقبلون استقبالا حارا في مصر . وتقوم السخرية في الحقيقة الواقعة وهي أن معظم العرب في الشرق الاوسط كله ، ما زالوا يعتقدون بأن غالبية البريطانيين العاديين كانوا يعارضون في عدوان السويس . لكن الحقيقة أكثر مرارة . ولعل مما يسرى عن النفس ، أن هذا الوهم الذي يعيش فيه العرب ، هو دليل جديد على ايمانهم الدائم والمستمر بالغرب ، وبأن شعوب هذا الغرب في عزلة عن سياسات حكوماته . واني لأرى في هذا التناقض مبعثا على الشعور بالخجل والعار من جانبنا .

ولكن هناك ارثا أقدم ، يتصل بأساسة لا يمكن أن تغتفر وبجرح لا يمكن ان يتدمل . فليس ثمة من عربي مفكر يعتقد بأن تحقيق الوحدة ، أية وحدة سواء أكانت دينامية ثورية ، أم هادئة هنية ، يمكن أن يتم بسهولة . وهو في كل مرة يستعرض العالم الذي يعيش فيه اليوم ، يرى يد السياسة البريطانية تحول طيبة أربعين عاما دون تحقيق أهدافه ونفرض عليه هذه التجزئة المتعمدة والمصطنعة ، لكي تصبح الآن ثابتة الاقدام في وطنه وبين شعبه . وفي كل مرة يكتب فيها مقال في الغرب ، أو ترسم صورة كاريكاتورية ، أو يبرق بتعليق عن التجزئة العربية ، يرى العربي فيها حافزا يذكره بمساوىء السياسة الغربية الماضية . وقد شرع الافارقة اليوم في نضالهم من أجل التغلب على الحدود المصطنعة التي رسمت في قارتهم . ولكنهم يفعلون ذلك كرعايا مستعمرات تحرروا بوضوح وجلاء ، ويرغبون في الوحدة على النحو الذي يريدونه اما في الشرق الاوسط فقد أقمنا حواجز صناعية . وأقمنا فيها مصالح مستثمرة ، ثم أعلننا حرية كل جزء منها ، وقضينا اثر ذلك عشرين عاما نلجأ الى كل وسيلة وبينها الحرب ، لنحول بين حريتها في الاتحاد ، الا اذا كان هذا الاتحاد وفق مشيئتنا وأهوائنا وشروطنا . ولا ريب في أن قليلا من ذلة الندم على هذه المواقف قد تساعدنا الآن ونحن نتطلع الى الوراء على اقامة علاقات أفضل من التفاهم المتبادل مع العرب .

وهذه القضية التي تتعلق بجوهر مواقفنا مع العرب ، هي في حكم الحقيقة والواقع المشكلة الكبرى الراهنة في علاقاتنا معهم . ولو كنا صادقين مع أنفسنا بعض الصديق ، لتحتم علينا أن نعترف بأننا هنا في الغرب ، لا نولي العرب ذلك الاحترام الاسمي الذي نوليهم لغيرهم من الشعوب في الدنيا الافريقية الاسيوية . فهناك نغمة خاصة في المقالات التي ننشرها عن الشئون العربية . ويبدو أن أكثر صحفنا مسببولة تحتفظ ولو عن غير عمد بأكثر التعابير سخرية وتهكما عندما تتحدث عن العرب . وتقوم الاسباب كما سبق لي أن أوضح في قرون طويلة من

التاريخ • ولكن عنصر المقارنة بين ملوك العرب ، وسلوك غيرهم من الشعوب الافريقية الاسيوية في السنوات الاخيرة يعتبر مسببا آخر ، وسببا له وزنه الطبيعي • فلا يمكن للعرب مثلا أن يقارنوا حتى ولو ظاهريا ، بالهنود في حقبة الخمسين •

وحتى بعد هذا الاعتراف بالمشكلات الضخمة التي ورثتها الهند الحرة وأنا آخر من يقلل من خطورتها ، أرى من واجبي أن أسأل اذا كن هذا الطراز من المقارنة مجديا أو مفيدا • ولنفكر ولو بصورة مختصرة ، وعلى وجه عام بما لم نخلفه في الهند وراءنا عند تخليتنا عنها • فنحن لم نضمن خلق دولة كاسرائيل في قلب الهند وعلى أرض يسكنها الهنود • ولم نرسم مياستنا في الهند على أساس ظهورها في أواسط القرن العشرين بمظهر الخرق المرقعة التي تضم عددا من الدويلات المجزأة المصطنعة السيادة والتي تقوم على أمرها حكومات رجعية لا تحظى بأى عطف شعبي ، تتحكم في شعب يريد أن يتحد •• ولم نطلب من الهند قبل تخليتنا عنها أية قواعد استراتيجية ، كئمن على انسحابنا منها • ولم نعمل على تحقيق غايتنا هذه عن طريق المؤامرات التي تستهدف الفرقة والخلاف ، أو عن طريق الضغط الاقتصادي أو حتى الحرب ، الحرب التي تعاوننا فيها وتواطأنا مع اسرائيل •• وفي وسعى أن أواصل هذه السلسلة الطويلة من الفروق • والنتيجة التي نتوصل اليها من كل ذلك ، والتي لا أشك في أن البانديت نهرو سيكون أول من يقرها ، هي أن الهند كانت ستسلك سلوكا مغايرا لفاية لو أن قصة الشرق الاوسط قد اعيد تمثيلها بحذافيرها في وسطها •

وهكذا نصل الى هذه النتيجة ، وهي أن عقولنا محشوة بالظنون السيئة عن العرب • وما زالت سمعتنا بينهم حتى هذا اليوم ملطخة بما الحقنا بهم من اضرار سياسية دائمة ، لا تمل حطـورة ان تبرز في خطورتها أية اساءات ارتكبتها في الدنيا الافريقية الاسيوية • ولا ريب في أنهم سيتمكنون من التغلب على هذه الاضرار التي الحقناها بهم ان عاجلا وان آجلا ، واذا تطلب هذا التغلب مزيدا من النزاع مع المجاورة الاخيرة من سياساتنا القديمة فان اللوم في ذلك يقع على عاتقنا نحن دون غيرنا ، وستكون الضحية في ذلك مصالحنا الحقيقية في الشرق الاوسط • وفي وسعنا أن نعدد الاماكن التي ما زلنا فيها نعرض خير مصالحنا للهزيمة والخيبة وهي الاردن وفلسطين وعدن ومشيخات الجنوب العربي المرتبطة بمعاهدات عتيقة بالية ببريطانيا وكذلك الجزائر • ولم نستطع بعد الخروج من أجمة القصة الطويلة لصراعنا مع العرب • ولكن ما نحتاج اليه أكثر من أى شيء آخر هو المزيد من الحرص ، وتنقية عقولنا ومقالاتنا وكتبنا من الشوائب والاقرار بمسئوليتنا التاريخية عن الكثير مما يستثير مسخطنا من الاوضاع في الوطن العربي ، وأن يتبع ذلك تبدل حكيم في سياستنا تماما كما يعقب الليل الحالك السواد ، وضع النهار •

ولعل من قبيل المناقضة أن نقول ونحن على وشك الاعتراف بكل هذه الأخطاء ، أن مما يساعدنا كثيرا ، أن ندرك نحن الغربيين ، بأننا

مستولون مسئولية هامة عن جزء كامل من نفس الفكرة القومية التي كنا نقاومها عند العرب . فلقد اقتبسوا عنا فكرة ما لبثوا أن صاغوها لتصلح لهم ، ثم ألبسوها ثوب شخصيتهم النامية وأضافوا عليها احساسهم المعتز بماضيهم . ورحنا ننهمك في محاربة الرسالة التي حملناها لهم لسنوات أكثر عددا مما يحلو لنا تذكره . أما في فلسطين فلم نكتف بحرمانهم من هذه الرسالة فحسب ، بل قمنا ، اذا لنا صادفين شرفاء ، في اعترافنا ، بالعمل على حرمان شعب من وطنه ، وطنه الذي يملكه بموجب كل عرف وطبقا لكل تعريف ، لنفى بدين علينا ، لا على العرب ، لشعب آخر .

وأمامنا نحن والعرب الكثير مما يجب علينا أن نفعله ، هذا اذا أراد الجانب منا أن يكفر للآخر عن الماضي ، ويفى بالتزاماته له (١) . فاذا تمكنا من أن نشرع في العمل مع حركتهم القومية ، على اعتبار انها تمثل في نظرنا تجربة ايجابية ، يجب علينا جميعا ان نسير فيها ، لأنها تمت في بعض نواحيها الى تراثنا . فاننا لابد وأن نحصل منهم على استجابة سريعة لتعاوننا هذا . ولا ريب في أن هذه الحركة القومية التي تدين بها هذه الشعوب الفتية في وثبتها العريقة في ماضيها ، حركة غريبة . فهي حركة انسانية تعبر عن فكرة الكرامة الانسانية ، ولذا فهي تنطوي على جذور الاخوة العالمية . ولكن من الواجب أولا ، أن يعثر هذا الشعب العربي على مكانته وسط المجتمع الانساني . وقد يبدو سعي هذا الشعب الوسيط المتداخل ، وسط ما تبذله الشعوب المستقبلية الاقدم تمركزا من بحث أضخم في مجالاتها ، أمرا يثير الحنق ، ولكن الخطأ في ذلك ليس خطأهم وليس من الحق أن نحرمهم من نشدان ما يتطلعون اليه . وقد يبدو استنكارنا لحركات الشعوب الافريقية الاسيوية القومية على اعتبارها «موضة قديمة» ، أمرا ينطبق مع نظرنا العصرية ، لكن هذه النظرية ليست في صالح تلك الشعوب ، وليست في مصلحتنا نحن اذ أننا مشدودون اليهم شدا وثيقا ، شئنا ذلك أو أبينا ، في هذه المغامرة المشتركة .

كان هذا هو الوضع دائما ، فالوقوف لم يتغير بالنسبة الى العرب ولن يتغير . وعندما ندرك نحن في الغرب ذلك حق الادراك ، يصبح في وسعنا أن نبدأ من جديد ، اذ توفر سنوات أخرى من العذاب .

كم أرجو أن نفهم ذلك ، بأقصى سرعة ممكنة .

(١) أعتقد أن التفكير يجب أن يكون من جانب واحد ، هو جانب الغرب . اذ اننا لم نسيء اليه بشيء ، وانما كنا دائما وما زلنا حتى هذه اللحظة ، نتعرض لاساءاته وجرائره ، التي لا تغتفر وما فلسطين ، ولا الانفصال ، وما يقع في اليمن والجنوب العربي ، وما وقع في الجزائر الا بعض من كل من أمثلة على هذه .

— العرب —

تعقيب لا بد منه

أرى لزاما على وقد انتهيت من تعريب هذا الكتاب القيم ، وتقديمه الى القارئ العربى الكريم أن أدون ثلاث ملاحظات ، لا بد منها ، أعرض بها ما فاتنى قوله فى المقدمة .

أولى هذه الملاحظات ، أن ما قدمته من تعليقات ، على بعض أقوال للمؤلف أو آراء لا تتفق مع آرائنا ، كان مقتضيا فى المالب ، نظرا لطبيعة التعليق التى تتطلب الاقتضاب ، فهى والحالة هذه لا تمثل كل ما أحمله من رأى ، اذ أن بعض الموضوعات اتى طرقها المؤلف ، والتى تناولتها بالتعليق تتطلب أكثر من بحث وأثر من كتاب ، بالإضافة الى حقيقة ثانية ، وهى أن ما أغفلت التعليق عليه ، لا يعنى أنه متفق كل الاتفاق مع آرائنا وأفكارنا ، فلقد راعيت القول بالمأثور . . ما يصعب كله لا يترك جله .

وثانية هذه الملاحظات ، أن تعليقاتنا يجب الا تترك لدى القارئ انطبعا سيئا بالنسبة الى المؤلف . فهو على النقيض من ذلك ، من أثر كتاب الغرب تفهما لمشاكلنا ولوجهات نظرنا ، ومن القلة النادرة منهم التى تقف موقفا لا متحيزا وصادقا من قضايانا . ولعل هذا على الأقل ، هو ما ننشده من كتاب الغرب الذين يعالجون قضايانا ببحوثهم ، اذ أننا لا نطلب أكثر من التجرد والنزاهة والموضوعية ، وهى صفات ثلاث اعتقد انها متوافرة لدى المؤلف ، وان توافرها النسبى هذا ، يجعله الى حد ما ، فى منزلة الكاتب المنصف الصديق . أما ما نختلف معه عليه من آراء ، فقد يكون ناجما عن حسن نية ، وهذا ما نفترضه فيه .

وثالثة هذه الملاحظات وأخرها ، أن المؤلف رغم تجرده وموضوعيته غربى قبل كل شيء ، يضع مصالح الغرب فى المنزلة الاولى من تفكيره ، ولهذا فان ما هدف اليه من كتابه ، هو الدعوة الى وضع علاقات الغرب بالعرب ضمن اطار جديد من التفاهم المتبادل ، متناسيا حينما أو أحيانا الحقيقة الواقعة ، وهى ان سياسة العرب الاحرار ، تقوم على أساس عدم الانحياز المطلق الى الصعيد الدولى ، وأن العرب لا يقيمون سياساتهم ، ولا سيما ما يتعلق منها بأهدافهم التحررية ، وتشدانهم الوحدوى ، وتطلعهم الاشتراكى الا على قواعد متينة من واقعهم المادى وتراثهم التاريخى .

- العرب -

التاريخ	اجراءات مصرية	اجراءات انجليزية	اجراءات عسكرية	تكتيك بريطاني فرنسي	المحاولة
٣ أغسطس	مواصلة التأكيد بحرية الملاحة مسع طلب فوري على الاعتراف بحق مصر في التاميم	وجه ايدن اذاعة عامة : « ان نزاعنا ليس مع مصر وليس مع العالم العربي . انه مع عبد الناصر » . واتهم الرئيس بسلسلة طويلة من الأكاذيب والاجسادات الممكدية لبريطانيا ثم قال : و لقد عرفنا هذا جيدا من الفاشيين ، كما عرفنا الثمن الذي ندفعه نتيجة التسليم لهم .	وصول اركان الحرب الفرنسيين الى لندن		
٨ أغسطس	اعلنت مصر عن طريق سفارتها في لندن ، انها تعتبر من الامور الحيوية لها ، المحافظة على حرية الملاحة في القناة ، والعمل على زيادتها .				
٢ أغسطس	عقد عبد الناصر مؤتمرا صحفيا مهما ، رفض فيه مؤتمر لندن ، ولكنه عرض عقد معاهدة جديدة تسجل في الاعم المهم		استمرار الاعلان عن التحويلات البحرية مع سلاوات مستمرة مع سلووين لويدي .	دعوة الصحافة للتحديث عن ابحار الجنود .	

٢ أغسطس

التاريخ	اجراءات مصرية	اجراءات انجليزية فرنسية مشتركة عامة	اجراءات عسكرية	تكتيك بريطاني فرنسي	المصحافة
١٣ أغسطس		تحسن الموقف بالنسبة الى مصر اثر حملات المعارضة في البرلمان على اجراءات الحكومة			المصحف تنسجحدث عن معارضة الولايات المتحدة لاستخدام القوة . شرعت بعض الصحف التي كانت تؤيد استخدام القوة في مهاجمة ابدن
١٤ أغسطس	السفن تمر كالعتا . للسماح للمرشدين بالاجازات	اذاعة هامة لسلاوين لويدي يحذر فيها من تجارب الماضي ويعلن ان عبء الناصر دون مطامحة في السيطرة على العالم والزييت العربي ، وعلى افريقيا ومسلمي العالم		اعلنت الشركة ان جميع مرشديها مخلصون لها . اعلن مديرها بيكوان نجليرا منه سيشل العمل في القناة	
١٥ أغسطس	مصر تبدأ البحوث عن المرشدين للاستعاضة بهم عن الذين تروا الخدمة عن طريق الاعلان والقنصليات المصرية .		الطشد المسكوكى مستن ، محددات عسكرية مشتركة بين بريطانيا وفرنسا دعة ٢٥ الفا مر الاحتياطي .	رفض نشر الاعلانات المصرية بطبيب المرشدين . في عدد الصحف . دفن زيادات لمرشدى قناة كيبيل	شرعت الصحف الغربية في الدعوة لنتظريه لويدي ومولييه عن ان فلسفة الثورة نسخة اخرى من كفاحي .

التاريخ	اجراءات مصرية	اجراءات انجليزية	اجراءات عسكرية	تكتيك بريطاني فرنسي	المحافة
١٦ أغسطس	مصر توفد مراقبا الى لندن . الهند تتحدث باسم مصر .	عقد مؤتمر لندن الذي ضم ٢٢ دولة .			
٢٢ أغسطس	مصر تعلن تقديم عشرة مرشدين للعمل في القنادة	بغنه مزييس سستعد للسفر الى القاهرة لتقترح تشكيل مجلس دول للقناة .		٥٨ مرشدا يعضون في اجازة بطلب مر الشركة - تاخر ٢٧ عن العودة .	المصحف تتحدث عن المهارة التي يتطلبها العمل في ارشاد السفن
٢٣ أغسطس					
٢٧ أغسطس		منزييس يتحري عما اذا كانت مصر مستعدة للتفاوض .		الشركة تتدخل عن مستشاريتها تجاه المرشدين الى الحكومتين البريطانية والفرنسية	انباء صحفية موحى بها عن اللجوء الى القوة اذا رفض عبد الناصر .
٢ سبتمبر		منزييس على وشك الوصول الى القاهرة .	بيان خاص يعلن ابحار القوات الفرنسية الى قبرص . اعلان آخر ناقلات للجنود على استعداد للابحار من موانئها	خطيب ترحم روح الحرب من الوزيرين انطوني هيد ودينو .	

التاريخ	اجراءات مصرية	اجراءات انجليزية	اجراءات عسكرية	تكتيك بريطاني فرنسي	المحاولة
٢ سبتمبر	عبد الناصر يقترح عقد اتفاسقات ملزمة في موضوع الرسوم	اجراءات مشتركة عامة			
٥ سبتمبر	عبد الناصر يرفض فكرة المجلس الدولي ، ويؤكد حرية المرور من جديد	استمرار محادثات عبد الناصر - منريس .		الشركة تعلم ان المرشدين في حالة اعياء	حملة صحفية على المتاعب في ارشصاد السفن في القناة
٩ سبتمبر	عبد الناصر يقترح مؤتمر لجميع المنتفعين بالقساة لتأليف هيئة تتولى التفاوض في موضوعات حرية المرور والرسوم وتحسين القناة .	منريس يعلن ان الوضع خطير للغاية .		نشرات مزورة يزعم انها صادرة عن سفارات مصر توزع على اعضاء البرلمان البريطاني والصحف وتحدث عن مشاريع مصرية مزعومة لنسج عبور البترول الى اعداء مصر .	
١٠ سبتمبر		وزارة الخارجية البريطانية تقبول : لا جديد في اقتراح مصر .		الشركة تسحب جميع مرشديها .	
١١ سبتمبر					

التاريخ	اجراءات مصرية	اجراءات انجليزية	اجراءات عسكرية	تكتيك بريطاني - فرنسي	المحاولة
١٢ سبتمبر	بقي في القناة ٧٠ مرشد من مجموع ٢٠٥	ايدين يعملن في مجلس العموم "أن مصر رفضت كل محاولة للوصول الى حسل سلمى ، ويقترح انشاء هيئة المنتفعين ، ويذكر أن مستوى الحياة في غرب أوروبا أصبح تحت رحمة عبد الناصر إذا أهملت اقتراحاته . يهدد بالقوة إذا لم تسمح مصر لبوآخر الهيئة بالمرور			
١٣ سبتمبر	مصر تعلن رسميا التزامها في المنشورات	يقول موليه ان فرنسا تحتفظ بحقها في استخدام القوة اذا منعت مصر مرور هيئة المنتفعين بالقناة - دالاس يرفض استخدام القوة .		تحويل البسواخر الى طريق رأس الرجاء الصالح ، شركة لوييه ترفع رسوم التأمين .	المحاولة تقول ان هيئة المنتفعين « ستبعت بباخرة تجربة الى القناة .

التاريخ	اجراءات معصرية	اجراءات انجليزية - فرنسية مشتركة عامة	اجراءات عسكرية	تكتيك بريطاني - فرنسي	المحالة
١٦ سبتمبر	حركة المرور تضرب رقما قياسيا - عبور ٤٢ بأخرة	ولدت هيئة - نصف ميلاد ولكنها لا تؤيد القوة ايدن وموليه يعيلان القضية الى الامم المتحدة			استمرار الحملة الصحفية الضخمة في الغرب نفذ بها اموال شركة القناة لنشر الاثساعة بان الفوضى تسود حركة المرور في القناة بسبب جهل المرشدين
٢٣ سبتمبر					
١٣، ١٢ أكتوبر	الوصول في مجلس الأمن التعديلات الانجليزية - الى اتفاق على ستة مبادئ الفرنسية تعطل اجراءات الامم المتحدة عدة أسابيع وتستنز الفيتو الادارة القناة	وبعد فشل مشروع هيئة المنتفعين في ارسسال سفينة اختبار عبر القناة وبعد ان اتفصحت للولايات المتحدة حقيقة النوايا الانكليزية الفرنسية في استخدام القوة ، بدأت الدول التي تستخدم القناة في التعاون الخفي مع السلطة المصرية التي اتبستت نجاحها . وفي اوايل اكتوبر أصبحت الهيئة المصرية تتلقى (٤٠) فر المائة من رسوم القناة . اما البساق فيدفع الى حساب مفلق . وفي اكتوبر عاد عدد المرشدين الى ما كان عليه قبل الازمة عن طريق التعاقد			

التاريخ	اجراءات مصرية	اجراءات انجليزية فرزسية مشتركة عادة	اجراءات عسكرية	تكتيك بريطاني - فرنسي	المصحافة
١٦ أكتوبر		تقرر ايدن وموليه في اجتماع سرى عقدهاه في باريس مدة خمس ساعات الهجوم على مصر .			

ملحق (ب)

قبل الغرب في الصورة الرسمية التي يرسمها لتاريخ الشرق الاوسط المعاصر رواية الملك حسين عن أزمة « المؤامرة » في ابريل عام ١٩٥٧ (١) . وتتلخص قصة المؤامرة هذه في أن العناصر الوطنية حاولت القيام بانقلاب أول للاطاحة بالملك ليلة السابع من ابريل ، ثم حاولت القيام بانقلاب آخر ليلة الثالث عشر من الشهر نفسه . و أعلن الملك رسميا ان الوطنيين كانوا يلقون التأييد في المحاولتين من الاتحاد السوفياتي ومصر وسورية .

وزعم الملك في قصته عن المحاولة المخلقة الاولى ان الوطنيين كانوا سيعرغمونه على توقيع بيان معد مسلفا بالتنازل عن العرش ، بينما تكون الوحدات الوطنية في الجيش محيطة بقصره وأضاف أن الخطة كانت ترمي الى حمله بالطائرة الى قبرص بينما تعلن الاذاعة الاردنية نبأ تنازله عن العرش . ولكن قصة الملك لم تشرح كيف أحبطت المؤامرة المزعومة . كما لم توضح السبب الذي يدعو المشتركين في تخطيط هذه المؤامرة المنظمة تنظيما هائلا ، والتي تشترك عدة دول في تنفيذها ، الى نقل الملك الى جزيرة قبرص التي يسيطر عليها البريطانيون ، والتي تضم محطة اذاعية عربية قوية يستطيع الملك فوراً أن يمضي الى ميكروفوناتها ، ليذيع على العالم أن تنازله تم تحت الضغط والارهاب . وأرى لزاما على أن أؤكد هنا ، عند تحليل هذه الادعاءات عن المؤامرة ، أن حسين ، كان لا يزال في اللحظة التي ادعى وقوعها ، يتمتع بشعبية في الاردن ، وكانت حكومة النابلسي نفسها تصر على القول للشعب ، بأن الامور تسير سيرا حسنا ، وأن كل شيء على ما يرام . ففي الخامس من ابريل ، أذاع الرئيس النابلسي خطابا من الاذاعة الاردنية قال فيه للشعب ما نصه : « لقد أذهلت الانتصارات التي حققتموها تحت لواء ملككم المستعمرين وحيرتهم » (٢) . وليس من المعقول أن يلجأ النابلسي الى مثل هذه العبارات وهو يهيب الرأي العام لعمل يطيح بالملك ، ويبعده عن البلاد ، هذا اذا أخذنا بعين الاعتبار أن تاريخ الاذاعة سبق الموعد الذي زعمه الملك للمؤامرة بيومين اثنين ليس الا .

ولم تكن تهمة « المؤامرة » الثانية أقل غرابة . فقد زعم هذه المرة لن علي أبو نوار ، قائد الجيش الاردني ، قد أمر بإرسال وحدات البدو الموالية للملك حسين الى مناورات بعيدة ، لتمكين الوحدات الوطنية من

(١) كتاب جلوب الذي يروي القصة الرسمية كلها .

(٢) مقتبس من تسجيل للاذاعة البريطانية في الخامس من ابريل

عام ١٩٥٧ .

تنفيذ مؤامرتها في عمان ، وأضافت القصة المزعومة أن القصر الملكي علم بالخطة المرسومة ، وطلب الى الوحدات البدوية أن تعصى الأمر الموجه اليها . وعلى الأثر نشب القتال في معسكر الزرقاء الواقع الى الشمال من عمان ، مما دفع الملك الى الاسراع بسيارته الى المعسكر مستصحبا معه قائد جيشه . وفي الطريق قابل الملك وحدات البسندو المخلصة له وهي مندفعة الى العاصمة ، بعد أن صدقت ما قيل لها من أن الملك قد اعتقل . وتمضى الاسطورة فتقول ان حسين تمكن بشجاعته الشخصية الفائقة من تهدئة الجنود وحال بينهم وبين اطلاق النار على القائد أبى نوار الذى اتهموه بالخيانة . وراح الملك بعد ذلك يعتقل القائد « الذى تذال للملك » فيفر عبر الحدود الى سورية ، ويعين خلفا له اللواء على الحيارى قائدا للجيش . وتمضى القصة فتقول ان الحيارى أيضا « برهن على خيانتة للملك » ، وانه فر بدوره الى دمشق .

ولكن التحقيق الدقيق في خفايا الموضوع ، أسفر عن قصة تختلف تماما عن اسطورة الملك الرسمية (١) . فلقد كانت المهمة الاولى التى عهد الملك الى اللواء الحيارى القيام بها ، هي أن يكتشف الضباط غير الموالين للملك في الزرقاء وأن يقدمهم الى المحاكمة العسكرية ، وقد شرع القائد الجديد فورا فى تحقيقاته ، بوصفه عسكريا يمتاز بتدريبه العظيم وخبرته الطويلة ، وسرعان ما تبين له أن أربعة ضباط من البدو هم الذين أثاروا الفتنة في الزرقاء . وهرع الحيارى الى القصر ، فقدم أسماءهم الى الملك الذى طلب اليه فورا ، أن يقفل البحث فى القضية كلها . وراح القائد يذكر الملك بالتعليمات التى كان قد أصدرها اليه ، وبوعده له فى أن يكون حرا فى تحقيقاته ، فنار الملك غضبا على قائده . وأدى هذا التحية وخرج من غرفة الملك ، ثم كتب استقالته ، وهضى فى سيارته الى دمشق حيث أعلن أن المؤامرة « زائفة مزورة » ، وان الولايات المتحدة تقف وراء خطة الملك الرامية الى التشهير بحكومة نابلسي وأعضاءها ، وأن الاوامر كانت قد صدرت اليه « بتهيئة الجيش لضرب الشعب » .

وكان ضباط البدو الاربعة الذين دبروا فتنة الزرقاء يجلسون فى احدى غرف القصر تحت حماية الملك ، أثناء مقابلته العاصفة للقائد الحيارى .

وسرعان ما راح الملك يسرد تفاصيل مختلفة لها مدلولاتها عن « المؤامرة الشيوعية - الناصرية » . وكان بين هذه التفاصيل ما قيل من العثور على علم غريب فى مكتب أبى نوار . وزددت القصة الرسمية وقتا قصيرا ، ان هذه الراية أعدها على أبو نوار ليرفعها فوق سيارته عندما يصبح « الحاكم العسكري » (٢) فى الاردن بعد خلاصه من الملك ، ليضم

(١) هذه التفاصيل مسنقة من الاستنتاجات التى توصلت اليها ومما نشرته مجلة « التايم » فى عددها الصادر فى السادس من آيار عام ١٩٥٧ - العرب -

(٢) صحيفة التايمز عدد اللندنية ٢٩ أبريل ١٩٥٧ .

بعد ذلك كمقاطعة الى سورية ، ولكن هذه القصة سرعان ما تبسدت ، وصورت الراية على أنها « علم الجمهورية الاردنية » (١) وكانت الانبياء الغريبة قد خلقت جوا متوترا عن الازمة الاردنية الى الحد الذي لم يلاحظ فيه أحد في الغرب هذا التبدل الغريب في رواية « الراية » التي لا يمكن أن تكون لا لجمهورية أردنية ولا لمقاطعة سورية .

ولعل من السخرية ، أن هذه الراية كانت في حقيقتها العلم الذي كان جلوب يرفعه على مقدمة سيارته وكانت تحمل شعار المملكة الاردنية الهاشمية . وعندما عثر على هذا العلم مدفونا في درج مكتب أبي نوار ، الذي كان مكتبا لجلوب من قبل ، لاحظت في ذهن موظف بارع في الاختلاق ، من موظفي القصر ، أن يخترع هذه القصة التي سرعان ما انتشرت في أرجاء العالم . هذه هي الطريقة التي كتبت فيها تفاصيل تاريخ الشرق الاوسط في الغرب في تلك السنوات الغريبة .

تري ما الذي حدث حقا في هاتين « المؤامرتين » ؟ عندما أحس الملك حسين بالقوة اثر الوعود التي أعدها عليه الامريكيون بمساعدته ماليا ودبلوماسيا وكذلك عسكريا اذا اقتضى الأمر (٢) راح يرتب مع سياسة العهد القدامى ، الطريقة الوحيدة التي يمكن لها أن تشوه سمعة الوطنيين الاردنيين ، دون أن تحطم مكانته في نفوس الجماهير . وتقرر أن ترسم الخطة على أساس الادعاء بوجود محاولة للاطاحة به وخلق صورة مسرحية ترسمه بطلا جريئا يفق أمام الخونة . كانت هذه هي الفرصة الوحيدة . فلقد كانت حكومة النابلسي بسياستها القومية العربية وانجاهها غير الانحيازي ، متمتعة بشعبية هائلة . وكانت للملك أيضا شعبيته الهائلة لوقوفه في الصف الوطني . ورأى أن الضرورة تحتم عليه استغلال شعبيته في نفس الوقت الذي يستفز فيه الى جانبه حماسة أكبر عدد من البدو من جنود الجيش العربي . ولهذا فقد أخرج مسرحية « فتنة الزرقاء » عن طريق أربعة من ضباط البدو ولكن اللواء الحيارى باخلاصه لواجباته الجديدة ، ومتابعته التحقيق بحزم وأمانة ، أفسد على الملك قصته وخطته . وتمكن الوطنيون ، ثقة منهم بتأييد الجماهير لهم ، من عقد مؤتمر وطني عام في نابلس احتجاجا على اجراءات الملك ، مما اضطر حسين وأنصاره السياسيين القدامى الى استخدام القوة المسلحة العارية ، فوزعوا قوات البدو ، وقد صبغ رجالها وحوهم بالسواد ، في جميع أنحاء البلاد ، ومعهم دباباتهم وسياراتهم المسلحة . ولكن الغرب ، كان قد صدق قصة « المؤامرتين » .

وهناك ناحية أخرى في هذه القصة المفجعة توضح ما تميزت به

(١) كتاب جلوب ص ٤٣٤ .

(٢) تم اعداد مؤامرة الملك حسين بمساعدة الملك سعود . وذكرت مجلة الايكونومست في عددها الصادر في الرابع من آيار عام ١٩٥٧ ، أن حسين طلب قوات من العربية السعودية ومن العراق ، فدخلت الى الاردن بعد اقالة وزارة النابلسي في العاشر من أبريل . - المؤلف -

معلومات الغرب من خطأ في هذه الايام . فما زال الاعتقاد الذي يسود الغرب حتى اليوم هو ان أزمة الاردن في ابريل عام ١٩٥٧ كانت من تخطيط القاهرة وتنفيذها ونتيجة تحريض اذاعة القاهرة للجماهير على تأييد المتآمرين ، وقد نجم هذا الاعتقاد عن تصديق الاتهامات التي وجهها حسين ، وعن الانباء والتقارير الصحفية التي بعث بها المراسلون الغربيون آنذاك عن المؤامرتين . وعن الميل الطبيعي في الغرب لتصديق كل اتهام يوجه الى القاهرة . ولم اكد اصدق اذننى ، أنا شخصيا لتأثرى آنذاك بهذه الدعايات الكاذبة ، عندما أبلغنى الرئيس عبد الناصر فى مقابلة شخصية أنه أصدر أمره ، فور ابتداء الأزمة فى الأردن ، الى اذاعة القاهرة ، بعدم التعرض بما يسىء الى الملك حسين (١) وقد ثبت لى أن هذا الأمر كان صحيحا تمام الصحة ، وكشفت لى الدراسات الدقيقة التى قمت بها أن « العدوان الاذاعى غير المباشر » انما صدر أول ما صدر عن الجانب لآخر من المسرح العربى ، أى من «أصدقاء» الغرب طيلة أيام أزمة ابريل .

ولو كانت المؤامرة صحيحة ، وكان دور مصر فيها صحيحا ، لتحتم على اذاعة القاهرة ان تبدأ فى مطاع ابريل بشن حملة على الملك حسين لتهيئة الراى العام الاردنى لتقبل المؤامرة . لكن وثائق اذاعات القاهرة الرسمية تثبت أن أى تعليق لم يصدر عن هذه الاذاعة باستثناء سرد الأخبار المجردة عن الأزمة بين الأول والواحد والعشرين من ابريل ، وعثرت فى سجلات اذاعة دمشق ، وكنت دمشق وثيقة الاتصال بالقاهرة آنذاك ، على نص اذاعة فى الرابع من ابريل أى عشية المؤامرة المزعومة الاولى ، تقول ان الحكومة تتمتع بثقة الملك والبرلمان والشعب ، . ووجه الرئيس النابلسى فى الخطاب الذى ألقاه فى الخامس من ابريل ، اتهاما صريحا الى الولايات المتحدة بانها أوقفت معونتها الاقتصادية الى الاردن . . لاجباره على التخلى « عن سياساته القومية العربية واتجاهاته المحالفة لمصر . » وقد حذفت اذاعة القاهرة ، وهى تنقل الى مستمعينا نص الخطاب عامدة هذه العبارة التى يهاجم فيها النابلسى الضغط الأمريكى .

وعندما استقالت حكومة النابلسى فى العاشر من ابريل ، اكتفت اذاعة القاهرة بنقل النبأ مجردا . أما اذاعة بغداد فقد هاجمت النابلسى ، وأطرت الملك حسينا وزعمت وجود علاقة بين النابلسى وبين سفير الاتحاد السوفياتى فى اسرائيل وراحت اذاعة اسرائيل العربية فى اليوم التالى تذيع نبأ « العدوان المصرى غير المباشر » على الاردن ، وتتهم النابلسى بأن « عملاء مصر هم الذين أوصلوه الى الحكم » وانه كان يريد أن

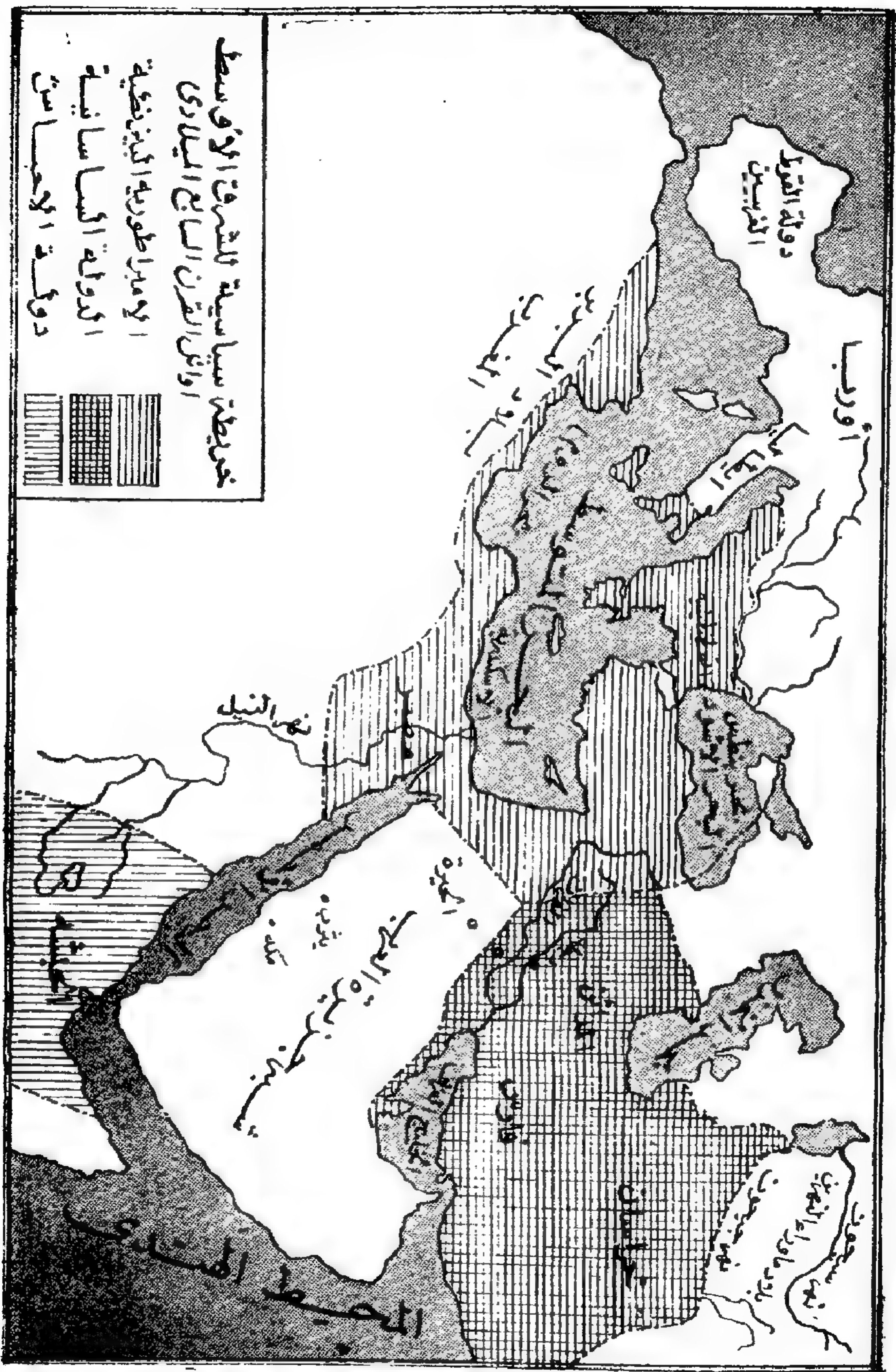
(١) قال لى الرئيس عبد الناصر أيضا انه بعث برسالة الى النابلسى يرجوه فيها ألا يعمل على فصم الاردن بين الملك والشعب ، وأن لا يستقيل وأن لا يذيع سبب استقالته اذا اضطر اليها . هذا ولم أتمكن من مقابلة النابلسى فى عهد الأردن التالية بسبب الاجراءات التى فرضت عليه ولكن وثائق اذاعة القاهرة الرسمية تثبت أن القاهرة لم يكن لها شأن مطلقا فى «المؤامرة» المزعومة ، هذا على افتراض انها صحيحة مع انها ليست كذلك .

— المؤلف —

يجعل من الاردن قاعدة سوفاتية » . واستمرت اذاعة نوري السعيد في بغداد في مهاجمتها للنابلسي طيلة ايام الازمة .

واذاع راديو القاهرة ما ذكره اللواء الحيارى في مؤتمره الصحفي في دمشق من ان الغرب كان يحاول من جديد ان يشد الاردن الى عجلة حلف بغداد عن طريق مشروع ايزنهاور ، اذ كانت الولايات المتحدة قد اشتركت في لجنة الحلف العسكرية في الشهر السابق واستمرت اذاعة القاهرة في هذا الاتجاه مع الاشارة الى « موظفي القصر » دون الاشارة الى الملك نفسه . ووصف معاق صوت العرب المعروف احمد سعيد في اذاعة له في ذلك اليوم ، المؤامرة ، بأنها تأمر « على الاردن وجيشه وملكه وعرويته » .

ولم تشن القاهرة في المدة الباقية من شهر ابريل هجوما على حسين ، مع انه كان قد شرع في فرض الاحكام العرفية واعتقال العناصر الوطنية . ولقد ذكر لي الرئيس عبد الناصر « انه لم يفسح المجال لاذاعة القاهرة لتقول ما تشاء الا بعد ان شرع حسين في مهاجمة مصر علنا » . ولا ريب في ان سجلات اذاعة القاهرة تقيم الدليل على هذه الحقيقة المجردة . وفي الثاني من مايو اذاعت محطة بغداد حديث حسين الصحفي الى مراسل صحيفتي « الاوريان » و « الجريدة » اللبنايتين ، والذي اهم فيه مصر وسورية أكثر من مرة بالعمل على قلب الملكية في الاردن . وبعد هذا التاريخ بدأت الحرب الاذاعية بين دمشق والقاهرة من جهة وبين اذاعة حسين ، بعد ان طال سكوت الاذاعتين السابقتين .

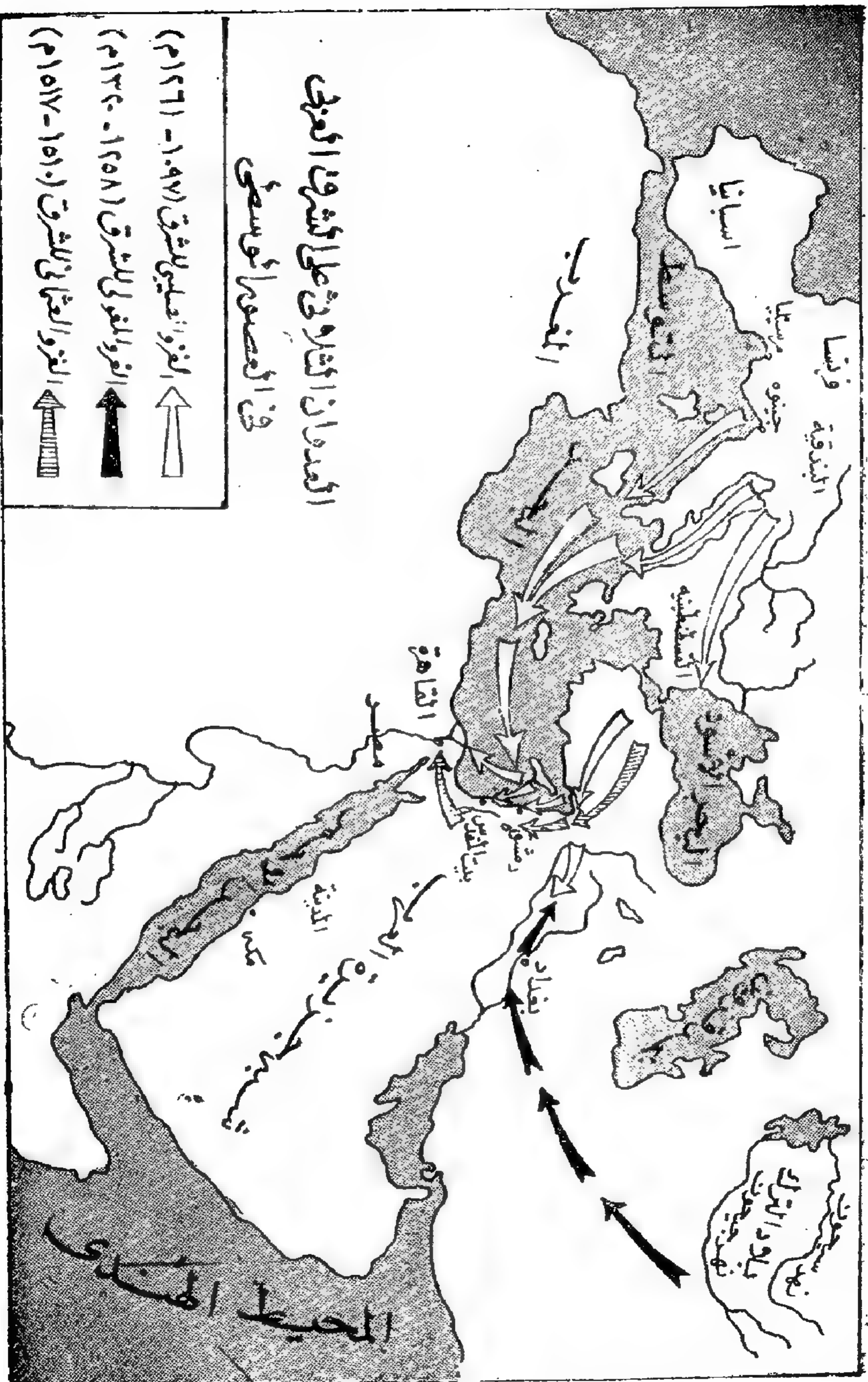


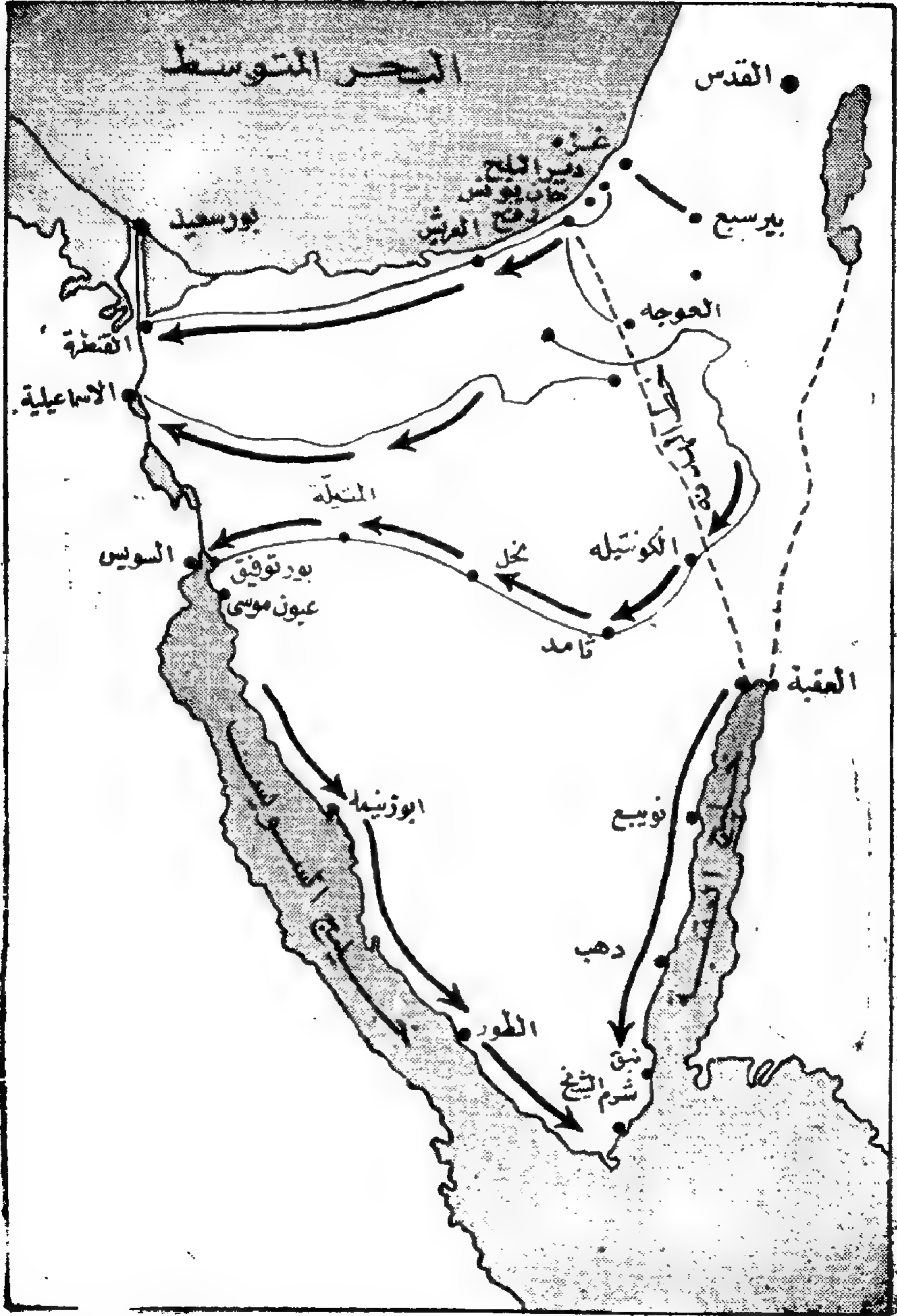
خريطة سياسية للشرق الأوسط
والقرن السابع الميلادي
الإمبراطورية البيزنطية
الدولة الساسانية
دولة الإحياس



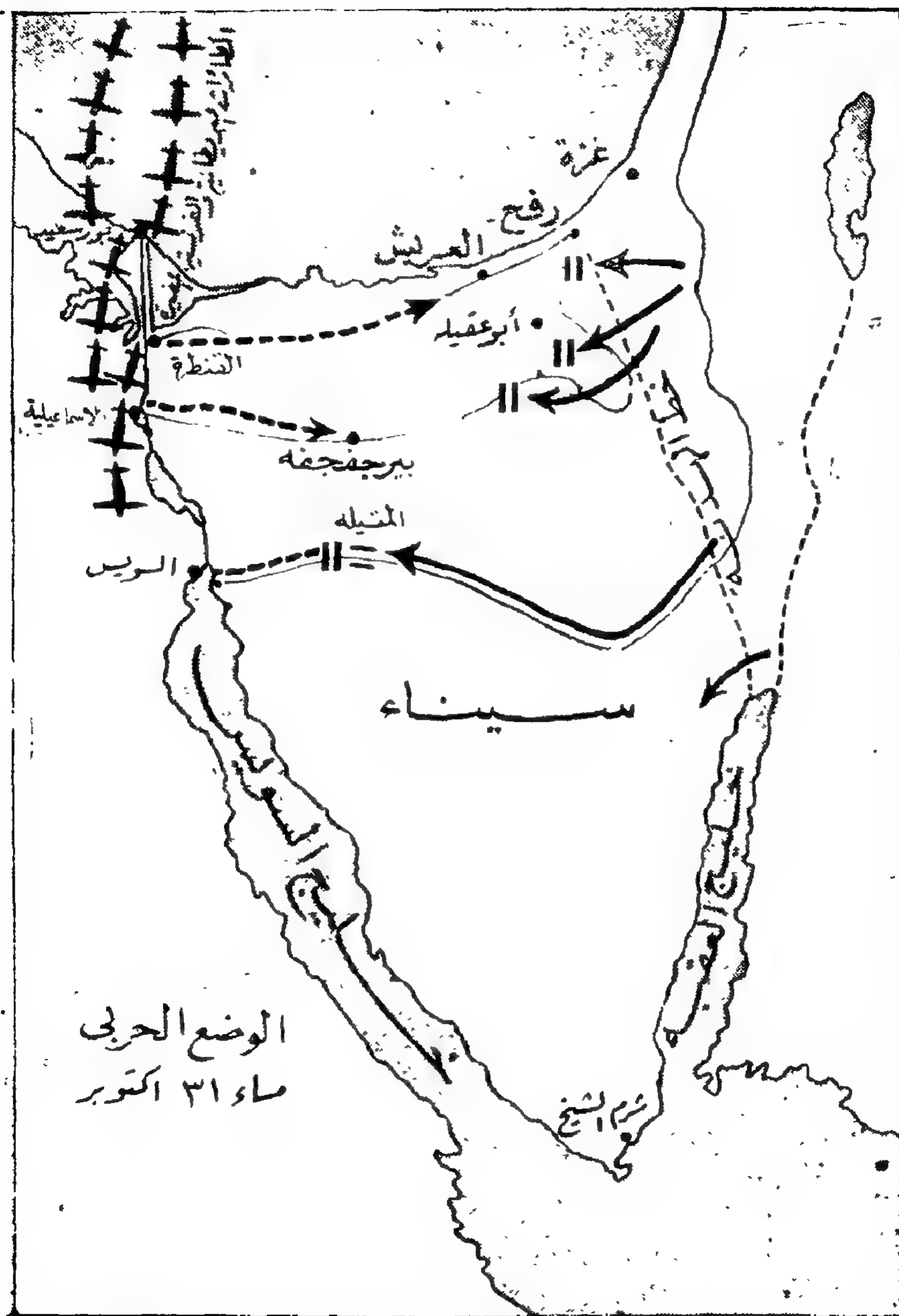
الشیخ الدوین العربی

في النصف الأول من القرن السابع الميلادي





بدء حرب سيناء ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦



الهجوم الإسرائيلي → إنجازات المصرية --- وقف الهجوم وسه

مراجع الكتاب

- ١ - مقالات عن الشرق الاوسط للسير آي. بولارد . فى مجلة الجمعية الملكية البريطانية للشئون الدولية . الطبعة الثالثة عام ١٩٥٨ .
- ٢ - موجز عن افريقيا الشمالية الغربية - نفيل باربر . اكسفورد . ١٩٥٩ .
- ٣ - العودة الى اناساة - الصراع من أجل فلسطين - الدكتور ويليام بولاك ودافيد ستالر وادوارد عصفور - بيكون ١٩٥٧ .
- ٤ - الحقيقة عن العالم العربى للمؤلف وترجمة المعرب - غولانكز . ١٦٩٠ - المكتب التجارى - بيروت .
- ٥ - فرق تخسر - ميشيل ايونيدس وترجمة المعرب - لندن ١٩٦٠ - دار الطليعة بيروت .
- ١ - منبر الشرق الاوسط - مجلة الجامعة الامريكية فى بيروت .
- ٧ - تطور مصر - مارسيل كولومب - باريس ١٩٥٠ .
- ٨ - خطب جمال عبد الناصر ١٩٥٨ ، ١٩٥٩ - مصلحة الاستعلامات - القاهرة .
- ٩ - مصر - لتوم ليتل - لندن ١٩٥٨ .
- ١٠ - ناصر مصر - ويلتون وين - ارلنفتون ١٩٥٩ .
- ١١ - مذكرات انطونى ايدن - الحلقة الكاملة - ترجمة المعرب لندن . ١٩٦٠ وبيروت ١٩٦٠ .
- ١٢ - أسرار السويس - أم . واسى . برومبيرغر - لندن ١٩٥٧ .
- ١٣ - البلاد الكثيرة الاهمية - جون كونيل لندن ١٩٥٧ .
- ١٤ - حملة سيناء . ادغار اوبالانس - فاير ١٩٥٩ .
- ١٥ - رجال مذنبون - أم . فوت وام . جوتز غولانكز لندن ١٩٥٧ .
- ١٦ - مائة ساعة الى السويس - روبرت هنريكس كولنيز لندن ١٩٥٧ .
- ١٧ - أزمة الشرق الاوسط - جى وثيت وبى كالفاكوريس بنغوين - لندن ١٩٥٧ .
- ١٨ - صحف الديلى اكسپرس والنيوز كرونيكل والمانشستر غارديان

والاوبزرفر . والنيتويورك تايمز ، وواشستون بوست ،
والاكسبريس الباريسية وفرانس اوبزرفاتور والاكونوميست ،
ومجلة تايم .

- ١٩ - أزمة الشرق الاوسط - الحكومة الكندية .
- ٢٠ - وثائق الامم المتحدة .
- ٢١ - وثائق مصلحة الاستعلامات - القاهرة .
- ٢٢ - الاصلاح الزراعى والانماء فى الشرق الاوسط - دورين وارنير
١٩٥٧ .
- ٢٣ - الاسلام والتقدم الحديث فى مصر - شارل ادامز لندن .
- ٢٤ - الشرق الاوسط - فيشر - ١٩٥٠
- ٢٥ - المجتمع الاسلامى والغرب - جيب وبوين - ١٩٥٠ .
- ٢٦ - البيروقراطية والمجتمع فى مصر الحديثة - مورو برغر - لندن
- ٢٧ - مصر فى منتصف القرن - شارل عيسناوى .
- ٢٨ - الاصلاح الزراعى فى مصر - سيد مرعى ن القاهرة ١٩٥٨ .
- ٢٩ - امراض قديمة وعلاجات جديدة - ايفا غرزوزى - دار المعارف -
القاهرة - ١٩٥٨ .
- ٣٠ - عائلة فى مصر - مارى راولات .
- ٣١ - الاقليات فى العالم العربى - البرت حورانى - اكسفورد ١٩٤٧ .
- ٣٢ - الدولة والاقتصاد فى الشرق الاوسط - الفريد بونيه .
- ٣٣ - القرية العراقية . (ب . مار) مجلة منبر الشرق الاوسط -
بيروت ١٩٥٩ .
- ٣٤ - الدول الافرو - اسيوية ومشاكلها . بانيكار اللين واونوين
١٩٥٩ .
- ٣٥ - عبرة فلسطين . موسى العلمى .
- ٣٦ - يقظة العرب - جورج انطونيوس - هاميش هاملتون لندن ١٩٥٥ .
- ٣٧ - نورى السعيد - اللورد بيردود - كاسيل - لندن ١٩٥٩ .
- ٣٨ - حياة جونسون - جيمس بوزويل - اوكسفورد ١٩٢٧ .
- ٣٩ - تقرير سفير - شيستر باولز - غولانكز - لندن ١٩٥٤ .
- ٤٠ - ثورة العراق - كراكناكوس وترجمة العرب - لندن ١٩٥٩ وبيروت
١٩٦٠ .

٤١ - جندي مع العرب ، وبريطانيا والعرب - غلوب - لندن ١٩٥٧ و ١٩٥٩ .

- ٤٢ - ذكريات عن احتلال سوريا - دي كوجيه ١٩٠٠ .
- ٤٣ - الاردن والراين - ويليام غراهام - لندن ١٨٥٤ .
- ٤٤ - بريطانيا والعالم العربي - البرت حوراني لندن ١٩٤٦ .
- ٤٥ - خدوش في تفكيرنا - هارولد ايزاكس - نيويورك ١٩٥٨ .
- ٤٦ - على جانبي التل - جون وديفيد كيمشي - سسيكر - ١٩٦٠ .
- ٤٧ - ثورة في الصحراء - لورانس ١٩٢٧ .
- ٤٨ - يوميات الشرق الاوسط - ماسيزنز هاغن لندن ١٩٦٠ .
- ٤٩ - انجلترا في مصر - ميلز - لندن ١٩٢٠ .
- ٥٠ - سوق السلاجقة - جيمس موريس - فابر لندن ١٩٥٧ .
- ٥١ - فلسفة الثورة - جمال عبد الناصر القاهرة ١٩٥٥ .
- ٥٢ - اكتشاف الهند - جواهر لال نهرو - جون دي - نيويورك ١٩٤٦ .
- ٥٣ - آسيا والسيطرة الغربية - بانيكار التين واوتوي لندن ١٩٥٣ .
- ٥٤ - تقرير عن أمريكا - روبرت بين - جون دي نيويورك ١٩٤٩ .
- ٥٥ - أربعون سنة في الصحراء - سنت جون فيلبس - روبرت هيل - لندن ١٩٥٧ .
- ٥٦ - الحروب الصليبية - ستيفان رالشممان - كمبردج ١٩٥١-١٩٥٤ .
- ٥٧ - ثورة على النيل - أنور السادات - وينغيت لندن - ١٩٥٧ .
- ٥٨ - الوحدة العربية - فائز صائع - ديفين - ادير - نيويورك ١٩٥٨ .
- ٥٩ - مصر الفتاة - ديز موند ستيوارت - دينغيت - لندن ١٩٥٨ .
- ١٠ - القديس يزحف - هالام تنيسون - غولانكز ١٩٥٥ .
- ٦١ - مع لورانس في البلاد العربية - لويك توماس - لندن .
- ٦٢ - قصص من كل مكان - انطوني ترولوب - شابمان وهول - لندن ١٨٦٣ .
- ٦٣ - الابرياء في الخارج - مارك توين شاتو وونيدس - لندن ١٨٨١ .
- ٦٤ - التجربة والخطأ - وايز من - هاميش هاميلتون - لندن ١٩٤٩ .
- وعدد من المقالات والانباء اليومية والتقارير الرسمية .

فهرس

٣	تقدمة المغرب
٧	الاهداء
٩	مقدمة المؤلف
١٥	الطريق الى السويس
١٧	١ - الفكرة الغربية عن العرب
٢٧	٢ - الصورة العربية عند الغرب
٥٣	٣ - النظام القديم (١٩٢٢ - ١٩٥٢)
٦٩	٤ - الجيل الجديد
٨٧	٥ - ثورة جيل
٩٩	٦ - نهاية أو بداية
١١٤	٧ - هبوط مع المنحدر الى السويس
١٤١	٨ - قروض السد العالي
١٦١	٩ - اربع طرق الى السويس
١٨٢	١٠ - التسوية السلمية
٢١٧	١١ - الحرب الثلاثية
٢٧٥	١٢ - حرب سيناء
٢٩٢	١٣ - الى النقطة التي لاردة عنها
٣٢٠	١٤ - الوحدة العربية
٣٦٣	١٥ - الثورة الداخلية
٣٨٦	١٦ الخاتمة
٣٩١	تعقيب لا بد منه
٣٩٢	ملحق (أ)
٤٠٠	ملحق (ب)
٤٠٥	الخرائط
٤١٣	مراجع الكتاب

هيئة قناة السويس

الحمولة الصافية •

حققت الحمولة الصافية للسفن التي عبرت القناة خلال أغسطس الحالي زيادة قدرها ١١٥٥٠٠٠ طن أى بنسبة ٧٢٪ مقارنة بمثيلتها فى أغسطس سنة ١٩٦١ . فقد بلغ مجموع الحمولة الصافية خلال الشهر الحالى ١٧١٥٤٠٠٠ طن مقابل ١٥٩٩٩٠٠٠ طن فى أغسطس الماضى •

وبالنسبة لمتوسط الحمولة الصافية للسفينة فقد زاد من ١٠٧١٦ طنا فى أغسطس ١٩٦١ الى ١٠٩٤٠ طنا فى أغسطس ١٩٦٢ •

وبتقسيم الحمولة الصافية طبقا لاتجاهى العبور يتضح أنها قد زادت بالنسبة للسفن المتجهة جنوبا بمقدار ٤٣٤٠٠٠ طن أى بنسبة ٥٤٪ (٨٤٤٩٠٠٠ مقابل ٨٠١٥٠٠٠ طن) كما زادت بالنسبة للسفن المتجهة شمالا بمقدار ٧٢١٠٠٠ طن أى بنسبة ٩٪ (٨٧٠٥٠٠٠ مقابل ٧٩٨٤٠٠٠ طن) •

وبتقسيم الحمولة الصافية بين السفن المحملة والفارغة والحربية مقارنة بمثيلاتها فى أغسطس ١٩٦١ يتضح أنها قد زادت أو نقصت بالمقادير الموضحة قرين كل منها كما يلى :

السفن المحملة	+	٥٥٨٠٠٠	طن
السفن الفارغة	+	٦٠٨٠٠٠	طن
السفن الحربية	-	١١٠٠٠	طن
المجموع	+	١١٥٥٠٠٠	طن

هيئة قناة السويس

حركة الناقلات

سجلت الناقلات العابرة خلال أغسطس الحالى (١٩٦٢) زيادة عددية قدرها ٦٦ ناقلة أى بنسبة ٨٦٪ مقارنة بتلك العابرة فى أغسطس الماضى اذ بلغ عدد ما عبر منها خلال شهر أغسطس سنة ١٩٦٢ ، ٨٣٣ ناقلة ، مقابل ٧٦٧ ناقلة فى أغسطس من العام الماضى .

وطبقا لاتجاهى العبور فقد زاد عدد الناقلات العابرة من الشمال بمقدار ٣٦ ناقلة (٤١١ ناقلة مقابل ٣٧٥ ناقلة) ويرجع هذا الى الناقلات الفارغة التى زادت عدديا بمقدار ٣٧ ناقلة (٣٨٢ مقابل ٣٤٥) بينما نقصت الناقلات المحملة بمقدار ناقلة واحدة (٢٩ مقابل ٣٠) أما الناقلات العابرة من الجنوب فقد زادت بمقدار ٣٠ ناقلة (٤٢٢ مقابل ٣٩٢ ناقلة) وقد حققت تلك الزيادة الناقلات المحملة (٤١٢ مقابل ٣٨٢) بينما لم يحدث أى تغيير فى الناقلات الفارغة (١٠ ناقلات فى كلا الشهرين) .

وزادت الحمولة الصافية للناقلات العابرة خلال الشهر الحالى مقارنة بما عبر خلال أغسطس من العام الماضى ١.٦٣.٠٠٠ طن أى بنسبة ٩ ، ٢ ٪ (١٢٦٧٣.٠٠٠ طن مقابل ١١٦١٠.٠٠٠ طن) وتمثل الحمولة الصافية للناقلات نسبة قدرها ٧٤٪ من مجموع الحمولة الصافية للسفن العابرة خلال أغسطس ١٩٦٢ وكانت هذه النسبة ٧٣٪ فى أغسطس سنة ١٩٦١ .

وبلغ متوسط كميات المواد البترولية المنقولة على كل ناقلة محملة ٢٧١٢٧ طنا فى أغسطس ١٩٦٢ مقابل ٢٦٤٤٠ طنا فى أغسطس ١٩٦١ .

كما بلغ متوسط الحمولة الصافية للناقلة ١٥٢١٤ طنا فى أغسطس ١٩٦٢ مقابل ١٥١٣٧ طنا فى أغسطس ١٩٦١ .



الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبّيد - روض الفرج

تلفون { ٤٠٧٥٣ / ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤ }



الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عتيق - روض الفرج

تلفون } ٤٠٧٥٣ / ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤



Bibliotheca Alexandrina



0656753

الثلث ٢٥ قرش

العدد ٢٩٦